كليات رسائل النور

٦

المثنوي العربي النوري

تأليف

بديع الزمان سعيد النورسي

إحسان قاسم الصالحي

ترجمة كتاب

Mesnevi i Nuriye

عن التركية

الترقيم الدولي: ISBN: 977 - 00 - 7972 - 3

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/١٠٥٢٢

- الطبعة الأولىٰ (بمصر).
- ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- النشر والتوزيع: «دار سوزلر للنشر» ـ فرع القاهرة.
- عنوان فرع القاهرة: ١٠ شارع يوسف عباس ـ مدينة التوفيق ـ مدينة نصر ـ تليفون: ٢٦٣٦٦٨٤.



كليات رسائل النور

٦

المثنوي العربي النوري

بديع الزمان سعيد النورسي

تحقيق

إحسان قاسم الصالحي

بسم اللہ الرحمن الرحیم

تقديم

العالم الفاضل محمد فتح الله گولن

ترجمة: أورخان محمد علي

إنني سعيد جداً لإتاحة الفرصة لي لكتابة كلمة تعريف لـ «**المثنوي العربي النوري**» الذي الفه بديع الزمان سعيد النورسي. فمن الواجب دراسة هذه الشخصية السامقة دراسة جدية وواسعة وتعريفها وتقديمها إلى الإنسانية جمعاء. ذلك لأن «**بديع الزمان سعيد النورسي**» يقف في مقدمة صفوف مفكري هذا القرن وهو من الذين قدموا، بشكل مؤثر ونقي ودون شوائب، العقيدةَ التي يعتنقها العالم الإسلامي وحياته الروحية العريضة، ومعاييره المعنوية الواسعة. ونحن لا نعتقد بأننا نستطيع فهمه أو فهم أفكاره إن اقتربنا منه ومن أفكاره بشكل عاطفي، فمثل هذا الأسلوب لن يكون أسلوباً جدياً في فهم المسائل التي طرحها والتي دافع عنها طوال حياته دفاع الأبطال، فقد كان طوال حياته إنساناً يعيش تحت ظل الكتاب والسنة ويحلق بأجنحة المنطق والتجربة، مع عمق عالمه العاطفي، وقلبه المشبوب بالعشق الإلهي فقد ظل على الدوام رجل عقل ومنطق.

لقد قيل وكتب الشيء الكثير حتى الآن عن سمو أفكاره وعن فهمه لطبيعة عصره، وبساطته وروحه الإنسانية الواسعة، وعن وفائه وارتباطه بأصدقائه وعن عفته وتواضعه وزهده واستغنائه عن الجميع. ويمكننا أن نقول بأن كل وصف من هذه الأوصاف المذكورة أعلاه يمكن أن يكون موضوع كتاب مستقل، وهي أوصاف كثيراً ما اهتم بها في كتبه وأكد عليها. ثم إن هناك العديد من الشهود الأحياء وهم طلابه الذين سعدوا بالعيش بقربه وتعرفوا على عمق عالمه الروحي وسعته.

ومع أن مظهره الخارجي كان متواضعاً جداً وفي غاية البساطة؛ إلا أنه كان صاحب تفكير عميق وصاحب حركة نشطة وقوية قل نظيره. فقد قام باحتضان الإنسانية كلها متناولاً مشاكلها الحيوية، ومتحدياً الكفر والضلال ومعلناً الحرب على الاستبداد وعلى

الدكتاتورية، مسترخصاً روحه في سبيل وفائه وخلقه الشجاع، وكان استقباله الموت ببشاشة وبابتسام سلوكًا اعتياديًا عنده.

وبجانب مشاعره الإنسانية الغنية فقد بقي في دعوته مرتبطًا بالكتاب والسنة مع الأخذ برقبة العقل والمنطق؛ لذا فقد تجلى في مظهره وسلوكه جانبان:

جانب العاطفة المشبوبة إلى درجة الوجد والعشق وصفة الرجولة والشجاعة.. ثم جانب رجل الفكر صاحب العقلية الفذة الذي يسبق معاصريه بنظراته الثاقبة وبخططه ومشاريعه الكبيرة.

إن فهم سعيد النورسي وفهم دعوته من هذه الزاوية يفيدنا في فهم معنى العصر الذي نعيش فيه.

وعلى الرغم من قيام البعض بتناسي هذا فإن الحقيقة هي: أن سعيد النورسي عُد من أفضل منكري وكتاب جيله وعصره، واستطاع أن يكون قائداً للجماهير ومتحدثًا باسمها، ولكنه لم يُعجب بنفسه، ولم يهتم بالمظاهر، وبذل كل جهوده للابتعاد عن الشهرة والصيت؛ لذا فالقول المأثور عنه: (الشهرة عين الرياء، وموت للقلب) ليس إلا حكمة ذهبية واحدة من بين حكمه العديدة في هذا الموضوع.

لقد استطاع سعيد النورسي أن يكون - مع بضعة آخرين - في رأس قائمة الكُتاب والمفكرين في طول العالم الإسلامي وعرضه في القرن العشرين، وأن تكون كتبه مقروءة بشوق وبحب من قبل مختلف المستويات وأن يكون من الشخصيات التاريخية التي لا تبلى مع الزمن ولا تُنسى مع الأيام.

إن جميع كتب بديع الزمان ومؤلفاته محصول لجهد فكري كبير في تفسير وتناول بعض الأمور - المفتوحة للتفسير - من زاوية العصر الذي ولد فيه. وتستطيع أن تقرأ وتسمع في كتبه صرخات ألم الأناضول والعالم الإسلامي وأنينهما وكذلك أصوات البشائر وزغاريد أمل الأناضول والعالم الإسلامي... صحيح أنه ولد في قرية نائية من قرى إحدى الولايات الشرقية في تركيا إلا أنه أحس دائماً أنه ابن الأناضول، وأحس بنبض مشاعرنا كابن مرموق من أبناء اسطنبول، ولكنه في جميع الأحوال كان يضم

البلاد كلها إلى صدره بكل حنان وعطف ومحبة.

عاش بديع الزمن في فترة عاصفة سادت فيها الفلسفة المادية وانتشرت فيها الشيوعية انتشار النار في الهشيم.. فترة ادلهمت فيها الخطوب وحَلُكَ فيها الظلام.. في هذه الفترة العصيبة قام بديع الزمان بكتبه ومؤلفاته ينفخ روح الأمل والإيمان في إنسان عصرنا المضطرب، وبإرشاده إلى طرق الإيمان والأمل. ونفخ في الجماهير في كل مكان زاره روح البعث بعد الموت والحركة بعد الجمود.

لقد رأى بثاقب بصره أن أهم مشكلة يجب تناولها وحلها هي مشكلة الفوضى النابعة من الكفر والإلحاد، لذا قضى حياته كلها وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء، وصرف جهداً يفوق طاقة البشر في هذا الخصوص، فقد كان على وعي كامل بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في هذا العالم الذي وجده يتلوى أمامه من آلام الأزمات الخانقة والمشاكل المزمنة.. وعندما تصدى لحمل هذا العبء الذي تشفق الجبال من حمله، وتصدى لذلك بكل تواضع وحياء، ولكن بكل ثقة وبكل اطمئنان أيضاً بقدرة الله المطلقة وغناه اللامحدود.

أجل!... لقد عاش في الوقت الذي أصبح فيه العلم والفلسفة أداة لدفع الناس نحو الإلحاد، وفي الوقت الذي تم فيه غسل الأدمغة بالشيوعية، والذي كان ينفىٰ فيه ويُهجَر من يرفع صوته ضد هذه السلبيات، من مدينة لمدينة ومن بلدة إلى أخرى، إذ عاش الوطن فترة تهجير مخجلة. والأغرب من هذا أن كل هذه العمليات كانت تحدث باسم المدنية والمعاصرة.. في أثناء تلك الأيام السوداء التي انقلبت فيها المفاهيم حتى أصبحت الحركة الفوضوية حركة واسعة منتشرة تحمل سحراً وجاذبية.. في تلك الأيام انتصب بديع الزمان أمامنا يسلط الضوء على دخائل أنفسنا وكأنه طبيب حاذق.. يُرينا سجون أنفسنا.. وأغلال أرواحنا.. جرائمنا وجناياتنا.. قيامنا بأسر أنفسنا بأنفسنا.. يسلط الضوء على الجوانب الإنسانية الهامدة في أعماق أرواحنا وفي عوالم ضمائرنا.. فأثار في قلوبنا الشوق إلى السمو وبعث فيها نبض الحياة ودفق الأمل.. وأوضح أمام جميع الأنظار أن في أعماقنا علاقة وصلة مع العوالم الأخرى وارتباطاً بها، ووهب لنا كل ثمرات المدارس والتكايا والزوايا وحلقات العلم والدراسة.

أجل! ففي عهد كانت الأمة فيه تتقلب ألماً من السقوط ومن الضحالة الفكرية، والتي أصبحت فيه الآلام الاجتماعية عقدة مستعصية وظهرت كل يوم مئات من الحوادث المفزعة في كل ناحية من أنحاء البلاد، وتهدمت كل المعايير والمفاهيم الإسلامية والملية وأصبحت أنقاضاً فوق أنقاض.. في مثل هذا العهد المظلم العاصف كان بديع الزمان يفكر ويبحث عن الحلول ويشخص الأمراض ثم يكتب الوصفات لها كأي طبيب حاذق. لقد رأى الأجيال البائسة وهي تئن تحت ثقف ثقل البلايا الهائلة التي أفرزتها الأعوام الطويلة المظلمة، وكيف أنها تاهت وضلت سبيلها في أودية الضلالة ودروب الإلحاد. وكيف أنها كلما أرادت الخلاص والنجاة انغرست في أزمات أسوأ وغرقت في مشاكل أفظع.. رأى هذا وأحس بآلام هذه الأجيال في أعماق روحه، فعاش حياته وهو في انفعال وفوران روحي يفكر ويبحث على الدوام ليقدم حلولاً بديلة للدولة وللمجتمع، وينبه هذه الأمة البائسة ويذكّرها، أنها وإن كان الآن تعيسة الحظ إلا انها أمة عريقة في المجد وغنية بالبطولات.

قام بديع الزمان منذ عهد الدولة العثمانية بالتجوال في معظم أرجاء البلاد.. من مدنها الكبيرة إلى قراها الصغيرة.. ومن المناطق المزدحمة بالسكان إلى المناطق النائية.. رأى الجهل ضارباً أطنابه في كل مكان، ورأى الناس يتجرعون آلام الفقر.. رآهم شيعاً وأحزاباً يأكل بعضهم بعضاً.. ارتعش فزعاً مما رآه، ولأنه كان رجل فكر ونظر ثاقب أدرك طبيعة عصره وفهمها بعمق، لذا حاول ان يبث في الجماهير آنذاك روح العلم، واهتم بأسباب المشاكل الاقتصادية وعوامل الفقر والحاجة، وبحث عن حلول لأسباب فرقة أمتنا وعن علاج لخلافاتها، وأكد دائماً على ضرورة الوحدة والاتفاق، وكان مع هذه الأمة على الدوام، ولم يدعها وحيدة في تلك الأيام العصيبة لحظة واحدة، وفي كل مكان وطئته قدماه كان يهتف بملء فيه: «إن لم تعالج الآن هذه المشاكل المتداخلة بعضها في البعض الآخر، وإن لم تُضمد هذه الجروح بأيد متخصصة ماهرة، فإن أمراضنا ستزمن وتستعصي على العلاج، لذا لا بد من تشخيص كل مشاكلنا العلمية والاجتماعية والإدارية، وتحليل كل عللنا المادية والمعنوية لوصف العلاج الشافي لها، إذ لا بد من إيقاف هذه المشاكل وإنهاء هذه العلل التي تقوض بنيتنا وتهدد بقاءنا وتهز

قواعد وأسس وجودنا».

كان بديع الزمان يرى أن منبع جميع الشرور والسيئات آنذاك ـ كما هي الآن ـ هو الجهل والفقر والتشتت والاختلاف. أجل؟ لقد كان الجهل هو العامل الأول في الضائقات الاجتماعية والدافع الأول لبؤس الأمة. ونعني بالجهل هنا الجهل بالله وعدم معرفة النبي ﷺ وعدم المبالاة بالدين، وعدم مشاهدة قوانا المادية والمعنوية والتاريخية.. مثل هذا الجهل كان من أكبر المصائب والبلايا المسلطة على رؤوسنا، لذا صرف بديع الزمان عمره في محاربة هذه الجرثومة القاتلة، إذ رأى أنه ما لم تجهز الجماهير بالعلم والمعرفة، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم تجابه تيارات الأفكار المنحرفة فمن العبث الأمل في خلاص هذه الأمة.

...أجل! أليس الجهل هو السبب في انفصام الكون عن القرآن وانفصام القرآن عن الكون؟... انفصما فأصبح أحدهما يتيماً في سجون الأرواح المتعصبة التي لا تفهم أسرار الوجود ولا تدرك سر الأشياء والحوادث، وتحول الآخر إلى حالة فوضى في يد أجهل الجهال الذين يبحثون عن كل شيء في المادة ولا يرون غيرها، وانطمست أعينهم وعميت عن رؤية المعاني.. ثم ألم يكن الجهل هو السبب في انسحاق هذه الأمة تحت وطأة الفقر والحاجة على الرغم من أراضيها الخصبة وأنهارها الفياضة وسهولها ومراعيها؟ أليس الجهل هو الذي جعلنا فقراء معدمين ومدينين بديون قاصمة للظهر مع وجود كل هذه المعادن النفيسة غير المستغلة تحت الأرض في كل أرجاء بلادنا، ومع وجود كل أسباب الغنى والثروة سواء منها المدفونة تحت الأرض أو الموجودة منها فوق سطحها؟

أجل! فمنذ أعوام طويلة كانت هذه المصيبة التي أذلت أمتنا هي السبب في أن عمالنا وفلاحينا على الرغم من بذلهم كل طاقاتهم لا يحصلون على المقابل الحقيقي لجهودهم ولا على بركة هذا الشيء القليل في أيديهم وتمضي حياتهم في ضنك وفي ضيق ولا يعرفون طعماً للسعادة.

وكان من نتيجة هذا الجهل، وكذلك من نتيجة الفرقة ـ النابعة أيضاً من الجهل ـ أننا ابتلينا في أطراف عديدة من هذه الدنيا بصنوف من الظلم والذل والهوان والعلل، فسالت الدماء واغتصبت الأعراض، ومع ذلك فقد فشلنا ـ في هذه الدنيا التي تتقلب

فيها أوضاع التوازن الدولي ـ أن نخلص أنفسنا من قبضة الخلاف والانقسام والتشتت لكي نوقف هذه المآسي والفواجع، ولا نستطيع مدّ يد العون إلى العالم الإسلامي ولا نستطيع الارتفاع إلى مستوى العصر في حل مشاكله المستمرة في التفاقم والتي تجره إلى مهاوٍ خطرة ومزالق رهيبة. وبينما تتلوى الأمة جميعها في شباك هذه الأمراض والعلل المهلكة، نرى أن قسماً من الذين سكرت وثملت أرواحهم وانبهرت أبصارهم بتقدم الغرب المادي الظاهري بدلاً من ملء أدمغتهم بالعلوم وقلوبهم بالحقائق الدينية للوصول إلى الغنى المادي والمعنوي فإنهم فضلوا التعامي عن كل قيمنا الدينية والملية الحيوية التي هي مصادر قوتنا وعوامل منعتنا وتناسوها، وفضلوا السير في طريق التقليد الأعمى الذي يسلب الشعب وجماهير الأمة كل سجية دينية أو ملية، ومن كل وعي بالتاريخ ومن كل فضيلة وميزة خلقية. وفي نظري أن هذا الطريق الذي سُلك بهدف إنقاذ الأمة كان طريقًا خاطئًا وضاراً وفتح في صدر الأمة وروحها جروحًا لا تلتئم.

ففي الحالة الأولى عاش إنساننا لسنوات طويلة في كابوس مرعب، وفي الحالة الثانية خسرنا كل فضائلنا الملية وأصالتنا الروحية ومصادر قوتنا الدافعة.

تصدى بديع الزمان منذ بداية حياته وحتى انتقاله في مدينة «اورفة» إلى الرفيق الأعلى لكلا هذين الفريقين ولطرق سلوكهم ومعالجتهم للأمور، ولكل النتائج الوخيمة التى أفرزتها طرق المعالجة الخاطئة هذه، وفتح بمبضع الطبيب الجراح قيح وصديد قرن كامل، وشخّص المصائب والبلايا التي أنتجها هذا القيح وهذا الصديد، ثم أشار إلى الدواء الناجع والعلاج الشافي لينقذ إنسان هذه الأمة من السقوط والضياع. لقد ظل بديع الزمان أميناً طوال حياته لمبادئه هذه التي كرر بكل إخلاص وتفان ووفاء ذكرها وتقديمها على الدوام.

إن إدخال أفكار جديدة وترسيخها فى ذاكرة المجتمع وفي فكرها أمر شاق ومهمة صعبة كصعوبة قلع الأفكار والمبادئ والقيم المتوارثة ـ صحيحة كانت أم خاطئة ـ من الماضي التي ترسخت في داخل المجتمع حتى أصبحت تجري في عروقه مجرى الدم. ولا شك أن الجماهير بقيت تحت تأثير مثل هذه الأفكار المنتقلة إليها من الماضي ـ سواء أكانت هذه الأفكار صالحة أم طالحة ـ حيث أدّت هذه الأفكار والآراء دوراً مهمًا في

تشكيل حياتها الاجتماعية والفردية وتوجيهها، وأصبحت هذه الجماهير تشعر بالنفور من كل فكر لا يتماشى مع هذه الأفكار المعتادة ولا يتلاءم مع المشاعر والعواطف العامة وتحاول الابتعاد عنها. إن مثل هذا الشعور ومثل هذا التصرف يكون خاطئًا في بعض الأحيان. ذلك لأنه في حالة تبني الجماهير لأفكار خاطئة وعادات سيئة وتقاليد ضارة وتجذّر هذه الأفكار والعادات والتقاليد في بنيتها وتسللها إلى مختلف جوانب حياتها فإن من الضروري التصدي لهذه الأفكار المنحرفة والقناعات الخاطئة ومحاربتها وتصفيتها من الأذهان وتخليتها من القلوب وتحليتها بالخصال الحميدة لكي تستطيع الأمة السير بأمان وثقة نحو المستقبل.

لقد حمل بديع الزمان هذه الأفكار منذ شبابه المبكر، وعدّ إخفاء أي حقيقة في هذا الموضوع ـ مهما كانت صغيرة أو جزئية ـ خيانة لأمته ولأبناء أمته؛ لذا وقف أمام كل الأفكار وكل القرارات الخاطئة رافعًا يديه إلى أعلى مشيرًا بهما إشارة التحذير وهاتفًا بكل قوته: «احذروا!.. هذا طريق مسدود».

كانت فطرته حساسة جداً ضد ما يناقض القيم الدينية، مع نظرة بعيدة المدى وهمة عالية لا توجد إلا عند أولي العزم من الرجال. فصاحب قلب شجاع مثله، ما كان ليستطيع أن يقف ساكتًا وهو يشاهد اضمحلال أمة عريقة مجيدة وذوبانها، لذا لم يدخر وسعًا في توجيه الأنظار إلى عيوبنا كامة وإلى أعمق أسباب الهلاك والاضمحلال وأدقها؛ لتقوم الأمة بمحاسبة نفسها ومحاكمة ذاتها. لقد ذكّرها مرارًا وتكرارًا بعوامل الانقراض والفناء، وقدم إليها وَصْفات النجاة والخلاص دون أن يخفي عنها أمر الحقائق وأكثرها إيلامًا للنفس، ودون أن يتردد في هذا أي تردد، لذا فقد واجه القناعات الخاطئة والأفكار المتعفنة وناضل طوال حياته ضد كل الموانع التي تمنع انتشار أنوار الحقيقة.

في تلك الأيام الحالكة السواد التي لم يكن هناك من يتجرأ على التفوه بأي شيء حول الحقائق الدينية، قام هو بإيقاظ الجماهير التي أريد تخديرها وتنويمها فأعلن الحرب على الجهل والفقر والفرقة، وهز أركان الأوهام الكثيرة المختلفة التي أحاطت بالمجتمع، فكما أعلن حربًا ضروسًا ضد الإلحاد وإنكار الخالق، فقد أغرق الأباطيل والخرافات في تناقضاتها وسد الأبواب أمامها، وبشجاعة منقطعة النظير قام بتشريح مشاكلنا وعللنا

المزمنة منذ عدة عصور وقدم طرق علاجها والشفاء منها.

ولقد قام بعملية كيٍّ للرياء وللمظاهر الكاذبة المستشرية عندنا منذ ما يقارب مئتي سنة ذلك لأن «آخر الدواء الكيّ» وذكر أموراً جديدة وجدت صداها في النفوس بدءاً من رجال قصر السلطان وانتهاء إلى رؤساء العشائر في الولايات الشرقية، ومن منتسبي المشيخة الإسلامية إلى رئاسة أركان حرب القوات المسلحة، فشد أنظار جميع طبقات الشعب إليه، مع أنه كان يتجنب الظهور والشهرة بطبيعته، إلا أن طبيعة الأمور كانت تؤدي إلى هذه النتيجة.

نبه بديع الزمان جميع مستويات الشعب وطبقاته بأن عليها أولاً كسر أغلال روحها قبل أن تجرد السيف من الغمد للجهاد، وبشر الشباب ببعث جديد للحياة فدلهم على الطرق المؤدية للفكر الإسلامي. ومما لا شك فيه أنه كان يخشى من تمزق الوطن من الناحية الجغرافية وانقسامه وتقلصه خشية شديدة ولكه كان يخشى أكثر من العوامل التي تؤدي إلى هذه النتيجة المفجعة بضمور الأفكار وسفالة الروح والتقليد الأعمى للغرب.

دعا بديع الزمان إلى القراءة والمطالعة والتفكر وإلى السعي والحركة لينقذ أفراد الأمة من ضنك العزلة وليشكل مجتمعاً سليماً معافى وأمة متينة البنية، وأكد على التعليم الذي رآه ضرورة قصوى لرفع الوطن وإنسان هذا الوطن إلى الذروة التي أشار إليها.. فدعا إلى طبع الكتب ونشرها، وإلى نشر المعارف بكل أشكالها في كل مكان وإلى نشر التعليم والتربية؛ إذ كان يرى اشتراك المساجد والمدارس الدينية ومعسكرات الجنود والسجون وكافة مرافق المجتمع في تعبئة عامة للتعليم، فبالمعارف وحدها يمكن تحقيق الوحدة العقلية والفكرية، إذ كان يرى أن العقول إن لم تتآلف مع بعضها أولاً فلا يمكنها أن تقطع معاً شوطاً كبيراً في الطريق. ويجب أن تتحد الضمائر والمشاعر أولاً لكي تتحد القلوب والأيدي فيما بعد. والطريق إلى مثل هذه الوحدة يكون بتناول الحياة حسب مبادئ الدين وقيمه، وحسب الكتاب والسنة وطريق السلف الصالح واجتهادهم، على أن تفسر الأمور الجديدة والمستحدثة حسب إدراك العصر وضرورته.

أجل!... لا بد أن يتعرف الإنسان على ما جلبه العصر من المعاني والتفسيرات وأن

يؤسس السلام معها. فإن انزوينا وتقوقعنا على أنفسنا في الوقت الذي تنطلق فيه الدنيا في طريقها وفي سبيلها فإن هذا يعني الموت بالنسبة إليها. فمن أراد عيش الحياة الحالية فإن عليه أن يجد الطريقة التي يستطيع بها تأسيس التناغم والملائمة بين شلالات الحياة المنطلقة وبين إرادته وسعيه. وإلا فإن مقاومة تيار الكون العام لايؤدي إلا إلى تلف المقاوم وفنائه.

لو أن بديع الزمان حظي بدعم بضع مئات من المثقفين وهو ينشر رسائله في أرجاء البلاد ووجد منهم سنداً لأفكاره فلربما كنا من أغنى الأمم وأكثرها مدنية ومن أقدرها على حل المشاكل التي تعرض لها، ولكنا دخلنا المرحلة الحالية منذ ذلك الوقت، أي منذ بداية القرن العشرين؛ لما جابهتنا المشاكل الحالية العديدة. ومع كل هذا فنحن نحمل أملاً كبيراً، لأننا نرى أن الذين ينظرون إلى أمتنا وكأنها فقدت كل جذورها المعنوية هم على خطأ كبير.. صحيح أننا تأخرنا مثل غيرنا من الأمم الأخرى وضعفنا إذ ليس في وسع أحد إنكار هذا، ولكن ليس في وسع أحد أيضاً أن ينفي قدرتنا على النهوض ومتابعة التقدم مرة ثانية، فلقد بدت أنوار اليقظة والانتباه تلتمع في أرواحنا كامة بدلاً من روح الكسل والخمود، إذ بدأ دفء الحياة ونبض النشاط والحيوية يتسلل إلى أرواحنا التي كانت قد ضعفت نتيجة الميل إلى الكسل والإخلاد إلى الأرض، إذن فلا شك أن أيام الربيع المشرقة الخضراء على الأبواب. غير أننا في انتظار أبطال من أمثال «الخضر» ليفرش سجادة الصلاة في سفوحنا وأمثال «إلياس» لينشر شراعه نحو الآفاق البعيدة دون خوف أو وجل.. كان بديع الزمان معلّمًا في هذا الأمر.

يقال: «لا خيار للعبقرية» أن أن العبقري لا يقول: «ساعمل هذا ولا أعمل ذاك» ولا يصدر حكماً أن «نعمل كذا لأنه مفيد ولا نعمل ذلك لأنه ضار» ذلك لأن الشخص العبقري يملك موهبة إلهية وقوة دافعة ذاتية (لدنية) وشوقًا يستطيع بها معرفة كل الحاجات الظاهرة أو الباطنة، الروحية منها والاجتماعية وأن يحتضنها، ويتصدى بقوة وطاقة متعددة الأوجه التي خزنها في روحه لحمل عبء وظائف عديدة. فهو بهذه الأوصاف شخص خارق بطبيعته وفطرته. والذين دققوا شخصية بديع الزمان والكتب التي تركها وراءه يرون اجتماع جميع عناصر العبقرية وصفاتها فيه، فهو اعتباراً

من سنوات شبابه التي قدم فيها للناس كتبه الأولى التي تعد من أولى علامات عبقريته ووصولاً إلى كتب مرحلة النضوج والتكامل التي قضاها في المحاكم والسجون والمنفى.. في كل هذه الكتب نرى أنه حافظ على مستوى القمة والذروة، وتحدث دائماً حديث شخص عبقري ذي قابليات غير اعتيادية.

كان كتاب «المثنوي» من أوائل كتبه: لذا نجد جذور أفكاره هنا، فكل فكرة في هذا الكتاب ـ التي كانت مثل جنين أو برعم أو وريقة أو نبتة صغيرة أو قطرة من قطرات فكره النير ـ أصبحت فيما بعد نهراً متدفقاً وشلالاً هادراً أو بستاناً عبق الأرجاء بالورود، أو كغابة سامقة الأشجار ملتفة الأغصان والأوراق، حركت الجوانب الإيمانية والفكرية والمشاعر الرقيقة لأصدقائه وأثارتها، وقذفت في قلوب أعدائه الرعب والفزع.

من أوائل أنفاسه التي نفخها في أرواحنا فأثارتها وإلى قلوبنا فرسمت فيها معاني جديدة ملونة وبراقة وحفرت فيها خطوطاً مضيئة، نقدم بعض الأمثلة بمثابة قطرة من بحر أو لمعة من شمس أو مسحة من عالم الوجود انعكست في مشاعرنا ووجدت هناك صداها:

إن أكبر حقيقة في الدنيا، في رأي بديع الزمان ـ وفي رأى كل المفكرين المسلمين ـ هي حقيقة الإيمان وحقيقة التوحيد. فالوجود كله ـ في منظومة تفكير بديع الزمان ـ ليس إلا مثل آلة تسيج تنسج حقيقة التوحيد، وتنقش المعاني الإلهية نقشة نقشة وزخرفة زخرفة، وتنسج لوحات بديعة. إن الإحساس بكون هذه الحقيقة ذات ماهية شاملة تستوعب الغاية الإلهية وتتداخل ضمن أدق الفروع وأصغرها، وتفسيرها حسب المعرفة الإلهية، ليس إلا ظهور لحقيقة التوحيد، وهو مفهوم التوحيد لدى العامة قبل الدخول في التفاصيل المؤدية إلى اليقين.

أجل إن التوحيد توحيدان:

الأول: توحيد عامي يقول: «لا شريك له، ليست هذه الكائنات لغيره» فيمكن تداخل الغفلات بل الضلالات في أفكار صاحبه.

والثاني: توحيد حقيقي يقول: «هو الله وحده له الملك، وله الكون، له كل

شيء».

وأصحاب مثل هذا الإيمان يملكون عقيدة راسخة لا تهتز، إذ يرون صبغة الله سبحانه وتعالى في كل شيء، ويقرؤون ختمه على جبين كل شيء.

وقد تناول بديع الزمان هذا الموضوع فيما بعد بشكل مفصل في المقام الثاني من الكلمة العشرين، وقدمه في قالب وفي شكل درس توحيد كامل يشبع حاجة كل إنسان مهما كان مستواه الثقافي والعقلي.

ومن أهم المواضيع التي اهتم بها بديع الزمان هو شرحه: كيف أن الإيمان يُعد منشوراً يحلل الأبعاد الحقيقية لماهية الوجود والإنسان، فهو يرى أن الكون أصبح بفضل الإيمان كتاباً يمكن قراءته ومعرضاً يمكن مشاهدته، أما الإنسان فهو لب هذا العالم وجوهره حيث (تحولت حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العبثية والمهملية وملعبة التصادف إلى صيرورتها مكتوبات ربانية وصحائف آيات تكوينية ومرايا أسماء إلهية، حتى ترقى العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية.

وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية العاجزة الفقيرة الذليلة إلى أوج الخلافة، بقوة ضعفه، وقدرة عجزه، وسَوق فقره، وشوق فاقته، وشوكة عبوديته، وشعلة قلبه، وحشمة إيمان عقله، ثم انظر كيف صارت أسباب سقوطه من العجز والفقر والعقل أسباب سقوطه من العجز والفقر والعقل أسباب صعوده.

كما تم شرح هذا الموضع وتفصيله في النقطة الأولى والثانية في الكلمة الثالثة والعشرين من رسائل النور ليناسب فهم واستيعاب كل إنسان في مختلف المستويات.

ويرى بديع الزمان أيضاً بأن المسائل المتعلقة بحقيقة الإيمان وإن بدت مختلفة الواحدة عن الأخرى - إن نظرنا إليها من زوايا مختلفة - إلا أنها مرتبطة الواحدة بالأخرى ارتباطًا وثيقًا وهي بمثابة أوجه متعددة لحقيقة واحدة (اعلم! أن بين الإيمان بالله، والإيمان بالنبي، والإيمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازمًا قطعيًا وارتباطًا للتلازم في نفس الأمر بين وجود الالوهية وثبوت الرسالة ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة) وفي فترة رسائل النور الخصبة نرى في المسألة التاسعة للشعاع

الحادي عشر بحثًا أصيلاً ومهمًا جداً حول ترابط أركان الإيمان وتلازمها فيما بينها.

من أهم الملاحظات التي قدمها بديع الزمان هي أن من يعمل في ساحة الفلسفة والعلوم العقلية دون أن يفتح نوافذ نفسه على عالم الروح والقلب لن يكون إلا فيروسًا ينقل الأمراض، ولن يكون هو نفسه إلا علامة من علامات المرض والسقم.

(قد شاهدتُ ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي. فالأمراض المعنوية توصلُ إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولّد أمراضًا قلبية).

وإليكم تشخيصًا وملاحظة أصيلة وقيّمة أخرى لبديع الزمان. إذ يقول بأن مراعاة الأسباب مع كونها من ضمن مسؤوليات الإنسان إلا أن من الضلالة الواضحة والانحراف البين إعطاء تأثير حقيقي لها، فبعد مراعاة الأسباب يجب العلم بأن النتائج تأتي من قِبَلِ الله تعالى.

(إن التعلق بالأسباب سببُ الذلّة والإهانة. الا ترى أن الكلب قد اشتهر بعَشرِ صفات حسنة، حتى صارت صداقته ووفاؤه تُضربُ بهما الأمثال؟!.. فمن شأنه أن يكون بين الناس مباركًا. ففضلاً من المباركية ينزل على رأس المسكين من طرف الإنسان ضربةُ الإهانة بالتنجيس؛ مع أن الدجاجة والبقرة حتى السنّور، مما ليس فيهم حسّ شكران وصداقة في مقابلة إحسان البشر، تُشرَّف بين الناس بالمباركية. أقول ـ بشرط ألاّ ينكسر قلب الكلب ولا يصير غيبةً ـ إن سببه: أن الكلب بسبب مرض الحرص اهتم بالسبب الظاهري، بدرجة أغفلته بجهة عن المُنعم الحقيقي، فتوهَّم الواسطة مؤثرةً. فذاق جزاءَ غفلته بالتنجيس، فَتَطهّر.. وأكل ضرب الإهانة كفارة للغفلة، فانتبه! أما سائر الحيوانات المباركة فلا تعرف الوسائط ولا تقيم لها وزنًا، أو تقيم لها وزنًا خفيفًا. مثلاً: إن السنّور يتضرع حتى يأخذ الإحسان، فإذا أخذه فكأنه لا يعرفك ولا تعرفه. ولا يحس في نفسه شكرانًا لك. بل إنما يشكر المنعم الحقيقي بـ: يا رحيم.. يا رحيم.. يا رحيم.. فقط؛ إذ الفطرة تعرف صانعها وتعبده شعوريًا وغير شعوري..).

ثم نراه يتناول هذا الموضـوع من زاوية مختلفة في الغصن الأول من الكلمة الرابعة

والعشرين، وهو تناول لطيف يقدم لأفكارنا وعواطفنا ملاحظات مهمة.

من المواضيع التي وقف عندها الأستاذ بإصرار وباهتمام موضوع اتباع السنة النبوية السنية في جميع مسالك الحياة ومظاهرها، فهو - مثله في ذلك مثل جميع علماء أهل السنة والجماعة - يرى في الرسول ﷺ مرشداً لا يَضِل ولا يُضِل، ويرى في السنة النبوية الطريق الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة، لذا فهو يدعونا على الدوام للتمسك بها والعض عليها بالنواجذ.

أجل! إن كل رحلة حياة لم تسترشد بالسنة النبوية تشبه الوقوع في دوامة نهر، فمع أن الشخص الواقع فيها يبدو وكانه يسبح ويقطع مسافة إلا أنه في الحقيقة واقع في دوامة مهلكة (اعلم! أني شاهدت في سيري في الظلمات، السنن السنية نجوماً ومصابيح، كل سنة، وكل حدّ شرعي يتلمع بين ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضلة، وبالانحراف عن السنة يصير المرء لعبة الشياطين، ومركب الأوهام، ومعرض الأهوال، ومطية الأثقال - أمثال الجبال - التي تحملها السنةُ عنه لو اتبعها.

وشاهدت السنن كالحبال المتدلية من السماء من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها واعتمد على العقل الدائر بين الناس كمن يريد أن يبلغ أسباب السموات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمّق فرعون بـ «يا هامان ابن لي صرحاً»).

ومن آرائه الأصيلة فيما يتعلق بعلاقاتنا مع الدنيا وزاوية نظرتنا إليها هي عدم وجود ما يدعو إلى كرهها، بل يقول: إن من الواجب حبها حيث يورد الأسس التي يقيم عليها هذا الحب وهي: (أن الدنيا لها وجوه ثلاثة:

وجه: ينظر إلى أسماء الله.

ووجه: هو مزرعة الآخرة.. فهذان الوجهان حَسنان.

والوجه الثالث: الدنيا في ذاتها بالمعني الاسمي، مدار للهوسات الإنسانية ومطالب الحياة الفانية).

وبعد صفحات يتناول هذا الموضوع من زاوية أخرى ويعبر عنها بهذه

الكلمات: (يرجع إلى الحي من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجة مالكية الحي للحياة وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات راجعة إلى المحيي جل جلاله بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمه في جنته في الحياة الأخروية التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية وهكذا..

إذ كما أن الشخص الموظف لأن يجس ويضع أصبعه عند اللزوم على الأجهزة التي تتحرك بها السفينة العظيمة للسلطان، لا يرجع إليه من فوائد السفينة إلا بمقدرا علاقته وخدمته، أي من الألوف واحداً.. كذلك درجة تصرّف كل حي في سفينة وجوده، بل هناك يمكن أن يستحق من الألوف واحدً، لكن لا يستحق بالذات هنا من ملايين ملايين واحداً أيضاً.

وقناعة أخرى له.. فهو يقول إنه يجب عدم النظر إلى الأشخاص من وراء منظار مكبر أي عدم إعطاء صورة لأي إنسان أكبر من حقيقته، فهذا ظلم أولاً وخطوة أولى نحو الوثنية ثانياً، والمرء الذي يخطو هذه الخطوة الأولى قد لا يستطيع فيما بعد التراجع عنها (إن من أشد ظلم البشر إعطاء ثمرات مساعي الجماعة لشخص، وتوهم صدورها منه، فيتولد من هذا الظلم شرك خفيٌّ؛ إذ توهّم صدور محصّل كسب الجماعة، وأثر جُزئهم الاختياري من شخص، لا يمكن إلا بتصور ذلك الشخص ذا قدرة خارقة ترقت إلى درجة الإيجاد، وما آلهة اليونانيين والوثنيين، إلا تولد من أمثال هذه التصورات الظالمة الشيطانية..).

وتشخيص آخر له، إذ يقول: إن عداء الكفار للمسلمين هو من موجبات الكفر، وهذا العداء يرجع إلى عهود ما قبل التاريخ. لذا فليس في الإمكان إرضاء الكفار، أما الاستفادة منهم فمن رابع المستحيلات (إن الكفار لا سيما الأوربيون ولا سيما شياطين إنكلترة وأباليس الفرنس، أعداء ألدّاء، وخصماء معاندون أبداً للمسلمين وأهل القرآن.. بسر: أن القرآن حَكَم على مُنكِر القرآن والإسلام وعلى آبائهم وأجدادهم بالإعدام الأبدي، فهم محكومون بالإعدام أبداً، والحبس في جهنم سرمداً بنصوص ذلك القرآن الحكيم. فيا أهل القرآن كيف توالون من لا يمكن أن يوالوكم أو يحبوكم أبداً؟..).

ثم نراه يبدي لنا هذه الآراء في مواضيع متفرقة: إن الإيمان منبع سري للطاقة

والقوة، والذي يملك في يده هذا المنبع يستطيع حجز العوالم ويستطيع أن يسحر كل شيء ويربطه به.... أجل! (مَن كان لله تعالى كان له كل شيء، ومَن لم يكن له كان عليه كل شيء، والكون له بترك الكل له والإذعان بأن الكلّ مالُه.. وهو الذي فطرك بصورة أحاطت بك دوائرُ متداخلة من الحاجات وجهّزك في أصغرها التي نصف قطرها مدّ يدك باقتدار واختيار، وجهّزك في البواقي التي وسعت بعضها كما بين الأزل والأبد والفرش والعرش بالدعاء فقط.. وفي التنزيل ﴿**قُل مَا يَعبؤا بِكُم ربي لَولاَ دُعاؤكم**﴾ فالصبي ينادي أبويه فيما لا تصل يدهُ إليه؛ فالعبد يدعو ربَّه فيما عجز عنه).

إن فخر الكائنات وخاتم الرسل ﷺ هو أساس الوجود وخلاصته وخميرته، فليس هناك موضع في الكون يخلو من حقيقة نوره، فمثله كمثل نواة بذرة شجرة باسقة تضم كل خصائص تلك الشجرة. فنوره أساس للوجود ومرآة تجليات الأول والآخر. أجل! (إنه بينما ترى العالم كتابًا كبيراً ترى نور محمد «عليه الصلاة والسلام» مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه «عليه الصلاة والسلام» نواتها أولاً، وثمرتها ثانياً.. وبينما ترى العالم يلبس جسم الحيوان ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» روحه.. وبينما ترى العالم تحول إنسانًا كبيراً ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» عندليبه.. وبينما ترى العالم قصراً مزيناً عاليًا ذا سرادقات تتظاهر فيها شعشعة سلطنة سلطان الأزل وخوارق حشمته، ومحاسن تجليات جماله، ونقوش خوارق صنعته، إذًا ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» نظّاراً يرى لنفسه أولاً، ثم ينادي بيا أيها الناس تعالوا إلى هذه المناظر النزيهة، وحَيهلوا على ما لَكم فيه شيء من المحبة والحيرة والتنزه والتقدير، والتنور والتفكر وما لا يحد من المطالب العالية. ويريها الناس، ويشاهد ويشهّد لهم.. يتحير ويُحيّرهم.. يُحب ويُحبّبُ مالِكه إليهم.. يستضيء ويُضيء لهم.. يستفيض ويفيض عليهم..).

ويتناول الأساس الثالث للكلمة الحادية والثلاثين وكذلك الذيل الثاني للكلمة العاشرة هذا الموضوع القيم بعمق وبشكل غني وثري ويبسطها أمام أعين وبصائر قلوبنا.

والأستاذ بديع الزمان يرى أن ماهية طبيعة الإنسان لها وجهان: وجه صنم خادع

من جهة، ومنشور حافل بالأسرار يعكس الحقيقة اللانهائية وأثر صانعه وخالقه. أجل فالذي له استعداد معنوي وقابلية روحية، والذي استطاع أن يمسك بزاوية النظر الصحيحة يدرك أن الإنسان صنعة مزخرفة ومنشور بلوري وهو كتاب لا يضل قارئه، وخطيب بليغ ومنبع نور يضيء ما وراء أستار الأشياء ويكشفها. وهو يسوق ملاحظاته هذه بالكلمات التالية التي تبدو وكأنها أنشودة رائعة:

(إن هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما: «أنا» في الإنسان، و«الطبيعة» في العالم..

أما هذا، فرأيته مرآةً ظليًا حرفيًا. لكنْ نظر الإنسانُ إليه نظرًا اسميًا قصديًا بالأصالة، فتفرعن عليه وتَنَمرَّدَ.

وأما هذه، فرأيتها صنعة إلهيّة وصبغة رحمانية.. لكنْ نظرَ البشرُ إليها بنظر الغفلة فتحولت لهم «طبيعة» فتألّهت عند ماديِّيهم؛ فانشأت كفران النِعم المفضي إلى الكفر.

فللّه الشكر والحمد، وبتوفيق الأحد الصمد، وبفيض القرآن المجيد انتجت المجادلة قتل الطاغوتين وكسر الصنمين).

وفي عهد تكامل رسائل النور نجد هذا الموضوع الحافل بالأسرار مشروحًا بشكل مفصل وواسع وغني في المقصد الأول من الكلمة الثلاثين، وكذلك في اللمعة الثالثة والعشرين، حيث يهدم أركان فكرة عبادة الطبيعة ويقوضها من أساسها ويقتلعها من جذورها.

وفي منظومة فكر بديع الزمان نجد أن الذنوب والمعاصي عنده بمثابة المرشدين والدالين على طريق الكفر، ففي المواضع التي يكثر فيها هؤلاء يتجه شراع الفكر نحو الفسق وتحيط الأخطار بالإيمان. أجل! (إن في ماهية المعصية - لا سيما إذا استمرت وكثرت - بذر الكفر.. إذ المعصية تولد ألفةً معها وابتلاء بها، بل تصير داءً، دواؤها الدائمي نفسها، فيتعذر تركها، فيتمنى صاحبُها عدَم عقاب عليها، ويتحرى بلا شعور ما يدل على عدم العذاب، فتستمر هذه الحال حتى تنجر إلى إنكار العذاب وردّ دار العقاب).

وفي عهد توسع وتطور مؤلفاته نجد هذا الموضوع في النكتة الأولى من اللمعة الثانية حيث يقول بأن المعاصي تشكل مصائد وشباك طريق الكفر.. وهذه ملاحظة أصيلة في الحقيقة.

لقد كان لاشتغاله بالقرآن الكريم والتعمق في فهمه الشغل الشاغل لهذه العقلية النيرة، فاعتباراً من «إشارات الإعجاز» إلى «المثنوي» إلى الكلمات المختلفة في كتابه «الكلمات» ولا سيما الكلمة الخامسة والعشرون نراه يتنفس القرآن في كل كلمة ويأتي بتفاسير جديدة أصيلة وعميقة، ثم يعرض هذه المعاني الإلهية المستنزلة إلى مستوى المدارك الإنسانية أمام العيون الباحثة والقلوب الظمأى للحقائق فيثير وجداننا بأفكاره الذهبية التي تعكس ارتفاع هذه المعاني إلى ذروة المدارك الإنسانية (إنه جمع السلاسة الرائقة، والسلامة الفائقة، والتساند المتين، والتناسب الرصين، والتعاون بين الجمل وهيئاتها، والتجاوب بين الآيات ومقاصدها بشهادة على البيان وعلم المعاني مع إنه نزل في عشرين سنة منجماً لمواقع الحاجات نزولاً متفوقًا بتلائم كأنه نزل دفعةً.. ولأسباب نزول مختلفة متباينة مع كمال التساند، كأن السبب واحدٌ.. وجاء جوابًا لأسئلة مكررة متفاوتة، مع نهاية الامتزاج والاتحاد، كأن السؤال واحدٌ.. وجاء بيانًا لحادثات أحكام متعددة متغايرة، مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة.. ونزل متضمنًا لتنزلات إلهية في أساليب إفهام المخاطبين، لا سيما، المنزَل عليه «عليه السلام» بحالات في التلقي متنوعة متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأن الحالة واحدة.. وجاء متكلمًا متوجهًا إلى أصناف مخاطبين متعددة مبعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأن المخاطب واحد، بحيث يظن كل صنف كأنه المخاطب بالأصالة.. ونزل مهديًا وموصلاً لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد؛ تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي «التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة». فبسر امتلائه من التوحيد، التام وامتزج وانتظم واتحد.

ومن كان له عين في بصيرته، يرى في التنزيل عينًا ترى كل الكون، كصحيفة مبصرة واضحة.. وقد جاء مكرراً ليقرّر.. ومردّداً ليحقق قصصًا وأحكامًا. مع انه لا يُملُّ تكراره، ولا يُزيل عَودهُ ذَوْقَه ولا يُسئم تردادهُ، كلما كرّر حقّق وقرّر، بل ما كررته

تحلو وتفوح أنفاس الرحمه منه «إن المسك ما كررته يتضوّع». وكلما اسعدتَه استَلذّتَه؛ إن كان لك ذوق سليم بقلب غير سقيم. والسر فيه: إنه قُوتٌ وغذاءٌ للقلوب، وقوة وشفاء للأرواح والقوت لا يُملُّ تكراره.. فمألوفه آنس والذ، خلاف التفكه الذي لذتُه في تجدده، وسآمتهُ في تكرره).

ويصل تحليل هذا الموضوع في الكلمة الخامسة والعشرين إلى مرتبة جذابة وساحرة، فما كان هنا قطرة يصبح هناك بحراً واسعًا، وما كان هنا نبتة صغيرة يصبح هناك غابة كثيفة.

وبعد هذا التذكير القصير في «المثنوي».. بعد صفحات قليلة فقط نراه يعرض علينا موضوعًا قرآنيًا غاية في الروعة عرضًا معجزاً.

(إنك إذا استمعت القرآن فالبس لكلّ نغمة من نغماته المتطوِّرة على الحُجُب، والمتنوعة في المراتب الإرشادية، والمنصبغة بحسيات الوسائط، من جبرائيل عليه السلام إلى من تسمع منه، ما يناسبها.

فلك أن تَمُرَّ بسمعك من القارئ في مجلسك إلى الاستماع من النبيِّ ﷺ الذي يقرؤُه في ذروة شاهق النبوة في مجلس الأرض على أبنائها من بني آدم وغيرهم.

ولك أيضًا أن تستمع من جبرائيل وهو يخاطب النبيَّ في الأفق الأعلى «عليهما الصلاة والسلام».

ولك أن تستمع من خلف سبعين ألف حجاب من المتكلم الأزلي، وهو يتكلم مع النبي في قاب قوسين أو أدنى؛ فالبس إن استطعت لكل ما يليقُ به!...).

وكتاب «المثنوي» يعد في الحقيقة معرضًا لمواضيع واسعة جليلة، وفهرسًا لها.. يمكن أن يؤلف حول كل واحد منها كتابًا خاصًا.. هذه المواضيع التي تناولها بالشرح والتفصيل فيما بعد في رسائل النور في مختلف أجزائها.

فما أهم وما أعظم تلك الحقائق التي تناولها تحت عنوان «زهرة» باختصار وضمها فيهما بعد إلى رسائل النور!.

ورسالة «ذرة» تعد مثل نبتة صغيرة للتقوى والعمل الصالح. فهناك يتم استجواب

رغباتنا ومشاعرنا الدنيوية، وتُنفخ فكرة التوحيد لأذهاننا ويُعرض الإيمان الشامل المترامي الأطراف أمام الأنظار.

أما رسالة «**شمة**» فتمس القلوب مثل طيف رقيق، حيث تعرض أمام الأنظار. إن غنى الآيات وعمق معانيها لا يمكن مقارنتها بالشعر، وتقف أمام غايات خلق أعضاء الإنسان فيكشف بعض الأستار عن العيوب ويزيل الألفة التي تكدر البصائر وتضعفها.

وفي الرسالة العاشرة يأخذ بيدنا إلى سفوح معاني القضاء والقدر والعطاء الإلهي ليمس قلوبنا بمعاني الآيات القرآنية وأسرارها، ومن ثم يجد مقدمة لكي يعرض على الباحث عن الحقيقة اليوم طريقاً مختلفاً لكي يوصله إلى الحق.. يعرض هذا بينما هو يحول أنظارنا إلى أفق عجزنا وفقرنا. وبعد خطوتين فقط وتحت عنوان آخر يسترعي انتباهنا إلى أن الإنسان يختلف في خلقه عن جميع الأحياء الأخرى حيث يؤكد ويذكّر أنه فهرس للوجود بأجمه، ومن ثم نراه يعود إلى الأدعية التي تناولها بالتحليل فيما بعد في كليات رسائل النور مرات عديدة، فيفرج بين الأبواب السرية لقبول الأدعية والاستجابة لها في فيثير قلوبنا الرغبة والشوق للمناجاة. وفي موضع آخر نراه يقيم التوازن بين «التحدث بالنعمة» و«الغرور».

وبعنوان «**شعلة**» نسيح معه في المعاني الواسعة للفظ الجلالة «الله» الذي هو اسم ذات له، فيهز قلوبنا بانفعال معرفة ذات طعم آخر لم نتذوقها من قبل.

ثم سرعان ما يفتح فقرة حول الأدعية فينبه قُرّاءه بأن إيفاء الوظائف الدينية بهمة عالية يُعَدّ دعاءً فعلياً.

ثم يعود فيوجه الأنظار إلى أهمية التربة وكيف أن الدنيا تعد كقلب للعالم وينهي ملاحظاته بعد ذلك بشرح حديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وتحت عنوان «**نقطة**» يضيف الأستاذ بديع الزمان دليل الضمير الإنساني ـ الذي يعده نقطة تماسٍّ بين عالم الغيب وعالم الشهادة ـ إلى الأدلة الرئيسية الثلاثة حول الذات الإلهية التي كثيراً ما وقف عندها في رسائل النور، ففرج بذلك فرجة في باب وقف عنده الكثير من المفكرين وأرباب القلوب من المتصوفة وهم على درب السير في مدارج السلوك.

وهو يؤكد على استحالة التطور إذ ذكر منذ البداية أن الطفرات لا يمكن أن تفسر شيئاً ولا أن تكون كافية لأي تطور وذلك في وقت مبكر وقبل أن ينتبه الكثيرون إلى هذه الحقيقة، وذكر أن من المستحيل الانتقال من نوع إلى نوع آخر في عالم الأحياء؛ لذا فقد قال بشكل مجمل وبشكل مطلق: «لا» لنظرية التطور مستنداً في ذلك إلى أساس فكري سليم.

إن جهود الأستاذ المدقق (**إحسان قاسم الصالحي**) المشكورة في تهيئة الطبعة العربية للمثنوي ـ مثلما هيأ من قبل ترجمة كليات رسائل النور ـ فوق كل تقدير، وهي بلا شك أفضل بكثير من مثل هذه المقدمات التي حررناها والتي لا تخلو من العيوب والقصور.

والحقيقة أن الجهود المباركة للأستاذ إحسان قاسم لم تقتصر ـ كما فعلنا نحن ـ على جزء من كليات رسائل النور وبشكل مجمل، بل شملت كل رسائل النور.

وكان من المفروض أن تكون كل مسألة من المسائل التي عرضتها هذه الرسائل موضوعاً لرسالة دكتوراه تراعي كل الأسس العلمية الموجودة في المستويات الأكاديمية الغربية. وهذا الأمر مهم من ناحية ظهور القيمة الحقيقية لرسائل النور على المستوى الأكاديمي. وكذلك من ناحية كونها جهوداً في مستوى الجهود التي بذلها الأستاذ **إحسان قاسم**.

صحيح أن العديد من أصدقائنا الشباب قدموا دراسات وأطروحات ماجستير ودكتوراه حول رسائل النور؛ ولكن لم تكن أيًّا منها كافية لإعطاء القيمة الحقيقية لذلك العملاق بإبراز مستوى فكره الرفيع.

وكل ما نتمناه هو تأسيس معهد يأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة في أقرب فرصة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا محمد ومن والاه، وبعد..

ان مما دفعني الى القيام بتحقيق هذا الكتاب بهذا النمط من التحقيق المتواضع هو:

اولاً: حاجتي الماسة الى من يرشدني الى دروب النفس الامارة بالسوء، ويكشف لي عن دقائق مسالكها و خبايا دسائسها، ويضع امامي علاج امراضها المتنوعة، ومن ثم يأخذ بيدي الى منابع الايمان في رياض الكون الفسيح لأنهل منها ما أنهل حتى يرتوي القلب ويشبع العقل وتنبسط الروح.. بمعنى انني قمت بهذا التحقيق لنفسي قبل كل احد.

ثانياً: وجدت ان كثيراً من الباحثين والمفكرين يرومون الوصول الى اصول فكر الاستاذ النورسي، ويهمهم ان يوغلوا معه في اعماق تجاربه مع النفس، وان يرافقوه في سريان روحه في ارجاء الكائنات، ويعملوا فكرهم في ما نصبه من موازين علمية ومعايير منطقية ومناهج فطرية؛ فاردت ان اضع بين يدي هؤلاء الافاضل هذا السفر النفيس من مؤلفات الاستاذ الذي عدّه مشتل رسائل النور وغراسها حيث فيه خلاصة افكاره، بل ان اغلب ما ازهر من افكاره – في رسائل النور – بذوره كامنة في هذا الكتاب.

ولما كان الغوص في هذه الامواج الزاخرة من الافكار و الخواطر والمسائل و اخراج لآلئها الثمينة ودررها النفيسة ليس في طوقي، فاكتفيت بهذا التحقيق، ليجد اولئك الكرام بين يديهم نسخة كاملة من الكتاب، فيبذلوا فيه جهدهم لعل المولى القدير يقيض منهم من يضطلع للقيام بتلك المهمة التي اعجز عنها، فيسدّ جوعة الروح وهزال الفكر التي يعاني منها الكثيرون.. بمعنى انني قمت بهذا التحقيق لهؤلاء الاكارم.

ثالثاً: ان كل مسلم بل كل انسان يشعر في قرارة نفسه انه بحاجة الى تربية روحه و تزكية نفسه وتنمية عقله وتوسيع آفاق خياله، فتراه يتلمس مبتغاه من مظانه من الكتب.. فاردت ان اضع هذا الكتاب القيم امام كل مسلم، بل كل انسان ليرى نمطاً جديداً وفريداً من اساليب التزكية والتربية، قلما يجده في كتاب آخر؛ حيث انه يمزج ادق الموازين العقلية والمقاييس المنطقية بأرفع الاشواق القلبية واسطع التفجرات الروحية ضمن امثلة ملموسة تكاد لا تخفى على احد، آخذاً بيد القارئ برفق، متجولاً معه في ميادين النفس والافاق، مبيناً له ما توصل اليه من نتائج يقينية، بعد تجارب حقيقية خاض غمارها تحت ارشاد القرآن الكريم.. بمعنى انني اردت ان ابيّن بهذا التحقيق هذا المنهج القرآني الفريد لكل مسلم، بل لكل انسان.

قبل كل ذلك وبعده؛ فان قطرة من عمل خالص لوجه الله أعظم من بحر من الاعمال المشوبة، فأملي بالله عظيم ان يتقبل هذا التحقيق المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، واتضرع اليه تعالى ان يهئ في مقبل الايام من يوفي حق هذا الكتاب من الشرح والبيان ليعم النفع ويجزل الثواب.

* * *

ولقد سار التحقيق هذا وفق الخطوات الآتية:

١– المقابلة بين النسخ المتوفرة لديّ وهي:

أ– الطبعة الاولى من الكتاب، المطبوع في استانبول سنة ١٣٤٠ – ١٣٤١ هـ (١٩٢٢م) وقد رمزت اليها بـ (ط١)

ب – نسخة خطية «بالرونيو» بخط «احمد نظيف» احد طلبة الاستاذ النورسي، مصحح من قبل الاستاذ نفسه، حيث كتب في الختام دعاءً رقيقاً للكاتب و مساعديه.

ج – مخطوط بخط «جيلان چالشقان» الذي خدم الاستاذ النورسي وهو مازال شاباً ولازمه حتى وفاته. و المخطوط مصحح من قبل الاستاذ نفسه.

د – الطبعة الاخيرة من الكتاب، المطبوع في مطبعة النور سنة ١٩٨٥م في آنقرة، و تتميز هذه الطبعة بتصحيح كثير من أخطاء الطبعة الأولى، ولكن ما زالت فيها اخطاء مطبعية كثيرة، فعالجتُ تلك الاخطاء و اعتبرت هذه الطبعة هي المعول عليها في التحقيق.

هـ – الترجمة التركية للكتاب، وقد قام بها شقيق الاستاذ النورسي: الملا عبدالمجيد، وطبعتْها «دار سوزلر» في استانبول سنة ١٩٧٦ وقد رمزت اليها بـ (ت).

و– مخطوط الترجمة التركية بخط «علي الصغير» أحد طلبة الاستاذ والذي كان يلقّبه بـ «ذى الروح العظيمة» وقد سجل له دعاءً لطيفاً في الختام، والمخطوط هذا بالحروف العربية بخلاف المطبوع الذي هو بالحروف اللاتينية.

٢– وضع بعض الفقرات، وافادات المرام التي لا توجد الاّ في (ط١) في الهامش مع الاشارة الى مواضعها.

٣ – استخراج الآيات الكريمة من القرآن الكريم ووضع اسم السورة ورقم الآية.

٤ – تخريج الاحاديث الشريفة الواردة على الاغلب بالمعنىٰ، اعتماداً على كتب موثوقة وبمعاونة الاخ الكريم «فلاح عبدالرحمن» جزاه الله خيراً.

٥ – استخراج الامثال الواردة من كتاب «مجمع الامثال للميداني»

٦ – رسم املاء الكتاب حسب قواعد الاملاء الشائع اليوم، حيث كان رسم الاملاء في النسخ الاصلية والمطبوعة على الرسم القديم. مثل: الصلوة. الحيوة.

٧ – درج معانى بعض الكلمات في الهامش باختصار شديد؛ اذ قد صعب عليّ معاني بعض الكلمات، مما دفعني الى مراجعة قواميس اللغة وبخاصة: المحيط للفيروزابادي، ومختار الصحاح للرازي.

٨ – القيام بترجمة كل ما ورد في الكتاب بالتركية من عبارات وفقرات ورسائل. الخّصها بالآتي:

أ– مقدمة الكتاب، حيث قد كتبها الاستاذ النورسي سنة (١٩٥٤) اي بعد

ما يقارب اكثر من ثلاثين سنة على تأليفه، وقد قام أخوه عبد المجيد بترجمة هذه المقدمة الى اللغة العربية، فأعدتُ النظر فيها لتكون اكثر مشابهة بالنص.

ب – البيان الذي أُلقي في مجلس الامة التركي.

ج – رسالة «نقطة من نور معرفة الله جلّ جلاله» كاملة .

د– بعض الهوامش او المقدمات المقتضبة التي وردت، وقد وضعتها بين قوسين مركنين [ ] لتمييزها عن الاصل العربي.

اما الفقرات التي وردت في الكتاب باللغة الفارسية فقد تفضل بترجمتها مشكوراً الاخ الكريم (فاروق رسول يحيى) الذي وفقه الله تعالى بترجمة ونشر العديد من رسائل النور باللغة الكردية. وقد حصرنا هذه الفقرات المترجمة عن الفارسية بين قوسين مركنين مزدوجين [[ ]].

٩– الاشارة في الهوامش الى تلك المسائل التي وضّحها المؤلف – فيما بعد – في رسائل النور والتي وفقنا المولى الكريم الى ترجمتها.

١٠– توضيح بعض العبارات او الجمل في ضوء ما جاء في الترجمة التركية للكتاب والاشارة اليها بـ (ت ورقم الصفحة) في الهامش.

١١– تشكيل بعض الكلمات، ووضع علامات الترقيم لإزالة اللبس.

١٢– وضع تراجم لقسم من الاعلام الواردة في الكتاب.

١٣–تعريف بعض المصطلحات، مع ترك الكثير منها، حيث الكتاب نفسه كفيل بشرحه، وبخاصة اذا استعين «بالفهرس التحليلي».

١٤– وضع فهارس عامة و تحليلية للموضوعات والاعلام والاماكن وغيرها تسهيلاً للقارئ الكريم.

١٥ – واخيراً نشر رسالة «نور من انوار نجوم القرآن» لأول مرة بألحاقها بهذا المجلد «المثنوى» لشدة الترابط والتشابه في مباحثهما. وذلك بعد اجراء التحقيق على مخطوطها الوحيد المكتوب بخط «الحافظ توفيق الشامي» احد طلاب الاستاذ النورسى في منفاه «بارلا». علماً ان المخطوط صحح من قبل المؤلف.

* * *

وبعد القيام بهذه الخطوات وفي اثنائها، لفتت نظري مسائل نحوية لغوية لا تستقيم مع ما تعلمناه في دراستنا المدرسية. فألجأتني الى البحث عنها في بطون الكتب القديمة المعتمدة كالمغني والاشموني، والاستفسار عنها ممن لهم الباع الطويل في معرفة دقائق اللغة، فأرشدوني الى ما فيه الصواب، جزاهم الله خيراً، حتى أطمأن القلب الى ان ما كتبه الاستاذ النورسي هو الصحيح أو فيه الجواز. وأن ما ألفناه ودرسناه من قواعد اللغة لا يرقى ليكون محكاً في مثل هذه المسائل.

وأرى من الأفضل تلخيص عدد من تلك المسائل التي ربما تلفت نظر القارئ الكريم ايضاً مع أنها لا تخفى عليه . وهي:

١- ايثاره استعمال جمع العقلاء لغير العاقل؛ اشارة الى ان كل جزء من أجزاء العالم حيّ عاقل يسبّح لله، وعملاً بما في الآية الكريمة ﴿ **رأيتهمُ لي ساجدين** ﴾.

٢ - تغليب التذكير على التأنيث، ولا سيما في الافعال المتقدمة على الفاعل المؤنث المجازي بخلاف المتأخرة عن الفاعل.

٣ - استعماله الوجوه المختلفة للكلمات التي يجوز فيها التذكير والتأنيث، كالروح. وربما يستغرب القارئ من ايراد كلمة «النفس» أحياناً بصيغة التذكير، الاّ ان استغرابه يزول بمجرد قراءة العبارات التي تليها، حيث يجد ان المقصود منها «أنا» اي ذات الانسان.

وامثالها من الامور التي لم نألفها. ولا يخفى ان لهذه الوجوه تخريجاتها اللغوية وشواهدها التي تسندها الاّ اننا لم نوردها في مواضعها لئلا نشغل القارئ الكريم عن الهدف الاساس من الكتاب.

٥ - كلمة «الذات» الدالة على الله سبحانه ترد بصيغة التذكير فمثلاً: الذات الأقدس، اذ جعلها اسماً للحقيقة من كل شئ فزال عنه التأنيث.

٦- الاكثار من استعمال جمع المؤنث السالم، حتى في بعض الجموع، مثل: لوازمات، شؤونات، نواتات...

٧ - لقد تخللت الجمل كلمات تركية، استعملها الاستاذ لزيادة الايضاح - أو قالها اثناء التدريس - وهي موضوعة بين قوسين ( ) للتمييز، ويعقبها على الاغلب

معناها بالعربية. فمثلاً: ان هذا (التمل چوروك) الاساس فاسد.. او (شمندوفر) القطار.. (فابريقة) المعمل.

٨ - استعماله كلمة «غير» معرّفة بـ «أل» مما لا تُستعمل في الاسلوب الحديث(١) وقد بعث اليّ العالم الجليل «عمر الريشاوي» رسالة يوضح فيها هذه المسألة أدرج هنا ملخصها لإزالة اللبس:

(اننا اذا أردنا كلمة «غير» صفةً للمعرفة، فلا نملك سوى اختيار أحد الطريقين:

أ- تحليتها بـ «أل» لتصبح معرفة وتصلحُ بالتالي صفة للمعرفة كما هو مقرر نحوياً.

ب- أضافتها الى المعرفة.

ولما كان الطريق الثاني لا يحقق هدفنا، إذ باضافتها الى المعرفة لا تصبح معرفة، تعيّن اتخاذ الطريق الاول وهو تحليتها بـ «أل» ولا محيد عن ذلك، هذه من ناحية القواعد النحوية، واما من حيث الاستعمال، فتبدو ندرة استعمالها مع «أل» او لا نجدها الاّ في كلام المجدّدين.

والخلاصة: ان الكاتب او المتحدث يجب عليه رعاية احد الامرين:

اما رعاية ناحية الاستعمال واضافتها الى المعرفة وقبول التأويل؛ وهو ان هذه الكلمة عوملت معاملة المعرفة، كما في قوله تعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ و ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أُولي الضرر**﴾

واما مراعاة ناحية القواعد وهو تحليتها بـ «أل» لأن المقام - وهو كون الاسم صفة للمعرفة - يقتضي ذلك نحوياً).

ثم أبدى الاخ الكريم ملاحظة مهمة وهي:

اولاً: ان المشكلة التي اصبحت مثار البحث حالة واحدة وهي كون «غير» صفة للمعرفة، اما حالاته الاخرى: فاعلاً او مجروراً او مضافاً او صفة للنكرة او حالاً او بدلاً او غير ذلك من الحالات الاعرابية الاخرى فلا اتصور اية مشكلة فيها نحوية او استعمالية.

(١) وقد اشرنا الى هذا ايضاً في المجلد الخامس من كليات رسائل النور (اشارات الاعجاز) ص٣٥ فمن شاء فليراجعه.

ثانياً: قرر المجمع اللغوي المنعقد في القاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في شهر شباط ١٩٦٩ بقبول الرأي القائل:

« ان كلمة « غير » الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف اليه المعرفة. ويصحّ في هذه الصورة التي تقع بين متضادين، وليست مضافة ان تقترن بـ « أل » فتستفيد التعريف »..) اهـ..

* * *

وربّ سؤال يرد للخاطر:

لماذا ألّف الاستاذ النورسي هذه الرسائل باللغة العربية، والمخاطبون لا يتقنونها، علماً انه كتب « رسائل النور » بالتركية؟.

فالجواب – والله أعلم –:

ان اللغة العربية كانت هي لغة العلم في تلك الفترة (اي الى منتصف العشرينات) وقبل استبدال الحروف العربية، رغم ان المحادثات الجارية بين الناس كانت بالتركية..

ثم ان هذه الرسائل العربية بحد ذاتها: أصول و قواعد، و مناهج، و موازين مستلهمة من نور القران الكريم، خاطب بها الاستاذ النورسي نفسَه أولاً، وألزمها الحجة حتى ارغمها على التسليم، فهي أعلم بلغته و تعابيره. ومما يثبت ما نذهب اليه هو ان الاستاذ النورسي قد صبّ هذه المعاني ووسّع منها وكشف عن دقائقها في الرسائل التي الّفها بالتركية – فيما بعد ١٩٢٧م – تلك هي رسائل النور التي غدت موضع استفادة العالم و المتعلم و الكبير والصغير. فادّت مهمتها المرجوة في حفظ الايمان تجاه تيار الكفر والطغيان.

أما ما يرد من سؤال حول تسمية الكتاب. اي: لماذا سّماه الاستاذ المؤلف بـ « المثنوي » الذي يعني في الشعر ابيات مثنىٰ مثنىٰ، علماً ان الكتاب ليس ديواناً للشعر؟.

فالجواب: لقد سمّى الاستاذ النورسي هذه الرسائل بـ « الرسائل العربية » او « المجموعة العربية » وقد كُتب على مجلد الطبعة الاولى: « قطرات من فيوضات

الفرقان الحكيم». ولكن لان فعل هذه الرسائل في القلب والعقل والروح والنفس يشبه فعل المثنوي لجلال الدين الرومي المشهور والمتداول بين اوساط الناس ولا سيما في تركيا، وان عمله في تجديد الايمان وترسيخه في القلب وبعثه الروح الخامد في النفوس يشبه «المثنوي الرومي» فقد سماه الاستاذ النورسي بـ «المثنوي». ولأجل تمييزه عن «المثنوي الرومي» الذي كُتب بالفارسية سماه: «المثنوي العربي». ولانه اساس لرسائل النور وغراس لأفكارها ومسائلها أضيف اليه «النوري» فاصبح الكتاب يحمل عنوان: «المثنوي العربي النوري»

ومما يجدر الإشارة اليه ان الكتاب مع أنه جامع لكثير من أساليب البيان وأنماط الإستعارة وانواع التشبيه والجناس والطباق وغيرها من أساليب البلاغة، فان كل قارئ – مهما كان تذوقه البلاغي – يظل مشدوداً مع بلاغة المعنىٰ وجمال المغزىٰ أكثر من انشداده مع بلاغة المبنىٰ وجمال اللفظ؛ اذ ان عمق المعاني وسعة الأفكار ودقة المسائل التي يطرقها تجعل القارئ يقول: حقاً «ان الكلام البليغ هو ما أستفاد منه العقل والوجدان معاً».

هذا ولقد أغنانا الأستاذ نفسه عن تقديم أي كلام حول سبب تأليفه للكتاب وفترة تأليفه له، حيث سجل ذلك في مقدمته البديعة، وفي افادات المرام مستهل كل رسالة.

والله نسأل ان يوفقنا الي حسن القصد وصحة الفهم وصواب القول وسداد العمل.. وصلّ اللهمّ على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

احسان قاسم الصالحي

المدخل

الاستاذ أديب إبراهيم الدباغ

لا جدال في أنّ «النفس البشرية» طاقة عظمىٰ من طاقات البناء والاعمار، ومصدر خصب من مصادر الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم إذا مازكت وصفت وغدت موصولة الاسباب بفاطرها وموجدها، لأن صلتها بالله، واستمساكها بأسباب أنواره، يجعلها موضع نظره، ومَنْ كَان موضع نظر الله تعالىٰ افيضَ عليه من صفات جماله وكماله ما يستطيع بها أن يمحق ظلام الدنيا وشرورها.. وهى – أي النفس – قوة تدميرية عمياء، وطاقة هدم مرعبة، اذا ما نجمت فيها جرثومة التمرد والنزق والجموح، وعصفت بها رياح الهوى الهوج المحركة لنيران رغباتها المجنونة، وشهواتها العارمة، فتحرق هذه النار كل سبب يصلها بالله تعالى، فلا تلبث – بعد ذلك – أن تتنكر لخالقها وبارئها، وتنزع الى عصيانه، وترغب في الانفلات من مسؤوليات الايمان، وتكاليف الاسلام.

و«النورسي» – رحمه الله – إنما يرصد هذه النفس الضالة التي قد غلبت عليها رعونتها، وركبتها حماقتها، فتنشط في البحث عمّن يسليها ويلهيها، وينسيها مَنْ تكون...؟ ولِمَ كانت...؟ وما واجبها...؟ وما مسؤولياتها...؟ ويأسف لها وهي تتصامم عمّن يريد لها الصحو المسؤول، واليقظة البصيرة، ويطلب لها التعلم والمعرفة، ويأخذ بيدها للأرتقاء والسمو، ويشرفها بمعرفة الله ويتوّجها بتاج طاعته، ويلبسها حلل معرفته.. ويرىٰ أنها – إذا زاد ارتكاسها وفاض بها غرورها – قد تتوهم نفسها قطب العالم ومحور الوجود، فتقيس كل شئ بمقاييسها، وتزنه بموازينها، لظنها أنها منبع كل حق، ومصدر كل صواب.. وقد تتمادى في هذا الغرور الاحمق حتى لتنازع «الرّبوبية» سلطانها، وتنسب لنفسها من صفات الألوهيه ما تشاء ويشاء لها الهوىٰ.

وتتفاوت «النفوس» في أسباب تعرضها لمخاطر هذا التورم الخبيث، والانتفاخ المرضي المخيف، فيغدو البعض أشدّ عتواً، وأصعب توعراً، واكثر استعصاءً وتمرداً على حقوق الربوبية، ومستلزمات العبودية من البعض الآخر. وبسبب هذا التورم الذي يتسلل الى مخ النفس، فيشل وعيها، ويفقدها صوابها، ويُعمّي عليها حقيقة حجمها، وتبيان موقعها الصحيح من الله.. وبسبب غياب «العقل الايماني» الذي يبصرها بحقيقتها، ويمنعها من الجموح والشطط، فهي غالباً ما تنساق مع الوهم، فتتخيل استطالة حجمها، وتضخم جرمها، وتحسب الكون قاصراً عن احتوائها، والأرض عاجزةً عن حمل عظمتها.. ومن هنا.. من عدم تحديد مكان «النفس» من الله، ومن تجاوزها حدود وظائفها في هذا العالم تنجم جميع شرور العالم وآثامه، وتنبعث جميع الآمه وأحزانه ومآسيه، ومصداق ذلك ما يحدثنا به التاريخ من مدّعي «الالوهية» و«الربوبية» من الملوك والاباطرة والفراعين، وغيرهم على اختلاف مدّعياتهم الباطلة، وما خلفوه وراءهم من جروح والآم في حياة الشعوب والحضارات.

وخشية من وقوع «النفوس» فريسة هذا التورم البشع المخيف، وحرصاً من «الاسلام» على ان تظل «نفس» المسلم صحيحة تستمتع بالسلامة والعافية، فقد حثّ القرآن على مجاهدة نزق النفس، وحذّر من تمردها وعصيانها لخالقها، واعتبر مجاهدتها واجباً ايمانياً لا يقل أهميةً عن واجب مجاهدة العدو، بل يزيد عليه، لان العدو الذي يريد الشرّ بالبلاد والعباد بيّنٌ ظاهر للعيان بسلاحه وعدّته وعدده، نواجهه ونحن نرى ونسمع، فيجتمع عليه كياننا كله، وتتهافت عليه حواسُنا جميعاً، وتتعاون على قهره طاقاتُنا بأسرها.

أما «النفس العاصية لله» فهي عدو خفي لا نراه ولا نحس بعداوته، لانها تسري في وجودنا كله، وتجري منا مجرىٰ الدم، ولا يجتمع عليه وجودنا كله لانها جزء من هذا الوجود، فضلاً عن أننا لا نعرف متى تهاجمنا ؟ ومن أي ثغرة تتسلل الى مقاتلنا؟ وأي سلاح رهيب من أسلحتها تجربه فينا؟ لذا يتعين علينا أن نبقىٰ حذرين دائمي الحذر، متيقظين دائمي التيقظ، نرصد حركاتها، ونراقب مناوراتها، ونأخذ

منها زمام المبادرة، فنلجمها قبل ان تجمح بنا، ونأخذ بخطامها قبل أن تهيج علينا وتلقي بنا تحت أقدام طغيانها فلا تفلتنا حتىٰ تسحق منا الروح والقلب والعقل.

* * *

وقد عانىٰ «النورسي» من نفسه الشئ الكثير، فهي نفس جموح، وعرة المراس، صعبة الترويض، عصية على الاقتناع، تأبىٰ ان تسلس له القياد ما لم يأتها علىٰ الرأي الذي يراه بالدليل القاطع لكل شك، والبرهان المبدد لكل ريب. لذا فقد كان همه الأعظم إقناعها بالرأي الذي يراه، والفكر الذي يخلص اليه.. فهو في كل ما كتب ولاسيما في «المثنوي» إنما كان يكتب لنفسه بهذا القصد ولهذا الغرض، وكأنّ نفسه - لشدة جموحها ونفورها من الفكر التقليدي - قد آثرت الانفصال عنه، والانسلاخ منه، فصار لها كيان مستقل، وشخصية مناوئة، تقف ازاءه، وترصد فكره، ولا تنفك تحاوره وتلح عليه في الحوار، وتسأله وتلح عليه في السؤال، حتىٰ تضطره للاجابة عليها بحشد هائل من الأدلة والبراهين التي تقنعها وتطمئنها، وتلزمها الحجة والتسليم. وفي معرض وصفه لهذه المعاناة مع نفسه يقول «النورسي»:

«ان هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما : (أنا) في الانسان، و(الطبيعة) في العالم..»(١).

والمأساة الأخرىٰ التى ظلّتْ تؤرّق «النورسي» طوال حياته، وتنغر في ضميره، انما هي سقوط الملايين من البشر في هذا العصر في حبائل «الطبيعة» وانحباس أرواحهم في اقفاصها، وتعبدّهم - كما يتعبد الوثنيون - لنواميسها وسننها، فنسبوا لهذه النواميس والسنن ما ينسبه المؤمنون الى الله تعالى من صفات الخلق والايجاد والقدرة والعلم والحكمة والقصد والاختيار، وبذلك حجبت «الطبيعة» المخلوقة، بصفاتها الاعتبارية غير الذاتية، الانسان الوثنى عن «الخالق» الحق، وامتصت إيمانه، وأنشبت أظفار الجحود الحاد في روحه، وحولت قلبه الخصب الى جفاف كجفاف رمال الصحراء، فاستُثني - بهذا الإنحراف الأخرق عن الله - استثناءً شاذاً من بين التوافق الكوني العظيم الذي تندرج الاشياء جميعاً فيه، وتتآلف معه في وحدة كونية نابضة بالمعرفة والمحبة لله، فاذا به - على الرغم من كل منجزاته الحضارية المبهجة - ينوح

(١) رسالة «حبة من نواتات ثمرة من ثمرات جنان القرآن»

نوحاً مريراً على شقائه الروحي كنواح النغم الحزين المنفرد بحزنه من بين منظومة اللحن الضاحك البهيج.

وكما حاور «النورسي» جموح النفس، وناقش نزقها وتمردها، وردّ على اعتراضاتها حتى راضت وقنعت واطمأنت، فانه كذلك ناقش المؤلهين للطبيعة، واستعرض مقولاتهم، ثم ردّ عليها واحدةً تلو الأخرىٰ، وخلص في خاتمة المطاف إلى خطل راي مَنْ ينسب اليها الحياة والخلق والايجاد من دون الله تعالىٰ..

ولما كانت «نفسه» دائمة الحضور معه، قائمة بين جنبيه، تناقش فكره الايماني، وجهاً لوجه، وتلقي باعتراضاتها حوله، لذا فإنّ «النورسي» كتب ما كتب بقصد ترويض هذه النفس الجموح الثائرة على كل فكر تقليدي، وبنية تبديد شكوكها، وقهر عنادها، وإقناعها بصحة أفكاره، ومصداقية قناعاته.

ومن هنا فليس غريباً ان يكتنف بعض افكاره في «المثنوي» شئ من الغموض غير المقصود، لانه لم يكن مقصوداً من كتاباته سوى نفسه، فلربما كفاه السطر والسطران لتفهم عنه نفسه، وتعرف مراده، ولا تكفيه الصفحة والصفحتان ليفهم عنه القارئ بعض مراده. (١)

ومن حق القارئ الذي يقرأ هذا الكلام أن يسأل نفسه:

اذا كان مقصود «النورسي» فيما كتب في هذا الكتاب «نفْسَهُ» فما جدوىٰ نشره، وإغراء الآخرين بقراءته؟ وهو لم يُكْتَبْ لهم أصلاً، ولم يُصنّف لأجلهم؟

وللجواب على هذا السؤال نقول:

ان «النفس الإنسانية» هي واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضها، كالجسد تماماً، فاذا كانت الأمراض التي يمكن أن تصيب جسد «زيد» هي نفسها التي يمكن أن تصيب جسد «عمرو» وان ما يفيد «زيداً» من دواء يفيد «عمرواً» أيضاً، فكذلك فإن أمراض «النفس» هي واحدة لدىٰ جميع البشر مع بعض الفروقات بين نفس ونفس. فالعلاج الذي استعمله «النورسي» لنفسه قد يفيد أي انسان آخر يعاني ما كان يعانيه «النورسي» من نفسه، وهو يقول بهذا الصدد:

(١) افادة مرام رسالة «شمة» و «نقطة»

«ولا تخف من تمرد النفس، لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادت، وذللت تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق، بل شيطاني الرجيم أفحم وانخنس.. كن مَنْ شئت، فلا نفسك أطغىٰ واعصىٰ من نفسي، ولا شيطانك أغوىٰ واشقىٰ من شيطاني». (١)

فضلاً عن التجارب الذاتية التي تخوضها النفوس العظيمة، هي رصيد جديد يضاف الى رصيد الإنسانية ويثري معرفتها بشؤون الروح والوجدان، ويمنح أفرادها ما يفيد في اجتياز قلقهم الروحي بنجاح، وتخطي عواصف شكوكهم بسلام، وقد اعتاد البشر – منذ أقدم العصور – أن يفيد بعضهم من تجارب البعض الآخر، ولولا هذه السنّة الحسنة التي درج عليها الناس لما وصلت البشرية الى هذا الصرح الهائل العظيم من المعارف والعلوم والأفكار.

ونكاد نلمس بين سطور «المثنوي» غبار الصراع الدؤوب الذي خاضه «النورسي» بشجاعته ضد تمردات نفسه وجنوحاتها قبل ان تسلس له القياد، وتسلم له الزمام، حتىٰ اننا لنتعاطف معه، ونأسىٰ من أجله ونحن ننظر بعين الخيال الى ما عاناه هذا الرجل من عذاب قبل ان يحقق انتصاره النهائي على الجانب المستعصي من نفسه..

وما من أحد من المؤمنين إلاّ وله مع نفسه العصية مواقف او بعض مواقف – كالتي كانت للنورسي مع نفسه – مع اختلاف درجات التوتر والقلق والصراع ضعفاً وقوة، وقلة وكثرة، في الأشخاص، تبعاً لدرجات إيمانهم ويقينهم؛ لذا فما من أحد إلاّ وله في تجربة «النورسي» ما يفيده بدرجة أو باخرىٰ.. واذا ما فاتنا النزر اليسير من علاجات «النورسي» لنفسه، بسبب بعض الغموض في بعض وصفاته، الاّ أننا سنفيد – بلا ريب – من الشئ الكثير منها، وكما يقول:

« لا تقل: اذا لم ادرِ الكل لا اريد الكل.. فاذا كنت في بستان أتترك الثمرات ان لم تأكل كلها» (٢)

فَرُبّ زهرة تقطفها من حديقة «المثنوي» تغنيك بشذاها وجمالها عن عشرات الأزهار، ورُبّ فاكهة تنالها يدك تعطيك مذاق مائة فاكهة وفاكهة.

(١) انظر: «تنبيه، اخطار، اعتذار».

(٢) افادة مرام «شمة من نسيم هداية القرآن»

فالمثنوي.. كتاب فريد في مصداقيته، قد سجل فيه «النورسي» بأمانة وعفوية وصدق سيرة نفسه وما كان يعتورها من قلق واطمئنان، وينتابها من صحة وسقام، ويتناوشها من شك ويقين، من دون زيادة أو نقصان، حتى إنه ليترك نفسه تنساب – على سجيتها – مع انسياب قلمه، فلا يجري على كلامه في بداهته الأولى أيّ تبديل او تعديل، حفاظاً على براءة عفويته، وخوفاً من أن يدخل على كلامه مايخدش صدقه، ويمسُّ بكارة معانيه(١)..

وما يتكرر في أول كل خاطرة من خواطر «المثنوي» من «اعلم» فالمقصود: «اعلم يا سعيد». أو «إعلمي»، فالمقصود: «إعلمي يا نفسي» فبسر قوة الصدق الذي يشيع في ثنايا الكتاب – لأنه ليس بعد الصدق مع النفس من صدق – وبسرّ قوة الروح المسكوب في كلماته – لأنه ليس من روح أقوىٰ من روح عجنته المعاناة، وانضجته نار التجربة – يمكن لأي انسان الإفادة من تجربة هذا الكتاب في ترويض نفسه، والتحرر من رهقها، وكذلك تنقية مداركه العقلية من مفاهيمها الخاطئة عن ربوبية «الطبيعة» و«اُلوهية» ماديتها. فبإنهدام هذين الوثنين النفس والطبيعة وتحرر الإنسان من طغيان سطوتهما عليه، ينفسح له المجال واسعاً لميلاد ذاته الحرة من جديد، وانتفاضها من بين أنقاض عالمه المتهدم مفعمةً بالعافية، طافحةً بالحيوية، فلا تلبث حتى تسرع في استرداد وعيها الأعمّ الأشمل، وإدراكها الأصح الأصوب، فترىٰ – بصفاء نظرها وسريرتها – أنّ كل موجود – بحد ذاته – حرفٌ ضائع لا معنى له ما لم يعطه اسم «الله» الأعظم معناه بالانتساب اليه، ويسبغ عليه مغزاه على قدر ارتباطه به وفهمه عنه..

فالكائنات والموجودات – بما فيها الإنسان – حروف خاوية حائرة تجوب كتاب العالم، فلا تقرُّ او تجد لها مكاناً فوق سطور هذا الكتاب الكبير ما لم تستمد معانيها من اسماء الله الحسنىٰ، وما لم يمسها مدد من أمدادها، وينسكب فيها مدَادٌ من مدَادِ بحار القُدرة.. فلا شئ موجود علىٰ الحقيقة ما لم يعطه الله شيئيته، ويمنحه كَيانه، ويقدّر وجوده. فاذا وصل الانسان الىٰ هذه النقطة من الادراك، ولاسيما بعد عظيم المعاناة، فقد وصل الى «التوحيد» الخالص، وتشرب جوهر الإيمان والاسلام، وعرف جدوىٰ الوجود ومعناه..

(١) انظر افادات المرام ولا سيما افادة مرام «حبة».

وهذا هو ما يرمي «المثنوي» ويهدف الى تحقيقه في نفس صاحبه أولاً، وفي نفس كل قارئ من بعده.

* * *

والتوحيد الخالص من شوائب الشك، والذي يشكل لبّ الايمان، وجوهر عقيدة الاسلام، هو في «المثنوي» ليس أمراً تقريرياً، ولا معنىً تلقينياً، ولا عقيدة تقليدية، ولا كلاماً محفوظاً مردداً يردده المسلم بلسان جاف، وقلب بارد، ووعي ذاهل، كما هو مشاهد اليوم لدىٰ الكثير من المسلمين.. فلا غرو إذا ما عجزت «كلمة التوحيد» اليوم – وقد خالطها هذا القصور المعيب – أن تخرق أبواب الروح، وتلج الىٰ أعماق الفؤاد، لتطلق قوىٰ المسلم، وتفجر طاقات كيانه الروحي الذي اصابه الضمور وغدا عاجزاً عن ممارسة أي نشاط يمكن أن يزيد في نموه، ويقوي فيه بصيرة الكشف الذكي عن «علوم التوحيد» العظيمة في مظانها الأصلية من نفس الكون والانسان.

فالتوحيد الذي يدعونا اليه «المثنوي» ليس تقريرياً، ولا تلقينياً، ولا تقليدياً، ولا ترديدياً، بل استكشافياً.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا – عبر خواطره – في جولة استكشافية في أغوار النفس الانسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون المؤودة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدثنا عن بصمات «التوحيد»، وتدلنا على آيات الاله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا الا ونحن قد اكتشفنا «التوحيد» والتقيناه في أشد الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم افئدتنا إنبثاقاً، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهز هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمر المسلم كشافاً رائداً لأعمق الحقائق – في الكون والانسان – في ديمومة لا تتوقف حتىٰ تتوقف حياته.. فيزيد فهماً، ويتسع وعياً ويخصب وجوداً وحياةً.

والايمان بالله واحداً أحداً فرداً صمداً هو أحد المحاور الثلاثة – بعد النفس والطبيعة – الذي يدور حوله «النورسي» في أفكاره وخواطره المسجلة على

صفحات «المثنوي». وهو يرى ان العقل المسلم ينبغي ان يكون قرآني التصور لمفاهيم التوحيد، ولصفات الكمال والجلال والجمال التي يتصف بها الله سبحانه وتعالى. وأن هذا «العقل» الذي تشكل المفاهيم القرآنية تصوراته عن الألوهية والربوبية.. لا يمكن أن يرقى الى قمته عقلٌ كائناً ما كان ما دام محجوباً عن القرآن.

و«النورسي» وان لم يكن قد استعرض تصورات العقليين للألوهية والربوبية، وتصورات غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب والنحَل الاّ أننا نحسُّ من خلال كلامه عن أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وكأنه يردّ - ضمناً - على هذه التصورات المنحرفة، ويفندها الواحدة تلو الأخرىٰ.

ففي كلامه كما سيلمس القارئ بنفسه ردّ ضمني على مَنْ يزعم - من العقليين - بأن الله تعالى خلق العالم وفرغ من خلقه، ولا شأن له به بعد ذلك..

وردٌّ علىٰ مَنْ يدّعي عدم علم الله بالجزئيات - تعالى عن هذا علواً كبيراً..

وردّ على مَنْ يؤمن بالله ولكنه يتردد ويتلجلج في ايمانه بالملائكة والكتب والرسل والقدر، واليوم الآخر، والنشر والحشر، والجنة والنار.. الى آخر تلك التصورات السقيمة المجانبة للحق، والمجافية لما أثبته القرآن وجاءت به السنة المطهرة..

إنَّ الآية القرآنية ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ (الشورى: ١١) قد أوفَتْ وكفت وردّت على تصورات العقول البشرية - بقصورها ومحدوديتها - لله سبحانه وتعالى، وأزرت بقياساتها الفاسدة ابتداءً من تصورات أدنىٰ الوثنيين عقولاً، ومروراً بأكبر عقل من عقول فلاسفة الإغريق، وانتهاءً بآخر ما وصل اليه العقل الرياضي والعلمي الحديث.. والآية - بحد ذاتها - إشارة الى أن المسألة أجلّ وأعظم من أن تترك للأمزجة والخيالات والعقول القاصرة لكي تخوض فيها وترى فيها رأيها من غير هدىً يهديها من الله الذي هو أعلم بنفسه، وأعلم بخلقه، وقدرات عقولهم عن الفهم عنه، وادراك ما هوفي مكنتهم من معاني أسمائه وصفاته.

* * *

و«النورسي» يرىٰ في «الاسماء والصفات» حلاً للغز العالم، وجواباً على أسئلة كثيرة ربما كان أهمها وأعظمها على الأطلاق هو السؤال الذي حار فيه أكبر العقول

من فلاسفة هذا العصر وفلاسفة كل العصور السابقة، وهو: لماذا مُنِحْنَا منحة الخلق..؟ وأعطينا فرصة الوجود..؟ وهذا العالم ما حكمة وجوده..؟ وما مغزىٰ انبعاثه عن العدم..؟ الى آخر هذه الأسئلة التي ما زالت مثار اهتمام العقول الحائرة من بني البشر.

و«النورسي» في خواطره عن صفات الله الجمالية يلتقي الحل، ويقع علىٰ الأجابات المقنعة، فهو يرى ان الرسام حين يرسم أجمل لوحاته – ولا مشاحة في المثال – إنما يعبر عن فيض الجمال الذي يغمر نفسه، وهو يفعل ذلك ليرى جمال نفسه في لوحاته وليُرِيَ هذا الجمال للآخرين ممّنْ يملكون القدرة على تذوقه وفهمه والتأثر به.. فكم يكون موقفنا سخيفاً وغير منطقي لو توجهنا بالسؤال لهذا الفنان قائلين: ماذا تفعل..؟ وما الذي يحملك على مسك فرشاتك لترسم هذه اللوحة..؟ وما سرّ ذلك ؟ وما حكمته؟ أليس التوجه بمثل هذا السؤال عبثاً لا معنى له؟ الا يدل على قصور عقولنا؟ وسذاجة أفهامنا؟

فكذلك ﴿ولله المثل الأعلىٰ﴾ فان الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة التي يدور غالب أفكار «المثنوي» وخواطره حولها، هذه الصفات التي وصف الله – جلّ شأنه – بها نفسه ومنها: (الخالق، الباريء، المصور، الرحمن، الرحيم، اللطيف، الودود، الرزاق، الكريم، القادر، العليم..) الى آخر هذه الصفات لا بد لها من التجلي بمعانيها الجمالية والكمالية في الخلق والايجاد، وان ترتسم صورتها في مرآة العالم والوجود، وتنسكب بمحاسنها وألوانها على صور الكائنات والموجودات، ليراها مَنْ وصف نفسه بـ: «أحسن الخالقين»، وليريها للإنسان في خفايا نفسه، وفيما يحيط به من موجودات. فيرىٰ – هذا الانسان – ويتأمل ويعتبر، ويشهد ويشغف، ويعجب ويشده، ثم لا يقف عند هذا بل يمر سريعاً من الرسم الى الرّسام، ومن النقش الى النقاش، ومن الظل الى الأصل، وبذلك – أي بهذا الانتقال السريع – يصبح الانسان جديراً بالفهم عن الله سبحانه وتعالىٰ، الذي قدّر ان يكون محط عنايته، وخليفته في أرضه.. وهي بلا شك ستبلغ – أي هذه الصفات الجمالية والكمالية – مداها الأعظم والأشمل والأوفىٰ من الجمال والكمال في حياة الانسان

الأخرىٰ، وعمره الثاني في كنف الرحمن وفي جنته التي هي أروع لوحاته جمالاً وحسناً وكمالاً وقدرة..

وكما أنّ اللوحة الفنية العظيمة لرسام عبقري، لا يقدر علىٰ تذوق محاسنها، وترشف روح الجمال فيها، الاّ مَنْ كان له إلمام ببعض قواعد الرسم، ممّن رهُف حسُّه، ورقّ شعوره، وملك نفساً نقيةً صافية، وقلباً سريع الحساسية بلمحات الحسن والجمال، فكذلك فإن «الجنة» – ولا مشاحة في المثال مرة أخرىٰ – هذه اللوحة المعجزة والتي رسمتها يد القدرة بألوان اللطف والرحمة الإلهيين، لابُدّ والاّ يزاح عنها الستار الاّ لِمَنْ يمتلك رصيداً جمالياً في روحه وبدنه، واستعداداً ذوقياً يهئ له سبل الاستمتاع بهذا الجمال الذي لا عين رأت مثله، ولا أذن سمعت وصفه، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء وصفه – بهذا المعنىٰ – في الحديث الشريف .

ولذا فقد كرّس «النورسي» جملةً عظيمة من خواطره في «المثنوي» لتشويق الانسان، وترغيبه بالجنة، ولفت نظر النفس الى محاسنها، وتمهيد سبل معرفتها، والوصول اليها، وذلك بتهيئة أحاسيسه الذوقية والجمالية وإرهافها – وهو بعد في الدنيا – وتنقية حواس الروح والبدن من الشوائب والأكدار، وتطهير الضمير والوجدان من قبح الرذائل والآثام، وبهذا تجمل «النفس» فيشتاق جمالها الى جمال الجنة فيتناغمان ويتجاذبان ثم اذا قضي الأجل يلتقيان، فيندغمان ويتذاوبان في حرارة الاشتياق وبهجة اللقاء.

والآخرة بأحداثها وأهوالها، ونشرها وحشرها وجنتها ونارها، ليست –عند النورسي – قضية هامشية تحتل هامش ذهنه، وفضول وقته، وبقايا همّه – كما هي اليوم لدىٰ الغالبية العظمى من الناس – وانما هي شهود دائم، وحضور قائم، ووجود شاخص، لا يبرح فكره، ولا يغادر وجدانه، يراها بنظر بصيرته كما يرى الأشياء بنظر عينه، وتحسسه روحه كما يتحسس كل مشهود ومعلوم، وينفعل كيانه بها إنفعال مَنْ يَبْدَهُهُ الشئ العظيم والخطير، فيستهوِله ويتعظمه، ويخافه ويرجوه، ويرغب به، ويرهب منه.. فما دام الذي بين الانسان وبين أن تقوم قيامته، وتحل آخرته، هو أن يأتي زمن موته، وهو زمن مجهول قدرُهُ، محجوب سرّ قدومه، مكتوم وقت نزوله، ولكنه آت لا ريب فيه، لذا فالآخرة – بهذا الاعتبار – هي غائبة حاضرة، بعيدة

قريبة، مجهولة معلومة، مستورة مكشوفة.. هكذا يتحدث عنها «النورسي» — مستعيناً بما يرمز اليها من شؤون الدنيا — ويصف قيامتها وحشرها ونارها وجنتها وصف مَنْ يراها ويسمعها، ويغشاهُ وقتها وزمانها، وما لم يكن الشلل الروحي قد استفحل دبيبه في كيان المرء، وما لم يكن قد سرىٰ خدَره المتيبسَ الى أمداء عميقة وسحيقة فيه، بحيث لم يعد يجدي فيه أي علاج.. فأغلب الظن ان «المثنوي» قادر باذن الله — بما تفيض به كلماته من بداهة الصدق المقنع — على تحرير هذا المرء من أصفاد شلله، وقادر على إجراء ذلك التمسيد المنشط للذرات الباردة المتيبسة في وجدان هذا المرء، وبعث الدفء والحركة والأحساس بالعافية في كيانه كله، فلا يلبث أن يندفع — في فورة عافيته — مخترقاً شغاف الأوهام بسنىٰ النور الذي أشرقت شمسُه في فؤاده، ومبدداً دياجي الأباطيل ببوارق الحق الذي سطع ضوءُه في افاق عقله.

وتجربة «النورسي» في مثنويه تعلمنا بان «الحقيقة الدينية» — كأية حقيقة وجودية أخرىٰ بل أكثرها علواً وشرفاً — لا يمكن ان تفصح عن نفسها، وتكشف عن سرها الاّ اذا بحث عنها وجهد في استكشافها الكيان البشري برمته، أي: بنزاهة الفكر، وإخلاص الضمير، وطهارة الروح والبدن، لان كل هذه الجوانب — التي منها يتكون الكيان البشري ويستقيم أمره — لها مجساتها الخاصة التي بها تجس جانباً من جوانب الحقيقة وتتلمسها متلذذةً بهذا التلمس والتحسس. وبمجموع هذه المجسات المتساندة والمتعاونة في الكيان البشري، وبالجوارح جميعاً — المادية والمعنوية — يمكن الاحاطة بالحقيقة الدينية والتقاطها وجعلها تسفر عن نفسها كأنصع وأجمل ما تكون، لتنال كل جارحة منها حظها، وتترشف منها ما يلائم مزاجها، ويرضي حاسة ذوقها، ولعلّ في إسراء الرسول ﷺ وفي معراجه الى الملكوت الأعلىٰ بكيانه البشري كله — لا بجزء من هذا الكيان — إيماء الى ان المعارف الدينية والتعبدية لا يمكن للمرء ان يستكمل جميع ما يتقطر منها من حلاوة ولذة الا باستخدام جميع أحاسيس كيانه الروحية منها والمادية. فكما ان آلام هذا الكيان ليست واحدة، فألم العين ليس كألم الأذن، وألم الأذن غير ألم الضرس، وأوجاع النفس غير أوجاع البدن، فكذلك فان مباهج هذا الكيان وأفراحه وأذواقه ليست واحدة علىٰ التحقيق..

فالصلاة مثلاً – وهي معراج المسلم خمس أوقات في اليوم – تصبح – في الأداء الأمثل – موضع مذاقات الذات البشرية بأسرها؛ فكراً وروحاً وبدناً، ومن هنا جاء قوله ﷺ: (يا بلال أقم الصلاة أرِحْنَا بها) (١). وقس على هذا جميع العبادات والمعارف الايمانية الأخرىٰ التي استعرضها «النورسي» في كتابه هذا، مبيناً ضرورتها للإنسان كضرورة الماء والهواء، بل أعظم منهما ضرورة، فهو – اي النورسي – لشدة احترامه للإنسان فانه يحاور – في مثنويه – الكيان الإنساني بأسره وبجميع لطائفه أسوةً بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يقرر بأن أية معرفة إيمانية لا يكون من همها إشباع لطائف الانسان جميعاً، تبقىٰ ناقصة ومبتورة أمام المعرفة الجامعة الكاملة المستقاة من القرآن الكريم مباشرةً من قبل مَنْ هم ورثة الانبياء حقاً وصدقاً.

وحتى «القدر» الذي يقدّر مقادير الخلق، ويعين وظائف الموجودات، ويرسم لكل كائن في هذا العالم المدى الذي يمضي اليه، والبعد الذي يصل عنده ويؤشر له نقطة البداية التي ينطلق منها، ونقطة النهاية التي يقف عندها، ثم يربط الموجودات بعضها ببعض، ويسنّ لها سنن التعاون والتساند فيما بينها، فما يبدو – للوهلة الاولىٰ – وكأنه صراع من أجل البقاء بين بعض أنواعها، هو في النظرة العميقة الشاملة وفي المحصلة النهائية، وما يفضي اليه هذا الصراع من غايات ومقاصد، يصب في تيار التعاون والتساند ويثري الحياة، ويسهم في دفعها نحو الهدف الذي يريده منها خالق الحياة..

أقول: ان القدر، بهذا المفهوم الذي يطرحه «النورسي» في جملة من خواطره في «المثنوي» – وان كان فوقياً وغيبياً – إلاّ أنه لا ينزل بالانسان هكذا فجأة وعلى غير انتظار، ولا يلطم أحداً الاّ تأديباً له وتعليماً، أوتنبيهاً وتذكيراً ولا يُرَبِّتُ على ظهر أحد غير جدير برحمته، وبلمسات لطفه ووده، وهو ليس من همه أبداً أن يقف في طريق الانسان، ويدخل معه في صراع فلا يفلته حتىٰ يصرعه.. فلو استعرض كلّ منا شريط حياته لشعر وكأنّ ما وقع له من أحداث أو أقدار – في سني عمره كله – لم

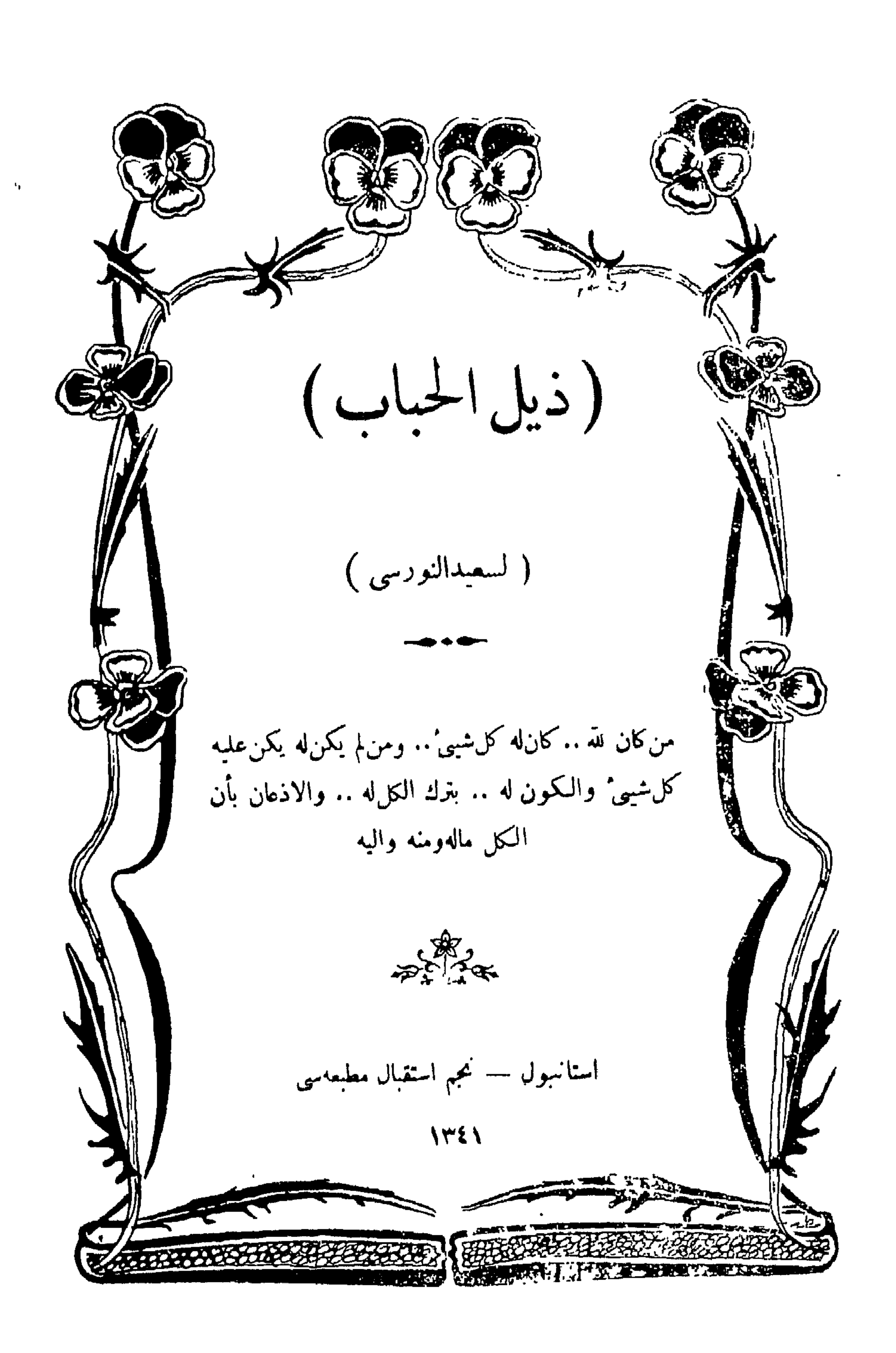
(١) رواه ابو داود عن سالم ابن ابي الجعد. قال: قال رجل ليتني صليت فاسترحت فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال اقم الصلاة ارحنا بها» ولأبي داود رواية اخرى مشابهة عن محمد الحنفية (كشف الخفاء ١/ ١٠٨ باختصار)

تقع اعتباطاً، ولم تحدث لغير ما مغزىٰ ويتيقن بانّ كل شئ حدث له وكأنه كان ينبغي أن يحدث على الشكل الذي حدث به وبالطريقة عينها التي حدث بها، وأنه النتيجة المتوقعة لسلسلة من المقدمات التي سبقته فلا تقبل نتيجة سواها، فالأحداث أو الأقدار – تأنيساً لبني البشر – لا تأتي مغايرة لمن تقع لهم، بل تأتي شبيهة بهم وبأعمالهم، وبما ينطوي عليه كيانهم البشري من أصول البطولة أو الخسة، ومن جذور النقاء أو الدنس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ**﴾ (الاسراء: ٨٤) فعلىٰ شاكلة هذه الأعمال، وبسببها وعلىٰ قدْرِها يقع القدر، وينفذ القضاء.

وبعد:

ويجدر بي ان أشير الى ان الجديد في هذا الكتاب هو قدرة «النورسي» الفذة علىٰ صياغة القضايا الايمانية والبرهنة على صدقها واحقيتها بأسلوب هومزيج من عقل المفكر، وقلب الشاعر.. ولكي اعطي صورة قربية عن هذا الاسلوب للقارئ الكريم اقول:

ان النورسي نفس شاعرة، وروح لهيف،وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفاذة مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه. وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيد الوجود. وظامئ عطش يترشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كل صفات «الشاعر العظيم» الاّ أنه لم يقل شعراً، أعني انه لم ينظم شعراً كما ينظم الشعراء، ولكن ما قاله في «المثنوي» رغم انه يحمل ميزات «النثر» ومقوماته شكلاً وقالباً، الاّ أنه شاعري الروح والنفس وجداني الانسياب، رشيق في صوره وأخيلته، مع عمق أفكاره ودقيق معانيه!.



(ذيل الحباب)

(لسعيد النورسى)

من كان لله .. كان له كل شيئ .. ومن لم يكن له يكن عليه كل شيئ والكون له .. بترك الكل له .. والاذعان بأن الكل ماله ومنه واليه

استانبول — نجم استقبال مطبعه‌سى

١٣٤١



زهرة

من رياض القرآن الحكيم

لسعيد النورسي

كل حى فى الدنيا.. كعسكر موظف .. انما يعمل بحساب الملك . . وباسمه . . فمن زعم انه مالك فهو هالك : ان هذا النظام والميزان المشهودين عنوانان لقبضتى الرحمن و بابان من الكتاب المبين ومن كتاب الكائنات.. والقرآن ترجمان الكتابين و فهرستة البابين وفذلكة القبضتين .

استانبول — نجم استقبال مطبعه‌سى

١٣٤١

صفحة من الطبعة الاولى

وما فيها إلى فاطرك الكريم وخالقك الرحيم ليصير خوفك تذللاً لذيذاً إلى التجاء إلى صدر الرحمة كتلذذ الطفل
بالتخوف الذي يجبره إلى الانضمام إلى صدر أمه الشفيقة وتصير محبتك سعادة أبدية لا تزول ولا تزال لا إثم ولا ألم
اعلم أيها الإنسان إنك ثمرة ونواة لشجرة الخلقة فبجسمانيتك أنت جزء صغير ضعيف عاجز ذليل مقيد محدود
لكن الصانع الحكيم رقاك بلطف صنعه من الجزء الجزئي إلى الكل الكلي فبادراج الحياة في جسمك أطلقك من قيد الجزئية
في الجملة بجولانك بحواسك المنبسطة على عالم الشهادة لجلب أغذيتهم المعنوية ثم بإعطاء الإنسانية
جعلك كالكل بالقوة كالنواة ثم بإحسان الإسلامية والإيمان جعلك كالكلي بالقوة ثم بإنعام معرفته ومحبته صيرك
كالنور المحيط فاختر ما شئت فإن أخلدت إلى الأرض واللذائذ الجسمانية صرت جزءاً جزئياً عاجزاً ذليلاً وإن استعملت
جهازات حياتك بحساب الإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية صرت كالكل الكلي والسراج المركزي * اعلم يا من يحب لـ
الموجودات الدنيوية التي لا تصل إليها إلا بعد ما رجرجلت ومساعدة قيدك فتتألم بآلام الفراقات الأليمة جزاء
لصرفك المحبة في غير محلها إن أحببت الواحد الأحد وتوجهت بحبه وباسمه وبإذنه وبنظره وبحوله تنزهت بالجميع
معاً في آن بلا فراق ولا ألم كمثل من ينتسب لسلطان له مع كل جزء من مملكته ارتباط يسمع ويبصر كل ما يجري في كل مكان
ومن كل مكان كأنه هو في كل وعند كل فيسمع ذلك الخادم بسمع سيده ويبصر ببصره بواسطة الآلات المخابرة والمشاهدة
كتلفونات التلغرافات وجميع الصور الموجودات في كل مملكته البسيطة أقطار سلطنته * اعلم يا من نسي من الحق معرفة أخبار أنباء الغيب حيث لو
لو قيل لك إن أردت نصف عمرك لينزل أحد من القمر ويخبرك بأن في القمر كذا وكذا أو أخبرك بحقيقة استقبالك لأعطيت
بلا تأسف أنه جاء أحد يخبرك أخبار من ليس القمر إلا كذباب يطير حول فراش يطير حول سراج من ألوف سراج في سقف بيته الذي
أعده لعبيده المسافرين وكذا يخبرك بأخبار الأزل والأبد والحياة الأبدية والحقائق الأساسية والمسائل العظيمة التي
أصغرها أعظم من انفلاق الأرض مع القمر فإن شئت فاستمع إلى سورة «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» وأمثالها
وكذا يريك سبيلاً سوياً إلى الوحدة ينجيك من التشتت في ضلالات الكثرة الموحشة ويمد إلى يدك العروة الوثقى،
وسلسلة عرشية تنقذ من استمسك بها من الغرق في ظلمات الممكنات المشتتة ويسقيك من عين الإيمان ماء الحياة
الأبدية ماء الحياة لتتخلص من الاحتراق بنار الفراق من جميع ما تحبه على الإطلاق وكذا يخبرك بمرضيات خالقك الذي
«الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» واستقرت الأرض بإذنه ويطالبه منك وكذا صار ترجماناً لمخابرة سلطان
الأزل الأبد الذي لا نهاية لقدرته وغناه ومكالمته معك أيها العاجز بلا نهاية والفقير بلا غاية فمع كل ذلك كيف
لا تترك لفهم هذا القرآن ولا تسعى لوسيلة لاستماع رسول الرحمن وكيف لا تستقبل رسوله بالتسليم والأمانة وكيف
لا تشتاق إلى السلام عليه الصلاة والسلام وكيف لا تحتاج إلى الاستخبار منه ما يطلب منا سيدنا الحنان هو
وما كذبنا المنان جل جلاله * اعلم أن الصانع الحكيم بكمال حكمته وعدم العبثية في صنعه وعدم التضييع ينسج
من الأشياء الحقيرة الصغيرة القصيرة الأعمار منسوجات جسيمة عالية عالية دائمة لا سيما في نسج النباتات وكذا يسر
عدم العبثية مطلقاً وعدم الإسراف يوظف العضو الواحد من الآلات والجهازات بوظائف كثيرة متنوعة لا سيما في رأس
الإنسان فلو انفرد لكل وظيفة من الوظائف المكلفة بها ما في رأسك

صفحة من مخطوط رسالة « نور من أنوار نجوم القرآن » بخط الحافظ توفيق الشامي.
وقد اجرى الأستاذ النورسي عليها بعض تصحيحاته.

صفحة من مخطوط رسالة « نور من أنوار نجوم القرآن » بخط الحافظ توفيق الشامي. وقد اجرى الاستاذ النورسي عليها بعض تصحيحاته.

مثلا، ولله المثل الاعلى يتساوى فى اخذ تجلى الشمس فى تمثالها الذرات
الزجاجية والبحور الارضية والسيارات السماوية بسر الشفافية..
وان المصباح المركزى للمرايا المحيطة يتساوى بالنسبة الى المصباح زجاجة
من زجاجات اصغر دائرة و مجموع الزجاجات فى اكبر الدائرة بسر المقابلة.. وان النور والنورانى
تتساوى بالنسبة الى الاستضاءة والاستفاضة الواحد او الالوف
لا تزاحم فيه بسر النورانية.. فلنوع نورانية فى لطافة الكلمة يتساوى
فى الاستماع الواحد والالوف.. ومثلا ان الميزان الحساس بدرجة يحس
بذرة لو كان فى كفتيه شمسان او جوزتان ما تفاوت بين رفع كفة
الى الثريا وكفة الى الثرى بوضع جوزة اخرى فى كفة بسر الموازنة..
ومثلا ان اعظم السفن لا يتعسر سوقه وتحريكه على صبى كما لا يتعسر
عليه تحريك سفينته التى هى ملعبته فى كفه او تحريك ساعته بسر الانتظام
ومثلا ان القهرمان لا فرق فى امره د بأرش ع بين نفر وفيلق يتساوى فى التحرك
والتحريك النفر وكل العسكر بسر التزام الامتثال.... ومثلا ان الماهية

استثبت واستقر وما انطفى تحت كثافة الفلسفة ما فى سائر الاديان من
انوار فكر الالوهية وكذا برسالته تظاهر للبشر مرضيات رب العالمين
وكذا به اهتدى البشر الى الايمان الذى هو نور الكون والوجود.. الحمد لله
على نعمة الاسلامية التى هى مرضيات رب العالمين اذ الاسلام هو الذى ارانا ما يرضى
به ويريده ويحبه ربنا ورب العالمين ورب السموات والارضين... الحمد لله
على نور الايمان المستضئ بضياء بسم الله الرحمن الرحيم لابد للحامد
ان ينظر من النعمة الى الانعام ليرى ان المنعم ابصر به واقرب منه اليه يتعرف
بالانعام ويتودد بالاحسان ويتحبب بالاكرام الى الانسان. فالانسان انما
يكون شاكرا اذا استشعر ذلك التعرف والتودد..

الباب الرابع

فى

الله اكبر

هذا الباب قسمان. هذا القسم الاول بغاية الاجمال والقسم الثانى فيه ايضاح تام..

صفحتان من مخطوط بخط « جيلان چالشقان » مع بعض تصحيحات الاستاذ النورسي عليها .

المثنوي العربي النوري

بديع الزمان سعيد النورسي

تحقيق

إحسان قاسم الصالحي





مقدمة المؤلف

للمجموعة العربية لفظاً والمثنوي حكماً

ترجمة : الملا عبدالمجيد النورسي

«تتضمن خمس نقاط»(١)

النقطة الاولى:

كان سعيد القديم – قبل حوالي خمسين سنة – لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلكاً ومدخلاً للوصول الى حقيقة الحقائق، داخلاً في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة. وكان لايقنع ولايكتفي بالحركة القلبية وحدها – كاكثر اهل الطريقة – بل جهد كل الجهد اولاً لانقاذ عقله وفكره من بعض الاسقام التي اورثتها إيّاه مداومة النظر في كتب الفلاسفة.

ثم اراد – بعد أن تخلّص من هذه الاسقام – ان يقتدي ببعض عظماء اهل الحقيقة، المتوجهين الى الحقيقة بالعقل والقلب، فرأى ان لكلٍ من اولئك العظماء خاصيّة جاذبة خاصة به،فحار في ترجيح بعضهم على بعض.

(١) لدى مقابلة هذه الترجمة مع الاصل التركي وجدتها وافية بالغرض الاّ ما استوجب من تغيير طفيف في بعض العبارات واضافة اخرى لتكون اكثر مشابهة بالنص التركي .

فخطر على قلب ذلك السعيد القديم الممخض بالجروح - ما في مكتوبات «الامام الرباني» من أمره له غيباً: «وحِّد القبلة»[١] اي ان الاستاذ الحقيقي انما هو القرآن ليس إلاّ، وان توحيد القبلة انما يكون باستاذية القرآن فقط، فشرع بارشاد من ذلك الاستاذ القدسي بالسلوك بروحه وقلبه على أغرب وجه، واضطرته نفسه الامارة بشكوكها وشبهاتها الى المجاهدة المعنوية والعلمية.

وخلال سلوكه ذلك المسلك ومعاناته في دفع الشكوك، قطع المقامات، وطالع مافيها، لا كما يفعله اهل الاستغراق مع غض الابصار، بل كما فعله الامام الغزالي[٢] والامام الرباني وجلال الدين الرومي[٣]، مع فتح أبصار القلب والروح

---

(١) الامام الرباني: هو احمد بن عبد الاحد السرهندي الفاروقي (٩٧١- ١٠٣٤هـ) الملقب بحق «مجدد الالف الثاني» برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والاخلاص لله وحضور القلب، رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة «الملك اكبر» التي كادت ان تمحق الاسلام. وفّقه المولى العزيز الى صرف الدولة المغولية القوية من الالحاد والبرهمية الى احتضان الاسلام بما بث من نظام البيعة والاخوة والارشاد بين الناس، طهر معين التصوف من الاكدار، تنامت دعوته في القارة الهندية حتى ظهر من ثمارها الملك الصالح «اورنك زيب» فانتصر المسلمون في زمانه وهان الكفار. انتشرت طريقته «النقشبندية» في ارجاء العالم الاسلامي بوساطة العلامة خالد الشهرزوري المشهور بمولانا خالد (١١٩٢ - ١٢٤٣هـ). له مؤلفات عديدة اشهرها «مكتوبات» ترجمها الى العربية محمد مراد في مجلدين، وسمّاها «الدرر المكنونات» والعبارة المذكورة في المكتوب الخامس والسبعين من المجلد الاول، وهي: «.. ولكن لابد من ان تراعي شرطاً واحداً وهو: توحيد قبلة التوجه...».

(٢) الامام الغزالي: (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) ابو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي، فقيه ومتكلم وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني واجتماعي، وصاحب رسالة روحية، كان لها اثرها في الحياة الاسلامية. ولد بطوس من اعمال خراسان، ودرس علوم الفقهاء وعلم الكلام على امام الحرمين، وعلوم الفلاسفة وبخاصة الفارابي وابن سينا وعلوم الباطنية، فلم يجد في هذه العلوم مايشبع حاجة عقله الى اليقين ولا ما يرضي رغبة قلبه في السعادة واشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية وارتحل الى بلاد كثيرة منها دمشق وبيت المقدس والقاهرة والاسكندرية ومكة والمدينة. ومن مصنفاته (احياء علوم الدين) و (تهافت الفلاسفة) و (المنقذ من الضلال).

(٣) مولانا الرومي: (٦٠٤- ٦٧٢هـ)(١٢٠٧- ١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وانواع العلوم، ثم متصوف صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية المستغن عن التعريف في ستة وعشرين الف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس) استقر في (قونية) سنة ٦٢٣هـ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الاسلامية، فتولى التدريس بقونية في اربع مدارس بعد وفاة ابيه سنة ٦٢٨هـ من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه مافيه، مكتوبات.

والعقل، فسار فيها – اي في المقامات – ورأى مافيها بتلك الابصار كلها، منفتحةً من غير غضٍ ولاغمض.

فحمداً لله على ان وُفّق على جمع الطريقة مع الحقيقة بفيض القرآن وارشاده، حتى بيّن برسائل النور التي ألفها « سعيد الجديد » حقيقة:

وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد(١)

النقطة الثانية:

لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب كالامام الغزالي والامام الرباني وجلال الدين الرومي. فبادر الى ضماد جراحات قلبه وروحه، وخلّص نفسه من الوساوس والاوهام. وبخلاصه منها انقلب سعيد القديم الى سعيد الجديد، فألّف بالعربية ماهو بحكم المثنوي الشريف – الذي هو أصلاً بالفارسية – رسائل عدة في أوجز العبارات. وكلما سنحت له الفرصة أقدم على طبعها، وهي: «قطرة، حباب، حبة، زهرة، ذرة، شمة، شعلة، ودروس اخرى» مع رسالتين بالتركية وهما: لمعات ونقطة. وبيّن ذلك المسلك في غضون نصف قرن من الزمان في « رسائل النور» التي لم تقتصر على جهاد النفس والشيطان، بل اصبحت شبيهة بمجموعة كلية واسعة من « المثنوي » تنقذ الحيارى المحتاجين وتنتشل المنساقين الى الضلالة من اهل الفلسفة.

النقطة الثالثة:

ان المناظرة الجارية بين ذينك السعيدين – سعيد القديم والجديد – كانت دافعة للشيطان، قاهرةً للنفس، حتى غدت « رسائل النور» طبيبة حاذقة لذوي الجراحات من طلاب الحقيقة، واصبحت مُلزمةً ومُسكتةً لأهل الالحاد والضلالة.

فتبيّن ان هذا « المثنوي العربي » كان نواة لرسائل النور، وغرساً لها، يُخلّص الناس من شبهات الشياطين من الانس والجن.. ولايخفى أن تلك المعلومات في حكم المشهودات، وأن يقين العلم كعين اليقين، يورث القناعة ويوجب الاطمئنان التام.

(١) لابى العتاهية في ديوانه وينسب الى علي كرم الله وجهه ونسبه ابن كثير في تفسيره الى ابن المعتز.

النقطة الرابعة:

لما كان اكثر اشتغال سعيد القديم بعلمَي الحكمة والحقيقة ويناظر عظماء العلماء ويناقشهم في أدق المسائل واعمقها، ويراعي درجة أفهام طلابه القدامى المطلعين على العلوم الشرعية العالية، فضلا عن انه يشير الى ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية، بأدق العبارات واقصر الجمل التي لايفهمها الاّ هو؛ لذا قد لا يدرك قسم منها – بعد جهد جهيد – إلاّ الراسخون في العلم.

فلو كانت تلك الخواطر القلبية مبيّنة بعبارات سهلة مفصلة وموضحة بايضاح يقربها الى الافهام لكان ذلك «المثنوي العربي» معينا تاماً لرسائل النور ومعاوناً لها في وظيفتها.

فتبيّن أن «المثنوي العربيّ» – وهو مشتل رسائل النور وغراسها – قد سعىٰ كالطرق الخفية الى المعرفة الالهية، في تطهير الانفس والداخل من الانسان، فوفّق الى فتح الطريق من الروح والقلب.

بينما «رسائل النور» – التي هي بستانه اليانع – قد فتحت طريقاً واسعاً الى معرفة الله، بتوجهها الى الآفاق الكونية – كالطرق الجهرية – فضلا عن جهادها في الانفس، حتى وكأنها عصا موسى – عليه السلام – اينما ضربتْ فجّرت الماء الزلال.

وكذا فان «رسائل النور» ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتَبسٌ من الإعجاز المعنوي للقرآن يُخرج زلال معرفة الله من كل شئ، فيستفيد السالك في «رسائل النور» في لحظةٍ مالا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة..

وذلك سرٌ من اسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد ويدفع به هجوم اهل العنادْ.

النقطة الخامسة:

انك ترى في ثاني «المثنوي» اعني تلك المجموعة العربية، من المسائل والحقائق الدقيقة التي من شأنها أن يكون كلٌ منها موضوعاً لرسالة.. قد ذُكرتْ ضمن الفاظٍ ضيقة لاتَسعها، وفي سطور معدودة لاتستوعبها.. وافردت تلك المسائل بذكر: اعلم.. اعلم في اوائلها. فلاتظنن ان المسائل التي كل منها موضوعٌ لرسالة ومشيرٌ الى حقائق متخالفة بعضها عن بعض كلها من فن واحد، او عائد الى مقام واحد، او كاشف عن جواهر صَدفٍ واحد، قائلاً في نفسك: ان ذكر «اعلم» وتكراره في رؤوس هذه المسائل مما لافائدة له ولاطائل تحته؛ لأن كلاً منه عنوان وفهرس لرسالة وحقائق، وتكراره انما هو للاشارة الى مابين تلك المسائل من المغايرة.

فعلى القراء الكرام ان يضعوا هذه النقاط المذكورة آنفاً نصب اعينهم كيلا يبادروا الى الاعتراض(١).

سعيد النورسي

* * *

(١) قد ترجم المترجم مقدمة هذا (المثنوي) قرب صاحب «المثنوي الاول» – جلال الدين الرومي – في مدينة قونية في تركيا. وهذا ليس من التصادف، بل فيه اشارة وحكمة لا اقدر ان اعبر عنها.

(عبدالمجيد)

تنبيــه
إخطـار
إعتـذار !

اعلم!

ان هذه الرسالة نوعُ تفسيرٍ شهودي لبعض الآيات القرآنية. وما فيها من المسائل، ازاهيرٌ اقتطفت من جنّات الفرقان الحكيم، فلايوحشك مافي عباراتها من الاشكال والاجمال والايجاز، فكرر مطالعتها حتى ينفتح لك سر تكرار القرآن؛ امثال ﴿ **لَهُ مُلكُ السّمٰوات والارض** ﴾.

ولاتخف من تمرد النفس؛ لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادتْ وذلّلت تحت سطوة مافي هذه الرسالة من الحقائق! بل شيطاني الرجيم أفحم وانخنس.

كُن مَن شئت، فلانفسُك اطغى واعصى من نفسي، ولاشيطانُك اغوى واشقى من شيطاني.

ايها القارئ!

لاتحسبَنّ براهين التوحيد ومظاهره في (الباب الاول) [1] يغني بعضها عن بعضٍ.. مطلقاً. اذ شاهدتُ الاحتياج الى كل واحدٍ في مقام مخصوص، اذ قد تلجئ الحركة الجهادية الى موقع لابد للخلاص من فتح بابٍ في ذلك الموقع؛ إذ لا يتيّسر في ذلك الآن التحول الى الابواب الأُخر المفتوحة.

---

(١) جاء هذا التنبيه في (الطبعة الاولى) مقدمة لرسالة «قطرة من بحر التوحيد» الاّ ان اهميته جعلته يتصدر المجموعة العربية كاملة.

وكذا لاتظنن أني باختياري أشكلتُ عليك عبارة هذه الرسالة؛ اذ هذه الرسالة مكالمات فجائية مع نفسي في وقتٍ مدهش. والكلمات انما تولدتْ في اثناء مجادلة هائلة كإعصار يتصارع فيها الانوارُ مع النيران، يتدحرج رأسي في آن واحد من الأوج الى الحضيض، ومن الحضيض الى الأوج، من الثرى الى الثريا؛ اذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود. فكلما صادفتُ نوراً نصبتُ عليه علامة لأتذكّره بها. وكثيراً ما أضع كلمةً على مالايمكن لي التعبير عنه، للإخطار والتذكير، لا للدلالة.. فكثيراً مانصبتُ كلمة واحدة على نور عظيم..

ثم شاهدت أن اولئك الانوار الذين يمدونني في بطون ارض الظلمات ماهم الاّ شعاعات شمس القرآن تمثلوا لي مصابيح..

اللهم اجعل القرآن نوراً لعقولنا، وقلوبنا، وارواحنا ومرشداً لأنفسنا.. آمين

يامن نظر في كتابي! ان استفدت منه شيئاً

لابد أن تفيدني فاتحةً او دعاءً خالصاً في سبيل الله.

* * *



الرسالة الاولى



مِنْ شَمْسِ ٱلتَّوْحِيدِ

[النص العربي للكلمة « الثانية والعشرين »]

هذه الرسالة مع الرسالتين الموسومتين بـ(رشحات، لاسيما) عبارة عن رسالة واحدة في الطبعة الثانيـة، الاّ ان كلا منهـا رسالة مستقلة في المخطوط وفي التـرجمـة التركيـة ، فآثرنا فـصلها الى رسائل مستقلة.

هذا وان الرسائل الثلاث من تأليفات « سعيد الجديد » بـاللغة العربية ألّفها في « بارلا » بعد نفيه اليها سنة ١٩٢٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك يامن تُسبِّحُ بحمدك هذه الكائناتُ السيالة بتسبيحات لِسان محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ إذ هو الذي تتموج اصديةُ تسبيحاته لك، على امواج الاجيال، وافواج الاعصار، بمَر الفصول والعصور والادوار.

اللهم فأبّد على صفحات الكائنات وعلى اوراق الاوقات، أصديةَ تسبيحاته عليه الصلاة والسلام الى يوم القيامة والعرَصَات.

سبحانك يامَن تُسبِّحُ بحمدك الارضُ، ساجدةً تحت عرش عظمة قدرتك بلسان محمدها عليه افضلُ صلواتك واجمل تسليماتك؛ اذ هو الناطقُ والمترجمُ لتسبيحات الارض لك بألسنة احوالها. وبرسالته استقرت الارضُ في مستقرها في مدارها.

اللهم فأنطق الارضَ بأقطارها الى نهاية عمرها بتسبيحات لسانه عليه الصلاة والسلام.

سبحانك يامَن يُسبِّحُ بحمدك جميع المؤمنين والمؤمنات، في جميع الأمكنة والاوقات، بلسان محمدهم عليه اكملُ الصلوات واتم التسليمات؛ اذ هو الذي تتظاهر أنوار تسبيحاته لك من افواه اهل الايمان.

اللهم فأنطق بني آدم الى آخر عمر البشر بتسبيحات محمدك لك، عليه صلاتك وسلامك كما يليق بحرمته وبرحمتك وارحمنا وارحم أمته. آمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

في بيان جواهر من خزائن هذه الآيات:[1]

﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شئٍ وهوَ على كُلِّ شَئٍ وَكِيلٌ ۞ لَهُ مَقَاليدُ السَّمٰواتِ والارضِ ﴾[2]

﴿ فَسُبحَانَ الَّذي بيدهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شئٍ ﴾[3]

﴿ وإنْ من شئٍ إلاّ عِندَنا خَزائنهُ ﴾[4]

﴿ مَا من دآبةٍ إلاّ هُوَ آخِذٌ بِناصيتِها ﴾[5]

■ يا ايها الغافل المنغمس في الاسباب! انّ الاسباب حجابُ تصرّف القدرة؛ اذ العزةُ والعظمة تقتضيان الحجاب، لكنَّ المتصرف الفعال هو القدرة الصمدانية؛ اذ التوحيد والجلال هكذا يقتضيان. اذ سلطان الازل له مأمورون، لكن ليسوا وسائط الإجراء حتى يكونوا شركاء سلطنة الربوبية، بل هم من الدلالين الذين يُعلنون إجراآت الربوبية، ومن النُظّار الذين يشاهدون ويشهدون، ويكتسبون – في الانقياد للاوامر التكوينية – عباداتٍ تُناسبُ استعداداتهم. فهذه الوسائط لإظهار عزةِ القدرة وحشمة[6] الربوبية.

---

(١) الدرس الرابع عشر من كتاب «المدخل الى النور» (Nurun İlk Kapısı) الذى يعدّ اول مؤلفات «سعيد الجديد» بالتركية.

(٢) الزمر: ٦٢، ٦٣

(٣) يس: ٨٣

(٤) الحجر: ٢١

(٥) هود: ٥٦

(٦) عظمتها وهيبتها.

وامّا السلطان الانسانيّ، فلعجزه واحتياجه يحتاج الى وسائط ومأمورين يشتركون في سلطنته. فلا مناسبة(١) بين المأمور الالهي والانساني.

نعم، ان نظر اكثر الغافلين لايدرك حُسنَ الحادثات ولايعرف حكمَتَها، فيشتكي بلاحقٍ، ويعترض جهلاً. فُوضِعَت الاسبابُ لتتوجه الشكاوى اليها. واذا وُفِّقَ احدٌ لدَرك الحكمة والحقّ ارتَفعَت الاسبابُ عن نظره.

وقد قيل بتمثيل معنوي: انّ عزرائيل (عليه السلام) اشتكى اليه تعالى: بان عبادك يشتكون منّي في قبض الارواح، فالُقي اليه: انّي اضع بينك وبينهم، وسائط المصيبات حتى يتوجّه شكواهم اليها لا إليكَ..

الحاصل:

إنّ العزةَ والعظمة تقتضيان وضع الاسباب الظاهرية لردّ الشكايات الباطلة، ولئلا يرى العقل الظاهريُ مباشرةَ يد القدرة بالامور الخسيسة الجزئية. ولكن التوحيد والجلال يردّان ايدي الاسباب عن التأثير الحقيقي.

تنبيه:

انّ التوحيد توحيدان:

الاول: توحيد عامي يقول: «لاشريك له، ليس هذه الكائنات لغيره» فيمكن تداخل الغفلات بل الضلالات في افكار صاحبه.

والثاني: توحيد حقيقي يقول: «هو الله وحدَه له الملك، وله الكون، له كل شئ» فيرى سكتّه(٢) على كل شئ ويقرأ خاتمه على كل شئ، فيثبته له اثباتاً حضورياً. لايمكن تداخل الضلالة والاوهام في هذا التوحيد.

فنحن نُسمِعُكَ لمعاتٍ من هذا التوحيد التي استفدناها من القرآن الحكيم:

---

(١) اي لا يمكن الموازنة والمقايسة.

(٢) السكة: شارة الدولة الموضوعة على مسكوكاتها.

اللمعة الاولى:

ان للصانع جل جلاله على كل مصنوع من مصنوعاته سكةً خاصةً بمن هو خالق كل شئ.. وعلى كل مخلوق من مخلوقاته خاتمٌ خاص بمن هو صانع كل شئ.. وعلى كل منشور من مكتوبات قدرته طغراء (١) غرّاء لاتُقلّد خاص بسلطان الازل والابد.

مثلاً: انظر ممالايعد من سكاته، الى هذه السكة التي وضعها على «الحياة». انظر الى الحياة كيف يصير فيها شئ كلّ شئٍ. وكذا يصير كلُّ شئٍ شيئاً.

نعم! يصير الماء المشروب – باذن الله – مالايعد من اعضاءٍ وجهازاتٍ حيوانية، فصار شئ بامر الله كلّ شئ. وكذا يصيرُ جميعُ الاطعمة المختلفة الاجناس – باذن الله – جسماً خاصاً وجلداً مخصوصاً وجهازاً بسيطاً، فيصير كلُ شئ شيئاً لامر الله. فمَن كان له عقل وشعور قلب يفهم: انّ جعل شئٍ كلّ شئ وجعل كلّ شئٍ شيئاً سكةٌ خاصة بصانع كل شئ وخالق كلّ شئ جلّ جلاله.

اللمعة الثانية:

انظر الى خاتم واحد من الخواتم الغير المعدودة الموضوعة على «ذوي الحياة» وهو:

ان الحيّ بجامعيته كأنه مثالٌ مصغّر للكائنات، وثَمر مُزْهرٌ لشجرة العالم، ونَواةٌ منوّرة لمجموع الكون، أدرج الفاطر فيه انموذج اكثر انواع العَالم، فكأنَّ الحيَّ قطرةٌ محلُوبةٌ من مجموع الكون بنظامات حكيمة معينة، وكأنه نقطةٌ جامعةٌ مأخوذة من المجموع بموازين حساسة علمية، فلايمكن ان يَخْلُقَ أدنى ذي حياةٍ إلاّ مَن يأخذ في قبضة تصرفه مجموعِ الكائنات. فمَن كان له عقل لم يفسد يفهم: أن مَن جعل النحل – مثلا – نوع فهرستةٍ(٢) لأكثر الاشياء، ومن كتب في ماهية الانسان اكثر مسائل كتاب الكائنات، ومَن ادرج في نواة التينة هندسة شجرة التين، ومَن جعل قلب البشر انموذجاً ومرصاداً لآلاف عوالم، ومَن كتب في حافظة البشر مفصل تاريخ حياته وما يتعلق به.. ليس إلاّ خالق كل شئ، وان هذا التصرف خاتمٌ مخصوص برب العالمين.

(١) الطرة او الطغراء: علامة ترسم على المناشير السلطانية.

(٢) فهرس او فهرست: كلمة معربة، وفهرستة هنا للافراد.

اللمعة الثالثة:

انظر الى نقش طغرائه المضروب على «الإحياء، واعطاء الحياة».. نذكر ممالايعد واحداً وهو أنه:

كما أن للشمس على كل شفاف – او كشفاف – من السيارات، الى القطرات، الى الذرات الزجاجية، والزجيجات الثلجية[1] سكة مثالية من جلواتها وطغراء غرّاء خاصة بها..

كذلك انّ للشمس الاحدية السرمدية[2] على كل ذي حياة من جهة الإحياء وافاضة الحياة، طرةً وسكةً من تجلي الأحدية تظهر بخصوصية، لو اجتمع الاسبابُ – بفرض الاقتدار والاختيار لها – على ان يقلدوا ويأتوا بمثلها لم يفعلوا ﴿ **ولَوْ كَانَ بَعضُهُمْ لِبعضٍ ظَهيراً** ﴾[3].

فكما انه لو لم تُسند تماثيل الشمس[4] المتلألئة في القطرات، الى تَجلي الشمس، يلزم عليك ان تقبل شُميسة حقيقيةً وبالاصالة في كلّ قطرة قابلتها الشمسُ وفي كل زجاجة اضاءتها الشمسُ بل في كل ذرةٍ شفّافةٍ تشمّسَتْ. وما هذا الفرض إلاّ بلاهة من اعجب البلاهات..

كذلك انك لو لم تُسند كلَّ حي وحياة وإحياء بواسطة تجلي الأحدية الجامعة، وبواسطة كون الحياة نقطة مركزية لتجلي الاسماء – التي هي اشعةُ شمس الازل والابد – لَزِمَ عليك ان تَقبَل في كل ذي حياة – ولو ذبابةٍ او زهرة – قدرةً فاطرةً بلا نهاية وعلماً محيطاً وارادةً مطلقة. وكذا، صفاتٍ لايمكن وجودها إلاّ في الواجب الوجود. حتى تضطرَّ ان تعطي لكل ذرةٍ الوهيةً مطلّقة، إنْ اسنَدت الشئ الى نفسه، او تقبل لكلِ سبب من الاسباب الغير المحدودة الوهية مطلقة ان اسندت الشئ الى الاسباب. وتَقْبَل شركاء غير متناهية في الالوهية التي شأنها الاستقلالية التي لاتَقبَلُ الشركة اصلاً.

---

[1] البلورات الثلجية.

[2] الشمس السرمدية تعبير مألوف في الادب التركي والفارسي بحق الله جلّ جلاله المنّور لكل شئ بخلاف الادب العربي.

[3] الاسراء: ٨٨

[4] اي صورتها المرتسمة في القطرة حيث انها صورة مثالية.

اذ إنَّ كل ذرة – لاسيما اذا كانت من البذرة والنواة – لها وضعية منتظمة عجيبة، ولها مناسبة مع اجزاء الحي الذي هي جزءٌ منه، بل لها مناسبات مع نوعه، بل مع الموجودات، ولها وظائف في نِسبها كالنفر(١) في الدوائر العسكرية. فلو قطعت نسبة الذرة عن القدير المطلق، لزمكَ ان تقبل في الذرة عيناً ترى كل شئ وشعوراً يحيط بكل شئ.

الحاصل: كما انه لو لم تُسنِد الشُّمَيسَاتِ المشهودة في القطرات الى جلوة الشمس في ضيائها، لزمك قبول شموس غير محصورة في اشياء صغيرة تضيق عن نُجيمة الذبيبة التي تطير في الليل(٢)...

كذلك لو لم تُسند كل شئ الى القدير المطلق الذي تتساوى بالنسبة الى قدرته الذراتُ والشموس، والجزء والكل، والجزئي والكلي(٣)، والصغير والكبير.. لزمك قبول آلهاتٍ(٤) غير متناهية وسقطتَ في بلاهة من اشنع البلاهات.

اللمعة الرابعة:

فكما ان الكتاب لو كان مكتوباً، يكفي له قلمٌ واحدٌ لواحدٍ. ولو كان مطبوعاً، يلزم لطبعه اقلام بعدد حروفه – على شكل حروفه – واشتراك كثيرين لتصنيع تلك الاقلام، اي الحروف الحديد. ولو كتب بخط دقيق اكثر الكتاب في بعض الكلمات – كما قد تُكتب سورة (يس) في كلمة (يس)(٥) – فحينئذ لابد لطبع تلك الكلمة الواحدة اقلامٌ حديدية بعددحروف أكثر الكتاب..

كذلك هذه الكائنات اذا قلتَ أنها مكتوبة بقلم الواحد الاحد، سلكت طريقاً سهلاً معقولاً في نهاية السهولة بدرجة الوجوب، واذا اسندتَها الى الطبيعة والى الاسباب، سلكت طريقاً في نهاية الصعوبة بدرجة الامتناع وفي نهاية عدم المعقولية

(١) الجندي الفرد.

(٢) اليراعة: وهي حشرة تطير ليلاً كانها نار.

(٣) من الاصطلاحات المستعملة في علم المنطق والكلام، وللتوضيح نقول: ان اليد والعين كلاً منهما «جزء» من الجسم الذي هو «كل». اما الانسان الذي هو اسم للنوع او للجنس الشامل لأفراد كثيرة فهو «كلي»، وكل فرد من الناس «جزئي». وكذا «الكائن الحي» الذي يندرج تحته كل ذي حياة هو «كلي» بينما نملة او نحلة مثلاً «جزئي».

(٤) جمع آلهة التي هي جمع قلة.

(٥) كما كتب خطاطون بارعون لوحات فنية فيها سورة «يس» كاملة في كلمة «يس».

بدرجة المحالية؛ لانه يلزم على الطبيعة ان تُحضِر لطبع كل حي كلَّ ما يلزم لأكثر الكائنات. فهذه من الخرافات التي تمجّها الاوهام. بل لابد ان تُوجِد في كل جزء من التراب والماء والهواء؛ إمّا ملايين مطبعات معنوية وماكينات مستترة فيه حتى بعدد الازهار والاثمار، ليُمكِن تَشكّل هاتيك الازاهير والثمرات المتخالفة الجهازات والماهيات.. وإمّا فَرضُ وجودِ قدرةٍ قادرةٍ على تصنيع جميع النباتات، ووجودِ علمٍ بلا نهاية محيطٍ بتفاصيل جميع خواصّ جميع الاشجار والمتزهرات وجهازاتها وموازينها، في كلّ جزء من التراب والماء والهواء؛ اذ كل جزء من هذه الثلاثة يَصلَح انْ يصير منشأً لتشكل كل النباتات او اكثرها.

فافرض قصعة تراب، ثم افرض دخول كل بذر ونواة فيها على التعاقب، ثم افرغ القصعة واملأها من صُبْرَة(١) التراب حتى تكيل كل التراب، ترى النتيجة واحدة. على ان المشهود يكفيك؛ اذ تُشاهد في سيرك في الارض منشأية اكثر اجزاء التراب لأكثر النباتات، مع ان تشكل كل واحد واحدٍ من النباتات المزهرة والمثمرة، مخالف لكل واحدٍ واحدٍ منها؛ وكل واحد منها له من الانتظام والاتزان والامتياز طرز خاص وخصوصية تستلزم جهازات مخصوصة، وماكينة خاصة، ومطبعة تخصه، بل تستلزم وجود كل جهازاتْ تشكيل تمام الشجرة والنبات في كل واحد مِن نواته وبذرهٍ، مع بساطة البذور والنواتات(٢) وتشابهها. فيلزم على الطبيعة ان تُحضر معنىً جهازات تشكل كل الاشياء وماكيناتها المعنوية واسبابها في كل شيءٍ شيءٍ. فهذه سفسطة يتنفّر منها السوفسطائي ايضاً، وخرافة يخجل منها من يُضحِكُ الناس بنقل الخرافات.

اللمعة الخامسة:

انظر! كما ان كل حرف من كتاب يدل على نفسه بمقدار حرف وبوجه واحد، لكن يَدُل على كاتبه بوجوه ويعرّفُ نقّاشه بمقدار سطر(٣)..

كذلك كلُّ حرفٍ مجسمٍ من كتاب الكائنات يدل على نفسه بمقدار جرمه ويُظهر ذاته بمقدار صورته، لكن يدل على صانعه بوجوه كثيرة، افراداً وتركيبا

(١) صُبْرَة: ما جمع من الطعام بلا كيلٍ و لا وزن.
(٢) تجمع النواة: نوى، ونويات، وانواء، ونوى. اما هنا فقد جمعت جمعا مؤنثا سالما.
(٣) اي كأن يقول: ان كاتبي يتقن اللغة ويحسن الكتابة ويملك القلم.. وهكذا.

بدخوله في المركبات. ويُظهر اسماءَ صانعه ويُنشد في بيانها بمقدار قصيدة طويلة؛ فعلى هذا لو تحَمَّقَ احدٌ كالهبنّقة(١) فانكر نفسه وانكر الكائنات، ينبغي ان لا يتجاسر باظهار نهاية البلاهة على انكار الصانع.

اللمعة السادسة:

انظر! كما ان الصانع سبحانه وضع على كل جزئي جزئيٍ خاتمه الخاص، وضرب على كل جزءٍ جزءٍ سكّته المخصوصة - كما مرّ - كذلك وضَع على كل نوع نوع وعلى كل كُلٍ كُلٍ خاتمه الخاص، وختَم اقطار السموات والارض بخاتم الواحدية، وضرب على مجموع العالم سكة الاحدية بصورة جلية واضحة.

فانظر الى خاتمه الذي اشارت اليه آية: ﴿**فَانْظُرْ الى آثارِ رَحْمَت الله كيفَ يُحيي الارضَ بَعدَ مَوتِها انَّ ذلكَ لَمُحيي المَوتى وهوَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ**﴾(٢). إذ في كيفية إحياء الارض حشرٌ عجيب، ونشر غريب، يُحشَر في إحيائها ازيد من ثلاثمائة ألف نوع، تُساوي افرادُ نوعٍ واحد - من كثير من تلك الانواع - في السنة مجموع افراد الانسان في الدنيا؛ لكن لحكمة خفية لاتعادُ في الأكثر بأعيانها، بل بأمثالها بمثليةٍ كالعينية!.. وكيفما كان فلا بأس في دلالتها على سهولة حشر البشر، وفي كونها امثلة النشر واشارات الحشر.

فإحياء تلك الانواع الكثيرة المختلطة المشتبكة في نهاية الاختلاط والاشتباك بنهاية الامتياز، واعادتها في كمال التمييز، بلا خطأ ولا خلط، بلا غلط ولاسقط، خاتمٌ خاص بمَن له قدرة بلانهاية وعلم محيط..

وكذا كتابةُ ثلاثمائة ألف كتاب مختلفة بل ازيد في صحيفة سطح الارض؛ مختلطةً لكن في نهاية الانتظام بلا سهو ولا مزج، ومشتبكةً لكن في نهاية الانتظام بلا نقص ولا بخس، وممتزجةً لكن في نهاية التمييز والتشخيص بلاقصور ولافطور!.. سكةٌ خاصة بمن: بيده ملكوت كل شئٍ، وبيده مقاليد كل شئ، ولايُشغله شئٌ عن شئٍ.

(١) أحمقُ من هبنّقة مثل يضرب لشدة الحماقة . حيث « هبنقة » ما كان يعرف الأ نفسه، ولا يعرف نفسه الاّ بقلنسوته، واذا ما رآها على رأس احد ظنّ انه نفسه ! (مجمع الامثال للميداني)

(٢) الروم : ٥٠

فيا من يستبعد الحشر مستنكراً له! انظر كيف ترى في كيفية إحياء الارض مائة ألف امثلته واشاراته في ستة اسابيع!.. فمَثَلُك في استبعادك الانكاري، كمثل:

مَن يرى ذاتاً ذا معجزات يكتب في آن واحد في صحيفة واحدة كتباً كثيرة مندرسةً بقيت[1] في حافظته، او يؤلفها جديدةً امثال المندرسة، فقيل له: سيكتب هذا الكاتبُ كتابك الذي هو الّفه فمَحاه الماءُ، في صحيفة في طرفة عين. فقال: كلاّ، كيف يمكن كتابة كل ما اندرس من حروفاته في آن واحد؟! فقاس الكاتبَ الحفيظَ القديرَ ذا الاعجاز على نفسه الجاهلة العاجزة..

ومَنْ يقول لمن يرفع الجبال – بالاشارة – لإظهار عظمته او سلطنته: هو لايرفع هذه الصخرة العظيمة التي سدّت الطريق على المسافرين الذين دعاهم الى بستان نعَمه!.. ما هو الاّ مجنون أبله.

نعم، للربوبية في هذا التصرف العظيم الربيعي خاتمٌ عالٍ عظيم دقيق النقش، هو الاتقان المطلق في الانتظام المطلق، في الجود المطلق في الوُسعة[2] المطلقة، في السرعة المطلقة في السهولة المطلقة، في الامتياز المطلق مع الاشتباك المطلق. فهذا الخاتم يختص بمن لايمنعه فعلٌ عن فعل، ولايغيب عنه شئ، ولايثقل عليه شئ.

نعم، نشاهد في الربيع في وجه الارض فعالية حكيمة بصيرة كريمة، وصنعة خارقة في آن واحد في كل مكان بطرزٍ واحد في كل فرد وبإتقان ممتاز في جود مطلق بانتظام مكمّل في سرعة مطلقة بابراز خوارق منتظمةٍ، في سهولة مطلقة في وُسعة مطلقة، فما هذه الفعالية الاّ خاتمُ مَن؛ كما انه ليس في مكانٍ، هو في كل مكان، حاضر ناظر بقدرته وعلمه لايؤوده شئ ولا يستعين بشئ..

اللمعة السابعة:

انظر! كما يُشَاهَدُ على صحيفة الارض، ويُتراءى على اقطار السموات والارض خاتمُ الاحد الصمد، كذلك يشاهَدُ على «مجموع العالم» خاتم التوحيد واضحُ النقش بدرجة كُبره؛ اذ هذا العالم كالقصر المحتشم، كـ(الفابريقة)[3] المنتظمة،

(١) في الاصل: بقت . وهي صحيحة على لغة طئ لانهم يرجعون ماضي الافعال الثلاثية المعتلة الى وزن (فعل) بفتح العين. الاّ اننا جعلناها «بقيت» المستعملة كما وردت في «اشارات الاعجاز».

(٢) الوسعة والسعة والتوسعة بمعنى: الاتساع.

(٣) المعمل او المصنع

كالبلد المكمل، فيما بين اجزائه – كاجزائها وافرادها – معاونة حكيمة ومجاوبة كريمة؛ اذ يَسرَعُ بعض الاجزاء لمعاونة بعض، في الطرق الطويلة المعوَجّة بلا انحراف وبانتظام، وفي وقت الحاجة، ومن حيث لايحتسب. فانظر تَرها قد مدَّ بعضٌ يَدَ المعاونة لحاجة بعض. وفي هذا التعاون تجاوبٌ بـ: لبيك لبيك! بألسنة الاحوال لأسئلة الأغيار والامثال.. قد اخذ بعضٌ يَدَ بعضٍ فيسعون ويعملون بالانتظام يداً في يد، ويَخدمُونَ ذوي الحياة رأساً مع رأس، ويتوجهون الى غاية، ويطيعون مدبّراً واحداً كتفاً بكتف.

فانظر الى دستور «التعاون» كيف يجري من الشمس والقمر ومن الليل والنهار ومن الصيف والشتاء، الى سعى النباتات لإمداد الحيوانات بحمل ارزاقها واخذها من خزينة الرحمة.. ثم إمداد الحيوانات للبشر للخدمة، حتى النحل والدود يأخذان العسل والحرير من خزينة الرحمن، ويوصلانهما الى الانسان.. ثم امداد الذّرات الغذائية للثمرات، مع تخالف اغذيتها، وامداد المواد الطعامية لتغذية حجيرات البدن بكمال الانتظام والعناية والحكمة!.

فمظهرية هذه الاشياء لاسيّما الجامدة لهذا التعاون الحكيم المنتظم الكريم المكمَّل دليلٌ واضح وبرهان ساطع على انها خدامُ مربٍ حكيم وعَمَلة مدبرٍ كريمٍ يتحركون بأمره وإذنه وقوته وحكمته.

اللمعة الثامنة:

انظر! ان ما يشاهَد من «الرزق» المُوزَّع على المرتزقين على قدر حاجاتهم، بطرز يناسب كل واحدٍ واحدٍ منهم.. وهذا الرزق العامُّ في هذه الرحمة الواسعة المشهودة المتضمنة للتودد والتعرّف.. وهذه الرحمة الواسعة في هذه العناية التامة المتضمنة للتلطيف والاكرام.. وهذه العناية المشهودة في هذه الحكمة العامة المتضمنة للقصد والشعور.. وهذه الحكمة المشهودة في هذا الانتظام المشهود.. وهذا الانتظام في ضمن هذه المسخّرية المشهودة .. وهذه المسخرية في ضمن هذا التعانق مع التجاوب.. وفي ضمن هذا التساند مع التعاون فيما بين اجزاء الكائنات.. خاتمٌ خاص بمن هو رب كل شئ ومربّى كل شئ ومدبّر كل شئ.. وسكة مخصوصة بمن

الشمس والقمر والنجوم مسخّراتٌ بأمره: ﴿الّذي أحسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ﴾(١) ﴿اذا أرادَ شيئاً انْ يقُولَ لَهُ كُنْ فيكونُ﴾(٢)...

اللمعة التاسعة:

فكما رأيت خاتم الأحدية على الجزئيات، وعلى الارض، وعلى العالم؛ فانظر ترَ ذلك على الانواع المنشورة، وعلى العناصر المحيطة.

فكما ان زرع بذرٍ في مزرعة يدل على ان المزرعة في تصرّف صاحب البذر، وان البذر لمتصرف المزرعة؛ يشهد هذا لذاك، وذاك لهذا.. كذلك، ان هذه العناصر التي هي مزرعة المصنوعات، بلسان واحديّتها وبساطتها في كليتها واحاطتها بطرز متعيّنٍ بعلمٍ، وبصورة مُحكمة بحكمة.. وان هذه المخلوقات التي هي ثمرات الرحمة ومعجزات القدرة وكلمات الحكمة، بلسان انتشارها الحكيم، مع المماثلة في الاشخاص، وبلسان توطنها في الأطراف المتباعدة، بتوزيعٍ عجيب حكيم مع المشابهة في الافراد.. تشهدان على ان المحيط والمحاط والمزارع والبذور، في قبضة تصرف صانع واحد. فكل نوع وكل عنصر يشهد لكلٍ وللكل؛ بانكم مالُ مَنْ، أنا مالُه!. فيصير كل زهرة وكل ثمرة وكل حيوان وحُوينة سكةً ناطقة وخاتماً متكلماً وطرةً متلفظة بلسان انتظام الحال وحكمة المآل؛ بأن هذا المكان: مُلك مَنْ أنا ملكه!. وصُنعُ مَنْ أنا صنعُه!. ومكتوبُ مَنْ أنا حرفه!. ونسجُ مَن أنا نقشه!...

فعلى هذا، فكما ان التصرف الحقيقي في ادنى مخلوق، والربوبية على اضعف موجود يختصان بمَن دَخَل في قبضة تصرفه جميعُ العناصر.. كذلك ان تدبير اي عنصر كان وتدويره، يختص بمن يربّي جميع الحيوانات والنباتات ويدبّرها ويأخذها في قبضة ربوبيته سبحانه!.. فهذا خاتم توحيد يبصره مَن لم يكن في عينه غين(٣) وعلى قلبه رين.

ايها المتفرعن! جرّب نفسك هل تقدر ان تملك شيئاً من الكون؟.. فاذهب واستمع مايقول كل فرد جزئي. اذ يقول بلسان المِثلية: مَن تَملَّك منجموع نوعي

(١) السجدة: ٧
(٢) يس: ٨٢
(٣) المقصود: غشاوة.

يمكن ان يَدّعي التـملُّكَ عَليّ والاّ فلا.. ثم اذهـب الى النوع تَر كُلَّ نوعٍ يقول بلسـان الانتشار: مَن تملّك الارض ظهراً وبطناً يمكن له ان يَدّعي التملك علي والاّ فلا .. ثم اذهب الى الارض تَرَها تقـول بلسـان التساند بينها وبين اختها السماء: مَن تملَّك مجموع الكائنات يمكن له ان يدّعي التملك علي والاّ فلا.

اللمعة العاشرة:

فـاذا رأيت ما اشـرنا اليـه من بعض خـواتم التوحيـد المضروبة على الجزء والجـزئي والكل والكلي، وكـل العالـم، وعلى الحياة وذي الحيـاة والإحيـاء، فـانظر الى سكة واحدة مما لاتعد من سكات الوحدانية المضروبة على «الانواع والكليات».

نعم! كـما ان كـمية كلفـة تربيـة الشجـرة المثـمرة تسـاوي كلفـة ثمرة واحـدة في السـهولة؛ لوحـدة التربيـة واتحاد التـدبير، إذ لاتّحاد المركـز ووحدة القـانون ووحدانـية التربية تخـففت الكلفةُ والمشقـةُ والمصرف، وتسهّلت بدرجة لافرق بين الشجرة ذات الثمرات الغير المعدودة وهي في يد الوحدة وبين الثمـرة الواحدة وهي في يد الكثرة. فالشركـة والكثرة وتعدد المركـز تحتاج لتربية ثمـرة واحدة، الى كل ما يحتـاج اليه تمامُ الشجـرة بأثمارها من جـهة كـمية الجهازات، ولا فـرق الاّ في الكيفـية. كـما ان كل الفابريقـات والماكينات التي تَعـمل لاستحـصال الجـهازات العسكرية للجـيش العظيم تلزم بتمامها لتـجهيزات نفر واحدٍ والفرق في الكيفيـة فقط. وكما ان اجرَةَ طبع الوف نسخٍ في المطبـعة التي طبـعت كتـابك تسـاوي بل اقل من الاجرة التي اعطيـتهـا لطبع نسخـةٍ واحدة، واذا تركت المطبـعة الواحدة وذهبت الى الكثـرة اضطررت الى اعطاء الوف أُجرٍ.

الحـــاصل: اذا تركت اسناد الكثـرة الغير المحـدودة الى الواحد – فـمع انك تضطر لاسناد شئ واحد الى الكثرة الغير المحدودة – تتـزايد الكلفةُ بعدد الافراد. فما يشاهد في انشاء كل نوع منتشر من السهولة الخارقة فانما هي من يُسر الوحدة والتوحيد.

اللمعة الحادية عشر:

كـما انّ توافق كل افـراد النوع وتشـابهَ كل انواع الجنس في الاعـضاء الاسـاسيـة، يدلاّن على اتحـادِ السكة ووحـدة القلم، الشـاهدان على ان جـمـيع المتـوافـقـات والمتـشابهـات صُنْعُ واحدٍ.. كـذلك هذه السهـولة المطلقـة المشهـودة وخفّة الكلفـة،

تستلزمان بدرجة الوجوب ان يكون الجميع آثار صانع واحد؛ والاّ لَذَهَبَت الصعوبةُ الصّاعدة الى درجة الامتناع بذلك الجنس وبذلك النوع الى العدم. فكما يمتنع شريكُ ذاته سبحانه، وإلاّ لفسد العَالمُ بالخروج عن الانتظام.. كذلك يمتنع شريكُه في فِعْله، والاّ لانعَدَم العالمُ ولم يوجد.

اللمعة الثانية عشر:

انظر! كما ان الحياة برهان الأحدية، ودليل وجوب الوجود، فالموت دليل السرمدية والبقاء. اذ كما ان ظهور قطرات النهر الجاري وحَبابات(١) البحر المتموّج وشفافات وجه الارض المتجددة شاهداتٌ على الشمس باراءة تماثيلها وضيائها، وان زوال تلك القطرات والحبابات والشفافات وغروبَها وأفولَها وفَناءها وموتها مع استمرار تجلي الضياء على امثالها الآتية عقيبها ودوام جلوات التماثيل على كل قافلةٍ سيارةٍ خلفها، شاهداتٌ على بقاء الشمس في تجلياتها ودوام الضياء في جلواتها وعلى ان كل هذه التماثيل والأشعاتِ آثارُ شمسٍ واحدة، فيظهرون وجودها بوجودهم وبقاءها ووحدتها بعدمهم، مع انعدام اسبابهم الظاهرية معهم..

كذلك هذه الموجودات تشهد بوجودها على وجوب وجود الواجب الوجود، وتشهد بزوالها مع اسبابها ومجيئ امثالها عقيبها على ازليته وسرمديته وأحديته؛ اذ إن تجدّد المصنوعات الجميلة وتبدلَ الموجودات اللطيفة وغروبَها في طلوع امثالها وافولَها في ظهور اشباهها عند اختلاف الليل والنهار وعند تحول الفصول وتبدل العصور، تَشهَدُ شهادةً قاطعةً على وجود ذي جمالٍ مجرد سرمدي عالٍ دائم التجلي، وعلى بقائه ووحدته.. وان زوال الاسباب السفلية مع المسبَّبات في الانقلابات السنوية والعصرية، ثم اعادة امثال المسبَّبات مع الاسباب، يشهد قطعاً على ان الاسباب كالمسبّبات عاجزة مصنوعة قورنَت بينها وبينها لِحكَمٍ دقيقة، بل تدل على ان كل هذه المصنوعات اللطيفة السيّالة وهاتيك الموجودات الجميلة الجوّالة انما هي صَنْعَةٌ متجددةٌ للذات الأحدية ذي الجلال والجمال - الذي جميع اسمائه قدسية جميلة - ونقوشهُ المتحولة ومراياه المتحركة وسكاتهُ المتعاقبة وخواتمه المتبدلة.

(١) الحباب: الفقاقيع التي تعلو الماء.

اللمعة الثالثة عشر:

انظر! ان كل شئ من الذرات الى السيارات، ومن النفوس الى الشموس؛ بلسان عجزه في ذاته، يدل على وجوب وجود خالقه، ويشهد بلسان حَمله - مع عجزه - وظائف عجيبة في النظام العمومي على وحدة خالقه.

ففي كل شئ له شاهدان على انه واجب واحد.

وفي كل حي له آيتان على انه احد صمد.

ولقد فهمتُ من فيض القرآن الحكيم ان كل جزءٍ من اجزاء الكائنات يشهد للواجب الوجود الواحد الاحد الصمد بقريب من خمسة وخمسين لساناً فذكرتُها إجمالاً في رسالة عربية تسمى «قطرة» فان شئت فراجعها.

اللمعة الرابعة عشر:

اعلم! ان هذه الموجودات كما تشهد على وجوبه ووحدته سبحانه.. كذلك تشهد على جميع اوصافه الجلالية والجمالية والكمالية.. وكذلك تشهد على كمال ذاته، وعلى انه لانقص ولاقصور لافي ذاته، ولافي شؤونه، ولافي صفاته، ولافي اسمائه، ولافي افعاله؛ اذ ان كمال الاثر يدل على كمال الفعل بالمشاهدة؛ وكمال الفعل يدل على كمال الاسم بالبداهة، وكمال الاسم يدل على كمال الصفة بالضرورة، وكمال الصفة يدل على كمال الشأن الذاتي بالحدس اليقيني، وكمال الشأن يدل على كمال الذات بحق اليقين.

فكما ان مكملية نقوش تزيينات قصر بلا قصور، تُظهر لك مكملية افعال الصانع المهندس المستترة تلك الافعال تحت النقوش، والمتحركة تحت التزيينات.. ومكملية تلك الافعال تصرّح لك بمكملية اسماء ذلك الفاعل، اي: هو صانع ماهر ومهندسٌ عليم ونقاش حكيم، وهكذا.. ومكملية اسمائه تُفصح لك عن مكمّلية صفات المسمى، اي: له علم وحكمة وصنعة وهندسة.. ومكملية صفاته تشهد على مكملية شؤون ذاته، اي: له قابلية فائقة واستعداد جيد.. ومكملية الشؤون تكشف عن وجه مكملية ذاتِ ذلك النقاش بوجه يليق به ويناسب مقامه..

كذلك ان مكملية هذه الآثار المشهودة في هذه الكائنات بلا قصور ولا فطور، تشهد بالمشاهدة الحدسية على مكملية افعال مستترة خلفها.. ومكملية هذه الافعال التي هي كالمشهودة، تشهد بالبداهة على كمال اسماء ذلك الفاعل.. وكمال تلك الاسماء، يشهد بالضرورة على كمال الصفات؛ اذ الاسماء ناشئة من نسب الصفات.. وكمال الصفات يكشف باليقين عن كمال الشؤون الذاتية التي هي مبادئ الصفات القدسية.. وكمال الشؤون يشهد بحق اليقين على كمال الذات بما يليق بجنابه سبحانه. بل مجموع ما في الكائنات من الكمال والجمال انما هو ظل ضعيف مفاض بالنسبة الى كماله عزّ كماله، والى جماله جلّ جمالُه.

* * *

الرسالة الثانية

رَشَحات

مِنْ بَحْرِ مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ترجم الاستاذ النورسي هذه «الرشحات» الى التركية وجعلها «الكلمة التاسعة عشرة» ونحن بدورنا نسّقناها في ضوئها.



بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه:

ان ما يعرّف لنا ربّنا لايعد ولايحد، ولكن البراهين الكبيرة والحجج الكلية ثلاثة:

احداها: هذه الكائنات، وقد سمعتَ بعض آيات هذا الكتاب الكبير.

وثانيتها: الآية الكبرى من هذا الكتاب، وهي خاتم ديوان النبوة، ومفتاح الكنوزالخفية عليه الصلاة والسلام.

وثالثتها: مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الانام، اي القرآن الحكيم.

فلابد ان نعرف هذا البرهان الثاني الناطق ثم نستمع اليه.. فنذكر من بحر معرفته رشحات:

الرشحة الاولى:

اعلم! ان ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة.

فان قلت: ماهو؟ وما ماهيته؟

قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطحُ الارض مسجدَه، ومكةُ محرابَه، والمدينةُ منبرَه.. وهو امامُ جميع المؤمنين يأتمون به صافّين خلْفَهُ.. وخطيبُ جميع البشر يُبين لهم دساتير سعاداتهم.. ورئيسُ جميع الانبياء، يزكّيهم ويصدّقهم بجامعية دينه لأساسات اديانهم.. وسيدُ جميع الاولياء، يرشدهم ويربيّهم بشمس رسالته.. وقطبٌ في مركز دائرةِ حلقة ذكرٍ تركّبتْ من الانبياء والاخيار والصديقين والابرار المتفقين على كلمته الناطقين بها.. وشجرةٌ نورانية عروقها الحيوية المتينة، هي

الانبياء باساساتهم السماوية، واغصانُها الخضرة الطرية وثمراتُها اللطيفة النيرة، هي الاولياء بمعارفهم الالهامية. فما من دعوىً يدّعيها الاّ ويشهد لها جميعُ الانبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميعُ الاولياء مستندين بكراماتهم. فكأن على كل دعوى من دعاويه خواتمَ جميع الكاملين؛ اذ بينما تراه قال: (لا إله إلاّ الله) وادعى التوحيد فاذا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفّين النورانيين – اي شموسِ البشر ونجومِه القاعدين في دائرة الذكر – عينَ تلك الكلمة، فيكررونها، ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكأنهم يقولون بالاجماع: «صَدَقْتَ وبالحق نَطقتَ».

ولاحدّ للوهم ان يَمُدّ يَده لردّ دعوىً تأيدتْ بشهاداتِ مَن لايحد من الشاهدين الذين تزكّيهم معجزاتُهم وكراماتُهم.

الرشحة الثانية:

اعلم! ان هذا البرهان النوراني الذي دل على التوحيد وأرشد البشر اليه، كما انه يتأيد بقوة ما في جناحَيه: نبوةً وولايةً من الاجماع والتواتر.. وكذا تصدّقه اشاراتُ الكتب السماوية من بشارات التوراة والانجيل والزبور وزُبُر الاولين.. وكذلك تصدّقه رموزات الارهاصات الكثيرة المشهودة.. وكذا تصدّقه بشارات الهواتف الشائعة المتعددة.. وكذا تصدّقه شهادات أهل الكهانة المنقولة بالتواتر.. وكذا تصدقه دلالات الف معجزات من امثال شق القمر ونبعان الماء من الاصابع كالكوثر، ومجئ الشجر بدعوته، ونزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر الى الف مما بيّنه الرواةُ الثقاة والمحدّثون المحققون.. وكذا تصدّقه شريعته الجامعةُ لسعادات الدارين.

وقد سمعت ورأيت في الدروس السابقة شعاعاتٍ من شمس شريعته المفيضة للسعادات. فيكفيك إن لم يكن على عينك غين وفي قلبك رَين فلا نطوّل هنا.

الرشحة الثالثة:

اعلم! انه كما تصدّقه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدّقه الدلائلِ الأنفسية؛ اذ اجتماع اعالي جميع الاخلاق الحميدة في ذاته بالاتفاق.. وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته افاضل جميع السجايا الغالية

والخصـائل النزيهة.. وكذا قـوة ايمانه بشهـادة قوة زهده وقوة تقـواه وقوة عبـوديته.. وكذا كمال وثوقـه بشهادة سيره وكمال جدّيتـه وكمال متانته.. وكذا قـوة امنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه، تصدّقه في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة، كما تصدّق الاوراقُ الخضرة والازهار النضرة والاثمار الطرية حياةَ شجرتها.

الرشحة الرابعة:

اعلم! ان للمحـيط الزماني والمكاني تأثيـراً عظيمـاً في محاكـمات العقـول!.. فان شئـت فتـعال، نخـلع هذه الخيـالات الزمانيـة والعـصرية والمحيطيـة، ونتجـرّد من هذا اللباس الملوّث؛ ثم نخوض في بحر الزمان السيال، ونَسبَحُ فيه الى ان نخرج الى عصر السـعادات التي هي الجزيرة الخضـراء فيمـا بين العصـور والدهور. فلننظر الى جـزيرة العـرب التي هي المدينة الشـهبـاء في تلك الجـزيرة الزمانيـة. ولنلبس مـا نسج لنا ذلك الزمانُ، وخاطه لنا ذلك المحيط، حتى نزور – ولو بالخـيال – قطبَ مركزِ دائرةِ الرسالة، وهو على رأس وظيفته يعمل.

فافـتح عينيـك وانظر! فان اول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة: شخـصٌ خارقٌ، له حسـنُ صورة فائـقة، في حُسن سـيرة رائقـة؛ فها هـو آخذ بيـده كتابـاً مُعجزاً كـريماً، وبلسانه خطاباً موجـزاً حكيماً يبلّغ خطبة ازلية ويتلوهـا على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والانس، بل على جميع الموجودات.

فيـا للعجب!.. مايقـول؟ نعم، يقول عن أمرٍ جـسيم، ويبحـث عن نبأٍ عظيم؛ إذ يشرح ويحل المعمّى العجيبـة في سرّ خِلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسمَ المغلق في سـر حكمـة الكائنات، ويوضح ويبحث عـن الاسئـلة الثـلاثة المعـضلة التي اشـغلت العقـول واوقعتهـا في الحيرة؛ اذ هي الاسئلة التي يَسأل عنها كلُّ مـوجود، وهي: مَن أنت؟ ومِن اين؟ والى اين؟ ..

الرشحة الخامسة:

انظر! الى هذا الشـخص النوراني كيف ينـشر من الحـقيقـة ضيـاءً نَوّاراً، ومن الحق نوراً مضـيئاً! حتى صيّر ليل البشر نهاراً وشـتاءه ربيعاً، فكأن الكائنات تبـدل شكلُها فصار العالم ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً. إذ:

اذا لم نستضئ بنوره نرى في الكائنات مأتماً عمومياً، ونرى موجوداتها كالاجانب والاعداء، لايعرف بعضٌ بعضاً، بل يعاديه؛ ونرى جامداتها جنائز دهاشة، ونرى حيواناتها واناسيها ايتاماً باكين بضربات الزوال والفراق. ونرى الكائنات بحركاتها وتنوعاتها وتغيّراتها ونقوشها ملعبة التصادف منجرة الى العبثية مهملة لامعنى لها. ونرى الانسان قد صار بعَجزه المزعج وفقره المعجز وعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل الى رأس الانسان، ادنى واخسر من جميع الحيوانات. فهذه هي ماهية الكائنات عند من لم يدخل في دائرة نوره.

فانظر الآن بنوره، وبمرصاد دينه، وفي دائرة شريعته، الى الكائنات كيف تراها؟ انظر! قد تبدل شكلُ العالم، فتحول بيتُ المأتم العمومي مسجدَ الذكر والفكر ومجلس الجذبة والشكر.. وتحول الاعداء الاجانب من الموجودات احباباً واخواناً.. وتحول كلّ من جامداتها الميتة الصامتة حياً مؤنساً مأموراً مسخراً، ناطقاً بلسان حاله آيات خالقه، وتحول ذوو الحياة منها – الايتام الباكون المشتكون – ذاكرين في تسبيحاتهم، شاكرين لترخيصاتهم عن وظائفهم.. وتحولت حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها من العبثية والمهملية وملعبة التصادف الى صيرورتها مكتوبات ربانية وصحائف آيات تكوينية ومرايا اسماءٍ إلهية، حتى ترقى العالمُ وصار كتاب الحكمة الصمدانية.

وانظر الى الانسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية العاجزة الفقيرة الذليلة الى اوج الخلافة، بقوة ضعفه، وقدرة عجزه، وسوق فقره، وشوق فاقته، وشوكة عبوديته، وشعلة قلبه وحشمة ايمان عقله. ثم انظر كيف صارت اسبابُ سقوطه من العجز والفقر والعقل اسبابَ صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني!

ثم انظر الى الماضي، ذلك المزار[1] الاكبر في ظلماته، كيف استضاء بشموس الانبياء وبنجوم الاولياء! والى الاستقبال تلك الليلة الليلاء في ظلماته، كيف تنور بضياء القرآن وتكشف عن بساتين الجنان!.

فعلى هذا؛ لو لم يوجَد هذا الشخص لسقطت الكائناتُ والانسانُ، وكل شئ الى درجة العدم، لاقيمة ولااهمية لها، فيلزم لمثل هذه الكائنات البديعة الجميلة من

(١) المقبرة.

مثل هذا الشخص الخارق الفائق المعرِّف المحقق، فاذا لم يكن هذا فلا تكن الكائنات، اذ لامعنى لها بالنسبة الينا. فما اصدق ما قالَ مَنْ «قوله الحق وله الملك»: (لولاكَ لَولاكَ لَما خَلقتُ الأفلاكَ)..(١)

الرشحة السادسة:

فان قلت: مَن هذا الشخص الذي نراه قد صار شمساً للكون، كاشفاً بدينه عن كمالات الكائنات، وما يقول؟

قيل لك: انظر واستمع ما يقول! ها هو يخبر عن سعادة ابدية ويبشّر بها، ويكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها ويدعو الناس اليها. وهو دلاّلُ محاسن سلطنة الربوبية ونظّارُها، وكشافُ مخفيات كنوز الاسماء الالهية ومعرِّفها.

فانظر اليه من جهة وظيفته؛ تَرَه برهانَ الحق وسراجَ الحقيقة وشمس الهداية ووسيلة السعادة..

ثم انظر اليه من جهة شخصيته تره مثال المحبةِ الرحمانية، وتمثال الرحمة الربانية، وشرفَ الحقيقة الانسانية، وأنورَ أزهرِ ثمراتِ شجرة الخلقة.

ثم انظر كيف احاط نورُ دينه بالشرق والغربِ في سرعة البرق الشارق، وقد قَبِل بإذعان القلب قريبٌ من نصف الارض ومن خُمس بني آدم هديةَ هدايته بحيث تُفدي لها ارواحها.

فهل يمكن للنفس والشيطان ان يناقشا بدون مغالطة في مدّعيات مثل هذا الشخص، لاسيما في دعوىً هي اساس كل مدعياته وهو «لاإلـه إلاّ الله» بجميع مراتبه؟..

الرشحة السابعة:

فان شئت ان تعرف ان ما يحرّكه، انما هو قوّة قدسية. فانظر الى إجراآته في هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الاقوام الوحشية في هذه الصحراء العجيبة، المتعصبين

---

(١) اي: ان هذا حديث قدسي. وقد تكلم علماء محققون حول هذا الحديث، فمنهم من اقره، ومنهم من ضعفه ومنهم من انكره ولعلّ قول على القاري في شرح الشفا (١ / ٦) يعدّ خلاصة جيدة، اذ يقول: «انه صحيح معنى ولو ضعف مبنى» وايده ابن تيمية من حيث صحة معناه في الفتاوى (١١ / ٩٦ – ٩٨)

لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، القاسية قلوبهم بدرجة يدفن احدُهم بنته حيةً بلا تأثر! كيف رفع هذا الشخص جميع اخلاقهم السيئة والوحشية، وقلعها في زمان قليل! وجهزهم باخلاق حسنة عالية، فصيّرهم معلمي العالم الانساني واساتيذ(١) الامم المتمدنة. فانظر ليست سلطنته على الظاهر فقط، بقوة الخوف كسائر الملوك، بل ها هو يفتح القلوب والعقول، ويسخّر الارواح والنفوس حتى صار محبوبَ القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الارواح.

الرشحة الثامنة:

من المعلوم ان رفع عادة صغيرة (كالتتون)(٢) مثلاً، من طائفة صغيرة بالكلية قد يَعسُر على حاكم عظيم بهمّة عظيمة، مع أنّا نرى هذا الذات ها هو قد رفع بالكلية؛ عادات عظيمة كثيرة، من اقوام عظيمة متعصبين لعاداتهم، معاندين في حسياتهم، بقوة جزئية، وهمة قليلة وفي زمان قصير، وغرسَ بدلها برسوخ تام في سجيتهم عادات عالية، وخصائل غالية. فانظر الى «عمر» رضى الله عنه قبل الاهتداء وبعده، ترَه نواةً قد صار شجرةً باسقة. وهكذا يتراءى لنا من خوارق اجراآته الاساسية الوف ما رأينا، فمن لم يَرَ هذا العصر ندخل في عينه هذه الجزيرة!. فليجرّب نفسه فيها. فليأخذوا مائة من فلاسفتهم وليذهبوا اليها وليعملوا مائة سنة هل يتيسر لهم ان يفعلوا بالنسبة الى هذا الزمان جزءٌ من مائة جزءٍ مما فعل سيدُنا في سنة بالنسبة الى ذلك الزمان؟! .

الرشحة التاسعة:

اعلم! ان كنت عارفاً بسجية البشر، انه لايتيسر للعاقل ان يدّعي في دعوى فيها مناظرة كذباً يخجل بظهوره، وان يقوله بلا حجاب وبلا مبالاة وبلا تأثر يشير الى حيلته، وبلا تصنّع وتهيّج يُومِيان الى كذبه، في انظار خصومه النقادة، ولو كان شخصاً صغيراً، ولو في وظيفة صغيرة، ولو بحيثية حقيرة، ولو في جماعة صغيرة، ولو في مسألة حقيرة. فكيف يمكن تداخل الحيلة ودخول الخلاف في مدّعيات مثل هذا الشخص الذي هو موظف عظيم، في وظيفة عظيمة، بحيثية عظيمة، مع انه

(١) جمع استاذ

(٢) التتون : التبغ والتدخين.

يحتاج لأمنية عظيمة، وفي جماعة عظيمـة، وفي مقابلة خصومة عظيمة، وفي مسألة عظيمـة، وفي دعوى عظيـمة؟ وها هو يقـول ما يقول بلا مبالاة بمعترض، وبلا تردّد وبلا حـجاب وبلا تخـوف وبلا تأثر، وبصفـوةٍ صميمية، وبجـذبة خالصة، وبطرزٍ يحرِّك اعـصاب خـصومه بتزييف عقـولهم وتحقير نفوسـهم وكسر عـزّتهم، باسلوب شديد علوي. فـهل يمكن تداخل الحيلة في مثل هذه الدعوى من مـثل هذا الشخص في مثل هذه الحالة المذكورة؟ كلاً ﴿انْ هوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾[1].

نعم، ان الحقَّ اغنى من ان يُدلّس، ونظر الحقيقة اعلى من ان يُدلَّس عليه! ..

نعم، ان مسلكه الحق مستغـنٍ عن التدليس، ونظرهُ النفّاذ منزّهٌ من ان يلتـبس عليه الخيال بالحقيقة..

الرشحة العاشرة:

انظر واستـمع ما يقـول! ها هو يبحث عن حقـائق مدهشة عـظيمة، ويُنذر البـشر ويبحث عن مسائل جاذبة للقلوب، لازمـة جالبة للعقول الى الدقة[2] فيبـشّر البشر. ومن المعلوم ان شوقَ كشفِ حقائق الاشـياء، قد ساق الكثيرين من اهل (المَرَق)[3] الى فداء الارواح. ألا ترى انه لو قـيلِ لك: ان أفديتَ نصفَ عمـركَ او نصف مالك، لنزل من القـمـر او المشتري شـخصٌ يخبرك بـغرائب احـوالهـما ويخبرك بحـقـيقـة استقـبـالك، اظنك ترضى بالفـداء؟ فيـاللعـجب! ترضى لدفع (مَرَقك) بتـرك نصف العـمـر والمال، ولاتهـتم بما يقـول هذا ويـصـدِّقـه اجـمـاعُ اهل الشـهـود وتواتر أهل الاختصاص من الانبـياء والصديقين والاولياء والمحققين؛ فيبحث عنِ شؤون سلطانٍ: ليس القمرُ في مملكته الأ كذبابٍ يطيـر حول فراشٍ، يطير ذلك الفراشُ حول سِراجٍ مِن القناديل التي اسـرجهـا في منزلٍ أعدّه لضيوفه المسـافرين من الوفِ منـازله! .. وكذا يخبر عن عالمٍ هو محلِ الخوارق والعجـائب، وعنِ انقلاب عجيب، فرضاً لو انفلقت الارضُ وتطايرت جـبالُها كـالسحـاب ما سـاوتْ عُشـر معشار عـشير غـرائب ذلك الانقلاب.

---

(١) النجم: ٤

(٢) اي الملاحظة والتدبر وإنعام النظر.

(٣) اي الولع واللهفة والرغبة الملحة والاهتمام. ويستعملها الاستاذ في اماكن متفرقة ويعقبها بمعناها العربي.

فان شئت فاستمع من لسانه امثال: ﴿اذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿اذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿اذا زُلْزِلَتِ الارضُ زِلْزالَهَا﴾ و ﴿القَارِعَةُ﴾ .. وكذا يخبر بتحقيقٍ عن استقبالٍ؛ ليس الاستقبال الدنيوي بالنسبة اليه الا كقطرة سرابٍ بلا طائلٍ بالنسبة الى بحر بلا ساحل.. وكذا يبشّر عن شهودٍ بسعادةٍ؛ ليست السعادة الدنيوية بالنسبة اليها الا كبرقٍ زائل بالنسبة الى شمس سرمدية.

نعم، تحت حجاب هذه الكائنات - ذات العجائب - عجائبٌ، تنتظرنا وتنظر الينا. ولابد لاخبار تلك العجائب والخوارق شخصٌ عجيب خارق يشاهد ثم يشهد، ويبصر ثم يُخبر. نعم، نشاهد من شؤونه واطواره انه يشاهد ثم يشهد فينذر ويبشّر. وكذا يخبر عن مرضيات رب العالمين ومطالبه منّا وهكذا.. من عظائم مسائل لامفرّ منها، وعجائب حقائق لامنجأ منها، ولا سعادة بدونها.

فيا حسرةً على الغافلين! ويا خسارةً على الضالين! ويا عجباً من بلاهة اكثر الناس! كيف تَعامَوا عن الحق وتصامّوا عن هذه الحقيقة! لا يهتمون بمثل هذا الذات في عجائبه، مع ان من شأن مثله ان تُفدى له الارواحُ ويُسرع اليه بترك الدنيا وما فيها.

الرشحة الحادية عشرة:

اعلم ! ان هذا الشخص، المشهود لنا بشخصيته المعنوية، المشهور في العالم بشؤونه العلوية؛ كما انه برهانٌ ناطقٌ صادقٌ على الوحدانية، ودليلٌ حقٌ بدرجة حقانية التوحيد.. كذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الابدية؛ بل كما انه بدعوته وبهدايته سببُ حصول السعادة الابدية ووسيلة وصولها.. كذلك هو بدعائه وعبوديته سببُ وجود تلك السعادة ووسيلة ايجادها.

فان شئت فانظر اليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمة وُسعتها صيّرت هذه الجزيرة، بل الارض، مصلين بتلك الصلاة الكبرى.. ثم انظر انه يصلي تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجةٍ كأنه هو امامٌ في محراب عصره واصطفّ خلفَه، مقتدين به جميعُ افاضل بني آدم، من آدم الى هذا العصر الى آخر الدنيا، في صفوف الاعصار مؤتمّين به ومؤمنّين على دعائه.. ثم استمع ما يفعل في تلك الصلاة بتلك الجماعة. فها هو يدعو لحاجةٍ شديدةٍ عظيمة عامة بحيث يشترك معه في دعائه الارضُ، بل السماء، بل كل الموجودات، فيقولون بألسنة الاحوال: نعم يا ربّنا تقبل

دعاءه، فنحن ايضاً نطلبه، بل مع جميع ما تجلى علينا من اسمائك، نطلب حصول ما يطلب هو.. ثم انظر الى طوره في طرز تضرعاته كيف يتضرّع بافتقارٍ عظيمٍ في اشتياق شديد وبحزن عميق في محبوبية حزينة! بحيث يهيّج بكاء الكائنات فيبكيها فيُشركُها في دعائه.. ثم انظر لأيّ مقصدٍ وغاية يتضرع؛ ها هو يدعو لمقصدٍ لولا حصول ذاك المقصد لسقط الانسانُ بل العالم بل كل المخلوقات الى اسفل سافلين لاقيمة لها ولا معنى. وبمطلوبه تترقى الموجوداتُ الى مقامات كمالاتها.. ثم انظر كيف يتضرع باستمدادٍ مديد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرشَ والسموات، ويهيّج وجدَها، حتى كأن يقول العرش والسموات: آمين اللهم آمين.. ثم انظر ممّن يطلب مسؤولَه؟ نعم، يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم، الذي يسمع اخفى دعاءٍ من اخفى حيوانٍ في اخفى حاجة، إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر ادنى املٍ في ادنى ذي حياة في ادنى غاية؛ إذ يوصله اليها من حيث لايحتسب بالمشاهدة، ويُكرم ويَرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم؛ لايبقى ريب في ان هذه التربية والتدبير من سميع عليم ومن بصير حكيم.

الرشحة الثانية عشرة:

فياللعجب! .. مايطلب هذا الذي قام على الارض وجمَعَ خلفَه جميع الانبياء، افاضل بني آدم، ورفع يديه متوجهاً الى العرش الاعظم ويدعو دعاءً يؤمّن عليه الثقلان، ويُعلَم من شؤونه انه شرف نوع الانسان، وفريد الكون والزمان، وفخر هذه الكائنات في كل آن؛ ويستشفع بجميع الاسماء القدسية الالهية المتجلية في مرايا الموجودات، بل تدعو وتطلب تلك الاسماء عين ما يطلب هو. فاستمع! ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضاء. فلو لم يوجَد مالا يُعد من الاسباب الموجبة لاعطاء السعادة الابدية من الرحمة والعناية والحكمة والعدالة المشهودات – المتوقف كونها رحمة وعناية وحكمة وعدالة – على وجود الاخرة، وكذا جميع الاسماء القدسية، اسباباً مقتضية لها؛ لكفى دعاءُ هذا الشخص النوراني لان يبني ربُّهُ له ولأبناء جنسه الجنة، كما يُنشئ لنا في كل ربيع جناناً مزينة بمعجزات مصنوعاته.

فكما صارت رسالته سبباً لفتح هذه الدار الدنيا للامتحان والعبودية، كذلك صار دعاؤه في عبوديته سبباً لفتح دار الآخرة للمكافأة والمجازاة.

فهل يمكن ان يتداخل في هذا الانتظام الفائق، وفي هذه الرحمة الواسعة، وفي هذه الصنعة الحسنة بلاقصور، وفي هذا الجمال بلا قبح، بدرجة انطق امثال الغزالي بـ«ليس في الامكان ابدع مما كان».. وان تتغير هذه الحقائق بقبحٍ خشين، وبظلم موحش، وبتشوش عظيم؛ اذ سماع ادنى صوت في ادنى خلق في ادنى حاجة وقبولها باهمية تامة، مع عدم سماع ارفع صوتٍ ودعاءٍ في اشد حاجة، وعدم قبول احسن مسؤول، في اجمل امل ورجاء؛ قبحٌ ليس مثله قبح، وقصورٌ لايساويه قصور، حاشا ثم حاشا وكلاّ.. لايقبل مثلُ هذا الجمال المشهود بلا قصور مثل هذا القبح المحض، والاّ لانقلبت الحقائقُ بانقلاب الحُسن الذاتي قبحاً ذاتياً.

الرشحة الثالثة عشرة:

يارفيقي في هذه السياحة العجيبة، ألا يكفيك مارأيت؟ فان اردت الاحاطة فلايمكن، بل لو بقينا في هذه الجزيرة مائة سنة ما احطنا ولامَلَلْنا من النظر بجزءٍ واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه، وغرائب اجراآته.. فلنرجع قهقرياً، ولننظر عصراً عصراً، كيف اخضرّت تلك العصور واستفادت من فيض هذا العصر؟

نعم، نرى كلَّ عصرٍ نمرُّ عليه قد انفتحت ازاهيرهُ بشمس عصر السعادة واثمر كلُ عصرٍ من امثال ابي حنيفة[1]، والشافعي[2]، وابي يزيد البسطامي[3]، والجنيد

(١) ابو حنيفة (٨٠ – ١٥٠هـ) النعمان بن ثابت، امام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، احد الائمة الاربعة عند اهل السنة، ولد ونشأ بالكوفة، وتوفي ببغداد، وأُخباره كثيرة، وله تصانيف منها: «مسند» في الحديث، جمعه تلاميذه و«الفقه الاكبر» و«المخارج» في الفقه. (الاعلام ٣٦/٨ الزركلي)

(٢) الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤هـ)(٧٦٧ – ٨٢٠م) احد الائمة الاربعة عند اهل السنة، ولد في غزة بفلسطين وحمل منها الى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩هـ فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة، وكان من احذق قريش بالرمي برع في ذلك اولاً كما برع في الشعر واللغة وايام العرب ثم اقبل على الفقه والحديث وافتى وهو ابن عشرين سنة، وله تصانيف كثيرة اشهرها كتاب «الام» في الفقه و«احكام القرآن». (الاعلام ٢٦/٦ الزركلي)

(٣) ابو يزيد البسطامي (١٨٨ – ٢٦١هـ) طيفور بن عيسى البسطامي، ابو يزيد زاهد مشهور، اصله من بسطام ووفاته فيها (بلدة بين خراسان والعراق). (وفيات الاعيان ٢٤٠/١ ابن خلكان والاعلام ٢٣٥/٣ للزركلي وميزان الاعتدال ٤٨١/١ للذهبي حلية الاولياء ٣٣/١٠ ابو نعيم).

البغدادي[١]، والشيخ عبدالقادر الكيلاني[٢] والامام الغزالي، ومحي الدين بن عربي[٣]، وابي الحسن الشاذلي[٤]، والشاه النقشبند[٥]، والامام الرّباني ونظائرهم الوف ثمراتٍ منورات من فيض هداية ذلك الشخص النوراني.

فلنؤخر تفصيلات مشهوداتنا في رجوعنا الى وقت آخر، ونصلي ونسلم على هذا الذات النوراني، ذي المعجزات، اعني سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام:

اللهم صلّ وسلّم على هذا الذات النوراني الذي أُنزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم. اعني سيدنا محمداً الفُ الف صلاة وسلام بعدد حسنات امته.. على مَن بَشّر برسالته التوراة والانجيل والزبور والزبر، وبشّر بنبوته الأرهاصات وهواتف الجن واولياء الإنس وكواهنُ البشر وانشقَّ باشارته القمر سيّدنا ومولانا محمد الف الف صلاة وسلام بعدد انفاس امته.. على مَن جاءت لدعوته الشجرُ، ونزل سرعة بدعائه المطرُ، واظلته الغمامة من الحرّ، وشبعَ من صاعٍ من طعامه مئات من البشر، ونبع الماء من بين اصابعه كالكوثر، وانطقَ الله له الضَّبَّ، والظبي، والذئب، والجذع، والذراع، والجمل، والجبل، والحجر، والمدر، والشجر، صاحب

---

(١) هو جنيد بن محمد (ابو القاسم الزجاج القواريرى)(ت ٢٩٧هـ/١٩١٠): صوفي وزاهد، سيد الطائفة. ولد وتوفي ببغداد تلقى العلوم الفقهية عن سفيان الثوري والعلوم الصوفية عن خاله السري السقطي.

(٢) الكيلاني(عبد القادر): هو ابن ابي صالح ابو محمد الجيلي. ولد بجيلان سنة ٤٧٠ هـ، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على ابي سعيد المخرمي الحنبلي، وهو احد الاقطاب المعروفين لدى اهل السنة والجماعة، ومجدد عظيم استقام على يديه كثير من المسلمين واسلم كثير من اليهود والنصارى. من مصنفاته: كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ.

(٣) محي الدين بن عربي: هو محمد بن علي بن محمد ابن عربي ابو عبد الله الطائى الاندلسي المعروف بابن العربي الشهير بالشيخ الاكبر، ولد بالاندلس سنة ٥٦٠هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ، له من التصانيف (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية). (البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٥٦ كشف الظنون ١٢٣٨، ١٢٦١ هدية العارفين ٢/١١٤ الاعلام ٦/٢٨١ ميزان الاعتدال ٣/١٠٨ جامع كرامات الاولياء ١/١١٨ الطبقات الكبرى ١/١٨٨).

(٤) الشاذلي: (٥٩١ – ٦٥٦ هـ) هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار الشاذلي، والشاذلة قرية من افريقيا، الضرير الزاهد نزيل الاسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، صاحب الاوراد المسماة «حزب الشاذلي». (الطبقات الكبرى ٢/٤ الاعلام ٤/٣٠٥ نور الابصار ٢٣٤ جامع كرامات الاولياء ٢/٣٤١).

(٥) النقشبند(الشاه): هو محمد بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية ولد في قرية قصر العارفان، قرب بخارى، ودرس في سمرقند، تزوج في الثامنة عشرة من عمره، انتسب الى شيوخ كثيرين وعاد اخيراً الى بخارى ولم يغادرها حتى وفاته، وانشأ فيها طريقته ونشرها، وتوفي في ٣ ربيع الأول ٧٩١هـ ١٣٨٩م عن (٧٣) سنة من العمر. من مصنفاته: رسالة الواردات والاوراد البهائية، حياتنامة، تنبيه الغافلين.

المعراج ومازاغ البصر؛ سيدنا وشفيعنا محمد الف الف صلاة وسلام بعدد كل الحروف المتشكلة في الكلمات المتمثلة باذن الرحمن في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قارئٍ من اول النزول الى آخر الزمان واغفرلنا وارحمنا يا إلٰهنا بكل صلاة منها. آمين.. آمين.. آمين.

* * *

اعلم! (١) ان دلائل النبوة الاحمدية لاتعد ولاتحصى، وقد ذكرنا قسماً منها في [الكلمة التاسعة عشرة والمكتوب التاسع عشر] فمع شهادة «معجزاته» البالغة الى الف، ومع شهادة «القرآن» البالغ وجوه اعجازه الى اربعين، السابق تفصيلها في (الكلمة الخامسة والعشرين) على رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام.. كذلك تشهد هذه «الكائناتُ» بآياتها على نبوته؛ اذ كما ان في هذه المصنوعات المبثوثة في الكائنات آياتٍ لاتُحد، تشهد على وحدانية الذات الاحدية، كذلك فيها بيّنات لاتعد، تشهد على رسالة الذات الاحمدية عليه الصلاة والسلام:

منها كمال حسن الصنعة؛ اذ كمال حُسن الصنعة في هذه المصنوعات، يدل على الرسالة الاحمدية دلالة قطعية؛ لان جمال هذه المصنوعات المزينات يُظهر للناظر حُسنَ صنعةٍ وزينةٍ بالمشاهدة، وان حسن الصنعة وزينة الصورة يدلان بالبداهة على ان في صانعها ارادةَ تحسينٍ وطلبَ تزيينٍ في غاية القوة. وان ارادة التحسين وطلب التزيين يدلان بالضرورة على ان في صانعها محبةً علويةً لصنعته، ورغبةً قدسية لاظهار كمالاتِ صنعته. وان تلك المحبة والرغبة تدلان بالقطع على ان الانسان الذي هو اكمل المصنوعات وابدعها واجمل المخلوقات واجمعها، هو المظهرُ الجامعُ والمدارُ البارعُ لتلك المحبة والرغبة، وهو الذي تتمركزان فيه. وان الانسان لكونه اجمع وابدع المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الخلقة. أي هو لها كثمرةٍ ذات شعور. فلكونه كالثمرة، فهو ما بين اجزاء الكائنات جزء أجمع وأبعد من جميع الاجزاء. فلكونه اجمعَ وابعدَ وذا شعور، فله نظرٌ عام وشعور كلي. فلكون نظره عاماً يرى مجموع شجرة الخلقة، ولكون شعوره كلياً يعرف مقاصد الصانع، فهو المخاطَب

(١) هذا البحث القيم في دلالة الكائنات بحث مستقل عن «الرشحات» ترجمه الاستاذ النورسي الى التركية وجعله النقطة الثالثة من الكلمة الثامنة عشرة.

الخاص للصانع. فلكون عموم النظر وكليةُ الشعور، سبباً لخصوصية الخطاب، فالفرد الذي يَصرِف كلَّ نظرِه العام وعموم شعوره الكلي الى التعبد للصانع، والتحبب اليه، والمحبـة له، ويوجّه تمام شعوره ودقـة نظره الى استـحسـان صنعـة الصـانع وتقـديرها وتشهيرها، ويستعمل جميع نظره وشعوره ومجموع قوته وهمّته الى شكر نعمةِ ذلك الصـانع الذي يطلب الشكر في مقـابلة إنعـامه، والى دعوة الناس كـافـةً الى التعبـد والاسـتـحسـان والشكر، فبـالبـداهة يكون ذلـك الفـرد الفـريد هو المخـاطب المقـرَّب والحبيب المحبَّب..

فيـا ايها الناس! هل يمكن عندكم ان لا يكون مـحمّد عليه الصلاة والسلام ذلك الفرد الفـريد؟ وهل يستطيع تاريخكم ان يظهـر فرداً آخر ألـيقَ بهذا المقام من مـحمّد عليـه الصـلاة والسـلام؟ فيـامَن له بصـر بلا رَمَد، وبصـيـرة بلا عـمى! انظر الى عـالم الانسـان في هذه الـكائنات، حـتى تشـاهد بـالعيـان دائرتين مـتـقـابلـتين، ولوحـتين متناظرتين:

فـامـا احدى الدائـرتين، فدائـرة ربوبية مـحـتـشـمـة منتظمـة في غـاية الاحـتـشـام والانتظام. واما احد اللوحين فلوح صنعةِ مصنّعٍ مرصّع في غاية الاتقان والاتزان.

واما الدائرة الاخرى فهي دائرة عـبودية منوّرة مزهرة في غاية الانقياد والاستقامة. واما اللوح الاخر، فهو لوح تفكر واستحسان في غاية الوسعة، وصحيفة تشكر وايمان في غاية الجمع.

فـاذ شـاهدت هاتين الـدائرتين وهذين اللـوحين، فـانظر الى منـاسـبـة الـدائرتين واللوحين حتى تشاهد بالعيان:

ان دائرة العبودية تتحرك جميعُ جهـاتها باسم الدائرة الاولى، وتعمل بجميع قوتها بحسـابها. وحـتى تشاهد بأدنى دقة ان لـوح التفكر والتشكر والاسـتحسـان والايمان ينظر بجميع معانيه واشاراته الى لوح الصنعة والنعمة.

فـاذ شاهدتْ عـينُك هذه الحقـيقـة فـهل يمكن لعقلك ان يـنكر اعظَم المناسبـة بين رئيس دائرة العبـودية وصاحب دائرة الربوبية؟ وهل يجـوز لقلبك ان لايوقن بان ذلك الرئيس الذي يخدم بالاخلاص لمقاصد الصانع في تشهير صنعته وتقديرها، له مناسبة

عظيمة مع الصانع، وانتساب قوي اليه وله معه مكالمة ومنه اليه رسالة؟ نعم، فبالبداهة يُعلَم انه محبوبٌ مقبولٌ عند مالك الملك بل احب الخلق اليه واقربهم منه.

فيا ايها الانسان!

هل يمكن في عقلك ان لايبالي ولايهتم صانعُ هذه المصنوعات المزيّنات بانواع المحاسن، ومنعِمُ هذه النعم، المُراعي لدقائق الاذواق في افواه الخلق، بمثل هذا المصنوع الأجمل الأكمل المتوجه اليه بكمال الاشتياق والتعبد والتحبب، وبمثل هذا المخلوق الذي اطرب الفرشَ والعرشَ بولَولَة استحساناته، ودمدمة تقديراته، لمحاسن صنعة ذلك الصانع، واهتز البرُّ والبحرُ جذبةً من زمزمة تشكراته لاحسانات ذلك الفاطر، ومن شعشعة تكبيراته لعظمة ذلك الخالق المنعم؟

فهل يمكن ان لايبالي مثلُ ذلك الصانع المُحسن المقتدر بمثل هذا المصنوع المستحسن المتشكر؟ وهل يمكن ان لايتوجه اليه؟ وهل يمكن ان لايتكلم معه؟ وهل يمكن ان لا يحبه؟ وهل يمكن ان لايقرّبه اليه؟ وهل يمكن ان لايريد سراية وضعيته الحسنة وحالته الجميلة الى عموم الخلق؟ وهل يمكن ان لايجعله قدوةً للناس حتى ينصبغون بصبغته ووضعيته وحالته؟ وهل يمكن ان لايجعله رسولاً الى الناس كافة؟

ام هل يمكن ان لايكون لصانع هذه المصنوعات المنتظمة الدالة نقوش صنعتها على علم بلا نهاية وعلى حكمة بلا غاية شعورٌ واطلاعٌ على الفرد الأكمل والأجمل من مصنوعاته؟

ام هل يمكن ان يعلَم ويبصر ولايتكلم معه؟

ام هل يمكن ان يتودد ويتعرف بتزيينات مصنوعاته ولايودّ ولايعرف مَن يودّه كما يحق، ويعرفه كما يليق، ويتودد اليه بالصدق، ويتعبّد له بالحق؟ ..

* * *

الرشحة الرابعةعشرة

المتضمنة لقطرات من بحر المعجزة الكبرى

القطرة الاولى

اعلم! ان دلائل النبوة الاحمدية لاتعد ولا تحد؛ ولقد صنف في بيانها اعاظم المحققين. وأنا مع عجزي وقصوري قد بينت شعاعات من تلك الشمس في رسالة تركية مسماة بـ« شعاعات ». وكذا بينت اجمالاً وجوه اعجاز معجزته الكبرى « اي القرآن »؛ وقد اشرتُ بفهمي القاصر الى مقدار اربعين وجه من وجوه اعجاز القرآن في [اللوامع](١)، وقد بينت من تلك الوجوه واحداً وهو البلاغة الفائقة النظمية في مقدار اربعين صحيفة من تفسيري العربي المسمى بـ« اشارات الاعجاز ». فان شئت فارجع الى هذه الكتب الثلاثة..

القطرة الثانية

اعلم! انك قدتفهمت من الدروس السابقة ان القرآن الذي جاء من خالق هذه السموات والاجرام العلوية وهذه الارض والموجودات السفلية، ويعرّف لنا ربَّنا ربَّ العالمين، له مقامات ووظائف كثيرة.

فان قلت: القرآن ماهو ؟

قيل لك هو الترجمة الازلية لهذه الكائنات والترجمان الابدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّر كتاب العالم. وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الاسماء المستترة في صحائف السموات والارض. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤن المُضْمَرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الازلية السبحانية والالتفاتات الابدية الرحمانية. وكذا هو اساسٌ وهندسةُ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الاسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الاخروي. وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته واسمائه وشؤنه. وكذا هو مربٍّ للعالم الانساني. وكالماء وكالضياء للانسانية الكبرى التي هي الاسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي الى

(١) المنشورة ملحقةً بالمجلد الاول من الكليات.

ماخُلِقَ البشر له. وكـذا: هو للانسان كما انه كتاب شريعة، كـذلك كتاب حكمة. وكما انه كـتاب دعاء وعبودية، كذلك هوكـتاب امر ودعوة. وكما انه كـتاب ذكر، كذلك هوكتاب فكر. وكما انه كتاب واحد، لكن فـيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجـات الانسان المعنوية، كذلك هـو كمنزل مقـدسٍ مشحون بـالكتب والرسائل، حتى انه قد ابرز لمشرب كل واحدٍ من اهل المشارب المختلفـة، ولمسلكِ كل واحدٍ من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل..

القطرة الثالثة

في بيان لمعة الاعجاز في تكرارات القرآن[١]. وفي هذه اللمعة ستة نقط:

النقطة الاولى:

اعلم! ان القرآن لأنه كتـابُ ذكرٍ، وكتابُ دعاء وكـتابُ دعوةٍ، يكون تكرارُه أحسن وأبلغ بل ألزم. اذ الذكر يُكـرَّر، والدعاء يُردَّد، والدعـوةُ تُؤكَّد. اذ في تكرير الذكر تنويرٌ، وفي ترديد الدعاء تقريرٌ، وفي تكرار الدعوة تأكيدٌ.

النقطة الثانية:

اعلم! ان القرآن خطاب ودواءٌ لجميع طبقات البشر من اذكى الاذكياء الى اغبى الاغبياء؛ ومن اتقى الاتقيـاء الى اشقى الاشقـياء؛ ومن الموفقين المجـدّين الفارغين من الدنيا الى المخذولين المتـهاونين المشغولين بالدنيا. فـاذاً لايمكن لكل احد في كل وقتٍ قراءة تمام القـرآن الذي هو دواء وشفـاء لكل احدٍ في كل وقتٍ. فلهـذا أدرج الحكيمُ الرحيم اكثر المقاصد القرآنية في اكثر سُوَرٍ؛ لاسيما الطويلة حتى صار كل سورة قرآناً صغيراً، فسهل السَبـيل لكل احدٍ. وينادي مشوّقاً ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القـرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾ [٢].

(١) المسألة العاشرة من الشعاع الحادى عشر توضح حكمة التكرار ايضاحاً وافياً.
(٢) القمر: ١٧

النقطة الثالثة:

اعلم! انه كما ان الحاجات الجسمـانية مختلفة في الاوقات؛ فالى بعضٍ في كل آن كـالهواء، والى قـسم في كل وقت حرارة المعدة كـالماء ، والى صنف في كل يوم كالغذاء ، والى نوع في كل اسبوع كالضياء ، والى طائفـة في كل شهر، والى بعض في كل سنة كالـدواء ، كلها في الاغلب، وقس عليهـا . كذلك ان الحـاجات المعنوية الانسانية ايضا مختلفـة الاوقات، فالى قسم في كل آن كـ (هو والله)، والى قسم في كل وقت كـ (بسم الله) . والى قسم في كل ساعة كـ (لا اله الا الله) وهكذا فقس.

فـتكرار الآيات والكلمـات: للدلالة على تكرر الاحـتيـاج، وللاشـارة الى شـدة الاحتياج اليـها، ولتنبيه عرق الاحـتياج وايقاظه، وتشويق على الاحتيـاج، ولتحريك اشتهاء الاحـتياج الى تلك الاغذية المعنوية .

النقطة الرابعة:

اعلم! ان القرآن مؤسِّس لهـذا الدين العظيم المتين ولأساساته، واسـاسات لهذا العالم الاسلامي، ومقلب لاجتماعيات البشر ومحولها ومبدلها. ولابد للمؤسس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد ، ومن التكرار للتقرير والتأييد .

وكذا ان القرآن فيـه اجوبة لمكررات اسئلة الطبقات المختلفـة البشرية بألسنة الاقوال والاحوال. .

النقطة الخامسة:

اعلم! ان القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب الى الايمان بها، وعن حقـائق دقيقـة ويدعو العقـول الى معرفتها. فلابـد لتقريرها في القلوب وتثبيتـها في افكار العامة من التكرار في صورة مختلفة واساليب متنوعة.

النقطة السادسة:

اعلم! ان لكل آية ظهـراً وبطناً وحدّاً ومطّلعـاً، ولكل قصـد وجوهاً واحكـاماً وفوائد ومقاصد، فتذكر في مـوضعٍ لوجهٍ، وفي آخر لاخرى، وفي سورةٍ لمقصدٍ وفي اخرى لآخر وهكذا، فعلى هذا لاتكرار الا في الصورة. .

القطرة الرابعة

في بيان لمعة الاعجاز في اهمال القرآن في بعض المسائل الكونية الفلسفية وابهامه في بعض آخر منها، واجماله في قسم منها، وفي هذه اللمعة ست نكت:

النكتة الاولى:

فان قلت: لاي شئ لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة ؟

قيل لك: لان الفلسفة عدلَت عن طريق الحقيقة فأستخدمت الموجودات لأنفسها «بالمعنى الاسمى». واماَ القرآن فبالحق أُنزل وبالحق نَزَل والى الحقيقة يذهب فيستخدم الموجودات بالمعنى الحرفى لا لأنفسها بل لخالقها.

فان قلت: لأي شئ ابهم القرآن واجمل في امثال ماهية الاجرام العلوية والسفلية وشكلها وحركتها على ما بيّنها الفن(١)؟

قيل لك: لأن الابهامَ أهم والاجمالَ اجمل :

فـاولا: لان القرآن انما يبحث عن الكائنات استطراداً للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل ان يكون ظاهراً وأظْهَر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته واسمائه. فلو قال على ما يشتهيه اهل الفن: «يا ايها الناس فانظروا الى الشمس في سكونها، والى الارض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها »، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم اكثر البشر في اكثر الازمان والاعصار، مع ان حق الاكثر المطلق اهم في نظر الارشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لاتنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الاقل محرومية الاكثر في اكثر الاوقات.

وثانيا: ان من شأن البلاغة الارشادية مماشاة نظر العموم، ومراعاة حس العامة ومؤانسة فكر الجمهور؛ لئلا يتوحش نظرهم بلا طائل ولا يتشوش فكرهم بلا فائدة، ولا يتشرد حسهم بلا مصلحة فابلغُ الخطاب معهم والارشاد: ان يكون ظاهراً بسيطاً سهلا لايعجزهم، وجيزاً لا يملهم، مجملا فيما لايلزم تفصيله لهم.

(١) أي العلوم الحديثة وتفصيل المسألة في الشعلة الثانية من الكلمة الخامسة والعشرين.

وثالثـا : ان القران لا يذكـر احوال الموجـودات لها، بل لموجدهـا.. فالاهم عنده احـوالهـا الناظرة الى موجـدها. وامـا فن الحكمـة فتبـحث عنهـا لهـا. فـالاهم عنده احوالها الناظرة الى نفسها.. فشتان ما بين الثريا والثرى.

وكذا ان التنزيل يخاطب كل الناس ويراعى فهم الاكثر ليعـرفوا تحقيقاً لا تقليداً.. والفن يتكلم بالاصـالة مع اهل الفن، واما مع العمـوم فلتقليد. فـما فصَّل فـيه الفن ـ بشـرط الصـدق ـ لابد ان يجـمل فـيـه القـرآن او يبـهم او يهـمل على درجـات نفع العامة.

ورابعاً : ان القرآن لانه مرشد لكل طبقات البشر تستلزم بلاغة الارشاد ان لا يذكر ما يوقع الاكـثر في المغلطة والمكابرة مع البـديهيات في نظرهـم الظاهري، وان لا يغـير بلا لزوم ما هو من المتـعارفات المحسـوسة عندهـم، وان يهمل او يجـمل ما لا يلزم لهـم في وظيفتهـم الاصلية.

مثـلا: يبـحث عن الشـمس، لا للشمس ولا من مـاهيتـها، بل لمن نوّرها وجـعلها سراجـاً، وعن وظيفتهـا بصيرورتها زنبـرك انتظام صنعة، ومركـز نظام خلقة، ومكوك انسجـام صبغة فـي نسج النقاش الازلي لهذه المنسـوجات بخيـوط الليل والنهار، في اختلاف الفـصول، المفروشات تلك المنسـوجات على وجه الارض والسمـاء. ليعرفنا القـرآن باراءة نظام النسج وانتـظام المنسـوجات كـمـالات فـاطرها الحكيم وصـانعـهـا العليم. وحركة الشمس سواء كانت ظاهرية او حقـيقية، لا تؤثر في مقصد القرآن. اذ المقصـد اراءة نسج النظام الحكيم في ضـمن اراءة جريان الشـمس المشهود. فـالنسج مشهود بكمال حشمته فلا يضره سكون الشمس في الحقيقة علي ما يزعمه الفن..

النكتة الثانية:

ان القرآن يقول: ﴿ **وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً** ﴾ (١) و ﴿ **والشَمْسُ تَجْري لِمُستَقَرٍ لها** ﴾ (٢)

فـان قلت: لاي شيءٍ عـبّر عن الشـمس بالسـراج، مع انها عـند الفن اعظم من ان تكون تابعةً للارض، بل هي مركز الارض مع السَّيَّاراتِ؟

(١) نوح: ١٦
(٢) يس: ٣٨

قيل لك: ان في التعبير بالسراج تصويرُ العالم بصورة قصر؛ وتصويرُ الاشياء الموجودة فيه في صورة لوازمات ذلك القصر ومزيناته ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، واحساسٌ انه قد احضرتْها لضيوفه وخدامه يدُ كريم رحيم. وما الشمس، الا مأمور مسخر وسراج منور. ففي تعبير السراج؛ اخطار رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهام احسانه في وسعة رحمته.. واحساس كرمه في حشمة سلطنته.. واعلان وحدانيته باراءة اعظم مايتوهمه المشرك معبوداً؛ انه ما هو الا سراج مسخر. اذ اين السراج المسخر الجامد واين لياقة العبادة؟

وفي تعبير الجريان اخطار التصرفات المنتظمة العجيبة في ما بين اختلاف الليل والنهار ودوران الصيف والشتاء. . وفي اخطارها افهام عظمة قدرة الصانع في انفراده في ربوبيته.

فمن نقطتي الشمس والقمر يوجه الذهن الى صحائف الليل والنهار، والصيف والشتاء، ومنها الى سطور الحادثات المكتوبة في اجوافها. فتعبير الجريان عنوان لهذه المعاني، فيكفي ظاهر العنوان ولا تعلق للمقصد بحقيقته.

فانظر الى كلمات القرآن مع كونها سهلةً بسيطةً معروفةً؛ كيف صارت ابواباً ومفاتيح لخزائن لطائف المعاني. ثم انظر الى مطنطنات كلمات الحكمة الفلسفية كيف انها مع شعشعتها لا تفيدك كمالا علميا ولا ذوقاً روحيا، ولا غاية انسانية ولا فائدة دينية. بل انما تفيدك حيرة مدهشة ودهشة موحشة. وتسقطك من سماء التوحيد المضئ في اودية الكثرة المظلمة. فاستمع بعض ما يقول الفلسفي في الشمس يقول:

(هي كتلة عظيمة من المائع النارى اعظم من ارضنا بمليون وثلاثمائة الف مرة، تدور على نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي ارضنا وسيارات اخرى. فتدور هذه الاجرام العظيمة المختلفة في الجسامة، والقرب من الشمس والبعد منها، بالجاذب العمومي حول الشمس في الفضاء الخالي. فان خرج احدها من مداره بالتصادف بحادثة سماوية كمرور النجم ذي الذنب به لحصل هرج ومرج في المنظومة الشمسية، وفي الدنيا بدرجة تتدهش منه السموات والارض). فانظر الى

نفسك ما افادتك هذه المسألة ؟.. فيا سبحان الله!.. كيف تقلب الضلالة شكل الحقيقة، وما «الشمس مع سياراتها، الا مصنوعةٌ موظفةٌ ومخلوقةٌ مسخرةٌ بامر فاطرها الحكيم وبقوة خالقها القدير. وما هي مع عظمتها الا قطرة متلمعة في وجه بحر السماء يتجلى شعاع من اسم (النور) عليها».

والفلاسفة لو ادرجوا في مسائلهم قبساً من القرآن فقالوا: يفعل الله بهذه الاجرام المدهشة الجامدة وظائف في غاية الانتظام والحكمة، وهي في غاية الاطاعة لامره لكان لعلْمهمْ معنىً، والاّ بان اسندوا الى انفسها والى الاسباب صاروا كما قال القرآن ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطيرُ اَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيقٍ﴾ [1] وقس على هذه المسألة سائر المسائل..

النكتة الثالثة:

اعلم! ان مقاصد القرآن الاساسية وعناصره الاصلية اربعة: التوحيد، والرسالة، والحشر، والعدالة مع العبودية. فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب. ومن القواعد: عدم التعمق في تفصيل الوسائل، لئلا ينتشر البحث بالاشتغال بما لا يعني فيفوت المقصد. فلهذا قد ابهم وقد اهمل وقد اجمل القرآن في بعض المسائل الكونية. وكذا ان الاكثر المطلق من مخاطب القرآن عوام وهم لا يقتدرون على فهم الحقائق الغامضة الالهية بدون توسيط التمثيل والتقريب بالاجمال، ولا يستعدون في كل وقت لمعرفة مسائل لم يوصل اليها بعد القرون الطويلة الا قليل من الفلاسفة. فلهذا اكثر القرآن من التمثيل، ومن التمثيل بعض المتشابهات فانها تمثيلات لحقائق غامضة إلهية. واجمل فيما كشفه الزمانُ بعد عصور وبعد حصول مقدمات مرتبة..

النكتة الرابعة:

اعلم! انه كما ان الساعة غير ثابتة بل متزلزلة مضطربة الآلات، كذلك الدنيا التي هي ساعة كبرى ايضا متزلزلة. فبادراج الزمان فيها صار «الليل والنهار» كميلين يعدان ثوانيها، و«السنة» ابرة تعد دقائقها، و«العصر» كابرة تعد ساعاتها. وبادراج المكان فيها صار «الجو» بسرعة تغيره وتحوله وتزلزله كميل الثواني، و«الارض» بتبدل

(١) الحج: ٣١

وجهها نباتاً وحيواناً، موتاً وحياة كميل الدقائق، وبتزلزل بطنها وتولد « جبالها » كميل الساعات، و« السماء » بتغيراتها بحركات اجرامها وظهور ذوي الاذناب والكسوفات والشهابات كالميل الذي يعد الايام.

فالدنيا المبنية على هذه الاركان السبعة – مع انها واصفة لشؤونات الاسماء ولكتابة قلم القدرة والقدر – فانية هالكة متزلزلة راحلة كالماء السيال في الحقيقة، لكن تجمدت صورة بالغفلة وتكدرت بالطبيعة فصارت حجاباً عن الآخرة. فالفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جمودتها وكدورتها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعيّة. واما القرآن فينفش الدنيا كالعهن بآياته، ويشففها ببيناته، ويذيبها بنيراته، ويمزق ابديتها الموهومة بنعياته، ويفرق الغفلة المولدة للطبيعة برعداته. فحقيقة الدنيا المتزلزلة تقرأ بلسان حالها المذكورة آية: ﴿ وَاِذا قُرِىءَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَاَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

فلهذا اجمل القرآن فيما فصلت فيه الفلسفة من ماهيات الاشياء وخواصها. . وفصل فيما اجملت او اهملت فيه من وظائفها في امتثال الاوامر التكوينية، ودلالاتها على اسماء فاطرها وافعاله وشؤونه.

الحاصل: ان القرآن يبحث عن معاني كتاب الكائنات ودلالاتها، اما الفلسفة فانما يبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها. ولا تعرف ان الموجودات كلماتٌ تدل على معان. فان شئت ان ترى فرق حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن فراجع ما في بيان آية ﴿ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ اوُتِيَ خَيْراً كَثيراً ﴾ (٢).

النكتة الخامسة :

[تحال الى الانوار الثلاثة من الشعلة الثانية للكلمة الخامسة والعشرين « المعجزات القرآنية » حيث تتضمن هذه النكتة آيات كثيرة جداً والمقام هنا ليس مقام ايضاح](٣).

---

(١) الاعراف: ٢٠٤

(٢) البقرة: ٢٦٩ وبيان الآية الكريمة في الكلمة الثانية عشرة.

(٣) هذه النكتة الخامسة موجودة بكاملها في الرسالة الاخيرة «انوار من نجوم القرآن».

النكتة السادسة:

اعلم! انه يفهم من هذه النكتة السابقة ان القرآن انما ينظر الى وجوه دلالات الآثار على افعاله تعالى، والى وجوه اظهار الافعال لاسمائه سبحانه، والى صور انصباب الافعال الى الاسماء او جريانها من الاسماء، والى وجوه احاطة الاسماء التي هي اشعة الصفات بالاشياء.

الحاصل: ان القرآن انما ينظر من الموجودات الى وجوهها الناظرة الى فاطرها. واما الفلسفة فانما تنظر من الموجودات الى وجوهها الناظرة الى انفسها واسبابها، وغايتها الناظرة الى مصالح جزئية فلسفية اوصنعوية. فما اجهل من اغتر بالفنون الفلسفية، وصيرها محكاً لمباحث القرآن القدسية. ولقد صدق من قال: «ان الفنون جنون كما ان الجنون فنون».

القطرة الخامسة

اعلم! ان من لمعات اعجاز القرآن كما ذكرت في (حبة) انه جمع السلاسة الرائقة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون بين الجمل وهيئاتها والتجاوب بين الآيات ومقاصدها بشهادة علم البيان وعلم المعاني، مع انه نزل في عشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات، نزولاً متفرقاً متقاطعاً مع كمال التلاؤم كأنه نزل دفعة، ولاسباب نزول مختلفة متباينة مع كمال التساند كأن السبب واحد، وجاء جواباً لاسئلة مكررة متفاوتة مع نهاية الامتزاج والاتحاد كأن السؤال واحد. وجاء بيانا لحادثات احكام متعددة متغايرة مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة. ونزل متضمنا لتنزلات الهية في اساليب تناسب افهام المخاطبين ، لاسيما فهم المنزل بحالات في التلقى متنوعة متخالفة مع حسن التماثل والسلاسة كأن الحالة واحدة. وجاء متكلما متوجها الى اصناف مخاطبين متعددة متباعدة مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الافهام كأن المخاطب واحد بحيث يظن كل صنف انه المخاطب بالاصالة. ونزل مهديا وموصلا لغايات ارشادية متدرجة متفاوتة مع كمال الاستقامة والموازنة والنظام كأن المقصد واحد؛ فمن كانت له عين سليمة في بصيرته، فلا ريب انه يرى في القرآن عيناً ترى كل الكائنات ظاهراً وباطناً كصحيفة مبصرة واضحة يقلّبها كيف يشآء، فيعرِّف معانيها على ما يشاء..

القطرة السادسة

في بيان انه لا يقاس القرآن على سائر الكلام، كما ذكرت في رسالة « قطرة » .

اعلم! ان منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله اربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط.. كما ضل فيه الادباء. فانظر الى من قال؟ ولمن قال ؟ ولما قال؟ وفيما قال؟ فالكلام ان كان امراً ونهياً فقد يتضمن الارادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علويته وقوته.

نعم اين صورة امر فضولي ناشئٌ أمره من اماني التمني وهو غير مسموع ؟ واين الامر الحقيقي النافذ المتضمن للقدرة والارادة ؟ فانظر اين ﴿ **يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ ويَاسَمَاءُ اقْلِعِي** ﴾ (١) ﴿ **فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً اوْ كَرهاً قَالَتَآ اتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴾(٢) واين خطاب البشر للجمادات بصورة هذيانات المبرسمين في المرض: اسكني يا ارض وانشقي يا سماء وقومي ايها القيامة »؟. وكذا، اين امر امير مطاع لجيش عظيم مطيع بـ (آرش!..) واهجموا على اعداء الله، واين هذا الامر اذا صدر من حقير لا يُبالى به وبامره؟ اين ﴿ **اذَا ارَادَ شَيئاً انْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (٣) واين كلام البشر ؟ وكذا اين تصوير مالكٍ حقيقي، وآمر مؤثر امره، ونافذ حكمه ؟. وبيان صانع وهو يصنع، ومنعم وهو يحسن قد شرع في آن الصنعة والاحسان يصور افاعيله، يقول فعلت كذا وكذا، وافعل هذا وذاك. انظر الى ﴿ **افَلَمْ يَنْظُرُوا الَى السَّماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاها وزَيَّنَّاها ومَالَها مِنْ فُرُوجٍ ۝ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فيهَا رَوَاسِيَ وانْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تبصرةً وذكرى لكُلِّ عَبْدٍ منيب ۝ ونَزَّلْنَا مِنَ السَّمآء مآءً مُبَارَكاً فَانْبَتْنَا به جنَّاتٍ وحَبَّ الْحَصِيد ۝ والنَّخْلَ بَاسقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضيد ۝ رِزقاً لِلعبادِ واحْيَينا به بَلدةً مَيْتاً كَذَلكَ الخُروجُ** ﴾ (٤). ثم اين تصوير فضولي في بحثه عن افاعيل لا تماس له بها؟ نعم اين اعيان النجوم.. ثم اين تماثيلها الصغيرة السيالة – التي لا هي موجودة ولا معدومة – المرئية في الزجيجات؟ نعم اين ملائكة كلمات كلام خالق الشمس والقمر الملهمة لانوار الهداية.. ثم اين

---

(١) هود: ٤٤

(٢) فصلت: ١١

(٣) يس: ٨٢

(٤) ق: ٦–١١

زنابيـر مزوّرات البـشر النفـاثات في عـقد الهـوسات؟ نعـم اين الفاظ القـرآن التي هي اصداف جواهر الهداية، ومنبع الحقائق الايمانية، ومعـدن الاساسات الاسلامية المنبثة من عـرش الرحـمـن مع تضـمـن تـلك الالفـاظ للخـطاب الازلي وللعـلم والقـدرة والارادة.. ثم اين الفاظ الانسـان الهوائية الواهيـة الهوسيـة؟ نعم اين القرآن الذي هو كشـجرة تفـرعت واورقت وازهرت واثمرت هذا العـالم الاسلامي بمعنوياته وشـعائره وكـمالاته ودسـاتيـره واصفـيـائه واوليائـه، حتى انقلب كـثـير من نـواة تلك الشجـرة الطوبائية دساتير عملية اشجاراً مثمرة الذي قيل في حقه: ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الانْسُ والجِنُّ عَلى انْ يَأتوا بِمِثْلِ هـذا القُرآنِ لا يَأتـونَ بِمِـــثْلِه ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (١) وقد افحم بجزالة نظمه وبلاغـة معناه، وبداعة اسلوبه، وبراعة بيانه، وفصاحـة لفظه، في جامعية اللفظ لوجـوه كثيرة مقبـولة. وحسن دلالته في جامعـيته لبحـر هذه الشريعة المتـضمنة للحقـيقة والطرائق بمأخـذ المجتهـدين، واذواق العارفين، ومشارب الواصلين، ومسالك الكاملين، ومذاهب المحققين.. وبطراوة شبابيته في كل عـصر، وبليـاقتـه ومـوافقـته في كل عـصـر لكل طبقـة. والزم مـصاقع الخطبـاء ونوابغ العلماء، بـل اعجز جـميع البشـر ان يأتوا بسورة من مـثله؟ ثم اين كلام البـشر؟. اين الثرى من الثريا!..

اللّهم بحق القرآن وبحق من انزل علـيه القرآن نور قلوبنا بنور القرآن واجـعل القرآن شفـاءً لنا من كل داءٍ، ومونسـاً لنا في حيـاتنا وبعد مماتنا، واجـعله لنا في الدنيـا قريناً وفي القبر مونساً وفي القيامة شفـيعاً وعلى الصراط نوراً ومن النار ستراً وحجاباً، والى الجنة رفيقاً والى الخيرات دليلاً واماماً بفضلك وحمدك وكرمك واحسانك ورحمتك يا اكرم الاكرمين ويا ارحم الراحمين.

وصل وسلم على من انزلت عليه القـرآن وارسلته رحمة للعالمين وعلى آله وصـحبه صلاةً ترضيك وترضيه وترضى بها يارب العالمين..

فيـا منزل القرآن بحق القرآن اجعل هذا الكـتاب نائباً عني ناطقاً بهـذا الدعاء بدلاً عني، اذا أسكت الموت لساني آمين. الف آمين..



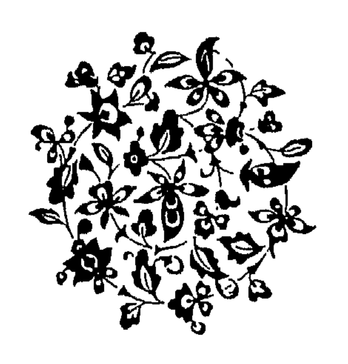
الرسالة الثالثة



[المقام الثاني العربي من الكلمة الثامنة والعشرين]

[واساس الكلمة العاشرة]

هذه الرسالة عبارة عن خلاصة قيمة لرسالة «الحشر» وهي الكلمة العاشرة التي فصّلت فيها مسائل هذه الرسالة بأمثلة كثيرة ، وتنسيق جديد وفق تجليات الاسماء الحسنى بعد تمهيد للاذهان بحوار لطيف وبيان صور الحشر.



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي شهدتْ على وجوب وجوده ووحدته ذراتُ الكائنات ومركباتُها بلسان عجزها وفقرها.

والصلاة والسلام على نبيّه الذي هو كشاف طلسمِ الكائنات ومفتاحُ آياتها، وعلى آله وصحبه وعلى اخوانه من النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقربين وعلى عباد الله الصالحين من أهل السموات والأرضين.

اعلم! يامن سدت عليه الطبيعةُ والاسباب بابَ الشكر، وفتحتْ له باب الشرك! ان الشرك والكفر والكفران تأسست على محالات غير محدودة، فانظر من تلك المحالات الى هذا المحال الواحد؛ وهو:

ان الكافر اذا ترك سُكْرَ الجهالة ونظر الى كفره بعين العلم، يَضطر – للاذعان بكفره – أن يحمل على ظهر ذرةٍ واحدةٍ الفَ قنطار، وأن يقبل في كل ذرةٍ ذرّةٍ ملايين مطبعات للطبيعة، واطلاع – مع مهارة – على جميع دقائق الصنعة في جميع المصنوعات؛ اذ كل ذرة من الهواء – مثلا – تصلُح أن تمرّ على كل نباتٍ وزهرة وشجرة وثمرة، وان تعمل في بنيتها، فلابد لهذه الذرة والقوة البسيطة المستترة فيها – إن لم تكن مأمورة، تعملُ باسم مَن بيده ملكوت كل شئ – أن تعرف كيفية جهازات كل مادخلت الذرةُ في بنيتها وكيفية صنعته وتشكيله، مع أن الثمرة مثلا متضمنةٌ لمثال مصغر للشجر، وان نواتها كصحيفة أعمال الشجر، وفيها تاريخ حياته. فالثمرة تنظر الى كل الشجرة بل الى نوعها بل الى الارض ايضاً. ومن هذه الحيثية فالثمرة بعظمة صنعتها ومعناها في جسامة صنعة الارض بوجه، فمَن بناها بهذه العظمة المعنوية الصنعوية، لابد أن لايعجز عن حمل الارض وبنائها.

فياعجباً للكافر المنكر كيف يدّعي العقل والذكاوة مع انه يتبطن – بكفره – في قلبه مثل هذا الحمق والبلاهة..

واعلم! ان لكل شئ صورتين:

اما احداهما:

فمادية محسوسة كقميصة قُدّتْ على مقدار قامة الشئ بتقدير القدر بغاية الانتظام..

واما الأُخرى:

فمعقولة مركبة من أشتات صُوَر الشئ في حركته في بحر الزمان، او مرور نهر الزمان عليه، كصورة الدائرة النورانية المخيلة الحاصلة من جولان الشعلة، فهذه الصورة المعنوية للشئ هي تاريخ حياة الشئ، وهي مدارُ القَدَر المشهور وهي المسماة بـ«مقدّرات الأشياء». فكما أن الشئ – كالشجرة مثلاً – في الصورة المادية له نهايات منتظمة مثمرة، وله غايات موزونة متضمنة لمصالح حِكَمية، كذلك له في صورته المعنوية ايضاً نهايات منتظمة متضمنة لمصالح، وله حدود معينة تعينت لحِكَم خفية. فكأن القُدرة في الصورة الاولى كالباني، والقدر كالهندسة، وفي الثانية كالمصدر، والقَدَر كالمِسطر.(١) فتكتب القدرةُ كتابَ المعاني على رسوم مِسطَر القدر.

فيا ايها الكافر!.. تضطر في كفرانك وكفرك، عند المراجعة الى العلم والحقيقة أن تقبل في كل ذرةٍ وقوتها الجزئية الصغيرة معرفة صنعة خياطة بدرجة تقتدر تلك الذرة – وطبيعة السببية – على أن تقدّ وتخيط ألبسةً وأقمصةً مختلفة متنوعة بعدد أشتات الأشياء، التي يمكن أن تذهب اليها الذرة مع اقتدارها على تجديد الصور المتخرقة بأشواك الحادثات في مرور الزمان، مع أن الانسان الذي هو ثمرةُ شجرة الخلقة واقدر الاسباب – بزعمه – وأوسعها اختياراً، لو جمع كل قابلية صنعة خياطته ثم أراد أن يخيط قميصاً لشجرة ذات أشواك على مقدار أعضائها، ما اقتدر. مع ان صانعَها الحكيم يُلبسها في وقت نَمائها أُقمصةً متجددة، منتظمة طرية

(١) المِسطَر: ما يسطَر به الكُتّاب

لاتشففها الشمس وحُللا خضرة متزينة موزونة بكمال السهولة والسرعة بلا كلفة ولا معالجة. فسبحان مَن: **﴿ انَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ ۞ فَسُبحانَ الَّذي بيدهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيءٍ واليهِ تُرجَعونَ ﴾** (١).

اعلم! ان للاحد الصمد على كل شئ سكةً وخاتماً وآيةً، بل آياتٍ تشهد بأنه له وملكُه وصُنعه. فان شئت فانظر – مما لايحد ولايعد من سكات أحديته وخواتم صمديته – الى هذه السكة المضروبة على صحيفة الارض في فصل الربيع بمرصاد هذه الفقرات الآتية المتسلسلة المتعانقة المتداخلة، لترى السكة كالشمس في رابعة النهار، وهي:

انا نشاهد في صحيفة الارض ايجاداً بديعاً حكيماً: في جُودٍ واسع عظيم في سخاوة مطلقة في اتقان مطلق، في سهولةٍ مطلقة في انتظام مطلق، في سرعة مطلقة في اتزان مطلق، في وُسعة مطلقة في حُسن صُنع مطلق، في رخيصيةٍ مطلقة وقيمته في غلو مطلق، في خِلطة مطلقة في امتياز مطلق، في بُعدةٍ مطلقة في اتفاق مطلق، في كثرة مطلقة في أحسن خلقة.

على أن كلاً من هذه الفقرات بانفرادها تكفي لاظهار السكة؛ اذ:

نهاية السخاوة نوعاً مع غاية الاتقان وحسن الصنعة في فردٍ فردٍ، تختص بمَن لا يُشغله شئ عن شئ، وله قدرة بلا نهاية.

وكذا ان نهاية السهولة مع غاية الانتظام، تختص بمن لا يُعجزه شئ، وله علم بلا نهاية.

وكذا ان نهاية السرعة مع غاية الاتزان والموزونية، تختص بمن استسلم كل شئ لقدرته وأمره.

وكذا ان نهاية وُسعة التصرف – بانتشار النوع – مع غاية حسن صنع كل فردٍ فرد، تختص بمن ليس عند شئ، وهو عند كل شئ بقدرته وعلمه.

وكذا ان نهاية الرخيصية والمبذولية مع غاية غلوّ قيمة الفرد باعتبار الصنعة تختص بمَن له غَناء بلا غاية وخزائن بلا نهاية.

---

(١) يس: ٨٢، ٨٣

وكذا ان نهاية الاختلاط والاشتباك – في افراد الانواع المختلفة – مع غاية الامتياز والتشخيص بلا مَرْج[١] ومزج وبلا خلط وغلط، تختص بمن هو بصير بكل شئ، وشهيد على كل شئ لايمنعه فعل عن فعل، ولايختلط عليه سؤال بسؤال.

وكذا انّ الفعالية؛ مع نهاية التباعد بين الافراد المنتشرة في اقطار الارض، مع غاية التوافق في الصورة والتشكيل والايجاد والوجود، حتى كأن افراد كل نوعٍ نوعٍ منتظر أمراً يخصّها من مدبرٍ واحد، تختص بمن الارض جميعا في قبضةِ تصرّفه وعلمه وحكمه وحكمته.

وكذا ان نهاية الكثرة في افراد النوع مع غاية مكملية خلقة فردٍ فردٍ وحسن ايجاد جزءٍ جزءٍ، تختص بالقدير المطلق الذى تتساوى بالنسبة اليه الذرات والنجوم والقليل والكثير.

على أن في كل فقرة آيةً اخرى على صنع القدير المطلق وهي التضاد بين السخاوة والاتقان الاقتصادي، وبين السرعة والموزونية، وبين الرخيصية وغلو القيمة، وبين الاختلاط الاطم والامتياز الاتم... وهكذا.

فاذا كان كل فقرة بانفرادها كافيةً لاظهار خاتم الاحدية، فكيف اذا اجتمعت متداخلة متآخذة في فعالية واحدة؟! .. ومن هذا ترى سر: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والارضَ لَيَقُولُنَّ الله** ﴾[٢] اي: ان المنكرِ المتعنّد اذا سُئل منه – بتنبيه عقله – يضطر لان يقول: الله ..

اعلم! ان بين الايمان بالله والايمان بالنبي والايمان بالحشر والتصديق بوجود الكائنات تلازماً قطعياً، وارتباطاً تاماً للتلازم في نفس الامر، بين وجوب الالوهية وثبوت الرسالة، ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة. اذ:

كما لايمكن وجود كتاب لاسيما اذا تضمن كل كلمة منه كتاباً وكل حرف قصيدة منتظمة، بلا كاتب.. كذلك لايمكن شهود كتاب الكائنات – بدون سُكر – بلا ايمان بوجوب وجود نقاشه الأزلي.

---

(١) مَرَج الشئ بالشئ: خَلَطَه

(٢) الزمر: ٣٨

وكما لايمكن وجود بيت لاسيما اذا اشتمل على خوارق الصنعة وعجائب النقوش وغرائب التزيينات – حتى في كل حجر منه – بلا بانٍ وصانع، بلا منشئ وصاحب.. كذلك لايمكن التصديق بوجود هذا العالم – بدون سُكر الضلالة – بلا تصديق بوجود صانعه.

وكما لايمكن شهود تلمعات الحَبابات في وجه البحر، وتلألؤ القطرات المائية وتشعشع الزُجيجات الثلجية في وسط النهار مع انكار وجود الشمس، اذ يلزم حينئذ قبول وجود شُميسات بالاصالة بعدد الحبابات والقطرات والزجيجات الثلجية.. كذلك لايمكن، لمن له عقل لم يفسد، شهود هذه الكائنات المتحولة دائماً في انتظام، المتجددة في انسجام، بلا تصديقٍ بوجوب وجود خالقها وبانيها، الذي أسس ذلك البيت المحتشم، والشجر المعظم، باصول مشيئته وحكمته، وفصّله بدساتير قضائه وقَدَره، ونظّمه بقوانين عادته وسنته، وزيّنه بنواميس عنايته ورحمته، ونوّره بجلوات أسمائه وصفاته..

نعم! وبعدم قبول الخالق الواحد يُضطر الى قبول آلهات غير متناهية بعدد ذرات الكائنات ومركباتها، بحيث يقتدر إله كلٌّ واحدٍ، على خلق الكل؛ بسر أن كل جزئيٍ ذي حياة كانموذج للكل؛ فخالقهُ لابد أن يقتدرَ على خلق الكل !!

ثم انه كما لايمكن وجود الشمس بلا نشر ضياء، كذلك لايمكن الالوهية بلا تظاهر بإرسال الرسل..

ولا يمكن جمال في نهاية الكمال بلا تبارز وبلا تعرُّف بواسطة رسول معرِّف..

ولايمكن كمال صنعةٍ في غاية الجمال بلا تشهير بواسطة دلال ينادي عليه..

ولايمكن سلطنة ربوبية عامة، بلا عبودية كلية، باعلان وحدانيته وصمديته في طبقات الكثرة بواسطة مبعوث ذي الجناحين..

ولايمكن حُسنٌ لانهاية له، بلا طلب ذي الحسن، ومحبته لمشاهدة محاسن جماله ولطائف حسنه في مرآة، وبلا ارادته لإشهاد انظار المستحسنين عليه واراءته لهم بواسطة عبد حبيب يتحبب اليه، ورسول يحببه الى الناس. اي هو بعبوديته مرآةٌ لشهود ذي الجمال، جمال ربوبيته، وبرسالته مدار إشهاده..

ولايمكن وجود كنوز، مشحونة بعجائب المعجزات، وغرائب المرصعات، بلا ارادة صاحبها ومحبته لعرضها على الانظار، واظهارها على رؤوس الاشهاد، لتبيّن كمالاته المستورة بواسطة معرّف صرّاف ومُشهِر وصّاف.

فاذ هذا هكذا، فهل ظهر في العالم أجمعَ لهذه الاوصاف من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟ كلا، بل هو أجمعُ وأكملُ وأرفع وأفضلُ. فهو سلطان الرسل المظهرين المبلّغين المعرّفين المُشهرين الدلالين العابدين المعلنين المرشدين الشاهدين المشهدين المشهودين المحبوبين المحبين المحببين الهادين المهديين المهتدين، عليه وعليهم وعلى آلهم أفضل الصلوات وأجمل التسليمات، مادامت الارض والسمٰوات.

* * *

ثم انظر الى قوة حقانية الحشر والآخرة، وهي انه:

كما لايمكن سلطان بلا مكافأة للمطيعين وبلا مجازاة للعاصين:

لاسيما: اذا كان له كرم عظيم يقتضي الاحسان، وعزة عظيمة تقتضي الغيرة..

ولاسيما: اذا كان له رحمة واسعة تقتضي فضلا يليق بوسعة رحمته، وله جلالُ حيثيةٍ تقتضي تربية مَن يستخف به، ولايوقّره..

ولاسيما: اذا كان له حكمة عالية، تقتضي حماية شأن سلطنته بتلطيف الملتجئين الى جناحه، وله عدالة محضة تقتضي محافظة حشمة مالكيته بمحافظة حقوق رعيته..

ولاسيما: اذا كان له خزائن مشحونة مع سخاوة مطلقة، تقتضي وجود دار ضيافة دائمة، وتقتضي دوام وجود محتاجين بأنواع الحاجات فيها. وكذا له كمالات مستورة تقتضي التشهير على رؤوس المشاهدين المقدرين المستحسنين. وكذا له محاسن جمال معنوي بلا مثل، وله لطائف حسن مخفي بلا نظير، تقتضي الشهود لحُسنه بنفسه في مرآة، والاشهاد لغيره، والاراءة بوجود مستحسنين متنزهين ومشتاقين متحيرين بل دوام وجودهم؛ اذ الجمال الدائم لايرضى بالمشتاق الزائل! ..

ولاسيما: اذا كان له شفقة رحيمة في اغاثة الملهوف، واجابة الداعي، بدرجة يُراعي أدنى حاجة من أدنى رعية تقتضي تلك الشفقة اقتضاءً قطعياً يقيناً، أن تُسعِف أعظم الحاجة من مقبول السلطان، وبالخاصة اذا كانت الحاجة عامة مع انها يسيرة سهلة عليه، ومع اشتراك العموم في تضرع مقبول السلطان.

ولاسيما: اذا شوهد من اجراآته آثار سلطنته في نهاية الاحتشام، مع أن مايرى من رعيته انما اجتمعوا في منزل معدّ للمسافرين، يُملأ ويُفرغ في كل يوم، وحضروا في ميدان امتحان يتبدل في كل وقت، وتوقفوا قليلاً في مَشهر قد أُعد لاراءة انموذجات غرائب صنعة المَلك، ونمونات[1] احساناته؛ وهذا المشهر يتحول في كل زمان. فهذه الحالة تقتضي بالضرورة أن يوجَد خلفَ هذا المنزل والميدان والمشهر وبعدَها قصورٌ دائمة ومساكن مستمرة وخزائن مفتحة الابواب مشحونة بجيدات اصول الانموذجات المغشوشات.

ولاسيما: اذا كان الملك في نهاية الدقة في وظيفة الحاكمية، بحيث يكتب ويستكتب أدنى حاجة وأهون عمل وأقل خدمة، ويأمر بأخذ صورة كل مايجري في ملكه ويستحفظ كل فعل وعمل. فهذه الحفيظية تقتضي المحاسبة، وبالخاصة في أعظم الاعمال من أعاظم الرعية.

ولاسيما: اذا كان الملك قد وعد وأوعد مكرراً، بما ايجادُهُ عليه هين يسير، ووجودُهُ للرعية في نهاية الاهمية، وخُلفُ الوعدِ في غاية الضدية لعزة اقتداره.

ولاسيما: اذا أخبر كل مَن ذهب الى حضور ذلك الملك، انه أعدّ للمطيعين والعاصين دار مكافأة ومجازاة، وانه يَعِد وَعداً قوياً ويُوعِد وعيداً شديداً، وهو أجلّ وأعز من أن يذل ويتنزل بخُلف الوعد، مع ان المخبرين متواترون قد أجمعوا على أن مدار سلطنته العظيمة انما هو في تلك المملكة البعيدة عنا. وما هذه المنازل في ميدان الامتحان الاّ مؤقتة، سيبدّلها البتة بقصور دائمة؛ اذ لايقوم مثل هذه السلطنة المستقرة المحتشمة على هذه الامور الزائلة الواهية المتبدلة السيالة.

ولاسيما: اذا أظهر ذلك المَلك في كل وقت، في هذا الميدان المؤقت، كثيراً من أمثال ذلك الميدان الاكبر ونموناتِه. فيعلَم من هذه الكيفية، أن ما يُشاهد من هذه

(١) نماذج وعينات.

الاجتماعات والافتراقات، ليست مقصودة لذاتها، بل انما هي تمثيل وتقليد لتؤخذ صورها، وتُركَّب وتُحفظ نتائجها، وتُكتب لتدوم. وتدور المعاملة في المجمع الاكبر، والمشاهدة في ذلك المحضر عليها، فتثمر الفانية صوراً ثابتة وأثماراً باقية.

ولاسيما: اذا أظهر ذلك الملك في تلك المنازل الزائلة والميادين الهائلة والمشاهر الراحلة؛ آثار حكمة باهرة، وعناية ظاهرة، وعدالة عالية، ومرحمة واسعة، بدرجة يَعرف باليقين مَن له بصيرة أنه لايمكن ان يوجد أكمل من حكمته، وأجمل من عنايته، وأشمل من مرحمته، وأجلّ من عدالته. فلو لم يكن في دائرة مملكته أماكن دائمة عالية ومساكن قائمة غالية، وسواكن مقيمة خالدة لتكون مظاهر لحقيقة تلك الحكمة والعناية والمرحمة والعدالة، للزم حينئذ انكار هذه الحكمة المشهودة، وانكار هذه العناية المبصرة، وانكار هذه المرحمة المنظورة، وانكار هذه العدالة المرئية؛ وللزم قبول كون صاحب هذه الافاعيل الحكيمة الكريمة سفيهاً لعّاباً وظالماً غداراً. فيلزم انقلاب الحقائق بأضدادها، وهو محال باتفاق جميع أهل العقل غير السوفسطائي الذي ينكر وجود الاشياء حتى وجود نفسه.

وهكذا مما لايعد ولايحصى من دلائل، أنه سينقل رعيته من هذه المنازل المؤقتة الى مقر سلطنته الدائمة، ومما لايحد ولايستقصى من امارات تبديله، هذه المملكة السيارة بتلك المملكة المستمرة.

كــــذلك[١] لا يمكن بوجه من الوجوه قطعاً وأصلاً، أن يوجد هذا العالم ولايوجد ذلك العالم، وان يبدع الفاطر هذه الكائنات ولايُبدع تلك الكائنات، وان يخلق الصانع هذه الدنيا ولايخلق تلك الآخرة؛ اذ شأن سلطنة الربوبية يقتضي المكافأة والمجازاة.

ولاسيما: يُعلَم بالآثار ان لصاحب هذه الدار كرماً عظيماً، ومثلُ هذا الكرم يقتضي كمال الاحسان، وحسن المكافأة. وان له عزة عظيمة تقتضي كمالَ الغيرة وشدة المجازاة؛ مع ان هذه الدار لاتفي بعُشر معشار عَشير ما يقتضيه ذلك الكرم وتلك العزة..

(١) حواب كما لا يمكن سلطان بلامكافأة...

ولاسيما: ان لصاحب هذا العالم رحمة وسعت كل شئ، ومن لطائف تلك الرحمة شفقة الوالدات مطلقاً، حتى النباتات على اولادها، وسهولة أرزاق أطفال الحيوانات وضعفائها، وهذه الرحمة تقتضي فضلا واحساناً يليقان بها. انظر أين مقتضى هذا الرحمة، ثم أين هذه التنعمات الزائلة المنغصة، في هذه الدنيا الفانية – في هذا العمر القصير – التي لاتفي بقطرة من بحر تلك الرحمة؟ بل الزوال بلا اعادة يصيّر النعمةَ نقمة، والشفقة مصيبة، والمحبة حرقة، والعقل عقاباً، واللذة ألماً، فتنقلب حقيقةُ الرحمة. فتلزم المكابرة بانكار الرحمة المشهودة، كانكار الشمس مع شهود امتلاء النهار من ضيائها. وكذا يُعلم من تصرفات صاحب هذا العالم ان له جلالَ حيثيةٍ وعزةٍ، يقتضيان تأديب من لا يوقّره وقهر من يستخف به، كما فعل بالقرون السالفة في هذه الدنيا مايدل على انه لايهمل وإن امهل. وكذا يفهم من اجراآته ان له غيرة عظيمة على استخفاف أوامره ونواهيه.

نعم، ومن شأن من يتعرف الى الناس بأمثال هذه المصنوعات المنظومات، ويتودد اليهم بأمثال هذه الازاهير الموزونات، ويترحّم اليهم بأمثال هذه الثمرات المزينات؛ ثم لايعرفونه بالايمان، ولايتحببون اليه بالعبادة، ولايحترمونه بالشكر الا قليل.. ان يعدّ لهم في مقر ربوبيته الابدية دار مجازاة ومكافأة.

ولاسيما: ان لمتصرّف هذا العالم حكمةً عامةً عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شئ، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين الى جناحها.. وكذا يشاهد ان له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شئ في الموضع اللائق، واعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له؛ واسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها – لوجوده او حفظ بقائه – واجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة: اذا سئل بلسان الاستعداد او بلسان الاحتياج الفطري او بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى؛ مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهراً لحقيقة تلك العدالة؛ فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة.

ولاسيما: أن لصاحب هذا العالم والمتصرف فيه بهذه الافعال، سخاوة وجوداً عظيماً، وخزائن مشحونة. ومن ظرائف ظروف تلك الخزائن هذه الشموس المملوءة من الانوار، وهاتيك الاشجار المشحونة من الاثمار، وهذه السخاوة السرمدية مع هذه الثروة الابدية تقتضيان وجود دار ضيافة أبدية، ودوام وجود محتاجين بأنواع الحاجات فيها؛ اذ الكرم بلا نهاية يقتضي الامتنان والتنعيم بلا نهاية؛ وهما يقتضيان قبول المنة والتنعم بلا نهاية؛ وهما يقتضيان دوام وجود الشخص المكْرَم عليه، ليقابل بدوامه في التنعم شكرَ المنة الدائمة، وإلاّ لانحصر مقابلة كل واحد في دقائق عمره الزائل، ولصار بحيث لايهتم بما لايرافقه، بل يتنغص عليه ذلك التنعم الجزئي ايضاً.

وكذا لفاعل هذه الافعال الحكيمة الكريمة كمالات مستورة. يفهم من تظاهره بهذه المعجزات المزينات، انه يحب أن يشهر تلك الكمالات على رؤوس الاشهاد المستحسنين المقدرين.

نعم، ان من شأن الكمال الدائم، التظاهر بالدوام، ووجود نظر المستحسن الدائمي.. فالناظر الذي لايدوم يسقط من نظر محبته قيمة الكمالات.

وكذا لصانع هذه المصنوعات الجميلات المليحات المزينات المنورات، محاسنُ جمالٍ مجرد معنوي بلا مثل، وله لطائف حسن مخفي يليق به بلا نظير؛ بل في كل اسم من أسمائه كنوز مخفية من جلوات ذلك الحسن المنزّه والجمال المجرد.

نعم! أين عقولنا وأين فهم جمال مَن: مِن بعض مراياه الكثيفة وجه الارض المتجددة التي تظهر وتصف لنا في كل عصر، بل في كل فصل، بل في كل وقت، ظلال جلوات ذلك الجمال الدائم التجلي، مع تفاني المرايا وسيالية المظاهر.. ومِن بعض أزاهيره ونقشه: الربيع.؟

ثم انه من الحقائق المستمرة الثابتة: ان كل ذي جمال فائق يحب أن يشاهد جماله بنظره، وبنظر غيره؛ وينظر الى محاسنه بالذات، وبالواسطة؛ ويشتاق الى مرآةٍ فيها جلوة جماله المحبوب، والى مشتاق فيه مقاييس درجات حسنه المرغوب. فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والاشهاد؛ وهما يقتضيان وجود مستحسنين متنزهين في مناظرهما، ووجود مشتاقين متحيرين في لطائفهما. ثم لأن الجمال

سـرمدي، يـقتـضي أبدية المسـتـحسن المتحـيـر؛ اذ الجمال الـدائم الكامل لايرضى بالمشتاق الزائل الآفل؛ اذ بسرّ أن الشخص المقـيد بنفسه، له نوع عداوة لما لايصل اليه فهـمهُ او يدهُ، ولمن يردهّ او يطرده من دائرة حضـوره، فيحـتمل حينئـذ أن يقابل هذا الشخص ذلـك الجمال – الذي يسـتحق أن يقـابل بمحبـة بلا نهاية، بشـوق بلا غاية واستحسان بلا حد – بعداوة وحقد وانكار.

الحاصل: ان هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين، كذلك يستلزم صانعهُ الآخرةَ بلا شك ولاريب..

ولاسـيـمـا: ان لمالك هذا العـالم رحيـمية شفـيقـة في سرعـة اغاثة الملهـوف المستـغيث، وفي اجابة الداعي المستـجير؛ اذ قد نرى انه يراعي ادنى حـاجة من أدنى خلقه، بدليـل قضائهـا وقت وجودها من حيث لايحتسب، وانه يسـمع اخفى نداء من أخفى خلقه، بدليل إسعاف مسؤوله ولو بلسان حاله.

فـانظر! الى حسـن تربية أطفـال ذوي الحياة وضـعـفائهـا، كي ترى هذه الشـفقـة كالشمس في ضـيائها. فهذه الشـفقة الرحيمة الكريمة تقـتضي اقتضاء ضـروريا قطعيا أن تسعف أعظم حاجة وأشدها، من أعظم عباده وأحب خلقه اليه..

وبالخـاصة اذا كـانت الحاجـة عامـة بحيث يؤمِّن على دعـاء ذلك الحبـيب جمـيعُ الخلق بألسنةِ الاقوال والاحوال..

وبالخاصة اذا كـانت مهمة عند كل شئ، لكـونها سبباً لصـعود قيمـة الاشياء الى أعلى عليين، وبدونهـا تسقط قيـمة كل شئ الى أسـفل سافلين. فحـينئذ يشـترك في تضرع ذلك الحبيب جميعُ الموجودات بألسنة استعداداتها..

وبالخـاصـة اذا كـانت مطلوبـة لكل الاسـمـاء المتـجلية في الكائنـات. نعم! تلك الحاجـة كمخـزن الغايات لتلك الاسمـاء ولكمالاتهـا في ظهورها باجراء أحكامـها، فحينئذ تشفع جميع الاسماء عند مسمّاها لاسعاف حاجة ذلك الحبيب..

وبالخاصة اذا كانت تلك الحاجة كلمح البصر سهلة يسيرة على مالكها الكريم..

وبالخاصة اذا تضرع ذلك الحبيب بأنواع التضرعات الحزينة، متذللا بأنواع الافتقارات المشفعة، متحبباً بأنواع العبادات المقبولة. وقد اصطف خلفه مؤتمين به مؤمّنين على دعائه، جميعُ أفاضل ثمرات شجرة الخلقة من الانبياء والاولياء والاصفياء، وهو انما يطلب من ربه الكريم الجنة، والبقاء، والسعادة الابدية والرضاء.

فبالضرورة لايمكن بوجه من الوجوه أن يقبل جمالُ هذه الشفقة الشاملة المشهودة بآثارها، قبحاً غداراً بعدم قبول مثل هذا المطلوب المعقول، من مثل ذلك المحبوب المقبول!.. نعم كما ان ذلك الحبيب الذي هو مدار الشهود والاشهاد للشاهد الازلي رسولٌ؛ وبرسالته كاشفُ طلسم الكائنات، ودلاّل الوحدة في غمرات الكثرة، وسببٌ لوصول السعادة في الجنة.. كذلك عبدٌ؛ فبعبوديته كشافُ خزائن الرحمة، ومرآةٌ لجمال الربوبية، وسببٌ لحصول مدار السعادة، وسبب لوجود الجنة. فلو فُرض عدم جميع الاسباب الغير المحصورة المقتضية للجنة الاّ مثل هذا الطلب من مثل ذلك الحبيب، لكفى لإيجاد هذه الجنة ووجودها من جُود جَوادٍ يوجد في كل ربيع جناناً مزينة كانموذجات تلك الجنة. فما هذه بأسهل من تلك، وما هي بأصعب عليه من هذه. فكما يحقّ، وحقٌ ان يُقال، وقد قيل: (لولاك لولاك لما خلقت الافلاك) يستحق أن يقال: لو لم يكن الاّ دعاؤك لخلقت الجنة لاجلك.

اللهم صلّ وسلّم على ذلك الحبيب الذي هو سيدُ الكَونين وفخرُ العالَمين وحياةُ الدارَين ووسيلةُ السعادتين وذو الجناحين ورسولُ الثقلين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وعلىٰ اخوانه من النبيين والمرسَلين. آمين.

ولاسيما: انه يُشاهَد في جريان هذا العالم آثار سلطنة محتشمة في تسخير الشموس والاقمار والاشجار والانهار. فيُعلم أن لمتصرف هذه الموجودات، سلطنة محتشمة في ربوبية معظمة؛ مع ان هذه الدار بسرعة تحوّلها أو زوالها، كمنزلٍ في خانٍ أُعد للمسافرين، يُملأ ويفرغ في كل يوم، وكميدان امتحان يتبدل في كل وقتٍ، وكمشهر أُحضر لاراءة انموذجات غرائب صنعة صاحب الموجودات، ونمونات احساناته. وهذا المشهر يتحول في كل زمان. مع أن الخلق والعباد الذين هم كالرعية ومدار السلطنة اجتمعوا في ذلك المنزل، وهم على جناح السفر في كل آن. وحضروا

ذلك الميدان مستمعين ناظرين بمقدار سؤال وجواب، وهم على نية الخروج في كل زمان. وتوقفوا قليلاً في ذلك المشهر وهم على قصد التفرق في كل وقت وأوان.

فهذه الحالة تقتضي بالضرورة ان يوجد خلف هذا المنزل الفاني والميدان المتغير وبعد هذا المشهر المتبدل، قصورٌ دائمةٌ ومساكن أبدية وخزائن مفتحة الابواب مشحونة من جيّدات اصول تلك الانموذجات المغشوشات لتقوم تلك السلطنة السرمدية المشهودة عليها؛ اذ من المحال أن يكون قيام هذه الربوبية المحتشمة بأمثال هذه الفانيات الوانيات(١) الزائلات الذليلات!

نعم، كما يتفطن مَن له أدنى شعور إذا صادف في طريقه منزلاً اعده ملكٌ كريم في الطريق لمسافريه الذين يذهبون اليه. ثم ان الملك قد صرف ملايين الدنانير لتزيين المنزل لتنزه ليلة واحدة. ثم رأى ان أكثر المزينات صور وانموذجات!.. ثم رأى المسافرين يذوقون من هذا وذلك للطعم لا للشبع، اذ لايشبعون من شئ، ويأخذ كل واحد (بفوطوغرافه) المخصوص صور ما في المنزل، ويأخذ خدام الملك ايضاً صور معاملاتهم بغاية الدقة.. ثم رأى ان الملك يخرّب في كل يوم أكثر تلك المزينات الغاليات القيمة، ويجدد لضيوفه الجديدين مزينات اخرى.. ويتفهم بلاشك ان لصاحب هذا المنزل المؤقت منازل عالية دائمة، وثروة غالية مخزونة، وسخاوة عظيمة كريمة؛ وهو يريد ان يشوّق الى ما عنده ويرغّبهم فيما ادخره لهم..

كذلك؛ لابد ان يتفطن الانسان:

ان هذه الدنيا ليست لذاتها وبذاتها، بل انما هي منزلٌ تُملأ وتُفرغ بحلول وارتحال، وان ساكنيها مسافرون، يدعوهم رب كريم الى دار السلام.. وان هذه التزيينات ليست للتلذذ بالتنزه فقط، بدليل انها تُلذّك آناً، ثم تؤلمك بفراقها أزماناً، وتذيقك وتفتح اشتهاءك، ثم لاتشبعك لقصر عُمرها او قصر عمرك، بل انما هي للعبرة وللشكر، وللشوق الى اصولها الدائمة ولغايات علوية.. وان هذه المزينات صور وانموذجات لما ادّخره الرحمن في الجنان لأهل الإيمان، وأن هذه المصنوعات الفانيات ليست للفناء، بل اجتمعت اجتماعاً قصيراً لتؤخذ صورها وتماثيلها ومعانيها ونتائجها، فيُنسج منها مناظر دائمة لاهل الأبد، او يَصنع منها مُحَوِّلها ما يشاء في عالم البقاء.

(١) ونى: فتَر وضعف قال تعالى ﴿ولا تنيا في ذكري﴾

ومن الدليل على ان الاشياء للبقاء لا للفناء، بل الفناء الصوري تمام الوظيفة وترخيص له، أن الفاني يفنى بوجهٍ ويبقى بوجوهٍ غير محصورة!.. مثلا: انظر من كلمات القدرة الى هذه الزهرة التي تنظر الينا في وقت قصير، ثم تفنى؛ تراها كالكلمة التي تزول لكن تودع باذن الله في الآذان الوف تماثيلها، وفي العقول – بعدد العقول معانيها؛ اذ هي وقت تمام الوظيفة تُبقي وتودع في حافظتنا، وفي حافظة كل مَن رآها في الشهادة، وفي بذورها في الغيب صورها ومعانيها؛ حتى كأن حافظة كلٍّ مَن نظر اليها وكل بذيراتها (فوطوغرافات) لحفظ زينة صورها، ومنازل لبقائها. وقس عليها ما فوقها وما فوق ما فوقها من ذوي الارواح الباقية.

وان الانسان ليس سدىً غاربهُ على عنقه[1]: يسرح كيف يشاء، بل تؤخذ صور أعماله، وتكتب وتحفظ نتائج أفعاله ليحاسب؛ وان التخريبات الخريفية للمصنوعات الجميلات الربيعية، انما هي ترخيصات بتمام الوظيفات وتفريغات لوفود مخلوقات جديدات، واحضارات لنزول مصنوعات موظفات، وتنبيهات للغفلات والسكرات. وان لصانع هذا العالم عالماً آخر باقياً يسوق اليه عباده ويشوقهم اليه، وانه قد أعد لهم مالاعين رأت ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر.[2]

ولاسيما: ان لمتصرف هذا العالم حفيظية تامة بحيث لاتغادر صغيرة ولاكبيرة الا تحفظها في كتاب مبين. ومن أبواب هذا الكتاب المبين النظام والميزان المشهودان، اذ نشاهد ان كل ما تمّ عمرهُ بتمام وظيفته، وذهب عن الوجود في عالم الشهادة، يثبت فاطرهُ كثيراً من صوره في ألواح محفوظة، وينقش أكثر تاريخ حياته في نواتاته ونتائجه، ويبقيه في مرايا متعددة غيباً وشهادة، حتى كأن كثيراً من الاشياء موظفون بأخذ صورة جريان معاملة الاشياء المجاورين لها.

فان شئت فانظر الى حافظة البشر وثمرة الشجر ونواة الثمر وبذر الزهر، لتفهم عظمة احاطة قانون الحفظ والحفيظية، حتى في السيالات الزائلات. فقس من هذا

(١) اصل المثل: حبلك على غاربك. والغارب: اعلى السنام. وهذا كناية عن الطلاق اي: اذهبي حيث شئت (مجمع الامثال) والمثل يقال لمن تركتهُ يذهب حيث يريد ويفعل ما يشاء.

(٢) عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «اعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. واقرأوا ان شئتم: ﴿**فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين**﴾ السجدة: ١٧. رواه البخاري ومسلم برقم (٢٨٢٤) ولم يذكر الآية والترمذي (٣١٩٥) تحقيق احمد شاكر.

قوة جريان هذه الحفيظية في الامور المهمة المثمرة في العوالم الغيبية والاخروية. فيفهم من هذه المحافظة التامة ان لصاحب هذه الموجودات اهتماماً عظيماً بانضباط مايجري في ملكه، وان له نهاية دقة في وظيفة حاكميته، وانتظاماً تاماً في سلطنة ربوبيته، بحيث يكتب ويستكتب أدنى حادثة وأهون عمل وأقل خدمة، ويأمر بالامر التكويني بأخذ صورة كل ما يجري في ملكه، ويحفظ ويستحفظ كل فعل وعمل. فهذه الحفيظية تشير بل تصرح بل تستلزم المحاسبة. وبالخاصة في أعظم الاعمال وأهمها من اكرم المخلوقات وأشرفها اي الانسان، لان الانسان كالشاهد على كليات شؤون الربوبية وكالدلال على الوحدانية الالهية في دوائر الكثرة وكالمشاهد والضابط على تسبيحات الموجودات، وهكذا.. مما لايعد من اسباب تكريمه بالامانة وتقليده بالخلافة.

فمع هذا ﴿ **أيَحسَبُ الانسَانُ اَنْ يُترَكَ سُدىً** ﴾[1] ولايُسأل غداً؟ كلا.. بل ليحاسب على السَبَد واللَبد[2]، وسيذهب الى الحشر والابد. وما الحشر والقيامة بالنسبة الى قدرته الاّ كالربيع والخريف. فكل الوقوعات الماضية معجزات قدرته تشهد قطعاً على انه قدير على كل الامكانات الاستقبالية.

ولاسيما: ان مالك هذا العالم قد وعد مكرراً بما ايجاده عليه هيّن سهل يسير، ووجوده لخلقه وعباده مهمّ بلا نهاية، وغال بلا غاية. مع ان خُلف الوعد في غاية الضدية لعزّه اقتداره ومرحمة ربوبيته؛ اذ خُلفُ الوعد نتيجة الجهل اولاً والعجز آخراً. فخلف الوعد محال على العليم المطلق والقدير المطلق. فليس ايجاد الحشر بانقلاباته وبجنّاته بأعسر عليه من ايجاد الربيع بتحولاته وبجنانه. واما وعدُه سبحانه فثابت بتواتر كل الانبياء باجماع جميع الاصفياء. استمع قوة وعده سبحانه من هذه الآية: ﴿ **الله لا إلهَ الاّ هُوَ لَيَجمَعَنَّكُمْ الى يَومِ القيٰـمةِ لاريبَ فيه ومَنْ اَصْدقُ من الله حديثاً** ﴾[3] قُتلَ الانسانُ ما اكفره لايصدّق حديث من هذه الموجودات كلِماته الصادقة بالحق، وهذه الكائنات آياته الناطقة بالصدق؛ ويعتمد على

---

(١) القيامة : ٣٦

(٢) السبد: ج اسباد: القليل من الشعر ، يقال : ماله سبد ولا لبد، اي لا شعر له ولا صوف ، يقال لمن لا شيء له (مجمع الامثال)

(٣) النساء : ٨٧

هذيانات وهمه وحماقات نفسه واباطيل شيطانه، نعوذ بالله من الخذلان ومن شر النفس والشيطان..

ولاسيما: انا نشاهد في هذا العالم تظاهرات ربوبية محتشمة سرمدية، وآثار سلطنة مشعشعة مستقرة. وقس عظمة صاحب هذه الربوبية من كون هذه الارض بسكنتها كحيوان مسخّر مذلل تحت امره يحييها ويميت، ويربّيها ويدبّر. والشمس بسياراتها مسخرة منظمة بقدرته ينظمها ويدوّر، ويقدرها ويكوّر. مع ان هذه الربوبية السرمدية المستمرة والسلطنة المستقرة المحيطة بشهادة تصرفاتها العظيمة المحيّرة للعقول، لاتقومان على هذه الامور الزائلة الواهية المتبدلة السيّالة، ولاتبنيان على مثل هذه الدنيا الفانية المغيّرة المتخاذلة المنغّصة. بل لايمكن ان تكون هذه الدنيا في سرادقات هذه الربوبية الا كميدان بُنيت فيها منازل مؤقتة للتجربة والامتحان والتشهير والاعلان، ثم تُخرَّب وتبدل بقصور دائمة ويساق اليها الخلق. فبالضرورة لابدّ ان يوجد لربّ هذا العالم الفاني المتغير؛ عالمٌ آخر باقٍ مستقر. ومع ذلك قد اخبر كلُّ مَن ذهب من الظاهر الى الحقيقة من ذوي الارواح النيّرة والقلوب المنوّرة والعقول النورانية، ودخل في حضور قُربه سبحانه، انه اعدّ للمطيعين والعاصين دار مكافأة ومجازاة، وانه يَعد وعداً قوياً ويوعد وعيداً شديداً، وهو اجلّ واقدس من ان يذلّ ويتذلّل بخلف الوعد، وأعلى واعزّ من ان يعجز عن انجاز الوعيد. مع ان المخبرين الذين هم الانبياء والاولياء والاصفياء متواترون، واهل اختصاص لمثل هذه المسألة وقد اجمعوا واتفقوا – مع تخالفهم في المسالك والمشارب والمذاهب – على هذا الإخبار الذي تؤيده الكائنات بآياتها. فهل عندك ايها الانسان حديثٌ اصدق من هذا الحديث؟ فهل يمكن ان يكون خبر اصدق من هذا الخبر وأحق؟.

ولاسيما: ان متصرف هذا العالم يُظهِر في كل وقت – يوماً وسنة وقرناً ودوراً – في ميدان الارض الموقت الضيّق كثيراً من امثال ذلك الميدان الاكبر الأوسع، ومن نموناته ومن اشاراته.. فان شئت فتأمل في كيفية إحياء الارض في الحشر الربيعي، كي ترى قريباً من ثلاثمائة الف حشر ونشر بكمال الانتظام في مقدار ستة ايام، وبكمال الامتياز والتشخيص مع غاية اختلاط تلك الاموات الغير المحصورة المشتبكة المنتشرة، متداخلة في صحيفة الارض!.. فمن يفعل هذا كيف يؤوده شئ؟..

وكيف لايخلق السموات والارض في ستة ايام؟.. وكيف لايكون حشر الانسان كلمح البصر بالنسبة اليه؟!..

نعم، مَن يكتب ثلاثمائة ألف كتاب قد انمحت حروفها في صحيفة واحدة معاً، ومختلطاً بلا غلط ولامرج ولامزج، كيف يعجز عن استنساخ كتاب عن حافظته – هو الّفه اولاً ثم محاه – كتابةً ثانيةً؟ فان شئت فانظر الى آية: ﴿ **فَانظُر الى آثارِ رَحمَتِ اللهِ كيفَ يُحيِي الارضَ بعدَ موتِها إنَّ ذَلكَ لَمُحيِي المَوتى وهوَ عَلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ** ﴾[1] لترى في تلك الكيفية حقيقة هذا التمثيل. فيفهم من هذه التصرفات ويتحدس من هاتيك الشؤونات، ان ما يشاهد من هذه الاجتماعات والافتراقات، ليست مقصودةً لذاتها، لعدم المناسبة بين تلك الاحتفالات المهمة وبين الثمرات الجزئية الفانية في زمان قصيرا.. بل انما هي تمثيل وتقليد لتؤخذ صورُها، وتُركب وتحفظ نتائجُها، وتكتب لتدور المعاملة في المجمع الاكبر عليها، وتدوم المشاهدة في المحضر الاشهر بها؛ فتثمر هذه الفانيات صوراً دائمة واثماراً باقية ومعاني ابدية وتسبيحات ثابتة، فما هذه الدنيا الاّ مزرعة، والبيدر الحشر، والمخزنُ الجنة والنار.

ولاسيما: اذا اظهر ذلك الرب السرمدي والسلطان الازلي الابدي، في تلك المنازل الزائلة والميادين الآفلة والمشاهر الراحلة، آثار حكمة باهرة ماهرة، وعناية ظاهرة زاهرة، وعدالة عالية غالية، ومرحمة واسعة جامعة؛ بدرجة يعرف باليقين مَن لم يكن على عينه غين وفي قلبه رين، أنه ليس في الامكان اكمل من حكمته، واجمل من عنايته، واشمل من مرحمته، واجلّ من عدالته. فلو لم تكن في دائرة مملكته – في ملكه وملكوته – اماكن دائمة عالية، ومساكن قائمة غالية، وسواكن مقيمة خالدة، لتكون تلك الامور مظاهر لتظاهر حقائق تلك الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، للزم حينئذٍ انكار هذه الحكمة المشهودة لذي عقل، وانكار هذه العناية المبصرة لذي بصيرة، وانكار هذه الرحمة المنظورة لذي قلب، وانكار هذه العدالة المرئية لذي فكر؛ وللزم قبول كون صاحب هذه الافعال الحكيمة الرحيمة الكريمة العادلة.. حاشا، ثم حاشا!.. سفيهاً لعّاباً وظالماً غدّاراً، فيلزم انقلاب الحقائق

(١) الروم : ٥٠

باضدادها. وهو محال باتفاق جميع اهل العقل غير السوفسطائي الذي ينكر وجود الاشياء، حتى وجود نفسه. فمن لم يصدّق فهو كالسوفسطائي، احمقَ من هبنقة المشهور الذي كان لايعرف الاّ نفسَه، ولايعرف نفسَه الاّ بقلنسوته، حتى اذا رآها على رأس أحد ظن انه نفسه!.. ففكرُ المنكِر كقلنسوة هذا!..

* * *

فيامن رافقني بفهمه من اول المسألة الى هنا! لاتظنّن انحصار الدلائل فيما سبق. كلا!.. بل يشير القرآن الحكيم الى مالايعد ولايحصى من امارات: ان خالقنا سينقلنا من هذا المشهر المؤقت الى مقرّ سلطنة ربوبيته الدائمة.. ويلوّح الى مالايحد ولايستقصى من علامات: أنه سيبدل هذه المملكة السيّالة السيارة بتلك المملكة المستمرة السرمدية..

وكذا لاتحسبنّ أنّ ما يقتضي الآخرة والحشر من الاسماء الحسنى، منحصرٌ على «الحكيم والكريم والرحيم والعادل والحفيظ». كلا، بل كل الاسماء المتجلية في تدبير الكائنات، تقتضيها بل تستلزمها.

الحاصل: ان مسألة الحشر مسألة قد اتفق عليها:

الحقُ سبحانه بجماله وجلاله وجميع اسمائه..

والقرآنُ المبين المتضمن لإجماع كل كتب الانبياء والاولياء والاصفياء..

واكملُ الخلق محمد الامين عليه الصلاة والسلام، الحامل لسرّ اتفاق ذوي الارواح النيّرة الصافية العالية، من الرسل والنبيين ومن اهل الكشف والصديقين..

وهذه الكائنات بآياتها، حتى ان لكلٍ من هذه الموجودات كلاً وجزءً وكلياً وجزئيا، وجهين:

فوجه؛ ينظر الى خالقه وفي ذلك الوجه ألسنةٌ كثيرة، تشهد وتشير الى الوحدانية..

ووجه آخر؛ ينظر الى الغاية والآخرة، وفي هذا الوجه ايضاً ألسنةٌ كثيرة تدل وتشهد على الدار الآخرة واليوم الآخر.

مثلا: كما تدل انت بوجودك في حُسن صنعةٍ، على وجوب وجود صانعك ووحدته.. كذلك تدل بزوالك بسرعة مع جامعية استعدادك الممتد آمالُه الى الابد على الآخرة، فتأمل!..

وقد يتحد الوجهان. مثلا: ان ما يشاهد على كل الموجودات من انتظام الحكمة، وتزيين العناية، وتلطيف الرحمة، وتوزين العدالة، وحسن الحفظ؛ كما تشهد على الصانع الحكيم الكريم الرحيم العادل الحفيظ، كذلك تشير بل تصرح بحقانية الآخرة وبقرب الساعة وبتحقيق السعادة.

اللهم اجعلنا من اهل السعادة واحشرنا في زمرة السعداء وادخلنا الجنة مع الابرار بشفاعة نبيك المختار.

فصلّ عليه وعلى آله كما يليق برحمتك وبحرمته وسلّم وسلمّنا وسلم ديننا. آميــن.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الرسالة الرابعة

قطرة من بحر التوحيد

مفتاح حل هذه الرسالة المستفادة من فيض القرآن
إنما يحصلُ بعد مطالعتها بتمامها مرةً بدقة.

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم استقبال» باستانبول سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢م)

افادة المرام

اقرأ بدقة تَقِرَّ عينُك باذن الله

اعلم!

يا ايها الناظرون! . أني قد ساقني القدر الآلهي الى طريق عجيب، صادفتُ في سيري فيه مهالك ومصائب واعداء هائلةً. فاضطربتُ، فالتجأت بعجزي الى ربي.. فاخذت العنايةُ الازلية بيدي، وعلّمني القرآنُ رشدي، واغاثتني الرحمة فخلصتني من تلك المهالك. فبحمد الله صرتُ مظفراً في تلك المحاربات مع النفس والشيطان اللذين صارا وكيلين فضوليين لانواع اهل الضلالات..

فاولاً ابتدأت المشاجرةُ بيننا في هذه الكلمات المباركة وهي:

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله اكبر، ولاحول ولاقوة الا بالله.. فوقع تحت كلٍ من هذه الحصون الحصينة ثلاثون حرباً. فكلُّ جملة، بل كل قيد في هذه الرسالة نتيجة مظفريةٍ لحرب لم يبق للعدوّ في شئ منها مطمَع وأدنى ممسك.. فما كتبتُ الاّ ما شاهدتُ.. بحيثُ لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهميٍ. فأشير بعضاً الى حقيقة طويلة مع دليلها بقيدٍ او صفة اندمج دليلُ الحكم فيهما، يعرف بالدقة. وما صرّحتُ ليُحسَّ بالمرام من احتياجٍ ولايشتغلَ مَن لم يحتج فيحتاج.. (١)

اظن ان جريان هذا الزمان يلقي العقولَ والقلوبَ في المهالك التي أمَرَّني القدرُ عليها. فهذا الاثرُ يمكن ان يكون نافعاً باذنه تعالى لبعض المصابين. ومن الله التوفيق..

سعيد النورسي

---

(١) بمعنى انه سلك مع روح الشريعة التي وضحّها في ص ١٧٢ من «اشارات الاعجاز»: «ان الشريعة فسّرت في مواقع اللزوم ومظان الاحتياج ، وفيما لم يلزم او لم يستعد له الاذهان او لم يساعد له الزمان اجملت بفذلكة ووضعت اساسا احالت الاستنباط منه وتفريغه ونشونمائه على مشورة العقل».



الحمد لله والصلاة على نبيه

فهذا الأثر: على اربعة ابواب وخاتمة ومقدمة.

المقدمة

اعلم! اني حصلتُ في اربعين سنة في سفر العمر، وثلاثين سنة في سير العلم: اربع كلمات، واربع جمل. سيجئ تفصيلها. اشير هنا الى الاجمال..

- اما الكلمة فهي:

المعنى الحرفي، والمعنى الاسمي،(١) والنية، والنظر.

اعني: ان النظر الى ما سواه تعالى، لابد ان يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وان النظر الى الكائنات بالمعنى الاسمي اي بحساب الاسباب خطأ. ففي كل شئ وجهان: وجهٌ الى الحق، ووجه الى الكون. فالتوجه الى الوجه الكوني لابد ان يكون حرفياً وعنواناً للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبته اليه تعالى. مثلا: لابد أن يُرى النعمةُ مرآةً للانعام، والوسائطُ والاسبابُ مرايا لتصرف القدرة..

وكذا، ان النظر، والنيّة يغيرّان ماهيات الاشياء، فيقلبان السيئات حسنات. كما يقلب الاكسيرُ الترابَ ذهباً، كذلك تقلب النيةُ الحركات العادية عبادات. والنظر يقلب علومَ الاكوان معارفَ إلهية.. فان نُظر بحساب الاسباب والوسائط فجهالات، وان نُظر بحساب الله فمعارف إلهية..

(١) سيرد شرح هذين المصطلحين في ثنايا الكتاب فالحرف يعرف في النحو: مادلّ على معنى في غيره، اما الاسم فيعرف: مادلّ على معنى في نفسه غير مقترن بزمان.
والمقصود ان النظرة القرآنية الى الموجودات تجعلها بمثابة حروف تعبّر عن معنى تجليات الاسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم سبحانه.

● واما الكلام:

فالاول: «**اني لست مالكي**» وان مالكي هو مالك الملك ذو الجلال والاكرام... فتوهَّمتُني مالكاً(١)، لأفهم صفات مالكي بالمقايسة. ففهمت بالمتناهي الموهوم، الغيرَ المتناهي. فجاء الصباح وانطفأ المصباح المتخيل..

الثاني: «**الموت حق**» فهذه الحياة وهذا البدن، ليسا بقابلين لان يصيرا عمودَين تُبنى عليهما هذه الدنيا العظيمة؛ اذ ما هما بأبديين ولا من حديد ولاحجر بل من لحم ودمٍ وعظم، ومتخالفات توافقوا في ايام قليلة هم على جناح التفرق في كل آن.. فكيف يبنى بالآمال قصرٌ يسع الدنيا على هذا الاساس الرخو الفاسد والعمود المدَوّد(٢) الكاسد..

الثالث: «**ربي واحد**»: كل السعادات لكلِ واحدٍ هو التسليمُ لرب واحد. والاّ لاحتاج الى الارباب المتشاكسين من مجموع الكائنات؛ اذ الجامعية الانسان، له احتياجات الى كل الاشياء، وعلاقات معها، وتألمات وتأثرات، شعورياً وغير شعوري بكل منها، فهذه حالة جهنميّة. فمعرفة الرب الواحد الذي كل هذه الارباب الموهومة حجابٌ رقيق على يد قدرته هي حالة فردوسية دنيوية..

الرابع: ان «**انا**» نقطة سوداء، وواحد قياسي، التفّ على رأسه خطوط الصنعة الشعورية، تشاهَد فيها ان مالكه اقربُ اليه منه..

سيجي تفصيل هذه الجمل في خاتمة الباب الاول.

---

(١) اي : توهمت اني مالك .

(٢) المنخور.

الباب الاول
في
لا إله إلا الله

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحَمدُ لله ربِ العالَمينَ والصّلاةُ والسّلامُ عَلى سيّد المرسَلين، وعلى آله وصَحبه اجمعين.

أُشهدُ كلَّ شاهدٍ ومشهود بأنّي **اشهَدُ انْ لا إلهَ الاّ** الله الذي دلّ على وجوب وجوده، ودلّ على اوصاف كماله، وشهد على انه واحد احد فرد صمد:

الشاهدُ الصادق المصدَّق والبرهانُ الناطق المحقَّقُ.. سيدُ الانبياء والمرسلين.. الحاملُ لسر إجماعهم وتصديقهم.. وامامُ الاولياء والعلماء المتقين.. الحاوي لسر اتفاقهم وتحقيقهم.. ذو الآيات الباهرة والمعجزات القاطعة المحققة المصدّقة.. والسجايا السامية والاخلاق العالية المكملة المنزّهة.. مهبط الوحي الرباني.. سيّارُ عالم الغيب والملكوت مُشاهدُ الارواح ومُصاحبُ الملائكة.. مرشد الجن والانس.. انموذج كمال الكائنات بشخصيته المعنوية المشيرة الى انه نصبَ عين فاطر الكون.. ذو الشريعة التي هي انموذج دساتير السعادات، المرمزَة بانها نظام ناظم الكون سيدنا ومهدينا الى الايمان: **محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب** عليه افضل الصلوات واتم التسليمات.. فانه يشهد عن الغيب في عالم الشهادة على رؤوس الاشهاد بشيراً ونذيراً ومنادياً لأجيال البشر خلف الاعصار والاقطار بأعلى صوته، وبجميع قوته وكمال جديته، وغاية وثوقه ونهاية اطمئنانه وكمال ايمانه بانه:

لا الـــهَ الاّ الله الذي دل على وجوب وجوده، وصرّح باوصاف جلاله وجماله وكماله، وشهد على وحدانيته:

الفرقانُ الحكيم المتضمن لسرّ اجماع كلّ كتب الانبياء المختلفة الاعصار، وكلّ كتب الاولياء المختلفة المشارب، وكلّ كتب الموحدين المبرهنين المختلفة المسالك. فقد اجمع الكلُّ – اي العقول والقلوب في هؤلاء – على تصديق حُكم القرآن الكريم المنوّر جهاته الست: كلام الله، المحافظ لياقته لهذا الاسم على مر الدهور.. محض الوحي باجماع مهبط الوحي واهل الكشف والالهام.. عين الهداية بالبداهة.. معدن الايمان بالضرورة.. مجمع الحقائق باليقين.. موصلٌ الى السعادة بالعيان.. ذو الثمرات الكاملين بالمشاهدة.. مقبول الملك والانس والجان بالحدس الصادق، المتولد من تفاريق الامارات.. المؤيد بالدلائل العقلية باتفاق العقلاء الكاملين.. المصدّق بشهادة الفطرة السليمة عن الامراض باطمئنان الوجدان.. المعجزة الابدية بالمشاهدة.. لسان الغيب يشهد في عالم الشهادة شهادات مكررة جازمة بـ: ﴿**فاعلم أنه لا إله الاّ الله**﴾[1] الذي دل على وجوب وجوده ودل على اوصاف جلاله وجماله وكماله، وشهد على وحدانيته:

العالَمُ، اي هذا الكتاب الكبير بجميع ابوابه وفصوله وصُحفه وسطوره وجُمله وحروفه، وهذا الانسان الكبير بجميع اعضائه وجوارحه وحجيراته وذراته واوصافه واحواله. اي هذه الكائنات بجميع انواع العوالم تقول: **لا إله الاّ الله**.. وبأركان تلك العوالم: **لاَ خالق الاّ هو**.. وباعضاء تلك الاركان: **لاصانع الاّ هو**.. وباجزاء تلك الاعضاء، **لامدبّر الاّ هو**.. وبجزئيات تلك الاجزاء: **لامُربّيَ الاّ هو**.. وبحجيرات تلك الجزئيات: **لامتصرف الاّ هو**.. وبذرات تلك الحجيرات: **لا خالقَ الاّ هو**.. وبأثير تلك الذرات: **لا إله الاّ هو**.. فتشهد الكائنات على انه هو الواجب الوجود الواحد الاحد بجميع انواعها واركانها واعضائها واجزائها وجزئياتها وحجيراتها وذراتها واثيرها، افراداً وتركيباً متصاعداً بتركيبات منتظمة رافعات اعلامَ الشهادة على وجوب وجود الصانع الازلي.. ومتنازلاً بنقوش غريبة، شاهداتٍ على وجوب وجود النقاش الازلي.. والكائنات كل واحد من مركباتها واجزائها تشهد بخمس وخمسين لساناً بانه واجب الوجود الواحد الاحد..

---

(١) محمد : ١٩

سيجئ تفصيل تلك الالسنة. اما إجمالها فهي:

تنادي بألسنة افرادها وتركيباتها المنتظمة.. وفقرها وحاجاتها المقضية.. واحوالها المنتظمة.. وصورها المكملة العجيبة اللائقة.. ونقوشها المزينة الغريبة الفائقة.. وحِكَمها العالية.. وفوائدها الغالية.. وبتخالفاتها الخارقة المتلاحظة.. وتماثلاتها المنتظمة المتناظرة.. وبألسنة نظامها وموازنتها جزءاً وكلاً.. وبانتظامها واطرادها.. وباتقان الصنعة الشعورية وكمالها في كل شئ.. وبتجاوب المتخالفات الجامدات بعضٌ لحاجة بعض.. وتساند المتباعدات المتفاوتات.. وبلسان الحكمة العامة.. والعناية التامة.. والرحمة الواسعة.. والرزق العام.. والحياة المنتشرة.. وبلسان الحُسن والتحسين.. والجمال المنعكس الحزين.. والعشق الصادق.. والانجذاب والجذبة.. وظليّة الاكوان.. وبلسان التصرف لمصالح.. والتبديل لفوائد.. والتحويل لحِكَم.. والتغيير لغايات.. والتنظيم لكمالات.. وبألسنة إمكانها وحدوثها.. واحتياجاتها وافتقاراتها.. وفقرها.. وضعفها.. وموتها.. وجهلها.. وفنائها.. وتغيرها.. وعباداتها.. وتسبيحاتها.. ودعواتها.. والتجاآتها..

فالكائنات – مركباتها واجزاؤها – بكل هذه الألسنة شاهدات على وجوب وجود خالقها القديم القدير.. ودالات على اوصاف كماله – كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز – شاهدات على وحدانيته تعالى.. وذاكرات تاليات لاسمائه الحسنى.. ومسبّحات بحمده تعالى.. ومفسّرات لآيات القرآن الحكيم.. ومصدقات لاخبارات سيد المرسلين.. ومولّدات لحدس صادق منظّم(١) الى نور الاسلام، المنظم الى التسليم لطور النبوة، المنظّم لنور الايمان بواجب الوجود الواحد الاحد. فبإجماع الكائنات بكل ألسنتها تحت أمر الكلام القديم، ورياسة سيد الانام والمرسلين.. قائلات ناطقات: ﴿**الله لا إله الاّ هُو الحيّ القيّوم**﴾(٢).

فاستمع تفصيل هذه الفقرات المذكورة:(٣)

(١) نظّم الشئ الى الشئ: ضمه والّفه.

(٢) البقرة: ٢٥٥

(٣) وضعنا ارقاماً امام الفقرات تسهيلاً للقارئ الكريم.

◆ (١، ٢) اذ ما يتراءى ويتظاهر في الكائنات مجموعاً واجزاءاً من نوع «التنظيمات» المتلاحظة والنظامات المتناظرة و«الموازنات» المتساندة، الدالة على وجوب وجود مَن هذه الكائنات في تصرف قبضَتي «نظامه وميزانه» والشاهدة بالتلاحظ والتناظر والتساند على ان المقنن والاستاذ والنظّام واحد.. يفتحان مَنفذاً نظاراً الى المطلوب: اي وجوب الوجود والوحدة، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **الله لا اله الاّ هُو..**

◆ (٣، ٤) وان ما في بيت الكائنات من «الانتظام والاطراد» الدالين على عدم تداخل الايدي المتعددة، وان الصنعة والنقش والمُلك لواحد.. يفتحان كوةً نظارةً بطرز آخر ايضاً، تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان: **الله لا اله الاّ هو..**

◆ (٥، ٦) وان «اتقان الصنعة الشعورية، وكمالها» في كل شئ بما تسعه لياقة قابليته المجعولة بقلم القَدَر من يد الفياض المطلق الدالّين على اتحاد القلم، وان كاتب صحيفة السماء بنجومها وشموسها هو كاتب صحيفة النحل والنمل بحجيراتها وذراتها.. يفتحان مشكاة نظارة بطور آخر ايضاً، تشهد الكائنات فيها بلسان كل مصنوع منادية: **الله لا اله الاّ هو..**

◆ (٧، ٨) وان «تجاوب الاشياء المتخالفة» الجامدة في الطرق الطويلة المعوجة، بعضٌ لحاجة بعض؛ كمادة غذاء الحجيرات والثمرات «وتساند الاشياء المتباعدة المتفاوتة» كالسيارات التي هي ثمرات الشمس، الدال ذلك التجاوب والتساند على ان الكل خُدام سيدٍ واحد، وتحت أمر مدبّر واحد، ومرجعهم مربٍ واحد.. يفتحان منفذاً نظاراً ايضاً بمرتبة اخرى، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **اللهُ لا إله الاّ هو..**

◆ (٩، ١٠) وان «تشابه الآثار» المنتظمة المتناظرة، كنجوم السموات، «وتناسب الآثار المتلاحظة» كأزاهير الارضين، الدالّين على ان الكل مالُ مالك واحد، وتحت تصرّف متصرف واحد، ومصدرهم قدرةُ واحدٍ.. يفتحان منفذاً نظاراً ايضاً، تشهد الكائنات فيه بهذا اللسان: **الله لا إله الاّ هو..**

◆ (١١) وان «مظهرية كل حي لتجليات اسماءٍ كثيرة شعورية» مختلفة الآثار والجمال، المتساندة في التأثير، والمتشابهة المتشاركة حتى في حجيرة واحدة،

والمتعـاكسة كلٌ في كلٍ، والمتـمازجة كـالالوان السبعـة في ضيـاء الشمس الدالة هذه الاحوال مع وحدة اثرها، على ان مسمـاها واحد، تدل بالضرورة على ان خالقَ الحيّ هو بارئهُ، ومصوّره، والمنعم عليه، ورزاقه، وأن رزاقه هو خالقُ منابع الرزق، وخالقُها هو الحـاكم على الكل.. فتـفتح هذه الحـقيـقة منفـذاً نظاراً ايضاً الى مـرتبة الـوجوب والوحدة، تشهـد الكائنات فيه بلسان كل حي: **الله لا إله الاّ هو**..

◆ (١٢،١٣) وان «ارتبـاط» امـثال عين الـنحل والنمل ومـعدتهـمـا بالشـمس ومنظومـتـهـا، مع «المناسبـة» في الجزالة الكيـفـيـة والتـلاحظ والتـناظر، الدال ذلك الارتباط والمناسـبة على انهـما: كـلاهما نقشـا نقاش واحـد.. فيفـتحان مـنفذاً نظاراً ايضاً، تشهد الكائنات فيه منادية: **الله لا إله إلاّ هو**..

◆ (١٤) وان «اخوة الجـاذبة» المكتوبة المـنسوجة المـنقوشة بين الـذرات والجواهر الفردة «للجـاذبة العموميـة» المكتوبة المنسوجـة الممددة بين النجوم والشـموس، الدالة على انهما: كلاهمـا كتابةُ قلمٍ واحدٍ ومداده ونَسجا نسّاج واحدٍ وأسـدائه، وشعاعا شـمس واحدٍ وفـيـضِه.. تفـتح مرصـاداً نظاراً ايضـاً الى الوجـوب والوحـدة، تشهـد الكائنات فيه بهذا اللسان الدقيق والعلوي: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (١٥) وان «نِسَب كلّ ذرةٍ في المركبـات» المتـداخلة المنتظمـة الموظفـة، تلك الذرة كالنفر في كل نسبة له وظيفة لفائدة، كذرة العين في مركبات الاعصاب المحركة والحساسـة والاوردة والشرايين والبـاصرة. فـتدل بـالضرورة على ان خـالق عين العين والعين، وعين العـالـم – اي الـشـمس – وواضـعـهـا مـوضـعَهـا اللائق، هو خـالق كل المركبات.. فتفـتح هذه الحقيقة ايضاً مشكاة نظارة، تشهد الـكائنات فيها بلسان كل ذرة من ذراتها: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (١٦) وان «وُسعَة تصرف القـدرة في النوع الواحـد» الذي لا يصـدر الاّ عن الواحد بالبداهة، مع شمولُ بعض الانواعِ اكثر الكائنات – كالحيات والمَلك والسمك – يتحـدس منه بأن خالق الفـرد هو خالقُ النوع، مـثلاً: ان القلم الذي رسـم تشخّص وجه زيد، لابد بالضرورة ان يكون كل افراد البشر منـظوراً له دفعةً، لمخالفة تعينه لكل فـرد، والاّ لوقع التـوافق بالتـصـادف! وخـالقُ النوع بهـذا السرّ هو خـالق الاجناس.. فتفتح هذه الحقيقة ايضاً منفذاً نظاراً، تشهد الكائنات فيه: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (١٧) وان «ما يتوهم بقصور النظر من الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة» المنجرة الى الاستنكار في اسناد كل شئ الى الواجب الوجود الواحد الاحد. فتلك الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة والمعالجات تنقلب حقيقية عند عدم الاسناد الى صاحب مرتبة الوجوب والوحدة،(١) بل تتضاعف تلك الامور عند اسناد الآثار الى جانب الامكان والكثرة والاسباب وانفسِها، عددَ اجزاء الكائنات.. فما يتوهم في اسناد الكل الى الواجب يتحقق في اسناد جزء واحد الى غيره تعالى. بل الاولُ اسهل وايسر؛ اذ صدور الكثير عن الواحد اقل كلفة من صدور الواحد عن الكثير المتشاكسين العُمي الذين اجتماعهم يُزيدهم عمىً؛ اذ النحلة لو لم تخرج من يد قدرة الواجب، لزم اشتراك ما في الارض والسموات في وجودها!.. بل تترقى الكلفة والمعالجة في الجزء الواحد من الذرة بالنسبة الى الوجوب الى امثال الجبال، ومن الشعرة الى امثال الجبال، لو احيل على الاسباب.. اذ الواحد بالفعل الواحد يحصّل وضعية ومصلحة للكثير، لايصل الى عين تلك الوضعية والنتيجة الكثيرُ، الاّ بفعل كثير؛ كالامير بالنسبة الى نفراته، والفوّارة الى قطراتها، والمركز الى نقاط دائرته. فبفعل واحدٍ تصل هذه الثلاثة الى تحصيل وضعيةٍ للكثير،(٢) ونتيجةٍ لاتصل النفرات والقطرات والنقاط لو احيلت عليها الاّ بافعال كثيرة وتكلفات عظيمة. بل الاستغراب والاستبعاد الموهومان في طرف الوجوب، ينقلبان هنا الى محالات متسلسلة.

من بعض المحالات: فرض صفات الواجب في كل ذرة بضرورة اقتضاء النقش الكامل والصنعة المتقنة.. وكذا، توهم شركاء غير متناهية في الوجوب الذي لايقبل الشركة اصلاً.. وكذا، فرض كل ذرة حاكماً على الكل ومحكوماً لكلٍ من المجموع، وللكلِ معا، بضرورة اقتضاء النظام والانتظام.. وكذا، فرض شعورٍ محيط، وعلمٍ تام في كل ذرةٍ، بضرورة اقتضاء التساند والموازنة. فاسناد الاشياء الى الاسباب في جانب الامكان والكثرة يستلزم التزامَ هذه المحالات المتسلسلة، والممتنعات العقلية، والاباطيل التي تمجّها الاوهام..

(١) تفصيله في «حباب» ص ١٨٤ – ١٨٨

(٢) سيرد شرح هذا المثال في ذيل الحباب ص ٢٠٨

واما اذا اسند الى صاحبها الحقيقي، وهو صاحب مرتبة الوجوب والوحدة، لايلزم الا ان تكون الذرة ومركباتها – كقطرات المطر المتشمسة المتلمعة بتماثيل الشمس – مظاهرَ للمعات تجليات القدرة النورانية الازلية الغير المتناهية المتضمنة للعلم والارادة الازليين الغير المتناهيين، فلمعتُها المالكة لخاصيتها، اجلّ من شمس الاسباب تأثيراً بسبب التجزؤ والانقسام في جانب الامكان والكثرة دون الوجوب والوحدة. فالتّماس مع تلك القدرة في اقل من ذرة اكبر تأثيراً من امثال الجبال في جانب الكثرة، بسبب ان جزء النوراني مالكٌ لخاصية الكل، كأن الكلّ كلي، والجزءَ جزئيٌ ولو كان النور ممكناً، فكيف بنور الانوار المتنور من جانب الوجوب؟[1].. وكذا لاكلفة ولامعالجة بالنسبة الى تلك القدرة؛ اذ هي ذاتية للذات[2] محالٌ تداخل ضدها فيها، فتتساوى بالنسبة الى لمعتها الذراتُ والشموس والجزء والكل والفرد والنوع، بسر الشفافية والمقابلة والموازنة والتجرد والاطاعة والانتظام[3] بل بالحدس والمشاهدة، اذ تلك القدرة تفعل بامثال الخيوط الدقيقة الجامدة امثال العناقيد، تلك الخوارق الحيوية.. لو احيلت على الاسباب؛ لاحتيج لتصنيع عنقود واحد – لو امكن – الى ملايين قنطارٍ من تلك الكلفة والمعالجات!.. وكذا ان تلك القدرة تتجلى بجلوات الوجود المنعكس من ظل الوجوب في سم الخياط، على صفحات الشفافات بالتماثيل البرزخية.. لو احيلت على الاسباب لامتنعت او احتيجت الى ما لايحد من المعالجات.

اعلم! ان الحياة والوجود والنور – لشفافية وجهَي المُلك والملكوت فيها ما استترت القدرةُ عند ايجادها تحت الوسائط الكثيفة، فيترقق السببُ الظاهري فيها بحيث يتراءى تحتَه تصرفُ القدرة. فمن امعن النظر في اطوار الحياة والانوار، يشاهد تصرفات القدرة تحت الاسباب؛ اذ تلك القدرة لاتصرّف لتصنيع عنقود العنب، الاّ غصناً دقيقاً جامداً، ولترسيم شُميسة في زجيجة، الاّ إمرار النور في سمّ الخياط، ولتنوير البيت الا توسيط شعرة في زجاجة.

---

(١) اي: لو كان النور من جانب الامكان هذا فعله فكيف بنور الانوار...

(٢) للذات الالهية.

(٣) هذه الاسرار الستة مذكورة بالتفصيل في «ذيل الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين».

وكذا ان الارواح والعقول في اضطرابات مزعجة ناشئة من امراض وضلالات ناشئة من الاستنكارات الناشئة من الاستبعاد والاستغراب والحيرة في اسناد الاشياء الى انفسها واسبابها الامكانية(١). فتجبر الاضطراباتُ الارواحَ للخلاص والتشفي(٢) الى الفرار الى الواجب الوجود الواحد الاحد الذي بقدرته يحصل ايضاح كل مشكل، وارادته مفتاح كل مغلق، وبذكره تطمئن القلوب. فلا ملجأ ولامنجأ ولامناص ولامخلص، الا الالتجاء والفرار الى الله والتفويض اليه. كما قال الله تعالى ﴿**ففرّوا الى الله**﴾(٣) ﴿**ألا بذكرِ الله تطمَئنُ القُلوبُ**﴾(٤) فتفتح هذه الحقيقة ايضاً مشكاة نظارة الى الحدس الصادق، المنظّم الى نور الاسلام، المنظّم الى التسليم لطور النبوة، المنظّم لنور الايمان بواجب الوجود الواحد الاحد، فتشهد الكائنات بلسان كل جزء من اجزائها: **الله لا إله الاّ هو**..

◆ (١٨) وان «بساطة الاسباب» الظاهرية كالخبز واللبن، ومحدوديتها وحصرها وانضباطها وعرضية بعضها وفقرها وضعفها وموتها وجمودها في ذاتها وعدم شعورها وعدم ارادتها بالمشاهدة، واعتبارية القوانين، وموهوميتها، وعدم تعينها الا بمقننها، وعدم وجودها الموهوم الا بعد رؤيتها، وعدم رؤيتها الاّ بعد وجود المسبب «مع خوارق نقش المسببات» واعجبية صنعتها كتشكيلات نُسُج حجيرات البدن بسببية اكل الخبز، وكتابة النقوش الغير المحدودة المنتظمة المكتوبة في خردلة الحافظة، كأن تلك الخردلة سند(٥) استنسختها يدُ القدرة من صحيفة الاعمال، واعطتها ليد الانسان ليتذكّر به وقتَ المحاسبة، وليطمئن ان خلفَ هذا الهرج والمرج الوجودي مرايا للبقاء، يرسم العليمُ فيها الاشياء بانتظام بلا اختلاط – ولو كانت الاشياء كثيرة مختلطة – وكان المرسم فيه اضيق الاشياء بسببية وضعية التلافيف وتشكيلات الحروف والصور الذهنية في التكلم والتفكّر، بسببية قرع اللها(٦) وحركة الذهن

(١) انظر «حباب» ص ١٣٠

(٢) مشتقة من الشفاء.

(٣) الذاريات: ٥٠

(٤) الرعد: ٢٨

(٥) اي المستند والدليل والحجة.

(٦) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في اقصى سقف الفم والتي تساعد على التصويت والتحكم في مخارج الكلام.

المقتضية هذه المسببات بالضرورة لقدرة غير متناهية؛ بل علم وارادة غير متناهيين. فتستلزم هذه الحقيقة انه لامؤثر في الكون على الحقيقة الاّ خالق قدير لانهاية لقدرته بوجه من الوجوه. وما الاسباب الاّ (بهانات)[١] وما الوسائط الاّ حجابات ظاهرية، وما الخاصيات والخواص الاّ اسماء وعنوانات وزُجيجات جامدة للمعات تجليات القدرة الازلية النورانية الغير المتناهية، المستندة، بل المتضمنة للعلم والارادة الازليين الغير المتناهيين. اذ التماس مع تلك القدرة بادنى شئ، اعظم واجلّ واكبر من جبال الاسباب. اذ تفعل لمعةُ تلك القدرة بامثال الخيوط الدقيقة الجامدة اليابسة امثال العناقيد، تلك الخوارق الحيوية الطرية، لو احيلت على الاسباب واجتمعت الاسباب والوسائط على ان يأتوا بمثله ما فعلوا ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً. وتستلزم هذه الحقيقة ايضاً ان ما يسمى بالقوانين والنواميس انما هي: اسماء وزجيجات لتجليات مجموع العلم والامر والارادة على الانواع. وما القانون، الاّ امرٌ ممدود او أوامر مسرّدة. وما الناموس، الاّ ارادة مطولة او تعلقات منضدة.. فتفتح هذه الحقيقة مشكاة نظارة في الامكان الى مرتبة الوجوب تشهد الكائنات بلسان كل مسبب من مسبباتها منادية: **الله لا إله الاّ هُو**..

◆ (١٩) وان «عدم تناهي خوارق نقش صنعة الكائنات واتقانها» والاهتمام بها، تستلزم قدرة غير متناهية، بل كل جزء منها ايضاً يستلزم تلك القدرة. فاذاً تستلزم وتقتضي وتدل بالضرورة على ان لهذه الكائنات خالقاً قديراً، له قدرة كاملة لانهاية لتجليات تلك القدرة بوجه من الوجوه. فاذاً استغنى عن الشركاء بالقطع فلاحاجة اليها بالضرورة، مع ان الشركاء الموهومة المُستَغنية عنها بالقطع والضرورة، ممتنعةٌ بالذات. لايمكن أن يوجد فردٌ منها؛ وإلاّ لزم تحديد القدرة الكاملة الغير المتناهية من كل وجه، وانتهاءها في وقت عدم التناهي بالمتناهي بلا ضرورة، بل مع الضرورة في عكسه وهو محال بخمس مراتب بالضرورة. فمن هنا يكون الاستقلال والانفراد خاصيتين ذاتيتين للالوهية. مع انه لامحل ولاموضع ولا مكان للشريك، الا في الفرض الوهمي؛ اذ ما نزل سلطانٌ قط ولا احتمالٌ عن دليل، ولا امكاناً ذاتياً[٢] ولم يوجد امارة ما قط على وجود الشريك في جهة من جهات الكائنات. والى اي

(١) حجج واهية.

(٢) اي: ولا حتى امكاناً ذاتياً.

جهة روجع واستُفسر عن الشريك، اعطي جواب رد باراءة سكة التوحيد، مع انه لامؤثر في الكون على الحقيقة إلاّ واحد احد؛ بسرٍّ انّ اشرف الكائنات واوسع الاسباب اختياراً: الانسان، مع انه ليس في يد البشر من اظهر افعاله الاختيارية كالأكل والكلام من مائة جزء الاّ جزءٌ واحد مشكوك فيه. فاذا كان الاشرفُ والاوسعُ اختياراً هكذا مغلول الايدي فكيف بالاسباب الجامدة الميتة؟ فكيف يكون المنديل والظرف الذي لف فيه السلطانُ هديته، شريكاً للسلطان او معيناً له؟.. فتتحدس من هنا قطعاً، بان الاسباب حجاب القدرة فقط؛ ومناط الحكمة ليس الاّ.. فتفتح هذه الحقيقة ايضاً مرصاداً ناظراً الى الوجوب والوحدة؛ فتشهد الكائنات فيه بهذا اللسان منادية: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (٢٠) وان «تساند الاسماء المتجلية» في الكائنات، مع شمول بعض الاسماء كل شئ بظهور اثره فيها كالعليم، وتشاركها وتشابكها حتى في ذرة واحدة، وتعاكسها كلاً في كلٍ، وتمازجها كالالوان السبعة في ضياء الشمس، تدل هذه الاحوال مع وحدة أثرها على ان مسماها واحد احد فرد صمد؛ فتفتح مشكاة نظارة الى الواجب الوجود الواحد الأحد تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان النوراني: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (٢١) وان ما يتظاهر في مجموع الكائنات كلاً واجزاء: من «الحكمة العامة» المتضمنة للقصد والشعور والارادة والاختيار، الدالة على وجوب وجود حكيمٍ مطلق؛ لإمتناع الفعل بلا فاعل، ولإمتناع ان يكون جزء المفعول المنفعل الجامد فاعلاً لهذا الفعل العام الشعوري..

◆ (٢٢) وما يتلألأ على وجه الكائنات من «العناية التامة» المتضمنة للحكمة واللطف والتحسين، الدالة بالضرورة على وجوب وجود خلاق كريم؛ لامتناع الاحسان بلا محسن..

◆ (٢٣) وما انبسط على وجه الكائنات من «الرحمة الواسعة» المتضمنة للحكمة والعناية والاحسان والانعام والاكرام والتلطيف والتودد والتحبب والتعرف، الدالة على وجوب وجود الرحمن الرحيم؛ لإمتناع الصفة بلا موصوف ولإمتناع ان

يُلبس هذه الحلة التي تسع السموات والارض غيره تعالى. اذ اين قامة هذه الاسباب الجامدة الميتة القصيرة الحقيرة، واين قيمة هذه الحلة الغير المحدودة؟..

◆ (٢٤) وما وزع على ذوي الحياة على تنوع حاجاتها من «الرزق العام» المتضمن للحكمة والعناية، والرحمة والحماية، والمحافظة والتعهد، والتعمد والتودد والتعرف الدال بالضرورة على وجوب وجود رزاق رحيم؛ لامتناع الفعل بلا فاعل، وامتناع أن يكون جزء المفعول فاعلاً لهذا الفعل العام..

◆ (٢٥) وما انتشر وانتشر في الكائنات من «الحي والحياة» المتضمنتين للحكمة والعناية والرحمة والرزق والصنعة الدقيقة والنقش الرقيق والاتقان والاهتمام المترشحة بتجليات قصد وشعور وعلم وارادة تامة عليها الدالة تلك الحياة على وجوب وجود قادر قيوم محيي مميت واحد؛ ولأن كل شئ واحد فخالقه واحد؛ اذ «الواحد لايصدر الاّ عن الواحد» فخالق الكل واحد خلافاً لقاعدة الفلسفة الكاذبة المشركة القائلة: *«الواحد لا يصدر عنه الا الواحد»*

فهذه الحقائق الخمسة الممتزجة كالألوان السبعة في الضياء وكالدوائر المتداخلة المتحدة المركز، تدل بالبداهة على ان لهذه الكائنات رباً، قديراً، عليماً حكيماً، كريماً، رحيماً، رحمانَ، رزاقاً، حياً، قيوماً، متصفاً باوصاف الكمال.. فتفتح هذه الخمسة الممتزجة بضياء واحد مشكاة نظارة الى الحدس الصادق المنظم الى نور الاسلام، المنظّم الى التسليم لطور النبوة، المنظّم لنور الايمان بانه: هو الله الواجب الوجود الواحد الاحد. فتشهد الكائنات في تلك المشكاة بهذا اللسان ذي النغمات الخمس منادية. **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (٢٦) وكذا ان ما يتلمع على وجه الكائنات من «الحُسن العَرَضي، والتحسين» المشيرين الى وجوب وجود من له الحسن الذاتي والاحسان..

◆ (٢٧) وما يُرى في خد الكائنات من «الجمال الحزين» المنعكس المرمز الى وجوب وجود ذي الجمال المجرد..

◆ (٢٨) وما يُرى في قلبها من «العشق الصادق» المنادي على المحبوب الحقيقي.

◆ (٢٩) وما يُحَسّ به في صدرها من «الانجذاب والجذبة» الملوحين بالحقيقة الجاذبة التي تنجذب اليها الاسرار..

◆ (٣٠) ومـا « يُسمع من كل الكُمّلين من شـهـادتهم » بمشـاهدتهم كـون كل الاكوان ظلال انوار ذات واحد..

آيات نيرات.. فهـذه الحقـائق الخمسة تدل بالضرورة على ان لهـذا الكون رباً واجب الوجود، متصفاً باوصاف الجلال والجمال والكمال. فتفتح كوة نظارة ايضاً تشهد الكائنات فيها بهذا اللسان ذي النغمات الخمس: **الله لا إله إلاّ هُو**..

◆ (٣١) وكـذا ان مـا يُرى في جـزئيـات انواع الكائنـات، من « التـصـرفـات المتناظرة » والتصـرف لمصـالح الدال بالبـداهة على وجـوب وجـود متـصـرفٍ حكيم واحد؛ لإمتناع الفعل بلا فاعل، وامتناع ان يكون جزء المفعول المنفعل الجامدٌ فـاعلا لهذا الفعل العام الشعوري المتلاحظ..

◆ (٣٢، ٣٣) ومـا يُرى في اجـزاء الكائنات مـن انواع النبـاتات والحـيـوانات من « التبديل لفوائد، والتحويل لحِكَم » الدالين على وجوب وجود رب مدبر حكيم..

◆ (٣٤) ومـا يُرى في اعضـاء الكائنات ككرة الارض بليلهـا ونهـارها من « التغيير لغـايات » الدال على وجوب وجـود فاعل مـختـار، فعـال لما يريد؛ لإمتناع الفـعل بلا فاعل، ولإمتناع ان يكون مصدر هذه الافاعيل المتناظرة، غير قدرة الواجب..

◆ (٣٥) ومـا يُرى في العـالم من « التنظيم لكمـالات » الدال بالبـداهة على وجـوب وجود القـادرِ القيوم؛ لامتناع التـنظيم بلا ناظم، وامتناع ان يكون جزء الكثير الممكن المنفـعل فاعـلاً لهذا الفـعل المحيط الشـعوري. واين يد العنكبـوت من نسجِ حُلّة قُدّت على مـقدار قـامة الكائنات؟ بل اين الاعـمى الاشل الجامـد واين نسج قمـيص مطرز لهذا العالم؟

ايضاً آيات[١] على وجوب الوجود والوحدة.. وهذه الحقائق الخمسة في الفعالية كالالوان السبعة في الضـياء، وكالدوائر المتـداخلة المتحدة المركـز؛ تدل بالبداهة على ان لهذه الكائنات رباً متصرفـاً حكيماً مدبراً فـاعلاً مختـاراً فعّالاً لما يريد قادراً قـيّوماً متصفـاً باوصاف الكمال. فتفتح هذه الحـقائق الخمسة ايضاً بضـياء واحد كوة نظّارة الى مرتبـة الوجوب والوحدة، فتـشـهد الكائنات بهـذا اللسان ذي الأصوات الخـمـسة منادية: **الله لا إله إلاّ هُو**..

(١) اي ماذكر من التصرف والتبديل والتحويل والتغيير والتنظيم.

◆ (٣٦) وكذا ان «حدوث الكائنات» كلاً وجزءاً يستلزم محدِثاً قديماً.. وان تردد الكائنات مجموعا واجزاء بين «الامكانات» الغير المحدودة ذواتٍ وصفاتٍ وكيفياتٍ بمقدار تخصصها تتزايد الامكانات. ثم اخذها هذا الشكل المنتظم المتقن المحكم من بين تلك الطرق العقيمة يستلزم ذلك التردد، ويدل بالضرورة على وجوب وجود **رب عليم حكيم قدير**.

◆ (٣٧) وان «احتياجات الكائنات» كلاً واجزاءً وجوداً وبقاءً مادة ومعنى، حياة وفكراً، مع فقرها وضعفها في ذاتها وقصر يدها عن ادنى حاجاتها، ثم قضاء حاجاتها - على تنوعها - من حيث لايُشعَر في اوقاتها المناسبة؛ تستلزم وتقتضي وتدل على وجوب وجود **رب مدبر رزاق كريم رحمان رحيم**..

◆ (٣٨) وان «افتقارات الكائنات» مجموعاً واجزاءً وجوداً وبقاء مادة ومعنىً، مع ضعفها في ذاتها وقصر يدها عن ادنى مطالبها، ثم اغناء مطالبها من حيث لايُحتسب في الاوقات اللائقة؛ تستلزم وتقتضي وتدل على وجوب وجود **رحيم كريم فياض لطيف ودود**.

◆ (٣٩) وان «فقرها في ذاتها» كالشجر والارض اليابسين في الشتاء «مع تظاهر الاقتدار المطلق» في معدن ضعفها كحياتهما في الربيع، يدل على وجوب **وجود القدير المطلق** الذي تتساوى بالنسبة اليه الذراتُ والشموس.

◆ (٤٠) وان فقر الكائنات لذاتها، مع تظاهر آثار «الغناء المطلق» كظهور الارزاق من التراب اليابس، يدل على وجوب وجود **الغني المطلق** الذي من حجيرات خزائن رحمته: الشمسُ والشجر، ومن مسيلات حوض رحمته: الماء والضياء.

◆ (٤١) وان «موتها في ذاتها مع تظاهر انوار الحياة» يدل على وجوب وجود **الحي القيوم المحيي المميت**.

◆ (٤٢) وان «جمودها وجهلها مع تظاهر آثار الشعور المحيط» وان ذا[١] هذا الشعور سميع بصير، يدلان على وجوب وجود **عليم خبير**.

---

(١) صاحب هذا الشعور.

◆ (٤٣) وان « فناءها وتغيرها على الدوام بالانتظام » يدلان بالحدس القطعي على وجوب وجود المغير، الغير المتغير **الدائم الباقي**.

◆ (٤٤) وان ما لذوي الارواح من « العبادات النورانية » المقبولة المثمرة المتضمنة للمشاهدات والمكالمات والفيوضات والمناجاة، تدل على وجوب وجود **معبود حقيقي**.

◆ (٤٥) وان « تسبيحات الكائنات » القالية والحالية،[١] تدل على وجوب وجود من ﴿**يُسبّحُ لهُ ما في السمٰوات والارضِ**﴾[٢] اذ دلالة الفطرة صادقة، وشهادتها الفذة لاترد.. فكيف بدلالات غير متناهية وشهادات غير محصورة، قد اتفقت كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز، على وجوب وجود مَن ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّموات والارضِ**﴾ بألسنة اقوالها واحوالها وبنقوش جباهها؟.

◆ (٤٦) وان « ادعية ذوي الحاجات » المقبولة والمستجابة، والمؤثرة والمثمرة، تدل بالضرورة على وجوب وجود مَن **يجيب المضطر اذا دعاه**.

◆ (٤٧) وان « التجاآت ذوي البلايا » شعورياً وغير شعوري عند الاضطرار الى حاميها المجهول، بل خالقها، تدل على وجوب وجود **ملجأ الخائفين، وغياث المستغيثين**.

◆ (٤٨) وان « مشاهدة كل الكُمّلين » العابرين من الظاهر الى الباطن، واتفاقهم بالكشف والشهود والذوق والمشاهدة على ان كل الاكوان ظلال لانوار ذات تدل على وجوب وجود شمس الازل الذى هذه الاكوان ظلال انواره.

◆ (٤٩) وكذا ان مايُعلم بل يُتحدس بل يُحسّ بل كأنه يُرى ويُشاهد ملء الكون والفضاء، قد توضعت على مثل الذرة امثال الجبال من « الافاعيل المتجلية، وتجليات الاسماء » السيالة الهابطة من مرتبة الوجوب والوحدة، تدل بالضرورة على ان مبدأ هذه الافاعيل ليس مرتبة الامكان، بل هي اشعة مرتبة الوجوب، وتدل على وجوب وجود ذات مقدس فاعل لهذه الافاعيل، ومسمىً لهذه الاسماء.

---

(١) بلسان الحال والمقال.

(٢) الحشر : ٢٤

◆ (٥٠) وان « اضطرابات الارواح » من الاستبعاد والاستغراب والحيرة والكلفة المنجرة الى الاستنكار ثم الى محالات متسلسلة في تفويض الاكوان الى انفسها واسبابها تلجئ العقول والارواح، للخلاص من مرض الاضطراب والتشفي منه الى امتثال امر: ﴿**ففرّوا الى الله**﴾[1] ﴿**ألا بذكر الله تَطمَئنُ القُلوب**﴾[2] ﴿**والى الله تُرجعُ الأُمور**﴾[3] الذي بقدرته يحصل الايضاح لكل مشكل وبذكره تطمئن القلوب. نعم لامؤثر في الكون حقيقةً الا الله..

◆ (٥١) وكذا ان ما يُرى من « القَدر بالضرورة » في المحسوسات، و« بالنظر » في غيرها، يدلان على وجوب وجود مَن خلق كل شئ وقدّره تقديراً؛ اذ عالم الشهادة مجموعاً واجزاءً لكل شئ منه غايات منتظمة، ونهايات مثمرة وحدود كانها آجال منتظمة، التي تسمى بالمقادير التي لاتحصل الا بقوالب وما هى إلاّ القضاء والقدر، التى هي قوالب القدر قُدّتْ على مقدار قامات الاشياء تعينت اولاً فبنيت الاشياء على هندستها. فان شئت مثالا فانظر الى بدنك باعوجاجاته ويدك باصابعها.. فينتقل بالحدس الصادق، من هذا القَدر الضروري الى القَدَر النظري في المعنويات والاحوال؛ اذ لها ايضاً نهايات وغايات مثمرة وحدود وآجال منتظمة، هي مقاديرها، هي قوالبها ترسمت بيد القضاء والقدر، فكتبت القدرةُ كتاب المعاني على مسطر القَدَر. فالقُدرة مصدرٌ، تنظر الى مسطَر القدر.[4] فهذان القَدران يدلان بالضرورة على وجوب وجود مَن هذه الكائنات خطوط قلم قضائه وقدره. آمنا!..

◆ (٥٢) وكذا ان « جامعية استعدادالانسان » تخبرنا بان البشر ثمرة شجرة الخلقة، فيكون اكملَ وابعدَ، فوجهُه الشفاف متوجه الى الظلمة وفضاء العدم الذي هو باطن الدنيا. وما في جامعية الاستعداد من قابلية العبادة، تخبرنا بان الانسان ما خلق هكذا، ليكون منكوس الرأس يخلد الى الفاني، بل قابلية العبادة لصرف وجهه الشفاف من الظلمة الى النور، ومن فضاء العدم الى الوجود، ومن المنتهى الى المبدأ، ومن الفاني الى الباقي، ومن الخلق الى الحق. كأن العبادةَ حلقة اتصال بين المنتهى

---

(١) الذاريات : ٥٠

(٢) الرعد : ٢٨

(٣) فاطر : ٤

(٤) اي ان تجليات القدرة المطلقة تنضبط وفق مقادير القدر كما هو في علم الله.

والمبدأ في دائرة الخلقة. فتشهد الفطرة بهذا اللسان على وجوب وجود مَن خلق الخلق ليُعْرَف وخلق الجن والانس ليُعْبَد. آمنا..

◆ (٥٣) وكذا ان ما يُشاهد في الكون من مرتبة «الامكان والكثرة والانفعال» يستلزم بالبداهة الأولَوية مرتبة الوجوب والوحدة والفاعلية، فيدل بالضرورة على وجوب وجود الواجب الوجود الواحد الاحد الفعال لما يريد. آمنا..

◆ (٥٤) وكذا يُشاهَد في الكائنات ان «الاشياء تتحرك قبل الوصول الى نقطة الكمال لها» ثم تسكن بعد الوصول وتستقر. فيتحدس من هنا بان الوجود يقتضي الكمال؛ والكمال يقتضي الثبات، فوجود الوجود بالكمال، وكمال الكمال بالدوام، فالواجب السرمدي، هو الكامل المطلق. فكل كمالات الممكنات ظلال لتجليات انوار كماله. فتدل هذه الحقيقة على ان الله هو الكامل المطلق في ذاته وصفاته وافعاله. آمنا..

◆ (٥٥) وكذا ان «ألْطفية باطن الشئ من ظاهره» كما يدل على ان صانعه ليس خارجاً بعيداً منه، كذلك «محافظته لنسَب النظام والموازنة» مع سائر الاشياء يدل على انه ليس داخلاً في الشئ ايضاً. فالَنظر الى المصنوع في ذاته كما يدل على ان صانعه عليم حكيم.. فالنظر اليه مع الغير يدل على ان صانعه سميع بصير، فوق الكل يراه مع الغير يرسم بهما نقشاً لمصلحة. فيدل هذه الحقيقة على وجوب وجود الصانع الذي ليس داخلا في العالم ولا خارجاً، كما هو في أبطن البطون كذلك فوق الفوق، كما يرى شيئاً يرى معه كل الاشياء. آمنا..

فهذه الحقائق العشرون المتمازجة كالوان القوس القزح وكالدوائر المتداخلة المتحدة المركز، آيات نيرات تدل بالضرورة على ان لهذه الكائنات رباً، قديماً واجب الوجود، عليماً، حكيماً، مريداً، قديراً، رحمان، رحيماً، رزاقاً، كريماً، قادراً، غنياً، حياً، قيوماً، عليماً، خبيراً، دائماً، باقياً، معبوداً ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السمٰوات والارض**﴾[1] ﴿**يُجيبُ المُضطرَّ اذا دَعاهُ**﴾[2] ملجأ الخائفين، غياث المستغيثين، الذي هذه الكائنات ظلال انواره وتجليات اسمائه وآثار افعاله.. الذي بذكره تطمئن

(١) الحشر: ٢٤

(٢) النمل: ٦٢

القلوب.. واليه ترجع الامور.. خلق الجن والانس ليعبدوه.. نظّم الكائنات بقوانين قضائه وقدره.. وهو الواجب الوجود الواحد الاحد.. الكامل المطلق في ذاته وصفاته وافعاله.. وهو اللطيف الخبير السميع البصير..

فتفتح هذه العشرون من الحقائق المتمازجة، بانوار مخططة كوات نظارة بوجوهٍ وجهاتٍ ومراتبَ الى الحدس الصادق المنظم لنور الاسلام المنظم الى التسليم لطور النبوة المنظم الى الايمان؛ بانه هو الله الواجب الوجود الواحد الاحد. فتشهد الكائنات بهذا اللسان ذي النغمات العشرين منادية: **الله لا إله إلاّ هُو**.

◆ **واعلم!** ان «**الله لا اله الا هُو**» بكل دلائله المزبورة[1] مثبت «لاحولَ ولاقُوّةَ الا بالله».

وكذا فاعلم انه «لا اله الا الله» بكل براهينه المذكورة، يستلزم «محمد رسول الله». فمحمد رسول الله كما يتضمن من الايمان خمسة اركانه، كذلك هو مظهرٌ ومرآةٌ لصفة الربوبية. فبهذا السر صار قريناً موازيا لـ«لااله الا الله» في ميزان الايمان، فتأمل. ولأن النبوة مظهر لصفة الربوبية تكون جامعةً وكليةً، والولاية خاصة وجزئية، فنسبتها اليها كنسبة صفة «رب العالمين» الى «ربي»... ونسبة العرش الى القلب.. ونسبة المعراج الممتد من الارض الى مافوق العرش المار على طوائف المُلك والملكوت الى معراج المؤمن في سجوده.. بالوجه الخاص..

تنبيه

◆ **اعلم!** ان هاتيك البراهين على هذا المطلب العالي، كالدائرة المحيطة بالمركز، وكل نقطة من المحيط كمنفذ ينظر بلونه المخصوص الى المركز، وبين النقاط تساندٌ يزيل ضعفَ الأفراد الخصوصية، ويتولد من مجموع البراهين حدسٌ صادقٌ ينظِّم الى نور الاسلام، ثم يُنَظِّم الى التسليم لطور النبوة، ثم يُنظِّم لنور الايمان القيوم للمطلوب. وما البراهين الا منابع لتحلُّب هذا الحدس، فضعف الفرد يزول بسرّ التساند.. ومع فرض عدم زواله لايسقط الفردُ عن الجزئية وعن الاعتبار، بل عن الاستقلالية

(١) اي المكتوبة.

والبرهانية.. ومع فرض إبطال الفرد لاتبطل الدائرةُ بل تتصاغر.. وبفرض إبطالها لايزول الحدسُ الصادق.. وبفرض زواله فلا بأس ايضاً.. اذ نور الاسلام قائم، وبعدَه التسليمُ لطور النبوة لايتزلزل.. وبعدَه نور الايمان الموهوب قيومٌ. فطلبُ قوةِ وضوحِ المطلوب المترتب على مجموع البراهين من كل فردٍ على حدة بجزئية الذهن من مرض النفس، الذي يزيد مرضَها ويلقنها ملَكةُ الرد والانكار.. اللهم احفظنا!. فالبرهان الواحد اولاً يُنظر به الى المطلوب، ثم يتشرب انموذجُ المجموع فتتساقط عنه الاوهامُ.

◆ اعلم! ايضاً ان من البراهين ماهو كالماء، ومنها ما هو كالهواء، ومنها ماهو كالضياء، لابد من التوجه بلطفٍ ووُسعة نظرٍ في لينة؛ والاّ فبالحرص والتعمق والجسّ باصابع التحري يسيلُ ويزولُ ويختفي.(١)

◆ ثم اعلم! ان النظر الى شجرة ذات اغصان وفروع وثمرات لمعرفة حياتها وطعمها ودرجة قوتها على قسمين:

نظرٌ من طرف الاصل والجرثوم، فهذا نظر سهل وبسيط مستقيم متين.

والثاني: من طرف الثمرات والفروعات، فهذا النظر بدون النظر الاول سقيم موصلٌ الى الضلالات.

كذلك ان شجرة الاسلامية جرثومها في السماء، اغصانها منتشرة في آفاق الكثرة، فلمعرفتها نظران؛ وللدخول في دائرتها طريقان:

فالنظر الاول:

هو النظر من جانب الاصل، فاذا نظر الموفَّق الى الجرثوم يرى فيها حوضاً عظيماً منبعهُ الصافي هو الوحي المحض، فتزايدَ الحوضُ بتحلّب الآيات الآفاقية والأنفسية، فمن ذلك الحوض الممتزج مادة حياة الثمرات وغذائها. فاثبات حياة ثمرة واحدة تكفي لاثبات سائر اخواتها، بل – وكذا – تدل على حياة شجرتها مع ان اثبات حياة الثمرة سهل سريع يحصل برؤية الاتصال فقط. وابطالها وزوالها عسير بطئ

(١) تفصيل هذه البراهين في «زهرة من رياض القرآن» ص ٢٨٠ وفي المذكرة العاشرة من اللمعة السابعة عشرة.

لايقتدر على ابطالها مع بقاء الاتصال، وعلى منبع سريان الحياة اليها مالايقتدر على قلع الاصل. ولو صادف هذا النظر بين الثمرات ميتة يابسة حَكَمَ بانها دخيلة ويحيل موتَها على الاسباب الخارجية. هذا النظر هو النظر الايماني والاسلامي والمستقيم السهل والمنقاد لطور النبوة.. اللهم ارزقنا وثبتنا عليه.

والنظر الثاني:

السقيم الذي هو منشأ الضلالات ومعدن الاضطرابات، هو النظر من جانب الثمرات بنظر تنقيدي.. وفي هذا النظر يحتاج في كل ثمرة الى الاثبات والذوق لفقد الاتصال هنا، مع ان اثبات ثمرةٍ فردةٍ وايصال مادة غذائها عسير يحتاج الى مايحتاج اليه تمامُ الاصل، مع ان زوالَها وبطلانها سريع يحصل بادنى شئ. ولو صادف بينها ميتة يابسة احالها على موت الاصلِ.. اعاذنا الله من هذا النظر. لكن لو كان هذا النظر تابعاً للنظر الاول كان حسناً وسبباً لاطمئنان النفس..

سعيد النورسي

* * *

خاتمة هذا المبحث

في اربعـــة امـراض[1]

◆ **الاول: اليأس..**

اعلم! انك اذا تدهّشت من العذاب ومـا وُفّقتَ للعمل، تتمنى عـدمَ العذاب، فتتحرى ما ينافيه، فترى الامارات المـنافية براهينَ، فتخطفك الشياطين؛ فاستمع بقلب شهيد قوله تعالى:

﴿**قُلْ يا عبَادي الذينَ أسـرفـوا على أنفُسـهِم لاتَقنَطوا مِن رَحـمَةِ الله إنَّ الله يَغفِرُ الذُنوبَ جَمَيعاً إنَّهُ هوَ الغَفورُ الرحيمُ**﴾[2].

◆ **والثاني: العُجُب..**

نـعـم يانـفـس![3] ايستَ ثم تَحـريتَ ماتستند اليـه في مقـابلة العذاب، فـرأيت مـحاسنك، فـوقعت في ضـلالةٍ من باب العُجب، مع انه لاحقَّ لك قطعـاً في شئ من الكمالات، فتأمل..

يانفـسي! هذا الوجود الذي سكـنته مـا هو صنعتُك حـتى تـتملك وما هو لقـيطةٌ التقطتها، حتى يُتَمَلَّك. وما هو نتيجة تصـادف اعمى واتفاقية عوراء واسباب جامدة حتى يُقتطف ويُتـملك. وليس شيئاً رخيصـاً بلاً اهمية تافهاً سـدىً اعرض عنه مالكهُ حتى تأخـذَه وتتملّكه، بل هذا الوجود بعجـائب صنعته وغرائب نقـشه يدل على انه خرج من يدِ صانعٍ حكيم، مهيمن عليه دائماً..

---

(١) في (ط١) اربعة امراض مضلة.

(٢) الزمر: ٥٣

(٣) ذكَر النفس لان المقصود منه الانسان وفي (ت ٥٩) يا اخي.

الا ترى انه ليس في يدك من تصاريف هذا الوجود من ملايين تصرفاتٍ الاّ تصرفٌ واحد مشكوك هو حجته عليك..

وكذا الا ترى انك اشرف الاسباب وأوسعها اختياراً واظهرُ افعالك الاختيارية الاكل والكلام، مع انه ليس في يدك من مائة جزءٍ منهما الاّ جزءٌ واحد..

وكذا ان اضيقَ خاصياتك الاختيارُ واوسَع حواسك الخيالُ، مع ان الخيال لايحيط بالعقل وثمراته، فكيف تُدخله تحت دائرة الاختيار فتفتخر به؟.

وكذا تجري فيك وعليك افاعيلٌ لايلحقها شعورك مع انها شعورية، فصانعهما ذو شعور سميع بصير، لا انت ولا الاسباب العُمي الصُم. فلابد ان تتبرأ من دعوى المالكية وتوهُم مصدرية المحاسن، وتعترف بانه: ليس اليك منك الا النقصان والقصور؛ اذ بسوء اختيارك تغير صورة فيضِ الكمال المفاض عليك.. وبانَّ الجسد الذي هو منزلك عاريةٌ وامانة وانت مسافر، ومحاسنك هذه موهوبةٌ وسيئاتك مكسوبة لك، فلابد ان تقول: له الملك وله الحمد ولاحول ولاقوة الاّ بالله..

◆ **والثالث: الغرور..**

وكذا من مرضك غرورك، فبحُكمه نظرتَ الى الاسلاف العظام من بُعدٍ فتصاغروا في عينك، فحُرِمْتَ محاسنَ ارشاداتهم، وابتليتَ بالاوهام المتطايرة من تحت اقدامهم في سلوكهم مع اوهامك. فانظر اليهم من قُربٍ تَرَهُم اعاظمَ كشفوا في اربعين يوماً ما لم تقتدر على كشفه إلاّ في اربعين سنة.

◆ **والرابع: سوء الظن..**

وكذا من مرضك سوء الظن، فبحُكم أن الجائع يتوهم الناسَ جياعاً، اسأت الظن بسبب مرضك وريائك باولئك الاسلاف العظام. فقد رأيت انك بغمضِ عينك جعلتَ النهارَ ليلاً على نفسك فقط.

اللّهم احفظنا من اليأس وسوء الظن والعجب والغرور، آمين..

* * *

ثم قد شاهدت في سياحة تحت الارض المعنوية وفي بطنها حقائق:

الحقيقة الاولى:

اعلم! ان الغفلة عن المالك الحقيقي جل جلاله، سببٌ لفرعونية النفس، فتتوهم نفسَها مالكةً لها، فيتشكل في وهمها دائرةٌ لحاكميتها، ثم تقيس الناسَ بل الاسباب على نفسها، فتقسم مال الله عليها، فتعارض الاحكام الالهية، وتبارز مع مقدرات خالقها؛ مع ان الحكمة في اعطاء انانيةٍ لها، ان تصير واحداً قياسياً لفهم صفات الالوهية، فاساءت بسوء الاختيار، فصرفتّها في غير ماوُضِعَت له..

ياايها الناظر!

ان هذه الحقيقة الدقيقة الرقيقة صارت مشهودةً لي بتمام ظهورها، فرأيت أن ما في النفس من «انا» المتنبت بماء الغفلة هو «نقطة سوداء» تصير واحداً قياسياً لِفَهمِ صفات خالقها الذي لاشريكَ له، لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في الوهيته.

اذ معرفة الناس للاشياء اولاً نسبية وقياسية. وتفهّم الصفات المحيطة التي لاحد لها، يحصل بتوهم الحد.

فـ«انا» يتجاوز عن حده.. فيتوهم الحدَّ، فيقيس، فيفهم.. فيرجع الى حده، فيزول الحد الموهوم.. فيصير أولاً سمكاً، وثانياً حَبابا. فقد مرّ:

ان النفس ليست مالكة لنفسها ولالجسمها، اذ ما هو[1] لقيطة ولانتيجة تصادف، ولاشئ تافه، ولامتشكل بنفسه؛ بل هو ماكينة دقيقة عجيبة إلهية يعمل فيه في كل وقت قلمُ القدرة بيد القضاء والقدر.

فيا ايتها النفس!

تفرّغي من هذه الدعوى الباطلة، وسلمي الملك الى مالكه، وكوني امينة على هذه الامانة.

---

(١) اي: الجسم

فاذا خنتِ في درهمٍ واسندته لذاتك، تشرعين – بسرّ قياس النفس – تعطين من مال الله لأبناء جنسك، ثم للاسباب قناطير مقنطرة، كما فعلته الفلاسفة.

ايتها النفس!

لستِ مالكةً لك وإلاّ لابد ان تكوني صانعةً وموجِدة لهذا البدن، او صنعَته الاسبابُ فاغتصبته منها.

كيف تكونين صانعةً وانت اخت الغنم؟

فالغنم كيف يدعي انه صانع جسمه؛ والغنم اخو الرمان؟

وكيف تكون صبغةُ الرمان صانعة حبّاته؟

وكيف تكون الثمرةُ المتوضّعة على رأس الشجرة خالقةً وصانعة لشجرتها؟

فان صحّت هذه، صحّت لكِ المالكية.

واما على الشق الثاني:

فالمصنوع ينادي بأعلى صوته بأنى صنعةُ عليمٍ حكيم، سميع بصير، بنظامٍ وميزان. مع ان الاسباب عميٌ صمٌ جامدة ميتة؛ كلما اجتمعت واختلطت – ففضلاً عن حصول صنعة بصير – يتزايد العميُ والأصمّية؛ اذ اختلاط العمي الصُم لايزيدهم الاّ عُمياً وأصمية، مع ان الاسباب بالنسبة الى ذلك البدن كنسبة زجاجات الأدوية في (اجزخانة)(١) بالنسبة الى معجونٍ ذي خاصية عجيبة يؤخذ من كلٍ مقدارٌ معين بلا زيادة ولانقصانٍ بميزان مخصوص، ان زاد او نقص درهمٌ من مئات من الزجاجات، فاتَتْ خاصيةُ المعجون؛ فان امكن ان يخرج من كل زجاج مقدارٌ مخصوص بنفسه بلا حكيم مع تفاوت المقادير، ثم يتحصل ذلك المعجون بنفسه، امكن ان تدّعين: ان هذا البدن اختطفتهُ من ايدي الاسباب، فتملكتُه.

الحاصل: توهّم المالكية انما نشأ من حُمقكِ وبلاهتكِ.

---

(١) الصيدلية

الحقيقة الثانية:

اعلم! يا ايتها النفس الامارة! ان لك دنيا هي قصر، واسعة مبنية بآمالك وتعلقاتك واحتياجاتك الى الاكوان، فالحجر الاساس، في ذلك القصر والاصل الاول والعمود الفريد، هو وجودك وحياتك، مع ان هذا العمود مدوّد، وهذا (التمل چوروك) والاساس فاسد ضعيف مهيأ للخراب في كل آن. فليس هذا الجسم بأبديّ ولا من حديد ولاحجر؛ بل من لحم ودم مهيءٍ لان يتفرق في كل آن، فبانحلاله تنفلق عنك هذه الدنيا بحذافيرها، فتخرب على رأسك دنياك. فانظري الى الماضي اذ هو قبر واسع خرب على رأس كل ميتٍ كان مِثلُك في دنياه. والمستقبل ايضاً قبر واسع يكون مثله. وانت الآن بين ضغطة القَبرين، كما ان امس قبرُ أبي، وغداً قبري، وانا ايضاً بين ضغطة القبرين. فالدنيا مع انها واحدة؛ تداخلتْ واندمجت فيها – لكل احد – دُنياً بتمامها، فهي شخصية كلية، مَن مات قامتْ قيامتهُ..

الحقيقة الثالثة

قد شاهدتُ ان الدنيا بجميع لذائذها حمل ثقيل، وقيدٌ لايرضى بها الا المريضُ الفاسد الروح؛ فبدلاً من التعلقات بالكائنات، والاحتياجات الى كل الاسباب، والتملق لكل الوسائط، والتذبذب بين الارباب المتشاكسين الصم العمي؛ لابد من الالتجاء الى الرب الواحد السميع البصير الذي إن توكلتَ عليه فهو حسبُك.

الحقيقة الرابعة

اعلم! يا انا، ان ما التفت على رأسك من سلاسل الايجاد العلمية، واتصلت بانانيتك من سطور الصنائع الشعورية، وما اخذت بايدي حوائج ذاتك من وسائل المدد والاجابة، تدل على ان موجدك وصانعك ومغيثك يسمع انينات[1] فاقاتك، فيتحنن لها، ونداء حاجاتك وآمالك، فيتعرف بتعهّدها؛[2] اذ ذلك الصانع والموجد يغيث ويلبي نداء حاجة حجيراتك الصغيرة بالمشاهدة؛ فكيف لايجيب ولايغيث – وهو السميع البصير – لدعائك.

---

(١) الانين: صوت توجع وألم .. ج : انات . والمقصود هنا انين كل فاقة.

(٢) اي: بتعهده وتفضله سبحانه لتلك الحاجات يتعرف اليه الانسان.

ايتها الحجيرة الكبرى المعبرة بأنا، المركبة من تلك الحجيرات! فقل[١] يا الهي، ياربي، ياخالقي، يامصوري، يامالكي، ياسيدي، يامولاي لك الملك ولك الحمد: انا مسافر في وديعتك وامانتك ومملوكك الذي هو هذا الجسم بمشتملاته.

فيا انا لِمَ تتملك ما لايصير لك ملكاً؟ فتفرَّغْ من هذه الدعوى الباطلة، اذ توهم التملك يوقعك في ألم أليم. فانظر الى الشفقة التي هي من مزينات الروح ومراوحه[٢]، لو بُنيت على توهمك هذا لانقلبت نكالاً مزعجاً للروح.

مثلاً: اذا رأيت يتيماً واحداً ضعيفاً فقيراً له بيت صغير ومُلك قليل يتهاجم عليه الوفٌ من القاسية القلوب، كيف تتألم بألمه؟! ولو تزايد مثل هذه الواقعة الى مالاحد له تتزايد الآلام المنعكسة اليك بنسبته. واما اذا رأيت أحدَ نفرِ العسكر للسلطان، قد احترق مسكنهُ او غُصبَ مَركبه - بغير قصورك وبأذن السلطان - لاتتوجع على النفر؛ اذ المالُ للسلطان الذي لايتأثر بمثل هذا النقصان، ولايتأثر العساكر بضياعه تأثراً عميقاً؛ اذ ليس هو ملكه وهو فقير بل ملكُ غني خُرّب ماله بواسطة اخرى، بل تترحم بحساب السلطان وبنظر رحمة السلطان. فالشفقة على خلق الله من حيث هو خلق الله، كلما تزايدت تنبسط الروحُ. والشفقة الناشئة من الغفلة والمبنية على توهم المالكية بتزايدها ينقبض الروح ويتألم القلب بظلمة الغموم.

كذلك: ان النظر الايماني والتوحيدي يرى كلَّ ذي حياة يتصرف في وجوده، كالامير المستأجَر على السفينة للسلطان الذي يتصرف في ملكه كيف يشآء. فهذا النظر لايرى النملة ولا النحلة الصغيرة الفقيرة تصارع الاسباب الظالمة المهاجمة، بل يرى النملة والنحلة تتصرفان في سفينة برية وطيارة هوائية، زمامهما وناصيتهما تصل بيد قدرة قدير، تتصاغر الاسبابُ الهاجمة في نظر راكبهما. انما النملة وكذا النحلة تصارع الاسباب - ولو عظمت - بالاستناد بمالكه الحقيقي.

واذا قيل عند المصيبة ﴿**إنّا لله وإنّا اليه راجعُونَ**﴾[٣] فمعناه: المالُ له، وأنا في أمره، وإليه اذهبُ، ما عليَّ لو لم اقصّر في حفظه. مثلُه كمثل نفرٍ هجم على ما في يده من مال السلطان بعضُ الناس. يقول النفر: انا وما معي للسلطان واليه اذهب، فان كان بإذنه فلا عليّ.. واما اذا نظر بنظر توهم التملك انقلبت الشفقةُ ناراً محرقة لمن له قلب؛ اذ يصير كل الحيوانات مثل اليتيم المذكور ويُرى في الكون مأتماً عمومياً..

(١) فقل يا انا.. (٢) مروّح: مطيّب (٣) البقرة: ١٥٦

الباب الثاني [1]

في

سبحان الله

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سُبحان الله القادر المطلق بالقدرة الذاتية، والغني المطلق المتقدس المتنزّه عن العَجز والاحتياج.

سُبحانَ الله الكامل المطلق في ذاته، وصفاته، وافعاله، المتقدس المتنزّه عن القصور والنقصان؛ اذ كمال آثاره دالٌّ على كمال افعاله، وهو على كمال اسمائه، وهو على كمال أوصافه، وهو على كمال ذاته جل جلاله. بل مجموع ما في الكائنات والمصنوعات من الكمال والجمال؛ انما هو ظلٌّ ضعيف بالنسبة لكماله وجماله بالحَدس الصادق، وبالبرهان القاطع، وباجماع جماعاتٍ عظام متواترين متفقين بالكشف والذوق والشهود والمشاهدة: على ظلية كمال الكائنات بل كل الأكوان لأنوار واجب الوجود.

سبحان الله الواحد الاحد المتقدس المتنزّه عن الشركاء، لاشريك له؛ لا في ملكه لواحدانية الأثر الدالة على وحدة المؤثر، ولا في ربوبيته لاتحاد القلم، ولا في الوهيته المستلزمة للانفراد والاستقلال بالذات.

سبحان الله القدير الأزلي المتقدس المتنزّه عن المعين والوزراء؛ لامتناع التحديد والانتهاء في القدرة الكاملة الغير المتناهية بواسطة الممكن المتناهي..

---

(١) [ايضاح هذا الباب الثاني الذي يخص « سبحان الله » في اللمعةالعربية التاسعة والعشرين وفي مواضع عدة من رسائل النور، لذا جاء هنا مختصراً] المؤلف.

سبحان الله القديم الأزلي المتقدس المتنزّه عن مماثلة المحدثات..

سبحان الله الواجب الوجود المتقدس المتنزّه عن لوازم ماهيات الممكنات..

سبحان الله الذى له المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم المتقدس المتنزّه عما تصفه العقائد الباطلة الخاطئة، وعما تتصوره الاوهام الباطلة القاصرة، وعن كل النقائص؛ اذ هي إما من الأعدام، او الى الأعدام. فكيف تصل الى ذيل الوجود الواجب؟! ..

سبحان الله السرمدي الابدي المتقدس المتنزّه عن التغير والتبدل اللازمين للكثرة والامكان والمنافيين للوجوب والوحدة..

سبحان الله خالق الكون والمكان، المتقدس المتنزّه عن التحيّز والتجزء المنافيين للغناء الذاتي.

سبحان الله القديم الباقي المتقدس المتنزّه عن الحدوث والزوال.

سبحان الله الواجب الوجود المتقدس المتنزّه عما لايليق بجنابه من الحلول والاتحاد - ما للتراب ولرب الارباب! - ومن الحصر والتحديد المستلزمين للمحكومية؛ ومن الوالد والولد تعالى الله عَمَّا يقول الظَّالمون عُلوّاً كبيراً.

سبحان الله الذي تسبح له الملائكة كلهم ويسبح له ما في السموات وما في الارض، بما على جباهها من نقوش قلم القَدَر..

* * *

الباب الثالث [1]

في

الحمد لله

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي تحمد له وتثني عليه باظهار صفاته الكمالية هذه العوالمُ بجميع ألسنتها الحالية والقالية؛ اذ العوالم بانواعها، واركانها، واعضائها، واجزائها، وذراتها، واثيرها؛ بألسنةِ حدوثها وإمكاناتها، واحتياجاتها، وافتقاراتها، وحكمتها، وصنعتها، ونظامها، وموازنتها، واتقانها، وكمالاتها، وعباداتها، وتسبيحاتها.. ألسنات مسبّحات تاليات لأوصاف جلاله بانه: هو الله الواجب الوجود القديم السرمدي الأبدي الواحد الاحد الفرد الصمد العزيز الجبار المتكبر القهار.. وكذا حامداتٌ تاليات لأوصاف جماله قائلات بان: خالقنا رحمن، رحيم، رزاق، كريم، جواد، ودود، فياض، لطيف، محسن، جميل.. وكذا ذاكرات تاليات لأوصاف كماله ناطقات – قالاً وحالاً – بان خالقنا ومالكنا: حيٌّ، قيوم، عليم، حكيم، قدير، مريد، سميع، بصير، متكلم، شهيد.. وكذا ألسنات تاليات لاسمائه الحسنى المتجلية في الكائنات.

ثم، الحمد لله الذي تحمده وتسبح له وتثني عليه باظهار صفاته الكمالية هذه الكائناتُ بجميع ما فيها؛ اذ هذا الكتاب الكبير بجميع ابوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجُمَله وحروفه؛ بحكمتها وصنعتها بصفاتها ونقوشها، كلٌّ بقدرِ نسبته

(١) [لقد كتب هذا الباب المهم في «الحمد لله» كتابةً مفصلة في الرسالة العربية «التفكر الايماني الرفيع» (اللمعة التاسعة والعشرين) لذا جاء هنا مختصراً] . المؤلف.

مظاهرٌ متفاوتة ومرايا متنوعة لتجليات بوارق اوصاف جلاله واضواء اوصاف جماله وانوار اوصاف كماله واشعات اسمائه الحسنى..

الحمد لله على نعمة الوجود الذي هو الخير المحض، وعلى نعمة الحياة التي هي كمال الوجود، وعلى نعمة الايمان الذي هو كمال الحياة بل حياة الحياة..

الحمد لله على نور الايمان المزيلِ عنا ظلمات الجهات الستة، والمنوّر الجهات الافاقية والانفسية، والنيِّر الذي فيه الانوار الستة ومنه الاضواء الثلاثة المنعكسِ من شمس معرفة سلطان الازل.

الحمد لله على الايمان بالله، اذ به يخلص الروح من ظلمات الأعدام ووحشة الاكوان ومن المأتم العمومي، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن، ومِن الى ما لايحد مِن الاهوال المحرقة للروح..

الحمد لله على نور الايمان الذي ارانا ملجأ، محسناً، كريماً، ودوداً، رؤوفاً، رحيماً؛ اذ الايمان هو المنوّر لنا الحياة الابدية، والمبشر المضيء لنا السعادة الابدية، وهو المحتوي على نقطتي الاستناد والاستمداد، وهو الدافع لحجاب المأتم العمومي عن وجه الرحمة المرسَلة على وجه الكائنات، وهو المزيل للآلام الفراقية عن اللذائذ المشروعة باراءة دوران الامثال، ويديم النعم معنىً باراءة شجرة الانعام..

وكذا يبدّل نور الايمان ما يُتوهم من الكائنات اعداءاً أجانب امواتاً موحشين؛ ويحولها أودّاء اخواناً احياء مؤنسين.

وكذا يصور ذلك النور كلَّ الكائنات ومجموع الدارين مملوّاً من الرحمة هديةً لكل مؤمن حقاً – بلا مزاحم – يستفيد من جميعها بوسائطها وحواسها المتنوعة الكثيرة الموهوبة، فحُقَّ له وعليه ان يقول: «الحمد لله على كل مصنوعاته». ولازمٌ له وواجب عليه ان لايرضى بمَن ليس كل الكائنات في يده يهديها لمن يشاء، رباً ومعبوداً ومحبوباً ومقصوداً..

الحمد لله رب العالمين على رحمته على العالمين التي هي سيدنا محمد ﷺ، اذ به وبرسالته استثبت واستقر ما انطفأ تحت كثافة الفلسفة ما في سائر الاديان من انوار

فكر الالوهية.. وكذا برسالته تظاهر للبشر مرضيات رب العالمين.. وكذا به اهتدى البشر الى الايمان الذي هو نور الكون والوجود..

الحمد لله على نعمة الاسلامية التي هي مرضيات رب العالمين؛ اذ الاسلام هو الذي أرانا ما يرضى به ويريده ويحبه ربّنا وربّ العالمين ورب السموات والارضين.

الحمد لله على نور الايمان المستضئ بضياء: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لابد للحامد أن ينظر من النعمة الى الانعام، ليرى ان المُنعم أبصرُ به واقربُ منه اليه يتعرّف بالانعام، ويتودّد بالاحسان، ويتحبب بالاكرام الى الانسان. فالانسان انما يكون شاكراً اذا استشعر ذلك التعرّف والتودّد.

* * *

الباب الرابع

في

الله اكبر

هذا الباب قسمان: هذا القسم الاول بغاية الاجمال، والقسم الثاني فيه ايضاح تام.

القسم الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

الله اكبر.. من كل شئ، اذ هو القدير على كل شئ، بقدرة لانهاية لها بوجه من الوجوه، تتساوى بالنسبة اليها الذراتُ والنجومُ والجزءُ والكلُ والفردُ والنوعُ بسرّ: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ ولابَعْثُكُم إلاّ كَنفسٍ واحِدَةٍ**﴾[1].

نعم! ان الذرة والجزء والفرد ليست بأقل جزالةً من النجم والنوع والكل.

الله اكبر.. اذ هو العليم بكل شئ بعلمٍ لانهاية له بوجه من الوجوه لازمٍ[2] ذاتي للذات، فلايمكن ان ينفكَّ عنه شئ بسر الحضور.. وما في الكائنات من الحكمة العامة، والعناية التامة، والشعور المحيط، والاقضية المنتظمة، والاقدار المثمرة، والآجال المعينة، والارزاق المقنّنة، والرحمات المتنوعة، والاتقانات المفننة، والاهتمام المزين..

---

(١) لقمان: ٢٨

(٢) كلزوم الضياء المحيط للشمس، ولله المثل الاعلى

شاهدات على احاطة علمه تعالى بكل شئ بسر: ﴿ألا يَعلَمُ مَنْ خَلَق وهُو اللّطيفُ الخَبيرُ﴾(١) جل جلاله.

الله اكبر.. اذ هو المريد لكل شئ؛ اذ تردد الكائنات بين الامكانات الغير المحدودة، ثم تنظيمها بهذا النظام وموازنتها بهذا الميزان، وخلقُ المختلفات المنتظمة – كالشجر باوراقها وازهارها ثمراتها مثلاً – من البسيط الجامد.. شاهدات على عموم ارادته تعالى، ومستلزمة لـ: ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن. جل جلاله..

الله اكبر.. ان قلت: لِمَ ومَن هو؟ قيل لك: اذ هو الشمس الازلي الذي هذه الكائنات ظلالُ انواره وتجليات اسمائه وآثار افعاله باتفاق اهل الشهود.

الله اكبر.. من كل شئ.. وان قلت: لِمَ ومَن هو؟ قيل لك: اذ هو السلطان الازلي الذي هذه العوالم بتمامها في تصرف قبضتي نظامه وميزانه جل جلاله..

الله اكبر.. ان قلت: لِمَ ومَن هو؟ قيل لك: اذ هو الحاكم الازلي الذي نظّم الكائنات بقوانين سنته، ودساتير قضائه وقدَره، ونواميس مشيئته وحكمته، وجلوات عنايته ورحمته، وتجليات اسمائه وصفاته. وما القوانين والنواميس الاّ اسماءٌ لتجلي مجموع العلم والأمر والارادة على الانواع..

الله اكبر.. ان قلت: لِمَ ومَن هو؟ قيل لك: اذ هو الصانع الازلي الذي هذا العالمُ الكبير ابداعهُ وانشاؤه وصنعته، وهذا العالمُ الصغير ايجاده وبناؤه وصبغته.. وعلى جوانبهما بل على كل جزء من اجزائهما سكته..

الله اكبر.. ان قلت: لِمَ ومَن هو؟ قيل لك: اذ هو النقاش الازلي الذي هذه الكائناتُ خطوطُ قلمِ قضائه وقدَره، ونقوشُ پركار(٢) حكمته، وثمرات فياض(٣) رحمته، وتزيينات يدِ بيضاء عنايته، وازاهيرُ لطائف كرَمه، ولمعاتُ تجليات جماله..

تنبيه:

احكام هذه الابواب الثلاثة(٤) تشربت براهينها تعرف بالدقة، في قيودها دلائل الاحكام.

---

(١) الملك: ١٤

(٢) بركار آلة هندسية معروفة لرسم الدوائر

(٣) الفيّاض: الكثير الماء.

(٤) اي: «سبحان الله والحمد لله والله اكبر».

الله اكبر.. ان قلت: مَن هو؟ قيل لك: اذ هو القدير الازلي الذي هذه الموجودات معجزات قدرته. تشهد تلك المعجزات على انه على كل شئ قدير. لم يخرج ولن يخرج عن حكم قدرته شئٌ تتساوى بالنسبة اليه الذراتُ والشموس..

الله اكبر.. إن قلتَ: مَن هو؟ قيل لك: اذ هو الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى. الذي هذه الاجرام العلوية نيِّرات براهين الوهيته وعظمته، وشعاعات شواهد ربوبيته وعزته جل جلاله..

الله اكبر.. ان قلت: مَن هو؟ قيل لك: اذ هو الخالق لكل شئ، اذ هو الرزاق لكل حي، وهو المنعم لكل النِعَم، وهو الرحمن في الدارين؛ مِن عظيمِ رحمته سيدنا «محمد» عليه الصلاة والسلام، و«الجنة». وهو الربّ لكل شئ، وهو المدَبِّر لكل شئ وهو المربي لكل شئ..

الله اكبر.. ان قلتَ: مَن هو؟ قيل لك: اذ هو المصور لكل شئ، وهو المتصرف في كل شئ، وهو النظّام لهذا العالم.

الله اكبر.. واعظم واجلّ مِن ان يحيط به الافكارُ والعقول، وارفعُ واعلى واجلّ وانزه من أن يناله العجزُ والقصور..

الله اكبر من كل شئ؛ اي ما يكون لأجله اكبر، وأعلى، وأحسن، وأولى.. وما يكون به اعظم واجلّ..

* * *

تنبيه

هذه الكلمات المباركة التي تتكرّر بعد الصلوات؛ شاهَدتُ انها ليست تكراراً، بل تأسيسٌ – كما اشير اليه في الابواب – او تأكيد في تأسيس معانيها متساندةً لا متحدة.

مثلاً: رميتَ حجراً في وسط حوضٍ كبير تقول للدائرة المتشكلة من وقوع الحجر: واسعة.. واسعة.. واسعة.. كلما تتلفظ بواسعة تتظاهر دائرةٌ اوسع. وكذا تأكيدٌ في المعنى، تأسيسٌ في المقاصد والثمرات.

* * *

ان قلـت: ما معنى «الله اكبر» من كل شئ. ماقيمة «الممكن» حتى يقال: «الواجب» اكبر منه؟ اين (الخالقين.. والراحمين) غيرهُ تعالى حتى يُقال (احسنُ الخالقين) و (ارحم الراحمين)؟

قيل لك: اي: ماكان منه اكبرُ واعلى، وما كان له احسنُ وأولى، وما كان به اعظمُ واجلُّ. وهو في ذاته اكبرُ من كل ما يتصوره العقول.. وكذا لابد ان يكون اكبر في قلوبكم وأهم من كل مقاصدكم ومطالبكم.. وكذا اكبر واعظم من ان يستره ويحجبه حجاب الكائنات.

واما «احسن الخالقين»! اي: هو في ذاته احسنُ من الخالقين الذين في مرايا العقول بتجلي صفة الخالقية فيها، كالشمسِ في المرايا. يقال: الشمسُ في ذاتها انورُ من تماثيلها المنورين في المرايا.. وكذا احسنُ في مرتبة وجوبه من الخالقين الموهومين في فرض الاوهام.. وايضاً نظرنا الوهمي الظاهري لما يرى الاثار من الاسباب ويتوهم الخالقية، اي: هو احسنُ خالقاً بلا حجاب الاسباب، فلابد ان يُتَوَجّه اليه بالذات، ولا يُبالى بالاسباب الظاهرية.. وكذا ان نسبة المفاضلة تنظر الينا والى الاشياء التي تتعلق بنا، لافي نفس الامر، كما يُقال لنفرٍ في وظيفة جزئية: السلطانُ احسن واعظم. اي: مدخله في وظيفتك هذه أزيد؛ فلابد ان تلاحظه ازيد من سائر امرائك الظاهرية.

الله اكبر واجلّ من ان تحيط به الافكار والعقول.. وارفع وانزه من ان يناله العجز والقصور.. وهو الكامل المطلق في ذاته، وصفاته، وافعاله، جل جلاله..

* * *

الباب الرابع المفصل

فى مراتب

الله اكبر

القسم الثاني

[سنذكر سبعاً من ثلاث وثلاثين مرتبة لهذا الباب، حيث قد ذُكر قسمٌ مهم من تلك المراتب في المقام الثاني من المكتوب العشرين، وفي نهاية الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين، وبداية الموقف الثالث منها، فمن شاء ان يطلع على حقيقة هذه المراتب فليراجع تلك الرسائل].

المرتبة الاولى

بســـم الله الرحمٰن الرحيـــم

﴿ **وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرهُ تكبيراً** ﴾[1] . لَبيكَ وَسَعْدَيكَ جل جلاله. الله اكبَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ قُدرَةً وَعِلمـاً، إذْ هُوَ الخَالِقُ البـارِىءُ المُصَوِّرُ الَّذي: صَنَعَ الانسَانَ بِقُدرَتِهِ

---

(١) الاسراء : ١١١

كـــالكَائنَات، وكَتَبَ الكَائنات بـقَلَم قَدَرِه كَمَا كَتَبَ الانسَانَ بـذَلكَ القَلَم. إذْ ذاكَ العَالَمُ الكَبيرُ، كَهَذَا العَالَم الصغير: مَصنوعُ قُدرتَه، مَكتُوبُ قَدَرِه. إبدَاعُهُ لذَاكَ صيَّرَهُ مَسْجـداً، ايجَادُهُ لهذا صيَّرَهُ سـاجداً. إنْشَاؤُهُ لذَاكَ صيَّرَ ذاكَ مُلكاً، بنَاؤُهُ لهـذا صيَّرَهُ ممـلُوكاً. صَنْعتُهُ فـي ذاكَ تَظَاهَرَتْ كتَاباً، صبْغَتُهُ في هَذا تَزَاهَرَتْ خطَـاباً. قُدرتُهُ فـي ذاكَ تُظهرُ حشمَتَهُ، رَحمتُهُ في هَذا تَنـظِمُ نعمَتَهُ. حشمتُهُ في ذاكَ تَشْهَدُ هُوَ الواحدُ. نعْمَتُهُ فـي هَذا تُعلنُ هُوَ الأحَدُ. سكّتُهُ فـي ذَاك فــي الـكُلِّ وَالأجْزَاءِ سُكـوناً حَرَكَةً. خاتَمُهُ في هَذا في الجِسمِ وَالأعْضَاءِ، حُجَيْرَةً ذَرَّةً..

فَانْظُرْ إلى آثَارِه المُتَّسقَةِ كـيـفَ ترَى – كَالفَلَقِ – سَخَاوَةً مُطْلَقَةً مَعَ انْتظَامٍ مُطْلَقٍ، في سُرْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتّزَانٍ مُطْلَقٍ، في سُهُولَةٍ مُطْلَقةٍ مَعَ اتْقانٍ مُطْلَقٍ، في وُسْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ حُسْنِ صُنْعٍ مُطْلَقٍ، فـي بُعْدةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّفَاقٍ مُطْلَقٍ، فــي خِلْطَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ امتِيَازٍ مُطْلَقٍ، فــي رُخْصَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ غُلُوٍّ مُطْلَقٍ، فَهَذه الـكَيْفيَّةُ المَشهُودَةُ شَاهدَةٌ لـلـعَاقِلِ المُحقِّقِ، مُجبرَةٌ للاَحمَقِ المُنَافِقِ، عَلى قَبُولِ الصنْعَةِ وَالوَحدَةِ للحَقِّ ذي القُدرَةِ المُطْلَقَةِ وَهُوَ العَليمُ المُطْلَقُ.

وَفـي الـوَحْدَةِ سُهُولَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَفي الـكَثْرَةِ وَالـشِّرْكَةِ صُعُوبَةٌ منـغَلقَةٌ. إنْ أُسْنِدَ كُلُّ الأشْيَاءِ للوَاحدِ؛ فَالكَائنَاتُ كَالنَّخلَةِ وَالنَّخْلَةُ كَالثَّمرَةِ سُهُولَةً في الابْتدَاعِ.. وَإنْ أُسْنِدَ للكَثْرَةِ فَالنَّخلَةُ كَالكَائنَاتِ وَالثَّمَرَةُ كَالشَّجَرَاتِ صُعُوبَةً في الامْتنَاعِ؛ إذْ الوَاحدُ بالفعْلِ الوَاحدِ يُحَصِّلُ نَتيــجَةً ووَضْعـيَةً للـكَثـيــرِ بلا كُلْفَةٍ ولا مُبَاشَرَةٍ؛ لَوْ أُحيلَتْ تلْكَ الوَضْعـيَّةُ وَالـنَّتـيــجَةُ إلى الكَثْــرَةِ لا يُمْكنُ أنْ تَصلَ إلَيــهَا إلاّ بتَكَلُّفَاتٍ وَمُبَاشَرَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ، كَالأَميـــــرِ مَعَ الـنَّفَرَاتِ وَالـبَاني مَعَ الحَجَرَاتِ وَالأرضِ مَعَ الـسَّيَّارَاتِ والفَوَّارَةِ مَعَ القَطَرَاتِ ونُقطَةِ المَرْكَزِ مَعَ النُّقَطِ في الدَّائرَةِ:

بسرٍّ: أنَّ في الوَحْدَةِ يَقومُ الانتساب مَقام قُدرةٍ غَيرِ مَحْدُودَةٍ. وَلا يُضطَرُّ السَّبَبُ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ، وَيتعاظَمُ الاَثَرُ بالنِّسْبَةِ إلى المُسْنَدِ إليه. وَفي الشِّرْكَةِ يُضطَرُّ كُلُّ سَبَبٍ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ، فَيتصاغَرُ الاَثَرُ بنسبةِ جِرمِهِ. وَمِنْ هُنا غَلَبَتِ النَّمْلَةُ وَالذُّبابَةُ عَلى الجَبابِرَةِ، وَحَمَلَتِ النَّواةُ الصَّغيرةُ شَجَرةً عَظيمة.

وَبِسِرٍّ: أنَّ في إسْنادِ كُلِّ الاشياءِ إلى الوَاحِدِ لايَكُونُ الايجادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ، بَلْ يَكُونُ الايجَادُ عَيْنَ نَقلِ المَوجُودِ العِلميِّ، إلى الوُجُودِ الخَارِجيِّ. كَنَقْلِ الصُّورَةِ المُتَمَثِّلَةِ في المِرآةِ، إلى الصَّحيفَةِ الفُوطُوغْرافِيَّةِ لِتَثْبيتِ وُجُودٍ خَارِجيٍّ لَهَا بِكَمَالِ السُّهُولَةِ، أوْ إظهارِ الخَطِّ المَكتُوبِ بِمدادٍ لايُرى بِواسطةِ مَادَةٍ مُظهِرَةٍ لِلكِتَابَةِ المَسْتُورَةِ.. وَفي إسْنَادِ الأشْيَاءِ إلى الأسْبَابِ وَالكَثْرَةِ يَلْزَمُ الايجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ؛ وَهُوَ إنْ لَمْ يَكُنْ مُحَالاً يَكُونُ أصْعَبَ الاشْيَاءِ! فَالسُّهُولَةُ في الوَحْدَةِ واصِلَةٌ الى دَرَجَةِ الوُجوبِ، وَالصُّعُوبَةُ في الكَثْرَةِ وَاصِلَةٌ الى دَرَجَةِ الامتِنَاعِ.. وَبِحِكْمَةِ أنَّ في الوَحدَةِ يُمْكِنُ الابْدَاعُ وَايجَادُ «الأيسِ مِنَ اللَّيْسِ» يَعْنِي إبْدَاعَ المَوْجُودِ مِنَ العَدَمِ الصِّرْفِ بِلا مُدَّةٍ وَلا مَادَّةٍ، وَإفراغَ الذَّرَّاتِ في القَالَبِ العِلْميِّ بِلا كُلْفَةٍ وَلا خَلْطَةٍ.. وَفي الشِّرْكَةِ وَالكَثْرَةِ لايُمْكِنُ الإبْدَاعُ مِنَ العَدَمِ بِاتِّفَاقِ كُلِّ أهلِ العَقْلِ. فَلا بُدَّ لِوُجُودِ ذي حَيَاةٍ جَمْعُ ذَرَّاتٍ مُنْتَشِرَةٍ في الارضِ وَالعَناصِرِ، وَبِعَدَمِ القَالَبِ العِلْميِّ يَلْزَمُ لِمُحَافَظَةِ الذَّرَاتِ في جِسْمِ ذي الحَيَاةِ وُجُودُ عِلْمٍ كُلّيٍ وَإرادَةٍ مُطْلَقَةٍ في كُلِّ ذَرَّةٍ. وَمَعَ ذلكَ إنَّ الشُّرَكاءَ مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْهَا وَمُمْتَنِعَةٌ بِالذَّاتِ بِخَمْسَةِ وجوهٍ متداخلة، والشُّرَكاءُ المُستَغنيةُ عنها والمُمتَنِعَةُ بالذات تَحَكُّمِيَّةٌ مَحْضَةٌ، لاأمَارَةَ عَلَيْها وَلاإشَارَةَ إلَيْهَا في شَيءٍ مِنَ المَوْجُودَاتِ، إذ خِلْقَةُ السَّمٰوَاتِ وَالأرضِ تَستَلزِمُ قُدْرَةً كَامِلَةً غَيرَ مُتَناهِيَةٍ بِالضَّرُورَةِ، فَاستَغْنَى عَنِ الشُّرَكَاءِ.. وَإلاّ لَزِمَ تَحْديدُ وَانْتِهَاءُ قُدْرَةٍ كَامِلَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ في وَقْتِ عَدَمِ التَّنَاهِي بِقُوَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، بِلا ضَرُورَةٍ، مَعَ الضَّرُورَةِ في عَكْسِهِ. وَهُوَ مُحَالٌ في

خَمْسَةِ أوْجُهٍ: فَامْتَنَعَتِ الشُّرَكَاءُ، مَعَ أنَّ الشُّرَكَاءَ المُمتَنِعَةَ بِتِلكَ الوُجُوهِ لا إشَارَةَ إلى وُجودِها، وَلاأمارَةَ عَلى تَحققِهَا في شيءٍ مِنَ المَوجُودَاتِ.

فَقَد استَفسَرنا هذِهِ المَسْألَةَ في المَوقِفِ الأوَّلِ مِنَ الرِّسَالَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلاثِينَ: مِنَ الذَّرَّاتِ إلى السَّيَّارَاتِ، وَفِي المَوْقِفِ الثَّاني: مِنَ السَّمواتِ إلى التَّشَخُّصَاتِ الوَجْهِيَّةِ، فَاعْطَتْ جَمِيعُها جَوَابَ رَدِّ الشِّرْكِ بِإراءةِ سِكَّةِ التَّوْحِيدِ.

فَكَمَا لا شُرَكَاءَ لَهُ. كَذَلِكَ لامُعِينَ وَلا وُزَراءَ لَهُ. وَمَا الاسْبَابُ إلاّ حِجَابٌ رَقِيقٌ عَلى تَصرُّفِ القُدْرَةِ الأزَلِيَّةِ لَيسَ لَهَا تَأثِيرٌ إيجادِيٌّ في نَفسِ الأمرِ؛ إذْ أشْرَفُ الاسْبَابِ وَاوْسَعُهَا اخْتِيَاراً هُوَ الانسَانُ، مَعَ أنَّهُ لَيسَ في يَدِهِ مِنْ أظْهَرِ أفْعَالِهِ الاختِيَارِيَّةِ - كَالأكْلِ وَالكَلامِ وَالفِكْرِ - مِنْ مِئَاتِ أجْزاءٍ إلاّ جُزْءٌ وَاحِدٌ مَشْكُوكٌ. فَإذَا كَانَ السَّبَبُ الأشْرَفُ وَالأوْسَعُ اختِيَاراً مَغْلُولَ الأيْدِي عَنِ التَّصَرُّفِ الحَقِيقِيِّ كَمَا تَرى، فَكَيفَ يُمْكِنُ أنَ تَكُونَ البَهِيمَاتُ والجَمَادَاتُ شَرِيكاً في الايجَادِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لِخَالِقِ الأرضِ وَالسَّمواتِ؟ فَكَمَا لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ الظَّرْفُ الَّذي وَضَعَ السُّلْطَانُ فِيهِ الهَدِيَّةَ، أو المَنديلُ الَّذي لَفَّ فيهِ العَطِيَّةَ، أوِ النَّفَرُ الَّذي أرسَلَ عَلى يَدِهِ النِّعْمَةَ إليكَ؛ شُرَكَاءَ لِلسُّلْطَانِ فِي سَلْطَنَتِهِ.. كَذَلِكَ لا يُمكِنُ أنْ تَكُونَ الاسْبَابُ المُرْسَلَةُ عَلى أيْدِيهِمُ النِّعَمُ إلينَا، وَالظُّرُوفُ الَّتِي هِيَ صَنَادِيقُ لِلنِّعَمِ المُدَّخَرَةِ لَنَا، والاسْبَابُ الَّتي التَفَّتْ عَلى عَطَايَا إلَهِيَّةٍ مُهْداةٍ إلَينَا؛ شُرَكَاءَ أعْواناً أو وَسَائِطَ مُؤَثِّرَةً.

المرتبة الثانية

اللهُ أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعِلْماً، إذْ هُوَ الخَلاّقُ العَلِيمُ الصَّانِعُ الحَكِيمُ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ الَّذي: هذِهِ المَوجُودَاتُ الأرضِيَّةُ وَالاجْرَامُ العُلْوِيَّةُ فِي بُسْتَانِ الكَائِنَاتِ،

مُعـــجزاتُ قُدْرَة خلاّق عَليم بالبَداهَة. وهَذه النَبَاتَاتُ المُتَلونَة المُتَزيّنَة المنْثورةُ، وهَذه الحيَوَانَاتُ المُتَنوّعَةُ المُتَبَرجّةُ المَنْشُورَةُ في حَديقَة الأرضِ، خَوَارقُ صَنْعَة صـانعٍ حَكيمٍ بالـضّرُورَة. وهَذه الأزْهَارُ المُتَبسّمةُ والأثْمَارُ المُتَزيّنَةُ فـي جنَان هـذه الحَديـقَة هَدَايَا رَحْمَة رحْمٰـن رَحــيم بـالمُشاهَدَة.. تَشْهَدُ هاتيـكَ، وتُنَادي تَاكَ، وتُعْلنُ هذه: بأَنَّ خلاَّقَ هَاتيكَ، ومُصَوّرَ تَاكَ، وَوَاهبَ هـذه عَلى كُلّ شيءٍ قَدير، وبكُلّ شيءٍ عَليم، قَد وَسعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعلماً، تـتسَاوى بالنِّسْبَة إلـى قُدْرَته الذّرَّاتُ وَالـنّجومُ وَالقَليلُ وَالكَثيرُ والصغيرُ وَالكَبيرُ وَالمُتَنَاهي وغَيرُ المُتَنَاهي، وَكُلُّ الوُقُوعَات المَاضيَة وغَرائبها مُعْجزَاتُ صَنْعَة صـــانعٍ حكيمٍ، تَشْهَدُ: أنَّ ذَلكَ الصَّانعَ قَديرٌ عَلى كُلّ الامْكَانَات الاسْتقْبَاليَّة وعَجائبها، إذ هُوَ الخَلاّقُ العَليمُ وَالعزيزُ الحَكيمُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ حَديـقَةَ أرضه مَشْهَرَ صَنْعَته، مَحْشَرَ فطْرَته، مَظْهَرَ قُدرَته، مَدَارَ حكْمَته، مَزْهَرَ رَحْمَته، مَزْرَعَ جَنَّته، مَمَرَّ المَخْلُوقَات، مَسيـــلَ المَوجُودَات، مَكـــيلَ المَصْنُوعَات.

فَمُزَيَّنُ الحَيْوَانَات، مُنَقَّشُ الطُّيـــورَات، مُثَمَّرُ الشَّجَرات، مُزَهَّرُ الـنَبَاتات؛ مُعْجزَاتُ علمه، خَوَارقُ صُنْعه، هَدايَا جُوده، بَرَاهينُ لُطْفه.

تَبَسُّمُ الأزهَارِ منْ زينَة الاثْمَار، تَسَجُّعُ الاطيَارِ فـي نَسْمَة الاسْحَار، تَهَزُّجُ الامطارِ عَلـى خُدُود الازهَار، تَرَحُّمُ الـوالدَات عَلـى الأطفَال الـصّغَار، تَعَرُّفُ وَدُودٍ، تَوَدُّدُ رَحمٰن، تَرَحُّمُ حنَّان، تَحَنُّنُ منّان، للجنّ وَالانسَان، وَالرُّوحِ وَالحَيوَانِ وَالمَلَك وَالجانّ. وَالبُذُورُ وَالاثْمَارُ، والحُبُوبُ وَالازهَارُ مُعـــجزَاتُ الحكمَة.. خَوَارقُ الـصَّنْعَة.. هَدَايا الـرَّحْمَة.. بَرَاهـينُ الـوَحْدَة.. شَوَاهدُ لُطْفه فـي دارِ الآخرَة... شَوَاهدُ صَادقَةٌ بـأَنَّ خَلاَّقَهَا عَلى كُلّ شيءٍ قَديرٌ وَبكُلّ شيءٍ عَليمٌ. قَدْ وَسعَ كُلَّ شيءٍ بالرَّحْمَة وَالعلْم وَالخَلْق وَالتَّدْبيــر وَالصُّنْعِ وَالتَّصْويـر. فَالشَّمسُ كَالبَذرَة، وَالـنَّجمُ كَالزَّهرَة، وَالأرضُ كَالحَبَّة، لاتَثْقُلُ عَلَيــه بالخَلْقِ وَالتَّدْبيـرِ، وَالصُّنعِ وَالتَّصويرِ. فَالبُذُورُ وَالاَثْمَارُ مَرَايـا الوَحْدَة في

اَقْطَارِ الكَثْرَةِ، إشَارَاتُ القَدَرِ، رُمُوزَاتُ القُدْرَةِ؛ بأنَّ تلكَ الكَثْرَةِ مِنْ مَنْبَعِ الوَحْدَةِ، تَصْدُرُ شَاهِدَةً لِوَحْدَةِ الفَاطِرِ في الصُّنْعِ وَالتَصْويرِ. ثُمَّ إلى الوَحْدَةِ تَنْتَهِي ذَاكِرَةً لِحكمَةِ الصَّانِعِ في الخَلْقِ وَالتَّدْبيرِ.. وتَلْويحَاتُ الحِكْمَةِ بأنَّ خَالِقَ الكُلِّ - بكُلِّيَّةِ النَّظَرِ إلى الجُزْئِيِّ - يَنْظُرُ ثمَّ إلى جزْئِه، إذْ إنْ كانَ ثَمراً فَهُوَ المَقْصُودُ الاظهرُ مِنْ خلقِ هَذا الشَّجَرِ. فَالبَشَرُ ثَمَرٌ لِهَذِه الكَائِنَاتِ، فَهُوَ المَقْصُودُ الاَظْهَرُ لخَالقِ المَوْجُودَاتِ. والقَلبُ كَالنُّوَاةِ، فَهُوَ المِرْآةُ الأنْوَرُ لِصَانِعِ المَخْلُوقَاتِ، ومنْ هذهِ الحِكْمَةِ فَالانسَانُ الاَصْغَرُ في هذه الكَائِنَاتِ هُوَ المَدَارُ الاَظْهَرُ للنَّشْرِ وَالمَحْشَرِ في هذه المَوجُودَاتِ، وَالتَّخْرِيبِ والتَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ وَالتَّجْدِيدِ لِهَذِه الكَائِنَاتِ.

الله أكبَرُ: يَا كَبيرُ أنتَ الَّذي لاتَهْدي العُقُولُ لِكُنْه عَظَمَتِه..

كه (لا اله الاّ هو برابر مي زند هر شيئ، دمادم جويد: ياحق، سراسر كويد: ياحى)(١)

المرتبة الثالثة (٢)

ايضاحها في رأس «الموقف الثالث من الرسالة الثانية والثلاثين».

الله أكبرُ مِنْ كُلِّ شيئٍ قُدْرَةً وَعِلماً، إذْ هُوَ القَديرُ المُقَدِّرُ العَليمُ الحَكيمُ المُصَوِّرُ الكَريمُ اللَّطيفُ المُزَيِّنُ المُنْعِمُ الوَدُودُ المُتَعَرِّفُ الرَّحْمنُ الرَّحيمُ المُتَحَنِّنُ الجَميلُ ذُو الجَمَالِ وَالكَمَالِ المُطْلَقِ، النَّقَّاشُ الاَزَليُّ الَّذي: مـا حَقَائِقُ هَذِهِ الكَائِنَاتِ كُلاً وَأجـزَاءً،

(١) [[الذي لا إله إلاّ هُو يقابل كلّ شيئ.. دائماً يطلبونَ الحق، وابداً يقولون: ياحيّ]].

(٢) [هذه المرتبة الثالثة تأخذ بعين الاعتبار زهرة جزئية وحسناء جميلة ، فالربيع الزاهر كتلك الزهرة والجنة العظيمة مثلها؛ اذ هما مظهران من مظاهر تلك المرتبة ، كما ان العالم انسان جميل وعظيم، وكذا الحور العين والروحانيات وجنس الحيوان وصنف الانسان.. كل منها كأنه في هيئة انسان جميل يعكس صفحاته هذه الاسماء التي تعكسها هذه المرتبة] . المؤلف.

وَصَحَائِفَ وَطَبَقَـاتٍ، وَمـا حَقـائِقُ هذهِ المَوجُودَاتِ كُلّيـاً وَجزئيـاً وُجُوداً وبَقـاءً.. إلاّ خُطُوطُ قَلَمِ قَضائه وَقَدَرِهِ بِتَنْظِيمٍ وتَقـــديرٍ وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.. وَإلاّ نُقُوشُ بِركَارِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بِصُنْعٍ وَتَصـويرٍ.. وَإلاّ تَزْيينات يَدِ بَيْضـاءِ صُنْعِهِ وَتَصـويرِهِ وَتَزْيينِهِ وَتَنْويرِهِ بِلُطْفٍ وَكَرَمٍ.. وَإلاّ أزاهيـــرُ لَطائِفِ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وتعرُّفِهِ وَتَوَدُّدِهِ بِرَحْمَةٍ وَنِعْمَةٍ.. وَإلاّ ثَمَرَاتُ فَيَّاضِ عَيْنِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ وَتَرَحُّمِهِ وَتَحَنُّنِهِ بِجَمَالٍ وَكَمـــالٍ.. وَإلاّ لَمَعَاتُ جَمـالٍ سَرْمَدِيٍّ وَكَمالٍ دَيْمُومِيٍّ بِشَهَادَةِ تَفـانِيَّةِ المَرايا وَسَيَّالِيَّةِ المَظاهِرِ، مَعَ دوامِ تَجَلّي الجَمَالِ عَلـى مَرِّ الـفُصُولِ وَالـعُصُورِ وَالادْوَارِ، وَمَعَ دَوَامِ الانْعَامِ عَلـى مَرِّ الآنَامِ وَالاَيَّامِ وَالاَعْوَامِ.

نَعَم! تَفَانِي المِرْآةِ، زَوَالُ المَوجُودَاتِ مَعَ التَّجَلِّي الـدَّائِمِ مَعَ الفَيضِ المُلازِمِ، مِنْ أظْهَرِ الظَّوَاهِرِ مِنْ أبْهَرِ البَوَاهِرِ أنَّ الجَمـالَ الظَّاهِرَ، أنَّ الكَمـالَ الزَّاهِرَ ليـسَا مُلْكَ المَظَاهِرِ، مِنْ أفـصَحِ تِبـيانٍ مِنْ أوضَحِ بُرْهَانٍ لِلجَمَالِ المُجَرَّدِ للاِحـسـانِ المُجَدَّدِ، للواجِبِ الوُجُودِ لِلبَاقي الوَدُودِ.

نَعَم! فَالاَثَرُ المُكَمَّلُ، يَدُلُّ بـالـبَدَاهَةِ عَلـى الـفِعْلِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الـفِعْلُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلى الاسمِ المُكَمَّلِ، وَالفَاعِلِ المُكَمَّلُ. ثـم الاسم المُكَمّلُ يَدُلُّ بِلا رَيبٍ عَلى الـوَصفِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الـوَصـفُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِلا شَكٍ عَلـى الشَّأنِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الـشَّأنُ المُكمَّلُ يَدُلُّ بِاليَقينِ عَلى كَمالِ الذَّاتِ بِمَا يَلِيقُ بِالذَاتِ، وَهُوَ الحَقُّ اليَقينُ...

المرتبة الرابعة

جَلَّ جَلالُهُ اللهُ أكـبَرُ؛ إذْ هُوَ العَدلُ العَادِلُ الحَكَمُ الحَاكِمُ الحَكِيمُ الأزَليُّ الَّذي: أسَّسَ بُنْيَانَ شَجَرَةِ هذه الكَائِنَات في ستَة أيَّامٍ بِأُصُولِ مَشيئَته وَحِكْمَتِه، وَفَصَّلَهَا بدَساتيرِ قَضَائه وَقَدَرِه، ونَظَّمَهَا بقَوَانينِ عَادَتِه وَسُنَّتِه، وزيَّنَهَا بنَواميسِ عنَايَتِه ورَحْمَتِه، ونَوَّرَهَا بجَلَوات أسْمَآئِه وَصِفَاته: بشَهَادَات إنْتِظامَات مَصنُوعَاته، وتَزيِّنات مَوجُودَاته وَتَشابُهِهَا وَتَنَاسُبِهَا وَتَجَاوُبِهَا وَتَعاوُنِها وَتَعَانُقِهَا، وَاتْقانِ الصَّنْعَةِ الشُّعُورِيَّة في كُلِّ شَيْءٍ، عَلى مِقْدَارِ قَامَةِ قَابِليَّتِه المُقَدَّرَة بتَقْديرِ القَدَرِ.

فَالحِكمَةُ العَامَّةُ في تَنْظِيمَاتِها، وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ في تَزيِينَاتِهَا، وَالرَّحـمَةُ الوَاسِعَةُ في تَلطِيفَاتِها، وَالأرزَاقُ وَالاعَاشَةُ الشَّامِلَةُ في تَرْبِيَتِهَا، والحَيَاةُ العَجِيبَةُ الصَّنعَة بمَظْهَرِيَّتِها للشُؤنِ الذَّاتيَّة لِفَاطرِها، وَالمحَاسِنُ القَصْدِيَّةُ في تَحْسِينَاتِهَا، وَدَوَامُ تَجَلِّي الجَمَالِ المُنْعَكِسِ مَعَ زَوالِهَا، وَالعِشقُ الصَّادِقُ فِي قَلْبِهَا لِمَعبُودِهَا، وَالانْجذَابُ الظَّاهِرُ في جَذبَتِهَا، وَاتِّفَاقُ كُلِّ كُمَّلِهَا عَلى وَحْدَة فَاطرِها، وَالتَصرُّفُ لمَصالِحَ في أجزائِهَا، وَالتَّدْبِيرُ الحَكيمُ لنَبَاتَاتِهَا، وَالتَّربِيَةُ الكَرِيمَةُ لحَيَوانَاتِهَا، والانتظَامُ المُكَمَّلُ في تَغيُّراتِ أرْكَانِها، وَالغَايَاتُ الجَسِيمَةُ في انتظَامِ كُلِّيتِها، وَالحُدُوثُ دَفْعَةً مَعَ غَايَة كَمَالِ حُسنِ صَنْعَتِهَا، بلااحتِيَاجٍ إلى مُدَّةٍ وَمَادَّةٍ، وَالتَّشَخُّصَاتُ الحَكِيمَةُ مَعَ عَدَمِ تَحْديد تَرَدُّد إمْكَانَاتِهَا، وَقَضَاءُ حَاجَاتِها عَلى غَايَة كَثْرَتِهَا وَتَنَوُّعِها في أوقَاتِهَا اللاَّئِقَة المُنَاسِبَة ــ مِنْ حَيثُ لايَحتَسِبُ وَمِنْ حَيثُ لايَشْعُرُ ــ مَعَ قِصرِ أيْدِيهَا مِنْ أصغَرِ مَطَالِبِها، وَالقُوَّةُ المُطلَقَةُ فِي مَعْدَنِ ضَعْفِهَا، وَالقُدْرَةُ المُطلَقَةُ فِي مَنبَعِ عَجزِهَا، وَالحَيَاةُ الظَاهِرَةُ في جُمُودِها، وَالشعُورُ المُحيطُ في جَهْلِها، وَالانتظَامُ المُكَمَّلُ فِي تَغيُّراتِها المُستَلزِمُ لِوُجُودِ المُغيِّرِ الغَيرِ المُتَغيِّر. وَالاتِّفَاقُ في تَسْبِيحَاتِهَا ــ كَالدَّوائِرِ المُتَداخِلَة المُتَّحِدَة المَرْكَزِ ــ وَالمَقبُولِيَّةُ في دَعَوَاتِها الثَّلاث: بلِسَانِ إستِعدادها وبلِسَانِ إحتِيَاجَاتها الفِطرِيَّة وبِلسَانِ اضطِرارِها، وَالمُناجَاتُ وَالشُّهودَاتُ وَالفُيُوضَاتُ في عِبَادَاتِهَا، وَالانتِظَامُ في قَدَرِيهَا،

وَالاطْمئنَانُ بذكرِ فاطرِها، وَكَونُ العبادَة فيها خَيْطَ الوُصلَة بينَ مُنْتهاها وَمبْدئها، وسَبب ظُهُورِ كَمَالِها، ولِتَحقّق مَقاصد صانعها وهكذا. بسائرِ شئُوناتها وَاحوَالها وكَيفيّاتها.. شاهداتٌ بانّها كُلّها بتَدبيرِ مُدَبّرٍ حَكيم واحد، وفي تَربيَة مُرَبٍ كَريم اَحَد صَمَد، وكُلّهَا خُدّامُ سيّدٍ واحد، وتَحت تَصرّف متصرّفٍ واحدٍ ومَصدرُهم قُدْرَةُ واحدٍ، الّذي تَظاهرتْ وتَكاثَرَتْ خَواتيمُ وَحْدَتِه عَلى كُلِّ مكتوبٍ مِنْ مَكتُوبَاتِه في كُلِّ صَفحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ مَوجُودَاتِه.

نَعَمْ، فَكُلُّ زَهرَةٍ وثَمرٍ، وَكُلُّ نَبَاتٍ وشَجرٍ، بَل كُلُّ حَيوانٍ وَحَجَرٍ، بَل كُلُّ ذَرّ ومَدَرٍ، في كُلِّ وادٍ وَجَبَلٍ، وكُلّ بادٍ وقَفرٍ.. خاتَمٌ بيّنُ النَّقشِ وَالأثَر، يُظْهِرُ لدقّة النَّظرِ بأنَّ ذا ذاكَ الأثر هُوَ كاتبُ ذاكَ المَكان بالعِبَر، فَهُوَ كاتبُ ظَهْرِ البَرِّ وبَطْنِ البَحْرِ، فَهُوَ نَقّاشُ الشَّمْسِ وَالقمَرِ في صَحيفةِ السَّموَاتِ ذات العِبَرِ جَلَّ جَلالُ نَقّاشِها الله أكبَرُ.

كه لا اله الاّ هو برابر مى زند عالم(١)

المرتبة الخامسة(٢)

الله أكبرُ؛ إذْ هُوَ الخَلاّقُ القَديرُ المُصَوِّرُ البَصيرُ الّذي هذه الأجرَامُ العُلويّةُ والكَواكبُ الدُّرِّيَّةُ نيِّراتُ بَراهينِ اُلوهيّته وَعَظَمته، وَشُعاعاتُ شوَاهد رُبُوبيّته وَعزّته، تَشْهَدُ وتُنادي عَلى شَعْشَعَةِ سَلْطَنةِ رُبُوبيّته، وتُنَادي عَلى وُسْعَةِ حُكْمه وحِكْمته، وعَلى حِشمَةِ عَظَمَةِ قُدْرَته.

فَاستَمِعْ إلى آيةِ ﴿**اَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمآءِ فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيناهَا وَزَيّنّاها** ..﴾(٣) الخ.. ثُمَّ انظُرْ إلى وَجْهِ السَّمآءِ: كَيفَ تَرى سُكُوتاً في سُكُونَة، حَرَكَةً في حِكْمَةٍ،

(١) [حيث ان (لا إله إلاّ هو) اعظم من العالم].
(٢) [لقد وضحت هذه المرتبة في ذيل الموقف الاول من الكلمة الثانية والثلاثين وفي المقام الثاني من المكتوب العشرين] المؤلف.
(٣) سورة ق: ٦

تلألؤاً في حِشمَةٍ، تبسُّماً في زينةٍ؛ مع انتظام الخلقة مع إتّزان الصَّنعة.. تَشعشعُ سراجها لتبديل المواسم، تهلهلُ مصباحها لتنوير المعالم، تلألؤُ نجومها لتزيين العوالم.. تُعلنُ لأهل النُهى سلطنة بلا انتهاء لتدبير هذا العالم.

فذلك الخلاّق القدير عليمٌ بكلّ شيء، ومُريدٌ بإرادة شاملة «ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن». وهو قدير على كلّ شيء بقدرة مطلقة محيطة ذاتية. وكما لا يمكن ولا يتصور وجود هذه الشمس في هذا اليوم بلا ضياء ولا حرارة، كذلك لايمكن ولايتصور وجود إله خالق للسموات بلا علم محيط وبلا قدرة مطلقة.. فهو بالضرورة عليمٌ بكلّ شيء بعلم محيط لازم ذاتي للذات يلزم تعلّق ذلك العلم بكل الأشياء، لايمكن أن ينفكّ عنه شيءٌ؛ بسرّ الحضور والشهود والنفوذ والاحاطة النورانية

فما يُشاهَدُ في جميع الموجودات: من الانتظامات الموزونة، والاتّزانات المنظومة، والحكم العامة، والعنايات التامة، والأقدار المنتظمة، والأقضية المثمرة، والآجال المعيّنة، والأرزاق المقنّنة، والاتقانات المفننة، والاهتمامات المزيّنة، وغاية كمال الامتياز، والاتزان، والانتظام، والاتقان، والسهولة المطلقة.. شاهداتٌ على إحاطة علم علاّم الغيوب بكلّ شيء، وإنّ آية: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(١). تدلّ على أنّ الوجود في الشيء يستلزم العلم به، ونور الوجود في الأشياء يستلزم نور العلم فيها. فنسبة دلالة حسن صنعة الانسان على شعوره، إلى نسبة دلالة خلقة الانسان على علم خالقه، كنسبة لُميعة نُجيمة الذُبيبة في الليلة الدهماء إلى شعشعة الشمس في نصف النهار على وجه الغبراء.

وكما أنّه عليمٌ بكلّ شيء فهو مريد لكلّ شيء لايمكن أن يتحقق شيءٌ بدون مشيئته.

---

(١) الملك: ١٤

وَكـــما أنَّ القُدْرَةَ تُؤثِّرُ وأنَّ العِلمَ يُميِّزُ، كَذلِكَ أنَّ الارادةَ تُخَصِّصُ ثُمَّ يَتَحَقَّقُ وُجودُ الأَشياءِ، فَالشَواهِدُ عَلى وُجودِ إرادَتِه تَعالى وَاختيارِهِ سُبحانَهُ بِعَدَدِ كَيفيَّاتِ الأَشياءِ وَاحْوالِهَا وَشُئُوناتِها.

نَعَمْ! فتَنْظيمُ المَوجودَاتِ وَتَخْصيصُها بِصِفاتِها مِنْ بينِ الامْكَانَاتِ الغَيرِ المَحْدُودَةِ، وَمِنْ بَينِ الطُّرُقِ العَقيــمَةِ، وَمِنْ بَينِ الاحـتمَالاتِ المُشَوَّشَةِ، وَتَحتَ أَيدي السُّيُولِ المُتَشاكِسَةِ بِهـذا النِّظَامِ الأَدَقِّ الأَرَقِّ، وَتَوْزِينُهَا بِهـذا المِيـزانِ الحَسَّاسِ الجَسَّاسِ المَشْهُودَينِ.. وَأنَّ خَلقَ المَوجُوداتِ المُختَلفَاتِ المُنتَظَماتِ الحَيَويَّةِ مِنَ البَسائطِ الجَامدَةِ - كَالانسانِ بِجِهَازاتِه مِنَ النُّطفَةِ، وَالطَّيرِ بِجوارِحِه مِنَ البَيضَةِ، وَالشَّجرِ بِاعْضَائِه المُتَنَوعَةِ مِنَ النَّوَاةِ - تَدُلُّ عَلى أنَّ تَخَصُّصَ كُلِّ شَيءٍ وَتَعَيُّنَهُ بِارادَتِه وَاختيَارِهِ وَمَشيئَتِه سُبحَانَهُ.

فَكَما أنَّ تَوافُقَ الاشيَاءِ مِنْ جِنْسٍ وَالافرادِ مِنْ نَوعٍ، في اسَاساتِ الأَعْضاءِ، يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلى أنَّ صانِعَها واحِدٌ أحدٌ.. كَذلكَ أنَّ تمايُزَها في التَّشَخُّصاتِ الحَكيمَةِ المُشتَمِلَةِ عَلى عَلاماتٍ فارِقَةٍ مُنْتَظَمَةٍ، تدلُّ عَلى أنَّ ذلكَ الصَّانعَ الواحدَ الأحدَ هُوَ فاعِلٌ مُختَارٌ مُريدٌ.. يَفعَلُ ما يَشآءُ وَيَحكُمُ ما يُريدُ. جَلَّ جَلالُهُ.

وَكَما أنَّ ذلكَ الخَلاّقَ العَليمَ المُريدَ؛ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ وَمُريدٌ لِكُلِّ شَيءٍ، لَهُ عِلمٌ مُحيطٌ وَارادةٌ شَامِلَةٌ وَاختيَارٌ تَامٌّ، كَذلكَ لَهُ قُدرَةٌ كامِلَةٌ ضَرورِيَّةٌ ذَاتيَّةٌ ناشِئَةٌ مِنَ الذَّاتِ وَلازِمَةٌ لِلذَّاتِ. فَمُحَالٌ تَداخُلُ ضِدِّها، وَإلاّ لَزِمَ جَمْعُ الضِّدَّيْنِ المُحَالُ بِالاتفَاقِ، فَلا مَراتِبَ في تِلكَ القُدرةِ، فَتَتَساوى بِالنِّسبَةِ إلَيها الذَّرّاتُ وَالنجُومُ، وَالقَليلُ وَالكَثيرُ، وَالصَغيرُ والكَبيرُ، وَالجُزئيُّ وَالكُلِّيُّ، وَالجُزءُ وَالكُلُّ، وَالانسانُ وَالعالَمُ، وَالنَّوَاةُ وَالشَّجَرُ؛ بِسِرِّ: النُورَانيَّةِ، وَالشَّفافِيَّةِ، وَالمُقَابَلَةِ، وَالمُوازَنَةِ، وَالانتظامِ، وَالامتِثالِ؛ بِشَهادَةِ الانتِظامِ المُطلَقِ، وَالاتِّزانِ المُطلَقِ، وَالامتيَازِ المُطلَقِ، في السُّرعَةِ

وَالسُّهُولَة وَالكثرَة المُطلقَات. بسرٍّ: إمداد الوَاحِديَّة، ويُسر الوَحدَة، وتجَلّي الاَحَديَّة؛ بحكمَة الوُجوب، وَالتجرُّد، ومُبَاينَة الماهيَّة. بسرٍّ: عَدَم التَّقيُّد، وَعدَم التَّحيُّز، وَعَدَم التَّجزُّء. بحكمَة انقلاب العَوَائق وَالمَوَانع إلى الوَسَائل في التسهيل إن احتيجَ إليه. وَالحَالُ: أنَّهُ لااحتيَاجَ كاعصاب الانسان وَالخُطُوط الحَديديَّة لنقل السيَّالات اللَّطيفة؛ بحكمة أنَّ الذرَّةَ وَالجُزء وَالجُزئيَّ وَالقليل وَالصغير والانسانَ والنَّواة ليست باقلَّ جزَالَة منَ النَّجْم وَالنَّوع وَالكُل وَالكُلِّيّ وَالكثير وَالكَبير وَالعَالَم وَالشَّجَر. فَمَنْ خَلَقَ هؤُلاء لايُستبعَدُ مِنْهُ خَلقُ هذه؛ إذْ المُحَاطاتُ كالامثلَة المَكتُوبَة المُصغَّرَة أو كالنُّقَط المَحلُوبَة المُعصَّرَة؛ فَلابُدَّ بالضَرُورَة أنْ يكونَ المُحيطُ في قبضَة تصرُّف خَالق المُحَاط، ليُدْرِج مثَالَ المُحيط في المُحَاطَات بدَسَاتير علمه، وَأنْ يَعصُرَها منْهُ بموازين حكمَته. فَالقُدرَةُ الَّتي أبرزَتْ هَاتيكَ الجُزئيَّات لايَتعَسَّرُ عَليها إبرَازُ تاكَ الكُلّيَّات.

فَكَما أنَّ نُسخَةَ قُرآن الحكمَة المَكتُوبَة عَلى الجَوهَر الفرد بذَرَّات الأثير؛ لَيسَتْ بأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ نُسْخَة قُرآن العظَمَة المَكتُوبَة عَلى صَحَائف السَّمٰوات بمداد النُّجُوم وَالشُّمُوس.. كَذلكَ لَيسَتْ خلقَةُ نَحلَة وَنَملَة باقلَّ جزَالَةً مِنْ خلقَة النَّخلَة والفيل، وَلا صَنْعَةُ وَرد الزَّهْرَة باقلَّ جزَالَةً مِنْ صَنْعَة دُرّيٍّ نَجم الزُّهْرَة. وَهكَذا فَقِسْ. فَكمَا أنَّ غَايَةَ كَمَال السُّهُولَة في إيجَاد الاَشيَاء أوقعَتْ اهلَ الضَّلالَة في التبَاس التَّشكيل بالتَّشَكُّل، المُستَلزم للمُحَالات الخُرَافيَّة الَّتي تَمُجُّها العُقُولُ، بَل تَتَنَفَّرُ عَنها الاَوهَامُ.. كَذلكَ أثْبَتَتْ بالقَطع وَالضَرُورَة لأهل الحَقِّ وَالحَقيقَة تَساويَ السَّيَّارات مَعَ الذَرَّات بالنسبَة إلى قُدْرَة خالق الكائنات. جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأنُهُ وَلآ الهَ إلاّ هُوَ.

المرتبة السادسة(١)

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأنُهُ الله أكبرُ من كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلماً؛ إذْ هُوَ العَادلُ الحَكيمُ القَادرُ العَليمُ الوَاحدُ الأحَدُ السُّلطَانُ الأزَليُّ الَّذي: هذه العَوَالمُ كُلُّهَا في تَصرُّف قَبْضَتَي نظامه وَميزَانه، وتَنْظيمه وتَوزينه وَعَدله وَحكمته وَعلمه وقُدرَته، وَمَظهرُ سرِّ وَاحديَّته وأحَديَّته بالحَدْسِ الشُّهُوديِّ، بَل بالمُشَاهَدَة؛ إذ لاخَارجَ في الكَون من دَائرَة النِّظَام وَالميزَان، وَالتَّنظيم وَالتَّوزين. وَهُمَا بابان من« الامام المُبين وَالكتَاب المُبين »، وَهُما عُنوَانان لعلمِ العَليمِ الحَكيم وأَمْرِه، وَقُدْرَةِ العَزيزِ الرَّحيمِ وإرادَته. فَذلكَ النِّظامُ مَعَ ذلكَ الميزَان في ذلكَ الكتَاب مَعَ ذلكَ الامَام بُرهَانان نَيِّران؛ لمَنْ لَهُ في رَأسه إذعَانٌ وفي وَجهه العَينَان: أنْ لاشَيءَ منَ الأشيَاء في الكَون وَالزَّمَان، يَخرُجُ من قَبضَة تَصرُّف رَحمٰن، وتَنْظيمِ حَنَّانٍ وَتَزيينِ مَنَّانٍ وتَوزينِ دَيَّانٍ.

الحَاصلُ.. أنَّ تَجَلِّيَ الاسمِ « الأوَّل وَالآخر» في الخَلاَّقيَّة ، النَّاظرَين إلى المَبدَإِ وَالمُنتهى، وَالأصلِ وَالنَسلِ، وَالمَاضي وَالمُستَقبلِ، وَالأمرِ وَالعلمِ، مُشيران إلى« الامَامِ المُبينِ». وتَجَلِّيَ الاسمِ « الظَّاهرِ وَالباطنِ» عَلى الأشيَاءِ في ضمنِ الخَلاَّقيَّة، يُشيرانِ إلى« الكتاب المُبين».

فَالكَائنَاتُ كَشَجَرَةٍ عَظيمَةٍ، وَكُلُّ عالَمٍ منها ايضاً كَالشَّجَرة. فَنُمَثِّلُ شَجَرَةً جُزئيَّةً لخلقَة الكَائنَات وَأنواعها وَعَوالمها. وهَذه الشَّجَرَة الجُزئيَّةُ لها أصلٌ وَمبدأٌ، وَهُوَ النَّوَاةُ الَّتي تَنبُتُ عَلَيهَا. وَكَذا نسلٌ يُديمُ وَظيفَتَها بَعدَ مَوتها؛ وَهُوَ النَّواةُ في ثَمَراتها. فَالمَبدَأُ وَالمُنتَهى مَظهَرَان لتَجَلِّي الاسمِ «الأوَّلِ وَالآخرِ» فَكأنَّ المَبدأ وَالنَّواةَ الأصليَّةَ بالانتظامِ وَالحكمَة فهرستَةٌ، وَتَعرفَةٌ مُرَكَّبَةٌ من مَجمُوعِ دَساتيرِ تَشكُّلِ الشَّجَرةِ، وَالنَّواتَاتُ في ثَمَراتها الَّتي في نهاياتها مَظهرٌ لتَجَلِّي الاسم «الآخرِ».

---

(١) [لو كتبت هذه المرتبة السادسة كسائر المراتب لطالت جداً، لان «الامام المبين والكتاب المبين» لا يمكن بيانهما باختصار، وحيث اننا ذكرنا نبذة منهما في «الكلمة الثلاثين» فقد اجملنا هنا ، الا اننا اسردنا بعض الايضاحات اثناء الدرس] . المؤلف.

فتلكَ النَّواتاتُ في الثَّمَرات بكمَال الحكمَة كَأنها صُنَيديقَاتٌ صَغيرَةٌ أُودعَتْ فيها فهرستَةٌ وتَعرِفَةٌ لتَشكُّلِ ما يُشابهُ تلكَ الشَجَرَةَ وكأنَّها كُتبَ فيها بقَلَمِ القَدَرِ دَساتيرُ تَشكُّلِ شَجَراتٍ آتيَةٍ. وَظاهرُ الشَّجَرَة مَظهرٌ لتَجلّي الاسمِ «الظَّاهرِ». فظَاهرُها بكَمالِ الانتظامِ وَالتَّزيينِ وَالحكمَة كَأنهـا حُلَّةٌ مُنتَظمَةٌ مُزيَّنةٌ مُرصَّعةٌ، قد قُدَّتْ على مقدارِ قامَتِها بكَمالِ الحكمَةِ وَالعنَايَة. وبَاطِنُ تلكَ الشَّجَرَة مَظهرٌ لتَجلّي الاسمِ «البَاطنِ» فَبكَمالِ الانتظامِ والتَّدبيرِ المُحيِّرِ للعُقُول، وتَوزيعِ مَوَادِّ الحيَاة الى الأعَضاءِ المُختَلفَة بكَمالِ الانتظام، كأنَّ باطنَ تلكَ الشَّجَرَة ماكينَةٌ خَارِقَةٌ في غَايَة الانتظامِ وَالاتِّزَان. فكَما أنَّ أوَّلَها تَعرِفَةٌ عَجيبَةٌ، وآخرَها فهرستَةٌ خارقَةٌ يشيران إلى «الامامِ المُبين».. كَذَلكَ إنَّ ظاهرَها كحُلَّةٍ عَجيبَةِ الصَنْعَة، وباطنَها كَمَاكينَةٍ في غَايَة الانتظامِ، يشيرَانِ إلى «الكتَاب المُبين». فكَما أنَّ القوّاتِ المُحَافظات في الانسانِ تُشيرُ إلى «اللَّوحِ المَحفُوظ» وتَدُلُّ عَلَيه، كَذلكَ إنَّ النَّوَاتاتِ الأَصليَّةَ وَالثَّمَراتِ تُشيرَان في كُلِّ شَجرَةٍ إلى «الامَامِ المُبينِ» وَالظَّاهرُ وَالبَاطنُ يَرمُزَان إلى «الكتَاب المُبين». فَقسْ عَلى هذه الشَّجَرَة الجُزئيَّة شَجَرَةَ الأرضِ بمَاضيها وَمُستَقبَلها، وَشَجَرَةَ الكَائنات بأَوائلها وَآتيها، وَشَجَرَةَ الانسانِ بأجْدَادها وَانسَالها. وَهكذا جَلَّ جَلالُ خالقها وَلا إلَهَ إلاّ هُوَ.. يا كَبيرُ أنتَ الَّذي لاتَهدي العُقُولُ لِوَصفِ عَظَمَته، وَلاتَصِلُ الأفْكَارُ إلى كُنْه جَبَرُوته..

المرتبة السابعة

جَلَّ جَلالُه الله أكبَرُ من كُلِّ شَيءٍ قُدرَةً وَعلماً إذ هُوَ الخَلاّقُ الفتّاحُ الفَعَّالُ العَلاّمُ الوَهَّابُ الفَيَّاضُ،[١] شَمسُ الأَزَلِ الَّذي: هذه الكَائناتُ بانواعها وَمَوجُودَاتها ظلالُ أنوارِه، وآثارُ أفعَاله، وألوانُ نقُوشِ انواعِ تَجَلّيات اسمائه، وخُطُوطُ قَلَمِ قَضائه

(١) [يمكن الانتقال الى المسمى ذي الجلال والاكرام بالنظر بمنظار هذه الاسماء المباركة الى مظاهر الافعال والآثار الالهية وراء هذه الموجودات] . المؤلف

وَقَدَرِه، وَمَرَايَا تَجَلِّيـات صِفَاته وَجَمَاله وَجَلاله وَكَمـاله؛ باجـمَاعِ الـشَّاهِدِ الأَزَلِيِّ بِجَميعِ كُتُبِه وَصُحُفِه وآياتِه التَكْوِينيَّة والقُرآنيَّة، وباجمَاعِ الأَرضِ مَعَ العَالَمِ بِافتِقَاراتِها وَاحتيَاجاتِها في ذاتِها وَذَرَّاتِهـا مَعَ تَظاهُرِ الغَنَاءِ المُطلَقِ وَالثَّروَةِ المُطلَقَة عَلَيها؛ وباجماعِ كُلِّ اهلِ الـشُّهُودِ مِنْ ذَوِي الأَرواحِ الـنَّيِّرَة، وَالقُلـوبِ المُنَوَّرَة، وَالـعُقُولِ النُّورانـيَّة مِنَ الأَنبِيَاءِ وَالأَولِيَاءِ والأَصـفِيَاءِ بِجَميعِ تَحـقيـقَاتِهِم وَكُشُوفَاتِهِمْ وَفُيُوضاتِهِم وَمُنَاجَاتِهِم. قَدْ اتَّفَقَ الكُلُّ مِنـهُم، وَمِنَ الأَرضِ وَالأَجـــرَامِ العُلـوِيَّة وَالسُّفـلِيَّة بِمـــا لا يُحَدُّ مِنْ شَهـادَاتِهِمُ القَطعـيَّة وَتَصديقـاتِهِمُ اليَقـينيَّة بِقُبـولِ شَهَادَاتِ الآيَاتِ التَّكْوِينيَّة والقُرآنيَّة وَشَهَادَاتِ الصُّحُفِ والكُتُبِ السَّماوِيَّة الَّتي هيَ شَهَادَةُ الوَاجِبِ الوُجُودِ عَلى أَنَّ هذِهِ المَوجُودَات: آثارُ قُدرَتِه ومكتوباتُ قَدَرِه وَمَرايا أَسمائِه وَتَمثُّلاتُ أَنوَارِه.

جَلَّ جَلالُهُ وَلا إِلَهَ إلاَّ هُوَ..

* * *

خاتمة

في مسائل مشهودة متفرقة

المسألة الاولى:

اعلم: إني اقول مادمتُ حياً، كما قال مولانا جلال الدين الرومي قُدس سرّه:

من بنده‌ء قرآنم اگر جان دارم   من خاك راه محمد مختاره‌م (١)

لأني أرى القرآن منبع كلّ الفيوض، وما في آثاري من محاسن الحقائق ما هو الاّ من فيض القرآن. فلهذا لايرضى قلبي أن يخلو اثرٌ من آثاري من ذكرِ نُبذٍ من مزايا اعجاز القرآن. ولقد ذكرتُ في [اللوامع](٢) انواع اعجاز القرآن البالغة الى نيف واربعين نوعاً. أذكرُ هنا تبركاً مسألة فقط؛ هي هذه:

انظر الى مَن قال؟ ولِمَن قال؟ ولِمَا قال؟ وفيمَا قال؟

نعم! ان مَنابع علو طبقة الكلام؛ وقوتَه وحسنَه وجماله اربعةٌ: المتكلم، والمخاطَبُ، والمقصدُ، والمقامُ. لا المقام فقط.. كما ضلّ فيه الادباء. وكذا ان الكلام لفظُه ليس جسداً بل لباسٌ له، ومعناه ليس روحاً بل بدنٌ له. وما حياتهُ الاّ من نية المتكلم وحسّه. وما روحه الاّ معنىً منفوخٌ من طرف المتكلم. فالكلام إن كانَ أمراً أو نهياً فقد يتضمن الارادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علوية الكلام وقوته.

نعم؛ اين صورة امر فضولي ناشئ من اماني التمني وهو غير مسموع، واين الامر الحقيقي النافذ المتضمن للارادة والقدرة؟ فانظر اين ﴿**يَا أرضُ ابْلَعي مَاءك ويَا سَماءُ أقْلِعي**﴾(٣) واين خطاب البشر للجمادات كهذيانات المُبَرسَمين(٤): «اسكني يا‌ارض وانشقي ياسماء وقومي ياايتها القيامة».. وكذا اين أمر امير مُطاع لجيش

(١) [[مادمتُ حياً فأنا خادم القرآن.. وانا تراب سبيل محمد المصطفى]].

(٢) المنشورة ملحقة بمجموعة «الكلمات».

(٣) هود : ٤٤

(٤) المبرسم : الذي اصيب بالبرسام ، وهو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

عظيم مطيع بـ«آرش!...»(١) واهجموا على اعداء الله، فهجموا وغلبوا، ثم اين هذا الامر اذا صدر من حقير لايُبالى به وبأمره.. وكذا اين تصويرُ مالكٍ حقيقي، وآمرٍ مؤثر أمره، نافذ حكمه، وصانع وهو يصنع، ومُنعمٍ وهو يُحسن قد شرع يصوّر أفاعيله، يقول: فعلتُ كذا وكذا.. افعل هذا وذاك.. صيّرتُ لبيتكم الارضَ فرشاً والسماء سقفاً، ثم اين تصوير فضولي وبحثه عن افاعيل لاتماسَّ له بها.. وكذا اين أعيان النجومِ ثم اين تماثيلها الصغيرة السيالة – التي لا هي موجودة ولا معدومة – المرئية في الزُجيجات؟ نعم، اين ملائكة كلمات كلام خالق الشمس والقمر، ثم اين زنابير مزامير مزوّرات البشر؟.. وكذا اين الفاظ القرآن التي هي اصداف الهدى والحقائق الايمانية والاساسات المنبثة من عرش الرحمن مع تضمن اللفظ للخطاب الازلي وللعلم والقدرة والارادة، ثم اين الفاظ الانسان الهوائية الواهية الهَوسيَة؟(٢).. وكذا اين شجرة تفرعت واورقت وازهرت واثمرت، ثم اين المعجون الذي اتخذه احد من بعض ثمراتها بتغيير صورة الثمرات وازالة العقدة الحياتية منها مع مزجها بمادة اخرى؟

نعم! ان القرآن انبتَ شجرةً هكذا فانقلبت كل نويّاته دساتير عملية واشجاراً مثمرةً، تشكل وتركب منها هذا العالمُ الاسلامي بمعنوياته واعماله، فأخذ منها كلُّ الافكار فتَصرَّفَ فيها الى الآن حتى صارت حقائقهُ العلوية العالية علوماً متعارفة ومُسَلّمات. فيقوم احدٌ ويأخذ من تلك الحقائق ويتصرف فيها بتغيير الصورة، فتزيل منها العقدةَ الحياتية. ثم على زعمه يزيّنها بتهوسه، فيوازن ذوقه الفاسد بينه وبين الآيات. فكيف يمكن الموازنة بين الصورة العَرضَية التابعة المنحوتة بهوس الصبيان في جواهر منتظمة ودرر منثورة، وبين تلك الجواهر والدرر نفسها؟

ولقد شاهدتُ ان مشاهدة جمال القرآن تابعةٌ لدرجة سلامة القلب وصحته. فمريضُ القلب لايشاهد الاّ ما يشوّه له مرضه. فاسلوبَ القرآن والقلب كلاهما مرآتان ينعكس كلٌّ واحدٍ في الآخر.

(١) ايعاز عسكري بمعنى: تقدم، سر.

(٢) الهوس: مصدر هاس: وهو طرف من الجنون وخفة العقل.

نكتة[١]........[٢]

نكتة:

ولأن الايمان يؤسس الاخوة بين كل شئ، لايشتد الحرصُ والعداوةُ والحقد والوحشة في روح المؤمن؛ إذ بالدقة يرى اعدى عدوه نوع اخٍ له.. ولأن الكفرُ يؤسس اجنبيةً وافتراقاً – لا الى اتصال – بين كل الاشياء، يشتد في الكافر الحرص والعداوةُ والتزام النفس والاعتمادُ عليها. ومن هذا السر صاروا غالبين في الحياة الدنيا. ولأن الكافر يرى في الدنيا مكافأة حسناته في الجملة، والمؤمن يرى جزاءَ بعضَ سيئآته في الدنيا؛ صارت (سجن المؤمن وجنة الكافر).[٣]

واعلم: ان اكسير الايمان اذا دخل في القلب يصيّر الانسان جوهراً لائقاً للابدية والجنة، وبالكفر يصير خزفاً خالياً فانياً. اذ الايمانُ يرى تحت القشر الفاني لباً لطيفاً رصيناً، ويرى مايتوهم حَباباً مُشمساً زائلاً، ألماساً متنوراً. والكفر يرى القشر لباً فيتصلب فيه فقط. فتنزل درجة الانسان من الألماس؛ الى الزجاجة بل الى الجمد، بل الى الحباب، هكذا شاهدتُ..

■ نقطة ■

قد شاهدتُ ازدياد العلم الفلسفي في أزديادِ المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي. فالامراض المعنوية توصِلُ الى علوم عقلية، كما ان العلوم العقلية تولّد امراضاً قلبية.

---

(١) النكتة: هي مسألة لطيفة اخرجت بدقة نظر وامعان فكر، وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها (التعريفات للجرجاني).

(٢) في (ط١): نكتة: (اعلم) ان ما يُرى على كل شئ من اثر الشعور والعلم والبصر فيه إطلاق يشير الى عدم التناهي، لا يتيسر للمقيّد المتناهي – من الشعور والعلم والبصر – ذلك التأثير. وان ذرة الاطلاق وعدم التناهي اجلُ واعظم بلا حدّ من المحدود المقيد.. فإن شئتِ تقريب هذه الحقيقة الى الفهم فانظر الى «عالم المثال» الذي هو اقرب الى الاطلاق من عالم الشهادة المقيد، ترِ ذرة من جرم شفاف – الذي هو منفذ من هنا الى عالم المثال – يمكن ان تسع – تلك الذرة من الصور المتالية ما لا تسع الارض من اعيانها.

(٣) (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر): رواهِ مسلم (٢٩٥٩) كتاب الزهد، وابن ماجة (٤١١٣) كتاب الزهد، والترمذي (٢٣٢٤) كتاب الزهد ايضاً. ورواه احمد في مسنده (٢ / ٤٥٨) وكلهم عن ابي هريرة.

وكذا شاهدت الدنيا ذات وجهين:

وجه: ظاهرهُ مأنوس في الجملة مؤقتاً، باطنهُ موحشٌ الى مالايحد.

ووجه: ظاهره موحِش في الجملة، وباطنهُ مؤنس الى مالانهاية.

فالقرآن يوجّه الانظار الى الوجه الثاني، الذي يتصل بالآخرة. والوجه الاول الذي يتصل بالعدم ضد الآخرة، وضرّتها ومعكوستها حسنه قبيحها، قبيحه حسنها.

وكذا شاهدتُ ان ما في الممكن من وجه الوجود بالانانية يوصِل الى العدم وينقلبُ اليه، وما فيه من وجه العدم بتركِ الانانية ينظرُ الى الوجود الواجب. فان أحببتَ الوجودَ فانعدم لِتجِد الوجود..

نكتة

اعلم! ان النية إحدى الكلمات الاربعة التي ذُكرت في المقدمة انها محصولة اربعين سنة من عمري!

نعم! ان النية؛ اكسيرٌ عجيب تقلب بخاصيتها العادات الترابية والحركات الرملية[1] الى جوهر العبادة.. وكذا هي روح نافذة تحيا بها الحالات الميتة، فتصير عبادات حيوية.. وكذا فيها خاصيةٌ تقلبُ السيئات حسنات.

فالنية روح، وروحها «الاخلاص» فلا خلاص الاّ بالاخلاص. ويمكن بالنية — بسبب هذه الخاصية — عملُ كثير في زمانٍ قليل، فيمكن اشتراء الجنة بما يُعمل في هذا العمر القليل بهمّة تلك الخاصية.

وبالنية يصيرُ المرءُ شاكراً دائماً؛ لأن ما في الدنيا من اللذائذ والنِعَم يُقتطف بوجهين:

الوجه الاول: يقول المرءُ بسبب النية هذه النعمة مَدَّتْها اليّ يدُ رحيمٍ محسن، فينتقل نظرهُ من النِعمة الى الإنعام. فيتلذذ به ازيد من نفس النعمة.

---

(١) اي العادات الارضية.

والوجه الثاني: يتحرى اللذة بتهوّس النفس. فلا يتخطر الإنعام، انما ينحصر نظرهُ على النعمةِ واللذة فيتلقى اللذةَ غنيمةً فيقتطفها بلا مِنّة، بل يغتصبها.

ففي الوجه الاول: تموت اللذةُ بالزوال ويبقى روحُها، اي: إن رحمةَ المُنعم تَخَطّرتني، فلا تنساني. فهذا التخطُر رابطةٌ ومناسبةٌ في الخاطر!

وفي الوجه الثاني: لاتموت اللذة الموقتة ليبقى روحُها، بل تنطفئ ويبقى دخانُها. والمصيبة يخمد دخانها ويبقى نورها، ودخانُ اللذة زوالها واثمها.

واذا نُظرَ بنور الايمان الى اللذائذ المشروعة في الدنيا والنِعَم في الآخرة، يرى فيها حركة دورية ووضعية تتعاقب فيها الامثالُ، فلا تنطفئ الماهية، وانما يحصل الفراقُ والافتراق عن التشخصات الجزئية. فلهذا لاينغّص – بألم الزوال والفراق – اللذائذُ الايمانية بخلاف الوجه الثاني. فان لكلّ لذةٍ زوالاً، وزوالُها ألَمٌ، بل تَصورُ الزوالِ ايضاً ألمٌ؛ اذ في الوجه الثاني، ليست الحركة دوريةً بل حركةٌ مستقيمة، ففيها اللذة محكومة بالموت الابدي..

■ نقطة ■

اعلم: ان التعلق بالاسباب سببُ الذلّة والاهانة. ألا ترى ان الكلب قد اشتهر بعَشرِ صفاتٍ حسنة، حتى صارت صداقتهُ ووفاؤه تُضربُ بهما الامثال؟! .. فمن شأنه ان يكونَ بين الناس مباركاً. ففضلاً من المباركية ينزل على رأس المسكين من طرف الانسان ضربةُ الاهانة بالتنجيس؛ مع ان الدجاجة والبقر حتى السنّور، الذين ليس فيهم حسّ شكرانٍ وصداقةٍ في مقابلة احسان البشر، يُشرَّفون بين الناس بالمباركية. اقول – بشرط ان لاينكَسر قلب الكلب ولايصير غيبةً – إن سببه: أن الكلب بسبب مرض الحرص اهتم بالسبب الظاهري، بدرجة أغفَلته بجهة عن المُنعمِ الحقيقي، فتوهَّم الواسطة مؤثرةً. فذاق جزاءَ غفلته بالتنجيس، فَتَطهّر.. وأكلَ ضربَ الاهانة كفارةً للغفلة، فانتبه!. اما سائر الحيوانات المباركة فلا يعرفون الوسائط ولا يقيمون لها وزناً، او يقيمون لها وزناً خفيفاً. مثلاً: ان السنّور يتضرع حتى يأخذ الاحسان، فاذا اخذ فكأنه لايعرفك ولاتعرفه. ولايحس في نفسه شكراناً لك. بل انما

يشكر المنعم الحقيقي بـ: يارحيم.. يارحيم.. يارحيم.. فقط؛ اذ الفطرة تعرف صانعها وتعبده شعورياً وغير شعوري..

نكتة:

ولقد شاهدتُ: انه لو لم يُسند كلُّ شئ اليه تعالى لَزِمَ اثبات آلهة – كلٌّ منها ضدٌ للكل، ومِثلٌ في آن واحد – غير متناهية.. يزيدعددها على عدد ذرات العالم ومركباتها، بوجهٍ يكون كلُّ إلهٍ يَمُدُّ يَدَه الى مجموع العالم ويتصرف فيه.

مثلاً ان القدرة الخالقة لفرد نحلة او حبة عنب، لابد ان ينفُذ ويَجري حكمُها في عناصر الكائنات؛ اذ هما أُنموذجان أخذَت اجزاؤهما من جميع الكون. مع انه لامحل في الوجود إلاّ للواجب الأحد. واما لو احيلت الاشياءُ على انفسها لزِمَ اثباتُ الألوهية لكلِّ ذرة. الا ترى ان الاحجار التي في قبة «آيا صوفيه»[1] اذا انتفى الباني، لزِمَ ان يكون كلُّ حجرٍ منها مثلُ «معمار سنان»[2]. فدلالةُ الكائنات على خالقها الواحد اظهرُ وأنورُ وأجلى وأولى وافصحُ واوضحُ من دلالتها على وجود نفسها بمراتب. فيمكن انكارُ الكون ولايمكن انكار الواحد الاحد القدير على كل شئ..

■ نقطة ■

ما اعجب شأن الضلالة بسبب الغفلة! كيف استخرجت العلّية من المقارنة الساذجة والدوران الطردية بين المصنوعات! مع ارتكاب محالاتٍ متسلسلة، مع انه لم يتبين ولم يتحقق قط في شئ من الاشياء امارةٌ صادقة على وجود شريكِ صانعٍ لذلك الشئ، بل تحت صنعةِ كلِّ شئ مجهوليةٌ تتكشف عن قدرة غير متناهية لقدير واجب الوجود. فياخسارة الانسان وياجهالته!.. كيف اخذ الشركُ لنفسه موقعاً في نفسه وفي عقله!.

(١) كنيسة قديمة حوّلها السلطان محمد الفاتح الى جامع، وظل هكذا طوال قرون عدة حتى حوّلها مصطفى كمال الى متحف سنة ١٩٣٤.

(٢) اكبر مهندس معماري عثماني (١٤٨٩ – ١٥٧٨) اشرف على بناء جوامع وآثار كثيرة اهمها جامع سليمية، سليمانية، شهزادة.

نكتة:

ومـا فـي نون ﴿ **نعـبُدُ** ﴾ من سر الجـماعـة، يصور للمصلي المتنبه سطحَ الارض مسجـداً، اصطفّ فيه – مع المصلي – جميعُ المؤمنين، ويرى نفسه في تلك الجـماعة العظمى. وبما في اجـمـاع الانبـيـاء والأولياء عـلى ذكـر «لا إلـه إلاّ الله» من توافق الاصوات يتيسرُ للذاكرِ ان يرى الزمانَ «حلقة ذكرٍ» تحت رياسة «إمام الانبياء».. في يمين الماضي «الانبياء» قاعدون.. في يسار الاستقبال «الاولياء» جالسون.. يذكرون الله بصوتٍ يسـمعـه مَن ألقى السمعَ وهو شهـيد. فـان كان حديد السـمع والبصـيرة استمع الذكر من مجموع المصنوعات ايضاً ورأى نفسه في حلقة ذِكرها..

■ نقطـة ■

إعلم! أن محبة ماسواه تعالى على وجهين:

وجهٍ ينزل من علوٍ، أي يحب الله فبحبّهِ يُحب من يُحبّهُ الله، فهذه المحبة لاتُنقصُ من محبة الله بل تزيدها.

والوجه الثاني: يَعـرُج من سُفلٍ، أي يحب الوسائل، فيتـدرج في محبتهـا ليتوسل الى محـبة الله، فـهذه المحبة تتـفرق، وقد تـصادف وسيلة قـوية فتـقطع عليهـا الطريق فتهلكها، وإن وصلت.. وصلت بنقصان.

نكتة

إعـلـم! ان الرزاق جل شـأنه تعـهّد بآية: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَةٍ فِي الأرضِ إلاّ عَلَى الله رِزقُهَا** ﴾[1] رزق كل دابة، الاّ ان الرزق قسمان:

حقيقي ومجازي، فالمتكفَّل بالآية هو الحـقيقي. واما المجازي الصُنعي اللازم بالتزام ما لايلـزم وبالاخـتيـارات السيئة والاعـتيـادات المضرة، حـتى صارت الحـاجات الغير الضرورية ضـرورية، فَلَبست الحاجاتُ الكاذبة صـورةَ الرزق. فهذا الرزق غيـر متكفَّل

(١) هود: ٦

بالآية. ومَن تأمل في الباذنجانات التي هي اسماكُ البر وفي الاسماك التي هي باذنجانات البحر كيف اسمَنتها القدرة الفاطرة؛ اذ كلها سمينة – ما فيها هزيلة – يأتيها رزقُها رغداً من حيث لاتحتسب.. علِم ان الوسوسة في الرزق واتهام الرزاق، من البلاهة.

نكتة

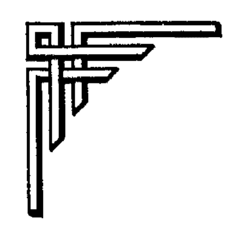
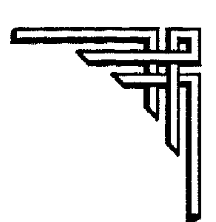
اعلم! ان المصائب التي تصيب المعصوم من الحيوان والانسان، يجوز ان يكون لها اسبابٌ تدقّ عن فهم البشر؛ مثلاً: ان الشريعة الفطرية التي هي دساتير المشيئة، لاتنظر الى العقل حتى يَسقط التكليفُ بها عند عدم العقل، بل ينظرُ الى القلب والحس، بل والاستعداد ايضاً، فتجازي على أفاعيلها.. وقد نشاهد الحيوان كاملاً في حس النفس، والصبي بالغاً في حس القلب، بل حس طفلك، اكمل من عقلك واشد تيقظاً؛ اذ تظلِمُ يتيماً بالضرب ولايمنعك عقلُك، وصبيُك الناظر اليك يُبكيه حسُّ شفقته.. لو كان هو لانزجر.

فاذ كان هذا هكذا؛ فالصبي الذي يمزّق للتهوس والتلهي نحلةً مسكينة، ولم يسمع نهي حسّ شفقته الحساسة، فاصيب بأن انكسر رأسه.. استحقّ.

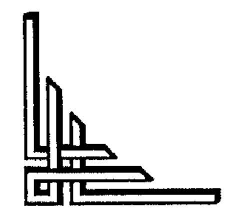
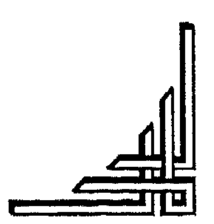
مثلا: ان النمرة تحس في نفسها على شبلها شفقةً شديدة ومع رفيقها حس حماية، فلا يمنعها هذان الحسّان من تمزيق الظبية المسكينة.. فمزّقتها، ثم اصيبت هي ببندقة(١) الصياد مثلا، أفلا تكون مستحقة؟ اذ رزقها الحلال اموات الحيوانات لااحياؤها! على ان هذا مبنيّ على توهم مالكية الحيوانات لأنفسها، والحق ان هذا باطل كما مرّ سابقاً. وان المالك الحقيقي هو مالك الملك ذو الجلال والاكرام يتصرف في ملكه كيف يشآء، وهو الفاعل المختار الفعال لما يريدُ ﴿**لايُسئَلُ عمّا يفعَلُ وَهُم يُسئَلون**﴾(٢).

* * *

(١) البندق: كل ما يرمي به رصاص كروي وغيره، ومنه البندقية المعروفة.
(٢) الانبياء: ٢٣

ذيل القطرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبّ العَالمين.

والصَلاةُ والسّلامُ على سيدنا مُحمّدٍ وعلى آله وصَحبهِ أجمَعين.

رمـــز

اعلم! ان الصلاة في اول الوقت، والنظر الى الكعبة خيالاً مندوبٌ اليهما، ليرى المصليِ حول بيت الله صفوفاً كالدوائر المتداخلة المتّحدة المركز، فكما احاط الصفُ الأقربُ بالبيت، احاطَ الأبعدُ بعالم الاسلام. فيشتاق الى الانسلاك في سلكهم. وبعد الانسلاك يصير له اجماعُ تلك الجماعة العظمى وتواتُرهم حجةً وبرهاناً قاطعاً على كل حُكمٍ ودعوى تتضمنّها الصلاة.

مثـلا: اذا قال المصلّي «الحمـد لله» كانه يقـول كلُّ المؤمنين المأمومين فـي مسـجد الارض: نعم صَدَقتَ(١). فيتضاءل ويضمحل تكذيبُ الاوهام ووسوسة الشياطين. وكـذا يسـتفـيض كلّ من الحـواس واللطائف حـصـةً وذوقـاً وايماناً، ولايعـوقـهـا لِمَ؟ وكـيف؟ فـفي اول الوقت تنعـقـد الجمـاعـةُ العظمى «للمـتـقين» ولإتفـاق الصلوات الخمس في الاقوال والاركان لايخلّ اختـلاف المطالع بخيال المصلي.. ولينظر المصلي وهو في مكانه الى الكعـبة، وهي في مكانهـا لايجذبها اليـه ولايذهب اليهـا ليتظاهر الصفـوف، لايشتغل بها قـصداً، بل يكفي شعـورٌ تَبَعي. ومايُدريك لعل القَدر الذي لايَهملُ شيئاً من الاشياء يكتب باشكال هذه الصـفـوف المباركة المنتظمة في حركاتها سطوراً على صحائف عالَم المثال الذي من شأنه حفظ ما فيه دائماً..

رمـــز

اعلم! إنّي شاهدت في سيري في الظلمات، السُّنَن السَّنية نجوماً ومصابيح، كلُّ سنّةٍ، وكلُّ حدٍ شرعي يتلمع بين مالايُحصر من الطرق المظلمة المضـلّة. وبالانحراف عن السنة يصيـر المرء لعبة الشيـاطين، ومركَب الاوهام، ومعرض الاهوال، ومطية الاثقال – امثال الجبال – التي تحملها السنةُ عنه لو اتّبعها.

وشاهدتُ السننَ كالحبال المتدلّية من السماء، من استمسك ولو بجـزئي استَصعد واستـسعـد. ورأيتُ مَن خالَفَها واعـتمـدَ على العقل الدائر بين النـاس، كمن يريد ان يبلُغَ اسبـاب السمٰوات بالوسـائل الارضيـة فيـتحـمّق كمـا تَحـمّقَ فـرعـونُ بـ﴿ ياهَامَانُ ابنِ لِي صَرحاً.. ﴾(٢).

رمـــز

اعلم! ان في النفس عقدة مغلقةً مدهشةً تُصيّرُ الضدَّ مولِّدَ الضّدِ، وترى ماعليها كأنه لها.

مثلاً: ان الشمس تصل يدُها إليك تمسحُ او تضربُ وجهكَ، ولاتصل يدُك اليها ولايؤثر (كـيفُك)(٣) فيهـا. فهي قريبةٌ اليك، بعيدة منك!.. فكما ان جعل وجه

(١) حيث يقولون جميعاً: الحمد لله، مثله.

(٢) غافر: ٣٦

(٣) الكيف: المزاح والسرور، والمقصود هنا: ما تشتهيه وترغبه.

البُعديّة دليلاً على عدم تأثيرها فيك، ووجه القُربية دليلاً على تأثرها منك، جهلٌ.. كذلك نظرُ النفس - بعين الهوى والانانية - الى خالقها القريب اليها، البعيد منها سببُ ضلالتها.

وكذا ترى النفسُ عظمة المكافأة، فمن شدة الحرص تقول: ليت، وانّىٰ، وهيهات. وتسمع دهشة المجازاة، فمن شدة الخوف تتسلى بالتعامي والإنكار.

فيا ايتها النقطة السوداء الحمقاء(١) ان افعاله تعالى انما تليق به وتنظر اليه تعالى، لا بكَ ولا الى حَوصلتكَ الضيقة، ولا بنَى هندسةَ الكائنات على هَوَسك، ولا أشهَدَك خَلقها. ولقد صدق الامام الرباني في قوله: «لايحمل عطايا المَلِك الاّ مطاياه».

رمـــز

اعلم! ان مَن يُزَيِّن رأسكَ ويُحسنه، ويعلّق به زينةَ البصر؛ أبصرُ بك منك. فالصانعُ الذي زيّن رأسك بفصّي العينين، وصَدَفي الأُذنين، وعلّق مرجان اللسان في مغارة وجهك - يتلقلق - لهو أبصر بك منك، واقربُ اليك منك، واشفقُ عليك منك، واسمع لك منك..

رمـــز

اعلم! ان الدعاء لاسيما من المضطرين، له تأثير عظيم، يسخَّر بسببه اقوى الاشياء واعظمها لأضعفِ الاشياء واصغرها، كسكوتِ غضب البحر لأجل معصومٍ على لوحٍ منكسر دعا بقلبٍ منكسر؛ فيدلّ على ان المجيبَ يحكم على الكل فهو ربُّ الكل.

رمـــز

اعلم! ان من اهم مرض ضلالة النفس؛ طلبُ شوكة الكلِ من الجزء، وحشمةَ السلطان من نَفَر، فاذا لم تجده فيه تَردُّه. مثلاً: تطلب تمامَ تجليات الشمس في تمثالها المرتسِم في حباب، فاذا لم تجد بالتمام تَنكرُ أنه منها.

---

(١) اي «أنا»

ايتهـا النفس!. وحدةُ الشـمس لاتستلزم وحـدة التجليات، وان الدلالـة لاتستلزم التضمن، وان مـا يصفُ لايلزم ان يتّصف؛ فالذرةُ الشفافة تصفُ الشمسَ، والنحلة تصف الصانعَ الحكيم.

رمـــــز

اعــلــم! ان الذهاب في طريق الـكفر كالـذهاب في الجَمَد بل تحت التراب بل الحديد، مـع دفع الدافعة، مـشكلٌ عسير على من تـوجّه اليه قصـداً وبالذات. وهذا الاشكال يستتر تحت النظر التَبعي.

وفي سـبيل الايمان كـالذهاب في الماء بل الهـواء بل الضيـاء، مع جذبة الجـاذبة، سهلٌ يسير للموفَّق.

مثلا: تريـد ان تقابل الشـمسُ جـهـاتك الستـة، فـإمـا ان تتحـول انت بلا كُلفـة فـيحـصل المقـصود، وامـا ان تكلف الشـمسَ قطع مسـافـة مدهشـة لمقـصد جـزئي. فـالاول: مثـال التـوحيـد سـهولةً. والثـاني: مـثال الشـرك إشكالاً، هكذا شـاهدتَ. وبرهان هذا الرمز في «قطرة».

فـــان قلت: فـكيف يُقـــبـل الكفــر مع هـذا الاشكال ويُتــرك الايمان مـع هذه السهولة؟..

قيل لك: ان الكفر لايُقبل قصداً، بل يُزلَق بسوء الهوى ويسـقط فيه ويتلوث به. واما الايمان فيُقصد فيقبَل ويُوضع في القلب.

رمـــــز

اعلم! انه كما ان الكلمة الفردةَ مسموعةٌ لألوفٍ من المخاطبين كواحدٍ لافرقَ بين الواحد والملايين، كذلك نسبةُ الاشياء الى القدرة الازلية، لافرق بين الفردِ والنوع..

رمـــــز

اعلم! ان جامعية القرآن ووسعته، ومراعـاته لحسيات طبقات المخاطبين، لاسيما: تَنّزلاته لتـأنيس العوام – الذين هم الاكـثر المطلق والمخـاطبون اولاً وبالذات – مع انـهـا سببٌ لكمـاله. فالنفس المريضـة تضلّ بها؛ اذ تتحـرى في ادنى طرزِ تفهـيمِه المناسب

للمقام أعلى وأزينَ صور الافادة، وتصيّر الاسلوبَ – الذي هو ميزانٌ ومَعكَسٌ لحسّ المخاطب وفهمه – ميزاناً ومرصاداً تنظُرُ منه الى المتكلم، فتضل ضلالاً بعيداً!..

رمــــز

كيف السكون الى الدنيا بالوجه الثالث والفرح بها؟.. ان الدنيا لها وجوه ثلاثة:

وجه: ينظر الى اسماء الله.

ووجه: هو مزرعة الآخرة.. فهذان الوجهان حَسنان.

والوجه الثالث: الدنيا في ذاتها بالمعنى الاسمي، مدار للهوسات الانسانية ومطالب الحياة الفانية.

انا رُكّبتُ نقطةً ميتة، وتركَبُني جيفةٌ ميتة. ويومي تابوتي، بين أمسٍ وغدٍ قبرَي أبي وابنه. فانا بين تضييق ميتتين وضغطة القبرين. الاّ ان الدنيا من جهة انها مزرعة الآخرة والنظر اليها بنور الايمان تصير كجنةٍ معنوية.

رمــــز

اعلم! ان وجودك كالبندقة الميرية[١] او الفرس الميري في يد عسكر. كما ان العكسر مكلّف بتعهد بندقته وفرسه السلطانيَين، كذلك انت مكلف بحفظ امانتك وتعهدها..

اعلم! ان السائق لهذا القول، اني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها. فقلتُ: لاتملكين شيئاً!. فقالت: فاذاً لااهتم بما ليس لي من البدن.. فقلت: لابد ان لاتكوني اقل من الذباب.. فان شئت شاهداً فانظري الى هذا الذباب، كيفَ ينظِّفُ جناحَيهِ برجليهِ ويمسحُ عينيه ورأسه بيَديه! سبحان من ألهَمَه هذا، وصيّره استاذاً لي وأفحمَ به نفسي!.

رمــــز

اعلم! ان من المزالق للاقدام: خلطُ احكامِ الاسم «الباطن» بأحكام الاسم «الظاهر» وسؤالها منه.. ولوازم «القدرة» بلوازم «الحكمة» وطلب رؤيتها فيها..

(١) اي التي تملكها الدولة.

ومقتضيات دائرة «الاسباب» بمقتضيات دائرة «الاعتقاد والتوحيد» وطلبها منها.. وتعلقات «القدرة» بجلوات «الوجود» او تجليات سائر الصفات، وملاحظة نواميسها وحِكمها فيها.. مثلاً: وجودُك هنا تدريجي، ووجودك في المرايا البرزخية دفعيّ آني؛ لتمايز الصفات الالهية في التعلقات.. وللفرق بين الايجاد والتجلي.

رمــز

اعلم! ان الاسلامية رحمة عامة، حتى ان الكفار سعادةَ حياتهم الدنيوية وعدَم انقلاب لذائذهم الى الآلام الأليمة، سببُها الاسلامية!.. اذ الاسلامية قلَبت الجحود والكفر المطلق، والانكار المحض المتضمنين لليأس الاليم، والالم الشديد الى الشك والتردد. فالكافر بسبب تولّد احتمال الحياة الابدية في ذهنه بصيحة القرآن يستريحُ من الألم المنغِّص، وبعدم اليقين يستريح من الكلفة اللازمة للديانة. فهو كالنعامة (ابل الطير) اذا قيل له: طِرْ يقول: انا ابل.. اذا قيل له: احمل الحمل. يقول: انا طير! فهذه الدسيسة الشيطانية هي التي صيَّرت الكافر والفاسقَ مسعودين ظاهراً في الحياة الدنيوية بالنسبة الى الكافر المطلق والمؤمن الخالص..

رمــز

اعلم! ان النفس لاتريد ان تعترفَ وتتصور صُدور ما هو اصغر او اقلُ قيمةً منها من يدِ قدرةِ الخالق، لتحافظ على دائرة ربوبية نفسها، فتعطي للخالق مافوقَها، وتتغافلَ عما تحتها. فما دامت لم تر نفسَها اصغر الاشياء او لاشئ، لاتخلَص من ميل نوعِ تعطيلٍ(١) او شرك خفي.

رمــز

اعلم! ان النفس بسبب تكاسلها في وظيفتها، تريد أن لايكون عليها رقيب فتحب التستر. فتلاحظ عدم المالك مكرراً، فتعتقد حريتها؛ فأولاً تتمنى، ثم تترجى، ثم تلاحظ، ثم تتصور، ثم تعتقد العدَم. ثم تمرُق من الدين!.. ولو استشعرت بما تحت الحرية والراحة وعدم المسؤولية من الاهوال المدهشة المحرقة واليُتم الحزين الأليم؛ لما مالتْ أدنى ميلٍ، بل لفرّتْ وتبرأت وتابت أو ماتت.

(١) اي انكار صفات الخالق.

رمــــز

أعلم! ان الاشياء تتفاوت بتفاوت مدار الاستناد. مثلاً: ان النفر المستند بسلطانٍ عظيم يفعل ما لا يقتدر عليه (شاه)[١] عظيم، فالنفر يزيد بسبعٍ مراتب على من زاد عليه بسبعين مراتب. فالبعوضة المأمورة من طرف القدرة الازلية تغلب نمرود النماريد المتمرّدة. فالنواة المأذونة من طرف فالق الحَبّ والنوى، تتضمن وتَسَعُ كلَّ ما تحتاج اليه النخلةُ الباسقة، ولاتسعهُ (فابريقات) تسَع قريةً..

أعلم! ان الفرق بين طريقي في « قطرة » المستفادة من القرآن؛ وطريق اهل النظر والفلاسفة، هو اني احفر اينما كنتُ، فيخرج الماءُ، وهم تشبثوا بوضعِ ميازيب وانابيب لمجئ الماء من طرفِ العالَم ويُسلسلونَ سلاسل وسلالمَ الى مافوق العَرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الاوهام. واما ما علَّمنا القرآنُ فما هو الاّ ان أُعطينا مثلَ « عصا موسى » اينما كنتُ – ولو على الصخرة – اضربُ عصاي فينفجر ماءُ الحياة، ولا احتاج الى السفر الطويل الى خارج العالم، وتعهّد الانابيب الطويلة من الانثلام والانكسار..

رمــــز

(اي واه) وااسفاً!. إن وجودَ النفس عمى في عينها، بل عينُ عُميها، ولو بقي من الوجود مقدارُ جناحِ الذباب يصيرُ حجاباً يمنع رؤيتها شمسَ الحقيقة. فقد شاهدتُ ان النفسَ بسبب الوجود ترى على صخرةٍ صغيرةٍ في قلعة عظيمة مرصوصةٍ من البراهين القاطعة ضعفاً ورخاوةً، فتنكر وجود القلعة بتمامها. فقس من هنا درجة جهلها الناشئ من رؤيتها لوجودها..

رمــــز

أعلم! يا انا قد علمتَ انه ما في يدك منك من الأُلوف، الاّ جزءٌ مشكوك. فأبنِ على ذلك الجزء الاختياري الضعيف مايطيق حملَه. ولاتحمل على الشعرة الشعورية الصخورَ العظيمة، ولاتحمل على ماليس إليك، الاّ باذن مالِكه.

---

(١) رتبة عظيمة قريبة من السلطان.

فـاذا تكلمتَ بحسـابكَ – بالغـفلة – فلا تتـجـاوز عن حدك، ومـيدان جـولانك شعرة فقط.

واذا تكلمت بحساب مالك الملك فـاحمل ماترى كـيفـما أمر، وكـيفمـا يشاء لا كيفما تشاء وإذنُ المالكِ ومشيئتُه تُعرف من شريعته.

رمــــز

يامن يطلب الـشهـرة المسـمـاة في العـرف بـ(شـان وشـرف)! اسـمعِ مني. فـقـد شاهدتُ الشـهرةَ عينَ الرياء ومـوتَ القلب، فلا تطلـبها لئـلا تصيـر عبـدَ الناس، فان اعطيتَها فقل: ﴿ إنَّا لله وإنَّا اليه رَاجِعُونَ ﴾ [١].

* * *

(١) البقرة : ١٥٦

تقريظ

الشيخ صفوت افندي

رئيس مجلس تدقيق المصاحف الشريفة والمؤلفات الشرعية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـــه ثقتـــي

احـمـد الله سـبـحـانه وأصلي واسـلم على نبـيـه الذي انزل عليـه قـرآنه وعلى آله واصحابه الذين شيّدوا معالمَ الدين ومهّدوا بنيانه.. وبعد:

فقد تجلى لعيني هذه «القطرة من بحر التوحـيد» فرأيت لافرقَ بينهـا وبينه، لأنها اظهرت وافاضت في دين الاسلام عينه، وفي الحقيقة منه بدت واليه تعود، فشكَر الله تعالى سعي اخينا في رضاعة ثدي الاسلام المغترف من بحار التوحيد «بديع الزمان العلاّمـة سعيد» والغريب في هذه الأيام.. فطوبى للغـرباء.. كمـا قال عليـه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه اجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الفقير اليه سبحانه

تراب اقدام العلماء

صفوت

* * *

---

(١) هو مصطفى صفوت، ولد (١٢٨٢هـ) في اورفة، تخرج في الازهر، كان يتقن العربية والتركية والفارسية. اصدر مجلة اسبوعية في استانبول سنة ١٣٢٧باسم «التصوف». تقلّد مناصب علمية عديدة، حتى اصبح عضواً في «دار الحكمة الاسلامية» وعيّن رئيساً لهيئة تدقيق المصاحف والمؤلفات الشرعية سنة ١٣٣٥هـ. وانتخب للمرة الثانية نائباً من اورفة وظل هكذا حتى سنة ١٩٢٧م.

الرسالة الخامسة

حباب

من عمان القرآن الحكيم

خداى پركرم خود ملك خودرامى خَرد أز تو

براى تونكه دارد بهاء بى كران داده(١)

عمان: المقصود: البحر العظيم.

(١) [[ان الله ذا الكرم الواسع يشتري ملكه منك، ويحافظ عليه لأجلك، وقد أعطى قيمة غالية..]]

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «علي شكري» بانقرة سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م)



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لله ربِّ العالَمينَ.

والصَلاةُ والسَّلامُ على سيّد المُرسلينَ. وعلى آلِه وَصَحبهِ أجمَعين.

اعلم! ايها المؤمن المصلي الذاكر، اذا قلت: «اشهدُ أن لا إلهَ الاّ الله» او «محمدٌ رسولُ الله» او «الحمد لله».. مثلاً: حكمتَ بحكمٍ، ادّعيتَ دعوى، واعلنت اعتقاداً، يشهد لك في دعواك في آن تلفظك ملايين، وقبلك ملايين ملايين من المؤمنين المتكلمين بما تكلمت به؛ كأنهم يصدّقونك.. وكذا يؤيدك في دعواك، ويُثبت حكمَك ويزكّي شهداءك، كلُّ ماقام على صدق الاسلامية، وكلُّ ماأثبت حُكماً من أحكامها، وكلُّ ما استند عليه جزءٌ من اجزاء قصر الاسلام من الشواهد والبراهين ومسامير الدلائل.. وكذا اندمج في ملفوظك وتوضَّعَ عليه امرٌ عظيم، ويُمنٌ جسيمٌ من الفيوضات والبركات القدسية.. وكذا اتصل بملفوظك واحاطَ به معنىً جاذب، وروحٌ جالب من شرارات جَذَبات توجهات جمهور المؤمنين، ومن رشاشات رشحات رشفات قلوب الموحّدين الشاربين ماء الحياة من عيون تلك الكلمات المباركة..

اعلم! انه قد تقرر في الاصول: ان المثبت يرجَّح على النافي. وسرّه: ان النفي ينحصر في موضعه، والاثباتُ يتعدى. ولو نفى الفٌ، واثبته الفٌ كان كلٌ من المثبتين كألف. بسرّ: انه اذا رأى واحدٌ الشمسَ من مشكاةٍ، وآخر من اخرى، وهكذا؛ فكلٌ يؤيد كُلاً، لاتحاد المرئي والمشهود مع تعدد المناظر.. واذا لم يره واحدٌ لعدم المشكاة، وآخر لضعف البصر، وآخر لعدم النظر، وهكذا.. فقوةُ كلٍ في نفسه فقط. والانتفاءُ عنده، لايدل على الانتفاء في نفس الامر، فلا يؤيد احدٌ احداً لاختلاف الاسباب مع تعدد المدَّعى؛ لان الانتفاء مقيّدٌ عند النافي بـ«عندي» مثلا.

فاذا تفهّمت هذا السر؛ فاعلم! ان اتفاق كلُ اهل الضلالة والكفر على نفي مسألةٍ من المسائل الايمانية، فاتفاقهم لاتأثير فيه، بل كحكم واحدٍ. مع انه حجةٌ قاصرةٌ ينحصر على النافي فقط. واما اتفاقُ اهل الهدى على المسائل الايمانية فكلٌّ يتأيد بكلٍ، كأن الكلَّ شواهد كلٍّ واحدٍ..

اعلم! انه كما ان الاجزاء والاحجار في البناء المتساند، يستند كلٌّ واحدٍ بقوة الكل، ويزول ضعفُ كل بتساند الكلّ، كأن الكلَّ عَوَنَةُ كلٍ واحدٍ ومساميره.. وايضاً كما ان الاغصان والاثمار في الشجرة تستند معرفةُ صفات كلّ واحدٍ بالكلِ، فكلٌّ للكلِّ معرِّفٌ، كأن كلَّ واحدٍ لكلٍ واحدٍ منفذٌ نظّار، ولمعرفته معيار.. كذلك ان تفاصيل لمعات الايمان والاسلام ومسائلهما يستند كلُّ جزئي بقوة الكل، فبازدياد التفاصيل والجزئيات يزداد وضوح فهم كل جزء وقوة معرفة كل جزئي، واذعان كل حكمٍ، وايقان كل مسألةٍ. ومع كل ذلك، فالنفسُ الشيطانة تعكس فتنتكس. فتزعم ضعفَ الجزء، سببَ ضعفَ الكل..

اعلم! ان كل جزء من كل الكون واحد قياسيٌّ لإمكانات سائر الاجزاء. وبالعكس، فاجزاء الكائنات مقاييس للامكانات بينها كلٌّ لكلٍ..

اعلم! ان اصغر جزءٍ؛ من اعظم كلٍ، يحتاج الى مايحتاج اليه كل الكل كمّاً، فالثمرةُ تحتاج الى كلٍ ما يحتاج اليه كل الشجرة. فخالق الثمرة بل حجيرة من حجيراتها لابد ان يكونَ خالق الشجرة، بل خالق الارض، بل خالق شجرة الخلقة.

اعلم! ان المسألة التي طرفاها في غاية التباعد، كل طرف كنواة تسنبلت واشجرت وتفرعت، لابد ان لايتوضّع عليها الشكوك والاوهام؛ اذ التباس نواة بنواة ممكن مابقت النواةُ نواةً مستورة. واما اذا صارت شجرة واثمرت، ثم شككتَ في جنس النواة شهدت الثمراتُ عليها، ولو توهمتها غيرها، كذّبتْكَ تلك الثمرات.

مثلاً: لايتيسر لك فرضُ النواة التي انقلبت شجرة التفاح نواةَ حنظلةٍ، الاّ بتوهمها اياها، او تبديل كل ما اثمرت من التفاحات حنظلات وهو محال.

النبوة نواةٌ، انبتت شجرةَ الاسلامية بازاهيرها وثمراتها، والقرآنُ شمسٌ اثمرت سياراتِ اركان الاسلامية الاحد عشر..(١)

---

(١) اي: الاركان الخمسة للاسلام والستة للايمان. أفتبقى شبهة في البذرة بعد مشاهدة ثمراتها اليانعة ؟ حاش وكلا (ت: ٧٨).

اعلم![١] انه كما ان مَن يرى قشر بيضة انقشعت عن طير همائي[٢] تكمّل وطار في السمآء، ثم يتحرى ما يسمع من كمالاتِ ذلك الطير الطائر في فضاء العالَم[٣] في تلك القشرة اليابسة، لابد ان يغالط نفسه، او يكذّب.[٤] وكذا لو نظر الى فلقتَي نواةٍ انكشفت عن شجرةٍ تكمّلت وأثمرت، ومددت اغصانها في جو السماء، ثم تحرّى ما قرع سمعه من عظمتها وثمراتها وازهارها في تلك القشرة المطروحة في التراب، لابد ان يتبلّه او ينكر..

كذلك ان مَن نظر الى صورة ما نقله التواريخ من مبادي ظهور نبيّنا عليه الصلاة والسلام نَظراً مادياً وسطحياً وصورياً، لايتيسر له دركهُ وتقديرُ قيمته ومعرفة شخصيته المعنوية؛ بل لابد ان ينظر الى ما نقله التواريخ والسِير بنظر قشرٍ رقيقٍ، انشقّ عن قَمري – كقمر – في جو الملكوت. ويرى مايرى من لوازم البشرية، والاحوال الصورية كقشر نواة انكشفت منها شجرة طوبى المحمدية، التي تُسقى بماء الفيض الإلهي، وتنمو بامداد الفضل الرباني على مرّ الدهور. فكلما مرّ على سمعه شئٌ من الاحوال الصورية والمبدئية، فلابد ان لاينحبسَ عليه ذهنهُ، بل ليرفع رأسه بسرعة وفي كل مرة منه الى ماترقى وتصاعد اليه الآن مما لايدرك منتهاه.

وكذا ان ممّا يشط النظر لاسيما نظر المتحري الشاك، انه لايفرق بين المصدرية والمظهرية، بين المنبعية والمعكسية، وبين المعنى الاسمي والحرفي، وبين الذاتي والتجلّي. فكونه عليه السلام عبداً محضاً، واعبدَ خلق الله لله؛ يستلزم ان يُنظر اليه بانه مَظهرٌ ومَعكَسٌ لتجلياته تعالى. وكل ما فيه من الكمالات من فيضه تعالى.

نعم! قد ذكرنا مراراً ان الذرة لاتسع مصدرية ولو رأس ذبابة، ولكن تسع مظهرية ولو نجوم سمٰوات. ونظر الغفلة ينظر اولاً وبالذات الى الذاتي الاسمي والمصدرية، فيتوهم الصنعة الالهية طبيعة طاغوتية..

(١) هذه المسألة موضحة في الاساس السادس من الاشارة الرابعة لرسالة «المعجزات الاحمدية» – المكتوبات.
(٢) طير في غاية الجمال كالطاووس (ت: ٧٨)
(٣) اي ان شهرته وكمالاته اطبقت الآفاق (ت : ٧٨)
(٤) حيث لا يرى ما يسمعه في القشرة (ت: ٧٨)

اعلم! ان الدعاء انموذج لأسرار التوحيد والعبادة؛ اذ الداعي في نفسه خُفيةً، لابد ان يعتقد سماع المدعو لهواجسِ نفسه وقدرته على تحصيل مطلبه، فيستلزم هذا الاعتقاد، اعتقادَ أن المدعو عليمٌ بكلِ شئ، وقديرٌ على كل شئ.

اعلم! انه كما يمكن دخول هذه الشمس - سراج العالم - في عين الذباب بالتجلي فتتنور، ولايمكن دخول شرارة من كبريتٍ في عينها بالأصالة، بل لو دخلتْ لانطفت العين.. كذلك يمكن بل يجب مظهرية كل ذرة لتجليات اسماء شمس الأزل، ولايمكن بل يمتنع ان تكون ذرةٌ مصدراً وظرفاً لمؤثر حقيقي، ولو كان اصغر واقل من الذرة.

اعلم! يا «انا» المتمرد المغرور المتكبر، انظر الى درجة ضعفك وعجزك وفقرك ومسكنتك!.. اذ يبارزك ويصارعك - فتخرّ صعقاً - الحُوَينُ الذي لايُرى الاّ بتكبيره مرات ودرجات..

اعلم! ومن صُغر الانسان انه يجول في خردلة حافظته، وتصير تلك الخردلة عليه كصحراءٍ عظيمة يسري دائماً ولايقطعها الى جانب. فقس درجة مَن يسري دائماً ولايتم دورَ خردلة(١)، ومع ان الخردلة الحافظة تصير كصحراء عظيمة على عقل الانسان، كذلك يصير ذلك العقل كبحر يبتلع الدنيا.. فسبحان مَن جعل الخردلة لعقل الانسان كالدنيا، وجعل الدنيا له كخردلة!.

اعلم! ان من اشد ظلم البشر اعطاء ثمرات مساعي الجماعة لشخصٍ، وتوهم صدورها منه، فيتولد من هذا الظلم شركٌ خفيٌ؛ اذ توهّم صدور محصّل كسب الجماعة، وأثَر جزئهم الاختياري من شخصٍ، لايمكن الاّ بتصور ذلك الشخص ذا قدرة خارقة ترقت الى درجة الايجاد، وما آلهة اليونانيين والوثنيين، الاّ تولدت من امثال هذه التصورات الظالمة الشيطانية..

اعلم! ان الانسان كدوائر متداخلة متحدة المركز. ففي دائرةٍ: لباسه جسمهُ، وفي اخرى: بلدهُ، وفي اخرى: وجه الارض، وفي اخرى: عالم الشهادة وهكذا.. ولكنه لافعلَ ولاتأثير له إلاّ في الدائرة الصغرى، وفيما سواها من الدوائر عاجزٌ مسكين،

(١) اي لا يتم دوراناً حجم خردلة!

منفعلٌ وقابل لأخذ الفيض فقط. لو تَفَعَّل(١) مافعل الا تغييرَ صورة الفيض بالقصور والنقصان اللذين هما من الوان العدم..

اعلم! ان في الذاكر لطائف مختلفة في الاستفاضة؛ بعضُها يتوقف على شعور العقل والقلب، واستفادة بعضٍ لاشعوري تحصل من حيث لايُشعر. فالذكر مع الغفلة ايضاً لايخلو من الافاضة..

اعلم! ان الله خلق الانسان في تركيب عجيب، ووحدةٍ في كثرة؛ بسيطٌ وهو مركب، فردٌ وهو جماعة، له اعضاء وحواس ولطائف، لكلٍ في ذاته المٌ ولذة مع تألمه وتلذذه من انفعالات الكلِ وتأثرات اخواته؛ بدليل سرعة التعاون والامداد بينها. فمن حكمة هذه الخلقة جعلُ الانسان مظهراً لأنواع اللذائذ ولأقسام النِعَم ولأصناف الكمال – لاسيما في الآخرة – إن سلكَ في سبيل العبودية.. وكذا جعله محلاً لأنواع الآلام ولأشكال العذاب ولأقسام النقم، ان ضلَّ في طريق الأنانية. فألمُ وَجَع السنِ غيرُ ألم وجع الأذن. ولذةُ العينِ غير لذة اللسان، واللمس والخيال والعقل والقلب وهكذا..

اعلم! ان كثرة فوائد عدم تعين الآجال؛ دليل نيِّر على تعيُّنها في علم الباري، ولو تعينت لَتوهِّمَ عدمُ تعيُّنها من جهة العلم بتوهم تفويض تَعيّنها على القانون الفطري، واذ لم تتعين فيما بين الحدين المعيّنين؛ لاحقّ للوَهم ان يدّعي عدمَ التعيّن..

اعلم! ان الذكر من شأنه ان يكون من الشعائر، والشعائر ارفع من ان تنالها ايدي الرياء..

اعلم! ان تكرار كلمة التوحيد؛ لتجريد القلب من انواع العلاقات، وطبقات المعبودات الباطلة، ولأن في الذاكر أنواعاً من لطائف وطبقاتٍ من حواس؛ لكلٍّ توحيدٌ وتجريدٌ من الشرك المناسب له..

اعلم! ان الفاتحة المقروءة، مثلاً؛ لاتفاوتَ بين إهداء مثل ثوابها لواحدٍ، ولألوفٍ، او لملايين، كمثل الكلمة الملفوظة، سواءٌ في استماعها الفردُ والالوفُ، لسرٍ لطيف في

---

(١) اي: لو اظهر الفعل مع عجزه..

سرعة التناسل والاستنساخ في اللّطيف.. ولرمزٍ شريفٍ في التكثر مع الوحدة في النوراني، كمصباح قابله مرآة فردٍ، او ألوف من المرايا..

اعلم! ان الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كاجابة دعوة المنعم الذي افاضَ فيضه، وبسطَ مائدة انعامه على مقام صاحب المعراج. واذا وصف المصلّي النبيَ بصفةٍ، لابد ان يتأمل في مناط تلك الصفة ليشتاق المصلي لتصليةٍ جديدة(١).

اعلم! ايها العالم الديني!. لاتحزن على عدم الرغبة في عملك وقلّة اجرتك؛ اذ المكافأة الدنيوية تنظر الى جهة الاحتياج، لا الى درجة القيمة الذاتية، اذ جهة المزية الذاتية ناظرة الى المكافأة الاخروية، لايجوز لك ان تشتري بها ثمناً قليلاً من متاع الغرور.(٢)

اعلم! ايها المحرّر والخطيب العمومي بلسان الجريدة! لك ان تتواضع وتهضم نفسك وتعلن قصورك تندماً. ولاحقّ لك ان تتمرد وبالتجاهر بما يضاد شعائر الاسلام. فاين جاز لك، ومَن وكّلكَ، وبأيّ حقّ تتجاسر على اعلان القصور الديني(٣)، بل اشاعة الضلالة بحساب الملة وباسم الامة، وتظن الملة على قلبكَ الضال؟!(٤).. فلا يجوز لأحدٍ - فضوليا - ان يهضم نفسَ غيره حتى نفسَ أخيه. فمن اين جاز لك ان تزيِّفَ عامةَ الملة الاسلامية باساءة الظن بهم بإعراضهم عن الشعائر الاسلامية.. ولاريب ان نشر ما لايقبله جمهور المؤمنين في الجرائد العمومية من المستحدثات دعوةٌ الى الضلالة، فناشرها داعٍ الى الضلالة، فلا يُجاب بالضرب على فمه فقط، بل يُعنّف بالأخذ على يده..

اعلم! ان الكفار لاسيما الاوربائيون ولاسيما شياطين في انكلترة واباليس الفرنك(٥)، اعداءٌ الدّاء، وخصماء معاندون ابداً للمسلمين واهل القرآن.. بسر: ان القرآن حكَم على مُنكر القرآن والاسلام وعلى آبائهم واجدادهم بالاعدام الابدي،

(١) اي : بتكرار الصلوات عليه.
(٢) ادّخر مزاياك الخاصة للثواب الاخروي ولا تصرفها في متاع الدنيا التي لا تساوي شيئاً (ت: ٨٠).
(٣) اي : اشاعة شبهات باطلة حول الدين (ت: ٨٠).
(٤) فتحسب الامة جميعاً ضالين مثلك (ت : ٨٠).
(٥) اي الافرنج الذي اطلق على الفرنسيين اولاً ثم شمل الاوربيين.وفي (ط١) امريقا.

فـهم مـحكومـون بالاعـدام ابداً، والحبس في جـهنم سرمـداً بنصـوص ذلك القـرآن الحكيم. فـيـا اهل القـرآن كـيف توالون مَن لايمـكن ان يوالوكـم او يحبـوكم ابداً؟.. فقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونِعمَ الوَكيل﴾(١) ﴿نِعمَ المَولى ونِعمَ النَّصير﴾(٢)...

اعلم! ان الفرق بين مدنية الكافرين ومدنية المؤمنين، ان الاولى: وحشةٌ مستحالة ظاهرها مزيّن، باطنها مشـوّه، صورتها مـأنوسة، سيـرتها موحـشة.. ومـدنية المؤمنين باطنها أعلى من ظاهرها، معناها أتمّ من صورتها، في جـوفها أنسية وتحبب وتعاون. والسر: أن المؤمن بسـر الايمان والتوحيـد يرى اخوةً بين كل الكائنات، وانسـية وتحببا بين اجزائها، لاسيما بين الآدمـيين ولاسيما بين المؤمنين. ويرى اخوةً في الاصل والمبدأ والماضي، وتلاقـياً في المنتـهى، والنتيـجة في المستقبل. واما الكافر فبحكم الكـفر له اجنبية(٣) ومفارقة بل نوعُ عداوةٍ مع كل شئ لانفع له فيه، حتى مع اخيه؛ اذ لايرى الاخوة الاّ نقطة اتصـال بين افتراق ازلي ممتد، وفـراق ابدي سرمد؛ الاّ انه بنوع حـمية ملّية او غيرة جنسية تشتد تلك الاخوة في زمان قليل، مع ان ذلك الكافر لايحب في مـحبـة اخيـه، الاّ نفس نفـسه. واما ما يُرى في مـدنية الكـفار من المحاسن الانسانيـة والمعـالي الروحـيـة، فمن ترشـحـات مـدنيـة الاسلام، وانعـكاسات ارشـادات القـرآن وصيحاته، ومن بقايا لمعات الاديان السماوية.

فـان شئـت فاذهـب بخيـالك الى مـجلس «سيـدا»(٤) قـدّس سـره في قـرية «نورشين».. وما اظهرت من المدنيـة الاسلامية بصحبته القدسية، تَرَ فيـها ملوكاً في زي الفـقـراء ومـلائكـة في زي الاناسي. ثم اذهـب الى «باريس» وادخل فـي لجنة الاعاظم تَرَ فيها عقارب، تلبسـوا بلباس الاناسي، وعفاريت تصوروا بصور الآدميين. وقـد بينـتُ الفـروق بين مـدنيـة القـرآن والمدنيـة الحـاضـرة في [اللوامع](٥) و[السانحات](٦) فراجعهما لترى فيهما أمراً عظيماً، تغافل عنه الناس..

(١) آل عمران: ١٧٣

(٢) الانفال: ٤٠

(٣) اي الاحساس بالغربة في هذا الكون.

(٤) لقب يطلق على الاخ الكبير، والمقصود هنا وليّ مشهورمن الصالحين في جنوب شرقي تركيا.

(٥) اللوامع – مجلس في عالم المثال – ص ٨٥٤ من المجلد الاول من «الكلمات».

(٦) في مجلد «الصيقل الاسلامي ورسائل اخرى».

اعلم! يامن يطلب الاجتهاد في مسائل الدين في هذا الزمان! ان باب الاجتهاد مفتوح، لكن لايجوز لكم الدخول فيه لستة امور:

فأولاً: لان عند هبوب العاصفات في الشتاء يُسَدّ المنافذ الضيقة، فكيف تُفتح الابواب؟ وعند احاطة سيل المنكرات والبدعيات وتهاجم المخرّبات لايُشق الجدار بفتح منافذ..

وثانياً: ان الضروريات الدينية التي لامجال للاجتهاد فيها، والتي هي في حكم الغذاء والقوت للمسلمين قد اُهملت وتزلزلت، فلابد صرفَ كل الهمّة لأقامتها وامتثالها واحيائها، ثم بعد اللتيا والتي[1] تُمَسّ الحاجة الى الاجتهاد في النظريات التي توسعت باجتهادات السلف، بحيث لايضيق عن حاجات كل الزمان..

وثالثاً: ان لكل زمان متاعاً مرغوباً، يشتهر في سوقه تُجلب اليه الرغبات وتُوجَّه وتنجذب الافكار اليه، كالسياسة وتأمين الحياة الدنيوية الآن.. وكاستنباط مرضيات خالق العالم من كلامه، وتأمين السعادة الأبدية في زمان السلف. فلأجل توجُّه الاذهان والقلوب والارواح في الجمهور الى معرفة مرضيات ربّ السموات والارض في ذلك الزمان، صار كل مَن له استعداد جيد يتدرّس قلبهُ وفطرتهُ من حيث لايشعر من كل مايجري في ذلك الزمان من الاحوال والوقوعات والمحاورات، كأن كلَّ شئ معلّمٌ يلقن فطرته استعداداً إحضارياً للاجتهاد، حتى يكاد زيت ذهنه يضئ ولو لم تمسسه نارُ كسب. فاذا توجه الى الاجتهاد صار له نورٌ على نور. واما الآن فلتشتت الافكار والقلوب، وانقسام العناية والهمة، وتحكّم السياسة والفلسفة في الاذهان، لايمكن لمن كان في ذكاء «سفيان بن عيينه»[2] مثلا ان يحصل الاجتهاد الا بعشرة امثال وقت ماحصل سفيان الاجتهاد فيه. اذ ان سفيان يبتدئ تحصيله الفطري من حيث التمييز. فيتهيأ استعدادهُ كالكبريت للنار. واما نظيره الآن – فبسر مامرّ آنفاً –

(١) اللتيا والتي: هي الداهية الكبيرة والصغيرة (مجمع الامثال للميداني).

(٢) ولد في الكوفة سنة ١٠٧هـ توفي سنة ١٩٨هـ بمكة المكرمة. كان اماماً عالماً ثبتاً، حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته، حج سبعين حجة، ادرك نيفاً وثمانين نفساً من التابعين. روى عن الزهرى والسبعي وابن المنكدر وابي الزناد وعاصم المقرني والاعمش وعبدالملك بن عمير وغير هؤلاء من اعيان العلماء. وروى عنه الامام الشافعي وشعبة ومحمد بن اسحاق وابن جريح وابن بكار وعمه مصعب والصنعاني ويحيى بن اكثم وخلق كثير رضي الله عنهم (باختصار عن وفيات الاعيان لابن خلكان ٢/٣٩١ – ٣٩٣)

يتباعد استعداده بدرجة تبحّره في الفنون الحاضرة ويتقاسى عن قبول الاجتهاد بدرجة تغلغله في العلوم الارضية..

ورابعاً: ان ميل التوسيع والاجتهاد ان كان من الداخلين بحق في دائرة كمال الاسلام بمظهرية التقوى الكاملة وامتثال الضروريات، يكون ذلك الميل كمالاً وتكملاً. واما ان كان ممن يهمل الضروريات ويرجّح الحياة الدنيوية على الآخرة يصير ذلك الميل ميلَ تخريبٍ، ووسيلةً لحل ربقة التكليف عن عنقه..

وخامساً: ان المصلحة حكمة مرجّحة، وليست بعلّة للحُكم. ونظرُ هذا الزمان يصيِّر المصلحة علّة للحكم. وكذا نظرُ هذا الزمان يتوجه أولاً وبالذات الى السعادة الدنيوية، مع ان نظر الشريعة متوجه أولاً وبالذات الى السعادة الاخروية، وثانياً وبالعرض الى الدنيا من حيث هي وسيلة الآخرة.. وكذا ان كثيراً من الامور التي ابتلي الناسُ بها، وعمّت البليةُ بها حتى صارت من «الضروريات»؛ فلتولدها من سوء الاختيار، ومن الميول الغير المشروعة «لاتبيح المحظورات» ولاتصير مداراً لاحكام الرّخصية. كما ان مَن سَكر بشرب حرامٍ لايُعذر في تصرفاته في حالة السُكر.. وهكذا فالاجتهادات بهذا النظر في هذا الزمان تصير ارضية، لاسماويّة. فالتصرف في أحكام خالق السموات والارض وفي عباده بلا إذنه مردود.

مثلاً: يَستحسن بعض الغافلين الخطبة بالتركية لتفهيم السياسة الحاضرة لعامة المسلمين، فهذا الغافل المسكين لايعلم ان السياسة الحاضرة بكثرة الكذب والحيلة والشيطنة فيها صارت كأنها وسوسة الشياطين، فلا حقّ لهذه الوسوسة السياسية ان ترتقي الى مقام تبليغ الوحي. وكذا لايَفهم هذا الجاهل، ان اكثر الامة انما يحتاجون لإخطار الضروريات وتذكير المسلّمات والتشويق على امتثال الحقائق المتعارفة بين المؤمنين، من اركان الايمان والاسلام ومراتب الاخلاص والاحسان. فبكثرة التسامع يتساوى العوام والعلماء في التذكر والتخطر بسماع القرآن. اذ العجمي يفهم المآل اجمالاً وإن لم يعرف المعنى. وكذا لايعقل ذلك الغافل ان عربية الخطبة وسم سماوي مسدّد ومُزيَّن في سماء وحدة الاسلام، وبالتغيير يصير وَشماً مشتِتاً مشيناً..(١)

(١) أما الامر السادس فمذكور ضمناً هنا، وهو موضح في الكلمة السابعة والعشرين (الاجتهاد).

اعلم! يامن احاط به الغفلة واظلمت عليه الطبيعة حتى صار «أعمى وأصم» يعبد الاسباب في ظلمات الطبيعة الموهومة! اني اترجم لك لساناً واحداً من خمسة وخمسين ألسنة يتكلم بها كلٌّ واحدٍ من مركبات الكائنات وذراتها شاهدات على وجوب وجوده تعالى ووحدته في الوهيته وربوبيته جل جلاله..(١) وهو ان اضطرابات الارواح والعقول الناشئة من ضلالاتها الناشئة من استنكاراتها الناشئة من الاستبعاد والاستغراب والحيرة في اسناد الاشياء الى انفسها، والى الاسباب الامكانية تلجئ الارواحَ والعقول للفرار الى الواجب الوجود الواحد الأحد الذي بقدرته يحصل ايضاح كل مشكل، وبارادته يحصل فتح كل مغلق، وبذكره تطمئن القلوب.

فان شئت تحقيقه فانظر الى هذه الموازنة وهي: ان الموجودات إما فاعلها جانبُ الامكان والكثرة وإما جانبُ الوجوب والوحدة. فما يُتوهم بقصور النظر من الكلفة والاستبعاد، والاستغراب في اسناد كل شئ الى الواجب الوجود، تصير محققة عند الاسناد الى الكثرة، لقصور اي سبب كان، وضعفه عن تحمل اي مسبَّب كان، في جانب الكثرة دون الوحدة. فما يُتوهمُ هناك، متحقق هنا. ثم بعد هذا تتضاعف الكلفة والاستبعاد والاستغراب عدد اجزاء الكائنات مع انها في الاسناد الاول كانت واحدة موهومة وصارت هنا حقيقة متضاعفة عدد اجزاء الكائنات؛ اذ في الاسناد اليه تعالى نسبةُ كثيرٍ غير محدود الى واحدٍ مباين الماهية لها، وفي جانب الكثرة نسبةُ واحدٍ الى كثيرٍ غير محدود متماثلة الماهية؛ اذ النحلة مثلاً، لو لم تُسند الى الواجب الواحد، لزِمَ اشتراك السموات والارض في ايجادها لعلاقتها باركان العالم. مع ان صدور الكثير عن الواحد اسهلُ بمراتب من صدور الواحد عن الكثيرين المتشاكسين الصُم العمي الذين لايزيد اختلاطُهم الاّ اعميتَهم واصميتهم. ثم مع ذلك ان الكلفة لو كانت في الاسناد الاول مثل ذرة، تترقى في الاسناد الثاني الى امثال الجبال؛ اذ الواحد بالفعل الواحد يحصل وضعية ونتيجة للكثير، لايتيسر للكثير لو احيلت عليهم ان يحصلوا تلك الوضعية، او يصلوا الى تلك النتيجة الاّ بافعال كثيرة وتكلفات عظيمة؛ كالامير مع نفراته، والفوارة مع قطراتها، والمركز مع نقاط دائرته.

---

(١) قد ذكرت تلك الالسنة اجمالاً في «قطرة» وما هنا ايضاح لسانٍ واحدٍ فقط. المؤلف.

ثم مع ذلك ان الاستبعاد والاستغراب الموهومَين في الاسناد الاول، ينقلبان في الاسناد الثاني الى محالات متسلسلة.

من بعض المحالات: فرض صفات الواجب في كل ذرة؛ اذ كمال الصنعة ونقوشها واتقانها تقتضي علماً محيطاً، وبصراً مطلقاً، وقدرة تامةً وارادةً شاملةً..

ومنها فرض شركاء غير متناهية في الالوهية والوجوب اللذين لايقبلان الشركة اصلاً؛ إذ لو لم تُسندْ الاشياء الى الواحد الواجب، للزم ان يكون لكل واحدٍ وفي ضمنه واحد من الآلهة..

ومنها فرض كل ذرة حاكماً على الكل، ومحكوماً للكل ولكلٍ، كالاحجار في البناء المعقد لو انتفى الباني، لزِمَ ان يكون كل حجر كالباني عالماً مهندساً بانياً؛ اذ النظام والانتظام والاتقان والحِكَم هكذا تقتضي، لامحل للتصادف فيها..

ومنها فرض الشعور المحيط والعلم التام والبصر المطلق في كل ذرة وسبب؛ اذ الموازنة والتناظر والتساند والتعاون يقتضي شعوراً محيطاً وبصراً مطلقاً وهكذا، من الصفات المحيطة. فلو اسندت الاشياء الى انفسها لزم تصوّر هذه الصفات في انفسها، ولو اسندت الى الاسباب لزم تصور هذه الصفات في اسبابها، بل في كل ذرة من ذراتها.. وهكذا من المحالات المتسلسلة والممتنعات العقلية والاباطيل التي تمجها الاوهام.

واما اذا اسندت الى صاحبها الحقيقي وهو صاحب مرتبة الوجوب والوحدة، لايلزم الاّ أن تصير الذرات ومركباتها – كقطرات المطر الحاملة لتماثيل الشمس بالانعكاس – مظاهر لتجليات لمعات القدرة النورانية المطلقة المحيطة الازلية الغير المتناهية، المستندة بل المتضمنة للعلم والارادة الازليين الغير المتناهيين. وهي القدرة التي شهدت عليها معجزات المخلوقات، التي لمعتها الفذة اجلّ من شمس الامكان والكثرة بسر التجزء والتوزيع والانقسام في جانب الامكان والكثرة، دون جانب الوجود والوحدة. وان ذرةَ تلك القدرة اعظم من جبال الاسباب، بسر ان جزء تجلي النوراني مالكٌ لخاصية الكل، كأن الكلّ كليٌّ، ولو في جانب الامكان، حتى ترى

الشمس بتمامها في ذرة زجاجية. فكيف نور الانوار المتظاهر من جانب الواجب الوجود الواحد الاحد؟!

فالفرق بين الاسناد الاول والاسناد الثاني، كالفرق بين تجلي الشمس بخاصيتها في قطرة بل في ذرة بالتجلي. وبين دعوى وجود شمس بالأصالة في تلك القطرة؛ ومحالية هذه الدعوى اظهر من ان تُخفى.. ومع كل ذلك لا كلفة ولامعالجة ولاتَعَمّلَ في عمل تلك القدرة المجهولة الازلية، بل تتساوى بالنسبة اليها الذراتُ والنجوم والجزء والكل والفرد والنوع والقليل والكثير والصغير والكبير وانت والعالم والنواة والشجرة. والسر في انه لاكلفة بالنسبة اليها؛ ان تلك القدرة لازمة ذاتية ضرورية ناشئة للذات الازلي، فلذاتيتها محالٌ تداخل ضدّها في مابينها. فاذ لاعجزَ فلا مراتب فيها، فاذ لامراتب فيها تتساوى بالنسبة اليها اصغرُ الاشياء واعظمها.

فان شئت تقريب هذه الحقيقة الى الفهم بتمثيلات في دائرة الامكان والكثرة، فاستمع مثلا: (ولله المثل الاعلى):

يتساوى في اخذ تجلي الشمس في تمثالها الذراتُ الزجاجية، والبحور الارضية، والسيارات السماوية بسر «الشفافية».. وان المصباح المركزي للمرايا المحيطة يتساوى بالنسبة الى المصباح زجاجةٌ من زجاجات اصغر دائرة، ومجموع الزجاجات في اكبر الدائرة، بسر «المقابلة».. وان النور والنوراني تتساوى بالنسبة الى الاستضاءة والاستفاضة، الواحدُ والالوفُ لاتزاحم فيه بسر «النورانية»، فلنوع نورانيةٍ في لطافة الكلمة يتساوى في الاستماع الواحدُ والالوف.. ومثلاً: ان الميزان الحساس بدرجةٍ يتحسس بذرة، لو كان في كفتيه شمسان او جوزتان، ما تفاوت بين رفعِ كفةٍ الى الثريا وكفة الى الثرى، بوضع جوزة اخرى في كفة بسر «الموازنة».. ومثلاً: ان اعظم السفن لايتعسر سوقها وتحريكها على صبي كما لايتعسر عليه تحريك سفينته التي هي ملعبته في كفه، او تحريك ساعته بسر «الانتظام».. ومثلاً: ان (القماندان)[1] لافرق في أمره بـ(آرش)[2] بين نفر وفيلق، يتساوى في التحريك والتحرك النفرُ، وكلُ العسكر بسر التزام «الامتثال».. ومثلاً: ان الماهية المجردة في الانواع والكليات،

(١) القائد العسكري.

(٢) ايعاز عسكري يعني تقدّم للهجوم.

يتساوى بالنسبة اليها فردٌ من اصغر الافراد واكبرُ الافراد وكلُ الافراد الغير المحدودة بسر «التجرد».. وهكذا من الامثلة الدالة على انه يمكن عدم التفاوت بين القليل والكثير والصغير والكبير بالنسبة الى شئ.(١)

فبسر «شفافية» الملكوتية في كل شئ، وبسر «مقابلة» وجه كل شئ للقدرة، وبسر «نورانية» تلك القدرة، وبسر «الموازنة» الامكانية، وبسرّ «الانتظام» بقوانين القضاء والقدر، وبسر «امتثال» كل ذرة من ذرات الكائنات بكمال الشوق واللذة للاوامر التكوينية المندمجة في امر «كن»، وبسرّ «تجرد» الواجب الوجود عن الماديات. فبهذه الاسرار الستة تتساوى بالنسبة الى قدرته احياء البعوضة واحياء الارض وخلق النحلة وخلق السماوات والارض وايجاد الذرة وايجاد الشمس. بل ان التساوي وعدم التفاوت ثابت بالحدس القطعي والمشاهدة؛ اذ تلك القدرة المجهولة بماهيتها، والمعلومة بمعجزاتها تفعل بمثل غصن دقيق – كخيط رقيق – امثال العناقيد التمرية والعنبية وغيرهما، تلك الخوارق الحيوية التي لو أحيلت صنعتها على الاسباب لاحتاجت الى مالايحد من التكلفات، وتتجلى تلك القدرة بجلوات الوجود في سُمّ الخياط على الشفافات والعيون الناظرة الى الخيال بالتماثيل البرزخية، لو احيلت على الاسباب لامتنعت او لاحتاجت الى مالايحد من المعالجات.

الحـــاصل: ان مايُرى من ايجاد القدرة للاشياء الحيوية والوجودية والنورية يدل على امور ثلاثة:

الاول: ان الوسائط والاسباب الظاهرية حُجُبٌ ضعيفة وضِعَت لمحافظة عزة القدرة في المباشرة الظاهرية في وجه المُلك الكثيف الخسيس فقط..

والثـــاني: ان الحياة والوجود والنور – لشفافية وجه مُلكها كملكوتيتها – ما وضعت الحُجُب الكثيفة على يد القدرة، بل ترقرقت الوسائط فيها..

والثالث: لاتكلّف ولاتعمُّل ولامعالجة في تأثير تلك القدرة؛ اذ من يصنع بنواة تينة، شجرة تينة بعظمتها، وبخيط دقيق عنقوداً من حبات العنب، وكل حبة فيها ما فيهاً؛ لايتعسر عليه شئ.. ولاريب في الحقيقة ان ظهور صاحب تلك القدرة الازلية

(١) في الكلمة العاشرة والتاسعة والعشرين توضيح وافٍ لهذه الاسرار الستة.

اشد بمراتب من ظهور الكائنات. اذ كل مصنوع دلالته على نفسه بوجوه قليلة مرئية، وعلى صانعه بوجوه كثيرة مشهودة وعقلية وغيرهما. واي مصنوع كان لو أحيل على الاسباب، واجتمعت عليه الاسباب الارضية والسماوية لم يَأتُوا بمثلِهِ وَلَو كَانَ بعضُهُم لِبَعضٍ ظهيراً. اذ حبة نواة في حبة تينة ليست باقل جزالة من شجرة تينة، وليس الانسان اقل جزالة وادنى صنعة من الارض. فالقدرة التي اوجدت النواة والانسان لايتعسر عليها ابراز الشجر والعالم.

فيا من ضلّ بالاستبعاد والاستغراب والحيرة والاستنكاف في جانب الحق، فقد سمعت بهذه التحقيقات ان الاستبعاد بلا نهاية، والاستغراب بلا غاية، والحيرة بلا حد، وتحقق الكلفة بما لايحصى مع محالات عجيبة، فقد سمعتَها موجودة في جانب باطلك الذي ابتليت به من نسبة الاشياء بالاصالة الى انفسها واسبابها. فاضطرابات الارواح والعقول الناشئة من هذه الضلالة؛ تلجئ القلوب الى الفرار بالتسليم الى الواجب الوجود الواحد الاحد الذي لايحصل ايضاح شئ من الاشياء الاّ باضافته الى قدرته، ولايحصل فتح شئ من المغلقات الاّ باتصاله بارادته، ولايطمئنُ قلبٌ ولايستقر يقينٌ في مسألة من المسائل الاّ بربطها بذكره واسمه جل جلاله..

اعلم! ان ميدان اشتغال الانسان، ومساير جولان الهمة، اوسع من ان يُحاط به. فقد يجول في ذرةٍ، ويسبَح في قطرة، وينحبس في نقطة، مع انه قد يضع العالَم نصب عينيه، وقد يُدخل الكائنات في عقله حتى يتطاول الى رؤية الواجب الوجود ومشاهدته. فقد يكون الانسانُ اصغر من ذرة، وقد يصير اكبرَ من السموات، فيدخُلُ في القطرة مع انه يدخل فيه الفطرةُ بانواعها واركانها..

اعلم! ان كل ما انعم الله به على الانسان، له شرائط ومفاتيح بعضها آفاقي وبعضها انفسي. مثلاً: ان الله انعم بالضياء والهواء والغذاء والصدى، وعلّق الاستفادة منها على فتح العين والانف والفم والسمع وهكذا.. مع ان هذه الفتوح الأنفسية من كسبنا، فلا يتحصل الاّ بخلقه وايجاده تعالى. فلا تتخيّلن ايها الغافل هذه النعم سدىً مهملة تسئم(١) فيها كيف تشاء بلا منّة ولا حساب. كلا!.. بل

(١) الكلمة مأخوذة من سامت الماشية ، اي: خرجت الى المرعى ، وليست من سئم ، بمعنى ملّ وضجر.

تُساق اليك بقصد مُنعمها فتلتقم باختيارك ثم تنتشر على مظان حاجاتك بارادة مُحسنها عمّ نواله..

اعلم! ان اواخر الاشياء ونهاياتها ليست باقلّ انتظاماً واتقاناً من اوائلها؛ ولا ظواهرها ولاصورها باحسن صنعة وحكمة من بواطنها. فلا تحسبنَّ اواخر الاشياء وبواطنها سدىً مهملةً تلعب بها يد التصادف. ألا ترى الثمرة مع الزهرة، اظهر حكمةً من الجرثوم النابت من النواة. فالصانع جل جلاله هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

اعلم! ان اعجاز القرآن، حَفظَ القرآن عن التحريف، فلا يتيسر لكلام مفسّرٍ او مؤلّفٍ او مترجم او محرّف وغيرهم، ان يلتبس بالآيات او يلبسَ زيّها كما التبست واختلطت سائر الكتب المنزلة حتى صارت محرفة..

اعلم! ان تكرار آية: ﴿**فبأيّ الآءِ ربّكما تُكذّبانِ**﴾ في مقاطع الآيات التنزيلية المشيرة الى الآيات التكوينية المتنوعة المختلفة في سورة «الرحمن» يدل على ان اكثر عصيان الجن والانس وأشدَّ طغيانهما وأعظم كفرانهما يتولد من: عدم رؤية الانعام في النعمة.. والغفلة عن المنعم.. وإسناد النعم الى الاسباب والتصادفات.. حتى يصيرا مكذّبين بالآء الله. فلابد للمؤمن من ان يبسمل بَدء كلّ نعمةٍ قاصداً بها أنها منه، أنا آخذها بأسمه وبحسابه، لابحساب الوسائط، فله الشكر والمنة.

اعلم! ايها المتوسوس المتخطر بالقآت الشيطان، واخطار مرض القلب والخيال، وبامرار خسة النفس ولؤمها مزخرفاتٍ[1] شتّى على عين عقلك عند توجهك الى الحقائق الالهية، حتى قد تمر على عينيك سحائبُ مظلمة ممطرة رذائل وفواحش، وشتوماً تقشعر منها عند نظرك الى شمس الحقائق، كأنك تمدّ يد التنزيه والتقديس، وترسل عينك للتسبيح والتمجيد؛ والحال ان يدك تتنجس بارجاس خيالك، ويستقذر نظرك ممّا يمر عليه من سفاسف خبث نفسك، ثم تنعكس تلك المستقذرات على المقدسات في نظرك، فتتألم فتتأمل في المستقذرات. لاتيأس ولاتتأثر ولاتلق نفسك في الغفلة للفرار من هذه الحال، والنجاة من هذا اللوم الأليم؛ اذ لاضررَ الاّ ضررُ توهّمِ الضرر،فتتكرر فتتضرر.ألا ترى انك اذا نظرت الى الشمس وضيائها، والسماء ونجومها والجنة وازاهيرها في مسامات ثوب مستقذر بمزخرفات شتى،

(١) مزخرفات: المقصود بها المستقذرات.

لايمكن ان تسري تلك اليها وتتكدر هي بها بل تنفعل انت منها. فلا تهتم بها لتذهب؛ اذ هذه الوهميات والهوائيات كالهوام والزنابير؛ إن دافعتهم قاتلوك، وإن تركتهم فارقوك..

اعلم! ايها المتفلسف المرجّح للعقل على النقل، فتؤّل النقل بل تحرّف؛ اذ لم يسعه عقلُك المتفسخ بالغرور والتغلغل في الفلسفيات! انني كنت في حينٍ كما كنتَ، ثم شاهدتُ قصراً شاهقاً شارقاً اتصل سطحه بسقف السماء، قد أرسلت متدلية من شبابيكها العالية زنابيل[1] متفاوتة، حبالها في المبدأ والمنتهى. فبعضها قريب من الارض فيقذف الانسان الموفّق نفسه في ذلك الزنبيل فيرتفع الى اعلى المنازل، وبعضها اخفض مبدأ وارفع منتهى. وهكذا.. ثم رايت بعض الناس الخاسرين المغرورين لايبالون بتلك الزنابيل، فيتشبثون للصعود بجمع الاحجار والاشياء ويضعونها تحت ارجلهم، فيتصاعدون قليلاً ثم يتساقطون، وأنّى لهم الصعود!.. وشاهدت بعض المعتمدين على انفسهم المتفرعنة، يدقون مسامير في جدار القصر فيضعون ارجلهم عليها متصاعدين فيخرّون فتندق اعناقهم وهكذا.. ورأيت ان ما جُهزوا به من مكاسبهم والآتهم انما اعطوها ليستعملوها على قدر الاستعداد والتوفيق في الصعود الى الزنبيل، لا الى المنازل. فعقلكَ عقالُكَ، وبالنقل نقلتُك. مَن توكّل على الله فهو حسبه..

اعلم! يا من تحير في سبب غلبة الفجار على الابرار، وتفوّق الطالحين على الصالحين في الحياة الدنيوية. اني قد شاهدت في واقعةٍ قصوراً، في كل قصر سرادقات متداخلة متصاعدة، سكان طبقاتها متفاوتون في اللطافة والعلوية والنورانية، فمن في المركز العالي كالسلطان، وتحته منازل فيها سكان متفاوتون في القيمة والنورانية، وهكذا الى الباب. ومن عند الباب خادم مظلم كثيف، وقدام الباب كلب متملق. ثم رأيت بعض القصور تلألأت ساحة بابه، فتأملت فيها فرأيت ملك القصر يلعب مع الكلب قدّام الباب، والمخدّرات[2] يداعبن مكشوفات رؤوسهن مع الصبيان وقد تعطلت الوظائف النزيهة في الطبقات، وتشعشعت وظائف الكلب والصبيان وسَفَلة الخدام، فتفتق القصر عن مكنوناته متفسقاً، مشرقاً

(١) ان ايضاح هذه المسألة قد ذكر في بيان الطرق الثلاثة في آخر «الفاتحة» في رسالة «أنا» [الكلمة الثلاثون] وفي [اللوامع] في سياحة خيالية ختام «الكلمات». والزنابيل المتدلية اشارة الى الحقائق القرآنية التي هي الصراط المستقيم.. (المؤلف).

(٢) اي النساء.

مقـتدراً قـوياً ظاهر الباب، مظلمـاً معطلاً ذليـلاً في الداخل. وفسـوقه كـفتوق فلـقتي الرمان مثلا عن حباته. فعلمت ان تلك القصور هي الاناسي، حتى رأيت كل انسان قصـراً، حتى رأيت نفسي العـاصية ايضـاً قصراً.. وسـقوط اهل القصـور على مراتب مختلفـة نزولاً ادنى فأدنى. فشاهدت ان مـايزعم اهل المدنية: ترقيا مـا هو الاّ سقوط، واقتداراً ما هـو الا ابتذال، وانتباهاً ما هو الاّ انغمـاس في نوم الغفلة، و(نزاكة)[1] ماهي الاّ رياء نفـاقي، و(ذكاوة)[2] ماهي الاّ دساسية شيطانية، وانسانية ماهي الاّ قلب الانسانية حيوانيةً. لكـن يلوح على هذا الشخص الساقط العاصي لوائح اللطافة والجاذبية لاختلاط لطائفه النورانية بنفسه الظلمانية؛ خلافاً للمتدين المطيع الذي عند البـاب نفسـهُ المتكدرة فـقط. الاّ انه قـد يتنازل لطائف الصـالح ايضـاً، لا للهوسـات السفلية، بل لإرشاد الناس الخارجين من الحدود وامدادهم بارجاعهم الى ماهم خلقوا لأجله، ان الله سبـحانه، اذا احب عـبداً لايحبب اليـه محـاسن الدنيا بل يُكرههـا اليه بالمصائب.

ايواه! وأسفا!. قـد اظهرت هذه المدنية السفـيهة خوارق جـلابة وملاهي جذابة، يتساقط اليـها سكان قصور الانسان ومـخدراتها، كتسـاقط الفراش على النور المشرق المنقلب الى النار المحرقة..

اعلم! ايها السعـيد الشقي! ماهذا الغرور والغـفلة والاستغناء؟ ألا ترى ان ليس لك من الاختيار الاّ شعرة، وليس من الاقـتدار الاّ ذرة، وليس من هذه الحياة الاّ شعلة تنطفئ، وليس من العمر الاّ قليل مثل دقيـقة تنقضي، وليس من الشعور الاّ لمعة تزول، وليس من الزمان الا آن يسيل، وليس من المكان الا مقدار القـبر!.. ولك من العجز ما لايُحدّ، ومن الاحـتيـاج مالايتناهي، ومن الفـقر ما لايُحـصى، ومن الآمال مـا لاغاية لها، وهكذا.. فـمن كان بهـذه الحالة من العجـز، وفي هذه الدرجة من الحـاجة، هل يتوكل على ما في يده ويعتمد على نـفسه.. او يتوكل على الله الرحمن الرحيم الذي من ظروف خزائن رحـمته وصناديق نعمـته: هذه الشموس وهؤلاء الاشـجار المملوءة من الانوار والاثمار، ومن موازيب حوض فيضه ومسيلات رحمته: الماء والضياء.

---

(١) اللطف والرأفة .

(٢) الذكاء والفطنة.

اعلم! يامن يستعظم النتيجة ويستضعف دليلها! انه ما من دليل يشهد على حقيقة من الحقائق الايمانية، الاّ ويزكيّه ويؤيّده ويقوّيه ويمدّه كلٌّ ما قام على صدق شئٍ ما من الاسلامية. فكأن كلٌّ مالايعد من الشواهد والشهداء والبراهين والامارات، كل منها يضعُ امضاءه على سند كلٍ من اخواتها، فيختم كلٌّ منها خاتمَ تصديقه على منشور كلٍّ واحدٍ بسرّ مامرّ – في بداية هذه الرسالة – خلافاً للنافي؛ اذ للمنافاةِ بين النافي والمثبتِ يُنفى من النَّافي مايُثبتُ للمُثبتِ. فالفُ نافٍ كفردٍ..

اعلم! انه قد تصير شدة محبة الشئ سبباً لانكاره، وكذا شدة الخوف، وكذا غاية العظمة، وكذا احاطة العقل..

اعلم! اني قد تيقنتُ كأني شاهدتُ بحدس قطعي: ان جهنم مندمجةٌ بالقوة(١) في بذر الكفر كاندماج شجرة الحنظلة في نواتها.. وان الجنة مندمجة في حبة الايمان كاندراج شجرة النخلة في نواتها. فكما لاغرابة في استحالة النواة وانقلابها الى شجرة الحنظلة أو شجرة النخلة، كذلك لا استبعاد في تحول معنى الضلالة متجسماً جهنماً(٢) تعذِّب، ولافي تمثل انوار الهداية جنةً تُستعذب. وفي [اللوامع](٣) نبذة من هذه الشهود في هذا العالم ايضاً..

اعلم! كما ان الحبة من بذور الحبوبات ونوى الثمرات اذا ثقبت في قلبها، لاتتكبر بالتنبت. كذلك حبة «انا» اذا ثُقبت بشعاع ذكر: الله.. الله.. لاتتعاظم تلك الانانية متفرعةً بالانتعاش ومتفرعنةً بالغفلة، ومستحصنةً ومستندةً بآثار النوع، ومبارزةً بالعصيان لجبّار السموات والارض. والاولياء النقشبنديون موفَّقون لفتح حبة القلب وكشف طريقٍ قصير بثقب جبل (انا) وكسر رأس النفس بمثقاب الذكر الخفي. كما ان بالذكر الجهري تُخرّب طاغوت الطبيعة أو تمزّق..

اعلم! أن أبعد واوسع وأرق دوائر الكثرة وطبقاتها يتلألأ عليها ايضاً اثرُ الحكمة والاتقان والاهتمام. فان شئتَ فانظر الى نهاية ما انبسط وانتشر اليه التكثر من جلد الانسان وصورته، لترى كيف يحشّي قلم القدرة صحيفة جبهته ووجهه وكفيه

(١) المقصود بالقوة: بالاستعداد والقابلية الكامنة في الشئ. اما بالفعل فيعني: بالمشاهدة والماثل امام العين.
(٢) لا تنصرف جهنم الاّ إن نكرّت فتنصرف.
(٣) اللوامع – كل الالام في الضلالة وكل اللذائذ في الايمان ص٨٩٠ من «الكلمات».

بخطوط ونقوش وآلات دالات على معانى في روح الانسان، وعلى طائره المعلق في عنقه المشير الى القَدر المكتوب في فطرته، حتى لم يترك هذه التحشيةُ منفذاً لدخول التصادف الاعمى والاتفاقية العوراء..

اعلم! يامن ابتلي بحب هذه الحياة حتى حسبتَ ان العلة الغائية في الحياة وبقائها، وان كل ما اودعته القدرة الازلية في جوهر الانسانية وذوي الحياة من الجهازات العجيبة والتجهيزات الخارقة، انما اعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة السريعة الزوال، ولاجل البقاء. كلا ثم كلا! اذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار اظهر وابهر وانورُ دلائل الحكمة والعناية والانتظام وعدم العبثية باجماع شهادت نظامات الكائنات؛ اعجبَ واغربَ وانسَب مثال العبثية والاسراف، وعدم الانتظام وعدم الحكمة. كمثل شجرٍ – كجبل – ليس لها الاّ ثمرة فردة كخردلة. بل يرجع الى الحي من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجة مالكية الحي للحياة وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات راجعة الى المحيي جل جلاله بالمظهرية لتجليات اسمائه، وباظهار الوان وانواع جلوات رحمته في جنته في الحياة الاخروية التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية وهكذا..

اذ كما ان الشخص الموظف لأن يجس ويضع اصبعه عند اللزوم على الجهازات التي تتحرك بها السفينة العظيمة للسلطان، لايرجع اليه من فوائد السفينة الا بمقدار علاقته وخدمته، اي من الالوف واحداً.. كذلك درجة تصرّف كل حي في سفينة وجوده. بل هناك يمكن ان يستحق من الالوف واحداً، لكن لايستحق بالذات هنا من ملايين ملايين واحداً ايضاً..

اعلم! يا قلبي ان لذائذ الدنيا وزينتها بدون معرفة خالقنا ومالكنا ومولانا ولو كانت جنة، فهي جهنم. هكذا ذقت وشاهدت. حتى في نعمة الشفقة كما في «قطرة» ومعرفته تغني عن كل ما في الدنيا حتى عن الجنة ايضاً..

اعلم! يا قلبي: إن كل مايجري في هذه الدنيا له وجهان: وجه الى الدنيا والنفس والهوى، ووجه الى الآخرة. فاما الوجه الدنيوي فاعظم الامور واثقلها واثبتها هو في نفس الامر بدرجة من الصغر والخفة والزوال، بحيث لايساوي ولايوازي ولايليق لان يُشوّش له القلب (بالمرق) والتضجر، والتألم وشدة التأمل..

اعلم! ياقلبي هل ترى احمق وابله واجهل ممن يرى تمثال الشمس مثلاً في ذرة شفافة، او تجليها في صبغة زهرة؛ ثم يطلب في الشُميسة المرئية في الذرة ومن لون الزهرة وصبغتها، كلٌّ لوازمات السراج الوهاج في سقف العالم، حتى جذبها للسيارات ومركزيتها للعالم. ثم اذا زال بعارضٍ مارآه في هذه الذرة والزهرة شرع – بسبب قصر النظر وانحصاره – ينكر وجود الشمس في وسط النهار، مع وجود شهادات سائر الذرات وكل (الشبنمات)[1] والرشاشات والقطرات والحبابات والحياض والبحور والسيارات في ضحوة النهار الصحو.

ثم ان ذلك الاجهل يلتبس عليه «الوجود الظلي بالتجلي» بمقدار لياقة قابلية الشئ المرسمة بالقَدَر «بالوجود بالاصالة». فاذا رأى الشمس في ذرة شفافة يقول: اين عظمة الشمس، واين حرارتها الخارقة، وكيف وكيف؟. الى آخر بلاهاته!..

وقد يريد ان يقتبس من نارها او يحسها بيده او يؤثر في ذاتها تأثيراً بوجه ما، ولايتفطن ان قربها منه بالتأثير فيه، لايستلزم قربه منها حتى تتأثر الشمس من فعله. ثم انه يرى في صغار الاشياء وخسائسها اتقاناً عجيباً واهتماماً غريباً وصنعة فائقة وحكمة رائقة، فيزعم بالقياس الباطل ان صانع هاتيك تكلَّف في صنعها وتعمَّل كثيراً؛ فيقول: ما قيمة الذباب مثلا، حتى يُصرف له هذا المصرف المهم من صانع حكيم؟ حتى يصير ذلك المسكين سوفسطائياً.

فيا هذا ﴿**ولله المَثَلُ الأعلى**﴾[2] ﴿**الله خالقُ كلِّ شيءٍ وَهُوَ على كلِّ شيءٍ وكيل**﴾[3] لابد ان تعلم اموراً اربعة ينحل بها الاشكال.

الاول: ان كل شئ من الذرات الى الشموس يصفه تعالى بما له[4] في كمال ربوبيته، لكن لايتصف بماله لاجل مظهريته لتجليه..

الثاني: انه ينفتح من كل شئ الى نوره تعالى بابٌ، لكن بانسداد باب واحد في نظر قاصر لاينسد مالايحد من الابواب، وإن امكن فتح الكل بفتح واحدٍ.

---

(١) الندى.

(٢) النحل: ٦٠

(٣) الزمر: ٦٢

(٤) بما له من صفات جليلة.

والثالث: ان القدر المنعكس من العلم المحيط قد قيّد ورَسَم لكل شئ حصة لائقة من فيض تجلي الاسماء المطلقة النورانية.

والرابع: ﴿**انّما امرُه اذا أرادَ شيئاً انْ يَقولَ لهُ كُنْ فيَكونُ**﴾[١]. و﴿**مَا خلقُكم ولابَعثُكم الاّ كَنَفسٍ واحدَة**﴾[٢]. واما اذا اسند بالغفلة الاشياء الى انفسها والى الاسباب الامكانية، للزم على كل العقلاء ان يقبلوا المحالات الناشئة من حكم ذلك الاجهل الابله.

اعلم! ان القرآن المعجز البيان يعبّر كثيراً عن تبيين الحقائق بضرب المثل، بسر ان الحقائق المجردة الالهية متمثلة في دائرة الممكنات بقيود الامثال، فالممكن المسكين ينظر الى الامثال في دائرة الامكان، ويلاحظ من خلفها شؤون دائرة الوجوب ﴿**ولله المَثَل الاعلى**﴾.

اعلم! ان العرش كالقلب، فقلبك فيك ملكاً[٣] وانت في قلبك ملكوتاً ففي دائرة الاسم «الظاهر» العرش العظيم محيط بالكل، وفي دائرة الاسم «الباطن» كالقلب للكون. وفي الاسم «الاول» يشار اليه بـ ﴿**وكانَ عَرشُه على المَاء**﴾[٤] وفي الآخر يرمز اليه بـ: (وسقف الجنة عرش الرحمٰن)[٥] اذ لعرش من ﴿**هو الاولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ**﴾[٦] حصة الاولية والآخرية والظاهرية والباطنية..

اعلم! ان العجز معدن النداء، وان الاحتياج منبع الدعاء.

فيا ربي ويا خالقي ويا مالكي! حجتي عند ندائي حاجتي. وعدتي عند دعائي فاقتي. ووسيلتي انقطاع حيلتي. وكنزي عجزي. ورأس مالي آمالي وآلامي. وشفيعي حبيبك ورحمتك. فاعف عني واغفر لي وارحمني يا الله، يارحمٰن، يارحيم.

---

(١) يس : ٨٢

(٢) لقمان : ٢٨

(٣) اي كما ان قلبك فيك في حالة مُلك ، وانت في قلبك في حالة ملكوت، اي كما ان الانسان من حيث الملك ظرف لقلبه ومن حيث الملكوت مظروف.. (ت : ٩٦).

(٤) هود : ٧

(٥) (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض،والفردوس أعلى الجنة واوسطها، وفوقه عرش الرحمن..) الحديث صحيح : رواه ابن ماجة عن معاذ والحاكم عن عبادة بن الصامت وعن أبي هريرة، وابن عساكر عن ابي عبيدة الجراح ، رضي الله عنهم. (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٣١١٦) قال المحقق: صحيح وانظر الاحاديث ٣٤٢٣، ٤١٢٠ من المصدر نفسه، وفي سلسلة الاحاديث الصحيحة ٩١٩ يشير الى حديث: سقف الجنة عرش الرحمن.

(٦) الحديد : ٣

هذه المناجاة

تخطرت الى القلب هكذا باللسان الفارسي

یا رب! به شش جهت نظر می کردم درد خودرا درمان نمی دیدم

در راست مي ديدم كه: ديروز مزار پدر من است

ودر چپ دیدم که: فردا قبر من است

وامروز: تابوت جسم پر اضطراب من است

بر سر عمر جنازهء من ایستاده است

در قدم: آب خاك خلقت من وخاكستر عظام من است

چون در پس می نگرم، بینم: این دنیای بی بنیاد هیچ در هیچ است

ودر پیش: اندازهء نظر میکنم، در قبر گشاده است و راه ابد بدورودراز بدیداراست

مرا جز جزء اختیاری چیزی نیست در دست

که آن جزء هم عاجز، هم کوتاه، وهم کم عیار است

نه در ماضی مجال حلول، نه در مستقبل مدار نفوذاست

میدان آن إین زمان حال، ویك آن سیّال است

با إین همه فقرها وضعفها، قلم قدرت تو آشکارا

نوشته است، « در فطرت ما »: میل ابد وامل سرمد

بلکه هرچه هست، هست

دائرهء إحتیاج مانند دائرهء نظر بزرگی داراست

خیال کدام رسد احتیاج نیزرسد، در دست هرچه نیست در إحتیاج هست

دائرهء اقتدار همچو دائرهء دست کوتاه کوتاه است

پس فقر و حاجات ما به قدر جهان است

سرمایهء ما همچو: «جزء لا یتجزأ» است

این جزء کدام واین کائنات حاجات کدام است؟

پس در راه تو أزین جزء نیز بازمی گذشتن چارهء من است

تا عنایت تو دستگیر من شود، رحمت بی نهایت توپناه من است

آن کس که بحر بی نهایت رحمت یافت، تکیه

نکند برین جزء اختیاری که یك قطره سراب است

أیوا ! این زندگانی همچو خواب است

وین عمر بی بنیاد همچو باد است

انسان به زوال دنیا به فنا است، آمال بی بقا آلام به بقا است

بیا أي نفس نا فرجام! وجود فانی خودرا فدا کن

خالق خودرا که این هستی ودیعه هست

وملك اورا فنا کن تا بقا یابد، ازان

سری که: «نفی النفی» إثبات است

خدای پر کرم خود ملك خودرا می خرد أزتو

بهاي بی کران داده برای تو نگهدارد

* * *

ترجمة المناجاة

التي تخطرت الى القلب باللسان الفارسي

[] يارب! لقد بحثت في الجهات كلها (الجهات الست) فلم أجد دواءً لدائي.

فنظرت نحو اليمين، واذا بقبر أبي بالأمس.

ورنا بصري نحو اليسار، فاذا قبري في الغد.

وهذا اليوم هو تابوت يحمل جسمي المضطرب.

فجنازتي ماثلة أمامي فوق رأس عمري.

وتحت الاقدام ماء خلقتي ورميم عظامي ممزوجين.

وكلما نظرت الى الخلف رأيت هذه الدنيا سراباً في سراب.

واذا ما امتد نظري الى الامام، فالقبر فاغر فاه. وطريق الأبد يتراءى من بعيد.

وانني لا أملك سوى «الجزء الاختياري» وهو عاجز، قاصر، عديم الجدوى.

اذ لامجال له للحلول في الماضي، ولا النفوذ الى المستقبل.

وانما ميدان تجواله هو: زمان الحال، وآن واحد سيال.

وعلى الرغم من هذا الفقر والضعف فقد كتب قلمُ قدرتك في الفطرة مَيلاً الى الأبد وأملاً في الخلود.

فدائرة الاحتياج واسعة سعة امتداد النظر، فاينما يصلُ الخيال تصل الحاجة ايضاً.

بينما دائرة اقتداري قاصرة قاصرة كاليد.

ففقري وحاجتي بسعةِ الدنيا إذن.

(*) تفضل مشكوراً الاخ الكريم فاروق رسول يحيى بترجمة نص هذه المناجاة. اما ترجمتها الوافية ففي الكلمة السابعة عشرة وفي الرجاء السابع من اللمعة السادسة والعشرين «رسالة الشيوخ».

ورأس مالـي مثل «الجـزء الذي لايتجـزأ» فأين هذا الجـزء من تلك الحاجـات التي تسع الكائنات؟

ولكنني انطلق في سبيلك من هذا الجزء كي أحظى بعنايتك.

ان رحمتك المطلقة ملاذي.

فالذي يجـد فيضاً من الرحـمات، لايعتـمد على هذا الجزء الاختـياري، الذي هو قطرة من سراب.

يارب! هذه الدنيا ما هي الاّ كالمنام، وهذا العمر يذهب ادراج الرياح.

والانسان فانٍ بفناء الدنيا، والآمال الفانية آلامٌ في البقاء.

تعالي ايتها النفس التي لاحدود لها ضحّي بوجودِكِ الفاني.

فخالقك الذي بيده الوجود.. موجود.

له الملك وهو المعطي، فافنِ نفسكِ كي تجد النفسُ البقاء.

وذلك بسر: نفيُ النفي اثبات.

ياالهي ياذا الجود والكرم هب لي ملكاً من عندك.

واعطني قيمة لاحدود لها، فانك انت الحفيظ.]]

* * *

خطاب الى مجلس الأمة [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انَّ الصَّلوةَ كانت على المؤمنينَ كتاباً مَوقُوتاً ﴾

يا ايها المبعوثون! انكم لمبعوثون ليوم عظيم.

ايها المجاهدون! ويااهل الحل والعقد!

ارجو أن تعيروا سمعاً الى مسألة يُسديها اليكم هذا الفقير الى الله في بضع نصائح وفي عشر كلمات:

اولاً: ان النعمة الالهية العظمى في انتصاركم هذا تستوجب الشكر، لتستمر وتزيد، إذ ان لم تُستقبل النعمة بالشكر تزول وتنقطع. فمادمتم قد أنقذتم القرآن الكريم من إغارة العدو – بفضل الله تعالى – فعليكم اذاً الامتثال بأمره الصريح وهو الصلاة المكتوبة، كي يظل عليكم فيضهُ وتدوم انواره بمثل هذه الصورة الخارقة.

ثانياً: لقد أبهجتم العالم الاسلامي بهذا الانتصار، وكسبتم ودّهم وإقبالهم عليكم، ولكن هذا الودّ والتوجّه نحوكم انما يدومان بالتزام الشعائر الاسلامية؛ اذ يحبكم المسلمون ويودّونكم لأجل الاسلام.

ثالثاً: لقد توليتم قيادة مجاهدين وشهداء في هذا العالم وهم بمثابة اولياء صالحين، فمن شأن امثالكم من الغيارى السعيُ والجدّ لامتثال اوامر القرآن الكريم لنيل صحبة اولئك النورانيين، والتشرف برفاقتهم في ذلك العالم. وإلاّ تضطرون الى

---

(١) القي هذا الخطاب في مجلس الامة التركي في ١٩/ ١ /١٩٢٣ (١٣٣٩) وهو محفوظ في سجلات المجلس، وكانت الدولة عندئذٍ على مفترق الطرق.. وكان من تأثير هذا الخطاب البالغ ان اقبل كثير من النواب (المبعوثين) الى اداء الفرائض. وقد نشر كلّه بالتركية في الكتاب فترجمناه كاملاً.

التماس العون والمدد من أبسط جندي هناك، في حين انتم قادة هنا. فهذه الدنيا بما فيها من شهرة وشرف لاتستحق ان تكون متاعاً ترضي كراماً امثالكم، ولاتكون لكم غاية المنى ومبلغ العلم.

رابعـاً: ان هذه الامة الاسلامية مع أن قسماً منهم لايؤدون الصلاة. الاّ انهم يتطلعون ان يكون رؤساؤهم صالحين أتقياء حتى لو كانوا هم فسقة. بل ان اول ما يبادر اهل كردستان – الولايات الشرقية – مسؤوليهم هو سؤالهم عن صلاتهم. فان كانوا مقيمين لها، فبها ونِعمَت ويثقون بهم، والاّ فسيظل الموظف المسؤول موضع شك وارتياب رغم كونه مقتدراً في اداء واجباته. ولقد حدثت في حينه اضطرابات في عشائر «بيت الشباب» فذهبتُ لأستقصي اسبابها، فقالوا: ان كان مسؤولنا «القائمقام» لايقيم الصلاة ويشرب الخمر، فكيف نطيع أوامر أمثال هؤلاء المارقين من الدين؟ هذا علماً ان الذين قالوا هذا الكلام هم انفسهم كانوا لايؤدون الصلاة، بل كانوا قطاع طرق!.

خامساً: ان ظهور اكثر الانبياء في الشرق واغلب الفلاسفة في الغرب رمزٌ للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقوّمه انما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة.. فمادمتم قد أيقظتم الشرق ونبهتموه، فامنحوهم نهجاً ينسجم مع فطرته. والاّ ستذهب مساعيكم هباءاً منثوراً، أو تظل سطحية موقتة.

سادساً: ان خصومكم واعداء الاسلام الأفرنج – ولاسيما الانكليز – قد استغلوا ولايزالون يستغلون اهمالكم امور الدين، حتى استطيع ان اقول: ان الذين يستغلون تهاونكم هذا يضرون بالاسلام بمثل مايضرّ به اعداؤكم – اليونان – فينبغي لكم باسم مصلحة الاسلام وسلامة الأمة تحويل هذا الاهمال الى أعمال. ولقد تبيّن لكم كيف لاقى زعماء الاتحاد والترقي نفوراً وازدراءً من الامة في الداخل رغم مابذلوه من تضحية وفداء وعزم واقدام حتى كانوا سبباً – الى حدٍ ما – في هذه اليقظة الاسلامية، وذلك لعدم اكتراث قسم منهم بالدين وبشعائره، بينما المسلمون في الخارج قد منحوهم التقدير والاحترام لعدم رؤيتهم تهاونهم واهمالهم في الدين.

سابعاً: على الرغم من تمكن عالم الكفر في الاغارة على العالم الاسلامي منذ مدة مديدة فانه لم يتغلب عليه دينياً مع جميع امكاناته وقدراته ووسائله الحضارية وفلسفته وعلمه ومبشريّه. فبقيت الفرق الضالة جميعها – في الداخل – أقلية محكومة. لذا ففي الوقت الذي حافظ الاسلام على صلابته ومتانته بأهل السنة والجماعة لن يتمكن تيار بدعي مترشح من الجانب الخبيث للحضارة الاوروبية، ان يجد سبيلاً الى صدر العالم الاسلامي. اي أن القيام بحركة انقلابية جوهرية لايمكن ان تحدث الاّ بالانقياد لدساتير الاسلام، والاّ فلا. علماً انه لم يحدث مثل هذه الحركة في السابق، ولو كانت قد حدثت فلقد تلاشت سريعاً وأفلت.

ثامناً: ليس بالامكان القيام بعمل ايجابي بنّاء مع التهاون في الدين، حيث اقتربت الحضارة القرآنية من الظهور واوشكت الحضارة الاوربية الضالة المسؤولة عن ضعف الدين على التمزق والانهيار. أما القيام بعمل سلبي فليس الاسلام بحاجة اليه، كفاه ماتعرض له من جروح ومصائب.

تاسعاً: ان الذين يولونكم الحب قلباً ولساناً، ويثمنون خدماتكم وانتصاراتكم في «حرب الاستقلال» هذه، هم جمهور المؤمنين، وبخاصة طبقة العوام، وهم المسلمون الصادقون. فهم يحبونكم بجد، ويعتزون بكم بصدق، ويساندونكم باخلاص، ويقدّرون تضحياتكم، ويمدّونكم بأضخم ماتنبه لديهم من قوة. وانتم بدوركم ينبغي لكم الاتصال بهم والاستناد اليهم اتباعاً لأوامر القرآن الكريم ولأجل مصلحة الاسلام، والاّ فان تفضيل المتجردين من الاسلام والمبتوتي الصلة بالامة من مقلدي اوربا المعجبين بها، وترجيحهم على عامة المسلمين مناف كلياً لمصلحة الاسلام؛ وسيولي العالم الاسلامي وجهه الى جهة اخرى طلباً للمساعدة والعون.

عاشراً: ان كان في طريق تسعة احتمالات للهلاك، واحتمال واحد فقط للنجاة، فلا يسلكها الاّ مجنون طائش لايبالي بحياته.. ففي اداء الفرائض الدينية نجاة بتسع وتسعين بالمائة، علما انه لايستغرق – هذا الاداء – الاّ ساعة واحدة في اليوم، مقابل ما قد يمكن ان يكون احتمال ضرر واحد فقط يصيب الدنيا ومن حيث الغفلة والكسل. بينما اهمال الفرائض وتركها فيه احتمال تسع وتسعين بالمائة من الضرر مقابل واحد بالمائة من احتمال النجاة من حيث الغفلة والضلالة.. فياترى ايّ مسوّغ

وايّ مبرر يمكن ابتداعه في ترك الفرائض الذي يصيب ضرره الدين والدنيا معاً؟ وكيف تسمح حمية الفرد ونخوته بذلك التهاون؟

ان تصرفات هذه القافلة المجاهدة من أعضاء هذا المجلس العالي بالغة الأهمية، إذ إنها سوف تُقلّد.. فالامة إما أنها تقلّد أخطاءهم او تنتقدها، وكلاهما مليء بالاضرار والاخطار. اي أن تمسكهم بحقوق الله وتوجههم لأداء الفرائض يتضمن حقوق العباد ايضاً.

ان عملاً جاداً لاينجز مع اولئك الذين يرضون بأوهام براقة نابعة من سفسطة النفس ووسوسة الشيطان ويصمّون اذانهم عن البلاغ المبين والبراهين الساطعة بالتواتر والاجماع.. ألا إن الحجر الاساس لهذا الانقلاب العظيم يجب ان يكون متيناً صلداً.

ان الشخصية المعنوية لهذا المجلس العالي قد تعهدت معنى «السلطنة» بما تتمتع به من قوة، فان لم يتعهد – هذا البرلمان – معنى «الخلافة» وكالةً ايضاً ولم يقم بامتثال الشعائر الاسلامية ولم يأمر الآخرين بالقيام بها، اي اذا اخفق في تقديم «معنى الخلافة» ولم يستوف حاجة الأمة الدينية – هذه الامة التي لم تفسد فطرتها والمحتاجة الى الدين اكثر من حاجتها لوسائل العيش – والتي لم تَنس حاجتها الروحية تحت كل ضغوط المدنية الحاضرة ولهوها، فانها تضطر الى منح معنى الخلافة الى ما ارتضيتموه – تماماً – من اسم ولفظ. فتمنح له القوة والاسناد ايضاً لإدامة ذلك المعنى. والحال ان مثل هذه القوة التي ليست بيد المجلس ولا تأتي عن طريقه تسبب الانشقاق، وشق عصا الطاعة يناقض امر القرآن الكريم الذي يقول:

﴿واعتَصموا بِحَبلِ الله جَميعاً ولا تَفرّقوا﴾(١)

ان هذا العصر عصر الجماعة، اذ الشخصية المعنوية – التي هي روح الجماعة – اثبت وامتن من شخصية الفرد. وهي اكثر استطاعة على تنفيذ الاحكام الشرعية. فشخصية الخليفة تتمكن من القيام بوظائفها استناداً الى هذه الروح المعنوية. ان

(١) آل عمران: ١٠٣

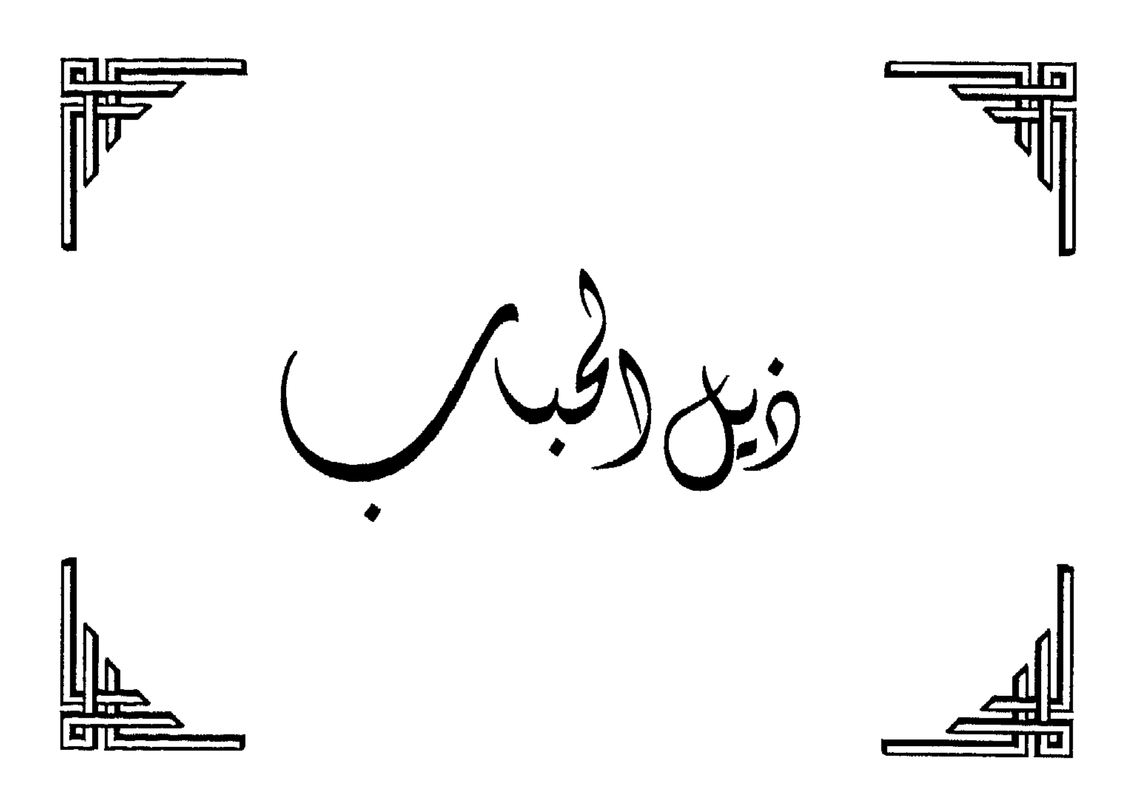
الشخصية المعنوية تعكس روح العامة فان كانت مستقيمة فان اشراقها وتألقها يكون أسطع وألمع من شخصية الفرد، اما ان كانت فاسدة فان فسادها يستشري وفق ذلك. فالشر والخير محددان في الفرد، بينما لايحدهما حدود في الجماعة. فأياكم ان تمحقوا المحاسن التي نلتموها تجاه الخارج بابدالها شروراً في الداخل.

انتم اعلم بأن اعداءكم الدائميين وخصومكم يحاولون تدمير شعائر الاسلام، مما يستوجب عليكم احياء هذه الشعائر والمحافظة عليها. وإلاّ فستُعينون – بغير شعورٍ منكم – العدو المتحفز للانقضاض عليكم.

ان التهاون في تطبيق الشعائر الدينية يفضي الى ضعف الامة، والضعف يُغرى العدو فيكم ويشجعه عليكم ولا يوقفه عند حدّه.

حسبنا الله ونعم الوكيل.. نعم المولى ونعم النصير.

* * *



مَن كان لله كان له كل شئ..

ومَن لم يكن له، يكن عليه كلُّ شئ.

والكونُ له بتركِ الكلّ له والاذعانِ بأن الكلَّ مالهُ ومنه واليه..

في (ط١)

افادة مرام

ياايها الناظر في رسائلي العربية الثمان!(١)

إني اول ماكتبتُها، ماكتبتُ الاّ لنفسي، ثم تخطرتُ ان هذه النعمة من شُكرها نشرُها، لعل ان ينتفع بها أناسٌ. ثم بعد تكرار النظر فيها تفطنت فيها سراً ترددتُ في اظهاره من زمان ، ولكن أحسّ في قلبي الآن سائقاً لإظهاره، وهو:

انه أرى مسائل تلك الرسائل وسائلَ وسلالم.. للصعود الى الزنابيل النورانية المتدلّية من عرش الرحمن التي هي الآيات الفرقانية. فما من مسألةٍ منها الاّ ويماسّ رأسُها قدمَ آيةٍ من الفرقان. فمسائلها وإن حصلت لي اول ماحصلت شهودية وحدسية وذوقيةً، لكن لدخولي في صحراء الجنون مع رفاقة عقلي مفتوح الجفون — فيما يغمض فيه ذوي الابصار — لفّ عقلي على عادته مارآه قلبي في مقاييسه ووزنه بموازينه واستمسكه ببراهينه.. صارت مسائل هذه الرسائل من هذه الجهة كأنها مبرهنة استدلالية.

فيمكن لمن ضلّ من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها مايُنجيه من مزالق الافكار الفلسفية.

بل يمكن ان يستخرج منها بالتهذيب والتنظيم والايضاح عقائد إيمانية وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لردّ ضلالات أفكار هذا الزمان.

بل يمكن لمن اختلط عقلهُ بقلبه، او إلتحق قلبهُ بعقله المتشتت في آفاق الكثرة ان يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينةً أمينة يسلك فيها تحت ارشاد القرآن الكريم.. كيف لا، وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو الاّ من فيض القرآن..

ولله الحمد كان القرآن هو مرشدي واستاذي في هذا الطريق.

نعم! مَن استمسكَ به استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها.

* * *

(١) وهي: قطرة وذيلها، ذرة، شمة، حبة وذيلها، حباب وذيله، ويلحق بها: نقطة وشعاعات ولمعات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تقدست عن الاشباه ذاتهُ، وتنزّهت عن مشابهة الامثال صفاتُه، الخلاّق الذي؛ ذاك العالمُ الكبير ابداعهُ.. وهذا العالمُ الصغير «اي الانسان» ايجادهُ.. وذا انشاؤه وهذا بناؤه.. وذا صنعتهُ وهذا صبغتهُ.. وذا نقشه وهذا زينتهُ.. وذا رحمتهُ وهذا نعمته.. وذا قدرتهُ وهذا حكمته.. وذا عظمتهُ وهذا ربوبيتهُ وذا مخلوقهُ وهذا مصنوعهُ.. وذا ملكهُ وهذا مملوكهُ.. وذا مسجدهُ وهذا عبده.. وعلى جوانبهما بل على كلّ جزءٍ منهما سكتهُ الناطقة بان الكلّ مالهُ..

اللّهم يا قيومَ الارض والسماء إنّا نُشهدك ونُشهدُ حَملَة عرشكَ وملائكتك بشهادة جميع انبيائكَ واوليائك وآياتك وجميع مصنوعاتك وجميع خلقك بانك انت الله لا إلهَ الاّ انت وحدك لاشريكَ لك، ونستغفركَ ونتوب اليك ونشهد ان محمداً عبدك ورسولك، ارسلتَهُ رحمةً للعالمين..

اللّهمَ صلِّ عليه كما يناسب حرمته وكما يليقُ برحمتك وعلى آله وصحبه اجمعين..

اعلم! ان ما انعم الله عليك من وجودك وتوابعه، ما هو الا اباحة وليس بتمليك. فلك ان تتصرَّف فيما اعطاكَ كما يرضى مَن أعطى، لا كما ترضى انت. كمن أضاف احداً، ليس للضيف ان يُسرف او يَصرف فيما لا اذن للمضيِّف فيه..

اعلم! يامن يستغرب الحشر الاعظم ويستبعده! ألا تنظر الى ما بين يديك مما لايحصى من انواع الحشر والنشر والقيامات الخصوصية! وكيف تستبعد القيامة الكبرى مع مشاهدة مالايحد من القيامات في كل سنة، حتى في كل شجرة مثمرة او مزهرة؟ وان شئت اليقين الشهودي، فاذهب مع عقلك في آخر الربيع والصيف الى تحت شجرة التوت او المشمش، مثلا.. وانظر كيف حُشرت ونُشرت هذه الثمرات الحلوة الحية.. والمخلوقات الطرية اللطيفة النظيفة. كأنها اعيانُ الثمرات اللاتي ماتت في السنة الخالية. فهؤلاء الثمرات المنشورة المنثورة اللاتي يضحكن في وجهك، ما هي الاّ اخوات الميتات الخاليات وامثالها كأنها هي. ولو كانت لها «الوحدة الروحية» كالانسان كانت هي إياها، اي عينُها، لامثلها!.. ثم تأمل في الشجرة مع يبسها وجمودها وحقارتها وصغرها، مع ضيق مجاريها واشتباك مسيل حَمَلة ارزاق الازهار والاثمار.. كيف صارت تلك الشجرة برأسها عالَماً عجيباً، يصور للمدقق تمثال ﴿ **وإذا القُبورُ بُعثِرَت** ﴾[1]. الحق ان القدرة التي تنشر من الشجرة اليابسة هذه المصنوعات اللطيفة لايتعسر عليها شئ ما في الامكان. آمنا..

اعلم! ان تضمين كلِّ سورةٍ سورةٍ من القرآن مجمل ما في كل القرآن وسائر السور من المقاصد واهم القصص، لأجل ان لايحرمَ من يقرأ سورة فقط عما أُنزلَ له التنزيل؛ اذ في المكلفين الاميّ او الغبيُّ، ومَن لايتيسر له الاّ قراءة سورةٍ قصيرة فقط، فمن هذه اللمعة الاعجازية تصير السورةُ قرآناً تاماً لمن قرأها..

اعلم! ان الواحد المتصرف في الكثير لايلزم ان يكون مباشراً مخالطاً متداخلاً فيما بينهم؛ لاسيما اذا كان مباين الماهية، ولاسيما اذا كان غير مادي ولا ممكنٍ، بخلاف الكثير. والفاعلُ الكثير - كفعل الامير في النفرات - يحصل بالارادة والامر بدون الاختلاط والمعالجة. ولو احيلت وظائف الامارة وافاعيلها على النفرات، لَزِمت المباشرة الذاتية والمعالجة، او انقلاب النفرات الى ماهية الامير. فالحق سبحانه مع غاية

(١) الانفطار: ٤

تقدّسه وتنزّهه وعلوّه وعظمته، ونهاية بُعدنا وخساستنا، يتصرف فينا كما يشاء. وهو سبحانه كالشمس قريبٌ منا.. ونحن بعيدون منه جل جلاله..

اعلم! ان الكثرة تنجر الى الوحدة بجهة صيرورة الجزء انموذج الكل، كالشجرة الى الثمرة؛ فيصير الكل كالكلي، والجزء كالجزئي كضياء الشمس المنبسط في الفضاء، اذ قد تضمن كلٌّ من ذرات ذلك الضياء لتمثالٍ من تماثيل الشمس، كأن الذرات المهتزة شُميساتٌ اتصلت فصارت ضياء مثلاً: ﴿ولله المَثل الأعلى﴾.. هكذا تجليات اسماء نور الانوار الازلي فتجلي اسماء الله يُرى بهذين الوجهين كلاً وكلياً..

اعلم! يامن اطمأن بالدنيا وسكن اليها!.. ان مَثَلكَ كمثل من يتدحرج ساقطاً من اعلى قصر، يتدحرج ذلك القصر في سيلٍ، يتساقط ذلك السيل من أعالي جبل، يتدحرج ذلك الجبل متنازلاً بالزلزلة الى اعماق الارض.. اذ قصر الحياة ينهدم، وطائر العمر يمرّ كالبرق اوشك ان يبيّضك في وكر القبر، وسيلُ الزمان تسرع دواليبه بدرجة تُدهش العقول، وسفينة الارض تمرّ مرّ السحاب. فمن كان في (شمندوفر)[1] يسرع سرعة شديدة، ثم مدَّ يدَه – في وسط الطريق وفي آن السرعة – الى ازاهير ذات اشواك مفترسة في جانب الطريق، فمزّقت الاشواكُ يده.. فلا يلومنّ الا نفسه. فاذا كان هذا هكذا.. فلا تمدنّ عينيك ولايديك الى زهرة الدنيا، فان اشواكَ الآم الفراق تمزّق القلوب في آنِ التلاقي؛ فكيف بوقت الفراق!

فيا نفسي الامارة بالسوء! اعبدي مَن شئت وادّعي ماشئت.. وأما انا فلا اعبدُ الاّ الذي فطرني واقتَدَر على ان سخر لي الشمس والقمر والارض والشجر، ولااستمدُّ الا ممن حَملني في طيارة العمر السابح في فضاء محيط القَدر، وسخّر لي الفلكَ الدائر الطائر بين النجوم السيارات، وأركبني في (شمندوفر) الزمان المار كالبرق في اخدود الارض وتحت جبل الحياة الى باب القبر في طريق ابد الآباد.. وانا قاعد باذنه وتذكرته في (واغون)[2] هذا اليوم المتصل طرفاه بحلقتي الامس والغد.. ولا ادعو ولا استغيث الاّ مَن يقتدر على توقيف (چرخ الفَلَك)[3] المحرك ظاهراً لفُلكِ

(١) اي: القطار، وتوضيح المسألة في الكلمة الثالثة والعشرين.

(٢) عربة من القطار.

(٣) دولاب العالم، اي المقدرات.

الارض.. وعلى تسكين حركة الزمان بجمع الشمس والقمر.. وعلى تثبيت هذه الدنيا المتغيرة المتدحرجة من شواهق الوجود في اعماق أودية الفناء والزوال بتبديل الارض غير الارض؛ اذ لي آمال ومقاصد متعلقة بكل شئ، تبقى آمالي ملتزقة على مايمر عليه الزمان، وتذهب عليه الارض وتفارقه الدنيا، ولي علاقة ولذة بسعادة كل صالح من اهل السموات والارض. ولا اعبد الاّ مَن هو؛ كما يسمع ادقّ هواجس سري ويصلح لي ارق آمال قلبي وميوله.. كذلك يقتدر مع ذلك على ما يتمناه عقلي وخيالي من تحصيل السعادة الابدية لنوع البشر باقامة القيامة وتقليب الدنيا بالآخرة؛ فيصل يدهُ الى الذرة والى الشمس، فلا تتصاغر الذرةُ مختفية عن تصرفه، ولايتكبر كبر الشمس على قدرته.. اذ هو الذي اذا عرفتَه انقلبت لك الآلامُ لذائذَ، وبدونه تُنتج العلومُ اوهاماً.. والحِكَمُ اسقاماً.. بل هي هي.

نعم وبدون نوره تبكي الوجودات لك اعداماً، والانوار ظلمات، والاحياء امواتاً، واللذائذ آلاماً وآثاماً، ويصيرُ الأودّاء بل الاشياء اعداء، وما البقاء بدونه الاّ بلاء، والكمال هباء، والعمر هواء، والحياة عذاب، والعقل عقاب، وتبكي الآمالُ آلاماً..

مَن كان لله تعالى كان له كل شئ، ومَن لم يكن له كان عليه كل شئ، والكون له بترك الكل له والاذعان بأن الكلّ مالُه.. وهو الذي فطرك بصورة احاطت بك دوائرُ متداخلة من الحاجات وجهّزك في اصغرها التي نصف قطرها مدّ يدك باقتدار واختيار. وجهّزك في البواقي التي وُسعت بعضها كما بين الازل والابد والفرش والعرش بالدعاء فقط.. وفي التنزيل ﴿**قُل مَا يَعبؤا بِكُم ربي لَولاَ دُعاؤكم**﴾(١) فالصبي ينادي ابويه فيما لايصل يدهُ اليه؛ فالعبد يدعو ربَّه فيما عجز عنه.

اعلم! ان كمال صنعة كل شئ واتقانها، ما هو الاّ من سر الوحدة. ولولا الوحدة بلا توزيع وبلا تجزؤ وبلا تزاحم لتفاوَتَت المصنوعات. كوحدة الشمس ووجودها بالتجلي في كل مامسه ضياؤها.. من ذرةٍ شفافة الى وجه البحر، ولا يشغلها شئ عن شئ. فهذا السر تشاهده في هذه الشمس الممكنة المسكينة المقيدة المحدودة الجامدة الميتة التي هي قطرة متلمعةٌ بتجلي شعلةٍ من اسم النور الحق. فكيف شمس الأزل والسلطان الابد والقيوم السرمد الواجب الوجود الواحد الأحد الحي القدير

(١) الفرقان : ٧٧

الصمد جل جلاله؟. ﴿ولله المثل الاعلى﴾ فوحدة الضياء المحيط تشير الى الواحدية، ووجود الشمس بخاصيتها بالتجلي في كل جزء وذرة من ذلك الضياء المحيط يرمز الى الأحدية. فتأمل!.

اعلم! ان من اصدق شواهد الاحدية:

«الوحدةُ في كل شئ» من ذرات حجيرة من عينك، الى وحدة العالم.

و«الاتقان الاكمل في كل شئ» بما تَسَعه لـياقة قابليته المجعولة بقلم القضاء وقالب القدر.

و«السهولة المطلقة في انشاء كل شئ وايجاده». وان السهولة المطلقة تدل على ان وجود الصانع ليس من جنس وجود المصنوع، بل لابد ان يكون اثبت وأرسخ منه بما لايتناهى.

اعلم! ان الارض تعطيكم وتبيعكم متاعها والمال الذي في يدها، رخيصاً بنهاية الرخيصية. فلو كان المتاع مالها او نسجَ الاسباب الامكانية، لما اشتريتم رمانةً فردةً بجميع ماتصرفون، لاستحصال جميع ماتأخذونه من جميع الارض بايادي اشجارها ومزارعها؛ اذ يرى في كل حبةٍ ان صانعها اهتم بها واتقن فيها بنهاية الاتقان وغاية التزيين، وجَمع فيها ما جمع بشعور تام، ومهارة حكيمة، وجهّزها بلطائف اللّون والطعمِ والرائحة لجلب انظار المشترين. فلو لم تكن هي مصنوعةُ مَن لا كلفةَ ولا معالجةَ ولا مباشرة في صنعه وايجاده حتى تتساوى بالنسبة الى قدرته الحبةُ والحديقةُ والفردةُ الفذةُ وكل النوعِ والذرة والشمس.. لما كان هذا هكذا بلا ريب وبالبداهة وبالحدس القطعي؛ اذ لابد ان يكون صانع هذه الحبّات العنبية والرمانية المصنوعة ظاهراً لتطمين ذوقٍ موقت وهَوَس جزئي لبعض الحشرات والحيوانات، إما مسلوب الشعور ومفقود الحس وعديم الارادة بلا علم وبلا اختيار وبلا كمال، ليكون هذا هكذا رخيصاً تافهاً مبذولاً؛ والحال ان الصنعة الشعورية المتقنة الحكيمة المختارة تكذّب هذا الفرض اشد تكذيب.. وإما واجب الوجود: قدير، مريد، عليم، حكيم، بيده ملكوت كل شئ ﴿انّمَا امرُهُ اذا أرادَ شيئاً انْ يقولَ لهُ كُنْ فيكون﴾(١) ﴿مَا خلقُكُم ولا بَعثُكم الاّ كنفسٍ واحدةٍ﴾(٢) بالنسبة اليه. وله في

(١) يس : ٨٢

(٢) لقمان : ٢٨

كل مصنوع حِكَمٌ وغايات تنظر الى تجليات اسمائه والى اسرارٍ له في الفعالية الشؤونية، غير ما يعود الى المستهلكين من الفوائد الجزئية. فلايمكن ان يكون منشأ هذا الفيض العامْ قوّة عمياء تسيل منها هذه الثمرات كالسيل، ثم تلعب بها يد التصادفات والاتفاقيات؛ اذ تشخصاتها المنتظمة الحكيمة وخصوصياتها المتقنة الشعورية تردّ يد التصادف الاعمى والاتفاقية العوراء رداً قطعياً يقيناً. فبالضرورة تدل هذه الرخيصية المبذولة والسهولة نوعاً وكمّاً، والاتقان والاقتصاد فرداً وشخصاً وكيفاً، وتشهد على الجود المطلق من الجواد المطلق والحكيم المطلق والقدير المطلق جلّ جلالُه وعمّ نوالُه وشمل احسانه.

فسبحان مَن جَمع نهاية الجود المطلق مع نهاية الحكمة المتقصدة، وادرج الفيض المطلق الغير المحدود في ظروف النظام التام والميزان الحساس والعدل العادل.. الحساسة — تلك الثالثة — بدرجة: تجبر الفيل لمدافعة الذباب العاض على ذرة من جسمه الجسيم، وتقلق هذا الانسان المتكبر، الذي يحكّ بيافوخه[١] كتف السماء بطعن البعوض «رُميحته» فيتشمر لمقاتلته ﴿ضَعُفَ الطالبُ والمَطلوب﴾[٢].. ويسكن غضبُ البحر ويسكت غيظُ العاصفات وتسكن حدةُ البرودة بدعاءٍ خفيٍ من قلب منكسر لصبيّ نجا على لوح منكسر في البحر اللجيّ.. ﴿أمَّنْ يُجيبُ المُضطرَّ اذا دَعاه﴾[٣] يجيبه مَن يسمع هواجس القلب والسر ويحكم على حركات الشمس والقمر، جلّ سلطانه..

اعلم! يا ايها المبتلى بالاسباب، ان خلق السبب وتقدير سببيته وتجهيزه بلوازم انشاء المسبَّب، ليس باسهل وأولى واكمل وأعلى من خلق المسبَّب عند السبب بامر (كن) ممن يتساوى بالنسبة اليه الذراتُ والشموسُ..

اعلم! ياقلبي ان مايُرى ملء الدنيا من آلام الأعدام، انما هي تجدّد الامثال، ففي الفراق مع وجود الايمان توجد لذة التجدد دون ألم الزوال. فآمِن تُؤمَن، وأسْلِم تسلَم.

---

(١) مثل يضرب على التكبر.
(٢) الحج: ٧٣
(٣) النمل: ٦٢

اعلم! ان العصبيـة العنصرية الجاهلية، ماهي الاّ الغفلة المتسـاندة المتصالبة، والاّ الضلالة والرياء والظلم المتجاوبة المتعاونة.. فيصـير الخلقُ وملّتهُ كمعبوده العياذ بالله.. واما الحمية الاسلامية فهي النور المهتز المنعكس من ضياء الايمان..

اعلم! يامن يشتـغل بالمناظرة مع الملحـدينِ والمتـشككين والمقلدين للزنادقـة الأوروپائيين! انك علـى خطر عظيم إن كـانت نفـسكُ غيـر مـزكـاة، لاجل إلتحـاق نفسك سراً وتدريجـاً من حـيث لاتشعـر بخـصمـائك.. على ان المناظرة بالانصـاف المسمى بالتـركي (بي طرفانه محاكـمه)[1] اشـد خطراً على ذي النفس الامـارة؛ اذ بكثرة تكرار فرضِ المنصف نفسَه في موقع الخصم يقيمُ في ذهنه خصماً خيالياً فيتولد منه في دماغه «لُمةَ تنقيدٍ» تصيرُ وكيل خصمـه داخلاً، فيتعـشش الشيطان في تلك اللمة..

لكن لاتيـأس ان كانت نيتُك خـالصة. فـاذا أحسَستَ بهـذا الحال فاصـرف عنان الجهاد الى عدوك الاكبر الداخلي، وعليك بكثرة التضرع والاستغفار..

اعلم! ان الآلات الجامدة والحـيوانات وجهلة العَملة المسـتخدمة في بناء قـصر عجيب لسلطان عظيم، وترسيم نقـوشه، يعلم كلٌّ مَن رآها انهـا «لا تعمل بحـساب انفسها بل بحساب من يستخدمها» في مقاصده العالية الواسعة واغراضه الرقيقة التي تتـقاصـر عن ادراكـها افـكارُ خواص العلمـاء، فكيف بجَهلَة الـعوام وبهـيـمة الانعـام وجامـدات الاقلام.. كـذلك من امعن في جلوات الازاهيـر وتوددداتها وتحـبباتها الى انظار ذوي الحـياة تيـقَّن: ان الازاهير مـوظفـون – من جانب حكيمٍ كـريمٍ – بالخدمـة والتودد لضيفان ذلك الكريم النازلين بإذنه في أرضه، وكذلك الحيوانات.

نعم اين حس الزهرة وشعـور البهـيـمة، واين درك غـايات نقـوش الحكَم ولطائف محاسن الكرم المودعة في جلوات الازاهير بتزييناتهـا، وتطورات الأنعام بمنافعها؟ فما هذه الحالات الا تعـرُّف ربٍ كريم وتودُده وتحببـه الى عبـاده وضيوفه جلّ جلاله وعمَّ نواله وشمل احسانُه..

اعلم! ايتها النفس المشؤومـة! انك تطلبين كلَّ لوازمات المراتب المختلفة في كل مـرتبةٍ، وحـاجاتِ كل الحـواس في حاجـة كل حسٍ، واذواق كل اللطائف في درجـة كل لطيفةٍ، وشعاعَات كـل الاسماء الحسنى في كلّ اسمٍ، وعظمةَ المؤثر خلف كل أثرٍ

(١) اي المناظرة الموضوعية الحيادية والمنصفة.

ومصنوعٍ، وخواصَ المعنى الخارجي في المدلول الظلي،[١] بل في الدال. فاطلبي من كلٍ مايليق به ومايَسَعه لئلا تستهوي بك الاوهامُ..

اعلم! انه لابد اذا رأيت نفسَك بعظمتها ان تنظر الى ما هو اعظم منك من السموات وغيرها، واذا رأيت ما هو اصغر منك من الهوام والحشرات فانظر الى حجيرات جسدك وادخل مع نظرك في حجيرة منها، ثم انظر اليها حتى ترى البعوضة فما فوقها اكبر منك، لئلا يسقط في عينك اهمية الحِكمة والرحمة والنعمة واتقان الصنعة فيك. واذا رأيت الغير الغير المحدود المماثلين لك في النِعم، فانظر الى احتياجك وعَجز نفسك وحكمة النعمة، لئلا تهون عندك قيمة نعمتك.

نعم، هل يخفّف احتياجك الى العين وجودُ العين في عموم الحيوان؟. ام هل ينقص الشمول اثر القصدوالانعام الخاص؟ كلا، بل يشدّه ويزيده..

اعلم! ان الحياة في كل ذي حياة لها غايات لاتعد ولاتحصى، يعود الى الحي واحدٌ والى المحيي بمقدار مالكيته الغير المتناهية؛ ولاحق للكبير أن يتكبر على الصغير في الخلقة، ولاعبثية في الواقع، وانما هي في نظر البشر النفسي الغرور الذي يزعم ويرى ان الاشياء كلها لاجل منافعه وهوساته. ويحسب ان لاغاية لها غير مايعود اليه.. نعم، هذه الضيافة المفروشة على ظهر الارض اكرامٌ للبشر بسرّ الخلافة وبشرط استحصال لياقة الكرامة.. لا لَهُ ولإستفادته فقط.

اعلم! انه اذا قال لك الموسوس: ما انت الاّ حيوان مما لايحد من الحيوانات، والنمل اخوك والنحلة اختك، فاين انت واين مَن يَطوي السّماء ﴿ **كَطيِّ السِّجلِّ للكُتبِ** ﴾[٢] ﴿ **والارضُ جَميعاً قَبضتُهُ يَومَ القيامَة والسّمواتُ مطويَّاتٌ بيمينه** ﴾[٣]؟

فقل له: ان عدم تناهي عجزي وفقري وذلي، مع علمي الاذعاني به يصيرُ مرآةً لعدم تناهي قدرته وغنائه وعزته. فهذا السر رقّاني من مرتبة اخواني الحيوانات. وان

---

(١) المعاني المتولدة في الذهن (ت: ١٠٣)

(٢) الانبياء: ١٠٤

(٣) الزمر: ٦٧

من لوازم كـمال عظمـتـه واحاطة قـدرته ان يسـمع ندائي ويرى حـاجاتي ولايُشـغله تدبير الارض والسموات عن تدبير شؤوني الحقيرة.

واما تبـاعد الانسـان والممكـن بدرجة عظـمتـه عن الاشـتـغال بجزئيـات الامـور وخسائسها، فليس من عظمته.. بل انّما ينشأ من عجزه ونقصه وضعفه. أفلا تشاهد كل حَباب بل كل رشاشة من القطرات والذرات الزجاجية، تشتمل على تمثال الشمس، لو تكلّمت تلك لقالت كلٌ منها: الشمس لي وعندي وفيّ ومعي.. وما يزاحم تلك الذرات في المناسبة مع الشمس لاعيون السيارات ولاخدود البحور ولاعظمة الشمس، بل بدرجة علمنا بعدم تناهي فقرنا وحقارتنا تتزايد القربة ـ والمناسبة بعدم المناسبة[1] ـ فما ألطف مناسبة من لايتناهى في فقره وعجزه، مع من لانهاية لغناه وقدرته وعزته وعظمته!.

فسبحان مَن ادرج نهاية اللطف في نهاية العظمة، وغاية الرأفة في غاية الجبروت، وجَمعَ نهاية القُرب مع غاية البُعد. وآخى بين الذرات والشموس، فأظهر قدرته بجمع الأضداد! ..

فانظر كيف لاتُشغلهُ حشمة تدبير الارض والسموات عن لطافة تربية الهوام والحشرات، ولايعوقه تدبير البر والبحر عن ايجاد اصغر النحل والطير وعن احياء صغار السماك في اعماق البحور، ولاتزاحمه شدةُ عاصفات البر وحدّة غضب البحر عن كمال لطفه واحسانه الى اخفى واضعف واعجز واصغر حيوان ساكنٍ في اخفى مكان، متوكلاً تحت ظلمات كثافة البحر وغياهب امواجه وتفاقم ارتجاجاته، وظلمة الليل وظلمات سحابه..

فتبسم الرحمة في خلال غضب البحر وخلف وجهه العبوس القمطرير؛ اذ ينادي هذا البحر بنغماته الواسعة: ياعظيم، ياجليل، ياكبير، ياالله.. سبحانك ما اعظم كبرياءك. فيقابله ذلك الحيوان الصغير بترنّماته الخفية: يا لطيف، يا كريم، يا رزاق، يا رحيم، يا الله.. سبحانك ما الطف احسانك. ففي اقتران هذين الذكرين، وامتزاج هذين التسبيحين حشمةٌ لطيفة ولطافة محتشمة وعبودية عالية للواحد الاحد الصمد جل جلاله وعمّ نواله..

(١) اي مع عدم المناسبة.

اعلم! ان الاهم الألزم بعد علوم الايمان، انما هو العمل الصالح؛ اذ القرآن الحكيم يقول على الدوام: ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾.

نعم هذا العمر القصير لايكفي الاّ لما هو أهمّ.. واما العلوم الكونية المأخوذة من الاجانب فمضرة؛[1] الا للضرورة وللحاجات وللصنعة واستراحة البشر..

اللّهم يا ارحم الراحمين.

ارحم امة محمد ﷺ ونوّر قلوب امة محمد ﷺ

بنور الايمان والقرآن..

ونوّر برهان القرآن..

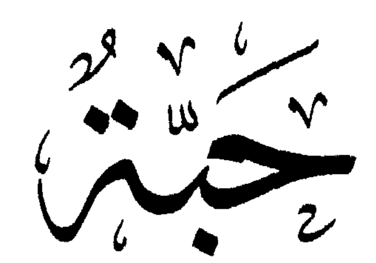
وعظّم شريعة الاسلام.

آمـيـــن..

* * *

(١) ان كانت تفضي الى السفاهة والفساد (ت: ١٠٥)

الرسالة السادسة



من نواتات ثمرة من ثمرات

جنان القرآن

حبة مى كويد :

من شاخ درختم پراز ميوهء توحيد   يك شبنمم أزيم پر از لئلؤ تمجيد (١)

---

(١) [[الحبة تقول: انني غصنُ شجرةٍ مثقلٌ بثمرة التوحيد   وقطرةُ ندىً من البحر الزاخر بلؤلؤ التمجيد.]]

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «اوقاف اسلامية» باستانبول سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م)

في (ط ١)

افادة المرام

اعلم ! انه قيل لي ان الناس يقولون: لا نفهم كثيراً مما في آثاره فتصير ضايعة .

فأقول: لا تضيع باذنه تعالى . وسيجئ زمان يفهمها اكثر المتفكرين المتدينين ان شاء من بيده مقاليد كل شئ؛ اذ اكثر هذه المسائل ادوية جربتها في نفسي اعطانيها الفرقان الحكيم ، لكن يمكن ان لا يفهمها الناس كما أفهمها بتمامها! لان نفسي – بسوء اختيارها – من الرأس الى القدم ملمعة بالجروح المتنوعة ، فالسليمُ بحياة القلب لا يفهم درجة تأثير الترياق في السقيم بلدغ حية الهوى كما يفهمه هو ...

وايضا اني لا أتصرف في السانحات للتوضيح؛ عجزاً من التحرير او خوفاً من التغيير . فأكتبها كما سنحت...

وايضاً اتكلم في مكاني ، لا في مقام السامع المواجه لي – خلافاً لسائر المتكلمين الذين يفرضون انفسهم في مقام المسامعين – فيصير امام كتابي (الذي) وجههُ اليّ، ومعكوسه ومقلوبه الى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فاذا لا اذهب الى مقامه، فليرسل هو خياله اليّ لأضيفه على عيني ، في رأسي كي يرى كما أرى.

أدرجتُ في «نقطة وقطرة وذيلها وذرة وشمة وحبة» تفاريق حدسيات ، وقطعات مرآة اذا جاء باذنه تعالي من يركّبها ، بتحرير وتصوير، تظهر مرآة يظهر فيها وجه عين اليقين ويتحصل حدسٌ يزهر منه نور حق اليقين .. كيف لا ، وهو من فيض القرآن المبين!

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

آمـيـــــن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على دين الاسلام وكمال الايمان والصلاة والسلام على محمّد الذي هو مركز دائرة الاسلام ومنبع انوار الايمان وعلى آله وصحبه اجمعين مادام المَلَوان[1] ومادار القمران.[2]

اعلم ! أنه بينما ترى العالم كتاباً كبيراً ترى نور محمد «عليه الصلاة والسلام» مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه «عليه الصلاة والسلام» نواتها أولاً، وثمرتها ثانياً.. وبينما ترى العالم يلبس جسم الحيوان[3] ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» روحه.. وبينما ترى العالم تحوّل انساناً كبيراً ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» عندليبه.. وبينما ترى العالم قصراً مزيناً عالياً ذا سرادقات تتظاهر فيها شعشعة سلطنة سلطان الازل وخوارق حشمته، ومحاسن تجليات جماله، ونقوش خوارق صنعته، اذاً ترى نوره «عليه الصلاة والسلام» نظّاراً يرى لنفسه أولاً، ثم ينادي بيا ايها الناس تعالوا الى هذه المناظر النزيهة، وحَيهلوا[4] على مالَكُم فيه شئ من المحبة والحيرة والتنزه والتقدير، والتنور والتفكر ومالايحد من المطالب العالية. ويريها الناس، ويشاهِد ويشهَد لهم.. يتحير ويُحيّرهم.. يُحب ويُحبّبُ مالِكه اليهم.. يستضيئ ويُضئ لهم.. يستفيض ويفيض عليهم..

اعلم ! ان الانسان ثمرةُ شجرة الخِلقة. والثمرةُ تكون اكمل الاجزاء وأبعدها من الجرثوم، واجمعها لخصائص الكل.. وهي التي من شأنها ان تبقى وتُستَبقى.

---

(١) الليل والنهار، الواحد ملاً.

(٢) الشمس والقمر.

(٣) اي: لو افترض العالم كائناً مجسماً ذا حياة ترى.. (ت: ١٩٦)

(٤) حيهلوا: اسم فعل بمعنى أقبلوا وعجّلوا وهلمّوا.

ومن الانسان مَن هو نواةٌ انبتَ القديرُ جل شأنه منها تلك الشجرة.. ثم صيّر الفاطرُ جل جلالُه ذلك الانسانَ ثمرةَ تلك الشجرة.. ثم جعل الرحمنُ تلك الثمرة النورانية نواةً لشجرة الاسلامية.. وسراجاً لعالمها.. وشمساً لمنظومتها..

وانه لابد في الثمرة من نواةٍ تشتمل بالقوة على لوازمات شجرةٍ هي مثل اصلها. واصغريةُ النواةِ لاتنافي اعظمية الشجرة، كنواة شجرة التينة..

وان في الانسان حبةً، لو كان الانسانُ ثمرةً، لكانت تلك الحبة نواتهُ، ألا وهي القلب..

فقد رأيت فيه بواسطة الاحتياج علاقاتٍ الى انواع العالَم، بل الى اجزائها.. وارتباطاتٍ الى جميع انوار الاسمآء الحسنى باحتياج شديد وفقر عظيم لتجلي فردٍ فردٍ منها.. حتى كأن له حاجات عددَ اجزاء العالَم، وله اعداء ملء الدنيا.. فما يطمئن الا بمَن يقتدر ان يُغنيه عن كل شئ، ويحفظه من كل شئ..

ورأيت فيه ايضاً قابلية تمثل مجموع العالم كالخريطة والفهرستة والانموذج والتمثال.. وان المركز فيه لايقبل الاّ الواحد الأحد.. ولايرضى الاّ بالابد والسرمد.. فهذه النواة وهي حبة القلب – ماؤه الاسلام وضياؤه الايمان – فان اطمأنتْ تحت تراب العبودية والاخلاص، وسُقيت بالاسلام، وانتبهتْ بالايمان، انبتت شجرةً نورانيةً مثاليةً من عالم الامر هي روحٌ لعالمه الجسماني. وان لم تُسق بقت نواةً يابسةً منكمشة لائقة للاحراق بالنار الى ان تنقلب الى النور.

وكم في النواة من اعصابٍ رقيقة واشياء دقيقة لايُبالي بها، وتُرى اقلُّ من ان يُهتَمّ بها، الا ان لكلٍ منها – اذا انكشفت النواة – وظيفةً مهمةً بحشمة وعظمة.. كذلك لحبة القلب خدّامٌ كامنة نائمة اذا انتبهتْ وانبسطتْ بحياة القلب يجولون في بساتين الكائنات كطيور سيارة، وتنبسط(١) بدرجة يقول المرء: الحمد لله على كل مصنوعاته، لأنها كلها لي نِعَمٌ.. حتى ان الفرض او الخيال الذي هو من اضعف خدام القلب واهونهم، له وظيفة عجيبة، يَدخل به صاحبهُ المتوكل – وهو في السجن مقيد – في حديقةٍ نزيهة، ويضع رأس صاحبه المتنبّه وهو يصلي في الشرق او الغرب تحت «الحجر الاسود» ثم يودع في الحجر الاسود شهادتي صاحبه..

(٨) اي: حبة القلب.

ومن المشهود ان «البيدر» يدور على رؤوس «الاثمار».. والثمرة هي التي تنتقَى وتُستبقى.. فبيدر الحشر ينتظر بني آدم..

اعلم ! ان لكل احد من هذا العالم العام؛ عالماً خاصاً، هو عين العام، لكن مركزه هو الشخص، بدل الشمس. فمفاتيحُ ذلك العالم في نفس الشخص ومعلّقه بلطائفه.. ولونُ ذلك العالم وصفاؤه وحُسنه وقُبحه وضياؤه وظلمته تابعةٌ لذلك المركز. فكما ان الحديقة المرتسمة في المرآة تابعة في احوالها من الحركة والتغيّر وغيرهما للمرآة، كذلك عالم الشخص تابعٌ لمركزه الذي هو الشخص كالظل والتمثال. فلا تحسبنّ صغر جِرمك سبباً لصغر جُرمك، اذ ذرة من قساوة قلبك، تكدّر[١] عليك نجوم عالمك..

اعلم ! ان هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما: «انا» في الانسان، و«الطبيعة» في العالم..

اما هذا، فرأيته مرآةً ظلياً حرفياً. لكن نظر الانسانُ اليه نظراً اسمياً قصدياً بالاصالة، فتفرعن عليه وتَنَمرَدَ.

واما هذه، فرأيتها صنعة الهيّة وصبغة رحمانية.. لكن نظرَ البشرُ اليها بنظر الغفلة فتحولت لهم «طبيعة» فتألّهتْ عند ماديهم. فأنشأتْ كفران النعَم المنجرّ الى الكفر.

فللّه الشكر والحمد وبتوفيق الاحد الصمد وبفيض القرآن المجيد انتجت المجادلة قتل الطاغوتين وكسر الصنمين؛ بالنقطة ، والقطرة، والذرة، والشمة، والحبة، والحباب.. فتكشّفتْ الصنعةُ الشعورية الالهية والشريعةُ الفطرية الربانية من حجاب الطبيعة الموهومة، وانسلختْ هي منها، اي نهارُها من ليلها. وتكشف «انا» عن ظل «هو». وانشقّ عنه فاشارت بـ«هو»الى مَن ليس كمثله شئ جل جلاله..

اعلم ! يا «انا»! لك امور تسعة في دنياك تعاميتَ عن ماهيتها وعواقبها:

أما جسدك؛ فكالثمرة المتزهرة المتزينة صيفاً، المنكمشة المتفسخة شتاءً.

وأما حيوانيتك؛[٢] فانظر الى جنس الحيوان كيف يسرع فيهم الموت والزوال.

---

(١) مشتقة من انكدار النجوم اى تناثرها.

(٢) اي: حياتك المادية (ت: ١٠٨)

وأما انسانيتك؛ فمترددة بين الانطفاء والاصطفاء والزوال والبقاء، فاستحفظ على ما بقي بما من شأنه ان يبقى بذكر الدائم الباقي.

واما حياتك؛(١) فكقامتك قصيرة معينة الحدود لاتقدّم ولاتؤخّر فلا تتألم ولاتحزن ولاتخف عليها ولاتحمّلها مالاطاقة لها به مما تطاول اليه طول الامل.

واما وجودك؛ فليس ملكاً لك، فله مالكٌ، الملكُ له واشفق به منك؛ فمداخلتك بغيرِ ما أمركَ به، فكما انها من الفضول وشُغل فضولي فكثيراً ما تضر؛ الا ترى الحرص و(مرق) النوم كيف يفعلان ويجلبان الخيبة والسهرا.

وأما مصائبك؛ فلا تمر(٢) حقيقةً لانها تَمُرُّ سريعاً، بل تحلو لانها تَحوُل؛ فتحوّلُ وجهكَ من الفناء في الفاني الى البقاء بالباقي.

واما انت هنا الآن؛ فمسافرٌ ثم مسافرٌ ثم مسافرٌ، والمسافرُ لايَعلّقُ قلبه بما لايتعلق به ويفارقه بسرعة. فكما ترتحل من هذا المنزل في هذا المسجد البتة، كذلك تفارق هذه البلدة قطعاً، إما الى بطنها او الى خارجها.. فكما ستفارقها بالضرورة، كذلك تذهب بل تُخرَج وتُطردُ - شئتَ أم أبيتَ - من هذه الدنيا الفانية؛ فاخرجْ وانت عزيز قبل ان تُطرد وانت ذليل.

واما وجودك؛ فافْدِه لموجدهِ الذي يشتريه بثمنٍ غالٍ، فسارعْ الى البيع بل الفداء:

اولاً: فلأنه يزول مجاناً..

وثانياً: لانه مالُه واليه يؤول..

وثالثاً: لأنه إن اعتمدتَ عليه سقطتَ في العدم لانه «باب اليه»، واذا فتحته بالترك وصلتَ الى الوجود الثابت..

ورابعاً: لانه اذا تمسكتَ به كان في يدك نقطة وجودٍ فقط، ويحيط بك مالايتناهى من الأعدام الهائلة.. واذا نَفَضْتَ يدك منه استبدلت لمعةً بشمس فينقلب محيطُكَ الى مالايتناهى من انوار الوجود.

---

(١) اي مدة بقائك وعمرك

(٢) مأخوذة من المرارة ضد الحلاوة.

واما لذائذ الدنيا؛ فقسمتُكَ تأتيك، فلا تَطِشْ في طلبها.. ولزوالها بسرعة لايليق بالعاقل تعليقُ القلب بها. وكيف ما كانت عاقبة دنياك فتركُ اللذائذ أولى؛ اذ إما الى السعادة، وهي تستلزم تركها.. وإما الى الشقاوة، ومَن ينتظرُ الصَلبَ كيف يلتذُّ ويَستعذبُ ما يزيد عذابهُ من تزيينات آلات الصَلب؟ وان توهمتَ بالكفر العدمَ – العياذ بالله – فأولى بالترك؛ اذ بزوال اللذة يحسُّ ذلك العدم الهائلُ أَلمه الاليم آناً فآناً في ضمن زوال اللذائذ، وهذا الالمُ اثقلُ بمراتب من لذة الوصال إن كنت تشعر..

اعلم! ان مثلك وقد تصيب رأسَك المصائبُ المرماةُ «بالقدر»، كمثل اغنام مُرسَلة في المرعى، يراها الراعي قد تجاوزت، فيرمي الاحجار خلفها لترجع، فيقول المُصابُ رأسُه بلسان الحال: نحن تحت أمر الراعي، وهو أعرفُ بنا منا فلنرجع.. فيرجع.. فيرجعون..

فلاتكوني يانفسي اضلّ من الغنم!. فقولي عند المصيبة: ﴿**إنّا لله وإنّا اليه راجِعُون**﴾[1]..

اعلم! ان من الدليل على ان القلب ماخُلق للاشتغال بامور الدنيا قصداً؛ انه: اذا تعلق بشئٍ تعلّق بشدة، واهتمّ به اهتماماً عظيماً، ويتطلب فيه أبديةً ودواماً.. ويفنى فيه فناءً تاماً. واذا مدَّ يده يَمُدّ يداً تطيق ان تقبضَ علي الصخور العظيمة وتَرفعَها، مع ان ما يأخذه بتلك اليد من الدنيا، انما هو تينةٌ او تبنةٌ او ريشةٌ او شعرةٌ او هباءٌ او هواءٌ..

نعم القلب مرآةُ الصمد؛ فلايقبل حجرَ الصنم بل ينكسرُ به. والعاشق المجازي يرى ظُلمَ معشوقه في الأكثر، بسرّ: ان المعشوق بفطرته – بلا شعور – يردّ ولايرضى ماليس له بحق، وهو ليس بلائقٍ اسكانه في باطن قلب العاشق..

اعلم! ان القرآن أُنزل وانزلت به مائدةً سماويةً، يوجد فيها كل انواع ما تحتاج اليه طبقاتُ نوع البشر المتفاوتين في اشتهاء الأفهام.. في المائدة اطعمة مترتبة، قُدِّم أولاً في وجه السُفرة الالهية رزق الاكثر المطلق والجمهور الاعظم، اي العوام.. مثلا: ﴿**أنّ السمٰوات والارضَ كانَتا رَتقاً فَفَتَقناهُما**﴾[2] الصفحة الاولى: اي هما

(١) البقرة: ١٥٦
(٢) الانبياء: ٣٠

رتقاوان، اما هذه فنقية صحو صافية. واما تلك فميتة غبراء يابسة. فازدوجتا باذنه تعالى فاولدت هذه امطاراً وتلك اثماراً. والدليل على هذه الصحيفة ﴿ وَجَعلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ ﴾[١]. وخلف هذه الصفحة والصحيفة انفصال السيارات مع شمسها من عجين المادة التي خُلقَت من نور سيّد الانام ﷺ والآية[٢] على هذه الصفحة حديث (اول ما خلق الله نوري..الخ)[٣]..

مثلاً: ﴿ أفَعَيينا بالخَلقِ الأولِ بَل هُم في لَبسٍ منْ خَلقٍ جديد ﴾ [٤] الصحيفة الاولى المقدمة في النظر، أنهم مع اقرارهم بخلقهم الاول الأعجب المشهود، يستبعدون الخلق الجديد الأهون؛ اذ له مثال سبق.. وان خلف هذه الصحيفة برهاناً نيراً على كمال سهولة النشر.. ايها المنكرون للحشر.. تُحشَرون.. وتنشرون في عمركم مرات، بل في سنتكم، بل في يومكم، تلبسون وتخلعون هذا الجسم كلباسكم صباحاً ومساءً يتجدد عليكم جسمكم كلباسكم.[٥]

اعلم! فيا عجباً من بلاهة النفس!.. ترى في نفسها اثر المصنوعية والمملوكية والتربية من طرف ربّ مختار حكيم، ثم تنظر الى امثالها من سائر الافراد والانواع والاجناس، فيتظاهر سر كلية القاعدة وشمول الفيض، وتجلب نوع اجماع وتصديق فعلي، فكان لازماً عليها ان تطمئن بتفطن سر: «كلية القاعدة ودستورية الحادثة». والحال انها تتخيل ما يقوي تجليات الاسماء عليها من عموم تجلياتها في دائرة الآفاق سبب الضعف وواسطة التستر وامارة الاهمال وعلامة انه لارقيب عليها فتقول: اتسعَ فامتنع.. عَظُم فَعَدِم. فهذه مغلطة يخجل منها الشيطان ايضاً..

---

(١) الانبياء/٣٠

(٢) اي الدليل والبرهان.

(٣) (اول ما خلق الله نور نبيك يا جابر – الحديث) رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبدالله في حديث طويل (كشف الخفاء ١ / ٢٠٥) وفيه ايضاً (٢ / ١٢٩) : (كنت اول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث) قال في المقاصد: رواه ابو نعيم في الدلائل وابن ابي حاتم في تفسيره وابن لال، ومن طريقه عن ابي هريرة مرفوعاً، وله شاهد من حديث ميسرة الفخر، اخرجه احمد والبخاري في تأريخه والبغوي وابن السكن وابو نعيم في الحلية وصححه الحاكم . اهـ.

(٤) ق : ١٥

(٥) تفصيله في اشارات الاعجاز – في تفسير قوله تعالى ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ – المؤلف.

اعلمي! ايتها النفس المتضجرة القلقة.. ان كل احوالك في التعين، والنقش في جبهتك بقلم القدر، كطلوع الشمس وغروبها. فان اردت ان تضربي سندان القدر برأسك العليل، فتضجّري. واعلمي يقيناً، ان من لايستطيع ان ينفذ من اقطار السموات والارض، لابد ان يرضى رضاء محبةٍ بربوبيةِ من ﴿ **خلق كلَّ شئٍ فقدَّره تقديراً** ﴾(١).

اعلم! لو كان صانع الشئ في الشئ لناسبه، ولتنوعَ بعدد الاشياء. واذا لم يكن فيه فلا ، كهذا الكتاب: يُكتب بقلمٍ واحد مع انه لا يطبع الا بحديدات مصنوعة ، موضوعة تحته عدد حروفه، ولو تنبّتت نقوش الصنعة المتقنة في شئ منه وتحلّبت ثمراتُها وترشحت حروفُها من نفسه وإمكانه ، لا نبثتْ وانتثرتْ وانتشرتْ ولخرجت عن الانتظام . لكن فيها استقرار تام وانتظام كامل فلم ينكتب نقشَ الشئ منه ولن ينكتب منه ابداً ، بل يُكتب عليه بقلم القُدرة على مسطر القَدَر. .

اعلم! ومن الغرائب ان العقل الذي يتطاول الى الاحاطة بالعالم والنفوذ الى الخارج والخروج من دائرة الامكان، يغرق في قطرة.. ويفنى في ذرة.. ويغيب في شعرة.. وينحصر الوجود عنده فيما فنى فيه.. ويريد ان يدخل معه كل ما احاط به في النقطة التي بلَعته..(٢)

اعلم! انه لو كان المُلك لك لتنغّص عليك التنعم بتكلف التعهد والتحفظ والتخوف. والمنعمُ الكريم يتعهد كل لوازمات النعمة.. وما يفوّض اليك الاّ التنعم والتناول من سُفرة احسانه. والشكر الذي يزيد لذةَ النعمة.. اذ الشكر رؤية الانعام في النعمة ورؤية الانعام تزيل ألمَ زوال النعمة؛ اذ تزولُ النعمة حينئذٍ فلا تعطي موضعها للعدم حتى تُؤلم، بل تخلي الموقعَ لمجئ المثل كالثمرة، فتعطيك لذة التجدد. ﴿ **وآخرُ دعْويهُم اَنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين** ﴾(٣) يدل على ان الحمدَ عينُ اللذة. نعم، ان سر الحمد؛ رؤية شجرة الانعام في ثمرة النعمة. فيزول المُ تصوّر الزوال فيُلتذ بنفس الحمد..

(١) الفرقان: ٢

(٢) نعم ! ان اكبر فلاسفة الارض عقلاً يغرق في قطرة من الالم ، ويفنى في ذرة من المحبة ، ويغيب في شعرة من السرور ، وينحصر الوجود عنده في لحظة فناء باهتماماته، ويجهد ان يسحب معه كل معارفه الوجودية الى عمق النقطة التي ابتلعته.

(٣) يونس: ١٠

اعلم! ان المعلومات الآفاقية لاتخلو عن الاوهام والوساوس. واما اذا استندت الى الأنفس واتصلت بالوجدانيات المشعورة بالذات، تصفّت عن الاحتمالات المزعجة. فانظر من المركز الى المحيط، ولاتعكس فتنتكس.

اعلم! ان هذه المدنية السفيهة المصيرة للارض كبلدة واحدة، يتعارف اهلُها ويتناجون بالاثم ومالايعني(١) بالجرائد صباحاً ومساءً، غَلُظَ بسببها وتكاثفَ بملاهيها حجابُ الغفلة، بحيث لايُخرق الاّ بصرف همة عظيمة. وكذا فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة نظّارة الى الدنيا يتعذّر سدّها الاّ لمن خصّه الله بلطفه..

اعلم! ان الذرة تسعِ الشمس بتجليها فيها بالمشاهدة ولا تسع تلك الذرة ذرتين بالذات بالبداهة، فذراتُ الكائنات ومركباتها – كقطرات المطر ورشاشاتها المتشمسة المتلألئة بتماثيل الشمس – قابلةٌ لأن تصير مظاهر للمعات تجليات القدرة النورانية الازلية المطلقة المحيطة المستندة؛ بل المتضمنة للعلم والارادة الازليين الغير المتناهيين.. ولايمكن ان تكون ذرة حجيرة عينك منبعاً ومعدناً لقدرة وشعور وارادة تتحمل وظائفها العشرة من خَدَمتها في الاعصاب المحركة والحساسة والاوردة والشرايين والابصار والتصوير وغيرها مما يتيه فيه الفكر.

فهذه الصنعة المتقنة العجيبة، والنقش المزين المنتظم، والحكمة العميقة الدقيقة، تقتضي قطعاً:

إما ان يكون كل ذرة وكل مركب في الكائنات معدناً ومنبعاً ومصدراً لصفات محيطة مطلقة كاملة..

وإما ان يكون مظهراً ومعكساً ومَجلَىً للمعاتِ تجليات شمس الازل الذي له هذه الصفات.

والشِق الاول فيه محالات بعدد ذرات الكائنات ومركباتها. فمن جاز عنده ان يحمل علَى جناحيَ نحلة جبلى «سُبحانْ وآرارات»(٢) وان ينبع من عيني بعوضة «النيل والفرات»، فليذهب الى الشق الاول؛ فتشهد كلُّ ذرةٍ بعجزها عن تحمل مالا طاقة لها به، انه: لاموجد ولا خالق ولا رب ولا مالك ولا قيوم ولا إله الاّ الله. وكل

(١) وما لا يعني من الامور التي تلهي الانسان.
(٢) جبلان يقعان شرقي تركيا.

ذرات الكائنات ومركباتها بألسنتها المختلفة ودلالاتها المتنوعة تتكلم بـ:

عباراتنا شتى وحسنك واحد   وكل الى ذاك الجمال يشير

نعم، ان كل حرف من كتاب الكائنات، يدل على وجود نفسه بوجهٍ واحد، وبمقدار حرف، لكن يدل على كاتبه وصانعه بوجوه كثيرة. وينشدُ من اسمائه المتجلية عليه قصيدة طويلة:

تأمل سطور الكائنات فإنها   من الملأ الأعلى اليك رسائل[١]

اعلم![٢] إن مرايا التجليات متنوعة منها: الزجاج، والماء، والهواء - لاسيما للكلمات - وعالم المثال، والروح، والعقل، والخيال، والزمان. وغيرها مما لانعلم او لاتعلم.. وتماثيل الماديات الكثيفة في المرايا[٣] منفصلة حُكماً، واموات حقيقةً.. وليس لها خاصية الأصل.. وغيرٌ للاصل ايضاً، بدليل انتقالها الى الفطوغراف، دون النورانية الخالصة، وفي غير الخالصة تنتقل هوية صورتها المادية فقط.

واما تماثيلِ النورانيات فمتصلةٌ حكماً، ومرتبطةٌ حقيقة، ومالكةٌ لخواص الاصل، وليستْ غيراً له. فلو جعل الفاطرُ جل جلاله حرارةَ الشمس حياتها، وضياءها شعورَها، والوان الضياء حواسَّها؛ لتكلمت الشمسُ معك في قلب مرآتك التي في يدك، كتلفونك ومرآة قلبك. اذ مثالها الذي في يدك له ايضاً بمقدار استعداده حرارة حياة، وضياء شعور، والوان حواس. ومن هذا السر يطّلع النبي ﷺ الذي هو النور النوراني على صلوات كلّ مَن صلى عليه في آن واحد. ومن هذا السر ينفتح مغلقات اسرار..[٤]

اعلم! ان «سبحان الله والحمد لله» يتضمنان التوصيف بصفات الله: الجلال بالاول.. والجمال بالثاني. «فسبحان الله» ينظر الى بُعد العبد والممكن عن الله الواجب الوجود العلي العظيم. و«الحمد لله» ينظر الى قُرب الله بالرحمة واللطف الى العبد ومخلوقاته. فكما ان الشمس قريبةٌ منك تُوصل حرارتها وضياءها اليك

---

(١) لرجل نحوي مشهور يُعرف بركن الدين بن القَوْبَع (ت ٧٣٨ هـ) - (قول على قول ١٥٧/١١ للكرمي).
(٢) الغصن الرابع من الكلمة الرابعة والعشرين تفصّل هذه المسألة.
(٣) اي صورها المرتسمة في المرايا، كما سيأتي.
(٤) ايضاحها في اللوامع - اقسام التمثلات مختلفة - ص٨٤٧ من مجلد «الكلمات».

وتتصرف فيك باذن خالقها، الذى صيّرها مرآة لجلوة اسمه« النور» وظرفاً لنعمه التى هي الحرارة والضياء مع انك بعيد عنها لايصل يدك اليها، وانت بالنسبة اليها قابل فقط لافاعل ولامؤثر.. كذلك ﴿ولله المثل الاعلى﴾ ان الله جلّ جلاله قريبٌ منا فنحمده، ونحن بعيدون عنه فنسبّحه. فاحمده وانت تنظر الى قربه برحمته. وسبّحه وانت تنظر الى بُعدك بإمكانك. ولاتخلط بين المقامين، ولاتمزج بين النظرين، لئلا يتشوش عليك الحق والاستقامة. لكن يمكن لك – بشرط عدم الالتباس والمزج – ان تنظر الى القرب في جهة البُعد.. والى وجه البُعد في جهة القرب.. والى الوجهين معا فتقول: «سبحان الله وبحمده»..

اعلم! ياطالب الدنيا! لابد ان تتركها[1] لامور أربعة:

اولاً: فلأنها سريعة الزوال، وألم الزوال مذلّ ومزيل للذة الوصال.

واما ثانياً: فلأن لذائذها منغّصة بآلام مقارنة وأكدار متعاقبة.

واما ثالثاً: فان ما ينتظرك وانت تذهب اليه بسرعة بلا انحراف من القبر الذي هو باب الى الآخرة، لايقبل منك مزينات الدنيا هدية، اذ تنقلب هناك قبائح.

واما رابعاً: فوازن بين سكونك ساعة في موقع بين الاعداء والمؤذيات والحشرات المضرة، وبين السكون في سنين كثيرة في موقع آخر قد اجتمع فيه كل احبابك وكل عظمائك. ومالك الملك ايضاً يدعوك الى ترك لذة تلك الساعة ليريحك في تلك السنين مع اودّائك. فأجب داعي الله قبل ان تُساق اليه بالسلاسل.

فسبحان الله ما اعظم فضل الله على الانسان يشتري بثمن غال من الانسان مالاً له وديعة عند الانسان ليحمله عنه.. ويبقيه له.. ويحميه مما يفسده. مع ان الانسان ان تملّكه ولم يبعه وقع في بلاءٍ عظيم في تعهّده بقدرة لاتكفي – من الوف مصالحه – بواحد.. ولو تحمله بنفسه على ظهره لأنقضّ ظهره. ولو امسكه بنفسه لزال سريعاً وذهب مجاناً وفنى مورثاً لآثامه واثقاله على مالكه الكاذب.

اعلم! انه انني مصداق لما قيل:

وعيني قد نامت بليلِ شبيبتي   ولم تنتبه الاّ بصبح مَشيب

---

(١) وتركها يعنى: انها ملك الله، يُنظر اليها بإذنه وبإسمه (الكلمات ص ٢٢٧)

إذ اشد اوقات انتباهي في شبيبتي رأيته الآن اعمقَ طبقات نومي!.. فالمتنورون المتنبهون في عرف المدنيين كانتباهي فيما مضى، مَثَلُهم كمثل مَن رأى في رؤياه انه انتبه وقص رؤياه على بعض الناس. والحال انه بهذا الانتباه مرّ من طبقة النوم الخفيفة الى الطبقة الكثيفة. فمن كان هكذا نائماً كالميت كيف يوقظ الحي الناعس، وكيف يُسمع الناعسَ ما يتكلم به من وراء حُجب نومه المضاعف! ..

ايها المتنبهون النائمون! لاتتقربوا الى المدنيين بالمسامحة الدينية والتشبه، ظناً منكم انكم تصيرون جسراً بيننا وبينهم، وتملأون الوادي بيننا. كلاّ، ان المسافة بين المؤمنين والكافرين غير محدودة، والوادي بيننا في غاية العمق لاتملأونه، بل تلتحقون بهم او تضلون ضلالاً بعيداً! ...

اعلم! ان في ماهية المعصية[1] - لاسيما اذا استمرت وكثرت - بذر الكفر.. اذ المعصية تولد الُفةً معها وابتلاء بها، بل تصير داءً، دواؤها الدائمى نفسها، فيتعذر تركُها. فيتمنى صاحبُها عدمَ عقابٍ عليها، ويتحرى بلا شعور ما يدل على عدم العذاب، فتستمر هذه الحال حتى تنجر الى انكار العذاب وردّ دار العقاب. وكذا ان خجالة المعصية - بغير الندامة والقلع - تلجئ صاحبَها الى انكار كون المعصية معصيةً، وانكار مَن يطلع عليها من حَفَظة الملائكة وغيرها.. فمن شدة الخجالة يتمنى عدمَ الحساب.. فان صادف وهماً ينفيه، تلقاه برهاناً.. وهكذا الى ان يسودّ القلب، العياذ بالله..

اعلم![2] ان من لمعات معجزات القرآن كما في [اللوامع][3] المشتملة على الاشارة الى اربعين نوعاً من اعجازه، ومن كمال بلاغته:

انه جمع السلاسة الرائقة، والسلامة الفائقة، والتساند المتين، والتناسب الرصين، والتعاون بين الجمل وهيئاتها، والتجاوب بين الآيات ومقاصدها بشهادة علم البيان وعلم المعاني مع انه نزل في عشرين سنة منجماً لمواقع الحاجات نزولاً متفرقاً متقاطعاً بتلائمٍ كأنه نزل دفعةً.. ولاسباب نزولٍ مختلفة متباينة مع كمال التساند، كأن

(١) توضيح هذه المسألة في اللمعة الثانية من «اللمعات».

(٢) اعتمدنا في تحقيق هذه الفقرة على ما جاء في القطرة الخامسة من الرشحة الرابعة عشرة وعلى الطبعة الاولى من الكتاب.

(٣) اللوامع - بيان موجز لإعجاز القرآن - ص٨٨٠ من «الكلمات».

السبب واحدٌ.. وجاء جواباً لاسئلة مكررة متفاوتة، مع نهاية الامتزاج والاتحاد، كأن السؤال واحدٌ.. وجاء بياناً لحادثات احكامٍ متعددة متغايرة، مع كمال الانتظام كأن الحادثة واحدة.. ونزل متضمناً لتنزلات إلهية في اساليب تناسب افهام المخاطبين، لاسيما، المنزَل عليه «عليه السلام» بحالات في التلقي متنوعة متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأن الحالة واحدة.. وجاء متكلماً متوجهاً الى اصناف مخاطبين متعددة متباعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الافهام كأن المخاطب واحد، بحيث يظن كلُ صنف كأنه المخاطب بالاصالة.. ونزل مهدياً وموصلاً لغايات ارشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد؛ تدور تلك المقاصد والغايات على الاقطاب الاربعة: وهي «التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة». فبسر امتلائه من التوحيد، التأم وامتزج وانتظم واتحد.

ومن كان له عين في بصيرته، يرى في التنزيل عيناً ترى كل الكون، كصحيفة مبصرة واضحة.. وقد جاء مكرراً ليقرّر.. ومردّداً ليحقق قصصاً واحكاماً. مع انه لايُملُّ تكرارهُ، ولايزيل عَوْدهُ ذَوْقَهُ ولايُسئِم تردادهُ. كلما كرّر حقّق وقرّر، بل ما كررته تحلو وتفوحُ انفاسُ الرحمن منه «ان المسك ماكررته يتضوّع». وكلما استعدتَه استَلذْتَه؛ ان كان لك ذوق سليم بقلب غيرِ سقيم. والسر فيه: انه قُوتٌ وغذاءٌ للقلوب، وقوة وشفاء للارواح. والقوت لايُملُّ تكرارهُ.. فمألوفه آنس وألذ، خلاف التفكّه الذي لذتُه في تجدده، وسآمتهُ في تكرره.

وكما ان الانسان في حياته المادية يحتاج في كل آنٍ الى الهواء، وفي كل وقتٍ الى الماء، وفي كل يوم الى الغذاء، وفي كل اسبوع الى الضياء، في الاكثر.. فتتكرر هذه الامور لتكررّ الحاجات، فلا تكون تكراراً.. كذلك ان الانسان بجهة حياته الروحانية ايضاً؛ يحتاج الى انواع مافي القرآن؛ فإلى بعضٍ في كل دقيقة بل في آن سيال كـ: «هو.. الله» فبه يتنفس الروحُ.. والى بعضٍ في كل ساعة كـ: «بسم الله».. والى بعض في كل وقت.. والى بعض في كل زمان متدرجاً بدرجات الاحتياج، فيكرر القرآن على ما تقتضيه حياة القلب تكراره.

مثلاً: «بسم الله» كالهواء النسيمي يطهِّر الباطن داخلاً ويثمر خارجاً في نَفْسك كَنَفَسِك في جسمك.. وايضاً في تكرار القرآن بعض الحادثات الجزئية اشارة الى ان

الحادثة الجزئية تتضمن دستوراً كلياً، كما اشرتُ الى بعض من جمل قصة «موسى» عليه السلام التي هي اجدى من تفاريق العصا[١].

والحاصل: ان القرآن الحكيم كتاب ذكر، وكتاب فكر، وكتاب حُكم، وكتاب علم، وكتاب حقيقة، وكتاب شريعة، وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمة للمؤمنين.

اعلم! ان من اعاجيب فطرة الانسان في وقت الغفلة، التباس احكام اللطائف والحواس. كالمجنون الذي يصل نظرُه الى شئ، فيمدّ يدهُ اليه ظناً منه – لمجاورة العين لليد – ان مايحصل بتاك، يحصل بهذه ايضاً. فالانسان الغافل الذي لايصل يد اقتداره الى تنظيم أدنى جزء من اجزاء نفسه يتطاول بغروره وبوسعة خياله الى الحكم والتحكم في افعال الله في الآفاق.. وكذا من اعجب فطرة البشر ان افراده، مع تقارب درجاتها في الصورة الجسمية، تتفاوت معنىً بدرجات، كما بين الذرة الى الشمس الى شمس الشموس خلافاً لسائر الحيوانات؛ اذ هي مع تفاوت افرادها في الصور الجسمية، كالسمك والطير، تتقارب في قيمة الرّوح؛ فكأن الانسان الذي قام من «مخروط الكائنات» في حاق الوسط،[٢] منه الى الذرة ومنه الى شمس الشموس سوآء؛ اذ لم يُحدَّد قواه ولم تُقيّدْ، أمكَنَ له ان يتنزل ويتسفل «بالانانية» الى ان يكون هو والذرة سواء. وكذا جاز له ان يتجاوز بالعبودية وبترك «انا» ويتصاعد باذنه تعالى الى ان يصير بفضل الله كشمس الشموس مثل محمد عليه الصلاة والسلام.

اعلم! ان الاصل في الشئ البقاء، حتى ان الامور السيالة السريعة الزوال كالكلمات والتصورات لها ايضاً مواضعَ أُخر يتحصنون فيها من الزوال. لكن يتطورون في الصوّر، حتى كأن الاشياء موظفون لحفظ الشئ إما بتمامه كالنوراني، او وجهٍ من الشئ، يسارعون بكمال الاهتمام لأخذه ووضعه في قلوبهم الشفافة.

---

(١) مثل يضرب فيمن نفعه اعمّ من غيره (مجمع الامثال ١/٣٧)

(٢) الحاق: الوسط، والكامل في الشئ.

والحكمة الجديدة تفطنت لهذا السر لكن بلا وضوح، فلهذا اخطأت بالافراط فقالت: لاعدم مطلقاً، بل تركُّبٌ وانحلال.(١) كلا! بل تركيب بصُنعه تعالى.. وتحليل باذنه.. وايجادٌ واعدام بأمره.. يَفعَلُ مَا يَشاءُ ويَحكُم مَا يُريدُ.

اعلم! ايها السعيد الشقي! ان القبر باب باطنه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب.. وأودّاؤك ومَن تحبه اكثرهم – حتى كلهم – ساكنون خلف هذا الباب. أَلَمْ يأنِ لك أن تشتاق اليهم والى عالَمهم.. فَتنظَّفْ، والاّ استقذروك.

لو قيل لك مثلاً: ان «الامام الرباني احمد الفاروقي» قُدس سره، ساكن الآن في الهند، لاقتحمتَ المهالك وتركتَ الاوطان لزيارته. مع ان تحت اسم احمد فقط الوفُ نجوم حول شمس مَن في الانجيل اسمه «احمد» وفي التوراة «أُحيد» وفي القرآن «محمد».. وتحت اسم محمّد ملايين.. وهكذا كلهم خلف باب القبر في رحمة الله ساكنون. فلابد ان يكون نصب عينك دائماً «هذه الاساسات» وهي:

ان كنتَ له تعالى كان لك كلُّ شئ، وان لم تكن له كان عليك كلُّ شئ.

وكلُّ شئ بِقَدَرٍ، فارضَ بما آتاك تزد يُسْراً على يُسْرٍ، والاّ زدْتَ مرضاً على مرض.

المُلكُ له، ويشتريه منك ليبقيه لكَ.. ويزول مجاناً لو بقي عندك.

وانت فقيرٌ اليه من كُلِّ وجهٍ.

وانت مقيّدٌ بجهات اربع مسدودة. تُساق الى باب القبر المفتوح لك.

لالذة للقلب حقيقةً فيما لادوام فيه؛ تزول انتَ، وتزول دنياك، وتزول دنيا الناس.

وستُنْزَع من الكائنات هذه الصورة. وسيُخلَع عليها اخرى. كالثانية، والدقيقة، والساعة، واليوم.. كأن الكائنات ساعة كبرى كما ذكر في [النكتة الرابعة من الكلمة التاسعة]. فلا تهتم بما يبقى لك أثراً في الفاني ويفنى عنك في الباقي.

ولاتنظر من بُعدك وخستك ومن عظمته وعزته تعالى – ونقطة نظرك هذه الحيثية – الى تصرفاته وتنزّلاته برحمته ونعمته؛ اذ حينئذٍ لايليق الاّ التسبيحُ.

(١) انظر خاتمة «الطبيعة» – اللمعة الثالثة والعشرين – ففيها التوضيح الشافي لهذه المسألة.

ولاتنظر من حيثية قربه واحاطته بعلمه ورحمته، ومن مخلوقيتك ودخولك في عنايته وكرمه، الى صفات جلاله، لئلا تستهوي بك الاوهامُ والاهواءُ.

فسبحان من تقدستْ وتنزهتْ عن ان تحيط به الافكارُ والعقول، والحمد لله الذي وسعت رحمتهُ كلَّ شئ.. لا الهَ الاّ الله وَحْدَهُ لاشَريكَ لهُ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويُميت بيدهِ الخَير وهوَ على كلِّ شئٍ قدير..

اعلم! ان مَن في قلبه حياة اذا توجه الى الكائنات يرى من عظائم الامور مالا يحيط به ويعجز عن ادراكه ويتحيّر فيه، فللتشفّي من ألم الحيرة يشتاق الى «سبحان الله» كتعطش العليل الغليل الى الماء الزلال.

ويرى من لطائف النعم واللذائذ ما يُجبرهُ على اظهار تلذذه وتزييد تلذذه واستيزاد لذته بالدوام برؤية الإنعام في النعمة، والمنعم في الإنعام بعنوان الحمد، فيتنفس بـ«الحمد لله» كما يتنفس المظفر السالم الغانم.

ويرى من عجائب المخلوقات وغرائبها مالايطيق مقاييس عقله وزنَها ويضيق ذهنهُ عن محاكمتها، وحسٌّ تجسس الحقيقة يُشغله بها، فينادي: «الله اكبر» فيستريح. اي خالقها اعظمُ واكبرُ فلا يثقل عليه خلقُهاوتدبيرها، كمثل من يرى القمر يدور حوله فيغشاه ألمُ تعجب، او خروج جبل بالزلزلة فيتدهش فيكبّر، فيلقى عن ظهره اثقال العَجب والتدهش على سفينة القدير القوي المتين جل جلاله..

اعلم! انك بسيئاتك لاتضر الله شيئاً انما تضر نفسك. مثلاً: ليس في الخارج(١) شريكٌ حتى تقوّيه باعتقادك فتؤثّر في كمال ملكهِ تعالى، بل في ذهنك وفي عالمك فقط. فيخرّب بيتك على رأسك..

اعلم! انه من توكّل على الله فهو حسبه.. فقل: «حسبي الله ونعم الوكيل»:

فاولاً: لانه الكامل المطلق، والكمال محبوب لذاته وتُفدى له الارواحُ.

وثانياً: لانه محبوب لذاته وهو المحبوب الحقيقي، والمحبة تقتضي الفداء.

(١) اى في الواقع والحقيقة (ت: ١١٨)

وثالثاً: لانه الموجود الواجبَ.. وبقربه انوارُ الوجود.. وببُعده ظلماتُ العَدَمات، وألمٌ أليم في افول آمال الروح الانساني.

ورابعـاً: لانه الملجأ والمنجأ للروح الذي ضاقت عليه الاكوانُ، وآلَمته مزخرفات الدنيا، وعادَتْهُ الكائنات وأنقض ظهره تحت الشفقة اليتمية والمرحمة المأتمية..

وخامساً: لانه الباقي الـذي به البقاء، وبدونه الزوال، وكـل العذاب في الزوال. وبدونه يتـراكم على الـروح آلامٌ بعـدد الموجـودات، وبه يتظـاهر على المتـوكل انوارٌ بعددها..

وسادساً: لانه المالك يحمل عنك مُلكه الذي عندك، اذ لاتطيق حـملهُ، فبتوهم التملّك تقع في عذاب أليم أليم. فلبقائه ودوام إنعامه لاتغتم بفناء مـا في يدك، كما لاتحزن الحـباباتُ المتشـمسة بالتـحول والانحلال. فـلإظهار تجددات تجليـات الشمس يفدي الحبابُ صـورتَه بكمال النشاط بل يموت وهو يضحك. وكمـا لاتغتم الثمرات بفـراق الشجـرة ولا النواة بانحلال الـثمـرة ولا انت بزوالها اذ تقـولون[1] فلتـــحى الشجرة اذ في حياتها موتُنا حياةٌ.

ياهذا! انت ثمرة إنعاماته بل مجسَّمُ إنعاماته.

وسابعاً: لانه الغني المغني وبيده مـقاليد كل شئ، اذا صرتَ عبـداً خالصاً له، ثم نظرت الى الكائنات تراها ملكُ مـالكك وحشمـته وحواشيه فتـتنزه بها، كـأنها ملكٌ لك بل أعلى، بلا كلفـة ولا ألم زوال.. اذ الخادمُ الخالص للمَلِك والفـاني في محبـته يفتخر بكل ما للمَلِك..

وثامناً: لانه ربّ الانبياء والمرسلين والاولياء والمتّقين وكلهم مسعودون في رحمته، فعِلْمك بسعادتهم يعطيك في شقاوتك سعادةً ولذةً إن كنتَ ذا قلب.

اعلم! انه لايليق بك إن كان لك عقلٌ سليم أن تهـتم وتغتـم وتغضـب وتصخب لما يأتيك او يفوتُك من امور الدنيا، لان الدنيا تزول لاسيـما دنياك، ولاسيما انت؛ اذ لست بأبدي هنا، ولستَ من حديدٍ ولاشجر حتى يطول بقاؤك، بل من لحم متجدّد ودم متردد وروابط في غـاية رقة تتـأثر بادنى شئ. وقـد تنقطع تلك، وينجمـد هذا،

---

(١) انت والنواة والثمرة.

ويتفسخ ذلك باختلال ذرتين، ولاسيما تَنفس فيك صبحُ المشيب وكَفنَ نصف رأسك.. ولاسيما تضيّقت بل توطنت فيك العللُ التي هي طليعة الموت، والامراض التي هي مخالبُ هادم اللذات، مع ان امامك عمراً أبدياً ألقيته خلفك ظهرياً، انما ترتّبت راحته على سعيك هناك، مع انك في حرصك وشرَهك كمن هو خالد وخَلُدَت له الدنيا خاصة.. فانتبه قبل ان تُنبّهك سكراتُ الموت..

اعلم! انك اذا توجهت اليه تعالى بعنوان المعلوم والمعروف يصير لك مجهولاً ومنكراً، اذ هذه المعلومية والمعروفية نتيجة الأُلفة العُرفية والتسامع التقليدي، والتداول الاصطلاحي، وهي لاتغني من الحقيقة شيئاً؛ بل ما يتراءى لك فيها مقيد لايتحمل الصفات المطلقة. بل انما هو نوع عنوان لملاحظة الذات الاقدس..

واما اذا توجهت اليه بعنوان الموجود المجهول، تكشّف لك عن اشعة المعروفية.. وعن بروق شروق موصوفٍ لاتثقل ولا تتعاظم عليه هذه الصفات المطلقة المحيطة المتجلية في الكائنات، كما لا يثقل عليك حمل قميصك من الحرير الرقيق ومنديلك من الخز المنمنم.(١)

اعلم! كفاك فخراً بلا نهاية – لا كفخرك بكمال كبرائك – ان يكون لك مالكٌ قدير على كل شئ. ومن اقتداره وهو هو الذي السموات مطويات بيمينه، والارض قبضته يوم القيامة، انه يربيك بشفقة أتمّ من شفقة ابويك، وانت انت: كقطرة في بحر، والبحر كنقطةٍ في صحراء، والصحراء كذرةٍ بين عظائم مصنوعاته؛ اذ هو نور الانوار العالمُ بالاسرار.. وليس من عظمة السلطان الانساني عدم اشتغاله بتفاصيل جزئيات الامور، بل من عَجزه وعدم اقتداره.. ومن عظمة سلطان الازل انه كما يكتب بقلم صُنعه على صحيفة السماء بمداد النجوم الدراري آيات الوُهيته، كذلك يكتب بذلك القلم على صحيفة سواد العين بمداد الجواهر الفردة آيات ربوبيته...

فسبحان مَن هذه الاجرام العلوية والكواكب الدرية نيّرات براهين الُوهيته وعظمته، وهذه المصابيح المزينة والنجوم المتبسمة شعاعات شواهد ربوبيته وعزته جلّ جلاله.

(١) الحرير المنقش

اعلم! ان الاسماء الحسنى كلٌّ منها يتضمن الكلَّ اجمالاً، كتضمن الضياء للألوان السبعة.. وكذا كلٌّ منها دليل على كلّ منها، ونتيجةٌ لكلٍ منها، بينها تعاكسٌ كالمرايا. فيمكن ذكرها كالقياس الموصول النتائج متسلسلاً، وكالنتيجة المترتبة الدلائل. إلا أن الاسم الاعظم الواحد يتضمن الكلَّ فوق هذا التضمن العام. فيمكن للبعض الوصول الى نور الاسم الاعظم بغيره من الاسماء الحسنى. فيتفاوت الاسم الاعظمُ بالنظر الى الواصلين. والله اعلم بالصواب.

تضرّع (ونياز)

إلهي لازم عليّ أن لا اُبالي ولو فات مني حَياةُ الدارين وعادَتْني الكائناتُ بتمامها؛ اذ انت: «ربي وخالقي والهي».. اذ انا مخلوقُك، ومصنوعُك، لي جهةُ تعلّق وانتساب، مع قطع نهايةِ عصياني وغايةِ بُعدي لسائر روابط الكرامة. فأتضرع بلسان مخلوقيتي:

ياخالقي!. ياربي!. يارازقي!. يامالكي!. يامصوري!. يا الهي!.

*اسألك باسمائك الحسنى وإسمك الاعظم، وبفرقانك الحكيم وبحبيبك الاكرم، وبكلامك القديم، وبعرشك الاعظم، وبألف الف ﴿**قُل هُوَ اللّهُ أحدٌ**﴾ ارحمني ياالله، يارحمنُ، ياحنّانُ، يامنّانُ، ياديّانُ.. إغفر لي ياغفّارُ، ياستّارُ، ياتوّابُ، ياوهّابُ.. أعفُ عني ياودودُ، يارؤفُ، ياعفوّ، ياغفورُ.. اُلطف بي يالطيفُ، ياخبيرُ، ياسميعُ، يابصيرُ.. وتجاوز عني ياحليمُ،ياعليمُ، ياكريمُ، يارحيمُ.. ﴿**اهدنا الصّراطَ المستَقيم**..﴾ ياربُ، ياصمدُ، ياهادي.. جُد عليَّ بفضلكَ يابديعُ، ياباقي، ياعدلُ، ياهو.. أحي قلبي وقبري بنور الايمان والقرآن يانورُ، ياحقُ، ياحيُّ، ياقيّومُ، يامالكَ الملك ياذا الجلال والاكرام، يااوّلُ، ياآخرُ، ياظاهرُ، ياباطنُ، ياقويُّ، ياقادرُ، يامولايَ، ياغافرُ، ياارحمَ الراحمين.. اسألك باسمك الاعظم في القرآن.. وبمحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو سرُّكَ الاعظم في كتاب العالم ان تفتحَ من هذه الاسماء الحسنى كواتٍ مُفيضةً لأنوار الاسم الاعظم الى قلبي في*

قالبي، والى روحي في قبري.. فتصير هذه الصحيفة كسقف قبري، وهذه الاسماء ككوات تُفيضُ اشعةَ شمسِ الحقيقة الى روحي..

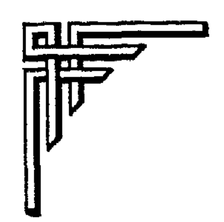
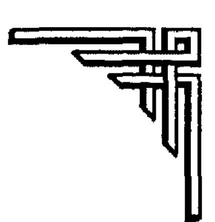
إلهي اتمنى أن يكون لي لسانٌ ابدي ينادي بهذه الاسماء الى قيام الساعة، فاقبل هذه النقوش الباقية بعدي نائباً عن لساني الزائل.

اللّهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد صلاةً تُنجينا بها من جميع الاهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميعَ الحاجات، وتُطهِّرنا بها من جميع السيئاتِ، وتغفرُ لنا بها جميع الذنوب والخطيئات..

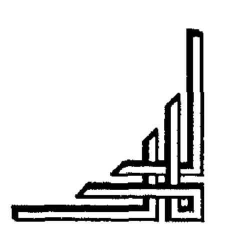
يا الله، يامجيب الدعوات! اجعل لي في مدة حياتي وبعد مماتي، في كل آن اضعافَ اضعاف ذلك.. الفَ الفَ صلاةٍ وسلامٍ مضروبَين في مثل ذلك وامثال أمثال ذلك، على سيدنا محمد وعلى آلِهِ واصحابه وانصاره واتباعه.. واجعل كل صلاةٍ من كل ذلك تزيد على انفاسيَ العاصية في مدة عمري.. واغفر لي وارحمني بكلِّ صلاةٍ منها برحمتك ياارحمَ الراحمين.. آمين..

* * *



ذيل المحبة

يا ناظرا

اظنني أحفر بآثاري المشوّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ مني.

فياليت شعري هل كَشَفتُ.. او سينكشفُ.. او انا وسيلة لتسهيل الطريق لكشّافه الآتي.

لا حولَ ولاقوّةَ الاّ بالله..

حَسْبُنا الله ونِعمَ الوَكيل.

اللّهمَّ لاتُخرِجنا مِنَ الدُّنيا الاّ مَعَ الشّهادة والايمانِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمة الايمان والاسلام، بعدَد قطرات الامطار، وأمواجِ البحار وثَمرات الاشجار، ونُقوش الازهار ونَغمات الاطيار، ولَمعات الانوار، والشُكرُ له على كُلِّ نِعمه في الاطوار، بعدد كُلِّ نِعمه في الادوار.

والصلاة والسّلامُ على سيّد الأبرار والأخيار مُحمّدٍ المختار، وعلى آله الاطهارِ وأصحابه نُجومُ الهداية ذوي الانوار، مادامَ اللّيلُ والنهار..

اعلم! ان المسافر كما يُصادف في سيره منازلَ، لكلِّ منزلٍ شرائط تخصّهُ.. كذلك للذاهب في طريق الله مقامات ومراتب وحالاتٌ وحُجبُ واطوار، لكل واحدٍ طورٌ يَخصهُ؛ مَن خلَطَ غلطَ. كمثل مَن نزل في قرية اسطبلاً سمع فيه صهيل الفرس، ثم في بلدٍ نزل قصراً فسمع تَرنّم العندليب، فتوهم الترنم صهيلاً، واراد ان يستمع منه صهيل الفرس مغالطاً لنفسه.

اعلم! ان مما زيّن في عينك هذه الحياة تلألؤ تماثيل نجوم الهداية من اماثل الاسلاف في مرآة الدنيا،(١) بسرّ: أن المستقبل مرآة الماضي، والماضي يلتحق بالبرزخ – بمعناه – ويودع صورته ودنياه في مرآة الاستقبال والتاريخ واذهان الناس. مثلك في حب الحياة بحبهم كمثل مَن صادف في وجه طريقه مرآة عظيمة فرأى فيها تماثيل رفقائه واحبابه الذاهبين الى الشرق (مغرّبين في المرآة) فيتوحش من الشرق فيهرول مغرباً. ولو كُشِفَ عن وجهك غطاءُ الغفلة لرأيتك تسرع في بيداء خالية يابسة لسراب وعذاب، لا لِعَذْبٍ وشراب..

اعلم! أن من عظيم علو القرآن واصدق دليل حقانيته:

محافَظَتهُ لكلِّ لوازمات التوحيد بمراتبه.. ومراعاتُهُ لموازنة الحقائق العالية الآلهية.. واشتماله على مقتضيات الاسماء الحسنى، والتناسب بينها.. وجمعهُ لشؤونات

---

(١) اي ان الصورالجميلة والنماذج الطيبة لاولئك الائمة العظام تحبب لك هذه الدنيا (ت: ١٢٣)

الربوبيـة والألوهيـة بكمال المـوازنة. وهذه خاصـيّةٌ مـاوُجدَت قطُّ في أثـر البشـر وفي نتـائج افكار اعـاظم الانسان من الاوليـاء المارين الى الملكوت، والاشـراقيين الذاهبين الى بواطن الامور، والروحانيين النافـذين الى عالم الغيب. فانهم لايحيطون بالحـقيقة المطلقة بانظارهـم المقـيدة، بل انما يشاهدون طَرفاً منهـا فيتشبثون به وينحبسون عليه ويتصرفون فيه بالافراط والتفريط.. فتختل الموازنة ويزول التناسبُ.

مَثلهم كمثلِ غوّاصين في البحر لكشف كنزٍ متزين ممتلءٍ بما لايحصى من اصناف الجواهر، فبعضٌ صادف يده ألماساً مستطيـلاً مثلاً، فيحكمُ بأن الكنزَ عبارةٌ عن الماسٍ طويل، وإذا سـمع من رفقائـه وجود سـائر الجـواهر فـيه يتـخيلهـا فصـوص ألماسـه، وصادف آخرُ ياقوتا كروياً وآخر كهربا[١] مربعاً وهكذا. وكل واحد يعتقد مشهودَه جـرثوم الكنز ومـعظمه، ويزعم مـسـموعَه زوائده وتفـرعـاته، فتـختل الموازنة ويزول التناسب، فـيـضطـرون للتـأويل والتـصلف والتكلف حـتـى قـد ينجـرّون الى الانكار والتـعطيل. ومَن تأمل في آثار الاشـراقيين والمتصـوفين المعتمـدين على مـشهـوداتهم بلاتوزين بميزان السُّنة لم يتردد فيما قلت.

ثم انظر الى القـرآن فانه ايضـاً غواص لكن له عينٌ مـفتـوحة تحيط بـالكنز ومافـيه، فيصف الكنزَ كما هو عليه، بتناسب وانتظام واطراد مثلا:

يشـتـمـل على ما تقـتـضيه عظمـةُ مَن ﴿ **والارضُ جـمـيـعـاً قـبـضَتُهُ يومَ القـيامـة والسـموات مطويـاتٌ بيمـيـنه** ﴾[٢].. وكـمـا قـال: ﴿ **يومَ نَطوي السّمـآءَ كَطيِّ السِّجـلِّ للكُتُب** ﴾[٣] مع انه ﴿ **يُصوِّرُكـم في الارحـامِ كـيـفَ يشـاءُ** ﴾[٤] ﴿ **مـامـن دآبـة الاّ هو آخذٌ بناصيتها** ﴾[٥] و ﴿ **خلق السَّموات والارضَ** ﴾[٦] مـع انـه ﴿ **خَلَقـكـم ومـا تَعـمـلون** ﴾[٧] ﴿ **يُحـيـي الارض** ﴾[٨]

---

(١) حجر كريم مشهور، وهو صمغ شجرة اذا حكّ صار يجذب التبن وغيره.
(٢) الزمر: ٦٧
(٣) الانبياء: ١٠٤
(٤) آل عمران: ٦
(٥) هود: ٥٦
(٦) الانعام: ٧٣
(٧) الصافات: ٩٦
(٨) الروم: ٥٠

﴿ وأوحى ربُّك الى النحلِ ﴾(١) ﴿ والشمس والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمرِهِ ﴾(٢) ﴿ أوَلم يروا الى الطيرِ فَوقَهُم صـآفاتٍ ويقبضنَ ما يُمْسِكُهُنَّ الاّ الرحمن إنه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ ﴾(٣) ويكتب صحيفة السماء بنجومها وشموسها ككتابة صحيفة جناح النحلة بحجيراته وذراته ﴿ وسع كرسيُّهُ السمٰوات والارضِ ﴾(٤) مع انه ﴿ وهو معَكُم أينَ ماكُنتم ﴾(٥) ﴿ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شئ عليمٌ ﴾(٦) وهكذا.. وقس عليها.. ومايشاهد في نوع البشر من انواع الفرق الضالة، انما نشأت من قصور أئمتهم المارين الى الباطن المعتمدين على مشهوداتهم الراجعين من اثناء الطريق المصداقين لما قيل: « حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء ».

اعلم! ان توصيفَ السماء بالدنيا في: ﴿ وَزيَّنّا السّماءَ الدُنيا ﴾(٧) ومقابلة الدنيا للآخرة، تشير الى ان السموات الست الأُخر ناظرة الى عوالم اخرى، من البرزخ الى الجنة، والمشهودة بنجومها وطبقاتهاسماء الدنيا. والله اعلم.

اعلم! انه جئ بك من العدمِ الى الوجود، ثم رقّاك موجدُك من ادنى اطوارِ الوجود حتى اوصَلكَ بإنعامه الى صورة الانسان المسلم. فما تخلل بينك بين مبدأ حركتك من المنازل الكثيرة المتعددة كلٌ منها نعمةٌ عليك، وفيك ثمرةٌ وصبغةٌ من كلٍّ واحد. فصرتَ كقلادةٍ منظّمة، وعنقود نضيد بحبات النعَم، وسنبلة منضدة من الرأس الى القدم، كأنك فهرستة لطبقاتِ نعَمه تعالى؛ ولأن الوجودَ يقتضي علّةً، والعدم لايقتضي.. كما تقرر في العقول.. تُسأل ويُسألُ عنك في كل منزل في مراتب الوجود من الذرة الى العدم: كيف وصلت الى هذه النعمة؟ وبِمَ استحققتها وبـ« هل شكرت؟ » ولايَسأل من له مسكةُ عقلٍ عن حَجَر لماذا ماصار شجراً، وعن شجرةٍ لماذا ماصارت انساناً...

(١) النحل : ٦٨
(٢) الاعراف : ٥٤
(٣) الملك : ١٩
(٤) البقرة : ٢٥٥
(٥) الحديد : ٤
(٦) الحديد : ٣
(٧) فصلت : ١٢

فيا أيها السعيد المسكين المغرور! انت نقطةٌ في وسط سلسلة الموجودات، فعليك نعَمٌ بعدد ماتحتَك الى العدم الصرف، وانت مسؤولٌ عن شُكرها. واما مافوقك فليس لَكَ ولالأحد أن يسأل لماذا ماوصلت الى أعلى مما انت فيه، كما لاحقَّ للذرة ان تقول:(اي واه) لِمَ ماصرتُ شمساً، ولا للنحلة ان تقول لصانعها: هلا خلقتَني نخلةً مثمرة؟.. اذ ماتحتك وقوعاتٌ، ومافوقك عدَمات إمكانات شبيهة الممتنعات..

اعلم! يا انا! ان مما اهلككَ واهواكَ وأوهمك واهزاك وأذلك واضلك؛ أنك لاتعطي كل ذي حق مقدارَ حقّه، وكل ذي حمل حملَهُ بوسعه، بل تَفرُطُ وتُفرِّطُ فتحمِّل على نفرٍ ممثلٍ للجيش كلَّ لوازمات الجيش العرَمرَم، وتتحرى في تمثال الشمس في عين القطرة او وجه الزهرة كلَّ لوازمات عظمة شجرة الشمس المثمرة بالسيارات. نعم، القطرة والزهرة تصفان ولاتتصفان..

اعلم! ان المُلكَ له، وامانته، واشتراه، لافائدة في (المرق). لاخير فيما لايبقى. وإياك ونقض العهد معه. وعليك بالموت، والموت المنجر الى الحياة اولى من هذه الحياة المنقلبة الى الموت.

اعلم![1] ان مافي المرآة كما انه «ليس عيناً ولاغيراً» فهو «عين وغيرٌ»، فمن حيث انه مظروف ملكوت المرآة «عين» فاحكامه احكام الاصل. ومن حيث انه صفة ملك المرآة المتلألئة به «غيرٌ»، فله اوصاف ناظرة الى المرآة، لا الى الاصل فقط. ومن الحيثيتين «لاعينٌ ولاغيرٌ». كما ان الشئ في مرآة الذهن – من وجه انه مظروفه – معلومٌ، ومن جهة انه صفته علمٌ مع تغاير لوازمهما...

اعلم! انه لاتزاحم بين العوالم المختلفة في نوع الوجود. فان شئت فادخل في ليلة مظلمة منزلاً منوراً بالمصابيح واربع جدرانه من الزجاجة التي هي نوع مشكاةٍ للعالم المثالي.

فأولاً: ترى فيها باتصال – الحقيقي بالمثالي – منازل عديدة متنورة عمّت البلد كأنه لاظلمة بمقدار مد النظر..

وثانياً: تراك تتصرف بالتغيير والتبديل بكمال السهولة في تلك المنازل..

---

(١) تفصيل هذه المسألة في «الكلمة السادسة عشرة».

وثالثاً: ترى السراج الحقيقي اقرب الى ابعد السُرُج المثالية من لصيقه، بل من نفسه لانه قيّومه..

ورابعاً: ترى ان حبةً من هذا الوجود تقتدر ان تقل وتحمل عالماً من ذلك الوجود.

فهذه الاحكام الاربعة تجري في مواد كثيرة حتى بين الواجب وعالم الممكنات التي وجوداتها ظلال انوار الواجب، فوجودها في مرتبة الوهم، لكن استقرّ وثَبتَ – بامره تعالى له – وجودٌ خارجي، فليس خارجياً حقيقة بالذات ولاوَهمياً محضاً ولاظلياً زائلاً بل له وجودٌ بايجاد الواجب الوجود. فتأمل..

اعلم! انه كما انه محال ان لايكون لهذا المُلك المُعتنى به مالك، كذلك محالٌ ان لايتعرف ذلك المالك الى الانسان الذي يدرك درجات محاسن الملك الدالة على كمالات المالك، مع ان ذلك الانسان كالخليفة في مهده الممهّد له يتصرف فيه كيف يشاء؛ بل في السقف المحفوظ السماوي ايضاً بعقله. ومع ذلك ان الانسان اشرفُ المخلوقات بشهادة تصرفاته العجيبة الخارقة مع صغره وضعفه، وانه اوسعُ الاسباب اختياراً بالبداهة. فبالضرورة يرسل المالك من يعرّف المالك الى مماليكه الغافلين عنه ويخبرهم مايرضى به ويطلبه منهم ذلك المالك جل جلاله..

اعلم! ان كل الحواس حتى الوهم والفرض والخيال يتفقون في النهاية على الحق ويلتجؤن اليه، ولايبقى عندهم للباطل امكان. فيقرون بان الكائنات لايمكن أن تكون الاّ على ما اخبَربه القرآن.. هكذا شاهدتُ وعقلي معي.

اعلم! انه كما لاتزاحم ولاتصادم بين عالم الضياء وعالم الحرارة وعالم الهواء وعالم الكهرباء (والالكتريقية) وعالم الجاذبة الى عالم الأثير والمثال والبرزخ. تجتمع الكلُّ بلا اختلاط معك في مكانك بلا تشكّ من أحدٍ منكم، من مزاحمة أخيه.. فهكذا يمكن ان يجتمع كثيرٌ من انواع العوالم الغيبية الواسعة في عالم أرضنا الضيقة. وكما لايعوقنا الهواء من السير ولايمنعنا الماءُ من الذهاب ولايمنع الزجاجُ مرورَ الضياء ولايعوقُ الكثيف ايضاً نفوذَ شعاع (رونتكن) ونورِ العقل وروحِ المَلَك، ولايمنع الحديدُ سيلانَ الحرارة وجريان (الالكتريق) ولايعوق شئ سريانَ الجاذبة وجولان

الروح وخدّامه وسيران نور العقل وآلاته.. كذلك هذا العالمُ الكثيف لايمنع ولايعوق الروحانيات من الدوران، والجن من الجولان، والشيطان من الجريان، والمَلَك من السيران..

اعلم! ان النور والنوراني كالعين والسراج والشمس، يتساوى لها الجزئي والنوع والجزء والكل والواحد والألوف. فانظر الى الشمس كيف انصبغت بتماثيلها السيارات والبحورُ والحياضُ والحبابات والقطرات والرشاشات (والشبنمات) والذرات الزجاجية، دفعةً بالسهولة والمساواةِ بين السيارات والذرات.

كذلك ﴿ولله المَثَلُ الأعْلى﴾ تصرفات شمس الازل نور الانوار في كتاب الكائنات هكذا.. يكتُب كلَّ ابوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجمله وحروفه دفعةً بلا كُلفة كما قال: ﴿ماخَلقُكُمْ ولا بَعثُكُمْ الاّ كنَفْسٍ واحدة﴾[1].. آمنّا..

اعلم! ان من تأمل في ذرات الاشياء وسَرَيانها الى حدود، ثم توقفها عندها لفوائد وثمرات، تيقّن ان عند الحدود من يأمر الذرات بـ: قفي وانثني! كما يأمر القالبُ الذهبَ الذائبَ بلسان حديد، وينهى بـ: لاتَسِل واستقرا! فيما عيَّنْته لك معاطفي وتلافيفي المصنوعة لحكم.

وآمرُ الذرات ما هو الاّ علمٌ محيطٌ يتجلى ذلك العلمُ قدراً، فينعكس القدَرُ مقداراً فينطبع المقدارُ قالباً..

............[2]

اعلم! ان القرآن كما يفسّر بعضه بعضاً، كذلك ان كتاب العالم يفسرٌ بعضُ آياته بعضها. فكما ان العالم المادي يحتاج احتياجاً حقيقياً الى شمس تفيض منها عليه انوارُ نعمته تعالى، كذلك العالمُ المعنوي يحتاج ايضاً الى شمس النبوة لفيضان اضواء رحمته تعالى. فنبوةُ احمد عليه الصلاة والسلام في الظهور والوضوح والقطعية بدرجة الشمس في وسط النهار، وهل يحتاج النهارُ الى دليل؟..

(١) لقمان : ٢٨

(٢) في (ط١) : (اعلم) : ان الاسماء الحسنى ابواب متفاوتة ،ووجوه مختلفة ، ناظرة الى الذات، وقد تتجلى اسماء متقابلة في شئ واحد، كالمعطي والمانع والضار والنافع ، فيدل على انه كما يعطي لهذا قصداً ، يمنع ذلك الشئ من ذا بارادة ،ويضر ذاك بما ينفع هذا . كلاهما مرادان له تعالى ، ويتحدس من هنا : ان من اتصف بحقيقة اسمٍ من الاسماء يتصف بجميعها.

اعلم! ان الثمرات المترتبة على وجود الحي لاتنظر الى الحي وبقائه ونفعه وكماله فقط، بل اليه بحصة ودرجة، والى المحيي جل جلاله بدرجات غير محصورة.. فحصةُ الحي قد لاتحصل الا بزمان مديد، لكن ما ينظرُ الى المحيي قد يحصل في آنٍ سيال، كاظهار الحي – بمعكسيته ومظهريته لتجليات الاسماء الحسنى – حمدَ خالقه بتوصيفه بأوصافِ كماله وجماله وجلاله بلسان الحال..

اعلم! ان فرد الانسان كنوع سائر الانواع، بسر:

ان فرد الانسان له ماض ومستقبل يجتمع في الشخص معنىً كلُّ مَن مات منه من افراد نفسه؛ اذ في كل سنة يموت منه فردان صورةً ويورثان فيه معنييهما من الآلام والآثام والآمال وغيرها، فكأنه فردٌ كلي.. واحاطةُ فكره وعقله ووُسعة قلبه وغيرها تعطيه نوعَ كليةٍ.. وكون فرده كنوعه في الخلافة والمركزية لعالَمٍ خاص كالعالم العام.. والعلاقة الشعورية مع اجزاء العالم وتصرفه في كثير من انواع النباتي والحيواني والمعدني تحويلا وتغييراً خلافاً لسائر الحيوانات وغيرها، ايضاً تعطي له نوع كليةٍ، كأنَّ كلَّ فردٍ نوعٌ منحصر في الشخص.. ودعاء المؤمن لعموم اهل السموات والارض يشير الى ان الشخص يصير بالايمان كعالَم، او مركزه. فما تجري في نوع الحيوان من القيامات المكررة النوعية المشهودة في كل سنة – فان شئت فَانظُر الى آثارِ رحمة الله في كل سنة في الثمرات المتجددة الامثال كأنها اعيانها، والى حشر انواع الهوام والحشرات بكمال سهولة من القيامة – تجري بالحدس القطعي في كل فرد من افراد الانسان، فيدل كتاب العالَم في هذه الآيات التكوينية على قيام القيامة الكبرى لابناء البشر، كما يدل القرآن عليه بالآيات التنزيلية.. فالدلائل العقلية على القيامة ذكرتُها في «اشارات الاعجاز»[١] وفي الباب الثالث في «نقطة»[٢] فراجعهما ان شئت، فان فيهما مايطرد عنك الوساوس ويطيّر عنك الاوهام..

اعلم! انك اذا استمعت القرآن فألبس لكلِّ نغمةٍ من نغماته المتطوّرة على الحُجُب، والمتنوعة في المراتب الارشادية، والمنصبغة بحسياتِ الوسائطِ، من جبرائيل عليه السلام الى من تسمع منه، مايناسبها.

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ و﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾

(٢) وقد وسع الاستاذ المؤلف كلاً من الباب الثاني والباب الثالث من هذه الرسالة فاصبحا «الكلمة التاسعة والعشرين» لذا لم يدرجا ضمن رسالة «نقطة من نور معرفة الله» في هذا الكتاب.

فلك ان تَمُرّ بسمعك من القارئ في مجلسك الى الاستماع من النبيِّ ﷺ الذي يقرأُه في ذروة شاهق النبوة في مجلس الارض على ابنائها من بني آدم وغيرهم.

ولك ايضاً ان تستمع من جبرائيل وهو يخاطب النبيَّ في الافق الاعلى «عليهما الصلاة والسلام».

ولك ان تستمع من خلف سبعين الف حجابٍ من المتكلم الأزلي، وهو يتكلم مع النبي في قاب قوسين او ادنى. فألبسْ ان استطعتَ لكلٍّ ما يليقُ به!..

اعلم! ان ما يتعلق بك منك من الشعور والعلم، انما هو بدرجة مايرجع اليك منك، بسر: عدم الاسراف، ومناسبة السبب للمسبَّب، والقوة للعمل. ومايرجع اليك بالنسبة الى مايرجع الى مَن خَلَقَك كنسبة شعرةٍ الى حبل، وخيط الى ثوب. فنسبة علمك وشعورك المتعلقين بك بالنسبة الى علمه وبصره المتعلقين بك كنسبة (تنور الذباب)[1] الذي يبرق منه النور كنُجيمةَ بتلمعه في النهار تحت ضياء الشمس المحيط به. وانت في ظلمات الغفلة، وليل الطبيعة ترى لمعتك نجماً ثاقباً..

اعلم! ان فيما بين افعال الله تناسباً، وبين آثاره تشابهاً، وبين اسمائه تعاكساً، وبين اوصافه تداخلاً، وبين شؤوناته تمازجاً. الاّ ان لكلٍ طوراً يخصُّه، يستتبع ماسواه في طوره. فلا يتوجّه قصداً في بيته ودائرة حُكمه الى غيره، ولا يُطلب لوازم الغير منه، لأن لازم اللازم ليس بلازم الاّ بقصدٍ جديد. اذ التابع لايُستتبع، كما ان الحرف التبعي لايُحكم عليه.

فاذا نظرت من آثاره الى الجامدات فتوجّه قصداً الى القُدرة والعظمة، ويتراءى لك تجليات سائر الاسماء استطراداً وتَبَعياً.

فاذا نظرت الى الحيوانات الغير الناطقة فالبَس لها طورها، فهكذا ﴿**وكل شئ عندهُ بمقدار**﴾[2] ﴿**خلق كل شئ فقدره تقديراً**﴾[3].

اعلم! ان «لاَحَولَ ولاَقُوَّةَ الاّ بالله» ينظر الى مراتب اطوار الانسان وادوار وجوده من الذرات الى الوجود الحي، معدناً جامداً، ونباتاً نامياً، وحيواناً حساساً، وانساناً مؤمناً، ففي كل مقام من تلك المنازل، ولكل لطيفة من لطائفه آلامٌ وآمال:

(١) المقصود: اليراعة.
(٢) الرعد: ٨
(٣) الفرقان: ٢

فلاحول عن العدم ولا قوةَ على الوجود الاّ بالله..

لاحول عن الزوال ولا قوةَ على البقاء الاّ بالله..

لاحول عن المضار ولا قوةَ على المنافع الاّ بالله..

لاحول عن المصائب ولا قوةَ على المطالب الاّ بالله..

لاحول عن المعاصي ولا قوةَ على الطاعات الاّ بالله..

لاحول عن النقم ولا قوةَ على النعم الاّ بالله..

لاحول عن المساوئ ولا قوةَ على المحاسن الاّ بالله..

لاحول عن الآلام ولا قوةَ على الآمال الاّ بالله..

لاحول عن الظلمات الهائلة ولا قوة على الانوار المتلألئة الاّ بالله العلي العظيم.

اعلم[1] من توكل على الله فهو حسبه:

﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ**﴾؛ لانه مالكنا ومالك الكل، فالكلُّ كمُلكنا إن كنّا له تعالى.

﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ**﴾؛ لانه الكامل المطلق والكمال محبوب لذاته، من شأنه ان يُفدى له الوجود.

﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ**﴾؛ لانه الجليل الجميل ذو الكمال والجلال والجمال المحبوب لذاته، فلشوق تجديد تجليات جماله نموت ضاحكين ونحيا مسرورين.

﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ**﴾؛ لانه الواجب الوجود الموجد لكل موجود فعلمنا بوجوب وجوده يعطينا كل الوجود، وبعدم العلم يصير في يدنا نقطة وجود يتحامل عليها أعدام هو ملء الدنيا.

﴿**حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ**﴾: لانه القديم الابدي الدائم الباقي ﴿**كلُ شئ هالكٌ الاّ وجهه**﴾[2].

---

(١) [ان ايضاح هذا القسم الذي يخص «حسبنا الله» في اللمعة التاسعة والعشرين العربية وفي الشعاع الرابع والرجاء الرابع عشر والخامس عشر من رسالة الشيوخ] المؤلف.

(٢) القصص : ٨٨

﴿حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ﴾؛ لان الدنيا فانية والحياة زائلة.

﴿حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ﴾؛ لان بدونه يصير كلُ لذائذ الدنيا منغّصة بآلام هائلة، وبالتوجه اليه والارتباط برحمته لاتزيد اللذائذُ الزائلة الا لذة تجدّد الامثال خالصة عن آلام الزوال.

﴿حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ﴾؛ لان به انوارُ الوجود وبدونه ظُلمات الأعدام الهائلة.

﴿حَسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ﴾؛ لانه إن عرفناه وشكونا اليه وأرضيناه كفانا كلّ حاجاتنا الى انواع الكائنات، وأما اذا توجّهنا الى الاسباب - التي حاجاتُنا عندها في النظر الظاهري - وشكونا اليها فمع انها عمي صم لاتسمعنا ولاترانا، تتشوش علينا الامورُ وتتشتت بنا الطرقُ، كمثل مَن شكى الى سلطان فانفذ في آن، ومَن شكى الى كلّ اهلِ البلد فرداً فرداً ليتفقوا على إمداده. ولو اتفقوا ما اتفقوا الا في زمان طويل وتكلف عظيم!!

اعلم! ان من لطائف اعجاز القرآن ومن دلائل انه رحمة عامة للكافة:

انه كما ان لكلِ احد من العالم عالماً يخُصُّه، كذلك لكلٍ باعتبار مَشْرَبه من القرآن قرآن يخُصُّه ويربّيه ويُداويه.

ومن مزايا لطف ارشاده:

ان آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينها، يتيسرُ لكلِ احدٍ ان يأخذَ من السّوَر المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه، كما أخذَها عمومُ اهل المشارب واهل العلوم؛ فبينما تراها أشتاتاً باعتبار المنازل والنزول، اذاً تراها قد صارت كقلادة منظمة إئتلفت واتصلت مع أخواتها الجديدة. فلا بالفصل من الاصلِ تنتقص، ولا بالوَصْل بالآيات الأُخر تستوحش. فهذا السر يشير الى ان لاكثر الآيات الفرقانية مع سائر الايات مناسباتٌ دقيقة يجوز ذكرها معها واتصالها بها.

فكما أن سورة «الاخلاص» اشتملت على ثلاثين سورة بضمّ جُمَلها بعضٌ الى بعض دليلاً ونتيجةً، كما ذكر في [اللوامع][1] كذلك القرآن الكلّي الجزئي والنوع

---

(١) المنشورة ملحقة بمجلد «الكلمات».

المنحصر في الشخص يشتمل بجامعية الايات للمعاني المتعددة ومناسبة الكل للكل يحتوي على الوف الوف قرآنٍ في نفس القرآن. فلكل ذي حقيقة فيه كتابٌ يخصّه ومن اتبعه..

اللهم يامنزلَ القرآن

بحقّ القرآن

اجعلْ القرآنَ مونِساً لي في حياتي وبعد مماتي

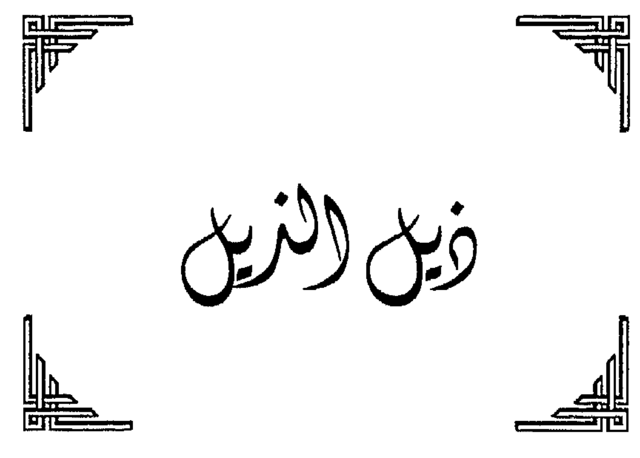
ونوراً في قلبي وقبري..

لا إله الاّ الله مُحمّدٌ رسُولُ الله..

الوداع[١]

* * *

(١) ظننت بشدة مرضى قرب الاجل في ذلك الوقت فقلت : الوداع. انا اسافر من باب القبر الى مجمع احبابي واساتيذي ورفقائي من طلبة المدارس والنور. المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحمن الذي من لطائف عظائم ثمرات طوبى رحمته: «سيدُنا محمد» عليه الصلاة والسلام والجنّةُ المتدلّيَيْن على الدارين.. والقديرُ الذي هذه الموجوداتُ الجديدةُ الجلية، والاجرامُ العلوية في بستان الكائنات شواهدُ ربوبيته، وهذه النباتاتُ المتلونة والحيوانات المتنوعة في حديقة الارض خوارقُ صنعته وبراهينُ الوهيته، وهذه الازهارُ المنوّرةُ والاشجارُ المُثمِرةُ في هذه الجنان معجزاتُ قدرته ودلائلُ رحمته، وهذه الشجرةُ بأوراقها وازهارها واثمارها في هذه الروضة معجزاتُ قدرته.. تشهد كلٌّ على انه على كل شئ قدير.

فالواقعاتُ الماضية معجزاتُ قدرته، تدلُّ على انه قادرٌ على كل المُمكناتِ الآتية لم يَخرج فيما مضى ولن يَخرجَ فيما يأتي شئٌ من حكم قُدرته. تتساوى بالنسبة اليه الذراتُ والشموسُ.. وهو الحقُّ المُبين الواحدُ الاحدُ الذي تُنشدُ ذرات الكائناتِ ومركّباتُها بدلالاتها المختلفة وألسنتها المتنوعة مشيرةً الى جماله المطلق:

عباراتنا شتّى وحسنك واحد   وكلٌّ الى ذاك الجمال يشيرُ

ويتلو كتابُ الكائنات بابوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجُمله وحروفه آيات وجوبه ووحدته، وتقرأ سطورهُ على العقول:

تأمل سطور الكائنات فانها   من الملأ الأعلى اليك رسائل

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين..

اعلم! ياسعيد الشقي! لاتنظر الى ماليس لك، بل انظر اليكَ، ايُّ شئ انت؟ وما انت؟ وبِمَ تستند؟ اذ انت عَجزٌ متجسّدٌ واحتياجٌ محضٌ ومجسّمُ إنعامٍ ونومٌ مموَّهٌ باليقظة.

فالعجز جسدُك والاحتياجُ روحٌ فيه يتحرك، والإنعام جسمك، وحياتُك نومٌ تسكن به. (اي واه) واشقاوتا أغرقُ في قطرة تصير بحراً عليّ، واغيبُ في آن يصير كالأبد، واظن لمعةَ هذه الحياة شمساً شارقة!

ايها السعيد المسكين! مارأس مالك الا ستون ديناراً تقريباً، اخذت خمسة واربعين فصرفتها كلَّها لمصارف يوم في خانِ الدنيا، ونسيتَ بيتكَ وما يلزم له فصار مالُكَ عليكَ ديْناً وناراً، وما بقيَ من خمسةَ عشر ديناراً مجهولٌ لاتدري أتأخُذُها او بعضها او لاتأخذ شيئاً منها. فكلما اخذت شيئاً منها فاصرفه لبيتك الدائمي. ولا اقل استبْقِ لكَ ثُلثه ليَصيرَ لك ديناً ونُوراً. فما اجهلكَ واشدكَ خسارة! صرفت كلَّ الماخوذ ليوم زائل وما بقي في يدك لمقامك الباقي الا اقلَّ قليل، وانت راحلٌ غافلٌ، كانت لك ثلاث درجات.. خطوت على اثنتين بخروجك من المنزل والبلد، فرفعت قدمك لتخطى على الدرجة الثالثة بالخروج من الدنيا الفانية.

اعلم![1] انه كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من افواه الناس، اذ يقولون: «تشكَّل بنفسه».. و«اقتَضتْهُ الطبيعة» و«اوجَدَتْهُ الاسباب». فهذه الجمل الثلاث باطلة، ومن ظروف المحالات: اذ انك موجود، فإما انتَ مصنوعُك بالنظر الى الجملة الاولى.. وإما مصنوع اسباب العالم كما اقتضته الثانية.. وإما مصنوعٌ بطبيعة موهومة، وقوة عمياء كما تدل عليه الثالثة.. وإما مصنوع الله كما يستلزمه الحق والحقيقة.

اما الاوّل: فمحالٌ بوجوهٍ غير محصورة:

منها: لابد ان تعطي لكل ذرةٍ من ذراتك عيناً ترى كلَّكَ بل كلَّ الكون وشعوراً كذا، وهكذا ممّا يستلزمه كمال صنعتك لنظر نسب الجزء الى نقوش الكل.

ومنها: لابد ان توجد فيك عدد المركبات المتداخلة المتصاعدة المتنازلة في ذراتك قوالب كقوالب الطبع من الحروف الحديدية المصنوعة ايضاً، لو لم تُكتب بقلم القدير الازلي الواحد.

---

(١) اللمعة الثالثة والعشرون «رسالة الطبيعة» تفصيل لهذه الفقرات.

ومنهـا: لابد ان يكون كل ذرة بسر وحدة الاثر حـاكـمةً على الـكل ومحكومـة للكل، كالاحـجار في البناء المعـقد بفـرض نفي الباني.. وكذا ضـداً ومثـلاً، ومُطلقةً ومقيدةً، ومصدراً ومـنبعاً لصفاتٍ تستبعد وجودها حـتى فيمن يطوي السماء كطي السجل!

واما الثاني: فمحالاته لاتحصى:

منها: ان المـواد التي صُنِعت منها كزجـاجات الادوية في «صـيدليـة»، فإن أمكن عندك ان يخـرج بانصـباب وسـيـلان بلا مداخلة أحـدٍ من كل زجـاج مـقدارٌ مـعين بميزان حـساس، ثم تجتـمع المقاديرُ المتفاوتـة لتشكيل علاج الحيـاة او تركيب معـجون حيويّ، أمكنَ لك ان تتوهـم صدورك من اسباب جامدة.

ومنهـا: صدور شئ واحـدٍ بكمـال الانتظام من اسـبابٍ غـير مـحـدودة جامـدين متشاكسين عُمياً صماً مترددين بين الامكانات. تزداد بالاختلاط أعميّتها وأصميّتها، ومع ان مـباشـرتهـا بظاهر الشئ. والحـال ان باطنه ألطفُ واكـمل صنعـة، فـمحـاليـةُ صدورك منها اظهرُ من ان يُخفى.

ومنهـا: ان اجتـماع تلك الاسباب الغـير المحصورة بكمال الاتفـاق والانتظام بميزان الحاجة في حجيرة من حجيرات عـينك ليس بأسهلِ من اجتماع اركان العالم بوجوده الخارجي بأجرامه العظيمة في كـفِّك، بل في ظُفرِكَ، بلِ في حجيرةٍ منه؛ اذ من يعملٍ في بيت، جاز اشتمال البيت عليه ان كان العـامل مادياً، فما دام العالم باجزائه عاملاً في جـزئكَ جـاز دخـوله في ذرتك. وهذه سـفـسطة يخـجل منهـا السـوفـسطائي.. وهكذا من المحالات المتسلسلة والممتنعات العقلية والاباطيل التي تمجّها الاوهام.

والاحتمال الثالث: وهو تأثير الطبيعة، فابطلُ وافسد.

اذ الطبيـعة لهـا ظاهرٌ عرفي مـوهوم ظَنّته الغفلةُ والضـلالة حقـيقةً، ولهـا باطنٌ هو الصنعة الإلهية والصبغة الرحمانية.

واما القـوةُ فحقيـقتهـا تجلي قدرة الحكيم العليم الخبـير المريد. واما مـا يصوره نظرُ الغـفلة والتـغـافل من الصـانع الـواحد ومـا اتصـل به من جناحي التـصـادف الاعـمى والاتفاقية العوراء.. فمن مخترعات الشياطين بالاضطرار الناشئ من الضلالة.

ولقد حققنا في «نقطة، وقطرة وذيلها، وشمة، وذرة، وحبة وذيلها» بما لم يُبق شبهة: ان هذه الصنعة الخارقة لاتصدر الاّ من قدرة خبير بصير، يتصف بجميع اوصاف الكمال.

فاين يد الممكن المسكين المقيد المحدود الجامد الكثيف من نسج حلة الكائنات؟! وأين يد البعوضة من نسج قميصات مطرزات منقشات لَبِسْتها هذه العوالم؟!

فلم يبقَ الاّ ان تكون انت وكلُّ شئ، مصنوعَ الصانع الازلي الذي شواهدُ خلاقيته بعدد الموجودات:

منها الكائنات بجميع ذراتها ومركباتها. كُلٌّ يشهدُ عليه بخمس وخمسين لساناً كما في «قطرة».

ومنها: القرآن مع كل كتب الانبياء والاولياء والموحّدين، مع الآيات التكوينية في الكون..

ومنها: سيدُ الانام مع كل الانبياء، والاولياء والمَلك..

ومنها: ما في الجن والانس من الفطرة بانواع احتياجاتها..

ومنها: ﴿ **شَهِدَ الله أنّهُ لا إلهَ الاّ هُوَ** ﴾[1] فمع ما سمعت:

فاعلم! ان مَثَل اسناد الصنعة الى الممكن على الوجوه الثلاثة الأُول، والى الواجب كما هو الحقُّ؛ كَمَثَلِ الشجرة باثمارها إن اسندتها للوحدة، بان اسندتها بقوانين النمو الى جرثومها المستمد من النواة الممتثلة للاوامر التكوينية المُفاضة من أمر «كُن» الصادر من الواحد الواجب. فالشجرةُ بجميع اجزائها واوراقها وازهارها واثمارها كثمرةٍ واحدة، ولا فرق بين شجرة ذات ثمرتين كخردلتين، وشجرة كجبل ذات اثمار غير محدودة من الجوز الهندي (لسر مجهول[2] في وجود السهولة واليُسر في الوحدة والاتفاق، حتى في تشريك المساعي وتوحيدها بتقسيم الاعمال.. ووجود الصعوبة والعسر في الكثرة والتشتت).

---

(١) آل عمران : ١٨

(٢) [لم ينكشف ذلك السر بعد اثناء تأليف هذه الرسالة، الاّ انه اتضح بعد ذلك بـ« الشفافية والمقابلة والموازنة والانتظام والتجرد والاطاعة »]. المؤلف.

وأما اذا اسندت الى الكثرة الامكانية وغير ما عيّنه الصانع؛ لاحتاج كُلُّ ثمرةٍ وكلُّ زهرةٍ وكلُ ورق وكل غصن الى كلِّ ما يحتاج اليه كلُّ الشجرة، لاندماج انموذج الكل في جزءٍ جزءٍ. فانظر ما ترَى: ما بين الشقين، كما بين الوجوب والامتناع؛ اذ سهولة الاوّل بدرجة جاز أن يقال يجب ان يكون هكذا.. وصعوبة الثاني بدرجة تضطرنا ان نقول: يمتنع ان يكون كذا.

الحاصل: ان أعطيتَ التصريف لغيره تعالى لزمك:

اما ان تجعل كلَّ حجيرة من حجيرات اجزائك محيطة بصفاتها بالكائنات، إن اسندتها الى نفسها.. وإما ان تجعل كلَّ حجيرة كحجرة تجتمع فيها مجموع أسباب العالم العاملة فيها، إن اسندتها الى الاسباب؛ لأن وحدةَ الحجيرة الى ان تصل الى وحدة العالم تدل على وحدة الصانع، اذ الواحد لايصدر الا عن الواحد، لاسيما الحجيرة التي لاتسع اصبعين لبعوضتين، فكيف تسع ما لايسعه كلُّ الكون من تصرف الهين؟ فدليل الوحدة هو الوحدة. وزجيجة - كخردلة - يمكن ان توجد فيها الشمسُ بضيائها والوانها وحرارتها بالتجلي بكمال السهولة، ولايمكن وجود خردلتين في خردلةٍ بمصدريتها لهما.

فكما ان الوجود الخارجي اثبتُ واثقلُ واحكمُ من الوجود المثالي، فتسع ذرةُ ذاك جبلَ هذا، وشمسُ هذه تدخل في لمعةِ ذاك.. كذلك الوجود الوجوبي اثبت وارسخ وارزن وارصن بل هو الوجود الحقيقي والخارجي البحت، واحقّ بما لايُحد من الوجود الامكاني، فالموجودات الامكانية بحذافيرها المتمثلة في مرآة العلم الازلي المحيط تصيرُ كالمرايا لتجليات انوار الوجود الوجوبي. فالعلمُ مرآتُها، وهي مرآة الوجود الوجوبي. فوجودها خرج من مرتبة العلم الى الوجود الخارجي، ولم يصل الى مرتبة الوجود الحقيقي...

اعلم! انه من تأمل في الكون يتحدس منه: ان الفاعلية والتأثير من شأن اللطيف، والنوراني، والمجرد.. وان الانفعال والقابلية والتأثر من شأن المادي والكثيف والجسماني.

فان شئت انظر الى النور والى الجبل، فالاول: يقوم في السماء، ويدهُ الرقيقة اللطيفة في الارض فعالة جوالة. والثاني: بعظمته وباياديه الغليظة لايقتدر على فعل

وتأثير حتى في لصيقه وجاره.. وكذا نرى في تفاعل الاشياء في الظاهر: ان بدرجة لطف الشئ ونورانيته تظهر مرتبة السببية فيه، وبالكثافة يتقرب الى درجة المسبَّب. فيُعلم من هنا ان خالق الاسباب الظاهرية وموجد المسبَّبات هو نورُ الأنوار الذي: ﴿ لَيسَ كَمثله شَئٌ وهوَ السميعُ البصير ﴾(١) ﴿ لاتُدْرِكهُ الأبصارُ وهو يُدرِكُ الابصارَ وهوَ اَللطيفُ الخبير.. ﴾(٢) لا إله الاّ هو...

اعلم! ان التفكر نور يُذيبُ الغفلة الباردة الجامدة، والدقةُ نارٌ تحرق الاوهامَ المظلمةَ اليابسة، لكن اذا تفكرتَ في نفسك فدقّق وتمهّل وتغلغل وفصّله تفصيلاً، بمقتضى الاسم «الباطن» المتعمق؛ اذ كمالُ الصنعة اتمُّ في تحليله وتفصيله..

واذا تفكرت في الآفاق، فاجمل واسرع ولاتَغُص ولا تَخُضْ الاّ لحاجة ايضاحِ القاعدة، ولا تحدد النظر، كما هو مقتضى الاسم «الظاهر» الواسع؛ اذ شعشعة الصنعة أجلى وابهرُ واجملُ في إجماله ومجموعه، ولئلا تغرق فيما لا ساحل له.

فاذا فصلتَ هناك - يعني في نفسك - واجملتَ هنا، تقربّتَ الى الوحدة. فصارت الجزئياتُ اجزاءً، والانواعُ كلاً، والمختلط ممتزجاً، والممتزج متحداً فيفور منه نورُ اليقين.

واذ عكستَ بان اجملتَ فيك، وفصّلتَ في الآفاق تتشتت بك الكثرةُ وتستهوي بك الاوهامُ وتستغلظ انانيتُك وتتصلّب غفلتُك، فتنقلب طبيعةً. فهذا طريق الكثرة المنجرة الى الضلالة... اللّهمَّ لاتجعلنا من الضالين آمين...

اعلم! انه قد روي ان الانسان «اذا تحرك سكن رزقهُ، واذا سكن تحرك رزقهُ». الحق انه من لمعات حقيقة واسعة.. فانظر الى الاشجار لما سكنتْ متوكلةً تحركتْ اليها ارزاقُها، والى الحيوانات لما تحركتْ حريصات سكنتْ عنها ارزاقها ثابتة في مقامها نابتةً على عروقها، تدعو بالوانها وروائحها الى انفسها من جاع واحتاج من الحيوانات المتحركة باهوائها والدائرة بهوَساتها..

اعلم! انه ما اجهل الانسان الغافل وما اضلّه وما اضرّه لنفسه!. يترك خيراً عظيماً لوجود احتمال عائقٍ بين تسعة احتمالات سائقة، ويرتكب الضلالة بترك الهداية لشبهةٍ سوفسطائية مع وجود الوفِ براهين الهداية، والحال ان الانسان وهّام ذو

(١) الشورى: ١١
(٢) الانعام: ١٠٣

احتياط وحزمٍ يتجنب من المضار العاجلة باحتمالٍ واحدٍ من عشرة احتمالات. فكيف لايتجنب من اضرّ المضرات بتسعة احتمالات بل بتسعةٍ وتسعين؟!.

اعلم! ان في روح الانسان احتياجات لاتتناهى وقابليةً لتألمات لاتتناهى واستعداداً لتلذذات لاتتناهى ومهيءٌ لآمال والآم لاتتناهى؛ حتى ان الشفقة مع ضلالة القلب تتضمن آلاماً غير متناهية. كما ذكر في «قطرة». فليس لك ان تقول: ما انا ومَن انا وايُّ شئ انا حتى تقوم لي القيامة، ويوضَع لي الميزان، ويجري عليّ الحساب!

فيا ايها الضال الشاك..! لاتغتر بهذه الحياة، فان لذتها معلقةٌ بمغلطة مربوطة بالشك لأهل الضلالة. فيفرُّ الضالّ الشاك من دهشة ألم الزوال والفناء الى احتمالٍ السعادة الابدية. ويفرُ ايضاً من تكلف تحمل التكاليف الدينية الى احتمال عدمِ الآخرة، فيتخلص بهذه المغلطة من الألَمين مؤقتاً. ففي قريب من الزمان تنحلُّ عليه العقدة، وتنكشف الحقيقة. فلا الاحتمال الاول، يهوِّن ألَمه بل يحسه كلَّ الألم دفعةً، ولا الثاني، يخفف حمله بل يضاعف عليه آلاماً جهنمية.

وكذا يقول - لكن في زمان قليل - : فالمصيبة عمّت وطابت، فلا عليّ اني كأمثالي فلا أُبالي! لكن يجئ زمان عن قريب، تتضاعف عليه المصيبة بدرجة عمومها، كاصابة الشخص في نفسه ثم أقاربه وأحبابه، لأن في روح المرء علاقات بأبناء جنسه فمهما عمّت المصيبةُ تضاعفت البلية.

ايها الشاك الغافل! لاتحسب ان ما تذوقه بيدي الغفلة والشك لذة لذيذة، بل فيه ادخار آلام أليمة، ستهجم عليك دفعةً وتنقلب آلاماً جهنمية. فإن احببتَ ان يتبدل لك هذه الآلامُ المترصدة لذائذَ متجددةً، وتنقلب هذه النارُ نوراً؛ فقوِّس انفَ غرورك بالركوع في الأوقات الخمسة، ووسِّع رأسه لنزول ضيفِ الفرقان مع فيض الايمان. فلابد من المداواة بالتفكر بالآيات وملازمة الطاعات كي يخرق حجاب الشكوك والغفلات وتنضح حلاوة النجاة من مرارة هذه الضلالات، وتنكشف لذة المناجاة..

اعلم![1] ان العبودية تستلزم التسليمَ دون الاختبار والتجربة والامتحان اذ «للسيد أن يختبر عبدهُ، وليس للعبد ان يختبر ربّه»!..

---

(١) تراجع المذكرة الثالثة عشرة من اللمعة السابعة عشرة.

اعلم! ان دائرة الاسم «الباطن» ودائرة الاسم «الظاهر» متداخلتان ومتقابلتان. فاهل الأُولى يقولون: قدرته مثلا كالبحر. واهل الثانية يقولون: كالشمس. فالبحر كالكل ذي الاجزاء. والشمس كالكلي ذي الجزئيات تماثيلها كجزئياتها. والباطني المحض المفرط لايخلص من شائبة التجزء والاتحاد. والظاهري السطحي المخالف للسنة لايخلص من شوب شرك الاسباب، فالصراط المستقيم هو القرآن..

فيا مُنزلَ القرآن، بحق القرآن

اهدنا الصّراط المُستقيم

آمين آمين

آمين

* * *

الرسالة السابعة

زَهْرَةٌ

مِنْ رِيَاضِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم استقبال» باستانبول سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣)م ثم ترجمها الاستاذ النورسى الى اللغة التركية مع شئ من الايضاح وجعلها «اللمعة السابعة عشرة» في خمس عشرة مذكرة وقد اشرنا الى موضع كل مسألة من اللمعة المذكورة، فمن شاء فليراجعها.

كلُّ حيّ في الدنيا كعسكر موظّف، انما يعمل بحساب المَلِك وبإسمه.

فمن زَعَمَ انه مالِكٌ، فهو هالِكٌ..

ان هذا النظام والميزان المشهودين عنوانان لقبضتي الرحمن وبابان من الكتاب المبين.. ومن كتاب الكائنات.

والقرآن ترجمانُ الكتابين وفهرستة البابين وفذلكةُ القَبْضَتين.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الحاكم الحَكَم الحكيم الازلي الذي نظَّمَ هذه الكائنات بقوانين عادته وسنَّته، وعينها بدساتير قضائه وقدَره، وأسس بنيانها بأصول مشيئته وحكمته، وزيَّنها بنواميس عنايته ورحمته، ونوَّرها بجلوات اسمائه وصفاته. وهو القادرُ القيومُ السرمدي الذي ما هذه الكائنات بماهياتها وهوياتها وتمايزاتها وتزييناتها وموازينها ومحاسنها الا خطوطُ قلمِ قضائه وقدَره، ونقوشُ بركار علمه وحكمته، وتزيينات يدِ بيضاء صنعه وعنايته، وازاهيرُ رياضِ لُطفه وكرمه، وثمراتُ فيّاض رحمته ونعمته، ولمعاتُ تجليات جماله وكماله جلَّ جلالهُ؛ حمداً يزيدُ على ضرب جميع الذرات في الذرات.

فيا من بتلألؤ لمعات بروقِ شروق اسمائه ظهر عجائب المخلوقات..

ويامَن تساوى بالنسبة الى قدرته الذراتُ والسياراتُ..

ويامن كتبَ على مِسطَرِ الكتاب المبين – المصدر للنظام والميزان – هذه الكائنات المتزينات:

إنّا نُقدِّمُ اليكَ بين يَدي كلِّ سُكونٍ وحركةٍ تتحرك بها ذراتُ العالم ومركباتها شهادةً:

نشهدُ ان لا اله الاّ انت وحدكَ لا شريكَ لك ونشهد أن محمّداً عبدك ورسولُك ارسلته رحمةً للعالمين.

اللّهمَ صلّ وسلّم عليه وعلى آله وصحبه بعدد جميعِ الحروفات المتشكّلة في الكلمات المتمثلة بإذنكَ في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كلِّ كلمةٍ من القرآن مِن كل قارئٍ من حين النزول الى يوم النشور...

اعلم!(١) ان مايوصل اليك – بحسب الظاهر – من الوسائل؛ إمّا له اختيار أو لا. وما لا اختيار له، لاريب انه يعطيك ما يعطيك بحساب الله وباسمه. فخذ وكُل انت باسم الله، وتوجَّه بتمام شكرك اليه.. وإما له اختيارٌ ما، فلا تأخذ ولاتأكل منه ما لَمْ يُذكَر اسمُ الله عَليه، اي باخطار صاحبه الحقيقي وبتوجيه نظرك اليه كما ترمز اليه الآية: ﴿**ولا تأكُلوا مِمّا لَم يُذكَرِ اسمُ الله عليه**﴾ (٢) .. فان لم يَذكُر هو، فاذكر انت. وانظر من فوقه الى مَن أنعمَ عليه وعليك. فانظر في النعمة الى الانعام، ومنه الى المنعم الحقيقي. فاشكره بهذا النظر، فإن هذا النظر شكرٌ، ثم ارجع ان شئت وانظر الى الوسيلة واودعْ له مُثنياً عليه بسبب ارسال النعمة على يده. واياك اياك ياقلبي ان تنظر اوّلاً وبالذات الى المنعم الظاهري..

الحاصل: لابد من «بسم الله»: مرتين في المختار، ومرة في غيره. واياك اياك يانفسي ان تظني «الاقتران علّية..» فقد يقارن وصولُ نعمةٍ فعلَ أحدٍ، فيظنُ قاصرُ النظر أن فعله علّتُها، كلا!. واياك ان تجعل عدمَ نعمةٍ عند عدمِ شئٍ دليلاً على ان وجودَ ذلك الشئ علةُ وجودها. فقد تترتب النتيجةُ على الوفِ امورٍ، فلاتوجد – بسنّة الله – تلك النعمة لفقَدْ اي جزءٍ كان ولو اضعف الامور. فهل يجوز لمن فتحَ قنطرة جدولٍ فسال الماءُ على نواة وبذرٍ فانشجرت وتسنبلت، ان يدّعي ان الشجرة صُنعهُ ومُلكهُ ومالهُ حقيقةً؟ فهذه المسألة ميزان تُعرف به درجاتُ الغفلة والشرك الخفي..

واياك اياك ياقلبي ان تسند مايُفاض على الجماعة او يتظاهر منها او يتحصل من مساعيها اليكَ والى غيرك من ممثل الجماعة او استاذها او مرشدها؛ اذ مع ان هذا الاسناد والتصوّر ظلمٌ عظيم يوقع المسنَد اليه – المستتر فيه «انا» – في غرور عظيم، وانانية غليظة، ويفتح لِمن يسند منافذ الى نوعِ شركٍ خفي، فتأخذ الوسيلةُ حكمَ المقصود ويلبس البوابُ زيّ السلطان..

واياك اياك اذا رأيت من احد فيوضات تَردُ عليك، ان تظن انه مصدرُها او منبعها. بل ما هو الاّ مظهرها ومَعكَسُها، بل يحتمل ان لايكون مصدراً ولامظهراً،

(١) المسألة الرابعة من المذكرة الثالثة عشرة للّمعة السابعة والعشرين توضح هذه المسألة. وفي (ط١): اعلم يا سعيد الشقي: ان ما يوصل...
(٢) الانعام : ١٢١

بل لأجل حصر نظرك عليه تتخيل ما يُفاض عليك من مقلّب القلوب الى قلبك، كأنه تمثّل أولاً في مرشدك، ثم انعكس عليك. كَمَثل من يمعن النظر في زجاجة، فيتجرد ذهنه فيجول في عالم المثال، فيشاهد غرائب فيزعمها متمثلة في الزجاجة، كلا!.[١]

اعلم![٢] يامن يستمد من الاسباب: «تنفخ في غير ضرمٍ وتستسمن ذا وَرَم»[٣]

مثلاً: اذا شاهدت قصراً عجيباً يبنى من جواهر غريبة لايوجد وقت البناء بعضُ تلك الجواهر الا في الصين، وبعضها الا في فاس، وبعضها الا في اليمن، وبعضها الا في سبيريا، وهكذا.. أفلا تشهد ان ذلك القصر بناء يبنيه من يحكم على كرة الارض ويجلب من اطرافها ما يريد في اسرع وقت؟

وهكذا؛ كل حي بناء، وكل حيوان قصر إلهي، لاسيما ان الانسان من احسن تلك القصور، ومن اعجبها، لانه امتدت حاجاتهُ الى الابد، وانتشرت آمالهُ في اقطار السموات والارض، وشرعت روابطهُ في مابين ادوار الدنيا والآخرة. فيا هذا الانسان، لايليق بك ولايحق لك وانت تحسبك انسانا ان تدعو وتعبد الاّ مَن يَحكم على الارض والسماء ويملك ازمة الدنيا والعقبى!..

اعلم![٤] ياقلبي ان الابله الذي لايعرف الشمسَ اذا رأى في مرآةٍ تمثالَ شمس، لايحب الا المرآة ويحافظ عليها بحرص شديد لاستبقاء الشمس، واذا تفطن ان الشمس لاتموت بموت المرآة ولا تفنى بانكسارها، توجّه بتمام محبته الى الشمس؛ اذ ما يشاهَد في المرآة ليس بقائم بها، بل هو قيومُها. وبقاؤه ليس بها، بل بنفسه.. بل بقاء حيوية المرآة وتلألؤها انما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها، اذ هي قيومُها. ياهذا قلبُك وهويتُك مرآةٌ. فما في فطرتك من حب البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها.. فقل «ياباقي انت الباقي» فاذ انت باقي فليفعل الفناءُ بنا ما شاء فلا نبالي بما نلاقي..

---

(١) المسألة الخامسة من المذكرة السابعة.

(٢) يراجع الرمز الاول من المذكرة الرابعة عشرة.

(٣) نفخت في غير ضرم... مثل يضرب لمن يصنع الشئ في غير موضعه. والضرم: النار او الحطب السريع الالتهاب، ونفخ في غير ضرم اي في مكان لا نار فيه.

(٤) الرمز الثاني من المذكرة نفسها.

اعلم![١] ياايها الانسان! انّ من غرائب ما اودع الفاطرُ الحكيم في ماهيتك أنه قد لاتَسعك الدنيا فتقول (اوف)[٢] كالمسجون المخنوق، مع انه تَسعُك خردلةٌ وحجيرةٌ وخاطرةٌ ودقيقةٌ حتى تفنى فيها، وتستعمل اشد حسياتك لها.. واعطاك لطائف بعضُها يبتلع الدنيا فلا يشبع، وبعضها يضيق عن ذرة ولا يتحمل شُعيرة، كما ان العين لاتتحمل شعرة.

فاحذر وخفّف الوطء، وخَف ان تغرق ويغرق معك ألطفُ لطائفك في أكلةٍ، او كلمةٍ، او شعرة، او شُعيرة، او لمعةٍ، او لحمةٍ، او بقلةٍ، او قبلةٍ.. فان في كل شئ جهةً من عدم التناهي يطيق ان يُغرقك، ولايضيق عن بلعك. فانظر الى مرآتك كيف يغرقُ فيها السماء بنجومها! والى خردلة حافظتك كيف كتب «الحق» فيها اكثر ما في صحيفة اعمالك واغلب ما في صحائف اعمارك! فسبحانه من قادرٍ قيوم! .

اعلم![٣] ان دنياك كمنزل ضيق كالقبر، لكن لأجلِ ان جدرانه من زجاجة تتعاكس تراه واسعاً مقدار مد البصر؛ اذ الماضي المعدومُ من جهة الدنيا، والآتي المفقودُ؛ مرآتان متقابلتان تصلان جناح حالك وتتصلان بزمانك. فلا تفرق بين الحقيقة والمثال؛ فيصير خطُ «آنكَ» سطحاً، حتى اذا تحركت بتحريك المصائب ضربت الجدرانُ رأسكَ فيطيرُ خيالكَ ويُطرد نومُك، فترى دنياكَ اضيق من القبر والجسر، وزمانك اسرع من البرق والنهر..

اعلم![٤] يامن يريد ان يرى شواهد تجليات اسمه «الحفيظ» المشار اليه بـ: ﴿ **فمَن يَعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يرهُ ۞ ومَن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ شراً يرهُ** ﴾[٥] وبـ: ﴿ **وما يَعزُبُ عَن ربِّكَ مِن مِثقالِ ذَرَّةٍ في الارضِ ولا في السّماءِ ولا أصغرَ منْ ذلكَ ولا أكبرَ الاّ في كتابٍ مُبين** ﴾[٦] في صحائف كتاب الكائنات المكتوب ذلك الكتاب على مِسطرِ الكتاب المبين.

---

(١) الرمز الثالث منها.
(٢) كلمة تضجر.
(٣) يراجع الرمز الرابع من المذكرة الرابعة عشرة.
(٤) المسألة الاولى من المذكرة الخامسة عشرة.
(٥) الزلزلة : ٧،٨
(٦) يونس : ٦١

انظر الى غرفة تأخذها بقبضتك من اشتات بذور الازهار والاشجار، قد اختلطت تلك البذور والحبات المختلفة الاجناس والانواع، المتشابهة الاشكال والاجرام، بحيث لايميَّز بينها. ثم ادفنها معا - في الظلمة - في ظلمات تراب بسيط جامد محدود. ثم اسقه بالماء الذي لاميزان له ولايفرّق بين الاشياء، فاينما توجهه يذهب. ثم انظر اليها عند الحشر السنوي وقد حُشر بنفخ الرعد في الصُور في الربيع، حتى ترى تلك البذور المختلطة المتشابهة كيف امتثلت بلا خطأ الأوامر التكوينية من فاطرها الحكيم، بصورة يتلمع منها كمالُ الحكمة والعلم والارادة والقصد والبصيرة والشعور!. ألا ترى تلك المتماثلات كيف تَمايزت؟ حتى صارت هذه شجرةَ التين تنشُر وتنثر على رؤسكم نِعم ربها!. وصارت هذه ازاهير تزيَّنت لاجلك وتضحك في وجهك وتتودّد لك؟ وصارت هاتيك فواكه مما تشتهون تدعوك الى انفسها وتفديها لك؟ حتى صارت تلك الغرفة باذن خالقها جنة مشحونة من الازهار المختلفة والاشجار. وانظر هل ترى فيها غلطاً او قصوراً؟. ﴿**فَارجِعِ البَصرَ هَل تَرى من فُطور**﴾[1] بل قد اعطى «الحفيظ» لكلٍ منها ماورثه من مال ابيه وأصله بلا نقصان وبلا التباس. فما يفعل هذا الفعل الا من يقتدر على ان يقيم القيامة. فمن يفعل هذا، هو الذي يفعل تلك.. فاظهار كمال الحفظ ها هنا مِن الامور التافهة الزائلة حجةٌ بالغة على محافظة ما له اهمية عظيمة وتأثير ابدي، كافعال خلفاء الارض وآثارهم، واعمال حَملة الامانة واقوالهم، وحسنات عبدة الواحد الاحد وسيئآتهم. ﴿**أيَحسَبُ الانسَانُ اَنْ يُترَكَ سُدىً**﴾[2] بلى انه لمبعوث الى الابد، فيحاسب على السبَد واللبد.

فهذا المثال الذي تنسج انت على منواله ليس قبضةً من صُبرة او غرفة من بحر، بل حبة من رمال الدهناء، ونقطة من تلال الفيفاء،[3] وقطرة من زلال السماء.. فسبحانه مِن حفيظ رقيب وشهيد حسيب.

اعلم! ايها السعيد الغافل! ان ما لايرافقك بعد فناء هذا العالم بل يفارقك بخراب الدنيا، لايليق ان تلزق قلبك به. فكيف بما يتركك بانقراض عصرك؟.. بل

(١) الملك : ٣

(٢) القيامة : ٣٦

(٣) الفيفاء: الصحراء الملساء والجمع: فيافي.

فكيف بما لايصاحبك في سفر البرزخ؟.. بل فكيف بما لايشيّعك الى باب القبر؟.. بل فكيف بما يفارقك سنة او سنتين فراقاً ابدياً مورثاً إثمه في ذمتك؟.. بل فكيف بما يتركك على رغمك في آن سرورك بحصوله؟.

فان كنت عاقلاً لاتهتم ولاتغتم، واترك ما لا يقتدر ان يرافقك في سفر الابد، بل يضمحل ويفنى تحت مصادمات الانقلابات الدنيوية والتطورات البرزخية والانفلاقات الأُخروية. الا ترى ان فيك شيئاً لايرضى ألا بالابد والابدي، ولا يتوجه الا اليه، ولا يتنزل لما دونه؟ وذلك الشئ سلطانُ لطائفك، فأطِعْ سلطانك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله.

..........(١)

اعلم!(٢) يا ايها السعيد الغافل! تنظر الى اطرافك الآفاقية فتراها ثابتة مستمرة في الجملة وبالنوع، فتظن نفسك ايضاً ثابتة دائمة حتى لاتتدهش الاّ من القيامة، كأنك تدوم الى ان تقوم هي. كلا!.. انك ودنياك في معرض الزوال والفناء في كل آن. فمثلك في هذا الغلط كمثل من في يده مرآة متقابلةٌ لمنزل او بلد او حديقة ارتسمتْ هي فيها، ففي ادنى حركة للمرآة وتغيرها يحصل الهرج والمرج في تلك الثلاثة التي اطمأننت بها. واما بقاؤها في انفسها فلا يفيدك، اذ ليس لك منها الا ماتعطيك مرآتُك بمقياسها وميزانها. فتأمل في مرآتك وامكان موتها وخراب ما فيها في كل دقيقة. فلا تحمل عليها ما لاطاقة لها به..

اعلم!(٣) ان من سنة الفاطر الحكيم – في الاكثر – ومن عادته، اعادةُ ما لهُ اهميةٌ وقيمةٌ غاليةٌ بعينه لابمثله في الادوار والفصول المتكررة بتجدد الامثال في اكثر الاشياء. فانظر الى الحشر العصري والسنوي واليومي، تَرَ هذه القاعدة مطّردة. وقد اتفقت الفنونُ وشهدت العلومُ على ان الانسان اكملُ ثمرات شجرة الخلقة، وله اهمية عظيمة وقيمة غالية، وفردُه كنوعٍ غيره. فبالحدس القطعي يُعادُ كلُّ فردٍ من البشر في الحشر والنشر بعينه وجسمه واسمهِ ورسمهِ..

---

(١) في (ط١): **اعلم!** اني رأيتني في المنام وأنا أقول للناس: يا أيها الانسان! ان من دساتير القرآن: ان لا تحسبن شيئا مما سواه سبحانه أعظم منك بحيث تتعبد له.. وان لا تحسبن انك أعظم من شئ من الاشياء بحيث تتكبر عليه. اذ يتساوى ما سواه في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية.

(٢) تراجع المذكرة الثالثة.

(٣) تراجع المذكرة الرابعة.

.........(١)

اعلم! ان الفذلكات المذكورة في اواخر الآيات، لاتنظر الى تلك الآية التي هي فيها فقط، بل تنظر الى مجموع القصة، بل الى تمام السورة، بل الى جميع القرآن؛ لتساند الايات وتلاحظها وتناظرها، فلا تزن ما في الفذلكة بميزان مآل آيتها فقط، ولاتحمل عظمتها على حُكم جزئي مُهّد المحلُ لذكرها، والاّ بَخَستَها حقَّها. مثلاً قال: ﴿ **وكَذلكَ نُفصِّلُ الآيات** ﴾(٢) ﴿ **ولقدْ صرّفنا في هذا القرآن** ﴾(٣) ﴿ **ولقد ضَربنا للناسِ في هذا القرآن من كلِّ مثل** ﴾(٤) و﴿ **انّ الله عَزيزٌ حكيم** ﴾(٥) و﴿ **انّ الله عَليمٌ قَديرٌ** ﴾(٦) ومثل ﴿ **لعَلّكم تَذَكَّرون** ﴾(٧) و ﴿ **لعلّكم تتقونَ** ﴾(٨) وامثالها مما له عيون ناظرة الى اكثر الآيات التنزيلية، واكثر الآيات التكوينية، واكثر الاحوال البشرية.

فهذه الخواتيم القرآنية التي تُمهَرُ بها الآيات مع تأييدها لاياتها، ترفع رأس المخاطب من الجزئى المشتّت الى الكلي البسيط؛ ومن الجزء المفصّل الى الكل المجمل. وتوجِّه نظره الى المقصد الاعلى.. وغير ذلك من اسرار البلاغة.

اعلم!(٩) ياقلبي قد يغالطك الشيطان باراءة الغير الغير المحدود، ليهون عندك قيمة ما انعم عليك. فانظر حينئذٍ الى احتياجك ونفسك وعجزك وحكمة النعمة والانعام القصدي في النعمة، والى عدم تناهي تجلي القدرة والعلم والارادة، والى

(١) في (ط١) **اعلم!** يا نفسي الجاهلة المغرورة! ان لكل مقام ومرتبة ظل، بل ظلال متباينة وأين الظل من الاصل؟ فهل يليق بمن يرى عكس سرير سلطان في الماء تحته او في المنام، فقعد عليه ان يظن نفسه سلطاناً او مساوياً للسلطان؟ او يشاهد النجوم في حوضه فيظن نفسه في السماء كمن يسري بين النجوم وفوقها. على ان من يرافقه علمه وعقله في السير الملكوتي على خطر عظيم من الغرور، فيقيس نفسه بسبب اخذ علمه ظلاً من ظلال مرتبة على صاحب اصل المرتبة. وكذا على خطأ جسيم من العجب فقد يقول كفراناً للنعمة ﴿ **انما اوتيته على علم...** ﴾ ﴿ بل هي فتنة.. ﴾.

(٢) الاعراف : ١٧٤

(٣) الاسراء : ٤١

(٤) الروم : ٥٨

(٥) التوبة : ٧١

(٦) النحل : ٧٠

(٧) الذاريات : ٤٩

(٨) البقرة : ١٨٣

(٩) قد مرّ في ذيل الحباب اجمال هذه المسألة ـ المؤلف.

غايات وجودك ونتائجه العائدة الى مالكه وصاحبه الحقيقي الذي له الاسماء الحسنى. وكذا يغالطك الموسوس مستمداً من انانيتك ومستنداً بفرعونية النفس باراءة صغار الحيوانات وخساس الحشرات، ويضعها نصب عينك ويقول لك: ما الفائدة في خلقتها السريعة الزوال؟ فيلقنك العبثية – بعد تلقين ان غاية الحياة هي الحياة، وان قيمة الحياة بالبقاء – ليسُقطَ في عينك اهمية الرحمة والنعمة واتقان الصنعة فيما تشاهد هذه الثلاثة فيه، ليُنسيكَ الصانع بالتعطيل. فقابل انت باراءة السموات بنجومها والارض بحيواناتها. هذا اذا نظرت اليها وانت انت.. واما اذا نظرت الى ماهو اصغر منك، فانظر ايتها الحجيرة الكبرى الى غرائب حياة حجيرات جسدك ووظائف الكريوات الحمراء والبيضاء في دمك الدائر مادمتَ في هذه الدار، والى رقائق لطائفك الطائفة بقلبك.

اعلم! يا ايها الاوروبا!.[١] انك اخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفيهة، تدعي ان سعادة البشر بهما. شلّت يداك وبئست هديتاك.

ألا يا ناشر الكفر والكفران! هل يمكن لمن اصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائب هائلة، السعادة بكونه في ذروة الرفاه والزينة بجسمه؟ ألا ترى ان من انكسر خياله او خاب من امل وهمي او انقطع رجاؤه من امر جزئي كيف يَمر[٢] له الحلو ويعذّبه العَذبُ اللذيذ وتضيق عليه الدنيا؟ فكيف بمن أُصيب بشؤمك في اعماق قلبه وروحه باليُتم الروحي والضلالة التي فيها انقطاع كل الآمال وانشقاق كل الآلام؟ فهل يقال لمن روحه مع قلبه في جهنم، وجسمه في جنةٍ كاذبة زائلة: انه مسعود؟

فاستمع ايها الروح المفسد لما يتلى عليك، اذكر لك واحداً فقط، من الوفِ المهالك التي اوقعت البشر فيها، واقدّم لايضاحه مثالاً.

مثلا: ههنا طريقان؛ فذهبنا في هذه، فنرى في سيرنا بمد النظر في مدة السفر عند كل خطوة رجلاً عاجزاً يتهاجم عليه رجالٌ غُلّب يغتصبون ماله ودوابَه ويخرّبون

---

(١) ان اوروبا اثنان: احدهما: نافع للبشر باستفادته من الدين العيسوي والمدنية الاسلامية. اظهر باحسان الله ما يستريح به البشر في هذه الحياة.. واوروبا الثاني: خالف الاديان السماوية واستند بالفلسفة الطبيعية المادية وغلبت سيئات المدنية حسناتها، وصار سبباً لمشقة اكثر البشر وشقاوتهم. فاني اخاطب هذا القسم الثاني – المؤلف. والمذكرة الخامسة توضح المسألة اكثر.

(٢) من المرارة التي هي ضد الحلو.

بيتَه، وقد يجرحونه بحيث تبكي عليه السماء، فاينما نظرنا نرى الحال على هذا المنوال بحيث لاتسمع الاّ صيحات الظالمين ونياحات المظلومين، فطمّ عليهم المأتم العمومي. فبسر:« ان الانسان يتألم بألم الغير» والحال ان الوجدان لايتحمل التألم بهذه الدرجة، يضطر الناظرُ للتجرد عن الانسانية والتزام نهاية الوحشة بتبطّن قلبٍ لايبالي بهلاك الناس عند سلامته.

فيا اوروبا اهديت بدهائك الاعور لروح البشر هذه الحالة الجهنّمية، ثم تفطنت لهذا الداء العضال دواءً لإبطال الحسّ في الجملة، وهو الملاهي الجذابة والهَوسات الجلابة. فتعساً لك ولدوائك..

ثم ذهبنا في الطريق الاخرى؛ فترى في كل منزل وفي كل مكان وفي كل بلاد عساكر موظفين منتشرين في الآفاق والطرق، فيجيئ بعض المأمورين فيرخّصون(١) بعضهم من الوظيفة ويأخذون سلاحهم ودوابهم ولوازماتهم الميرية ويعطون لهم تذكرة الاذن، فيفرحون بالترخيص وبالرجوع الى المَلك وزيارته باطناً، وان حزنوا بترك المألوف ظاهراً. ونرى انه قد يصادف المأمورون نفراً عجمياً لايعرفهم فيقول لهم: انا عسكر السلطان وفي خدمته، واليه ارجع، فان جئتم باذنه ورضائه فعلى الرأس والعين، والاّ تَنَحوا عني لأقاتلنكم وحدي ولو كنتم اُلوفاً، لا لنفسي بل لحفظ امانة مالكي، وحماية حيثية سلطاني وعزته. وهكذا نرى في مد طريقنا ومدة سفرنا تحشيدات بتهليل وسرور تسمى «تولدات» و«ترخيصات» بتكبير وحبور تسمى« وفيات». فالقرآن الحكيم أهدى للبشر هديةً لو اهتدوا بها لسلكوا بها في مثل هذا الطريق.. ﴿ **لاخوفٌ عَليهم ولاَهُم يحزنونَ** ﴾(٢).

فيا أوروبا تزعم ان كل ذي حياة من اصغر السمك الى اكبر المَلَك مالك لنفسه ويعمل لذاته وانما يسعى للذته، له حق حياة وغايةُ همته حفظ البقاء. وما ترى فيما بينها من «التعاون» المأمور به من جانب خالقها: كامداد النباتات للحيوانات والحيوانات للانسان، تظنه «جدالاً».. حتى حكمتَ بان «الحياة جدال».(٣) فيا سبحان الله كيف يكون امداد ذرات الطعام بكمال الشوق لتغذية حجيرات البدن

(١) اي يسرحونهم من الوظيفة.

(٢) يونس : ٦٢

(٣) اي: ان الحياة صراع دائم والبقاء فيها للأقوى!

جدالاً وخصاماً؟ بل انما الامداد تعاون بامر رب كريم. والدليل على ان ذا الحياة ليس مالكاً لنفسه، هو:

ان اشرف الاسباب واوسعها «اختياراً» الانسانُ. والحال انه ليس في يد اختياره ودائرة اقتداره من اظهر افعاله الاختيارية - كالاكل والكلام والتفكر - من المائة الاّ جزء واحد منهم. فاذا كان الاشرف الواسع الاختيار هكذا مغلول الايدي عن التملك والتصرف الحقيقي، فكيف بسائر البهيمات والجمادات؟

وما ورّطك في هذا الخطأ الاّ دهاؤك الاعور؛ اذ نسيَ ربّه الذي هو خالق كل شئٍ، واستند بالطبيعة الموهومة واسند الآثار الى الاسباب، وقسم مال الله على الطواغيت. فعنده يضطر الانسان وكل ذي حياة ان يصارع مع ما لايعد من الاعداء لتحصيل ما لايحد من الحاجات، باقتدارٍ كذرة، واختيار كشعرة، وشعور كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفئ، وعمر كدقيقة تنقضي؛ مع أنه لايكفي كل ما في يده لواحد من مطالبه. فاذا أُصيب بمصيبة لايستمد الا من اسباب صمّ وعمي: ﴿ومَا دُعاءُ الكافرينَ الاّ في ضَلالٍ﴾[1] فقلّب دهاؤك المظلم نهارَ البشر ليلاً متنوراً بانوار كاذبة مستهزية. وصيّر كل ذي حياة في نظر تلاميذه كالرجل المسكين المبتلى بهجوم الظلمة كما رأينا في الطريق الاولى.. ويرى في الدنيا مأتماً عمومياً، ويرى الاصوات نعيات الموت ونياحات اليتامى.

وصير تلميذه الخاص: «فرعونا» لكن يعبد اخس الاشياء. ويرى كل سبب نافع أنه ربّه.. «متمرداً» لكن يتمسكن بنهاية الذلة للذّته. ويقبّل رِجلَ الشيطان لمنفعة خسيسة.. و«جباراً» لكن لعدم نقطة الاستناد عاجزٌ في ذاته بغاية العجز.

وان غاية همة تلميذك: بطنهَ وفرجه او منفعة قومه، لا لقومه بل لاجل منفعة نفسه او تطمين رقة الجنسية،[2] او تسكين حرصه وغروره. ولايحب الاّ نفسه، ويفدي لها كل شئ..

واما خالص تلميذ القرآن فـ«عبد» لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة.. و«ليّن هيّن» لكن لايتذلّل لغير فاطره الاّ باذنه..

(١) الرعد : ١٤

(٢) تطمين ما يشعر به من رقةٍ نحو بني جنسه.

و« فقير » لكن يستغنى بما ادخر له مالكه الكريم. . و« ضعيف » لكن يستند بقوة سيده الذي لانهاية لقدرته. ولايرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الابدية مقصداً وغايةً، فضلاً عن هذه الدنيا الزائلة. فانظر الى درجة تفاوت همة التلميذين.

وكذا، مايرى اعظم الاشياء كالعرش والشمس الا مخلوقاً عاجزاً مسخّراً مأموراً، ويرى في روحه علاقة شديدة مع كل الصالحين من اهل السموات والارض، فيدعو لهم من صميم قلبه، كما يدعو المرء لأهل بيته. .

فانظر التفاوت بين مروءة التلميذين؛ ذاك يفر من اخيه لنفسه، وهذا يرى كل العباد اخوانه. والقرآن يعطي ليد تلاميذه بدل هذا التسبيح العادى[١] اعداد ذرات الكائنات فيسبّحوا الله، وفي ايديهم بدل التسبيح الذي عدده تسعة وتسعون « سلسلة جميع ذرات الكائنات » فيقرأون اورادهم بذلك التسبيح العجيب، ويذكرون ربهم باعداد ذلك، بل يزيدون. . فانظر الى تلاميذ التنزيل من الاولياء امثال الكيلاني، والرفاعي،[٢] والشاذلي كيف اخذوا في اياديهم سلاسل الذرات والقطرات وانفاس المخلوقات وغيرها كالتسبيح يذكرون الله بها، بل يستقلّونها فيمدون ايديهم الى مالايتناهى من عدد معلومات « علام الغيوب »!. . انظر الى هذا الانسان الذي يصارعه اصغر مكروب ويصرعه ادنى كرب، كيف ترفّع وانبسط لطائفه بفيض ارشاد القرآن، حتى استصغر الدنيا ان تكون تسبيحاً لورده، واستقل الجنة ان تكون غايةً لذكره!. . ومع ذلك لايرى لنفسه فضلاً على ادنى شئ من خلقه سبحانه.

واما هدى القرآن فيقول: يا ايها الانسان ان ما في يدك امانة، وملك لمالك قدير على كل شئ وعليم بكل شئ، رحيم بك، كريم يشتري منك مُلكه الذي عندك ليحفظه لك، لئلا يضيع في يدك، واجَّل لك ثمناً عظيماً وانت مأمور وموظف كالعسكر فاعمل بحسابه وباسمه، وهو الذي يرزقك ما تحتاج اليه، ويحفظك مما لاتقتدر عليه.

---

(١) المراد: المسبحة.

(٢) الرفاعي: (٥١٢ – ٥٧٨هـ) احمد بن علي بن يحيى الرفاعي، ابو العباس، الامام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن في واسط بالعراق سنة ٥١٢هـ وتفقه وتأدب في واسط. وكان يسكن قرية ام عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها سنة ٥٧٨هـ. وفيات الاعيان ١/٥٥ الطبقات الكبرى ١/١٤٠ نور الابصار ٢٢٠ الاعلام ١/١٧٤ جامع كرامات الاولياء ١/٤٩٠

وغاية حياتك: مظهريتك لتجليات اسمائه وشؤونه. فاذا اصابتك مصيبة فقل: «إنّا لله» وفي خدمته، فان جئت ايتها المصيبة باذنه ورضاه فمرحباً بك: «إنّا اليه راجعون» والى رؤيته مشتاقون. وسيعتقنا من تكاليف الحياة يوماً ما، فليكن على يدك وان جئت بارادته وأمره فقط ابتلاءً دون إذنه ورضاه فلا اسلّم امانته لغير الامين ما استطعت.

فحقيقة الحال في الطرفين على هذا المنوال. لكن درجات الناس متفاوتة في الهداية والضلالة. ومراتب الغفلة مختلفة. لكن الغفلة ابطلت الحس بدرجة لايحس المدنيّون بايلام هذا الالم الاليم، ولكن بتزايد الحساسية العلمية وايقاظات الموت تتشقق الغفلة. فويل ثم ويل لمن ضل بطواغيت الاجانب.

فيا شبان الترك! فهل بعد كل مارأيتم من ظلم اوروبا معكم وعداوتهم لكم تتبعونهم في سفاهاتهم وافكارهم بل تلتحقون بصفهم بلا شعور؟.. ألا انكم تكذبون في دعوى الحمية، اذ هذا الاتباع استخفاف بالملية واستهزاء بالملة. «هدانا الله واياكم الى الصراط المستقيم».

اعلم![1] يامن يستكثر عدد الكفار ويتزلزل باتفاقهم على انكار بعض حقائق الايمان!

اما اولاً: ان القيمة ليست في الكمية، اذ الانسان اذا لم يصر انساناً انقلب حيواناً شيطاناً، لان الانسان اذا ترقى في الاحتراصات[2] الحيوانية كالمنكرين للاديان، فهو اشد حيوانية. وانت ترى كثرة كميات الحيوانات بلا حد وقلة الانسان مع انه هو الخليفة

وثانيا: ان الانكار نفي، والفُ نافٍ لايرجّحون على اثنين من اهل الاثبات.

فان قلت: كافر مثله هو؟ قيل لك: فالكفار الذين لا دين لهم نوعٌ خبيثٌ من حيوانات الله، خلقهم لعمارة الدنيا، وللنار.. وليكون[3] واحداً قياسياً لدرجات نعمه تعالى على عباده المؤمنين.

(١) تراجع المذكرة السادسة.

(٢) اي: اوغل في الحرص على الحياة الدنيوية المادية.

(٣) ليكون كل كافر واحداً قياسياً.

واما اتفـاقهم على انكار حق ونفيه فلا قوة في اتفاقـهم بسر النفي. اذ الكـفر نفيٌ وانكارٌ وجهلٌ وعـدم، ولو كان في صورة الاثبات. مـثلا: لو نفى كلُّ أهل استـانبول رؤية الهـلال؛ واثبت رؤيته شـاهدان، ترجّحا عـلى اجمـاعهم بسر تساند الاثبـات، ونظر الاثبات الى نفس الامر، ونظر النفي الى نفس النافي وعـنده. مثلا: لو طبق الغيم في وجـه السمـاء فرفعـنا رؤسنا، فمـا رأى الشمس من جـميع اهل المملكـة الا حزب قليل. فهل يقـبل منك ان تقول: ان النافين متـواترون، والرائون اقلّ قليل فاتباع الاكـثر أولى؟ كلا.. اذ لمن لم ير ان يقول: لا شـمس عندي، وفي رؤيتي،دون لا شمسَ في نفس الامـر وفي وجـه السمـاء. وهكذا فلتعـدد المدعى بهـذا الاعتبـار بين النافين لا يقوى حكم بعض ببعض. فاجماعُهم في قيمـة الفرد كالاجتماع لحل مسألة، او المرور في ثقبة ضيقة. خلافاً للمثبتين الناظرين الى نفس الامر لاتحاد المدعى وتعاون القوى، كالتساند على رفع صخرة عظيمة.

اعلم![1] يامن يشوّق المسلمين على الدنيا ويدعـوهم الى صانعهـا وترقيـاتها ويضربـهم بعصـا التشويـق، تمهّل وتأمل في رقة بعض حـبالهم المربوطين بهـا بالدين، واحذر ان ينقطع قـسمٌ من حبـالهم فيصـيرون ضرراً محضـاً في الحياة الاجتماعـية، بسر: ان المرتد لاحقّ له في الحياة لانفساده بالكلية، خلافاً للكافر، فالشريعة تعطي له حق حيـاة، وان الفاسق خـائن ومردودُ الشهـادة، لانفسـاد وجدانه خلافـاً للذمي في مذهب الحنفـية. فاعـتبر! ولا تغـترَ بكثرة الفسـاق؛ فان الفاسق لايرضى بالفـسق، وما طَلبه بالذات بل وقع فـيه.. وما من فاسق الاّ ويتـمنى ان يكون متقيـاً وان يكون آمرهُ متديناً صالحاً، الا ان ارتدّ، العياذ بالله! اتظن ان المسلمين لايحبون الدنيا ويحتاجون لان يُنبَّهوا ولا ينسَوا نصيبهم من الدنيـا؟ كلا! بل اشتد الحرصُ.. والحرص في المؤمن سببُ الخيبة؛ اذ الدعاة الى الدنيا في كل شخص بكثـرة؛ كنفسه واحتياجـه وحواسه وهواه وشيطانه، وامثـالكم من رفقاء السوء، وحلاوة العـاجلة وغيرها، مع ان الداعي الى الآخـرة الباقيـة بقلّة. فمن الحَميـة والهمـة امـداد القليل. ام تحسب ان فقـرنا من زهدنا؟ كـلا.. الا ترى المجوس والبـراهمة وسـائر مَن تسلط عليهم الأوروبـائيون افـقرَ منا؟ ام انت اعمى لاترى ان ما زاد على القوت الضروري لا يبقى في يد المسلمين في الاكثـر، بل يغتصبـه او يختلسه الكفـار بدسائسهم؟ وان اردتَ من تمدنِهم، تسـهيل

(١) تراجع المذكرة السابعة.

ادارتهم وحصول الامن في المملكة؛ فقد اخطأت الطريق. لان ادارة مائة من الفاسقين الذين فسدت اخلاقهم وتزلزل اعتقادهم اصعب من ادارة الوف من المتدينين. فاهل الاسلام لايحتاجون الى التشويق على الحرص على الدنيا، بل يحتاجون الى تنظيم مساعيهم، والتعاون، والامنية بينهم،[1] وما هي الاّ بالتقوى..

اعلم![2] ان الحق سبحانه بكمال كرمه ادمج قسماً من مكافاة الخدمة في نفس الخدمة، وادرج اجرة العمل في نفس العمل. حتى ان الموجودات ولو الجمادات تمتثل اوامره التكوينية بكمال الشوق والتلذذ، وبالامتثال تصير معاكس تجليات اسماء نور الانوار. كالحباب الحقير المظلم الذي يتوجه بقلبه الصافي الى الشمس، فيتنور مبتسماً في وجهك، بجعل قلبه سرير الشمس. وكيف لاتلتذ الذرات ومركباتها – بفرض شعور فيها – بمظهريتها لتجليات اسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق مع ارتقائها بالامتثال، مثل الحباب من نهاية الخمود والظلمة الى نهاية الظهور والنور!

انظر الى حواسك واعضائك وخدمتها التي تخدم لبقاء الشخص او النوع كيف تتلذذ بنفس خدمتها حتى يكون الترك عذاباً لها.

ثم انظر الى الحيوانات كيف تلتذ بوظائفها، ألا ترى الديك مثلا: كيف يؤثر الدجاجات على نفسه في دعوتها الى اكل مارآه من الغذاء ولا يأكل هو؟ ويرى من طوره انه يفعل هذا بالشوق والتلذذ والافتخار. وهكذا الدجاجة الراعية لأفراخها وهي صغيرة، التاركة لها اذا كبرت كسائر الوالدات النباتية والامهات الحيوانية غير الانسان!.. فيظهر من هذه الحال انها لاتعمل بحساب نفسها ولا لكمالها، بل بحساب من وظّفها منعماً عليها برحمته بإلقاء لذة في وظيفتها.

ثم انظر الى النباتات والاشجار كيف تمتثل اوامر فاطرها بطور يرمز بشوق ولذة؛ اذ تزّيناتها ونشر روائحها تظهر شوقها، وفداؤها نفسها لسنبلتها ولثمراتها تعلن ان لذتها في امتثال الامر. اذ تعد وتحضر وهي سائلة من باب الرحمة اطيب الغذاء، فتطعم ثمرتها باذن ربّها. ألا ترى شجرة التين كيف تطعم التين لبناً خالصاً تأخذه من خزينة الرحمة وهي لاتطعم نفسها الا الطين!.. وشجرة الرمان تسقي الرمان شراباً صافياً مما اعطاها ربها وهي لاتشرب الاّ الماء!.. وهكذا.

---

(١) اشاعة الثقة، فيأمن بعضهم بعضا.

(٢) تراجع المذكرة الثامنة.

ثم انظر الى الحبوبات تَرَ فيها اشتياقاً ظاهراً للتسنبل كمثل المحبوس في اضيق المكان كيف يشتاق للخروج الى البستان. ومن هذا السر الجاري في الكون بسنة الله يكون العاطلُ المستريح اشقى من الساعي المجدّ، اذ ذاك شاكٍ من عمره، وهذا شاكر. واندمجت الراحة في الزحمة، والزحمة في الراحة..(١)

ثم انظر الى الجامدات ترى فيها ان ما «بالقوة» يجتهد لأن يصير «بالفعل» ويسعى بسنة الله بطور يرمز الى ان في المسألة شوقاً ولذة. ألا ترى قطرة الماء كيف يشتمل قلبُها على شوق لامتثال امر بارئها، بحيث اقتدر الماءُ بشدّة ذلك الشوق مع لطافة الماء وضعفه على شق الحديد مع قوة مقاومته عند سماع امر: «توسّع ايها الماء باذن ربك» بواسطة لسان البرودة! وهكذا.

حتى ان جميع ما في الكون من السعي والحركة: من اهتزاز الذرات، الى دوران الشمس انما يجري على قانون القَدر، وانما يصدر من يد القُدرة، وانما يظهر بالامر التكويني المتضمن للعلم والامر والارادة، بل يتضمن القُدرة ايضاً. حتى ان كل ذرة وكل مركب وكل ذي حياة كنفرٍ من العسكر له نَسَب في دوائر المركبات. وله وظائف لفوائد، بعدد نَسَبه فيها كذرة عينك في حجيرة عينك، وفي عينك، وفي اعصاب وجهك، وفي شرايين بدنك.. لها في كل نسبةٍ وظيفةٌ لفائدة وهكذا.. فكل شئ يشهدُ على وجوب وجود القدير الازلي بلسان عجزه عن تحمل ما لاطاقة له به، من وظائفه المحمولة عليه في نظام الكون وحفظ موازنة قوانينه؛ اذ «النظام والموازنة» بابان مهمان دقيقان من «الكتاب المبين». فاين الذرة والنحلة – مثلا – واين قراءة ذلك الكتاب الذي هو في يد مَن يطوي السماء كطي السجلّ للكتب!.. وكذا يشهد كلُّ شئ على وحدة واجب الوجود الحق سبحانه بعلاقته وهو فرد بالمركبات المتداخلة المتصاعدة ووظائفه في مقاماتها ونَظَر نسَبه ووضعيته الى نقوشها!.. ثم ان الفاطر الحكيم أجمل لكل شئ دساتير بابي الكتاب المبين في لذة خاصة واحتياج مخصوص بذلك الشئ، اذا عمل الشئ عليها صار ممتثلاً من حيث لايشعر لأحكام ذلك الكتاب. مثلا: ان البعوض في حين ما يجئ الى الدنيا يخرج من بيته بلا توقف، فيهجم على وجه الانسان فيضربه بعصاه فينفجر منه له ماء

(١) اي الراحة في التعب والنصب، والضيق والتعب في الراحة.

الحياة، فمَن علّمه بهذه الصنعة كرّا وفراً؟. واعترف أني لو كنتُ في موقعه لما تعلّمتها الا بتدرّس مديد وتدرب عديد. فقس على البعوضة والنحلة والعنكبوت الملهمين كل الحيوانات والنباتات، قد اعطى الجواد المطلق سبحانه ليدِ كل فرد منها «تذكرة مكتوبة بمداد اللذة والاحتياج». فسبحانه سبحانه! كيف ادرج سرائر ما في سطور بابَي الكتاب المبين في تذكرة مسطورة في رأس النحلة مثلا، مفتاحُها لذة خاصة بالنحلة المأمورة؟

وهكذا فيظهر مما سمعت مما مر بالحدس الايماني سرٌ من اسرار: ﴿ وَرحمتي وَسعَت كُلَّ شيءٍ ﴾[١] وسرٌ من أسرار: ﴿ وإنْ منْ شَيءٍ الاّ يُسَبِّحُ بحَمده ولكن لاتفقهونَ تَسبيحهُم ﴾[٢] وسرٌ من اسرار: ﴿ انما امرُهُ اذا اَرادَ شَيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ ۞ فَسُبحَانَ الذَّي بيده مَلَكوتُ كُلِّ شَيءٍ واليه تُرجَعونَ ﴾[٣].

اعلم! يامن يدعو المسلمين الى الدنيا، اخطأت!.. اتحسب ايها الغافل ان المطلوب بالذات من الانسان عمارةَ الدنيا، واختراع الصنايع، وتحصيل الرزق وغير ذلك مما يعود الى الدنيا؟ والحال ان صاحب الملك الذي أمرهُ بين الكاف والنون يقول بقول يصدقّه الوجود والكون والواقع وتجهيزات الفطرة الانسانية: ﴿ وَما خَلقتُ الجنَّ والانسَ إلاّ لِيَعْبُدونَ ﴾[٤] ﴿ وكايّن من دآبَةٍ لاتَحملُ رِزقها الله يَرْزُقُهَا وإيّاكُم ﴾[٥] ام تزعم ان مَن صنعك ويصنعكَ دائماً بتجديدِ وجودكَ في كل زمان يحتاجُ لما تصنعُ في نظام ملكه والى توسيطك في تصرفاته؟.. اترى كل مصنوعات البشر تساوي خلقة نخلة او نحلة او صنعة عين او لسان؟

اعلم! يا ايها الغافل! ان من ابعد المحالات ان لايعلم مَن خلقك ما يتوارد عليك وانت تتقلب فيه من الاحوال الاجتماعية والاطوار الدنيوية. فكن من شئت اعتقاداً وفكراً ولو معطلاً وماديوناً،[٦] فبالضرورة والمشاهدة ترى في النطفة والبيضة والحبة

(١) الاعراف: ١٥٦
(٢) الاسراء: ٤٤
(٣) يس: ٨٢–٨٣
(٤) الذاريات: ٥٦
(٥) العنكبوت: ٦٠
(٦) اي: ولو منكرا لوجود الله وممن يحصرون الوجود فيما يرونه من مادة فقط.

والنواة فعالية وخلاقية وصنعة وتصرفاً. أيمكن في عقلك ان يكون المتصرف في النواة – هذا التصرف البصير الحكيم الناظر الى مناسبات تلك النواة لعالم نوعها ولمن يستفيد منها – غير عالم بعالم الاشجار واحوالها وارتباطها بسائر العوالم؟ وان لايرى ولايشاهد «فالق الحبة ومُسنبلها» مَن يزرعها ولم يزرعها وما يحصل منها وما يحصد منها وجهة ارتباطها بعالم الحيوانات ومحيطها وما يجري فيه؟ ان يحتمل عندك ان يكون مَن يصوّر البيضة – فرخاً مجهزاً بالآلات اللائقة بعالم الطير – غير بصيرٍ باحوال عالم الطيور واطوار جيران الطيور من سائر الأنواع؟ ام يجوز في زعمك ان لايرى خالقُ النطفة علقةً، والعلقةَ مضغةً، والمضغةَ عظاماً وكاسِ العظام لحماً ومنشئه خلقاً آخر ذا حياة؛ ومصوره بصورة تتلمع منها اثر صنعة عليمٍ، بصير حكيم، بما لا غاية فوق علمه ورؤيته وحكمته؛ ومجهزه بجهازات يتصرف بها ذلك الانسان المخرَج من النطفة في كثير من الانواع والعوالم. وان لايشاهد ذلك الخلاق عالم الانسان واحواله وشؤونه وما يجري على رأس نوع الانسان. وان لايعلم ادوار الانسان والعوالم التي يجول الانسانُ فيها بجسمه وحواسه وروحه وعقله وخياله، وغير ذلك مما اودع في جوهر الانسان من نظارات العوالم ومراصد الحقائق؟

ايها الغافل! اتظن انك حرّ ومأمون من مداخلة مَن يمد الى يدك بعصا الغصن رمانةً مصنوعةً لك وبخيط الشار(١) بطيخة مطبوخةً لاجلك؟ فمن غفلتك تظن صانعَ البطيخ غافلاً عن آكله، ومن عُميك تتوهم صانعَ الرمانة قوةً عمياء لاتعلمُ ما تعمله للمتفكهين بالرمانة وطراوتها والمتحيرين في صنعتها القائلة: «سبحان من صوّرني فاحسن صورتي». والمتفكرين في لطافتها الناطقة بـ: ﴿ **فتبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالقينَ** ﴾(٢). والمتأملين في انتظامها المتقن المنضّد المنادي باعلى صوته: ﴿ **ألاَ يعلَمُ مَن خَلَقَ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ** ﴾(٣). ام تحسب ايها الجاهل ان لايرانا ولا يعرفنا مَن يرسل الينا لحاجاتنا الخصوصية هذه الثمرات؟ او لايشاهدنا مَن يبث في ما بين ايدينا وفي خلال ديارنا ولمنافعنا بهيمات الانعام وسائر الحيوانات؟

---

(١) شار العسل: اجتناه.

(٢) المؤمنون : ١٤

(٣) الملك : ١٤

اعلم! يامن يعتمد على نفسه وعلى الاسباب وعلى الدنيا! انك حينئذٍ تصير كالذباب ذي النُجيم يترك النهار بشمسه، ويعتمد على نُجيم نفسه وتلمّعه في الليل.. ومثلك كمثل نفر عسكر يتصور أن سلطانه يعمّ احسانه وانفاقه، حتى ادنى نفر وحيوان؛ ثم يقول في نفسه اين انا؟ واين نظرهُ الخاص وعنايته الخصوصية من بين مالايتناهى من المنعَم عليهم، مع ان قلبي محتاج لحبيب وشفيق خاص يعينني على حسياتي ويصاحبني. فالاولى ان اتخذ من دونه ولياً ومرجعاً، ثم يتحرى في خارج نظام العسكر روابط ومعاملات حتى يصير عاصياً، فيُطرد ويحبس «كالفاسق المحروم». ويقال له: ألم تعلم ايها المسكين ان خزينة الملكِ تكفي لكل حاجتك وحاجات سائر الافراد المرتزقين؟. واما ما في يدك ويد اربابك فلا يكفي لأدنى حاجتك، اذ انت بين اعداء لاتُعد وآمال لاتُحد. وان قانون الملك لتجرده عن الماديات لايُشغل – ذلك القانون – نفرٌ عن نفر، بل يتوجه بتمامه لأي فردٍ كان. ولو كنتَ وحدكَ في السلك العسكري لما تفاوتت المعاملة. فكأن السلطان ينظر اليك خاصةً دائماً في منظار قانونه، ويراك بأبصار ملتزمي قانونه، لاسيما اذا لم يكن السلطان مادياً كقانونه المجرد، فلا يغفل عنك حينئذٍ ولو طرفة عين. ففي عموم احسانه نظرٌ خصوصي اليك، بدليل انطباق الاحسان على الحوائج التي تخصك بذاتها، او تخصك بكيفياتها. ومفتاح هذا السر هو: ان الاحدية تتلمع في خلال وُسعة الواحدية، كتلمع عين الشمس في خلال الضياء المحيط حتى في كل ما مسه الضياء من الذرات الشفافة وكتلمع النظام التام في خلال المشوشية الظاهرية الناشئة من اشتباك اشتات الاشياء.

والحاصل: ان فاطرك ومالكك ارحمُ واكرمُ وألطفُ وأرأفُ بك من كل قريبٍ وحبيبٍ ورفيقٍ وشفيقٍ وهو العليمُ بك وباسرارك، وهو القديرُ على اعظمِ مطالبكَ وعلى اخفاها. فاترك الكلَّ وتوكل عليه..

اعلم![١] ان كتاب الكائنات الذي هو «كتابُ القُدرة» مكتوبٌ على مِسطرِ «الكتاب المبين» الذي هو «كتاب العلم» بشهادة ان هذا النظام والميزان المشهودَين المحيطين بابان بعينهما من هذين الكتابين، ورابطة اتصالهما، وبرزخٌ بينهما، وعنوانان

(١) في المكتوب العاشر وفي حاشية المقصد الثاني من الكلمة الثلاثين يميّز الاستاذ النورسي بين الكتاب المبين والامام المبين.

لقبضتي الرحمن: ولا رَطبٍ ولايابسٍ الاّ وهما داخلانِ من باب هذين البابين في الكتاب المبين. ولأجل انه لاخارج في الكون والوجود من البابين بالمشاهدة، فكل شئ داخل في ذلك الكتاب.

واما القرآن المبين الذي هو كتاب «صفة الكلام» فهو ترجمان الكتابين الغيبيّ والشهودي، القُدرتي والعلمي. وفهرستةُ البابين وفذلكة القبضتين.

ومن دساتير هذه الكتب الثلاثة الآتية من الصفات الثلاث التي هي «العلم والقدرة والكلام»؛ أنّ كلَّ حي بل كلَّ شئٍ كعسكرٍ موظفٍ وكعبدٍ مأمورٍ، انما يعمل بحساب الملك المالك له، لابحساب نفسه ومالكيتها، ولا لذاته وللذته، بل انما لذّته في ذات وظيفته. ومَن زَعمَ انه مالكٌ فهو هالكٌ ومَن تملّك تهتّك.

اعلم! ان السموات مصنوعة من غير فطور ترونها. فصانعها اعزُّ واجلُّ واكبرُ واعظمُ من ان يتعسرَّ عليه ايجادُ كل جزئيات كلٍّ ما في جوفها، ومن ان يخرج من ملكه شئٌ ما من الاشياء.. فلأجل الاشتباك التام بين جزئيات الانواع لابد ان يكون خالقُ نوعٍ واحد كالسمك والذباب مثلا، خالقَ كل الانواعِ. فله المُلكُ وله الحمد وله الخلقُ وله الامرُ وله الحُكمُ لا إله الاّ هو..

اعلم!(١) ان النبي ﷺ ونبوتَه فذلكةُ الكمال والخير، وان مسلكه والدين فهرستة السعادة والحُسن المجرد. وقد نرى في العالم كمالاً فائقاً وحقاً ناطقاً، وخيراً شاهقاً وحُسناً شارقاً، فبالضرورة يكون الحقُ والحقيقة في جانب النبي، والضلالةُ والوهم والعدمِ في خلافه. فإن شئت فانظر من الوف الوف محاسنِ العبودية التي جاء بها النبيُّ الى هذا الواحد: وهو توحيد قلوب الموحدين وجمعُ ألسنتهم في امثال صلاة العيد والجمعة والجماعة، بحيث يقابل هذا الانسانُ عظمة خطاب المعبود الازلي بجميع اصوات القلوب وادعيتها واذكارها، بتظاهرٍ وتظافرٍ في اتفاقٍ وتساندٍ وتجاوب في وسعةٍ كأن هذه الارض تنطقُ هي بنفسها، وتصلي باقطارها وتمتثل باطرافها أمر: «اقيموا الصلاة» النازل بالعزّة والعظمة من فوق السموات السبع، حتى صار هذا الانسان المخلوق الضعيف – مع صغره وكونه كذرة بين هذه العوالم – عبداً محبوباً لخالق الارض والسموات وخليفة الارض، ورئيس الحيوانات،

---
(١) تراجع المذكرة التاسعة.

وغاية خلقة الكائنات. الا ترى ان لو اجتمع في الشهادة كما في الغيب اصوات المكبرين البالغين مئات الملايين في آن واحد بـ« الله اكبر » في صلاة العيد وادبار الصلوات تساوي تكبير كرة الارض لو كبّرت، فكأن الارض في العيد تتزلزل زلزالها فتكبّر الله باقطارها واوتادها، وتتكلم من صميم قلب قبلتها، بفم مكّتها بـ« الله اكبر » فتتموج كلمتها متمثلةً في هواء كهوف افواه المؤمنين المنتشرين في اطرافها، بل – وكذا – في اطراف البرزخ والسموات جل جلالُ مَن خَلَقها ومهّدها وجعلها مسجداً لعباده سبحانه..

اعلم![١] يامن يحب ان ينظر ويصل الى نور معرفة الحق سبحانه من مسامات الدلائل والبراهين ومن مرايا الآيات والشواهد، لاتتجسّس باصابع التنقيد ماجرى عليك، ولاتنقد بيد التردد ماهبّ اليك، ولاتمدنّ يدك لأخذ نورٍ اضاء لك. بل تجرّد وتعرّض وتوجّه.. فاني قد شاهدت من انواع الشواهد والبراهين ثلاثة:

قسم منها كالماء يُرى ويُحسّ، ولكن لايُستمسك بالاصابع، فتجرد عن خيالاتك وانغمس فيه بكليتك، ولاتتجسسّ باصبع التنقيد، فأنه يسيل ولايرضى بالاصبع محلا.

وقسم منها كالهواء يُحسّ ولكن لايُرى ولايُتخذ.. فتعرّض بوجهك وفمك وروحك لنفحات رياح الرحمة، ولاتقابلها بيد الاخذ والتنقيد والتردد بدل تنفسِ الفم وتروّح الروح، فانه يزول، وهو منطلقٌ ولايرضى باليد منزلاً.

وقسم منها كالنور يُرى ولكن لايُحس ولايُؤخذ؛ فتوجّه ببصرٍ بصيرتك مقابلاً له بقلبك، فان النور لايؤخذ ولايُصاد الا بالنور، ولاتمدّ يداً ماديةً حريصة، ولاتزنه بميزان الماديات فانه يختفي، وان لم ينطفي. ولايرضى بالماديّ حَبساً وقيداً وبالكثيف مالكاً وسيداً..

اعلم![٢] وانظر الى درجة رحمة القرآن وشفقته على جمهور العوام ومراعاته لبساطة افكارهم كيف يكرر ويُكثر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السموات والارض فيُقرؤهم الحروفات الكبيرة الظاهرة التي تُقرأ بكمال السهولة بلا شبهة

---

(١) تراجع المذكرة العاشرة.

(٢) تراجع المذكرة الحادية عشرة.

كـخلق السموات والارض، وانزال الماء من السمـاء، واحياء الارض وامثالهـا. ولا يوجّه الانظار الى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة الاّ نادراً. ثم انظر الى جزالة بيـان القرآن كيف يتلو على الانسان مـا كتبَتْه القدرةُ في صـحائف الكائنات، حتى كأن القـرآن قراءة للكائـنات ونظاماتهـا وتلاوة لشـؤون مكونها وافـاعيله. فـان شئت فاستمع بقلب شـهيد امثال سورة «عمَّ» وآية ﴿قُلِ اللّهُمَّ مالكَ المُلك﴾[١] وامثالهما..

اعـلـم![٢] اني قـد اكـتب تضـرع قلبي الى ربي – مع ان من شـأنه ان يُسـتَرَ ولايُسطر – رجاءً من رحمته تعالى ان يقبل نطق كتابي، بدلا عني اذا اسكت الموت لساني «ومنه هذه المناجاة»:

ياربي الرحيم ويا الهي الكريم!.

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي وما بقي من ثمراتهما الاّ آثام مؤلمة مذلة، وآلام مضرة مضلة، ووسـاوس مزعجة معجزة. وانا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخـجيل مـتقرب بالمشـاهدة بكمال السـرعة بلا انحراف وبلا اختـيـار كآبائي واحبـابي واقاربي واقـراني الى باب القبـر، بيت الوحدة والانفـراد في طريق ابد الآباد للفـراق الابدي من هذه الـدار الفـانيـة الهـالكة باليـقين، والآفلة الـراحلة بالمشـاهدة، ولاسيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الامارة.

فياربي الرحيم، وياربي الكريم!.

اراني عن قريب قد لبـست كفني وركبت تابوتي وودعت احبـابي وتوجهت الى باب قبري، فانادي في باب رحمتك:

الامان الامان ياحنان يامنان نجني من خجالة العصيان.

آه كـفني على عنقي، وانا قـائم عند رأس قـبـري، ارفع رأسي الى باب رحـمـتك انادي:

الامان الامان يارحمن ياحنان خلصني من ثقل حمل العصيان.

---

(١) آل عمران: ٢٦

(٢) تراجع المذكرة الثانية عشرة.

آه انا ملتف بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وانا منتظر لعفوك ورحمتك.. ومشاهد بان لاملجأ ولامنجأ الا اليك وانادي:

الامان الامان من ضيق المكان ومن وحشة العصيان ومن قبح وجه الآثام، يا رحمٰن يا حنان يامنان يا ديان نجني من رفاقة الذنوب والعصيان..

الـٰهي!.. رحمتك ملجئي ووسيلتي، واليك ارفع بثي وحزني وشكايتي..

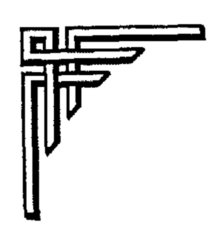
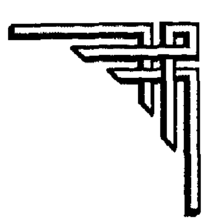
ياخالقي الكريم، وياربي الرحيم، وياسيدي، يامولاي!

مخلوقك ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المسيئ المسن الشقي الآبق قد عاد بعد اربعين سنة الى بابك ملتجأ الى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلى بالاوهام والاسقام، متضرعاً اليك. فان تقبل وتغفر وترحم فانت لذاك اهل وانت ارحم الراحمين . والا فأي باب يقصد غير بابك، وانت الرب المقصود والحق المعبود. ولا اله الا انت وحدك لاشريك لك..

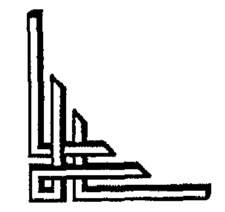
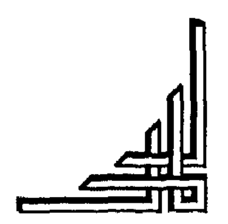
آخر الكلام:

اشهد ان لاَ إله الاّ الله واشهد ان محمّداً رسول الله

* * *

ذيل الزهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمته بانزال القران، وعلى رحمته بارسال سيد الانام، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

اعلم! ان الفاطر الحكيم جل جلاله جعل النباتات والحيوانات – لا سيما صغارهما – من اوسع ميادين تصرفات قدرته، ومن اكثر مظاهر تجليات صفاته، ومن اغلب مرايا جلوات اسمائه؛ لأسرارٍ غالية وحكمٍ عالية:

● منها: ان النبات كالنواتات للارض، وان الحيوان ثمرةُ العالم. والنواة انموذج مصغّر للشجرة، والثمرة مثال مصغر لها. فكل ما يتجلى عليها يتجلى عليهما ايضاً.

فما دام ان غايات الخلقة والحياة هي المظهرية لتجليات اسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق، تكون العناية بتكثير جزئيات النبات والحيوان، لاسيما دقائقهما هي الأوفق للحكمة الأزلية.

روي ان موسى عليه السلام اشتكى الى الله من كثرة البعوضات الهاجمة عليه، وسأل: «ما الحكمة في تكثيرها؟ فأوحى اليه: ان البعوض يسأل: لِمَ خلقت هذا الانسان بهذه الجسامة، وهو يغفل عنك؟ ولو خلقت رأسه بعوضاتٍ لبلغت مائة الف مسبحين بحمدك في عالمهم، وذاكرين لك بين اخوانهم، مظهرين لجلوات اسمائك ونقوش صنعتك بلسان قالهم وحالهم».

نعم! ان القرآن المعنوي المكتوب بمداد النجوم على صحائف طبقات السموات، إذا قرأ على الانظار آيات العظمة والجبروت التكوينية، يقرأ معه – رأساً برأس – القرآنُ المكتوب بمداد الجواهر الفردة على جزء لا بتجزأ في حجيرة عينك: آيات العلم والحكمة.

فاذا سمعت من ذاك: سبحانه ما أعظم شأنه! سمعت من هذا ايضاً: سبحانه ما ادق حكمته وما ألطف صنعته! فاذ تساوى القرآنان، واقتضت الحكمة تكثير نسخ احدهما – وتكثير نسخ الكبير لا يفيد الناظرين – فلا بد من تكثير نسخ الصغير للمطالعين المتفكرين الغير المحدودين، من المَلَك والجن والانس وغيرهم. وفي تكثير النسخ لايبقى الكتاب كتاباً واحداً، بل تتنوع الكتب وتتفاوت الفوائد وتتعدد المفاهيم، فتتلاحق الامثالُ فيتزايد الحُسن والجزالة. ولولا ادراج كثير من سور الكتاب الصغير ونُسَخه في بعض حروفات القرآن الكبير لفاق الصغير على الكبير بدرجة صغره!.

● ومنها ايضاً: ان اتم التجليات؛ تجلي الاحدية. واكمل الصنعة؛ ادراج الاكبر بتمام نقوشه في الأصغر. وان الثمرة والنواة بالنسبة الى النبات، وان النبات والحيوان بالنسبة الى الارض، وان الانسان والنبي بالنسبة الى العالم. وان القلب والسر بالنسبة الى الانسان.. انموذج مختصّر جامع مظهر لجميع الاسماء المتجلية على الاصل والكل والمحيط.

وان الثمرة – مثلاً – كما انها «جزء» من الشجرة وهي «كلّها»، فتشير من هذه الجهة الى الواحدية.. كذلك «كالجزئي» لها تشتمل على تمام الشجرة وهي «كلّيها» فترمز بهذه الجهة الى الأحدية.. فالواحدية شاهدة الوحدة عند تجلي الاحدية في مرايا الكثرة والجزئيات.

مثلا ﴿ولله المثل الاعلى﴾ ان الضياء المحيط في النهار مثال الواحدية، وتمثال الشمس في كل ذرة شفافة وقطرةٍ وحوضٍ وبحرٍ ونجوم سيارة مثال لتجلي الاحدية.

فاذا رأيت الشمس في مرآتك بلون مرآتك، وبما تقتضيه وضعيتّها، ثم رأيتها في مرايا اخرى،فتنظر الى الضياء، فيشهد لك بالوحدة، وان لا كثرة في المتجلي، كما تتوهم. وتنشد الكثرة والمرايا:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكلٌ الى ذاك الجمال يشير

فيُتحدس من هذه الاسرار، ان الفاطر الحكيم جلّت حكمته، ودقّت صنعته متوجهٌ بألطف قدرته وأتمّ عنايته وأكمل رحمته وأدق حكمته من العالم الى الارض، ومنها الى ذوى الحياة، ومنهم الى الانسان، ومن فرد الانسان الى قلبه، ومن نوع الانسان الى ما هو قلبُ النوع وقلبُ العالم ونواتُه التي خُلق العالمُ عليها، وثمرتُه المنوّرة التي انتهى اليها مخلوقاً لأجلها، وتمثال محبة فاطر العالم، ومثال رحمته.. وما ذلك القلب العالي الغالي المطهّر المنزّه الاّ سيدنا وسيد الأنام محمد عليه صلوات وتسليمات بعدد ثمرات شجرة العالم.

اعلم! يا من يتوهم الاسراف والعبثية في بعضِ الموجودات! ان كمال النظام والميزان في انشاء كل موجودٍ يطرد هذا الوهم إذ النظامُ خيط نُظم فيه الغايات المترتبة على الاجزاء الجزئية والتفاصيل الفرعية. ومن المحال ان يراعي احدٌ كلّ غايات تفاصيل قصرٍ – بدلالة انتظام بنائه – ويترك غاية المجموع، التي بها تصير الغايات الجزئية غاياتٍ.

فان شئت التحقيق فاستمع يا من له قلب شهيد وسمع حديد!: ان لكل شئ غايات دقيقة كثيرة تعود منها الى الحي القيوم المالك بمقدار مالكيته وتصرفه بمظهرية الشئ لانواع تجليات اسمائه، وما تعود الى الحي الاّ بدرجة تلبّسه الجزئي.

وان كل شئ من الاشياء يصير هدفاً مشتركاً بين ذوي العقول، فلا يصير عبثاً اصلا؛ اذ إذا لم يطالعه هذا هنا الآن، طالعه هؤلاء، ومع ان وجوه استفادة كل أحد من كل شئ في غاية الكثرة، وان جنود الله لا تحصى ﴿وَمَا يعلمُ جنودَ ربّك إلاّ هو﴾[1]. فلا شئ في الكون الاّ ويتزاحمُ عليه – بلا مزاحمةٍ – انظارُ مَن لا يحصى

(١) المدثر: ٣١

من الملائكة المسبّحين المقدّسين باجناسهم وانواعهم المالئين للكون، ومن الجان المتحيرين المتفكرين باقسامهم واصنافهم، ومن الارواح المكبّرين المهللين بطوائفهم، وقبائلهم وغيرهم ممن لا يمنعهم كثيفات الاشياء عن رؤية ما في اجوافها، ولا يشغلهم شهود شئ عن شئ، وفوق الكل رؤية صانع الكل لصنعته.. وكذا كثير من الناس المؤمنين المتنبهين، بل وكذا الحيوانات المتحسسات المتأثرات بحواسهم.

فان قلت: أية آيات كتاب الكائنات تدل على وجود معتبرين و متحيرين و متفكّرين ومسبحّين من غير الانسان؟ واي سطرٍ من ذلك الكتاب يشير اليه؟.

قيل لك: آية النظام في سطر الميزان من صحيفة الحكمة.

الا ترى انك اذا ذهبت الى دار تمثيل – مثلا – فرأيت في تلك الدار انواعاً كثيرة من الغرائب التي تتحير فيها الانظار، واصنافاً من الملاهى التي تستحسنها الاسماع، واقساماً متنوعة من السحر والشعبذة التي تتلذذ بها العقول والخيال. وهكذا من كل ما يتلذذ به مالا يحد من لطائف الإنسان وحواسه وحسياته، ثم نظرت في ساحة محل التمثيل، فما رأيت الاّ صبياناً صماً عمياً مفلوج الحواس والحسيات الاّ قليل منهم. فبالضرورة العرفية تتفطن وتتيقن بأن خلف هذه الحُجُب والاستار المرسلة على وجوه الجدار عقلاء مختلفون في الاذواق والمشارب لهم حواسُ سليمة جاءوا للتنزّه، يشتاقون لكل ما ابدع وشهر في ذلك المجلس، ويرونك والتمثيل من حيث لا ترونهم.

فاذ تفطنت لسر التمثيل، فانظر من دار الدنيا الى هذه المصنوعات. فمنها كزرابي مبثوثة، وفُرُشٍ مرفوعة، وحلل ملبوسة، وحلية منثورة، وصحائف منشورة.. ومنها ازاهير وثمرات اصطفت؛ تدعو بألوانها وطعومها وروائحها ذوى الحياة واصحاب الحاجات وتدعو بنقوشها وزينتها وصنعتها اولى الالباب وذوى الاعتبار.. ومنها نباتات شمّرت عن ساقاتها لوظيفة خلْقَتها، وحيوانات قامت على ارجلها لوظيفة عبوديتها، واكثرها لا تشعر بما أودع في أنفسها من المحاسن الرائقة واللطائف الفائقة..

فليست تلك اللطائفُ والمحاسن لِحَمَلَتَها البُهْمُ العُجْمُ، بل ما هي الاّ لغيرها السميع البصير.. ومنها الى مالا يحد ولا يعد. فمع كل هذه الحشمة الجلابة والزينة الجذابة، وانواع التلطيفات والتوددات، وانواع التحببات والتعرفات، واقسام التعهدات والتعمدات واصناف التزينات والتبسمات واشكال الاشارات والجلوات،

وغير ذلك من ألسنة الحال التي كـادت ان تنطق بالقال مع انه لا نرى ظاهراً في ساحة الدنيـا من ذوي الاعتـبار والابتـصار الاّ هؤلاء الثـقلين اللذين صـيرت الغـفلة اكثـرهـم كصبيانٍ صمٍ عميٍ فلج في ظلمات طاغوت الطبيعة يعمهون.

فبـالحدس الصـادق وبالضرورة القطعـية وبالبـداهة العقليـة، لابد ان يكون الكون مـشحـوناً من ذوي الارواح المعـتبـرين المسّـحين مما عـدا الثقلين. كـمـا قال من قـوله القـول: ﴿ **تسبّح له السمٰـوات السّبع والارض ومن فـيهن، وان من شئ الاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ (١).

اعلم! ان بمقدار توسع تصرف القدرة في الجزئيات وتزييد الامثال تتقوى العناية بالفرد. فـلا تقل: انا قطرة في بحر، فـينسيني البحـر. كلا! بل البحـر شاهد على انك بنسبة محاطيـتك به محفوظ ابداً بنظام قوي نافذ بقوته في جـميع امثالك؛ إذ بدرجة الصغـر والخفـاء والمحاطية يتزايـد الاهتمام به، والمصـونية من الاهمـال، والمحفـوظية من مداخلة الغير، ومن لعب التصادف، ويزيد ظهور المخلوقية والمجعولية.

الا ترى أن المركز أصون من تسلط الغير والمـهاجمات، وان النواة أحصن من لعب التصادفات وتعجيز العاصفات، وان الاهتمام بالنواة أشد؟

ايها الانسان! انت نـواة الارض والارض بيضة العالم. ومن هذا السـر يُكثر القرآن ذكر خلق السمٰـوات والارض ويجعله عنواناً لخلق كل شئ.

اعـلـم! وانظر الى كمـال النعمة في كمـال الحكمة، وكمال الحكمـة في كمال النظام، وكـمال النـظام في كمـال الميزان، فـي صنعة الحـواس الخمـسـة الانسانيـة؛ اذ فطَرها فـاطرها بوضـعـيةٍ وجـهـزّها صـانعـهـا بجهـازات، يحس الانسـانُ بهـا ويَذُوّق صاحبَها خصوصيات جميع انواع الثمرات والازهار والاصوات والروائح وغيره، حتى ان في حاسة الذائقة حسيات رقيقة دقـيقة منتظمة بعدد طعوم جميع اجناس الثمرات وانواعهـا واصنافهـا.. وهكذا حاسـة السمع لخصوصيـات مالا يحـد من الاصوات. وقس سائر الحواس الظاهرة، ولاسيما الباطنة التي هي اكثرُ غناءً وجهازاً.

ومن هذا السر بلغت جامعيةُ فطرة الانسان الى درجة صيّرت هذا الانسان: مظهراً لما لا يحد من انواع تجليات اسـماء فاطره جلّ شأنه، وذائقاً لما لا يعـدّ من الوان نعمه، **عمّ نواله.**

---

(١) الاسراء: ٤٤

مثلك ايها الانسان، كمثل المركز العمومي للتلفون، فكما ان فيه لمخابرة كل موقع في الولاية مفتاح خاص، كذلك فيك لحسّ ذوق جميع انواع نِعَمه، ولذوق لذة مظهريتك لما لا يحد من اقسام تجلياته مفاتيح مخصوصة عُلّقت بِرأسك ولطائفك، فاستعملها كما يرضى به بارئُها، بالحركة بميزان شريعته.

ومن هذا السر يمكن التفاوت بلا نهاية بين مراتب لذائذ شخصين هما في عين جنةٍ وفي عين مكانٍ. وبشارة (المرء مع من أحب)[1] قد تجمع بين الادنى والاعلى.

اعلم! ان ما يرى عند اختلاط اشتات الاشياء وأوباشها من المشوشية المنافية للنظام والميزان، فليس مما لعب به التصادف، بل خرج من صورة النظام الى نقش الكتابة، لكن تلك الكتابة غير مقروءة بالسهولة للنظر الظاهري الامي الناظر الى معكوسها في مرآة الوهم!

ألا ترى أن تلك الاشتات لو كانت بذوراً، اذاً تنبتت، تكشفت عن نظام تام. فالجمع بينها كتابةٌ غريبة لقلم القدر.

اعلم! ان الحجة القاطعة على خاتمية النبوة الأحمدية، ايصالُها حدود الدين في كل قاعدةٍ منه الى حدٍ لا يتعقل أوسع ولا اكمل ولا اتمّ منه.

مثلاً، في مسألة التوحيد والربوبية، يقول:

﴿بيده ملكوت كل شئ﴾[2] **﴿هو آخذ بناصية كل شئ﴾**[3] **﴿والسّمٰوات مطويات بيمينه﴾**[4] **﴿هو الذي يصوّركم في الارحام كيف يشاء﴾**[5] **﴿هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئٍ عليم﴾**[6] **﴿وَمَا تَشَاؤون الاّ ان يشاء الله﴾**[7] **﴿وَنحنُ اقرب اليه من حبل الوريد﴾**.[8]

وكذا يحكم ذلك الدين بأن نهايات ما تنقسم اليه المادة وتنبسط وتصل اليه حدود الماديات من الجواهر الفردة والذرات واعظم ثمرات العالم من الشموس

---

(١) رواه البخارى في الادب ٩٦ ومسلم برقم ٢٦٤٠ عن ابى موسى الاشعرى واخرجه احمد ٣٩٢/٤، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥ وابن حبان ٥٥٧ .

(٢) يس : ٨٣ (٣) هود : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٧

(٥) آل عمران : ٦ (٦) الحديد : ٣ (٧) الانسان : ٣٠

(٨) ق : ١٦

والسيـارات، متساوية الاقـدام كتفاً بكتف في امـتثال امر خـالقها المنزّه عن صفـاتها، المقدس عن حدودها ولوازماتها.

وفي مسألة الحشر والتوحيد، وصل الى مرتبة لا حد فوقها بالبداهة.

وهكذا في كل مسألة مسألة، فلا يمكن فيـه الاكمالُ والاتمام بآخرٍ. فحقه الابدية والدوام الى يوم القيام.

اعـلـم! ان قلبي قد يبـكي في خلال انيناته العربيـة بكاءً تركيـاً، بتهييج المحيط الحزين التركي، فاكتب كما بكيت:

[لا اريد من كان زائلاً لا اريد

أنا فان، مَنْ كان فانياً لا اريد، أنا عاجز، من كان عاجزاً لا اريد

سلّمت روحي للرحمن، سواه لا اريد

بل اريد،

حبيباً باقياً اريد.

انا ذرة شمساً سرمداً اريد.

انا لا شئ ومن غير شئ، الموجودات كلها اريد.

* * *

لا تدعني الى الدنيا، فقد جئتها ورأيت الفساد.

اذ لما حجبت الغفلة انوار الحق،

رأيت الاشياء والدنيا اعداءً ضارين.

ذقت اللذائذ، ولكن وجدت الألم في زواله.

أما الوجود، فقد لبسته،

آه لا تسل كم عانيت من الالم في العدم.

ان قلت الحياة، فقد رأيتها عذاباً في عذاب.

نعم، لما استتر نور الحق عني،

اذا بالعقل يتحول عقاباً، ورأيت البقاء بلاء، والكمال هباء،

والعمر ذهب ادراج الرياح.

نعم! بدونه، انقلبت العلوم اوهاماً.
واصبحت الحكم اسقاماً، والانوار ظلمات، والاحياء أمواتاً،
والاشياء اعداء.
ولمست الضر في كل شئ.
والآمال انقلبت الآماً.
والوجود هو العدم بعينه. وصار الوصال زوالاً.
والالم يعصرني مما لابقاء فيه.
نعم! ان لم تجد الله فالاشياء كلها تعاديك؛
اذى في اذى، بل هو عين الاذى.
وان وجدت الله،
فلن تجده الاّ في ترك الاشياء.
فرأيت بذلك النور: الجنة في الدنيا،
وبدت الاموات احياء.
ورأيت الاصوات اذكاراً وتسابيح.
والاشياء مؤنسة، واللذائذ في الآلام نفسها.
والحياة اصبحت مرآة تعكس انوار الحق.
والبقاء رأيته في الفناء.
والذرات تلهج بالذكر.
يقطُر من السنتها وتتفجر من عيونها؛
شهدُ شهادة الحق.]

وفي كل شئ له آية   تدل على أنه واحد

اعلم![1] يا من يتوهم اللذة والسعادة الدنيوية في الغفلة وفي عدم التقيد بالدين!

اني جربت نفسي مرةً فرأيتني على جسر امتد من رأس جبلٍ الى رأس جبل شاهقين، وتحتهما وادٍ عميق في غاية العمق، وقد أظلم علينا الدنيا بما فيها.

(١) تفصيل هذا المثال في الكلمة الثالثة والعشرين.

فنظرت في يميني الماضي، فما رأيت الاّ ظلمات عدمية مدهشة.

ثم في يساري المستقبلي، فما رأيت الاّ غياهب مهددة دهاشة.

ثم الى تحتي، فرأيت عمقاً الى اسفل السافلين.

ثم الى فوقي، فما رأيت الاّ غيماً بكماً صماً يمطر الغم واليتم واليأس والبأس..

ثم في امامي فرأيت في خلال الظلمات عفاريت وعقارب وليوثاً وذئاب كاشرة اسنانها للافتراس..

ثم في خلفي، فما رأيت مدداً ولا مغيثاً ولا معيناً.

فبينما انا مدهوش مأيوس نادم من تجربتي، ! إذ نبهتني الهداية الربانية، فرأيت وقد طلع على الانام قمر الاسلام واشرقت شمس القرآن، فرأيت جسر الحياة طريقاً تمر بين جنان النعم السبحانية وتنتهي الى جنة الرحمة الرحمانية..

ويميني الماضي بساتين مزهرة بالصلحاء، منورة مثمرة بالانبياء والاولياء تجري من تحتهم انهار الدهور وهم في البقاء خالدون.

ويساري فراديس تزهر فيها الآمال والأماني برحمة الحنان المنان..

وفوقنا سحائب الرحمة تفيض علينا ماء الحياة، وفي خلالها تبتسم الشمس بأنوار الهداية والسعادة الابدية.

وأما ما في أمامي من الكائنات، فاخواني واحبابي وانعام مؤنسات، صوّرتها ظلمة الضلالة وحوشاً موحشات، فقرأت علينا هذه الواقعة:

﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾.(١)

يا نور النور بحق اسمك النور اخرجنا من الظلمات الى النور.. آمين..

اعلم! ايها السعيد المجنون المحزون !ان مثلك كمثل صبي أبله قعد على ساحل البحر يبكي دائما لزوال الحبابات المتشمسة. كلما زال واحد بكى عليه ظناً منه انطفاء الشميسة المتبسمة في الحباب بزوال الحباب وتحوله، وقد يبكي لتكدر مافي الحباب وتشوهه باختلاط مواد كثيفة به، ولا يرفع رأسه حتى يتفطن لتنزّه الذات – التي هذه التماثيل جلوات انوارها المتجددة على وجه البحر وخدود الامواج وعيون

---

(١) البقرة : ٢٥٧

القطرات – عن الزوال بزوال مرايا تجلياته، بل ليس في ما ترى زوال مؤلم ولا فراق أليم.

أما الجمال بمحاسنه وجلواته فثابت بكمال حشمته في تجدد شؤونه وتعدد مراياه.

وأما المرايا والمظاهر فتظهر لوظيفتها وهي راقصة، فاذا تمت الوظيفة استترت وهي ضاحكة.

كذلك أنت، قاعد على ساحل بحر الدنيا تتألم باكياً على افول ذوي الكمال والجمال والحسن، وعلى زوال ثمرات النعم عند انقضاء أوانها، تزعم بالغفلة ان الجمال ملكُ ذى الجمال والثمرات مال الشجرة، وتغتصبهما منهما عاصفات التصادفات فتلقيهما في ظلمات العدمات. أفلا تعقل ان من نوّر ماتحبه بنور الحسن هو الذي نوّر كل ازاهير بستان الكائنات وشوّق عليها قلوب البلابل العاشقين.

الى كم تبكي ايها المسكين على زوال ما في يدك من الثمرة! فانظر الى تواتر نِعَم فالق الحب والنوى في ابقاء شجرة تلك الثمرة.. ثم الى دائرة انعاماته في اقطار الارض من امثال تلك الشجرة ان عقمت.. ثم الى دائرة تجدد احساناته في تجدد الفصول والسنين ان صارت سنتك شهباء.. ثم الى دائرة ادامة احسانه حتى في عالم المثال والبرزخ بأمثال ما شاهدت في عالم الشهادة.. ثم الى دائرة انعاماته الواسعة الابدية في عالم الآخرة باشباه ما استأنست به في حديقة الارض، ثم.. و.. ثم.. وهكذا! فلا تنظر الى النعمة بالغفلة عن الإنعام حتى تحتاج الى التشفي بالبكاء، بل انظر من النعمة الى الانعام ودوامه، ومن الإنعام الى المنعم ووسعة فيضه وكمال رحمته، فاضحك شاكراً له، وبفضله فافرح.

وحتى متى تدمع عينُك ويجزع قلبُك على فراق جمال زال! فانظر الى كثرة ووسعة الدوائر المتداخلة المحيطة بما تحبه تنسيك ألم فراقه بإذاقة لذة تجدد أمثاله وترادف اشكاله. وتلك الدوائر المتفاوتة صغراً وكبراً الى اصغر من خاتمك واكبر من منطقة البروج، وزوالاً وبقاءً الى آنٍ ودقيقة والى دهر وأبد؛ مظاهر ومرايا ومعاكس ومجاري لجلوات ظلال انوار جمالِ ذي الجلال والاكرام الازلي الابدي السرمديّ القيوم الباقي المقدس عن الحدوث والزوال المنزّه عن التغير والتبدل. فلا تظنن ان مافي المرآة ملك للمرآة، كي لا تبكي على مافي المرآة بموتها وانكسارها، فارفع رأسك عن

الدنيا بخفضه الى منظار قلبك لترى شمس الجمال، فتعلم ان كل مارأيت واحببت انما هو من آياته نعمْ.. ومن آيات جماله انْ زيّن السماء بمصابيحها والارض بازاهيرها.. ومن آيات حسنه ان خلق الانسان في احسن تقويم.. وان كتب العالم في ابدع ترقيم.. ومن ايات بهائه ان اشرق ارواح الانبياء ونوّر اسرارالاولياء وزيّن قلوب العارفين بانوار جماله المجرد. جلّ جلاله.

اعلم! يا انا! اراك انك لا ترى تناسباً بينك – وانت عجز مطلق وفقر مطلق، قد تضايقت عليك الحدود والقيود حتى صرت كذرة غابت في رمال الجزئيات وكنملة تراكمت عليها جبال الحادثات، وكنحلة تفاقمت عليها العاصفات – وبين من لا نهاية لقدرته وغنائه، ولا حد ولا قيد لتجليات اسمائه وصفاته، وجميع الخلق في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، لا تتحرك ذرة في الكون الاّ باذنه، لاشريك له في ملكه والوهيته، ولا منازع له في جبروته وربوبيته، ولا اله الاّ هو.

نعم! لو كانت وظيفتك في الدنيا الاشتراك مع فاطرك في ربوبيته سبحانه، لكانت المناسبة لازمة في المعاملة معه، لكن هيهات! اين يد إلبعوضة من نسج قميصات مطرزات قُدّت على مقدار قامات هذه العوالم، بل وظيفتك في فطرتك وغاية كمالك في استعداد ماهيّتك انما هي: العبودية التي على المحوية تنبتت، ومنها ابتدأت والى المحبوبية انتهت، واياها اثمرت. والعبودية ضد الربوبية والمالكية. فعدم المناسبَة هي المناسِبة. فبدرجة علمك ببعدك عن الربوبية والمالكية تصير عبداً محبوباً مرحوماً.

وان العبودية مرآة الربوبية بالضدية ككتابة الحروف النورية على صحيفة الظلمة، فكلما تقربت الى العدم تراءت منها اعالى مراتب جلوات الوجود للواجب الوجود جل جلاله ولا اله الاّ هو..

اعلم!(١) يا من يتوهم المبالغة في بعض ماورد في فضائل الاعمال!

مثلاً: قد يروى: من فعل هذا مثلاً كان له مثل ثواب الثقلين.. حتى قال بعض: ان المراد الترغيب فقط، وبعض: مطلق الكثرة. وقد انكشف لي في ما مضى؛ ان القضية في تلك المتشابهات مطلقة وقتية يكفي في صدقها وجود الحكم في بعض

(١) الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين يوضح هذه المسألة.

الافـراد، في بعض الاوقات، فليـست تلك القـضايا كليـة؛ اذ لصـحتـها شـرائط غيـر مذكـورة معـروفة. فان كـانت كلية فـهي قضـية ممكنة، وكـذا ليست دائمـة لتقـيدها بالاخلاص وبالقبول.

وقـد انكشف لي الآن، ان الثـواب فـضل الله وفـيضـه، ونظر العـبـد لا يحـيط بما يعطي من لا نهاية لتجليات فيضه لعبده الذي لا نهاية لاحتياجه في دار بقاء لا نهاية لدوامها.

فما من فيض اذا نظرت اليه من جانـب الله، الاّ وفيه جهة من عدم التناهي لو وزن بجميـع ما احاط به علم العبـد لزاد عليه. مثلاً روي: من قـرأ هذا اعطي له مثل ثواب موسىٰ وهرون عليهما السلام.

المراد ان مـا ترونه وتتصـورونه بنظركم المتناهي في هذا العـالم المتناهي من ثوابهـما لايزيد على ثواب قراءة آية في نفس الأمر وبالنظر الى الله بشرط القبول والاخلاص.

وكذا ان التـشبيه في الكمـية دون الكيفـية، فللقطرة المتشـمسة ان تقول للبـحر لا يزيد وجهك على عيني في أخذ فيض الشمس من ضيائها وألوانه.

نعم! ان الثواب ينـظر الى عالم الاطلاق، وذرة من ذلك العالم تـسع عالما من هذا العالم، كما تسع ذرة من زجاج عالم السماء بنجومها.

وكذا قد يتيسر لأحـد فتح خزينة من رحمة بكلمة طيبة في حالة قـدسية، فيقيس الناس على نفسه فـيعبر عن القضيـة الشـخصية بالمطلقة الموهمـة كليةً والعلم عند علام الغيوب ومقلب القلوب جل جلاله.

* * *

الرسالة الثامنة

ذَرَّةٌ

مِنْ شُعَاعِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «اوقاف» باستانبول سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢)م

في (ط١)

اعلـم! ان هذه الرسالة محادثات مع نفسي الامارة المرائية ، ورشاشات من شرارات « القطرة » اظن اني مأذون في نشرها. اذ يتكرر الاحتياج للمعالجة في كل (رمز) مادام لم يكتب . فاذا كتب يزول الاحتياج، لكن يبقى نوع تمايل للمناقشة مادام لم ينشر . فاذا نشر زال ذلك واطمأن القلب. فيدل على انه ليس لي فقط ، بل فيه للغير حصة. فلهذا اتجاسر على نشرها لعل فيها نفعاً لبعض الناس ان شاء الله تعالى.

ولتنوع الرموز يمكن الاستفادة لكثير فـ « ما لايُدرك كله لا يُترك كله » . ولترك التصنع تركتُ الخاطرات في الصور التي برزتْ فيها اول ما خطرت في القلب . ومن الله الهداية.

بسم الله الرحمن الرحيم

يـا مـن لـه الملك ولـه الحمـد صلّ وسلم على سيـد البشر الـذي قلتَ لـه: ﴿ يا ايها النبيّ ﴾[1]

فقال: لبيك !.. بحيث اسمع من عرفات ملائكةَ السموات العليا.. فقلتَ: بشّر وأنذر. فنادى بـ ﴿ يَا ايّهـا النَّاسُ اعْبُدُوا ربَّكُم ﴾[2] بحيث اسمع ادوار الزمان واطراف المكان.. اذ صار ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾[3] بطور المشاهد.. اذ يشاهد فيشهد منادياً لاجيال البشر خلف الاعصار والاقطار.. اذ اسمع فهذا صدى صوته يسمع باعلى صوته.. اذ قد ملأ الدنيا بنداء القرآن وبجميع قوّته.. اذ قد استولى على نصف الارض وبكمال جديته بشهادة سيرِه، وبغاية وثوقه بشهادة زهده في الدنيا، ونهاية اطمئنانه بشهادة قوة دساتيره ومعالمه، وبكمال ايمانه بشهادة انه كان اعبدَ واتقى من الكل.

اعلمي ! يا ايتها النفس الجاهلة ! ان الابواب المفتوحه النظارة الى الله عدد طبقات العالم وصحائفه، وعدد المركبات المتصاعدة والمتنازلة. فما اجهلك اذا انسد في وجهك بابٌ عادي تتوهمين انسداد كل الابواب. مَثَلك كمثل مَن إذا لم يرَ أو لم يعرف في بلد فرسان العسكر مع وجود سائر جيوش السلطان وخدامه ودوائر حكومته ، يشرع ينكر وجود السلطان ويؤّل كل شعائره ومعالمه .

اعلم! ان الدليل على ان الباطن أعلى وأتم شعوراً وأقوى حياة، وأزيَن واعلم واكمل واحسن وألطف من الظاهر.. وان ما على الظاهر من الحياة والشعور والكمال وامثالها، انما هو ترشحٌ ضعيف من الباطن – لا الباطن جامدٌ ميت اثمر حيّا عليماً !– كون بطنك اكمل انتظاماً من بيتك، وجلدك احسنُ نسجاً من ثوبك، وحافظتك اتم

---

(١) الانفال : ٦٤ (٢) البقرة : ٢١

(٣) البقرة : ١١٩

نقشاً من كتابك. فقس على هذه الجزئيات عالمَ الملك وعالمَ الملكوت وعالمَ الشهادة، وعالمَ الغيب والدنيا والاخرة. فيا حسرةً على النفوس! ان النفس الامارة النظارة بعين الهوى ترى الظاهر حياً مونساً مفروشاً، على باطنٍ ميت عميق مظلم موحش..

اعلم! ان وجهك يتضمن من العلامات الفارقة عدد افراد الانسان الماضية والآتية، بل لو وجد الغير المتناهي من الافراد لتصادف كلٌّ واحدٍ في وجهك ما يميزك عنه – مع التوافق في اركان اجزاء الوجه – كأن الوحدة تجلت من وجهك في كثرة غير متناهية.

فالتوافق في اساسات اعضاء افراد الانسان والحيوان يدل بالبداهة على ان الصانع واحد احد. والتخالف في التعّينات المنتظمة يدل بالضرورة على ان الصانع مختار حكيم.

ويتعاظم هذا السر بالنظر الى كل فردٍ فردٍ.. ومن أبعد المحالات وابطلها ان لا يكون هذا التمييز الحكيم والتخالف المثمر والتفريق المفيد بقصدِ قاصدٍ واختيارِ مختارٍ وارادة مريد وعلم عليم.

فسبحان من ادرج وكتب الغير المتناهي في صحيفة الوجه ، بحيث يُقرأ بالبصر ولا يحاط بالعقل. نعم يقرأ بالنظر واضحاً مفصلاً ولا يُرى بالنظر إجمالُه، بل ولا بالعقل ايضاً. فهو المعلوم المُبصر، المجهولُ المطلق، والمشهودُ الغائب. فمحالٌ بمراتب ان يكون هذا التخالف المنتظم المفيد في نوع الانسان، والتوافق المطّرد المتناظر في انواع امثال الحنطة والعنب، وكذا النحل والنمل والسّمك، بالتصادف الاعمى والاتفاقية العوراء، كلاَّ ثم كلاَّ. انه لصنعةُ سميعٍ، بصير، عليم، حكيم.

فاذا كان اوسعُ اطوار الكثرة وابعدها وارقاها وانسب مراتب الكثرة لجولان التصادف – لو كان – واكثرها انتشارا وادناها اهمية هكذا غير مُهمَلٍ ولا سدىً، بل محفوظاً من يد التصادف، حتى صار ميدانا لجولان القصد الحكيم والاختيار العليم والارادة السميعة البصيرة. فيا ايها التصادف لا محل لك في ملك الله فاذهب مع اخيك الطبيعة وابيك الشرك الى جهنم العدم والفناء بل الامتناع. وآية ﴿ **وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمٰواتِ والارْضِ وَاخْتلاف اَلْسِنَتِكُمْ وَاَلْوانكُمْ** ﴾[1] اشارت الى أول مراتب تجلّي الحكمة والى آخرها..

(١) الروم : ٢٢

اعلم! ان مما يوسوس به الشيطان، انه يقول: ان البقر مثلا لو كان مُلكاً ونَقشاً للقدير الازلي العليم لما كان هكذا مسكيناً، اذ حينئذ تحت جلده وداخل بيته يحكم قلمُ قدير عليم مريد على الاطلاق؛ فكيف صار فوق الجلد وخارج البيت هكذا عاجزاً جاهلاً يتيماً مسكيناً ؟

قيل له : ايها الشيطان الإنسي الذي صار استاذاً لشياطين الجن!.

اولاً: لو لم يكن صنعة القدير الازلي الذي يعطي كل شئٍ ما يليق به بمقدار المصلحة ، لزم ان يكون اذن حمارك اعقل واحذق منك ومن اساتيذك، ولزم ان يكون في داخلِ اصبعك مثلا: شعوراً واقتداراً يزيدان على شعورك واختيارك بمراتب. فمَن قيَّدَهما في حدِّهما مع ان شأن هذه اللطائف الانبساط والانتشار.

وثانيا: إنّ القدر يرسم مقداراً وقالباً، يُنشئ منه قابليةً، تقبل من الفيض المطلق مقدار قالبه، وكل ما يترشح من الداخل الى الخارج فبمقياس الجزء الاختياري وميزانه، وبقدر الاحتياج ودرجته، وبمساعدة القابلية وتحملها، وبميزان نظام حاكمية الاسماء وتقابلها. فليس المصنوع البقر فقط، خارجُه داخل آخرٍ. ففي كل شئ الداخل مظهر المطلق، والخارج مظهر المقيد. ومن طلب اضاءة الدنيا وجذب السيارات ومركزية العالم وامثالها من لوازم عظمة الشمس وحشمتها، من شميسة الحباب انعزل عن العقل.

نعم، يصف الحباب تلك اللوازم ولا يتصف..

اعلم! انك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوحِ الدلالة على صفات الصانع؛ مُجَسَّم الحكمة النقاشة، ومتجسِّدُ العلم المختار، ومُنجمدُ القدرة البصيرة بما يليق بك، وثمرة الرحمة السميعة لنداء حاجاتك، ومتصلّب الفعل المريد لما يريده استعدادك، ومتكاثَف الانعام العليم بمطالبك، وصورة القدر المرسِّم المهندس الخبير بما يناسب بناءك. فكيف يمكن لك ان تذهب بجزئك الجزئي الاختياري والشعرة الشعورية، وتخلص عن احكام الكل وتصير حراً برأسك. ثم ترجع تقيس الكل على الجزء؟ وكيف يتيسر أن تتغافل عن مالكك المالك لكل شئ ؟ وكيف تتوهم مع هذا العلم ان ليس عليك رقيب، سميع، بصير، عليم، مجيب، مغيث.. يسمع انيناتك يبصر فاقاتك ويعلم جناياتك ؟

يا نفسي المسكينة ، لم تتوهمين نفسك خارجة؟(١) حتى يلزم عليك مراعاة كل حي واحترامه، او ظلم الكل بعدم الاهمية. فهذا حمل ثقيل لا يطاق حمله، فحينئذٍ لابد ان تتركي الاجنبية الشركية(٢) وتدخلي في دائرة ملك الله، لتستريحي بالاخوة، بل تصيرين اختا كبيرة محترمة. ألا ترين ان مثلك كمثل من كان في سفينة مشحونة بمال السلطان وقد فُوّض اليه تدبير جزئي من دواليبه، فوضع الشخص الابله ذلك الدولاب المربوط بالسفينة مع ارزاقه على ظهره بكمال الاهتمام. فان كان له جزء من العقل لقال: اني ايضا في السفينة فاطرح فيها ما لي مع مال مالكها.. وكذا واحملي الدساتير الاسلامية على سفينة دماغ عالم الاسلام لتستفيدي وانت مستريحة مطمئنة...

اعلم! ان من خلقك لا يبعد منه ولا يستغرب ان يخلق العالم بجميع ما فيه، لانه فيك ما فيه،(٣) بل يجب ان يكون خالقك هو الخالق لكل شئ، لامتناع ان يكون خالق البطيخ غير خالق نواته التي هي انموذجه المصغر المتلخص منه المحاط به...

اعلم! انك مقيد بالتعين، في مقيد بالبدن، بمقيد بالعمر، محدود الحياة في محدود البقاء بمحدود الاقتدار. فحينئذ لابد ان لا تصرف هذا العمر القصير القليل الفاني للفاني حتى يفنى، بل للباقي ليبقى؛ اذ الاستفادة منه هنا تصير مائة سنة، كمائة نواة نخلة تتآكل مع يبوستها وقلة نفعها واضاعة فوائد الغرس على آكلها، وان وجّهت الى الآخرة وسقيت بماء الشريعة صارت مائة نخل باسقات.. الحق ان من يشترى بمائة نخل باسقات، مائة نواة يابسات.. فهو لائق لان يكون حطب الحُطَمَة..

اعلم! ان مخزن الاوهام والشبهات بل الضلالات فرضُ النفس نفسَها خارج الدائرة التي تجلى القدرُ والصفات الالهية فيها، ثم تفرضُ النفسُ نفسَها الاجنبية(٤) في موقع الشئ الذي تعلّق به القدرُ وتجلى عليه اسمٌ من الاسماء الالهية فتفنى فيه،

(١) خارجة عن دائرة الاوامر الالهية (ت: ١٦٦)
(٢) الشرك الذي هو اجنبي عن الفطرة (ت: ١٦٦)
(٣) فانه خلقك وخلق فيك ، وهو يخلق العالم ايضاً بما فيه فأن فيك ما فيه (ت: ١٦٦)
(٤) حيث فرضت نفسها اولاً خارج الدائرة.

ثم بصبغة الاجنبية تشرع تُخرج ذلك الشئ ايضا عن ملكِ الله، وتصرّف قدرتَه بتأويلاتٍ تصير بها استاذ الشياطين، وتعكس حالاتها المترشحةَ من شركها الخفي في ذلك الشئ المعصوم. فالنفس الامارة كالنعامة ترى فيما عليها، لها وجهاً،(١) وكالسوفسطائي تقول للمتخاصمِين: يا هذا دليل خصمك يردّك، وكذا: ياذا دليل هذا يبطلك، فلا حق لكما. .(٢)

اعلم! ان النفس تديم الغفلة بربط الدنيا بالآخرة، كأنها منتهاها، كلا بل معكوستها. فبتصور الآخرة – ولو مع الشك – تتخلص من دهشة فناء الدنيا وألم الزوال، وبسبب الغفلة او الشك تريد الخلاص من كلفة العمل للآخرة وتنظر الى الاسلاف الميّتين، كأنهم احياء غائبون، فلا تعتبر بالموت. وكثيراً ما يثبت عروق مطالبها الدنيوية في ارِض الآخرة للتأبيد بدسيسة ، ان تلك المطالب لها وجهان: وجه الى الدنيا لاثباتَ له، بل هباء منثوراً. ووجه الى الآخرة تتصل اساساته بارضها فتدوم، كالعلم مثلا له وجه مظلم ووجه مضئ. فالنفس الشيطانة تريك المضئ وتُبلعك المظلم.(٣) اذ النفس نعامة (دوه قوشي) والشيطان سوفسطائي، والهوى بيطاشي. .(٤)

اعلم! اني قد تيقنت بلا ريب انه لو لم تصدق «الموجبة الكلية» لزم صدقُ «السالبة الكلّية» في مسألة خلق الاشياء؛ اذ كل الخلق بالتساند المنتظم كلّ لا يقبل التجزي، فإما وإما.(٥) مع ان الوهم الذي يطيق ان يتوهم عدمَ العلة في كل شئ اهون بمراتب من نسج العنكبوت، فالقبول في شئ ما، يستلزم بالحدس الصادق القبول في كل شئ.

وكذا ان الخالق إما واحد واما غير متناه، لا وسط قطعاً، اذ الصانع لو لم يكن واحداً حقيقياً، لكان بالضرورة كثيراً حقيقياً. وهو ما لا يتناهى. وعلى الثاني مع محالات عجيبة يلزم عدم التركيب وفقد الوحدة مطلقاً وامتناع الوجود.

(١) تظن ان في الامور التي تدينها وجها يؤيدها ويسندها (ت: ٦٦)

(٢) اي: دليل الواحد يرد الاخر، فلا يبقى دليل لأحد (ت: ١٦٦)

(٣) اي: تريك الوجه المضئ من العالم بأن له فوائد ستظهر في الآخرة وإن لم تظهر في الدنيا. وذلك لِيُبلعك الوجه المظلم منه (ت: ١٦٦)

(٤) التشبيه هنا مبني على اسس معينة؛ فالنفس تغمر رأسها في الغفلة كالنعامة لئلا يصيبها الاجل، والسوفسطائي ينكر كل شيء كالشيطان، والبكتاشي كالهوى يغيّر معاني الاشياء فيقول: مثلاً: الصلاة ليست مفروضة، اذ قال الله ﴿**لا تقربوا الصلاة**﴾ ولا يتم الآية ﴿**وانتم سكارى**﴾.

(٥) فإما أن الله خالق كل شئ وإما أنه ليس بخالق شئ (ت: ١٦٧)

اعلم! انه كما ان من المحال الظاهر ان يكون منيرٌ غيرِ متنور. والموجد غير موجود، والموجب غير واجب.. كذلك محال ان يكون منعِم العلم غير عالم، ومحسن الشعور غير ذي شعور ، ومُعطي الاختيار غير مختار. ومفيض الارادة غير مريد ، وصانع المكمل غير كامل. وهل يمكن ان يكون مرسم العين ومصور البصر ومنور النظر غير بصير ؟ بل من الواجب ان يكون ما في المصنوع من انواع الكمال من فيض الكمال المناسب للصانع.. والمكروب الذي لايعرف من الطيور الا البعوضة اذا رأى البازي يقول ليس بطير اذ ليس له ما للبعوضة..

اعلم! ان اشد ما تطلبه النفس الناطقة البقاء والدوامَ، حتى لو لم تنخدع بتوهم الدوام ما التذت بشئ. فيا طالبةَ الدوام اشتملي على ذكر الدائم لتدومي، وكوني زجاجة لنوره لئلا تنطفي، وصدفاً لدرّه لتصطفي وبدنا لنسيم ذكره لتحيى، وتمسكي بالخيط النوراني الذي هو شعاع من اسم من الاسماء الالهية لئلا تسقطي في فضاء العدم. فالثمرة الغافلة اذا لم تتوجه الى ما تقوم به، وانجذبت الى التشعشع الاجنبي وضحكهم في وجهها، انقطعت وسقطت على رأسها !..

يا نفس استندى على ما يقوّمك، اذ الى عهدته منك من الالف تسعمائة وتسعة وتسعون، واليك واحد فقط. فاطرحي واحدك ايضا في سفينة ماله واستريحي..

اعلم! انك اذا لم تُطق ان تفعل لنفسك، ولم تصل يدُك اليك. فالناس والاسباب البعداء – بالطريق الأولى – لا يطيقون ولا تصل ايديهم الى خويِّصة ذاتك، فجرب نفسك هل تقدر ان تصنع لسانك الذي هو شجرة الكلمات وحوض الاذواق و(سانترال) المخابرات، فان لم، ولم[1].. فلا تشرك بالله ﴿**ان الشرك لظلم عظيم**﴾.[2]

اعلم! ان العالم دكان ومخزن الهي يوجد فيه كل نسجٍ وطرز وشكل وقشر، كثيف ورقيق وزائل ودائمى، ولب صلب ومايع وهوائي ، بعضها نَسجُ الايجاد وبعضها ترسيم التجلي. قد ضلت الفلاسفة في الايجاب بالذات، بادراج الايجاد في التجلّي...

(١) فان لم تصنع ولن تصنع (ت: ٦٨)
(٢) لقمان : ١٣

اعلم! ان الشرك الخفي الناشئ من الانانية، اذا تصلب انقلب الى شرك الاسباب،[١] وهو اذا استمر تحوّل الى الكفر، وهو اذا دام تبدل الى التعطيل، والعياذ بالله...

اعلم! ان طلَب الضياء في طور الظلمة مع محافظة النفس عليها وتطبعها بها اليم شديد، مخل بحرمة الضياء، وملُوث له. فلابد من التعري والانسلال من الظلمة. ثم النظر منها – لا فيها – الى الضياء ..

اعلم! ان من الاعاجيب: ان الانسان خُلق ليكون فاتحاً وكاشفاً مريئاً، وبرهاناً نيّراً، ودليلاً مبصّراً، ومعكساً نورانياً، وقمراً مستنيراً للقدير الازلي، ومرآة شفافة لتجلي الجمال الازلي. وقد انجلت وتصيقلت بحمل الامانة التي تدهّشتْ من حملها السموات والارض والجبال. اذ من مضامين تلك الامانة صيرورة الانسان واحداً قياسياً لفهم الصفات المحيطة، وصيرورة ما فيه من «انا» – الذي هو النقطة السوداء بالغفلة والشرك الخفي – مفتاحاً لتنوير الصفات. فكيف ولأي شئ صار اكثر الانسان حجاباً وباباً وسداً. وكان لازماً عليه ان يفتح فاغلق.. وان ينورٍّ فاظلم.. وان يوحِّد فاشرك.. وان ينظر بمرصاده الى الله فيسلم الملك اليه ، لكن نظر الى الخلق بمرصاد «انا»، فقسّم ملك الله عليهم.. نعم، ان الانسان لظلوم جَهُول.

اعلم! يا نفسي، ان ارضيتِ خالقك بالتقوى والعمل الصالح، كفاك ارضاء الخلق. فان رضوا منك بحسابه تعالى فنافعٌ، وبحساب انفسهم فلا فائدة. اذ هم عاجزون مثلك. فان اردت الشق الاول فارض ربك، وان أردت الثاني اشركت بلا فائدة.

الا ترين ان مَن ذهب الى مقر سلطان مطلق لمصلحة، ان ارضاه تمت بلا كلفة، مع محبة الرعية له. وان طلبها ممن تحت حكمه المطلق يتعسر، بل يتعذر ارضاء الكل واتفاقهم على ايفاء مصلحته. ثم بعد الاتفاق يحتاج الى اذن السلطان، واذنُه يتوقف على ارضائه ان كان اكراما، وان كان استدراجاً فلا بحث..

(١) المقصود بالانانية: الغرور وتفسير كل شئ وفق ما يطلبه «أنا» اما شرك الاسباب فيعني اعطاء الامور والتصرف بيد الاسباب. والفقرتان التاليتان توضحان المسألة .

اعلم! ان الواجب الوجود كما لا يشبه الممكن في الذات والماهية، كذلك لا يشبهه في افعاله.

مثلا: لا فرق بالنسبة اليه بين القريب والبعيد، والقليل والكثير، والصغير والكبير، والفرد والنوع، والجزء والكل بالحدس الشهودي. وكذا لا كلفة ولا معالجة ولا مزاولة ولا مباشرة في فعله، خلافا للممكن. ولهذا يتحير العقل في فهم كنه افعاله تعالى فيظن الفعل لا فعلا.(١)

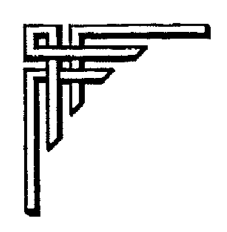
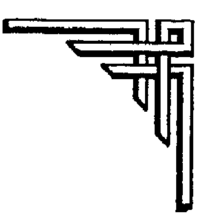
.. .. (٢)

اعلم! ان انياب الاسد كما تدل ان من شأنه الافتراس، وان لطافة البطيخ على انه للأكل، كذلك استعداد الانسان يدل على ان وظيفته الفطرية العبودية. وان علوية روحانيته واشتياقه الى البقاء والابدية تدل على ان الانسان خُلق اولا في عالم ألطف من هذا العالم، وأُرسل الى هنا، ليتجهز ويعود اليه. وان كونه ثمرة شجرة الخلقة يدل على ان من الانسان من هو نواة انبت منها الصانعُ شجرة الخلقة، وما تلك النواة الا من اتفق كل الكُمّل بل نصف البشر - بسر انصباغ العالم بصبغته المعنوية - على انه افضل الخلق بالتمام، وهو نور سيد الانام الفاتح الخاتم عليه الصلاة والسلام..

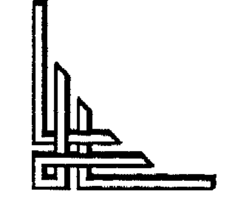
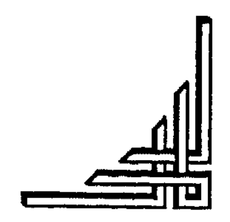
* * *

(١) فينكر الفاعل (ت: ١٦٩)

(٢) في (ط١) : (اعلم) : ان الوجدان «قلب كاذب» للنفس، يبنى من انقاض القلب، بعد خرابه بالغفلة وموته بالهوى ، وموقع هذا الوجدان بين الجنبين تحت الصدر فوق رأس المعدة.

القطعة الثانية من ذرة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم! ان ناظم السموات والارض، ومكوّر الليل والنهار على جمجمة ارضنا ومهدنا كالعمامة المخططة. كيف يليق بالوهيته ان يفوض بعض صفحات العالم الى ممكن مسكين؟ وهل يمكن ان يتصرف بالذات في ما تحت العرش، غير رب العرش؟ كلاّ. اذ لا تتقاصر تلك القدرة عن الاحاطة. فلا فُرجةَ للغير للمداخلة، مع ان عزة الجبروت والاستقلالية ومحبة التودد والتعرّف لا تساعد(١) للغير – كائناً ما كان – ان يكون حجاباً وواسطة اسمية تجلب الى نفسه انظار عباد الله.

على ان التصرفات في الكل والجزء والنوع والفرد متداخلة متساندة لايمكن التفريق ولو بين فاعلين متفقين، اذ ناظم العالم في عين الوصف يدبر مهدنا، وفي عين الحال يربي الانسان، وفي عين الوقت يتصرف في شؤونات الانواع، وفي عين الآن يصنع حجيرات البدن، وفي عين الزمان يخلق الذرات بتلك القدرة المتوجهة الى جميع الصفحات. بل بعين النظم يدبر، وبنفس التدبير يربّي، وفي عين التربية يتصرف ويخلق.

---

(١) بمعنى لا تسمح

فكما لا يمكن ان تنور الشمسُ وجهَ البحر دون خدود الحبابات، وعيون القطرات، وأناسي الرشاشات.(١) كذلك لايمكن مداخلة شئ من الاشياء في ذرة من حجيرة من عضو من جزئي من ساكني الارض، بغير القدرة التي تكوّر ليلها ونهارها. ومن صوَّر وانشأ ونظم دماغ الذباب وعين المكروب، لايترك افعالك غاربها على عنقها(٢) سُدىً ومهملة بل يكتبها في إمام مبين، فيحاسبك عليها.

اعلم! ان ما يُتحدس ويُرى في كل مصنوع، بل في كل ذرة من التصرف المطلق، والقدرة المحيطة، والحكمة البصيرة - بجميع ما يتعلق بها وما ينظم معها في سلك - برهانٌ باهر وآية بينة؛ على ان صانع كل شئ واحد لا شريك له، وليس لاقتداره توزيعٌ ولا انقسام ولا تجزؤ اللازمة للانتهاء، اذ لو كان الممكن صانعاً، لكان في تصرفه توزيع وفي قوته انقسام وفي توجّه اقتداره واختياره تجزؤ، مع ان ما يتعلق من الثلاثة بالنحلة مثلا بحيثية لا يمكن - لو كان من الممكن المتجزي المتجاوز - ان لا يتجاوز. مع ان النحلة تتكشف عن اقتدار صانعها بوجهٍ لا يتعسر على ذلك الاقتدار خلق عوالم. فكيف ينحبس فيها ولا يتجاوز الى المجاور، فلا بد بالضرورة ان يكون الصانع واجبَ الوجود واحداً لا نهاية ولا حد ولا انقسام لقدرته التي تجري في ميزان قدره، وتكتب على مسطره..

اعلم! ان كون البعوضة والعنكبوت والبرغوث وامثالها اذكى بمراتب، واجزل فطرة، واتم صنعة من الفيل والجاموس والابل، مع قصر اعمار هؤلاء، وعدم نفعها ظاهراً، بخلاف اولئك.. برهان باهر وآية نيرة على ان الصانع لا كُلفةَ ولا معالجة ولا تعمُّل في خلقه الاشياء، بَل يقول: كن فيكون، ولا يحكم عليه شئ، يفعل ما يشاء لا اله الا هو.

اعلم! ان شُميسة الحباب كما انها جزء كذلك جزئي؛ اذ هي شمسٌ بالهوية الظلّية دون الماهية الاصلية فهي لا هي ولا غيرها. فاشتراك الكائنات في الشمس لا ينقص من حصة الحباب شيئاً سواء وجودها وعدمها بالنسبة اليه. فللحباب ان يقول: الشمس بالتمام لي وفيّ، متوجهة اليّ..

---

(١) أناسي: جمع انسان: وهو هنا انسان العين اي سوادها ومقلتها. اي: ان مُقل الحبيبات المائية المتطايرة من رشاش الماء والشلال.

(٢) اصل المثل: حبلكِ على غاربكِ.

اعلم! ان ما يتصاغر ويتباعد عن دائرة الاسم الظاهر العظيم الواسع يتقارب ويتقيد بدائرة الاسم الباطن النسبي أو الحقيقي ﴿ **والله مِنْ وَرَآئِهِمْ مُحيط** ﴾[١] باسمائه.[٢] فالانسان بذهنه الجزئي المحدود المقيد الفاني فيما تعلق به، ينظر الى عظمته تعالى وتدويره للسيّارات حول الشمس، فيستبعد منه ان يشتغل بخلق الذباب مثلا، بقياس الواجب على الممكن المسكين قياسا شيطانياً. فمن هذا القياس ينشأ ظلم عظيم للمخلوقات الصغيرة، وتحقيرلهم؛ اذ ما من شئ الا ويسبح خالقه، ولا يتنزل لان يكون له رب غير مَن صيّر الدنيا بيته، والشمس سراجه، والنجوم قناديله، كأنه ليس في الدنيا الا ذلك الشئ الحي. فلا يجوز للكبير ان يتكبر على الصغير، اذ الوجود كالحق، لا فرق بين القليل والكثير. وكم من قليلٍ كثيرٌ، وكثير قليل...

اعلم! ان كل شئ من شمس الشموس الى ثمرة الشجرة اذا امعن النظر يُرى انه أُنتخب واختير وميّز مما لا يحد. فاي شئ كان ينظر الى ما لا يتناهى، فلا يتصرف فيه بالذات الا من لا نهاية لتجليات صفاته. فتأمل!

اعلم! ان العموم لا ينافي القصد الخصوصي والعناية الشخصية في الإنعام، اذ نِعم الله ليست مثل مال الوقف او ماء النهر[٣]، حتى يرى إنعاماً على الاطلاق، وحتى لا يحس الشخصُ في نفسه احتياجاً الى الشكر الخاص. وان التعيّنات، والخصوصيات، ليست كالاواني والقوالب الحاصلة اولا، حتى يكون التعين، هو الذي يحصّل وجهَ الانعام للمتعين. اذ المنعم الحقيقي جل شأنه يصنع لكل فرد قصعة تناسبه، ثم يملأها من طعام نعمته فيحسنهما بالقصد الخصوصي للشخص باسمه ورسمه. فكما وجب الشكر على مطلق النعمة، وجب على الخاصة بالخصوصي.

اعلم! ان الكتاب الكبير المشهود «اي العالم» والكتاب العزيز المسموع «اي القرآن» بَخسَ اكثر البشر حقّهما، اذ فيلسوفهم المتفكر لا يعطي بالذات «للواجب» الا جزءاً بسيطا وقشرا رقيقاً او تركيباً اعتبارياً، ثم يقسم الباقي على علل موهومات،

---

(١) البروج : ٢٠

(٢) محيط بعلمه وارادته وقدرته وبسائر صفاته الجليلة (ت: ١٧١) فلا شيء خارج دائرة احاطته.

(٣) اي ليست مشاعاً وعاماً للجميع (ت: ١٧١).

بل ممتنعات، واسماء بلا مسميات ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤفكُونَ﴾ [١]. واما الموحّد، فيقول: الكل مالُه ومنه واليه وبه. اما القرآن، فاديبهم المتخيل لا يعطي لذي العرش من ذلك القصر المحتشم [٢] من اساساته المتينة ودساتيره المكينة واحجاره المذهبة واشجاره المزهرة الا بعض نقوش النظم، وقسماً من المعاني.. ثم يقسم الباقي من تلك النجوم السماوية على ساكني الارض بدسيسة تلاحق الافكار. (تُوه)[٣] على عقله الذي خيل اليه تطاول يد البشر الى النجوم بتبديلها والتصرف في اجرامها. مثله كمثل من يعطي لفياض البحر بعض الحبابات. والمؤمن المحقق يقول: كل ما اشتمل عليه[٤] من اول الاساسات الى آخر نقوش النظم منه وله. وان القرآن لُفَّ في اساليب هي معاكِسُ الوفِ مراتب مقتضيات المقامات وحسيات المخاطبين. وكذا مرّ القرآن على سبعين الف حجاب؛ وتداخل الى اعماق القلوب والارواح، وسافر ناشراً لفيضه ومونساً بخطابه على طبقات البشر، يفهمه ويعرفه كلُ دور، ويعترف بكماله ويقبله كل قرن. ويستانس به ويتخذه استاذاً كل عصر، ويحتاج اليه ويحترمه كل زمان بدرجة يتخيل كلٌ: انه أُنزل له خاصة. فليس ذلك الكتاب شيئاً رقيقاً سطحيا، بل بحر زخّار وشمس فياض وكتاب عميق دقيق.

اعلم! انظر الى الماء والهواء كيف خلقا سهلين سلسين، فسبحان من يرزق ويلقم المكروب والفيل، فانظر طباخ القدرة كيف صنع طعاماً لا يضيق عن لقمته فم النحل ويملأ فم الفيل، ولا يتكبر على فم المكروب ولا يتكبر عليه فم الكركدن، ويقول كلاما يسمعه صماخ الذرة ويمتلئ به اذن الشمس، ويعطي للكلمة التي تتكلم به تناسلا واستنساخاً، بوجه يمتلئ بعين تلك الكلمة كهف الجبل فيجيبك بالصدى، ولا تتعاظم على الحجيرة التي في صماخ البعوضة.

اعلم! انه يليق ان يتصور وقت الصلاة عالم الاسلام مسجداً، محرابه مكّة وآية المحراب الكعبة، يصلي في ذلك المسجد اجيال. فاذا سجدوا في الفناء، يجئ اجيال

---

(١) التوبة: ٣٠

(٢) المقصود : القرآن الكريم.

(٣) كلمة تضجر وتحقير.

(٤) اي القرآن الكريم.

أُخر فيصلون فيذهبون، فيملأ ويفرغ دائماً. فالاعصار كدقائق وقت العصر في مسجد «بايزيد»..

اعلم! يا سعيد!. من السعادة ان تترك اليوم على الكرم منك – وانت عزيز مستبقياً للفضيلة – ما يتركك غدا على الرغم منك وانت ذليل، مبقيا عليك الخسارة؛ اذ ان تركتَ الدنيا انسللت من شرها واورثت خَيرها، واذا تركتكْ انسللت من خيرها واثمرتْ لك شرها.

اعلم! ان المدنية الفاسقة ابرزت رياء مدهشاً يتعذر الخلاص منه على اصحاب المدنية، اذ سمّت الرّياء بـ (شان وشرف)[١] وصيرت المرء يرائي للمِلَل ويتصنع للعناصر كما يرائي للاشخاص، وصيرت الجرائد دلالين له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق، وانست الموت الشخصي بحياة العنصرية المتمردة بدسيسة الحَمية الجاهلية الغدارة.[٢]

اعلم! ان جمعية النساء مذكر يتخاشن، كما ان جمعية الرجال مؤنثة تتلاين باشارة ﴿**وقال نسوة**﴾ [٣] و ﴿**قالت الاعراب**﴾ [٤]. وجمعية الضعفاء قوى، وجمعية الاقوياء ضعيف.

اعلم! ان في انكسار الجِنّة وخَفْضِها، انفتاحُ الجَنّة وفَتحُها.. [٥]

اعلم! ان من اظهر براهين النبوّة الاحمدية، التوحيد. اذ الرافع لاعلام التوحيد بمراتبه على رؤوس الكائنات، ودلال التوحيد بمقاماته على انظار العالم، ومفصّل ما اجمله الانبياء عليهم السلام، سيدُنا محمد عليه الصلاة والسلام ففي حقيقة التوحيد وقوته حقيقة نبوته وحقانيتها..

* * *

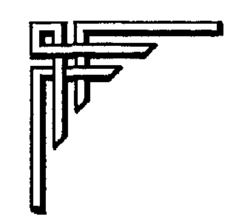
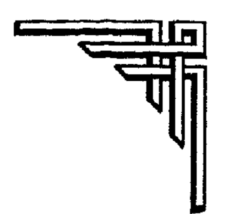
(١) اي: الشهرة.

(٢) بمعنى غدت حياة الشخص تفدى لحياة العنصرية تحت ستار الحمية الجاهلية (ت: ١٧٢)

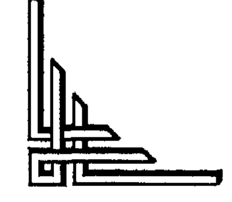
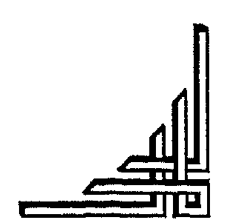
(٣) يوسف: ٣٠

(٤) الحجرات: ١٤

(٥) العبارة فيها جناس عجيب: فانكسار الجنة – اي بكسر الجيم – تعني الشياطين، وخفضها يعني احتقارها وعدم طاعتها، ففي خفضها انفتاح الجنة وفتحها – بفتح الجيم – والله اعلم.

القطعة الثالثة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم! انه يلزم لمثل هذه التزيينات والكمالات والمناظر الحسنة وحشمة الربوبية وسلطنة الالوهية، من مشاهد لها، ومتنزه بها، ومتحير فيها، ومتفكر ينظر الى اطرافها ومحاسنها، فينتقل منها الى جلالة صانعها ومالكها واقتداره وكماله.

نعم، ان الانسان مع جهالاته وظلماته له استعداد جامع كأنه انموذج مجموع العالم، وأُودع فيه امانة يفهم بها الكنز المخفي ويفتحه. ولم يحدد قواه، بل أُرسلت مطلقة فيكون له نوع شعور كلي بشعشعة كمال حشمة جلال سرادق جمال عظمة الوهية سلطان الازل. وكما ان الحُسن يستلزم نظر العشق، كذلك ربوبية النقاش الازلي تقتضي وجود نظر الانسان بالتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم ايضاً بقاء ذلك المتفكر المتحير الى الابد ورفاقته لما تحير فيه في طريق أبد الآباد.

نعم، ان من زيّن وجوه الازاهير كما اوجد لها عشاقاً مستحسنين من انواع الذبابات والعصافير، وزيّن خدود الملاح فاوجد لها انظار المشتاقين الوالهين.. كذلك من زين وجه العالم بهذه الزينة الجاذبة، ونوّر عيونه بهذه المصابيح المتبسّمة وحسّنه بانواع المحاسن المتلألئة، وادمج في كل نقش بكمال الوضوح تودداً وتعرفاً

وتحبباً، لا يخليه من انظار مشتاقين متحيرين متفكرين منجذبين عارفين بقيمة كل؛ فلجامعيةالانسان صار الانسان الكامل سبب خلق الافلاك علة غائية له وثمرة له..

اعلم! ان من كمال السعادة واللذة الحقيقية، ترك كل شئ حتى الوجود لاجل انه جل شأنه هو هو، ولاجل انه واجب الوجود، ولاجل انه الكامل المطلق، ولاجل انه ذو الجلال والجمال المطلق، فليكن له فداء كل شئ لي، وكلي والكل وكل شئ.

اعلم! ان التوافق بين الاشياء كما يدل على ان الصانع واحد احد، كذلك ان التخالف المنتظم بينها، يدل على ان الصانع مختارٌ حكيم. مثلا: توافق افراد الانسان بل الحيوان في اساسات الاعضاء. لاسيما التماثل في الاعضاء المثناة في الشخص برهان باهر على وحدة الخالق، وتخالفها في التعينات والصور المتقنة آية نيّرة على اختيار الخالق وحكمته.

اعلم! ان اظلم الخلق الانسانُ. فانظر ما اشدّه ظلماً ! فلشدة حبه لنفسه لا يعطي الاشياء قيمة الا بمقدار خدمتها لنفسه، وينظر الى ثمرتها بمقياس نفعها للانسان، ويظن العلّة الغائية في الحياة عين الحياة. كلا، ان للخالق في كل حي حِكَماً تدق عن العقول. لِمَ لا يجوز ان يكون هذه الحيوانات القصيرة الاعمار والحوينات السريعة الزوال مبادي ومساطر ومصادر واساسات ونواتات لغرائب مثالية وبرزخية وملكوتية وتجليات سيالة وترشحات وثمرات لتصرفات القدرة في الغيب؟..

.. ..(١)

اعلم! ان الله بكمال قدرته صير جميع ذرّات الكائنات عبيداً لشريعته الفطرية واوامره التكوينية. فكما يقول للذباب كن هكذا، فيكون هكذا.. كذلك يقول بعين السهولة لجميع الحيوانات كونوا بهاتيك الصفات وبهاتيك الاشكال وبهاتيك الاعمار، فيكونون كما امروا بلا كلفة !...

(١) في (ط١) : اعلم : ان البصر كما ينحصر عنده المعلوم – بل الموجود – في المبصر ، كذلك النفس الامارة اذا لم تر شيئاً تنكر وجوده ، ولو كان من أبده البديهيات.

اعلم! ان القوة والقدرة التي اخذت هذه الاجرام في قبضتها، ونظمتها كتنظيمك فصوص الجواهر على مرآتك بيدك، لا تعجز عن شئ ولا تساعد لمداخلة شئ ما في دائرة تصرفها.

اعلم! انه كما لا ريب في اتحاد القطرة مع البحر في كونهما ماء، ومع النهر في كونهما من السحاب، واتحاد شُميسة القطرة مع شمس السموات، واتحاد السمك مثلِ الابرة مع السمك الذي يسمّى بـ (بالينه بالغى) في النوع، واتحاد الحبة مع الصبِرة.. كذلك ان الاسم المتجلي على حجيرة في جزء من الجزئيات متحد في المسمى مع الاسم المحيط بالكون من الاسماء الحسنى، كالعليم بكل شئ مع الخالق لهذه الذرة، والمصوّر لهذه النحلة، والمنشيء لهذه الثمرة، والشافي لهذه العلة، بل محال ان لا يكون الواسع الاوسع عين الاسم الجزء الجزئي..

اعلم! انه لان العطالة والسكُون والتوقف والاستمرار على طرز في الممكن – الذي ظهور وجوده بتغيره – نوعُ عدمٍ في الاحوال والكيفيات، والعدم ألم محض وشر صرف، كانت الفعالية لذة شديدة والتحول في الشؤون خيراً كثيراً، ولو كان ألماً ومصيبة. فالتأثرات والتألمات حسنة من جهات، قبيحة من جهة.

فالحياة التي هِي نور الوجود تتصفى بالتأثرات، وتتصيقل بالتألمات.. فلا تنافرها الحياة. فلا توزنْ بميزان البقاء العائد للحي، بل بميزان الظهور والمعكسية لتجلّي شؤون « المحيي » جل شأنه، اذ للمحيي في الحياة الوف حصص، وللحي حصة عرضية. كمالُها في تبعيتها لحصص المحيي.

فتزيّن الحباب بشُميسيته في آنٍ سيال لا يعطي له حقاً بدرجة يعارض الشمس في حقوق تجلياتها المشحونة بالحكمِ الجسيمة. إلاّ ان حباب الانسان اذا آمن ينقلب بالايمان زجاجة كأنها كوكب دريّ يوقد مصباحها من اشعة شمس الازل..

اعلم! انه كيف يمكن ان يصنع احدٌ جميع اساسات قصر واثاثاته وتركيباته المتوجهة جميعاً الى بناء القصر الواحد، ولا يكون القصر علة غائية لذلك الصانع،(١) ولا يكون ثمرات القصر عائدة اليه. ايها الانسان !. الارض قصر والعالم قصر.

---

(١) في (ط١) : لذلك الصانع ولو معلوما مبصراً، ولا يكون في تدبيره وتصرفه ، بل لا يمكن اصلا، كذلك انت قصر والارض قصر.

اعلـم! ان الله جل جلاله تعرّف الينا بـخلقه ومصنوعاته وتودّد بنعمـه وانعاماته وتحبّب برزقه ورحماته، ففعل هاتيك لتلك، بل كأنها هي. وهكذا تجلى كل اسم من اسمائه الحسنى. فمن تفَهّمَها منها كما هو حقهـا - بتفهيمه تعالى - ثم فهّمها لغيره كـافةً - باذنه جلّ شـأنه - يحق له ان يقـال في حقـه: «لولاكَ لَولاكَ لَمَا خَلَقْتُ الأفْلاَك» ومـا هو الا الرابط المتين الامين بين السـموات والارض، الذي ارتبط العـرش بالفـرش بالحـبل المنسوج علـى قلبه الذي هـو اشرف الكائنات جـنساً، واكـملُ ذوي الحـياة نوعـاً وسـيدُ النوع الذي شُرّف بـالخلافـة شـخصـاً، وهو سـيد المرسلين وامـام المتـقين، حـبيب رب العـالمين مـحـمد عليـه وعلى آله وصـحـبه الصـلاة والسـلام أبد الآبدين..

* * *

خاتمة

لله دَرُّ العلة والمصيبة والذلة، ما احلاها وهي مرة! اذ هي التي تُذيقك لذة المناجاة والتضرع والدعاء ..

عن ابن سمعون(١): «كل كلام خلا عن الذكر فهو لغو».(٢)

اعلم ! اني على جناح السفر الى الآخرة، فلكثرة ذنوبى لا يكفي عمرى بل اعمار للاستغفار، فاوكل كتابي هذا واُوصيه بان ينادي مستغفراً بعدي بدلاً عني دائماً بهذا (الفرياد):(٣)

(اي واه) واسفا واحسرتا واخسارتا واندامتا! على تضييعي لعمري وحياتي وصحتي وشبابي، في المعاصي والذنوب والهوسات الزائلة المضرة، فاورثت في أوان شيبي ومرضي آثاماً وآلاماً. وانا بهذا الحمل الثقيل والوجه الاسود والقلب المريض متقرب الى باب القبر للفراق الابدي من الدنيا الفانية.

فياذلّي اذا ما قال ربي: الى النيران سوقوا ذا المرائى!

إلـهي لا ملجأ ولا منجأ الا باب رحمتك.

إلـهي عبدُك العاصي أتاك   مقرّاً بالذنوب وقد دعاك

فان ترحم فانت لذاك اهلٌ   وان تطرد فمن يرحم سواك(٤)

يا رب زكناه زشت خود منفعلم

از قول بدو فعل بدخود خجلم

---

(١) (٣٠٠ – ٣٨٧هـ) ابن سمعون الزاهد البغدادي، وهو ابو الحسين محمد بن احمد بن اسماعيل (او سمعون) كان يلقب الناطق بالحكمة، مولده ووفاته ببغداد، علت شهرته، حتى قيل: «أوعظ من ابن سمعون!».

(٢) في (ط١): وكل سكوت خلا عن الفكرة فهو سهو، وكل نظر خلا من العبرة فهو لهو.

(٣) اي الاستغاثة والنداء.

(٤) ينسب الى ابراهيم بن ادهم.

فيضي بد لم زعالم قدس بريز
تامحو شود خيال باطل زدلم(١)

« استفتح باب الرحمة بنداء مولانا »

اى خدا مَن الله الله مى زنم
بردر تو شيئاً لله مي زنم

اى خدا باسوى خود راه نما
زانکی من کم راهم راه مي زنم(٢)

إلـهي لستُ للفردوس اهلاً ولا اقوى على نار الجحيم
فهبْ لي توبةً واغفر ذنوبي فانك غافرٌ الذنب العظيم

* * *

(١) [[يارب انني متألم نادم على سيئاتي وآثامي
وخجلٌ من اقوالي وافعالي السيئة
فاسكب من عالم القدس فيضاً على قلبي
كي يمحي من قلبي الخيال الباطل]]
(٢) [[يا الهي انني اردد الله الله
وانادي واقول شيئاً في سبيلك على بابك
يا الهي اهدني الطريق اليك
فقد ضللت ولكني سائر في الطريق]]

في (ط١):

هذا تقريظ اخي في الله الحسيب النسيب السيد محمد شفيق الارواسي(*)

باسمه سبحانه

﴿وان من شئ الاّ يسبّح بحمده﴾

والصلاة والسلام على خير خلقه

ومن المعروض لدى ناظر آثار استاذنا بديع الزمان، الملهمة من فيوضات آيات القران، والمستفادة من اشارات تهدي اليها نكات بلاغة الفرقان التي لا تدركها الاّ من منّ عليه الملك المنان، بانكشاف اللطائف الامرية، وتوسيع الدائرة العقلية، مع صيقلة سائر مرآة الحواس والوجدان بان خلاصة ما لخصته من الاخلاص في حقها، ان كلاً منها حصن حصين في مقابلة اشرار اعداء الدين، بل سد صيني لا يؤثر فيه وساوس النفس، ودسائس الشيطان، وتلقينات عبدة الطبيعة، واباطيل افكار الفلاسفة الضالين.. وانه يجري من منابع مباحثها ماء حياة تنمو به العقدة الايمانية وتنطفئ منه الشرارات النفسانية، فلابد لكل طالب من السعي البليغ في مطالعتها كي تُحصّن بما حصله من براهينها وتشفى بما ناله من ذوقياتها ودقائقها.. وان وجد تعسراً في فهم معانيها، فلا يكن سبباً لفتور السعي فيها، فان صداق الفوائد الجليلة انما هو المساعي الكثيرة، ولا يلومنّ مؤلفّها ايضاً، لان صعوبتها غير اختياري، لما فيها من مسائل موضوعاتها من الخوارق للعادات وقضايا ذوقية لايسعها ضيق العبارات وبراهين من نتائج بدهية عنده وعند الغير من النظريات، ومفهومات متناسبة ومتناسلة قد نصبت على بعضها نصب وترك في البعض الآخر الايات، لان بعد المسافة لا تكفيها رايات الجمل والكلمات وغير ذلك من الاسباب مثل بدائع التشبيهات وغرائب التمثيلات.

الحقير

محمد شفيق

(*) ولد سنة ١٨٨٤م في قرية «أرواس» التابعة لقضاء «هيزان» في ولاية «بتليس». من اصدقاء الاستاذ النورسي. تتلمذ عليه من مدرسة خورخور في «وان» وسجن معه في دنيزلى سنة ١٩٤٣ . تولى رئاسة لجنة تدقيق المصاحف باستانبول لمدة طويلة. كان رئيساً للائمة في جامع السلطان احمد لمدة سبع عشرة سنة. تولى مهمة الوعظ والارشاد في جامع ابي ايوب الانصارى طوال اربعين سنة. له مؤلف تحت اسم «خطب الرسول ﷺ ومجالسه» انتقل الى رحمة الله في ١٩٧٠/٣/١٣ .

الرسالة التاسعة

شمة

من نسيم هداية القرآن

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «اوقاف» باستانبول سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢)م

في (ط١)

افادة المرام

اعلم! ايها الناظر! اني اسمع من الناس شكاية عن الغموض في آثاري، فاستمع مني ثمانية كلام:

فاولاً: لا تعجل لعتابي لأجل الاشكالات، اذ مخاطبي نفسي الدساسة، وهي تفهم بسرعة أجوبة أسئلتها المخطئة ولو بالرمز.

وثانياً: ان كل مسألة افتتحت بـ« اعلم » سلاح قاطع، ودواء نافع، أُعطيته من حيث لم احتسب، في وقت شدة احتياجي وكثرة جروحي. فليس لي في الكتاب مال الاّ ماليس في الكتاب من الألم والجرح والداء المستتر في الضمير. واما المذكور في الكتاب من الدواء والسلاح وذوق الحق، فليس منى، ولا مما مضغه فكري، بل من فيض القرآن الكريم.

وثالثاً: اني لا ابالي بتنقيد الناس؛ اذ لله الحمد اني لا اعرف الآن لنفسي غير القصور والعجز وما تستحق من الذم. فاذا اردتُ التمدح والافتخار بأثرى لا أرى الاّ ما اخجل به وافتضح، الاّ ان الله ستّار العيوب. فكما لا قيمة لنفسي، حتى ابتهج متصنعاً بما يُظن محاسن وهي في الحقيقة مساوئ،كذلك لا اقيم لنفس غيري المتكدرة بالأنانية ايضاً وزناً، حتى اتصنع له بالرياء الكلامي والتصلف في العبارة. الاّ انه يليق ان تلبس الحقايق ما يليق بها.. ولكن هيهات انا عاجز وأعجمي وخام لا اطيق ان انسج غير ما ترونه من اساليبي المشوشة، فاعترف واناديي بأعلى صوتي: باني عاجز، قاصر في الافهام. لكن اقول تحديثاً بالنعمة واداء للامانة بأني لا أخدعكم، انما اكتب ما اشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين.

ورابعاً: لا تحسبن ان ما اكتبه شئ مضغته الافكار والعقول. كلا! بل فيض أفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الكريم، ولا تظنه ايضاً شيئاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول. كلا! بل أنوارٌ من حقائق ثابتة انعكست على عقلٍ عليلٍ وقلبٍ مريضٍ ونفسٍ عمي.

وخامساً: اني ما أدري كيف صار عقلي ممزوجاً بقلبي، فصرت خارجاً عن طريق اهل العقلِ من علماء السلف وعن سبيل اهل القلب من الصالحين، فان وافقتهما « فبها ونعمت » وان خالفت في كلامي ايٍّ السبيلين منهما فهو مردود عليّ.

وسادساً: لاتطلب في آثاري انتظاماً وانسجاماً ووضوحاً، لانها تقيّد وتلخّص مشاهداتي في تحولات غريبة ومجربات نفسية مختلفة، مع امور اخرى، لو اطلعتَ عليها لعزّرتني.

وسابعاً: لا تقل: اذا لم ادرِ الكلّ، لا اريد الكل.. فاذا كنت في بستان اتترك كل الثمرات ان لم تأكل كلها؟

وثامناً: ان ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهاناً حتى يقال: فيه نظر! بل مبادئ حدسية قيدت وعقدت واستحفظت بأنوار اليقين المفاضة من القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين على رحمته على العالمين برسالة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين..

اعلم ! ان العالم بجميع انواعه من طبقات الغيب والشهادة يشهد بانه: « لا اله الاّ هُو » اذ التساند بينها هكذا يقتضي.

وبجميع اركان جميع انواعها من المنظومة الشمسية وغيرها تشهد بانه : «لاَ رَبَّ الاّ هُوَ» اذ التشابه مع التناظر هكذا يقتضي..

وبجميع اعضاء جميع اركانها من ارضنا وغيرها تشهد بانه: «لا مَالِكَ الاّ هُوَ» اذ التماثل مع اتحاد السكة هكذا يقتضي.

وبجميع اجزاء جميع اعضائها من طوائف النباتات وقبائل الحيوانات تشهد بانه: «لا مُدبِّر الاّ هُوَ» اذ التعاون مع الاشتباك هكذا يقتضي.

وبجميع جزئيات جميع اجزائها تشهد بانه: « لا مُربّيَ الاّ هُوَ» اذ توافق الافراد في اساسات الاعضاء يصرّح باتحاد القلم وبأن المربي واحد، وتمايزها في الصور المنتظمة ينصّ على ان الكاتب مختار حكيم.

وبجميع حجيرات جميع جزئياتها تشهد بانه: « لاَ مُتَصَرِّف في الحَقِيقَةِ الاّ هُوَ» ولا تصرف الا تحت امره التكويني؛ اذ لو لم يتحد للزم وجود متصرفين غير متناهيين، مع انها اضدادٌ امثال(١) ومع انها مستقلين اسراءٌ، ومع انها مطلقين مقيّدين مع محالات أُخر كثيرة.

وبجميع ذرّات جميع حجيراتها تشهد: بانه: «لاَ نَاظِمَ الاّ هُوَ» اذ اتّحاد الخيط بين الجواهر الفردة هكذا يقتضي.

---

(١) اي على الرغم من انها متماثلة فهي متضادة ، وهي حرة وأسيرة ، ومقيدة ومطلقة الى آخر ذلك من المحالات.

وبعموم اثير ذَراتها تشهد بانه: «لاَ الهَ الاَّ هُوَ» اذ بساطة الاثير وسكوته وانتظاره وسرعة امتثاله لاوامر الخالق هكذا يقتضي.

اعلم ! انّه لا حقّ لأحدٍ في التشكي والاعتراض على صانع العالم؛ اذ في ارضاء الفرد المشتكي إغضاب اُلوفٍ حكمٍ متدلية في نظام مقتضى لكسر هوس ذلك الفرد ﴿ وَلَو اتَّبَعَ الحَقُ اهواءهُم لَفَسَدَت السمٰوات والارضُ ﴾(١)

فيا ايها المشتكي! من أنت حتى تعترض وتصيّر هوسَك الجزئي مهندس كليّات الكائنات، وتجعل ذوقَك الفاسد مقياس درجات النعم؟ وما يدريك لعلّ ما تراه نقماً عين النِعَم؟ ومن انت حتى يُغيّر حركة دواليب العالم (وچرخ الفلك) لتسكين هوسك الذي لا يوازي جناح البعوضة، ولا يملأ نواة التينة ؟ لكن لك ان تشتكي اليه، لا منه؛ اذ لك منك حبة من صُبرة، والمملوك لا يملك. فاعرف حدَّك ولا تجاوز طورَك..

اعلم ! ان مَن يتصرف في حجيرة من عضو من جسد، لابد ان يتصور الجسدَ اولاً، ثم يتصرّف لنظر نسَب الجزء الى نقوش الكلّ ووضعيته.(٢) فالتصرف في الحجيرة تحت امر خالق الكل البتة..

اعلم ! ان من يحفظ بيضات الهوام والسمك وبذور الحشرات والنباتات، حفظاً رحيماً نظيماً حكيماً، كيف يليق بحفيظيته وحكمته ان يهمل ولا يحفظ اعمالك التي هي نواتات لاشجار مثمرة في الآخرة، وانت حامل الامانة وخليفة الارض ؟ مع ان شدّة حس حفظ الحياة في كل حي، وشدّة حسّ التأليف للبقاء والادامة بين المتباينات المجتمعة يدلان بالحدس الصادق على ان الوجود ينجر الى البقاء الابدي بتجلي اسم «الحي الحفيظ الباقي».. وايضا رمزٌ من القدر الالهي الى ان في الفاني ما يبقى.

اعلم ! ان من يحفظ بذر التينة مثلا في الاطوار ويحميه في الادوار ويصونه عن الانحلال ويحفظ في تلك البذيرة لوازمات شجرة التينة بكمال الاهتمام والمحافظة،

---

(١) المؤمنون : ٧١

(٢) اي: ثم يتصرف ناظراً في نسب الجزء الى نقوش الكل، حيث هناك علاقات وارتباطات كثيرة للجزء مع الكل (ت: ١٧٧)

وهكذا سائر النباتات والحيوانات.. لا يهمل - ذلك الحفيظ - البتة اعمالَ البشر خليفة الارض بالضرورة وبالحدس الصادق.

اعلم ! ان المعنى يبقى واللفظ يتبدل، واللب يبقى والقشر يتمزق، والجسد يبقى واللباس يتخرّق، والروح يبقى والجسد يتفرق، و «أنا» يشب والجسد يشيب، والواحد يبقى والكثير يبلى، والوحدة تديم والكثرة تتمزق، والنور يبقى والمادة تتحلل. فالمعنى الذي يبقى من اول العمر الى الآخر، مع تبديله لأجسادٍ، وانتقاله في اطوار، وتدحرجه على ادوار مع محافظة وحدانيته[١]، يدل على انّه يتخطى على الموت ايضاً وينسل من كلاليبه، متشقق الجسد، عريان الروح، سالماً في طريق الابد. وشدّة دستور الحفظ والمحافظة في الماديات التي الاصل فيها الفناء، تدل بالحدس القطعي وبالطريق الأولى على جريان ذلك القانون الباقي في المعنى والنور والروح الواحد البسيط، التي الاصلُ فيها البقاء.

اعلم ! ان عظمة الالوهيّة وعزّتها واستقلالها تستلزم دخول كلّ شئ مطلقاً عظيماً او حقيراً اعظم الاشياء واخسها تحت تصرفها - فخستُك وحقارةُ احوالك لاتستلزم خروجك[٢]. اذ بعدُك لا يستلزم بعدَه، وحقارة صفتك لا تستلزم حقارةَ وجودك. وتلوث وجه المُلك فيك، لا يستلزم تلوث ملكوتك.. وكذا لا تستلزم عظمة الخالق خروج الحقير عن تصرفه، اذ العظمة الحقيقية تستلزم الاحاطة، والانفراد في الايجاد...

اعلم ! ان المادي الكثيف كلّما تعاظم تباعد عن الدقائق والخفايا وتقاصر يده عنها. واما النور فكلّما تعاظم وتعلى كان اتم نفوذاً في الخفايا والدقائق. وكلما كان النور ألطف كان اكشفَ لباطن الشئ كشعاع (رونتكن). فاذا كان هذا هكذا في الممكن المسكين والكثرة المشوشة، فكيف بنور الانوار من طرف الوجوب والوحدة العالِم بالأسرار ومدبّر الليل والنهار؟ فعظمته تستلزم الاحاطة والنفوذ والشمول!

اعلم ! وانظر الى كمال مراعاة القرآن ومماشاته وتأنيسه لأفهام جمهور العوام الذين هم الاكثر المطلق. اذ يذكر في المسألة ذات الدرجات، الدرجة القريبة اليهم، والصحيفة الواضحة لنظرهم، والا لزم ان يكون الدليل اخفى من النتيجة.

---

(١) اي مع الحفاظ على بقائه ووحدته (ت: ١٧٧)

(٢) خروجك عن تصرفها (ت: ١٧٧)

فالقرآن يذكر الاشياء الكونية للاستدلال على صفات الخالق جلّ جلاله. فكلما كان اظهرُ لفهم الجمهور كان اوفق للارشاد، مثلا:

يقول: ﴿ومن آياته خَلْقُ السَّمٰوَات والارضِ واخْتِلافُ السنتكُمْ والوانكُمْ﴾(١) مع ان خلف طبقة الالوان مسافاتُ تعيّناتِ الوجه كما اشير اليها في « ذرّة » ويقول: ﴿انّ في خَلْق السَّموات والارْضِ واخْتِلافِ اللّيل والنَّهَارِ لآيات﴾ (٢) مع ان تحت صحيفة الليل والنهار المقروءة باول النظر عجائب نقوش تحريك الارض على نفسها وتدويرها حول الشمس. ويقول: ﴿والجبالَ اوتاداً﴾(٣) مع ان تحت ما يُرى من صورة سفينة الارض وخيمتها المرساة المربوطة بالعمد والاوتاد تسكينَ غضب الارض التي ﴿تكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظ﴾ (٤) بسبب الهرج والمرج في بطنها واسكات غضبها بخلق الجبال فتتنفس الارض من منافذها، فتهتز بالزّلزلة فقط، بدل التمزق.. لولا الجبال، وتحت هذه الصحيفة ايضا جعل الجبال مخازن الماء ومشاطة الهواء وحامية التراب من استيلاء البحر والتوحل. وهذه العناصر اوتاد حياة الحيوان الذّي الناطق منه « وتد » الدنيا، فقس على هذه امثالها.

ومن هذا السر ترى الشريعة تعتبر رؤية الطلوع والغروب(٥)، دون الحساب الحقيقي.. ومن هذا السر ايضاً الترداد للتثبيت، والتكرير للتقرير في القرآن الحكيم.

اعلم ! ان حقائق الآيات اوسع بمراتب من خيالات الاشعار، فتنزهت عن الشعرية. والمتكلم خلف الآيات يبحث عن شأنه وفعله، وفي الشعر فضولي يبحث عن غيره. والقرآن الباحث عن العاديات في الجملة خارق للعادة(٦)، والشعر الباحث عن خوارق العادات في الاكثر عادي..

---

(١) الروم: ٢٢

(٢) آل عمران: ١٩٠

(٣) النبأ: ٧

(٤) الملك: ٨

(٥) اي طلوع الهلال وغروبه، لأن رؤيته أسهل للعوام لحساب الايام والشهور (ت: ١٧٨)

(٦) اي يبحثه بحثاً خارقاً للعادة. والكلمة الثالثة عشرة تفصّل هذه المسألة.

اعــلــم ! ان مرايا وحدة الخالق وصحائف شواهدها متعدّدة متنوعة متداخلة متحدة المركز غير محدودة. فتنوّر واحدٍ في النظر المتبصر يستلزم تنور الكل، وبفتح واحد يمكن بالدّخول فتح الكل، دون العكس ؛ اذ انسداد واحد لاسيما الادنى لايستلزم انسداد الكل. مع ان النفس الامارة بتعليم الشيطان تكذّب الاصلَ الصادق وتصدّق بالعكس الكاذب.

اعــلــم ! انه كما لا يمكن ان يكون كاتبُ الكلمة غير كاتب الحرف، وكاتب السطر غير كاتب الصحيفة، وكاتُبها غير كاتب الكتاب.. كذلك لا يمكن ان يكون خالقُ النملة غير خالق جنس الحيوان، وخالقُه غير خالق الارض، وخالقُها غير رب العالمين.

ومن اشارات الربوبية المطلقة العامة كتابةُ كلمةٍ اوكلام او كتاب في حرف كبير، لرمز عمومِ الشعور والاحاطة كخلق السمك في حرف البحر، وخلق دابة الارضة في سطر الشجر، وخلق الحيوان في نقطة الارض. والنمل في كل موضع يُظَن انه جامد مهمل متروك، حتى ان بعض المصنوعات كصورة « يس » كتبت فيها سورة « يس ».

اعلم ! ا ان هذه النجوم والشموس متماثلة متساوية في الجملة، فليس ربّها منها بالضرورة، وربّ واحدها ربّ كلّها وربّ كلّ شئٍ.

.........(١)

اعــلــم ! ان الفرد الانسان جماعةٌ من المكلفين، ولكل فردٍ من حواسه ظاهراً وباطناً عبادة تخصُّه، وضلالة تفسِّقُه. فكما ان سجدة الرأس لغير الله ضلالة، كذلك سجدةُ خيال الشعراء بالحيرة المفرطة والمحبة الوالهة في مدح غير الله – لا بحساب الله – ايضا ضلالة يَفْسُق بها الخيال. وقس على الخيال اخوانه.

اعلم ! ان من اَعمّ اسباب ضلالة فكر البشر : ظنُّ المألوف معلوماً، مع ان الألفة تتضمّن الجهلَ المركب، فبحُكمِ الأُلفة لا يتأملون في العادّيات المستمرة مع انها كلها

(١) في (ط١) ايها الانسان ! لو انصفت لما تضجرت من البراغيث والبعوض وامثالها؛ اذ يتحمل بكمال التسليم افتراسك كل الثمرات واكثر الحيوانات ، تلك المخلوقات اللطيفة المعصومة، فمن الانصاف ان تتحمل اهون الاقتصاص من ايدي بعض المؤذيات.. فالجروح قصاص.

خوارق معجزات القدرة، وما يُعنون النظر الا في ما فوق العاديات من نوع التجليات السيالة، كمن لا ينظر من مجموع البحر – مع ما في بطنه من الحيوانات – الا الى تموّجاته بالهواء وتلألئه بشعاعات الشمس. فيستدل بهذين الحالتين فقط على عظمة مالك البحر وصانعه جلّ جلاله.

اعلم ! ان اكثر معلومات البشر الارضية ومسلّماته، بل بديهياته مبنية على الالفة، وهي مفروشة على الجهل المركب. ففي الاساس فسادٌ أيّ فساد. فلهذا السر توجِّه الآياتُ انظارَ البشر الى العاديات المألوفة، وتثقب نجوم القرآن حجاب الالفة ويأخذ[1] باذن البشر ويميل رأسه، ويريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات .

اعلم ! ان المناسبة حتى المكالمة لا تستلزم التساوي ولا التداني ولا التشابه. فقطرة المطر وزهرة الثمر لهما مناسبة ومعاملة مع الشمس[2]. فيا ايها الانسان ! لا تحسبن ان حقارتك تسترك عن نظر عناية خلاق الكون..

اعلم ! ان ما اشتهر من وقوع بسط الزّمان وطيه لبعض الاولياء كما وقع للشعراني[3] في مطالعته للفتوحات المكية، في يوم واحد مرتين ونصفاً، كما في آخر « اليواقيت والجواهر » لا ينبغي ان يستغرب فيستنكر؛ اذ فيما تراه له نظائر تقربه الى الفهم؛ الا ترى انك ترى في الرؤيا كأن مر عليك سنة [4] في ليلة بل في ساعة. ولو قرأت القرآن بدل ما جرى عليك، وما شاهدته من الاقاويل والافاعيل لقرأت ختمات في تلك الساعة. ففي انكشاف هذه الحالة لاهل الكشف في اليقظة ينبسط الزمان، ويطول العمر، ويتقرب الى دائرة الروح التي لا يقيدها الزمان. ولو صورت « ساعة » لها اميال متداخلة لاجل ان تكون ميزاناً تشير الى درجات سرعة الحركات الموجودة في مصنوعات الله. لا سيما لبيان درجات سرعة الصوت، والضياء، و(الالكتريق)، والخيال، ونور العقل، والملك، والروح. فميلٌ يعدّ الساعات وميلٌ الدقائق، وميل

(١) يأخذ القرآن.

(٢) اي: رغم صغرهما فلهما علاقة وتعامل مع الشمس (ت: ١٨٠)

(٣) (٨٩٨ – ٩٧٣هـ) عبد الوهاب بن احمد بن علي الحنفي، الشعراني من علماء المتصوفين، ولد في قلقشندة بمصر وتوفي في القاهرة. له تصانيف منها : « الانوار القدسية في معرفة آداب العبودية » و« لطائف المنن » و« الميزان الكبرى » (الاعلام ٤/١٨٠ الزركلي)

(٤) في (ط١) مرّ عليك سنة بل سنون في ليلة.

الثواني الى الميل الذي يعدّ العاشرات[١]، مع محافظة النسبة بين كلّ آنين من معدود اول الاميال الى آخرها. ففي تلك الساعة مدار الميل العاد للساعات المشير الى ابطأ الحركات، لو كان مثل دائرة ساعتك هذه، لكان مدار الميل العادّ للعاشرات المشيرة لاسرع الحركات مثل مدار زحل بل اوسع، فافرض احدا ركب ميل الساعات وواحداً امتطى ظهر ميل العاشرات، فانظر كم بين ما رأيا وقطعا فقد انطوى لهذا ما انبسط لذاك بدرجة تكون ثانية ذا، سنة هذا. ولان الحركة كجسم الزمان او الزمان كلونها، فما يجري فيها، يجري فيه ايضا. فلم لا يجوز للولي الغالب روحه على جسمانيّته ان يُصدر افاعيلَه على مقياس سرعة الروح والخيال؟

اعلم ! انه قد يستعظم المرء النتيجة وهي التوحيد المحض الخالص، ولا يسعها ذهنُه الكاسد، او لا يتحملها خياله الفاسد. فيشرع يردّ براهينها الصحيحة القاطعة، ويتعلل بان نتيجة بهذه العظمة لا يمكن ان يقبلها ويقيمها هذا البرهان، ولو كان في غاية القوة. فالمسكين لا يعرف ان قيوم النتيجة الايمان، وما البرهان الا منفذ ينظر اليها.. اومكنسة يطهّر الاوهام عنها. مع ان البرهان ليسْ واحداً، بل لها براهين عدد رمال الدهناء[٢]، وبمقدار حصى البطحاء[٣] وقطرات الامطار وامواج البحار.

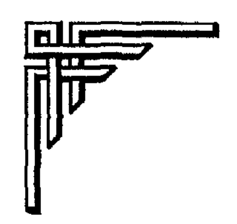
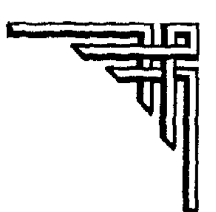
اعلم ! ان من هيّأ البطيخ والتفاح لأكلك، لا بد ان يكون أعلم بأكلك منك، وخبيراً بذوقك الوجداني الذي لا يدريه غيرك. فاين العروق والاغصان الجامدة الميتة من هذا العلم؟ فما الأسباب والاغصان الاّ موازيب الرحمة ومسيلات النعمة..

* * *

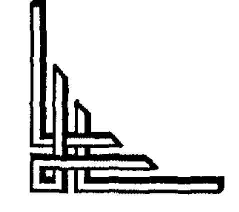
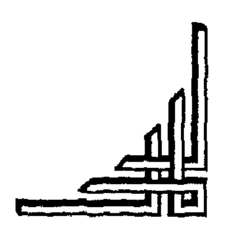
(١) تنقسم الدقيقة الواحدة الى (٦٠) ثانية وكل ثانية الى (٦٠) ثالثة وهكذا الى العاشرة. وفي رسالة «المعراج النبوي» تفصيل لهذه المسألة.

(٢) الدهناء: الفلاة.

(٣) البطحاء: مسيل واسع فيه رمل ودقائق الحصى.

القطعة الثانية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فسبحان الله ما ارقّ الحجاب بين الملك والملكوت، وما اعظم المسافة بينهما! وما اقصر الطريق بين الدنيا والآخرة وما اطولها! وما الطف الحجاب بين العلم والجهل وما اغلظه! وما اشف البرزخ بين الايمان والكفر وما اكثفه! وما اقصر المسافة بين العبادة والمعصية مع ان ما بينهما كما بين الجنة والنار! وما اقصر الحياة وما اطول الأمل!

فكما ان بين الامس واليوم حجاباً رقيقاً لا يمنع من مرور الروح ونفوذه الى الامس والماضي، وان ذلك الحجاب بالنسبة الى الجسد مسافة سنة او الابد.. كذلك بين الملك والملكوت، والدنيا والآخرة حجاب رقيق شفاف لاهل القلب والروح، وغليظ كثيف غاية الكثافة لاهل النفس والهواء الجسماني.

وكما ان بين نهارك وليلك برزخاً لطيفاً هو جفنك فاذا فتحت عين نفسك زال ليلُك وانجلى نهارك. وان نسيت نفسك فعميت دام عليك ليلك سرمداً.. كذلك من نظر بحسابه تعالى الى الكائنات صار كلّ ما شاهده علماً. واذا نظر بالغفلة وبحساب الاسباب صار كلّ ما يظنه علماً، جهلا محضاً.

وكـمـا ان بين تنوّر (آيا صـوفـيـا) وشـدة ظلمـاته في الليل زمـاناً بمقـدار تحريك الاصـبعين لمفـتاح (الألكتـريق)، وفي فضـاء العـالـم بالتهـاب البرق وانطفـائه في آن، واستـضاء الدنيـا وظلماتهـا بالسحـاب الاسود وانكشـافه عن وجـه الشمس بهـبوب نسـيم الرحمـة دفعـة.. كذلك من نظر بنـور الايمان والتوحـيد يرى العـالـم مملؤاً نوراً، وانسيةً وتحـبباً وتودداً، واجزاء الكائنات أودّاء اخـواناً احيـاءً مؤنسين. واما إذا انظر بالكفر يرى اجزاء العـالـم اعداء واجانب امواتاً مـوحشين ويرى العالم ظلماتٍ بعضها فوق بعض وهو في بـحر مصطلم مظلم يغشاه مـوج من فوقه مـوج اذا أخرجَ يده لم يكد يراها.

وكما ان ما بين وجهَي المرآة ارق من الورق مع ان بينهما من الفرق كما بين الغرب والشرق، ثم تبـدل الوجهين بان تضـحك في وجـهك او تعـبس؛ يحصـل بتحـريك الاصـبعين لهـا[١].. كذلك لأفعال البـشر وجهان؛ فبتعلُّق النيـة بها لوجه الله تنقلب وتريك وجها شفافاً معكساً يسع في عمـقه المثالي ما لا يحدّ من التجليات، وبفقدان النيـة او النية لغير وجه الله يظهـر الوجه الجـامد او الاسـود السطحي الذي لايغني من الحق شيئا.

وكـمـا ان الوجـه الاسود الملون من المرآة لا يسـع في عمـقه شـيئـا وفي عرضـه، انما يسع بمقدار جرمه الصـغير واما الوجه الشفاف؛ فلاتصـاله بالبرزخ والمثال المطلق يسع ما لا يحد ولا يضيق عـمقه من اعظم الاشياء.. كذلك الحياة لهـا وجهان: وجه الى الدنيا اسـود ضيق فـان، ووجه الى الحق شـفاف واسعٌ دائمي، فـالنفس الغافلة بقـبول مـغلطة الـشيطان تلبس الوجــه الاسـود وتُظهـر احكام الوجــه الاشف، بطول الامل وطلب الابد.

اعـلـم! ان مفتـاح العالم في يد الانسان وفي نفسـه، فالكائنات مع انها مفـتحة الابواب منغـلقـة[٢]، فالحق سـبحانه اودع من جهـة الامانة[٣] في الانسان مـفتـاحاً يفتح به كل ابواب العـالم، وطلسماً يفـتح به كنز خلاّق الكون. والمفتاحُ مـا فيك من

(١) المقصود: نوع من المرايا ذات الوجهين.
(٢) اي: مع انهامفتحة الابواب ظاهرا الآ انها منغلقة حقيقة.
(٣) اشارة الى الآية الكريمة ﴿ **إنّا عرضنا الامانة..** ﴾

«انا». الا ان «انا» أيضاً معمّى مغلق، ومُطلسَم منغلق، فاذا فتحتَ «انا» بمعرفةِ ماهيته الموهومة انفتح لك الكائنات.

نعم، ان الله جلّ جلاله اعطى ليد الانسان «انا» ليصيِّره واحداً قياسياً – بالفرض والتوهّم لا بالعلم والتحقق – لفهم اوصاف الربوبية.

فالانسان اذا عرف «انا» ما هو ؛ بأن رآه شعرةً شعورية في حبل وجود الانسان، وخيطاً رقيقاً في ثوب ماهية البشر، والفاً في كتاب الشخص؛ له وجهان: وجه الى الخير، فبه قابل للفيض فقط لا فاعل. ووجه الى الشر والعدم وبه فاعل، وماهيته موهومة، وربوبيته مخيلة، ووجوده اضعف من ان يتحمل شيئاً بالذات.. بل انما هو كميزان الحرارة وامثاله من الموازين التي يعرف بها مقادير الاشياء. فـ«أنا» ايضا ميزان يعرف به الصفات المحيطة المطلقة للواجب الوجود.. وأذعنَ[1] دخل تحت ﴿قَدْ افْلَحَ مَنْ زَكّيهَا﴾ [2] وأدى الامانة بحقها.

فاذا تأمّلت في «أنا» بالمعنى الحرفي، صار لك عيناً تفهّمت ورأيت به كل ما في الكون، لانه اذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفتْ في «أنا» ما يصدقها. فاذا فهمتها انتهت وظيفة «أنا» وربوبيته الموهومة ومالكيته المفروضة. فليرجع «انا» من السّمكتية الى الحبابية[3].. واما اذا نظرت الى «أنا» بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكاً، وخنت في الامانة دخلت تحت ﴿وقَدْ خَابَ مَنْ دَسّيها﴾ [4] اذ الامانة التي تدهشتْ من حملها السموات والارض والجبال هي «أنا» من هذه الجهة، اذ منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، اذ اذا تستّر «أنا» عنك غلُظ، حتى صار حبلاً بلع وجودك فصار كلك أنا. ثم استغلظ بانانية النوع والاستناد به فيصير شيطانا يبارز امر صانعه. ثم يقيس الناس، ثم الاسباب على نفسه فيقع في شرك عظيم.. ففي هذا الوجه لو ارسلت عينك وفتحت كل الآفاق انغلق في وجهك، برجوع عينك الى نفسك؛ اذ ترى كلَّ شئ بلون ما في نفسك من «أنا». ولونُه في ذاته – في هذا الوجه – الشرك والتعطيل، ولو ملئت الآفاق آيات باهرةٍ، وبقي في «أنا» نقطة مظلمة طمّت على الآيات .

---

(١) اي: عرف الانسان كل ماذكر عن ماهية «أنا» ثم اذعن..

(٢) الشمس : ٩

(٣) من الوجود الحقيقي الى الوجود الموهوم.

(٤) الشمس : ١٠

مسألة مهمة : وهي ان «أنا» له وجهان: وجه اخذته النبوة، ووجه اخذته الفلسفة.

فالوجه الاول: منشأ العبودية المحضة؛ ماهيتُه حرفية، ووجوده تبعي، ومالكيته وهمية، وحقيقته فرضية، ووظيفته: صيرورتَه ميزاناً ومقياساً لفهم صفات الخالق. فالانبياء هكذا نظروا الى «أنا» فسلموا المُلك كلَّه لله. وحكموا بانه لا شريك له لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في الوهيته، وبيَدِه مَقَاليدُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قديرٍ. ومن هذا الوجه الشفاف الحي انبت الرحيم جلّ جلاله شجرة طوبى العبودية فاثمرت اغصانها المباركة في حديقة الكائنات، دانية قطوفها، متدلية ثمرات الانبياء والمرسلين والاولياء والصديقين المتلألئين كالنجوم في الظلمات.

واما الفلسفة فنظرت الى «أنا» بالمعنى الاسمي دون الحرفي، وبالوجود الاصلي دون التبعي، وزعموه مالكاً بالحقيقة، وظنوه حقيقة ثابتة، وتوهموا وظيفته تكمُّل ذاته بحب ذاته. فمن هنا تشعبت انواعُ الشرك، وعلى رأس «أنا» تنبتتْ شجرةُ زقوم الضلالة. فمن غصن «القوة البهيمية» اثمرت في انظار البشر باستحسان القوة الظالمة والحسن المرائي اصناماً عابدةً من جهة، ومعبودة من جهة.. ومن غصن «القوة الغضبية» اثمرت على رؤوس البشر نمارد وفراعين.. ومن «القوة العقلية» اثمرت في عقول البشر الدهريين والماديين، وفلاسفة يعطون للواجب واحداً، ويقسمون سائر ملكه على غيره تعالى.. وان «أنا» في ذاته كأنه كان هواء وبخاراً، لكن بسبب شؤم نظرهم تميّع، ثم بالأُلفة تصلب، ثم بالغفلة تجمّد، ثم بالعصيان تكدر فاستغلظ حتى ابتلع صاحبه. وتوسع بافكار النوع، ثم قاسَ الناسَ والاسبابَ على نفسه فصار مبارزاً لاوامر خالقه. فمن هنا اضطر بعض الفلاسفة الى تأثير الاسباب[1]، وايجاد الطبيعة، والتصادف، ونفي الحشر، وقدم الارواح وامثالها من ضلالاتهم ﴿ **قاتلهُمُ الله انّى يُؤفكون** ﴾[2] اختطفتهم الشياطين بمنقار «أنا» وانابيبه ومخاليبه.

فأنا في العالم الصغير كالطبيعة في العالم الكبير، كلاهما من الطواغيت. ﴿ **فَمَنْ يَكفُرْ بالطَّاغُوت ويُؤمِنْ بالله فَقَد استَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثقى لا انفِصامَ لَهَا والله سَميعٌ عليم** ﴾[3]

---

(١) اي الى الاعتقاد بتأثير الاسباب.

(٢) التوبة : ٣٠

(٣) البقرة : ٢٥٦

اعلم! ان حياة الحسنات بالنية، وفسادها بالرؤية والرياء والاراءة. وعرق الوجدانيات المشعورة بالذات تنقطع بالنية وبشعور ثانوي[١]، كما ان النية حياة الاعمال، كذلك النية موت الاحوال بجهةٍ[٢]..

مثلا: نية المتواضع تفسده، ونيّة التكبر تزيله، ونيّة الفرح تطيره، ونيّة الغم تهوّنه وقس[٣].

اعلم! ان الشجرة بل كل ما فيه قانون التكامل، لابد ان تنبت على نواة تربت في بطن ثمرة من مثل تلك الشجرة. فان لم تُسْبَقْ بغيرها كشجرة العالم، فلابد لها من نواة عريانة ما تجسدت بالثمرة بعد. ثم حقها من العناية الازلية ان تلبس ايضا ثمرة من ثمرة الشجرة التي تنبتّت عليها، فلابد ان تكون تلك الثمرة التي تجسدت النواة بها، اعظم واكرم والطف واشرف واعلى واجل. فالكائنات شجرة، والعناصر اغصانها، والنباتات اوراقها، والحيوانات ازاهيرها، والاناسي ثمراتها.

واضوأ ثمراتها وانورها واولاها واجلاها واحسنها وازينها واعظمها واكرمها واشرفها والطفها واجمعها وانفعها هو محمد عليه الصلاة والسلام سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين. صاحب المعراج وما زاغ البصر، ومَن انشق له القمر، وكلّمه الضبُّ والظبي والذئب والجذع والذّراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر، ونبع الماء من بين اصابعه كالكوثر، افضل الخلائق الانسانية، ومجمع الحقائق الايمانية، وطور التجليات الاحسانية، ومهبط الاسرار الرحمانية، وقائد ركب الانبياء والصديقين، وافضل الخلق اجمعين، حامل لواء العز الاعلى بالتوحيد، ومالك ازمة المجد الأسنى بالاسلام، شاهد اسرار الازل، ومشاهد انوار السوابق الاول، وترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم المتحقق باعلى رتب العبودية، والمتخلق باخلاق المقامات الاصطفائية. الخليل الاعظم والحبيب الاكرم عليه افضل الصلوات وازكى التحيات وانمى البركات ما دامت الارض والسموات.

---

(١) ان اساس الوجدانيات التي تستشعر بالذات شعوراً فطرياً، ينقطع بشعور ثانٍ ونية (ت: ١٨٣).

(٢) المقصود الاحوال الفطرية (ت: ١٨٣)

(٣) اي ان نية التواضع بتصنع وبشعور ثانوي تفسد التواضع الفطري، وكذا نية التكبر بشعور ثانوي تزيل عزة النفس والوقار الفطري.

[خذ بيدي ياسيد المرسلين

فانت الامل يانور كرم الله المبين

لا انتماء لي الا اليك يا سيدي

وأنطقُ دليلي: لا اله الاّ الله محمد رسول الله]

إلـهي ! احب واتمنى ان يكون لي الوف من الالسنة مستغفرة عني الى قيام الساعة. فاجعل يا الهي! نسخ رسالتي هذه السنة لي، مستغفرين ومصلين على النبي بدلاً عني مادام القلم وما يسطرون..

إلـهي الذنوب اخرستني، وكثرة المعاصي اخجلتني، وشدّة الغفلة اخفتت صوتي. فادق باب رحمتك وانادي في باب مغفرتك بصوت سيدي وسندي الشيخ « عبد القادر الكيلاني » قدس سره وندائه المقبول المأنوس عند البواب بـ :

يامن وسعت رحمته كل شئٍ، ويا من بيده ملكوت كل شئ، يامن لا يضرهُ شئ، ولا ينفعه شئ، ولا يغلبه شئ، ولا يعزب عنه شئ، ولا يؤوده شئ، ولا يستعين بشئ، ولا يشغله شئ عن شئ، ولا يشبهه شئ، ولا يعجزه شئ، اغفرلي كل شئ، حتى لا تسألني من شئ. يا من هو آخذ بناصية كل شئ، وبيده مقاليد كل شئ.. ويا من هو الاول قبل كل شئ.. والآخر بعد كل شئ.. والظاهر فوق كل شئ.. والباطن دون كل شئ.. والقاهر فوق كل شئ.. اغفرلي كل شئ.. انك على كل شئ قدير.. ويا عليما بكل شئ ومحيطا بكل شئ،وبصيراً بكل شئ، ويا شهيدا على كل شئ، ورقيبا على كل شئ، ولطيفا بكل شئ، وخبيرا بكل شئ. اغفرلي كل شئ من الذنوب والخطيئات حتى لا تسألني عن شئ. انك على كل شئ قدير..

اللّهم اني اعوذ بعزة جلالك وبجلال عزتك، وبقدرة سلطانك وبسلطان قدرتك، من القطيعة والاهواء الردية. يا جار المستجيرين.. اجرني من الشهوات الشيطانية.. وطهرني من القاذورات البشرية.. وصفني بحب نبيك محمد ﷺ، بالمحبة الصديقية من صدأ الغفلة واوهام الجهل، حتى تفنى الانانية ويبقى الكل لله، وبالله، والى الله، ومن الله.. غرقاً بنعمة الله، في بحر منة الله.. منصورين بسيف الله.. محظوظين بعناية الله.. محفوظين بحماية الله.. عن كل شاغل يشغل عن الله. فيا نور الانوار،

ويا عالم الاسرار، ويا مدبر الليل والنهار، ويا ملك، ياعزيز، يا قهار، يا رحيم، ياودود. ياغفار، ياعلام الغيوب، يامقلب القلوب والابصار. ياستار العيوب، ياغفار الذنوب، اغفر لي ذنوبي وارحم من ضاقت عليه الاسباب وغلقت دونه الابواب وتعسر عليه سلوك طريق اهل الصواب. وانصرمت ايامه ونفسه راتعة في ميادين الغفلة والمعصية ودَنيّ الاكتساب. فيا من اذا دعي اجاب، ويا سريع الحساب، ويا كريم، يا وهاب، ارحم من عَظُمَ مرضه.. وعز شفاؤه وضعفت حيلته وقوي بلاؤه وانت ملجؤه ورجاؤه.

الهي اليك ارفع بثي وحزني وشكايتي.. الهي: حجتي حاجتي وعدتي فاقتي وانقطاع حيلتي، الهي قطرة من بحار جودك تغنيني. وذرة من تيار عفوك تكفيني. ياودود. ياودود. ياودود.. ياذا العرش المجيد. يا مبدىء يا معيد، يا فعالا لما يريد: اسألك بنور وجهك الذي ملأ اركان عرشك وبقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا اله الا انت يا مغيث اغثني واغفر جميع ذنوبي وسقطات لساني في جميع عمري برحمتك يا ارحم الراحمين.

آمين.. آمين.. آمين..

يامن يقرأ هذا الاستغفار اولا لنفسك، فأقرأه ثانياً: بدلا عني في سبيل الله.. فاني في قبري ساكن، ولساني ساكت ناطق بكتابي مستعيراً لسانك فانطق بحسابي ايضاً حسبةً لله...

سعيد النورسي

الرسالة[*] العاشرة

القطعة الثالثة عشرة

---

* هذه الرسالة بكاملها غير موجودة في الطبعة الاولى ، وانما هي في المخطوط وفي الطبعة التالية وهى رسالة مستقلة في الترجمة التركية. تضم خلاصة لكثير من مباحث رسالة «المدخل الى النور» والتي فصّلت في «الكلمات».

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن الله التوفيق لأقوم الطريق

سبحانك يا من انطق السماء بحمده وتسبيحه بكلمات النجوم والسيارات.

ويامن انطق الارض بحمده وتسبيحه بكلمات الاشجار والنباتات..

وانطق النبات والشجر بكلمات الازهار والثمرات..

وانطق الزهر والثمر بكلمات البذور والنواتات..

وانطق النواة والبذر بلسان السنابل وكلمات الحبات..

سبحانك يامن يسبح بحمدك الضياء بانواره، والهواء باعصاره، والماء بانهاره، والارض بأحجاره، والنبات بأزهاره، والشجر بأثماره، والجو بأطياره، و السحاب بامطاره، والسماء باقماره.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبراس[١] الانبياء، وزبرقان[٢] الاصفياء ونيّر[٣] الأولياء، وشمس الثقلين، وضياء الخافقين[٤]. وعلى آله نجوم الهدى، واصحابه مصابيح الدجى.

---

(١) النبراس: المصباح.

(٢) بكسر الزاي والباء: اي القمر.

(٣) بفتح النون وتشديد الياء: المقصود الشمس.

(٤) افق المشرق والمغرب.

اعلم ![1] يا من يضيق ذهنُه عن فهم سرّ: ﴿ **وجَعَلناها رُجُوماً لِلشَّياطين** ﴾ [2] ان للصعود الى سماء هذه الآية سلّماً ذا درجات سبعة:

الاولى : ان للسموات سكانا يناسبونها يسمون بالملائكة، اذ امتلاء الارض مع حقارتها بالنسبة الى السماء من ذوي الحياة والادراك، يشير بل يصرح بامتلآء السموات ذات البروج – تلك القصور المزينة – من ذوي الادراك.

وكذا ان تزيين الكائنات بجميع هذه التزيينات والمحاسن والنقوش مستلزمةٌ لوجود انظار متفكرين مستحسنين بالحيرة والتقدير؛ اذ لا يُظهَر الحُسن الاّ لعاشق، كما لا يُعطى الطعام الا لجائع. مع انه لا يكفي الجن والانس لعُشر معشار عشير هذه الحشمة والوظيفة، بل لا تقوم بها الا ما لا يعد من انواع الملائكة والروحانيات.

الثانية : ان للارض علاقة مع السماء ومعاملة معها وارتباطا يجئ منها اليها اشياء، من الضياء والحرارة والبركات وغيرها. فبالحدس القطعي نعلم ان للارضيين طريقاً يصعدون فيها الى السماء، اذا خَفّوا بوضع اثقالهم وخلع اجسادهم كالانبياء والاولياء والارواح.

الثالثة : ان سكونة السماء وسكوتها وانتظامها واطرادها تدل على ان اهلها ليس كأهل الارض التي فيها اضطراب وتذبذب واختلافات وامتحان بمشاجرات، بسبب اختلاط الاشرار بالاخيار واجتماع الاضداد، بل كل اهل السماء مطيعون يفعلون ما يؤمَرون.

الرابعة : ان لمالك يوم الدين ولرب العالمين اسماءٌ متغايرةٌ احكامها، فالاسم الذى اقتضى انزال الملائكة للمحاربة في صف الصحابة مع الكفار، يقتضي وقوع المحاربة بين الملائكة والشياطين؛ اي السماويين الاخيار والارضيين الاشرار. الا ترى السلطان كيف يفعل ؟ اذ قد يقتضي شأن سَطوته واسم حشمته تشهير استحقاق المكافأة والمجازاة على رؤوس الأشهاد، او اعلان تعظيم بعض خدامه، بان لا يعاملهم بعِلْمه بهم فقط، وبتلفونه الخاص، بل يأمر الوزيرَ فيحشّد الناس لميدان مبارزة محتشمة، وامتحان علوي، واستقبال سياسي..

(١) تفصيل هذا البحث في الكلمة الخامسة عشرة والكلمة التاسعة والعشرين.

(٢) الملك: ٥

الخامسة: انه لابد ان يقلّد اشرار الروحانيات اخيارهم في تشبث الذهاب الى مملكة السماء للطافتهم، ولابد ان لايقبلهم اهلُ السماء ، بل يطردونهم لشراراتهم. ولابد في حكمة سلطنة الربوبية ان يكون لهذه المبارزة المعنوية والمعاملة المهمة علامة واشارة في عالم الشهادة لاشهاد الانسان الذي اهم وظيفته المشاهدة والشهادة مع انه لايرى فيما بين الحادثات السماوية انسب من اعلان هذه المبارزة العلوية من رمي الشهب المشابهة للمنجنيقات المرماة من بروج الحصون الرفيعة، مع انه لايرى لهذه الحادثة حكمةً تناسبها غير هذه الحكمة المشهورة المشهودة لجميع أهل الحقيقة، خلاف سائر الحادثات.

السادسة : ان القرآن الحكيم المعجز يرشد البشر ويزجره من العصيان باسلوب غال ومثل عال.. فانظر الى انذار ﴿ **يَاَ مَعْشَرَ الْجن والانْسِ ان اسْتَطَعْتُمْ انْ تَنْفُذُوا منْ اقْطَارِ السَّموات وَالارْضِ فَانْفذُوا لاتَنفذُونَ الاَّ بسلْطانَ** ﴾ [١] الآية في تعجيز الثقلين، واعلان عجزهما في جنب وسعة سلطنة الربوبية، كأنّه يقول : ايها الانسان الحقير الصغير العاجز! كيف تعصي سلطاناً يطيعه الشموس والاقمار والنجوم والملائكة الذين يرجمون الشياطينَ ببنادقَ كأنها جبالٌ بل اعظم! وكيف تتجاسر على العصيان في مملكة سلطانٍ؛ من جنوده مَن يقتدر ان يرمي في وجه الأعداء بنجومٍ في عظمة ارضكم كما ترمي جوزك وبندقتك.

السابعة: ان النجم كالمَلك والسمَك له افراد في غاية الصغر وفي غاية الكبر. فكل ما يضيئ في وجه السماء فهو نجم، فمن هذا النوع مايُزيّن به السماء كالجواهر والاثمار والاسماك[٢]، ومنه مايُرجم به الشياطين كالمنجنيقات المرماة للطرد، او للاشارة الى وجود الحارسين المتيقظين المطيعين المجتنبين عن اختلاط العاصين، او للرمز الى جريان قانون المبارزة في اوسع الدوائر.. ولله الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

اعلم ! ان الآيات المصرحة بكتابة الاشياء قبل كونها وبعد كونها كثيرة، كأمثال ﴿ **ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ الاَّ في كِتابٍ مُبينٍ** ﴾ [٣] ويصدقها منظومات مكتوباتُ

---

(١) الرحمن : ٣٣

(٢) اي ان هذه الافراد الكثيرة لنوع النجم تزيّن وجه السماء وتتلألأ كالجواهر ، كما تزين الاثمار البساتين الغناء والاسماك البحار.

(٣) الانعام : ٥٩

كتاب الكائنات وموزونات آياتها، لاسيّما آيات النظام والميزان والانتظام والتصوير والتزيين والامتياز.

أما قبل الكون، فالدليلُ جميع المبادي والبذور وجميع المقادير والصور، اذ ما البذور: الا صُنيدقات لطيفة اودعت فيها فهرستة ما رسمه القَدر، فتبني القدرةُ وتستخدم الذرات على هندسته. وما المقادير الا مكتوبات قدرية منظومة، وقوالب علمية موزونة؛ اذ الذرات الصم العمي الجامدة تتحرك في نمو الاشياء ثم تتوقف عند حدود معوجة، توقف سميع بصير بمظانّ الفوائد والثمرات. وهكذا فقس كثرة براهين الكتابة قبل الكون.

واما الدليل على الكتابة بعد الكون؛ فمن العالم جميع الثمرات التي هي كمطويات صحائف اعمال الاشجار والازهار، تَنشرُ على رأس الأشهاد ما جرى على رؤوس اصولها، اذا دُفنت في الارض وحُشرت في الربيع. ومن الانسان قوته الحافظة التي هي في محل كالخردلة في الصغر، وما هي الاّ كسنَد استنسخته يدُ القدرة بقلم القدر من صحيفة الاعمال، واعطَتْه ليد الانسان ليتذكّر به وقت المحاسبة، وليطمئن ان خلفَ هذا الهرج والمرج والفناء والزوال: مرايا للبقاء رَسَم فيها القدير هويات الزائلات، والواحٌ يكتب فيها الحفيظ العليم معاني الفانيات..

اعلم ! انه كما ان الساعة غير ثابتة بل متزلزلة مضطربة الآلات، كذلك الدنيا التي هي ساعة كبرى ايضاً متزلزلة. فبادراج الزمان فيها صار « الليل والنهار » كميلين يعدّان ثوانيها، و« السنة » ابرةً تعد دقائقها، و « العصر » كإبرة تعد ساعاتها. وبادراج المكان فيها صار « الجو » بسرعة تغيره وتحوله وتزلزله كميل الثواني. و« الارض » بتبدل وجهها نباتاً وحيواناً، موتاً وحياةً كميل الدقائق. وبتزلزل بطنها وتولد « جبالها » كميل الساعات. و« السماء » بتغيراتها بحركات اجرامها وظهور ذوي الأذْناب والكسوفات والشهابات كالميل الذي يعد الايام.

فالدنيا المبنية على هذه الاركان السبعة – مع انها واصفة لشؤونات الاسماء ولكتابة قلم القدرة والقدر – فانية هالكة متزلزلة راحلة كالماء السيال في الحقيقة. لكن تجمّدت صورةً بالغفلة، وتكدّرت بالطبيعة فصارت حجاباً عن الآخرة.

فالفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جمودَتها وكُدورتَها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعية. واما القرآن فينفش الدنيا كالعهن المنفوش بآياته، ويشقّقها ببيّناته، ويذيبها بنيّراته، ويمزق ابديتها الموهومة بنعيّاته، ويفرّق الغفلة المولدة للطبيعة برعداته. فحقيقة الدنيا المتزلزلة تقرأ بلسان حالها المذكورة آية: ﴿ واذا قُرِىءَ الْقُرآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرحَمُون ﴾[١].

اعلم ! ان مميز الانسان عن الحيوان شمول علاقته بالماضي والمستقبل، وكلية ادراكه بالانفس والآفاق.. وكشفه لترتب العلل الظاهرية في انشاء الاشياء الظاهرية. فاعظم وظيفته واقدمها[٢]، واتم جهازاته والزمها؛ التسبيح والتحميد بالجهاز المخلوق لهما، فيسبح الانسان صانعه بلسان الماضي والحال والمستقبل، وبألسنة الانفس والآفاق[٣].. وبسر مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يثني على صانع الاشياء بقراءة اسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صنع الاشياء.

فسبحان الله يتضمن معنى الحيرة والتقدير، ومعنى التعجب والاستحسان، ومعنى التنزيه والتقديس، ومعنى الهيبة مع المحبة، ومعنى المجهولية للعظمة...

اعلم ! ان لله عطايا، وقضايا، ومقدرات.. ينفذ العطاءُ في القضاء، والقضاءُ في القدرَ. اي يخرق العطاءُ قانونَ القضاء. كما تنخرق صلابة الحجر والتراب عند مرور العروق اللينة، وتنكسر مقاومةُ الحديد للمَيل اللطيف من الماء اللطيف عند الانجماد، ويُخرق لسهم القضاء قانونُ القدر كما ينخرق القانون الكلي الذي هو قدَرُ النوع بشذوذ الجزئيات الخارقة المخصّصة للاشارة الى انه سبحانه فاعلٌ مختار يفعَلُ ما يَشاءَ ويَحكُمُ ما يريدُ لامانع لما اعطى ولا راد لما قضى.

فنسبة العطاء الى القضاء كنسبة القضاء الى القدر، اي العطاء شذوذٌ عن قانون القضاء كما يقول العارف بحقيقة الحال: « يا الهي ان حسناتي من عطائك، وسيئاتي من قضائك. لولا عطاؤك لكنت من الهالكين». اي استعداد النفس الامارة بالسوء قانون شر وهلاك.

---

(١) الاعراف: ٢٠٤

(٢) اي: اولى الوظائف واهمها (ت: ١٨٨)

(٣) اي ان الانسان يحمد ربه ويسبّحه بما أنعم عليه في الماضي والحال وما سيعم عليه من نعم في المستقبل، وبما يجده منها في نفسه او في الافاق (ت: ١٨٨)

اعلم ! ان السر في تختيم الآيات بفذلكات متضمنة للاسماء الحسنى - كامثال آية الملك، او بعين الاسماء كما في كثير من الآيات، هو:

ان القرآن الحكيم ببيانه الاعجازي يبسط الآثار للنظر، ثم يستخرج منها الاسماء، كامثال آية: ﴿ وهُوَ الَّذي يَبْدَؤا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدهُ وهُوَ اهْوَنُ عَلَيْه ولَهُ المَثلُ الاعْلى في السَّموات والارْض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١)

وكذا ينشر للبشر منسوجات صُنعه، ثم يطويها في الاسماء.

وكذا يفصّل أفاعيله ثم يَجْملها باسمائه.

وكذا يرتب المخلوقات ويشفّفها باراءة النظام والميزان والفوائد، ثم يريك فيها الاسماء كأن تلك المخلوقات الفاظ، وهذه الاسماء معانيها او ماؤها او نواتها ايجاداً وخلاصتها علماً.

وكذا يذكر الجزئيات المادية المتكيفة المتغيرة، ثم يجملها بالاسماء الكلية النورانية الثابتة..

وكذا يفرش الكثرة المتوسعة المنتشرة، ثم يضع عليها مظاهر الوحدة كجهة الوحدة..

وكذا يُظهر باظهار غايات المسبَّبات بُعْدَ ما بين الاسباب والمسبَّبات المتصلتين في الظاهر، كما يُرى تماس الافق بالسّماء في ظاهر النظر، مع ان ما بينهما مسافة مدهشة. اذ لا طاقة لأعظم الاسباب بذاته على حمل اخف المسبَّبات، فيُظهر القرآن باظهار هذا البُعد محل ظهور الاسماء ومَطَالعها.

وكذا قد يذكر افاعيل الخلق فيهدّد، ثم يسلّي باسماء تشير الى الرحمة.. وقد يذكر مقاصد جزئية، ثم يقررها باسمآء هي كالقواعد الكلية والبراهين عليها(٢)..

اعلم (٣)! ان العجز كالعشق طريقٌ موصلٌ الى الله بل اقرب وأسلم. ثم ان اهل السلوك سلكوا في طرق الخفاء على اللطائف العشرة، وطرق الجهر على النفوس السبع.. وهذا العاجز استفاد من القرآن طريقاً قصيراً، وسبيلاً سوياً هو اربع خطوات:

---

(١) الروم:٢٧

(٢) رسالة «المعجزات القرآنية» تفصّل هذه المسائل بأمثلة كثيرة.

(٣) تفصيله في ذيل الكلمة السادسة والعشرين.

الخطوة الاولى: ما اشارت اليها آية ﴿فلا تُزكّوا انْفُسكم﴾ (١).

والثانية: ما اشارت اليها آية: ﴿ولاَ تكونُوُا كالذينَ نَسوُا الله فأنساهم انفُسَهُم﴾(٢).

والثالثة: ما اشارت اليها آية: ﴿مَا اَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ومَا اصابَكَ مِنْ سَيئَةٍ فَمِنْ نَفْسكَ﴾ (٣).

والرابعة: ما اشارت اليها آية: ﴿كُلُّ شَيْء هَالِكٌ الاَّ وَجْهَهُ﴾(٤).

وايضاحه: ان الانسان بحسب جبلّته محب لنفسه، بل لا يحب بالذات – في الاول – الا ذاته، فيمدح نفسه مدحاً لا يليق الا بالمعبود، ويدافع عن نفسه بشدة وينزّهها عن المعايب ولا يقبل القصور لها ما امكنه، حتى كأنه يصرف الجهاز المخلوق فيه لحمد معبوده وتسبيحه الى نفسه، كمن اتخذ إلهه هواه. فلابد من تزكيتها هنا بعدم تزكيتها.

والثانية: نسيان النفس في مقام الكُلفة والخدمة، وشدة إلتزامها في مقام اخذ الأُجرة والحظوظات. فتزكيتها عكس هذه الحالة اي: عدم النسيان في عين النسيان.

والمرتبة الثالثة: لا يرى من نفسه الاّ القصور والنقص والعجز والفقر، ويرى كل المحاسن نِعَماً من جانب فاطره تقتضي الحمد لا الفخر، فتزكيتها في هذه المرتبة؛ علمها بانَ كمالَها في عدم كمالِها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في فقرها..

والخطوة الرابعة: دركُ انه في نفسه وبالمعنى الاسمي فان مفقودٌ حادثٌ معدومٌ، وبالمعنى الحرفي – والمرآتية لاسماء صانعه – شاهدٌ مشهودٌ وواجدٌ موجودٌ. فتزكيتها هنا: معرفةُ ان عدمها في وجودها، ووجودها في عدمها، وورِدُها: له الملك وله الحمد.

وكذا ان مشرب اهل وحدة الوجود يذهب الى اعدام الكائنات بنفي وجودها. ومشرب اهل وحدة الشهود يذهب الى حبس الموجودات في سجن النسيان المطلق.

---

(١) النجم: ٣٢

(٢) الحشر: ١٩

(٣) النساء: ٧٩

(٤) القصص: ٨٨

واما ما افهم من منهاج القرآن فهو: عفوها عن الاعدام والحبس، بل استخدامها في وظائف اعلان الاسماء الحسنى بالمظهرية والمرآتية: بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وعزلها عن الخدمة بالمعنى الاسمي وبحساب نفسها..

ثم ان الانسان في وجوده دوائر متداخلة ومصنوعات متراكبة؛ اذ هو نبات، وحيوان، وانسان، ومؤمن.. فالمعاملة للتزكية قد تقع اولاً في الطبقة الرابعة الايمانية. ثم تتنازل الى النباتية التي هي شديدة المقاومة، وقد تقع المعاملة في الكل في اليوم والليلة. ومما غَلَط فيه الانسان عدم الفرق بين تلك المراتب فيقول: خلق لنا ما في الارض جميعا، فاولاً يغلط بظن انحصار الانسانية في معدته النباتية او الحيوانية. ثم يغلط بانحصار غايات الاشياء في ما يؤول الى نفسه. ثم يغلط بتقدير قيمة الاشياء بمقياس مقدار منفعته منها، فلا يشتري نجم الزهرة بزهرةٍ مشمومة..

اعلم [١]! ان العبودية نتيجة النعمة السابقة وثمنها، لا مقدمة المكافآت اللاحقة ووسيلتها.

ايها الانسان! اخذت اجرتك؛ اذ صنعك هكذا في احسن تقويم. ثم تَعرَّفَ اليك باعطاء الايمان.

نعم، كما انه باعطاء المعدة أنعمَ عليك بجميع المطعومات.. كذلك باعطاء الحياة صيَّر لك عالمَ الشهادة سفرةً مملؤةً من النعم. فانظر الى تفاوت السفرتين. وكما انه باعطاء النفس الانساني جعل لهذه المعدة عوالم الملك والملكوت مائدةً مشحونة بالنعم.. كذلك باعطاء الايمان فرش لك مع الموائد المزبورة موائد مدخرات كنوز اسمائه.. وباعطاء محبته فتح لك ومنحك ما لا يوصف، فاذا اخذتَ مثل هذه الأجرة، فعليك بالخدمة. فاذا اعطاك بعد العمل نعمة اخرى فما هي الاّ من محض الفضل..

اعلم! ان ما يشاهد من الجود بلا حساب في تكثير افراد الأنواع، لا سيما في صغار المخلوقات مع كمال الاتقان وحسن الانتظام، يشير بل يصرح بعدم التناهي في تجليات الصانع.. وبمباينة ماهيته.. وبتساوي الاشياء بالنسبة الى قدرته.. وبوجوبه.

(١) تفصيله في الثمرة الثانية من الغصن الخامس للكلمة الرابعة والعشرين.

نعم، ما هذا الجود والايجاد الا من ذلك الوجوب ومن برهانه. والجود في النوع جلالي، والاتقان في الفرد جمالي(١)...

اعلم! ان الصنعة الانسانية تسهل على الصانع بدرجة علمه بها، وتَعسر بمقدار جهله، لاسيما في المصنوعات اللطيفة الدقيقة الجهازات. فكلما كان أعلمَ كانت عليه ايسر واسهل. فما يشاهد من السهولة بلا حدّ في السرعة المطلقة والوسعة المطلقة في خلق الاشياء المنتظمة، يدل قطعاً وحدساً على ان لصانعها علماً لا نهاية له. كما تشير الى تلك السهولة آية ﴿ وَمَا امْرُنَا الاَّ واحِدةٌ كَلَمحٍ بِالْبَصَر ﴾(٢)

اعلم! انه كما ان مَن لف على مصنوعٍ او مصنوعات لفائف مصنوعة، وألبس مكنونةً مزينةً أو مكنونات اقمصةً نُسجت من جنس مادتها - كالجلود - وادرج متولدات منحوتات من بطونٍ متراكمة في اجوافها، لاشك ولاريب ان المظروفَ كالظرف، والمحاطَ كالمحيط صنع واحدٍ ومالُه وملكُه .. .

كذلك لا شك ولا ريب ان من لف لفائف الوحدة الاتصالية والنوعية على الكثرة، كوحدة الكل والكلي والظرف.. وكذا ألبس على قامات جماعات هذه المصنوعات المنثورة اقمصةَ هذه العناصر التي كأمهاتها.. وكذا ادرج هذه المخلوقات لاسيما الحيوانات التي هي تماثيل مصغرة لهذه العوالم الكبيرة في اجواف تلك العوالم اللواتي هنٍ كأبنية متداخلة ضربت على موجودات هن كثمراتها او نواتاتها، ماهو الا واحدٌ احدٌ صمدٌ يتجلى على المحيط بالواحدية، وعلى المحاط بالاحدية..

اعلم! (٣) انه كما ان للسلطان عنوانات متنوعة لحاكميته في دوائر حكومته وطبقات رعيته ومراتب سلطنته ووظائف اميريته، كأنه موجودٌ حاضرٌ ومشهودٌ ناظرٌ في كل دائرةٍ وخلفَ كلِّ حجابٍ بممثله وقانون نظامه، كذلك مثلا: ﴿ ولله المثل الاعلى ﴾ ان من له الاسماء الحسنى، له تجلٍ في عالَمٍ عالَمٍ بعنوان اسمٍ من اسمائه الحسنى ويستتبع ذلك الاسم في دائرة سلطنته سائرُ الاسماء بل يتضمنها.. وكذا

(١) اي يتجلى جلاله سبحانه اذا نظر الى النوع - بافراده الكثيرة - اما اذا ما انعم النظر في كل فرد فيتجلى جمال الاتقان في الصنعة . ففي الفرد يتجلى الجمال وفي النوع يتجلى الجلال.

(٢) القمر: ٥٠

(٣) تفصيله في الغصن الاول من الكلمة الرابعة والعشرين وفي الكلمة الحادية والثلاثين.

يتصرف في كل طبقة طبقة كلاً وجزءاً، كلياً وجزئيا بتجل خاص في ربوبية خاصة بجلوات اسم خاص، اي يتجلى عليه بخصوصية كأنه يخصّه، مع انه يعمّ ويحيط.

وله سبحانه في مراتب ربوبيته شؤونات متناظرة.. وله في سرادقات الُوهيته اسماءٌ متعاكسة.. وله في مرايا حشمته تمثيلات متفاوتة.. وله في تصرفات قدرته عنوانات متنوعة.. وله في تجليات صفاته ظهورات متزاهرة. وله في جلوات افاعيله تصرفات متظاهرة.. وله في تنويع مصنوعاته ربوبيات متدائرة على تجلي الاحدية على جزئيات محاط الواحدية، كما اشار الى هذه الحقيقة العظيمة الواسعة ترجمان لسان القدم في مناجاته في «الجوشن الكبير»[١] وهذه المناجاة مشتملة على تسعة وتسعين عقدة، وصدف كل منها متضمنة لاثني عشر من جواهر التوحيد صريحاً او ضمناً؛ اذ اذا نودى احدٌ بوصفٍ مطلق في مقام التعيين يدل على انحصار الوصف فيه. مثلاً: «يادائم» أي: يامن لا دائم في العالم الا هو. فله سبحانه حجب نورانية الى سبعين الفاً، كما روي[٢].. ولوجود المنافذ في الحجب والتناظر في الشؤونات والتعاكس في الأسماء، والتداخل في التمثيلات، والتمازج في العنوانات، والتشابه في الظهورات، والتساند في التعرفات، والتعاضد في الربوبيات، وتجلي الاحدية في احاطة الواحدية، لزم البتة لمن عرفه سبحانه في واحد مما مرّ، ان لا يستنكره في سائر ذلك، بل يفهم بالبداهة انه هو هو.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ في احْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٣]

اعلم! ان من عجائب جامعية فطرة الانسان، ان ادرج الفاطرُ الحكيمُ في هذا الجرم الصغير موازين لا تعد، لوزن مالا يُحدّ من مدخرات رحمته. وادمج فيه آلاتٍ لا تُحصى جهازاتُها المعنوية لفهمِ مالا يتناهي من مكنونات كنوز اسمائه الحسنى.

انظر الى حواسك العشرة كيف احاطت بالوان عوالم المسموعات، والمبصرات، والمذوقات وغيرها.. وكذا اعطاه جزئيات صفات واحوال من الارادة والعلم والسمع

(١) الجوشن : لغة : الصدر والدرع. والمقصود هنا مناجاة الرسول ﷺ المروية عن زين العابدين رضي الله عنه.
(٢) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (ان الله عز وجل دون سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وما يسمع من نفس شيئاً من حس تلك الحجب الاّ زهقت) رواه الطبراني في الكبير ٥٨٠٢، وابو يعلى ٢ / ٣٥٥
(٣) التين: ٤

وغيرها لفهم صفاته المحيطة وشؤونه الواسعة.. وكذا لفّ على انانيته لفائف بعدد العوالم وألوانها، ليعرف حالها بتلك اللطائف.. وكذا ألبس على قامة ماهيته اقمصة بعدد حجب الربوبية ليترقى فيها بقطعها.. وكذا اودع فيه لطيفة مدركة، بصورة عجيبة، بحيث تصير الحافظة التي هي في صغر الخردلة كعالَمٍ واسع، تسير تلك اللطيفة في تلك الخردلة دائما، ولا تصل الى ساحلها. ومع ذلك قد يضيق على تلك اللطيفة هذا العالم الكبير. فتحيط هي بهذا العالم، وتحيط بها وبجميع ميادين جولانها ومكاتيب مطالعتها هذه الخردلة. فسبحان من صغّرها بلا غاية في عين كبرها بلا نهاية.

ومن هذا السر تتفطن لتفاوت مراتب الانسان؛ فمن الانسان من يغرق في ذرة، ومن الانسان من تغرق فيه الدنيا؛ ثم ان الانسان قد يفتح بمفتاحٍ من مفاتيحه الموهوبة عالماً واسعاً من ابسط ما انتشرت اليه الكثرة، فيضل فيها فلا يصل الى الوحدة والتوحيد الاّ بعسر عظيم. فللانسان في معناه وسيره الروحي طبقات؛ ففي طبقة يتيسر له باليسر والسهولة الحضور والتوحيد، وفي طبقة اخرى تستولي الغفلة والاوهام، وقد تتسع عليه الضيقة بحيث يغرق في الكثرة غرقاً تاما، فينسى الوحدة رأساً.

وان المدنيين الذين توهموا السقوط ترقياً، والجهل المركب يقيناً، الانغماس التام في النوم انتباهاً، هم في هذه الطبقة السفلى. فهم ابعد بدرجات من البدويين من درك الحقائق الايمانية.

اعلم! ان الواحدية تدل على ان الاسم يحيط بكل شئ. وان الاحدية تدل على ان كلَّ شئ حي؛ يشير الى كل اسم له تعلق بالكون، فالتجلي بالواحدية باحاطته بكل الاشياء، وبالاحدية باراءة كل شئ لكل الاسماء.

اعلم! ان اكثر مظاهر الجلال تجلي الاسماء على الكل والكليات والانواع والجماعات. والجود المطلق في النوع من تجلي الجلال. وان اغلب مرايا الجمال المتجلي، نقوشُ جزئيات الموجودات، وجمال اشخاصها مع تزايد الحسن، وجلاء المرآتية بتلاحق الامثال في تكثير الافراد، والاتقان والانتظام الاجمل في شخصٍ

شخص من تجلي الجمال.. وكذا يظهر الجلال من تجلي الواحدية ؛ ويظهر الجمال من تجلي الاحدية. وقد يتجلى الجمال من الجلال كما يتجلى الجلال من الجمال.. فما اجمل الجلالُ في عين الجمال، وما اجمل الجمال في عين الجلال!.

اعلم! ان شهود البصر للمصنوع المصنّع المرصّع، مع عدم شهود البصيرة لصانعه ليس الا: اما لعدم البصيرة او عميها، او ضيقها من عظمة تصور المسألة، او للخذلان. والا فهو[١] انكرُ من انكار شهود البصر، كالسوفسطائي بل اشنع واكمه[٢]...

اعلم! انه كما ان من زرع بذرا في مزرعة، وعمتها حبات البذر ولو منمنمة[٣]، تكون المزرعة محمية له، ومصونة من تصرف الغير بالزرع مرة اخرى، حتى كأن البذر سور معنوي.. كذلك كل نوع من انواع النباتات والحيوانات المزروعة المبثوثة في مزرعة الارض والمنثورة المنشورة في اكثر وجهها، سور يمنع الشركة، وحارس يطرد الغير، وحامٍ يردّ الاوهام. فكيف بتساند المجموع، وتعاضد الجميع بتلاحق الشواهد وتعانق الافراد؟!

اعلم! انه كما ان من يحب ان يشاهد في رياض جنته وحديقته المنتظمة، صورة القفار الغير المنتظمة، ومثال احجارها الموحشة، وتماثيل اعوجاجاتها المشوشة؛ لإظهار لطافة تنظيماته، وقد يصنع فيما بين منظومات بستانه صخور الكهف بتنحيتاتٍ مشوشة، فكمالُ انتظامها هنا، في عدم انتظامها. لكن يتفطن المدقق ان تنظيم هذا بعدم الانتظام ؛ انما هو بقصد ناظم حكيم - ؟

كذلك ان مايُشاهد فيما بين المخلوقات المنظومة والمصنوعات الموزونة، من القفار المختلفة الاشكال المشوشة، ومن الجبال والآكام المتفاوتة الاحجار البعيدة عن النظام؛ بدرجة تتوهم النظرة الحمقاء الظاهرية ان لعبَت بها يدُ التصادف، ما هي الا منتظمةٌ بعدم التنظيم، ومشوشيته السطحية بقصدِ صانعٍ حكيم وفاطر عليم، بشهادة احاطة المنظومات والموزونات بها وفرشها عليها، كنظم الدرر المنظومة على نحور الجواهر

---

(١) اي: عدم شهود البصيرة للصانع ، اي انكار الصانع!

(٢) كمه كمها: عمى ، اكمه: اكثر عمى ، وشبه بالسوفسطائي لانه ينكر وجود الاشياء بل حتى نفسه.

(٣) صغيرة الحبوب.

المنثورة لاظهار شعشعة الصنعة المنتظمة، وكاراءة شدة الظلمة لتلك النيرات. فانظر الى الاشجار ذوات الاشواك، والى النباتات المجهزة برماح اشواكها لدفع آكل النباتات، حتى ترى انتظاماً عجيباً في عدم انتظامها، ولطافةً ظريفةً في خشونتها الموحشة. ومن امارات كون عدم الانتظام كالانتظام بقصد صانع حكيم؛ عدم توافق شكل بعضٍ لبعضٍ بدرجة كأن كل فرد من نوع مستقل منحصرٍ في ذلك الشخص، مع اتحاد النوع وتآخذ اسباب التوافق. فعدم التوافق دليل عدم الاتفاقي وعدم التصادف.

اعلم! ان من مزايا جامعية فطرة الانسان، ومن مميزاته على سائر الحيوان، فهمه لتحيات ذوي الحياة لواهب الحياة. اي انه كما يفهم كلام نفسه، يفهم بسمع الايمان جميع كلمات ذوي الحياة المسبّحات ، بل الجمادات. فكل منها يفهم كلام نفسه فقط – على ما يظهر – كمتكلّمٍ اصمّ من هذه الجهة. واما الانسان فمتكلمٌ سميعٌ يسمع في وسعة البصر، اي يمكن له ان يسمع في وقتٍ بلا مزاحمة ما تتكلم به الموجودات من ادلات الاسماء الحسنى. فقيمة كل منها بمقدار نفسه؛ وقيمة الانسان المؤمن بمقدار الكل . فهو فردٌ كنوعٍ ، بل كانواع.. والله اعلم بالصواب..

اعلم! ان الحقيقة تشبه الظاهر في الصورة، مع عظمة بُعْدِ ما بينهما في نفس الامر. مثلا: التوحيد العامي الظاهري يثْبُتُ بأن لا يُثبت ولا يسند شئ من الاشياء الى غيره تعالى، وهذا النفي سهل بسيط. واما التوحيد لاهل الحقيقة فانما يثْبُتُ بان يُثْبِتَ كل شئٍ مما يشاهد من الاشياء ويسنده اليه سبحانه، ويرى فيه سكته ويقرأ عليه خاتمه جل جلاله. وهذا الاثبات يثبت الحضور وينافي الغفلة...

اعلم! ان من حكمة امهال الكافر المتوجّه بالمعنى الاسمي والقصد الذاتي الى هذه الحياة الدنيوية؛ خدمته لتظاهر الوان نعمه تعالى الحاصلة بالتركيب الصنعي، وان لم يشعر هو.. وكذا تنظيمه لمحاسن جميلات مصنوعاته تعالى ، وان لم يفهم هو.. وكذا تشهيرهُ بطرزٍ جالبٍ للنظر لغرائب صنعته سبحانه، وان لم يتفطن هو.. كالساعة تعلمك عدد الساعات وهي لا تعلم ماتعمل هي..

اعلم! انه يمكن ان يذهب الموفّق من الظاهر الى الحقيقة بلا مرور على برزخ الطريقة؛ وقد رأيتُ من القرآن طريقا الى الحقيقة بدون الطريقة، اي المشهورة. وكذا رأيت طريقاً موصلاً الى العلوم المقصودة بدون المرور على برزخ العلوم الآلية.

نعم ومن شأن الرحمة الحاكمة ان تُحسِن لابناء هذا الزمان – السريع السير – طريقاً هكذا قصيراً سليماً.

اعلم! انه كما ان وجود الشئ وحياته برهان باهر على وجوب وجود موجده وصفاته، وآية نيّرة على انه وحده، اي له كل شئ، وحجة قاطعة لأيدي الاسباب.. كذلك فناء الشئ وموته في تجدد الامثال برهان ظاهر على بقاء المبدئ المعيد الوارث الباعث، ودليل واضح على انه لا شريك له – اي ليس لشئ من الاشياء شئ من الاشياء من جهة الخلق والايجاد – وحجة قاطعة لأيدي أنفس الاشياء من التأثير في انفسها.

الحاصل: ان الحياة تقول: لا اله الا هو وحده، وتردّ الاسباب.. وان الموت يقول: لا اله الاهو لا شريك له، ويردّ الأنفس.

اعلم! ان من وظائف حياة الانسان؛ شهوده لتحيات ذوي الحياة لواهب الحياة. ثم الشهادة عليها، اي يشاهد عبادة الكل فيشهد عليها ويعلنها كأنه ممثل الكل ولسانُهم يخبر الكل بعمل الكل في الاعلان لدى سيدهم.

اعلم! ان القرآن والمنَزل عليه القرآن يبحثان عن مسائل عظيمة، ويثبتان حقائق جسيمة. ويبنيان اساسات واسعة. كامثال اثبات وحدانية مَنْ يطوي السَماء **﴿كَطَيّ السجل للكُتُبِ﴾** (١) **﴿والارضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه﴾** (٢). **﴿ومَا امرُ السَّاعة الاَّ كَلَمحِ البَصَرِ﴾** (٣) بالنسبة اليه. و**﴿تُسَبحُ لَهُ السَّموات السَّبْعُ والارضُ ومَنْ فيهن﴾** (٤) و**﴿خَلَقَ السَّمَوات والارْضَ في سِتَةِ اَيَّامٍ﴾** (٥) **﴿ويُحْيي الارْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾** (٦) ويحشر في تلك الاحياء ازيد من ثلاثمائة الف حشر ونشر وقيامات، باحياء انواع النباتات

(١) الانبياء: ١٠٤
(٢) الزمر: ٦٧
(٣) النحل: ٧٧
(٤) الاسراء: ٤٤
(٥) الاعراف: ٥٤
(٦) الروم: ١٩

والحيوانات، وكتابتها على صحيفة الارض في نهاية الاختلاط والاشتباك، مع غاية التمييز بلا خبط ولا غلط. مع انّ حشر واحد من تلك القيامات المشهودة ليس بأهون من حشر طائفة الانسان، اذ يزيد عدد طائفة واحدة من طوائف الذباب الذي يوجد في عمر سنة على عدد الانسان في عمر الدنيا. وكذا يقولان: ﴿ **اللّه خالقُ كُلّ شَيءٍ وهُوَ عَلى كُلّ شيءٍ وكيل ۞ له مَقَاليدُ السَّمٰوات والارْض** ﴾ [1] و﴿ **خلَقَكُم ومَا تَعْملُونَ** ﴾[2] ﴿ **وأعدّ للكافرينَ عذاباً اليماً** ﴾ [3] ويقولان: ﴿ **ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّة شراً يَرَهُ** ﴾ [4]..

وهكذا من عظائم المسائل المبرهنة المهمة، فليس نظرهما في الكائنات كنظر الفنون الفلسفية والعقول الانسانية، بل مَثَلهما كمثل من يعرّفك صنعةً لتعريف صانعه، والمصنوعُ في قبضته يقلّبه، ويريك باطنه وصحائفه وتلافيفه وغايات جهازاته عند صانعه، ويعلّمك كتاباً بمعانيه واشاراته.. ومثلُ الانسان وفلسفته كمثل من يعرّفك مصنوعاً بعيداً من يدكما[5] ومن فهمكما – وانما يصل نظركما الى سطحه ولا ينفذ الى باطنه – فيلقمك مسائل سطحية كوساوس شطحية لا تسمن ولا تغني، وكمثل اجنبي أعجمي لا يعرف من العربية كلمةً، لكن له معرفة بمناسبات النقوش والصور، فشرع يعلمك كتاب الفصوص المذهب ببيان مناسبات نقوش الحروف، وكيفية صورها ووضعية بعض الى بعضٍ. وهكذا، من سفاسف واهيةٍ صورية.

فاذا كان هذا هكذا؛ فلا تجعل مقاييس العلوم الانسانية محكاً لحقائقهما[6]، ولا تزنهما بميزانها؛ اذ لا توزن الجبال الراسيات، بميزان الجواهر النادرات، ولا تطلب تزكيتهما بها بجعل دساتيرها الارضية، مصداقاً على تلك النواميس السماوية. فلا تظنن التزلزل بتحريك الاهواء الضالة لبعض التفرعات الجزئية، فاهمية الشئ بقدر قيمته.

---

(١) الزمر: ٦٢، ٦٣

(٢) الصافات: ٩٦

(٣) الاحزاب: ٨

(٤) الزلزلة: ٨

(٥) اي: بعيداً عن يد الانسان وفلسفته.

(٦) اي: القرآن والمنزّل عليه القرآن ﷺ . وتفصيل هذه المسائل في الكلمة الثانية عشرة.

اعلم (١)! ايها المصاب ببلية دامت من مدة!. لا توزّع من جنود صبرك وقوته، في مقابلة ما مضى الى يومك هذا، بل الى ساعتك هذه ؛ اذ التحقت تلك الايام الاليمة الخالية الى صف جنودك بانقلابها لذائذ معنوية وحسنات اخروية. وكذا لاتوزع من صبرك في مقابلة ما يأتي بعد يومك هذا، ، بل ساعتك هذه. اذ هو عدم ومعدوم وفي يد المشيئة. فاجمع جميع قوة صبرك وجنوده على هذا اليوم، وفي هذه الساعة، مع تقوّي قوتك المعنوية بالتحاق جنود البلايا الأعداء الى جنودك بانقلابها احباباً ممدة، ،مع الاستمداد من التوكل على المالك الكريم الرحيم الحكيم في مقابلة ما يأتي. فاذا فعلت هكذا، يكفي اضعف صبرك لاعظم مصيبتك .

اعلم! انه كثيراً ما يتوهم – بقصور الفهم – ما هو من منابع الحقيقة ومعادن الحق انه من مخايل المبالغة ومظان المجازفة.

مثلا: روي: (لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة، ما شرب الكافر منها جرعة ماء)(٢) او كما قال.. المراد لايساوي ما تمثّل في مرآة حياتك الفانية وسعة عمرك الزائل من هذه الدنيا الخارجية، مقدار جناح بعوضة من عالم البقاء. كما ان حبة باقية بالتنبت ترجّح على بيدر من تبن يفنى بالتفتت.. فلكل احد من هذه الدنيا التي هي مظاهر الاسماء الحسنى ومزرعة الاخرة دنياً. فان نظر الى دنياه بالمعنى الحرفي، واستعملها للباقي كانت لها قيمة عظيمة؛ والا فلفنائها لا توازي ذرة باقية، وقس عليها بعض ما ورد في ثواب بعض الاذكار مما لايجري في مقاييس العقل..

اعلم! ان مما يدل على ان دستور الحياة هو التعاون دون الجدال؛ كما توهمته الفلاسفة الضالة المضلة، عدم مقاومة التراب الصلب ولا الحجر الصلد، لسيران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة، بل يشق الحجر قلبه القاسي بتماس حرير اصابع بنات النبات، ويفتح التراب صدره المصمت لسريان رائد النباتات.

نعم، تجاوب اعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارع النباتات لامداد ارزاق الحيوانات، وتسابق مواد الاغذية لترزيق الثمرات، وتزين

(١) تفصيل هذه المسألة في الكلمة الحادية والعشرين .

(٢) رواه الترمذي ٢٤٢٢ تحفة الاحوذي وقال الترمذي : حديث صحيح غريب من هذا الوجه . والضياء في المختارة عن سهل بن سعد (انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥١٦٨ قال المحقق: صحيح وفصل عليه القول في الاحاديث الصحيحة برقم ٩٤٣).

الثمرات لجلب انظار المرتزقات، وتعاون الذرات في الامداد لغذاء حجيرات البدن؛ دليل قاطع ساطع على ان الدستور العام هو التعاون وما الجدال الا دستور جزئي بين قسم من الحيوانات الظالمة...

اعلم! ان من اظهر براهين التوحيد، السهولة المطلقة المشهودة. مع ان في الشركة يستلزم كلُّ شئ، لاسيما حي، كلَّ ما يلزم للكل. ففي كل فرد من الكلفة كلفة ما في الكون، لاستلزام الفرد في الانفراد، كل كلفة الكل، كميةً.

اعلمي! ايتها النفس الامارة! انك متهمة في احسن مطالبك. اذ قد تشتاقين الى امور الاخرة، لكن بالمعنى الحرفي، أي لئلا تتنغص الدنيا عليكِ بفنائها، فشوق الآخرة للتسلي من الم الفناء. فأُفّاً وتُفاً[1] لهمتك الدنية، كيف تُصيّر السلطان الدائمي خادماً لحقير دنيٍ زائل؟ وتعمل خاناً لسكن بعض الحيوانات في ليلة بعَمَد مرصعة بالجواهر تأخذها من تحت قصرٍ سلطاني مستمرٍ[2].. فتخربين القصر على رأسك، وتأكلين ثمرات الجنة الباقية قبل بدُوّ صلاحها في هذا البستان الكاذب.

اعلمي! ايتها النفس العاشقة لنفسها، المستندة على ظهور وجودها! انك اكتفيت بقطرة سراب[3] عن بحر ماء الحياة، وبلمعةٍ ضعيفةٍ في ليلةٍ مدلهمة عن الشمس في رابعة النهار. أما ظهور وجودك بالنسبة الى ظهور وجود فاطرك؛ فكنسبة عدد نفسك الواحدة، الى ضرب جميع الموجودات في ذراتها. اذ نفسك تدل على وجود نفسك بوجه واحد، وبمقدار جرمك.. وتدل على وجود موجِدها بوجوه لاتعد، مع دلالة كل من الموجودات على ظهور وجود موجِدك بوجوهٍ لا تعد ايضاً افراداً وتركيباً، فلابد ان يكون ظهور وجوده عندك اظهر من وجودك بدرجة اعظمية العالم على صغرك.

واما حبك لنفسك، لانها مخزن لذتك ومركز وجودك ومعدن نفعك واقرب اليك. فقد التبس عليك ظل الظليل الزائل، باصل الاصيل الكامل. فان تحب نفسَك

(١) الأف: وسخ الاذن والتف وسخ الاظفار، ثم استعمل ذلك عند كل شيء يضجر منه . قاله الاصمعي.

(٢) اي: كيف تهونين من شأن الآخرة، فتجعلينه في خدمة الدنيا .. فانك تبنين عمارة موقتة لنزول بعض الدواب – الشهوات – بما تسرقينه من اعمدة مذهّبة لقصرسلطان في الآخرة!

(٣) المقصود الحياة الدنيا كما سيأتي.

للذةٍ زائلة؛ فلابد ان تحب من يفيدك لذائذ باقية بلا نهاية، ويفيض على جميع من تلتذ بسعاداتهم لذائذ تسعدهم.

وان كانت نفسُك مركز وجودك؛ فربُّك موجدِكَ، وقيومُ وجودك مع وجودات كل من لك علاقة بوجودهم.

وان كانت نفسك معدن نفعك؛ فرازقُك هو الذي بيده الخير كله، وهو النافع الباقي، وعنده نفعُك ونفعُ كل من لك نفعٌ في نفعهم.

وان كانت نفسك اقربُ اليك؛ ففاطرها أقرب منها اليها، اذ تصل يده منها الى ما لا تصل يدُها ولا شعورُها ولا حبُها الى ذلك الشئ الذي هو في بحبوحة نفسها، فلابد ان تجتمع جميع المحبات المنقسمة على جميع الموجودات مع محبتك لنفسك فتهديها الى جناب المحبوب الحقيقي.

اعلم! ان مما يحجبك عن الله ويبقيك في الغفلة؛ انحصار نظرك الجزئي على الجزء والجزئي، فيجوزٌ صدوره بالتصادف عن الاسباب الواهية. واما اذا رفع رأسه ومد نظره الى الكل والكلي، لا يجوّز صدور ادنى شئ من اعظم الاسباب.

مثلاً: يمكنك ان تسند رزقك الجزئي الى بعض الاسباب، ثم اذا نظرت الى خلو الارض وفقرها في الشتاء، ثم امتلائها متبرجة متزينة بالارزاق التي طبختها القدرة في مراجل الاشجار وجفان الجنان، تيقنتَ انه لايمكن ان يكون رازقك الا من يرزق كل حي بإحياء الارض بعد موتها.

ومثلا: يمكنك ان تسند ضياءك الجزئي المادي، ونورك المخصوص المعنوي الى بعض الاسباب الظاهرية فتقول: ﴿**انّمَا اوتيتُهُ عَلى علمْ**﴾ (١) ثم اذا نظرت الى اتصال ضيائك بنور النهار، واتصال نور قلبك بضياء منبع الانوار، تيقنت انه لا يقتدر على اضاءة قالبك، وتنوير قلبك حقيقةً الا من يقلب الليل والنهاربتحريك السيارات والاقمار. يضلّ من يشاء من الفجار ويهدي من يشاء من الابرار بتنزيل التنزيل للاعتبار والاختبار.

---

(١) القصص: ٧٨

اعلم! ايها الانسان امامك مسائل عظيمة هائلة، تُجبر كل ذي شعور على الاهتمام بها!..

منها «الموت» الذي هو فراقك عن كل محبوباتك من الدنيا وما فيها.

ومنها «السفر» الى ابد الآباد في اهوال دهاشة.

ومنها «عجزك» الغير المعدود في «فقرك» الغير المحدود في سفرك الغير المحصور في عمر معدودٍ محدود، وهكذا.

فما بالك تناسيتَ وتعاميتَ عنها -كطير الابل - اي «النعامة» يخفي رأسه في الرمل، ويغمض عينه لئلا يراه الصياد.. الى كم تهتم بالقطرات الزائلة، ولا تبالي بالبحور الدهاشة!!.

اعلم! اني احمد الله على ان فتح لي اعاظم مسائل هذه الكائنات بمسألة من النحو، هي الفرق بين «المعنى الحرفي والاسمى»!.. اي هذه الموجودات كلماتٌ دالات على معانٍ في غيرها، اي مكتوباتٌ ربانية تاليات للاسماء الحسنى، لا اسمية حتى تدل على معنى في نفسها لذاتها.

فما تفرَّع من الوجه الاول؛ علم وايمان وحكمة. ومن الوجه الثاني؛ جهلٌ مركب، وكفران مرجَّب[1]، وفلسفة مذهَّبة.

وكذا اشكره على ان فتح لي مسألةً جسيمةً من اعاظم مسائل الربوبية بمسألة من المنطق، وهي الفرق بين الكلي ذي الجزئي، والكل ذي الجزء، فتجلي الجمال والاحدية كالاول.. وتجلي الجلال والواحدية كالثاني.. وتجلي الكمال والكبرياء جمع الجمع.. اي جمال في عين الجلال كالكلي في عين الكل، والجزئي في عين الجزء..

اعلم! ان الدنيا فهرستة الآخرة، فيها اشارات الى مسائلها المهمة، منها الذوق في الرزق الجسماني. فالذي ادرج في وجودك حواس وحسيات، وجوارح وجهازات، واعضاء وآلات لإحساس جميع انواع نعمه الجسمانية، ولاذاقة اقسام جلوات اسمائه المتجلية على الجسمانيات، في هذه الدار الزائلة الذليلة التي ليست لذيذةً ولا للذةٍ..

(١) المرجب : الذي جعل له رُجْبة وهي دعامة من الاحجار تدعم بها النخلة (مجمع الامثال ١ / ٣٢)

يشير بهذا الصُنع الحكيم، الى ان صاحب الاحساس والاذاقة(١)، اعدّ لضيوف عباده ضيافةً جسمانيةً ايضا لائقة بالابدية في قصورٍ ﴿ **تَجري مِنْ تَحْتِها الانْهَارُ خَالِدينَ فيها ابَداً** ﴾ (٢)..

اعلم!(٣) ايها السعيد العاجز الخائف! ان الخوف والمحبة اذا توجها الى الخلق، صار الخوف بليةً اليمةً.. وصارت المحبة مصيبةً منغصةً ؛ اذ تخاف من لا يرحمك او لا يسمع استرحامك. وتحب من لا يعرفك. او يحقّرك لمحبتك، او لا يرافقك، بل يفارقك على رغمك.. فاصرفهما من الدنيا وما فيها الى فاطرك الكريم وخالقك الرحيم ، ليصير خوفُك تذلّلاً لذيذا بالالتجاء الى صدر الرحمة كتلذذ الطفل بالتخوّف الذي يجبره الى الانضمام الى صدر امه الشفيقة، وتصير محبتك سعادةً ابديةً لا تزول ولا تُذلّ، لا إثم ولا ألم..

اعلم! ايها الانسان انك ثمرة او نواة لشجرة الخلقة ، فبجسمانيتك انت جزء صغير ضعيف، عاجز ذليل ، مقيّد محدود. لكن الصانع الحكيم رقاك بلطيف صُنعه من الجزء الجزئي، الى الكل الكلي.

فبادراج الحياة في جسمك اطلقك من قيد الجزئية في الجملة، بجولان جواسيس حواسك المنبسطة على عالم الشهادة لجلب اغذيتهم المعنوية.. ثم باعطاء الانسانية جعلك كالكل بالقوة (كالنواة).. ثم باحسان الاسلامية والايمان، جعلك كالكلي بالقوة .. ثم بانعام معرفته ومحبته صيّرك كالنور المحيط، فاختر ما شئت.. فان اخلدتَ الى الارض واللذائذ الجسمانية؛ صرت جزءاً جزئياً، عاجزاً، ذليلاً. وان استعملت جهازات حياتك بحساب الانسانية الكبرى التي هي الاسلامية؛ صرت كالكل الكلي والسراج المركزي ...

اعلم! يامَن يحب الموجودات الدنيوية التي لا تصل اليها الا بمقدار جرمك، ومساعدة قيدك. فتتألم بسائر الفراقات الاليمة، جزاءً لصرفك المحبة في غيرمحلها.. ان احببتَ الواحدَ الاحدَ، وتوجهتَ بحسابه وباسمه وباذنه وبنظره وبحوله، تنزهت

---

(١) اي الذي وهب هذا الاحساس والتذوق

(٢) المائدة: ١١٩

(٣) الغصن الخامس من الكلمة الرابعة والعشرين يفصل هذه الخاطرة

بالجميع معاً في آنٍ بلا فراق ولا ألم. كمثل من ينتسب لسلطان له مع كل جزء من مملكته ارتباط، يسمع ويبصر كل ما يجري في كل مكان ومن كل مكين، كأنه هو في كلٍ وعند كلٍ، فيسمع ذلك الخادم بسمعِ سيده، ويبصر ببصره بواسطة آلات المخابرة والمشاهدة؛ لذيذات النغمات وجميلات الصور، الموجودات في محلّ سلطنة بعيدةٍ..

اعلم! [١] يا من يشتاق الى معرفة اخبار امثال القمر، بحيث لو قيل لك ان افديت نصف عمرك؛ لنزل احدٌ من القمر واخبرك بان في القمر كذا وكذا، واخبرك بحقيقة استقبالك، لفديت بلا تأسف.[٢]

انه جاء احدٌ يخبرك اخبار مَن ؛ ليس القمر الا كذباب يطير حول فَراشٍ ، يطيرُ هو حول سراجٍ من قناديل سقف بيته الذي اعدّه لعبيده المسافرين .. وكذا يخبرك باخبار الازل والابد ، والحياة الابدية ، والحقائق الاساسية ، والمسائل العظيمة التي اصغرُها اعظمُ من انفلاق الارض مع القمر. فان شئت فاستمع الى سورة ﴿ **اذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ** ﴾ والى ﴿ **اذا السَّماءُ انفَطَرتْ** ﴾ وامثالها.. وكذا يريك سبيلاً سوياً الى الوحدة ، ينجيك من التشتت في ضلالات الكثرة الموحشة ، ويمد الى يدك العروة الوثقى وسلسلة عرشية تنقذ من استمسك بها من الغرق في ظلمات الممكنات المشتتة ، ويسقيك من عين الايمان بالحياة الابدية ماء الحياة ، لتخلّصك من الاحتراق بنار الفراق من جميع ما تحبه على الاطلاق.. وكذا يخبرك بمرضيات خالقك الذي؛ الشمسُ والقمرُ والنجوم مسخَّرات بأمره واستقرت الارضُ باذنه وبمطالبه منك.. وكذا صار ترجماناً لمخابرة سلطان الازل والابد الذي لا نهاية لقدرته وغَنَائه، وبمكالمته معك ايها العاجز بلا نهاية ، والفقير بلا غاية.

فمع كل ذلك كيف لا تترك نفسك لفهم هدى القرآن؟ ولا تنسَ هَوسكَ لاستماع رسول الرحمن؟ وكيف لا تستقبل رسوله بالتسليم والايمان؟ وكيف لا تشتاق الى السلام عليه بالصلاة والسلام؟ وكيف لا تحتاج الى الاستخبار منه ما يطلبه سيدُنا الحنّان ومالكنا المنّان جل جلاله؟

---

(١) تراجع الرشحة العاشرة من الكلمة التاسعة عشرة.

(٢) اذ الانسان مستعد بأن يتنازل عن نصف عمره في سبيل الوصول الى حقيقة مستقبله (ت: ١٩٦)

اعلم! اننا نرى الصانع الحكيم بكمال حكمته، وعدم العبثية في صنعه وعدم التضييع، ينسج من الاشياء الحقيرة الصغيرة القصيرة الاعمار، منسوجات جسيمة غالية عالية دائمة، لاسيما في نسج النباتات.. وكذا بسر عدم العبثية مطلقاً، وعدم الاسراف، يوظّف الفرد الواحد من الآلات والجهازات بوظائف كثيرة متنوعة، لاسيما في رأس الانسان. فلو انفرد لكل وظيفة من الوظائف المكلفة بها ما في رأسك مقدار خردلة، للزم ان يكون رأسك كجبل الطور[1] في الكبر ليسع اصحاب الوظائف. الا ترى اللسان – مع سائر وظائفه العظيمة – مفتش[2] لمدخرات خزينة الرحمان، ولجميع المطعومات المطبوخة في مطبخ القدرة، فله وظائف بعدد تنوع اذواق المطعومات، وقس. أفلا تشير هذه الفعالية الحكيمة الى ان ذلك الصانع يجوز– بل يجب – ان ينسج من الاشياء السيالة السريعة في سيل الزمان، ومن الايام الميتة والأعوام الماضية والاعصار الخالية نسائج غيبية، ومنسوجات اخروية بمكوك الليل والنهار والشمس والقمر في اختلاف الملوين[3]، وتحوّل الفصول؟ كما نسج في الانسان الذي هو فهرستة العالم ما يؤيد هذا، اذ يُبقي دقائق حياته الماضية الفانية بين منسوجات حافظته ومكتوباتها، فيكون الفناء والموت في هذه الشهادة الضيقة، انتقالا باقيا وبقاء صافيا في دوائر عوالم الغيب. وقد نسمع من منابع الوحي «ان دقائق عمر الانسان تعود اليه»؛ فاما مظلمة بالغفلات والسيئآت، وإما مضيئة بمصابيح الحسنات المعلقة في حلقات الدقائق...

اعلم! ان من حكمة تفنن الصانع الجميل الحكيم في تصوير الافراد صغيراً وكبيراً كما في الحيوان لاسيما فيما يطير بجناحَيه، وفي السمك وفي المَلَك وفي العوالم في الجملة، من الذرات الى الشموس، بجعل الصغير مثالاً مصغراً للكبير.. لطف الارشاد، وتسهيل التفكّر، وتيسير قراءة مكتوبات القدرة، واظهار كمال القدرة، وابراز نوعي الصنعة الجمالية والجلالية، اذ من اسباب المجهولية الدقة والخفاء، فيزيلهما بوضوح حروف الكبير. وكذا من اسباب المجهولية، الوسعة والعظمة، فلا يحيط بها

(١) اي: لواقتضى كل وظيفة من الوظائف التي كلف بها الانسان شيئاً مادياً في رأسه بمقدار خردلة للزم ان يكون حجم الرأس كجبل الطور (ت: ١٩٧)

(٢) بمعنى ناظر او مشرف.

(٣) اي: الليل والنهار. الواحد: ملاً.

النظر ولا يضبطها الفهم فيزيلهما بتقارب حروف الصغير. واما النفس الأمارة المتلمذة عند الشيطان فتظن صغر الجسم سبب صغر الصنعة، فتجوّز صدورها من اسباب صمٍ عُميٍ، وتدّعي في الكبير المنبسط عدم الكتابة بالحكمة، ووجود العبثية والتصادف..

اعلم![١] انه ان قيل: ان الجود المطلق والرزق بلا حساب يلائمان العبثية، وينافيان الحكمة من جهة ؟ يقال له:

نعم؛ ان انحصرت الغاية في الواحدة مع ان لكل شئ لا سيما حيّ، غايات متعددة وثمرات متنوعة ووظائف مختلفة. الا ترى ان للسانك وظائف بعدد شعر رأسك؟ فالجود باعتبارٍ غاية بلا حساب وباعتبار وظيفة لا ينافي الحكمة والعدالة في وجوده الناظر الى مجموع الغايات والوظائف، كالعسكر المستخدم في تعقيب ذى جناية او في حماية قافلة مثلاً. ففي العسكر كثرة وجود بلا حساب بالنسبة الى امثال هذه الخدمات الجزئية مع القلة والمساواة لما يلزم لحفظ الثغور والحدود وسائر الغايات..

اعلم! انه يمكن ان يُتَصَوَّرُ الانسانُ خلف أثره وصنعته الجزئية، ولا يمكن في مصنوع الصانع الازلي الا من خلف سبعين الف حجاب خلف ذلك المصنوع الجزئي. ولو امكن لك ان تنظر الى مجموع مصنوعاته دفعةً؛ لارتفعت الحجب الظلمانية، وبقيت الحجب النورانية. فالطريق الاقرب في نفسك، لا في الآفاق الاّ بالعشق السديد.

اعلم![٢] ان اغلب من له نسلٌ من الحيوانات والنباتات ينوى كلٌّ فرد — من الاغلب — الاستيلاء على وجه الارض، ويريد التسلط عليها ليتخذها مسجداً خالصاً لنفسه يَعبُد باظهار اسماء فاطره، في كل جزءٍ منها عبادةٌ غير متناهية لخالقها الذي لا نهاية للياقته للعبادة. فان شئت انظر الى البطيخ ونواتاته، والشجر والنواتات في ثمراته، والسمك وبييضاته، والطير وبيضاته، الاّ ان ضيق عالم الشهادة واحاطة علم عالم الغيب والشهادة بما كان، وبما يكون، وبما لم يكن لوكان كيف يكون.. اقتضيا قبول عباداتها بالقوة [٣]، ونياتها المندمجة في بذورها.

(١) هذه المسألة الدقيقة «حكمة تعدد الغايات» توضحها حاشية الحقيقة السادسة من «رسالة الحشر».

(٢) تفصيل هذه المسألة في التمرة الثانية من الغصن الخامس للكلمة الرابعة والعشرين.

(٣) حتى ولم تخرج بعد الى طور الفعل.

اعلم! ان ذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة الى الانسان انما هو للاخطار[١] لا للانحصار. اي لتوجيه نظره الى الدقة في فوائد نظام ذلك الشئ ذي الغاية، وفي انتظامه الدال على اسماء صانعه؛ اذ الانسان انما يهتم بما له علاقة ما به، فيرجّح ذرة ما اليه على شمس ليست اليه.. مثلا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[٢] ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ [٣] هذه غايةٌ من الوف غايات تقدير القمر، وليس المراد الانحصار، اي انماَ خُلق ذلك لهذا، بل ان هذا المشهود لكم من ثمرات ذاك.

اعلم! ان من سكته التى لا تقلّد، ومن خاتمه الذي يختص به، ومن أبهر براهين التوحيد في قدرة غير متناهية، وعلم لايتناهى في تصرف مطلق، في اتقان مطلق، في سهولة مطلقةٍ.. خلقُ اشياء مختلفات لا تعد، من شئ واحد بسيط، كالنباتات باشتاتها من التراب وكمختلفات اعضاء الحيوان دماً لحماً عظماً وغيرها من غداءٍ بسيط.. وكذا خلقُ الواحد من انواع متباينة لا تحصى كجسد الانسان – مثلا – من مطعوماته الغير المحصورة..

فسبحان من هو القدير على ان يجعل شيئاً كل شئٍ، ويجعل كل شئٍ شيئاً.

اعلم! ان في ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [٤] سر عظيم ومثل عظيم!.. اذ كما انك تحفظ من التفتت والضياع بعض البذور، وتدخرها ثم تزرعها في مزرعتك.. كذلك ان الوارث الباعث الحفيظ الذي يحي الارض بعد موتها، يكتب ثمرات اعمال جميع النباتات فيرثها حافظا لها، ثم يزرعها منشورة بحكمة توزيعٍ وانتظام تقسيم، باطارة بعض البذور الى الاطراف لا مجتمعة خلف اصلها فقط، ثم ينشر اوراقها وازهارها حتى يصير نظير: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [٥] فانظر من شدة اهتمامك حتى تقتدر على حفظ بعض البذور، الى كمال حفيظية الحفيظ المطلق في محافظة ما لا يعد من الصنيدقات اللطيفة المتضمنة لفهرستات امهاتها المعينة بمسطر القدر، من مغيّرات ومُفسدات لا تحد في انقلابات لا تعد، مع نهاية التمييز في نهاية

---

(١) للتنبيه.
(٢) يس: ٣٩
(٣) يونس: ٥
(٤) الواقعة: ٦٤
(٥) التكوير: ١٠

الاختلاط. فهذا الحفظ لا يخليك غاربك على عنقك تفعل ما تشاء ثم تموت وتستريح.. ﴿اَيَحْسَبُ الانسانُ اَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [١] كلا ليحاسبنّ على النقير والقطمير..

اعلم! ان من وظائف الحياة الانسانية؛ فهم الانسان بمقياسية جزئيات صفاته وشؤونه وشؤون ابناء نوعه او جنسه، لصفات فاطره وشؤونه. واما فهم عظائم شؤونه الحشرية والاخروية وكليات افعاله في القيامة واحياء الاموات؛ فتحتاج لفهمها بالاذعان الى جعل الفاعلية في الحشر الربيعي والقيامة الخريفية، قياساً لشؤونه في القيامة الكبرى. انظر الى الربيع لترى فيه تنظيراً – كتفسيرٍ – لأمثال: ﴿اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [٢]...

اعلم! ان من عظمة احاطة الاسلامية، امتداد اساسات جدرانها من اعلى عليي كليات صفات ذي العرش، ومسائل خلق العرش والسموات والارض وملائكتها، الى جزئيات خطرات القلب. مع امتلاء ما بينهما بدساتير محكمةٍ رصينةٍ.

بسْمِ الله الرَّحْمٰن الرَّحيْم

﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيوةُ الدّنْيَا ولا يَغُرنّكم بالله الغَرُور﴾ [٣]

اعلم! [٤] يامن يدعو المسلمين الى الحياة الدنيوية التي هي لعب في نوم ولهو، ويشوقهم للخروج من دائرة ما احلّه الله من الطيبات الكافية (لكيفهم)[٥]، الى الدخول في دائرة ما حرّمه من الخبيثات المنغّصة التي تجبرهم على ترك بعض شعائر دينهم او ترك دينهم.. ان مثلك معهم[٦] كمثل سكران بسكر لا يميز بين الاسد المفترس، والفرس المؤنس؛ ولا يفرق بين آلة الصلب، وآلة لعب الصبيان من الحبل المتحرك في الهواء؛ ولا يعرف الجرح المبرّح من الورد المفرّح، بل يظن الاسد فرساً،

---

(١) القيامة: ٣٦

(٢) التكوير: ١

(٣) لقمان: ٣٣

(٤) الدرس الثالث من رسالة «المدخل الى النور»

(٥) لمسرّاتهم البريئة المباحة شرعاً.

(٦) جاء هذا المثال بوضوح تام في الكلمة السابعة.

وآلة الصلب حبل اللعب، والجرح المقشعر الورد المحمر. ومع ذلك يظن نفسه مرشداً مصلحاً.. فجاء الى رجل هو في وضعية مدهشة؛ اذ خلف هذا الرجل اسد عجيب متهيئ للهجوم في كل آن، وقدام الرجل آلة الصلب قد نُصبت، وفي جنبيه جرحة عميقة قد انفرجت، وقرحة مزعجة قد انفجرت.. وفي يديه علاجان اذا استعملهما، انقلب باذن الله الجرحان وردين محمّرين. وفي لسانه وقلبه طلسمان اذا استعملهما انقلب بامر الله الاسدُ فرساً يركبه الى حضور سيده الكريم الذي يدعوه الى دار السلام يضيّفه. وانقلب حبلُ الفراق والصلب المتدلى من شجر الزوال والفناء بلطف الله آلةَ السير والتنزه، والمرور بالاهتزاز على المناظر السيالة المتجددة وعلى المرايا الجوالة المتبدلة، لازدياد لذة تجدد تجليات الجمال المجرد الدائم التجلي والظهور، على مر الفصول والعصور والدهور. ولازدياد اللذة في تجدد صور الانعام والنعم على مر الانام والايام والاعوام. ثم يقول ذلك السكران الذي هو ايضا في مثل تلك الوضعية لذلك الرجل: اترك الطلسمين واطرح العلاجين وتعال نلهو ونلعب ونرقص ونطرب! فيقول له الرجل: يكفي لكيفي ما يساعده حرز الطلسمين وحفظ العلاجين. ولا يمكن اللذة والسعادة في ما عداه. ان امكن لك ان تقتل اسد الموت الذي «لا يموت الا في الجنة»(١).. وان ترفع هذه الآلة المسمَّرة في الارض الى الثرى بحكم حاكم الارض، أي تزيل آلة الزوال بتبديل الارض غير الارض.. وان تشفى من هذا الجرح المستولى على كلّية حياتي، بتبديل حياتي العاجزة الفانية حياةً باقيةً قادرة على الاطلاق وان تبرئ هذه القرحة المحيطة بكلية ذاتي، بتحويل ذاتى الفقيرة ذاتاً سرمدية غنيةً على الاطلاق. واذ لم يمكن لك هذه الامور «الاربعة» لا يتيسر لك ايها الشيطان السكران ان تخدع الا مثلك سكراناً بسُكرٍ لا يميز بين الضحك والبكاء، والبقاء والفناء، والدآء والدواء، والهوى والهدى. واما انا «فحسبي الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير».. فاذا تفطنت لسر التمثيل، او اشتقت الى رؤية صورة الحقيقة..

(١) عن ابي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش املح. فينادي مناد: يا اهل الجنة، فيشرئبون وينظرون. فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي مناد: يا اهل النار، فيشرئبون وينظرون. فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول يا اهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿**واندرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون**﴾ (مريم: ٣٩) واشار بيده الى الدنيا» صحيح: رواه البخاري في تفسير هذه الاية، ورواه مسلم برقم ٢٨٤٩.

فاعلم! ان تلاميذ المدنيـة السفيهة الضالة وطلبة الفلسفة السقيـمة المضلة، قد سكروا باحتراصات عجيبة وتفرعنات غريبة، فجاؤوا يدعون المسلمين الى اتباع عادات الاجانب، وترك شعائر فيها شعور واشعار بانوار الاسلام، فيقابلهم تلامذة القرآن بـ:

يا ايها الضالون الغافلون! ان اقتدرتم ان ترفعوا من الدنيا الزوال والموت. ومن الانسان العجز والفقرَ فاستغنوا من الدين وشعائره، والاّ فاخسئوا واتركوا وسوستكم ودمدمتكم التي هي كزمزمة الذباب في ما بين نعرات هذه الرعود الاربعة ، والآيات التكوينية المنادية بأعلى صوتها على لزوم الدين بشعائره ﴿ **وَاذَا قُرِئَ الْقُرآنُ فاسْتَمِعوا لَهُ وَانْصِتوا لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ** ﴾ (١)

نعم، ان خلفي اسد الاجل يهددني دائماً، فان استمعت بسمع الايمان صدى القرآن، انقلب الاسد فرساً، والفراق براقا يوصلني الى رحمة الرحمن الرحيم والى حضور سيدى الحنان الكريم. والاّ صار الموت اسداً مفترساً يمزقني على رغمي، ويفرّقني عن جميع محبوباتي فراقاً ابدياً. وكذا بين يدي وامامي آلات الفناء والزوال، قد نُصبت وتدلت في اختلاف الليل والنهار، وآلات الهلاك والفراق قد تموجت على امواج الفصول والعصور. فهذه الآلات نصبت لصلبي مع جميع احبابي، فان اصغيت بصماخ الايقان لارشاد القرآن انقلبت تلك الآلات مركب السير والتنزه في نهر الزمان وبحر الدنيا لمشاهدة تجدد تجليات شؤونات القدرة على صفحات الفصول، بزنبرك(٢) الشمس وسير القمر ودوران الارض للتعمم(٣) بلفائف الليل والنهار، والتقمص بحلتي الصيف والشتاء. ولمشاهدة تجدد جلوات الاسماء على المظاهر السيالة والمرايا المتحولة والالواح المتبدلة في اختلاف الليل والنهار.

وكذا، ان في جنبي الايمن من الفقر الغير المحدود قرحةً مستوليةً، فمع اني اعجزُ من اعجز حيوان من جنس الحيوان، انى افقرُ من جميع الحيوانات، اي: حاجاتي المعنوية والمادية تساوي حاجات الكل، مع ان اقتداري اقل من فعالية عصفورة. فان

(١) الاعراف: ٢٠٤
(٢) المحرك، النابض
(٣) لبس العمامة.

تداويت بشـفاء القـرآن انقلب الفقـرُ المطلق الاليم، شـوقاً لذيذاً الى ضـيافـة الرحمـة، واشتهـاء لطيفاً لتناول ثمرات رحمة الرحمن الرحيم. فيزداد لذةُ الفقـر والعجز بمراتب على لذة الغنـاء والقوة. والاّ بـقيت فـي آلام ازعاجـات الحـاجـات، وفي ذل السـؤال والتعبد لكل ما عنده حاجة من مطالبي، والتذلل لكل شئ.

وفي جنبي الايسـر ايضا جرح عـميق هو عـجز وضعف بلا حـد في مقـابلة اعداء ومهالك بلا عـد. فألم الخوف يزيل لذة الحياة الدنيوية.. فـان انصتُ بالتسليم لدعوة القرآن، انقلب عـجزي تذكـرة دعوة للاستناد بالقـدير المطلق، والاتصال بسـر التوكل بنقطة استناد فيها امن وامان من الاعداء. والاّ بقيتُ مضطرباً بين اعداء متشاكسين لا تعد بعجز لا يحد.

وكذا انّي على جناح سفـر طويل، يمر على القبر والحشـر الى الابد، فلا يرينا العلم والعقل نوراً ينوّر ظلمـات تلك الطريق، ولا يعطينا رزقاً يصير زاد ذلك السـفر؛ إلاّ ما يُقتبس من شمس القرآن ويؤخذ من خزينة الرحمن. فان وجدت شيئاً يمنعني عن هذا السفر، لكن غيـر قطعْ الطريق بالضلالة التي هي قبول السقوط مـن فم القبر في دهشة ظلمـات العدم الـذي هو اهول وادهش، فقل.. وإلاّ فـاسكت حتى يقـول القرآن مـا يقول. فبعدمـا قرأتْ هذه الآياتُ الخمسة(١) من كتاب العالم على رأس الانسان آية ﴿ **فَلاَ تَغُرنَّكُمْ الحَيوةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرنَّكُمْ بِالله الغَرورُ** ﴾ (٢) كيف يجوز اتباعك ايها الغر المغـرور؟ ولا يختـار مشربك الا سكران بشـراب السيـاسة، او حـرص الشـهرة، او شهوة السمعة، او رقة الجنسية، او زندقـة الفلسفة، أو سفاهة المدنية وغيرها مما يسكر بمثله.. مع ان هذه الضربـات القارعة على رأس الانسـان، وهذه الاهوال التي تضرب وجـه البشـر سيطيّر سـكره. ومع ذلك ان الانسان ليس كـالحيوان مـبتلىً بآلام الحـال فقط، بل يضرب رأسه خوفُ المستقبل وحزنُ الماضي مع ألم الحال.

فان اردت ان لا تبـقى اشقى واذل واحـمق واضل من جمـيع الحيوانـات؛ فانصت واستمع بسمع الايمان بشارة القرآن باعلان: ﴿ **اَلاَ اِنَّ اوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ۞ الذّينَ امَنوا وكَانُوا يَتـقُـون ۞ لَهُمُ البُشْرى في الحَيـاة الدّنيَا وفي الآخِرةِ لاَ تَبْديلَ لِكَلماتِ الله ذلِكَ هو الفَوْزُ العَظِيمُ** ﴾(٣).

(١) وهي: زوال الدنيا، موت الانسان، عجزه وفقره وسفره الطويل.

(٢) لقمان: ٣٣

(٣) يونس: ٦٢–٦٤

بسْمِ الله الرَّحْمٰـن الرَّحِيْم

﴿ والتّين وَالزيتون ❀ وَطور سينينَ ❀ وَهَذا البَلَد الامين ❀ لَقَد خلقنا الانْسانَ في احْسَنِ تَقْوِيم ❀ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ اسفَلَ سَافِلِينَ ❀ الاَّ الَّذينَ امَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ اجْرٌ غَيرُ مَمنون ﴾ [١].

اعلم [٢] ان إتقان الصنعة وكمالها في كل شئ يدل على ان صانع الكل كما انه عند كلٍ في كل مكان ليس في مكان وليس عند شئ .

وان الانسان لإحتياجه الى كل شئ من اصغر جزء جزئي الى اكبر كل كلّي، لا يليق ان يَعبُد الاّ مَن « بيده ملكوت كل شئ وعنده خزائن كل شئ » .

وان نفس الانسان من جهة الوجود والايجاد والخير والفعل في غاية الصغر والقصور والنقص، ادنى من النمل والنحل واضعف من العنكبوت والبعوضة. ومن جهة العدم والتخريب والشر والانفعال، اعظم من السموات والارض والجبال. مثلا: اذا احسن، احسن بما تسعه ذات يده وتصل اليه قوة ذاته. واذا اساء، اساء بما يتعدى وينتشر.

فبسيئة الكفر يحقّر مجموعَ الكائنات والموجودات بتنزيل قيمتها من اوج كونها مكتوبات ربّانية ومرايا إلهية الى حضيضِ صيرورتها مواد متغيرة سريعة الزوال والفراق، يلعب بها التصادف بالعبثية.. ويُسقط الانسان الذي هو قصيدة منظومة موزونة معلنة لجلوات الاسماء القدسية، ونواةٌ لشجرة باقية، وخليفة تفوق على اعاظم الموجودات بحمل الامانة، الى دركة جعله اذلَّ من اذلّ حيوان زائل فان، واضعف واعجز وافقر.

وكذا ان الانسان من جهة «أنا» له اختيار كشعرة، واقتدار كذرة، وحياة كشعلة، وعمر كدقيقة، وموجودية هي جزء جزئي مما لا يعد من انواع لاتحد في طبقات الكائنات.. ولكن من جهة عجزه وفقره له وسعة عظيمة اذ له عجز عظيم بلا نهاية، وفقر جسيم بلا غاية، يتيسر له ان يصير مرآة واسعة لتجليات القدير بلا نهاية والغني بلا غاية.

---

(١) التين

(٢) الدرس التاسع من «المدخل الى النور» وتوضيحه في الكلمة الثالثة والعشرين .

وكذا ان الانسان من جهة الحياة الدنيوية المادية الحيوانية كنواة، تصرف الجهازات المعطاة لها للتسنبل والتشجر في وسعة عالم الفضاء الى جلب موادٍّ واهيةٍ في مضيق التراب الى ان تتفسخ بلا فائدة.. فمن جهة الحياة المعنوية كشجرة باقية امتدت اغصانُ آمالها الى الابد.

وكذا ان الانسان من جهة الفعل والسعى المادي حيوان ضعيف عاجز، له دائرة ضيقة نصف قطرها مَدٌّ يده.. ومن جهة الانفعال والدعاء والسؤال؛ ضيف عزيز للرحمن الذي فتح له خزائن رحمته وسخرله بدائع صنعته، له دائرة عظيمة نصف قطرها مدٌّ نَظَرِهِ بل خياله بل اوسع.

وكذا ان الانسان من جهة لذة الحياة الحيوانية وكمالها وسلامتها ومتانتها ادنى من العصفور بمائة درجة لتنغُّص لذاته باحزان الماضي ومخاوف الاستقبال.. ومن جهة الجهازات وتفصّل الحواس وتنوع الحسيات وانبساط الآلات وتكثّر مراتب الاستعدادات — المشيرة هذه الحالة — الى ان وظيفته الاصلية هي: الشهود لتسبيحات الموجودات، والشهادة عليها، والتفتش بالتفكر والنظارة بالعبرة، والدعاء للحاجة، والعبودية بدرك العجز والفقر والقصور.. ومن وجه جامعية استعداده المستعد لانواع العبادات اعلى من اعلى عصفور بمائة مراتب . فبالبداهة يعلم من له عقل ؛ انّه ما أُعطي له هذه الجهازات لهذه الحياة ، بل لحياة باقية.. مثلاً: اذا رأينا احداً اعطى لأحد خدمه عشرة دنانير ليشتري لنفسه لباساً من قماش مخصوص، فاشترى من اعلاه. ثم أعطى لآخر الف دينار للاشتراء. نعلم يقيناً ان هذا ليس لاشتراء لباس من ذلك القماش الذي ما قيمة اعلاه، الا عشرة دنانير، بل انما اعطي لما هو اغلى واعلى بمائة مراتب. فاذا اشترى لبلاهته بالالف لباساً من ذلك مع ان ما اشتراه ادنى بمائة درجة من لباس الاول، لابد أن يعاقَب عقاباً مديداً ويؤدب تأديباً شديداً.

وكذا ان الانسان بقوة ضعفه ، وقدرة عجزه اقوى واقدر بمراتبَ، اذ يُسخّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقتدر على عُشر معشاره باقتداره. فهو كالصبي يصل ببكائه الى ما لا يصل اليه بالوف اضعاف قوته. فيتفوق بالتسخير لا بالغلبة والغصب والجلب. فعليه ان يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرع والعبودية.

وكذا ان الانسان من جهة نظاريته لمحاسن كمالات سلطنة الربوبية، ودلاليته لبدائع جلوات الاسماء القدسية وفهمه بطعمه لمدخرات خزائن الرحمة، وعلمه بوزنه لجواهر كنوز الاسماء المتجلية، وتفكره بمطالعته لمكتوبات قلم القدرة، وشوقه برؤيته للطائف المصنوعات.. اشرفُ المخلوقات وخليفة الارض.

بسْمِ اللّٰه الرَّحْمٰـن الرَّحِيْم

﴿ يَا اَيُّهَا النَّاسُ انْتُمُ الفُقَرآءُ الى الله ﴾ (١)

﴿ فَفِرّوُا الى الله ﴾ (٢)

اعلم ! ايها السعيد القاصر العاجز الفقير! ان في نفسك قصوراً بلا نهاية، وعجزاً بلا غاية، وفقراً بلا انتهاء، واحتياجاً بلا حد، وآمالاً بلا عدّ. فكما أُودع فيك الجوعُ والعطش لمعرفة لذة نعمته تعالى، كذلك رُكّبْتَ من القصور والفقر والعجز والاحتياج لتنظر بمرصاد قصورك الى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرك الى درجات غناه ورحمته، وبميزان عجزك الى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجك الى انواع نِعَمه واحسانه.

فغاية فطرتك هي العبودية. والعبودية؛ ان تعلن عند باب رحمته:

قصورَك بـ« استغفر الله » وبـ « سبحان الله »..

وفقرَك بـ « حسبنا لله » وبـ« الحمد لله » وبالسؤال..

وعجزَك بـ « لاحول ولا قوة الابالله » و بـ « لله اكبر » وبالاستمداد..

فتُظهر بمرآة عبوديتك جمال ربوبيته.

---

(١) فاطر: ١٥

(٢) الذاريات: ٥٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

﴿ انَّ الاَبْرارَ لَفي نَعيمٍ ۞ وَانَّ الْفُجَّارَ لَفي جَحيمٍ ﴾ [١].

اعلم ![٢] ايها السعيد الغافل!. ان لكل احدٍ في سفر حياته طريقين الى القبر، والطريقان متساويان في القصر والطول.

لكن احدهما؛ مع انه لا ضرر فيه، فيه منفعة عظيمة بشهادات اهل الشهود المتواترين واجماعهم. يصل الى تلك المنفعة العظيمة من عشرة سالكيه تسعةٌ.

والآخر؛ فمع انه لا نفع فيه بالاتفاق، فيه ضرر عظيم باجماع اهل الخبرة والشهود. فاحتمال الضرر من العشرة تسعة، الا ان من يسلك في هذا لا يحمل سلاحاً ولا زاداً فيخف في الظاهر ويخلص من ثقل مَنّ، لكن يحمل على ظهر قلبه مائة مَنٍ من المنة ويثقل على عاتق روحه احمال الاهوال والمخاوف. ولان التمثيل يريك المعقول محسوساً، نمثل لهذه الحقيقة مثالاً :

مثلاً : تريد ان تذهب الى استانبول، أو تُرسَل اليه، ومن مكانك اليه طريقان؛ يميناً وشمالاً متساويان قصراً وطولاً، متخالفان نفعاً وضراً خفةً وكلفةً. ففي جانب اليمين نفع عظيم باجماع اهل الشهود والاختصاص بلا ضررٍ وبالاتفاق.. وحمل سلاح ومزود زاد بمقدار مَنّ، مع خلاص الروح والقلب من ثقلة حمل المنّة والخشية اللتين هما في ثقلة الجبال.. وفي اليسار ضرر بشهادات ملايين من اهل الخبرة والشهود وبلا نفع باتفاق الموافقين والمخالفين، مع خفة الظاهر في طرح السلاح الصارم اللازم وترك الزاد الالذّ الالزم. لكن حمل[٣] على عاتق روحه بدل (قيتي)[٤] السلاح قناطير الخوف، وعلى ظهر قلبه بدل اربع (حقات)[٥] الزاد مائة منٍ من المِنّة. اذ قد يخبر الشاهدون الصادقون: ان الذاهبين بيمن الايمان في اليمين في امنٍ وامان في مدة سيرهم، واذا وصلوا الى البلد حصل لتسعةٍ من العشرة

---

(١) الانفطار: ١٣-١٤

(٢) الدرس الرابع من «المدخل الى النور» وفي الكلمة الثالثة توضيح واف.

(٣) اي السالك قد حمل على عاتق ...

(٤) مقياس للوزن يساوي (١٢٨٢ غم) .

(٥) او اوقية: مقياس للوزن القديم.

نفع عظيم وربح جسيم. وان الماشين بشؤم الضلالة والبطالة والبلاهة في اليسار، لهم في مدة سيرهم اضطراب عظيم من الخوف والجوع، يتنزّل الماشي لكل شئٍ لخوفه في ضعفه في عجزه، ويتذلّل لكلِ شئٍ لاحتياجه في فقره. واذا وصلوا الى البلد يُحبَسون اويقتلون لا ينجو الا واحد او اثنان. فمن له ادنى عقلٍ لا يرجح ما فيه احتمال الضرر، على ما لا ضرر فيه لأجل خفةٍ قليلة. فكيف يرجح ما فيه اعظم الضرر من المائة بتسعة وتسعين احتمالاً، على ما فيه اَعظم النفع بتسعة وتسعين احتمالاً لاجل خفة جزئية في الصورة، مع ثقلةٍ كليةٍ في الحقيقة؟

اما المسافر فانت. واما استانبول فعالم البرزخ والآخرة. واما الطريق الايمن فطريق القرآن الآمر بالصلاة بعد الايمان. واما الطريق الايسر فطريق اهل الفسق والطغيان. واما اهل الخبرة والشهود فالاولياء المشاهدون؛ اذ ذو الولاية ذو ذوق شهودي في الحقائق الاسلامية، فما يعتقده العامي قد يشاهده الولي. واما السلاح والزاد ففي ضمن التكليف المتضمن للعبودية المتضمنة للصلاة المتضمنة لكلمة التوحيد المتضمنة لنقطتي الاستناد والاستمداد المتضمنتين للتوكل على القدير الحفيظ العليم وعلى الغني الكريم الرحيم.. فخلص من التنزل والتذلل لكل شئ له فيه جهة ضرٍّ او نفع. اذ «لا اِلهَ اِلاّ الله» يفيد ان لا نافع ولا ضار الا هو ولا نفع ولا ضرَّ الا باذنه.

بسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْم

﴿ وما هذه الحَيَاةُ الدُّنيَا اِلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وَاِنَّ الدَّار الآخِرةَ لَهِيَ الحَيَوانُ ﴾ [١]

اعلم![٢] ايها السعيد المسافر الى الشيب، الى القبر، الى الحشر، الى الابد!. ان ما اعطاك مالكك من العمر لتحصيل لوازمات الحياتين بقدر الطول والقصر، قد ضيعتَه كله في هذه الحياة الفانية التي هي كقطرة سرابٍ بالنسبة الى البحر، فان كان لك عقل فاصرف نصفه او ثلثه لا اقل عُشره للباقية، ومن العجائب ان يقال لمثلك من احمق الناس هو: عاقل ذو فنون.

---

(١) العنكبوت: ٦٤

(٢) الدرس الخامس من «المدخل الى النور» والكلمة الرابعة تكشف دقائق هذا المثال.

مـثـلاً: هل ترى احـمقَ من عـبدٍ اعطاه سيـده اربعـة وعـشـرينَ ديناراً وارسله من «بوردور»، الى «انطالية»(١)، الى «الشام»، الى «المدينة»، الى «اليمن». وامره ان يصرف تـلك الدنانير في لوازمـات سفـره ، لكن الى «انطالية»، يمشي راجـلاً له نوع اختيـارٍ، لو لم يصـرف شيْئاً لوصـل ايضاً. ومنهـا الى سـائر منازله لا اخـتيـار له، ان اشترى وثيقةً لركب سـفينةً او (شمندوفراً)(٢) او طيارةً وقطع مسـافة شهرٍ في يومٍ. والا لذهب مـاشـيـاً طريداً تائهـاً وحـيـداً . مع ان ذلك السـائح الابلـه صـرف ثلاثة وعشرين ديناراً في مسافة يومين!

فقيل له : فلا اقل فاصرف الواحد لزاد السفر الطويل يمكن ان يرحمك سيدك.

فقال : لا اصرف لاحتمال عدمِ الفائدة.

فقيل له: فيـا للعجب لبلاهتك الى هذه الدرجة!.. كيف يفـتيك عقلك ان ترمي نصفَ مالك في قـمار (البـيانكو)(٣) وهو ثمـانية واربعـون ديناراً، مع اشتـراك الف انسانٍ برجـاء الظفر بألف دينارٍ، باحتـمال واحد من الف احـتمالٍ. فكيف لا يفـتيك هذا العـقل بان تعطي جزءً واحـداً من اربعة وعـشرين جـزء من مالك لتظفـر بكنوزٍ لا نفـاد لهـا بتـسـعمـائة وتسـعـة وتسعين احـتـمـالاً بشهـادات مـلايين من اهل الخبـرة والاختصاص. مع انه يُهتم في مثل هذه المنفعة الجسيمة باخـبار واحدٍ عامي، فكيف باخبارات شمـوس البشر ونجومه المتواترين واهل الشهـود الذين يرجّح اثنان من مثبتى اهل الشـهود على الـوف النافين المنكرين، كـما يرجح شـاهدان لهـلال رمضـان على الوف المنكرين لرؤيته.

امـا العبـد المسـافر فـانت. وامـا «بوردور» فدنيـاك. وامـا «انطاليه» فـالقبر. وامـا «الشام» فـالبرزخ. وامـا «اليمن» فمـا بعد الحشر. واما الدنانيـر الاربعة والعـشرون، فـاربع وعشـرون ساعـة في عمـر اليوم، تصـرف ثلاثاً وعـشرين سـاعةً لمصـالح الحيـاة الفـانية؛ وتتـهاون في صـرف ساعـةٍ واحدةٍ في اداء خـمس صلوات التي هي من ألزم الزاد في السفر الطويل !

---

(١) اسماء مدن تقع جنوبي تركيا

(٢) القطار

(٣) اليانصيب.

هذا التمثيل لبيان سر من اسرار الآية الكريمة:

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتقين ۞ وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِلْغاوينَ﴾[١]

اعلم ![٢] ياايها الغافل التارك للدين في طلب الدنيا! احكي لك حكاية تمثيليةً، فيها مثال قسم من حقائق الدنيا والدين.

كان فيما غبر من الزمان أخوان ، فذهبا الى ان انقسم الطريق طريقين: في احداهما كلفة اتباع القوانين، وفي الاخرى لا كلفة في الظاهر.. فذو الخلق الحسن اختار جانب اليمين مع الكلفة الخفيفة. وذو الخلق السيئ اختار جانب اليسار مع الخفة الثقيلة، فذهب ذو الشمال فيما بين القفار الى ان دخل صحراء خالية فسمع صوتاً هائلاً، فرأى اسداً مدهشاً يهجم عليه، ففر الى ان صادف بئراً عميقاً بستين ذراعاً، فرمى نفسه فيه ، فسقط ثلاثين ذراعاً فوصل يده الى شجرة في جداره، ولها عرقان ؛ قد تسلطت عليهما فارتان بيضاء وسوداء تقطعان العرقين. فنظر فيما تحته فرآى ثعباناً عظيماً ورفع رأسه الى قرب رجله، وسعة فمه كفم البئر. ونظر في جوانبه فرآى حشرات مضرّة مؤذيةً. فنظر الى الشجرة فرآها شجرة التين، لكن اثمرت انواعاً متباينةً من ثمرات الاشجار المختلفة، فبينما ضجت لطائفهُ من دهشة الوضعية، اذ تجاهلت نفسهُ بالتغافل مع انينات لطائفه، فحسب بالمغالطة انه في بستان، فبسر حديث (انا عند ظن عبدي بي)[٣] هكذا ظن، فهكذا عومل. فبقى ابداً بين هذه الاهوال لا يموت ولا يحيى. فهذا المسكين بسوء فهمه لم يتفطن انه لا يمكن التصادف في هذه الامور المطلسمة.

فلنرجع ونترك هذا المشؤوم في عذابه؛ ولنذهب خلف الاخ الميمون المتيامن. فهذا يذهب مستأنساً بحسن ظنه الناشئ من حسن سيرته. انظر كيف استفاد بحسن نَظره مما لم يستفد منه اخوه، اذ صادف في طريقه بستانا فيه اثمار وازهار، مع مستقذرات وميتات. فتنزَّه بالمستحسنات ولم يلتفت الى الملوثات كأخيه. ثم ذهب حتى دخل

---

(١) الشعراء: ٩٠، ٩١

(٢) البحث خلاصة الكلمة الثامنة والدرس الثاني من «المدخل الى النور».

(٣) رواه البخارى ومسلم ٢٦٧٥ والترمذى ٣٥٣٨ (تحقيق احمد شاكر) وفي صحيح الجامع الصغير ٤١٩١، ٤١٩٢

في صحراء خالية فسمع صوت الاسد الهاجم، فخاف لكن لا بدرجة اخيه، باحتمال ان الاسد مأمور سلطان الصحراء، ففر فصادف بئراً بستين ذراعاً فطرح نفسه فيه، فتعلق في نصفه بشجرة لها عرقان، تسلطت عليهما فأرتان تقطعانهما، فنظر فوقه فرأى الاسد؛ ونظر تحته فرأى ثعبانا عظيماً فمه كفم البئر تقرُب الى رجليه، فتدهش من الخوف لكن ادنى بمراتب من دهشة اخيه. لانه تفطّن بحُسن ظنه وفهمه من تناظر هذه الامور العجيبة ان فيه طلسماً، وانها تحت امر حاكم ناظر اليه يجرّبه. فتولد من خوفه (مرق) معرفةَ مَن هو الذى يتعرّف اليّ ويسوقنى الى امرٍ من عنده. فتولد من (مرقه) محبة صاحب الطلسم. فنظر الى رأس الشجرة فاذا هي تينة اثمرت اثماراً متباينةً فزال خوفه بالكلية، وتيقن انه تحت حكم طلسم، اذ لا يمكن ان تثمر التينة ثمرات سائر الاشجار. فما هي الا اشارات الى الوان الاطعمة التي اعدها ذلك الملك الكريم لضيوفه. فتولد من محبته له طلب ما يفتح به الطلسم ويرضى به الطلسم، فأُلهِمَ المفتاح، فنادى: تركت الكل لك، وتوكلتُ عليك! فانشق الجدار، فانفتح بابٌ الى جنانٍ نزيهة. فرأى الاسد والثعبان انقلبا خادمين يدعوانه الى الدخول..

فانظر الى تفاوت حال الاخوين: ذاك ينتظر الدخول في فم الحية، وهذا يُدعى الى الدخول في باب البستان المنور المزهر المثمر.. وذاك في دهشة اليمة وخوف يتفطر منه اعماق قلبه، وهذا في عبرة لذيذة وخوف تتقطر منه محبة وحرمة ومعرفة.. وذاك في وحشةٍ ويأسٍ ويُتمٍ، وهذا في انسيةٍ ورجاء واشتياق.. وذاك في هدف تهاجم الاعداء الموحشة، وهذا ضيف يستأنس بخدام المضيف.. وذاك يعجل عذابه باكل الثمرات اللذيذة التي أُذن في طعمها لاشتراء ما هي من انموذجها لا الى اكلها، اذ في بعضها سم. وهذا يؤجل الاكل ويلتذ بالانتظار..

فاذا تفهمت دقائق التمثيل فاعرف اوجه التطبيق: اما الاخَوَان فالروح المؤمن والكافر، والقلب الصالح والفاسق. واما الطريقان فطريق القرآن والايمان، وطريق العصيان والطغيان. واما الصحراء فالدنيا. واما الاسد فالموت. واما البئر فالبدن والحياة، واوسط العمر ستون. واما الشجر فالعمر. واما الفأرتان البيضاء والسوداء فالنهار والليل. واما الثعبان فالبرزخ الذى فمه القبر.. واما الحشرات المضرة

فالمصيبات.. واما الثمرات فالنعم الدنيوية المشابهة المذكرات لثمرات الجنة.. واما المسمومة منها فالمحرمات. واما الطلسم فسر حكمة الخلقة.. واما المفتاح فـ ﴿الله لا الَهَ الاّ هُوَ الحَيُّ القَيومُ﴾ [1] اي – يا الله انت معبودي ورضاك مطلوبي – و«لا إله الا الله». واما تبدل فم الثعبان بباب البستان ؛ فلأن القبر لاهل القرآن والايمان باب الى رحمة الرحمن في دهليز الجنان. ولاهل الضلالة والطغيان باب الى ظلمات الوحشة والنسيان في برزخ كالزندان[2] كبطن الثعبان. واما تبدل الاسد المفترس فرساً مونساً؛ فلأن الموت للضال فراق ابدى عن جميع محبوباته، واخراجٌ له من جنته الكاذبة الدنيوية الى زندان القبر في الانفراد. واما للهادي فوصال الى احبابه، ووصول الى اوطانه، وخروج من زندان الدنيا الى بستان الجنان لأخذ اجرة الخدمة من فضل الحنّان، المنّان الديّان الرّحمن. جل جلاله ولا اله الا هو.

اعلم![3] ايها السعيد المغرور المفتخر بما لم تفعل! انه لا حق لك في الفخر والغرور؛ اذ ليس منك في نفسك الا القصور والشر. وان كان خيراً فهو جزئي كجزئك الاختياري، لكن بجزئك الاختياري تفعل شراًّ كلياً، اذ بقصورك تُسقط ثمرات سائر الاسباب المتوجهه الى مقصودك. فتستحق خسارة كليةً وخجالةً عامةً، لكن عكست القضية فتفرعنت..

مثلك في هذا، كمثل مغرورٍ احمق صار شريكاً لجماعةٍ في التجارة بسفينةٍ، ففعل كل واحد وظيفته، فترك هو وظيفته التى بها تتحرك السفينة حتى غرقت فخسروا الف دينارٍ، فقيل له: الحق ان كل الخسارة عليك، فقال: لا، بل تنقسم علينا فعليّ بمقدار حصتي. ثم في سفر آخر، فعل كما فعلوا فربحوا الف دينار ؛ فقيل له : فليقسم الربح على رأس المال، فقال: لا، بل كل الربح لي، اذ قلتم اولاً كل الخسارة عليك ، فاذاً كل الربح لي. فقيل له: ايها الجاهل! «الوجود» يتوقف على وجود كل اجزاء الموجود والشرائط فثمرة الوجود تُعطى للكل، والربح وجود. واما الخسارة فثمرة العدم مع ان الكل ينعدم بعدم جزء واحد وبفقد شرطٍ.

---

(١) البقرة: ٢٥٥

(٢) السجن.

(٣) الدرس السادس من «المدخل الى النور».

فيا ايها السعيد اسما، والشقي جسماً! تُرجع ثمرة العدم على من صار سبباً للعدم، فلا حق لك في الفخر والغرور.

اما اولاً: فلأن الشر منك والخير من ربك.

واما ثانياً: فلأن شرَّك كلي وخيرَك جزئي.

واما ثالثا: فلانك اخذتَ اجرة عملك الخير قبل العمل، بل لا تساوي جميعُ حسناتك لعُشر معشار عشير ما أنعم عليك مَن جعلك انساناً مسلماً. ومن هذا السر تكون الجنة من محض الفضل، وتكون جهنم عين العدل؛ اذ قد يعمل البشر بشرّه الجزئي الآني جنايةً كليةً دائمةً.

واما رابعاً: فلان الخير انما يكون خيراً؛ ان كان لله. فاذا كان له، فالتوفيق منه، فالمنة له.. فالحقُ «الشكرُ» لا «الفخر» بالاراءة والرياء الذي يصير الخير شراً.. فمن جهلك بهذه الحقيقة صرت مغروراً في نفسك، غروراً لغيرك.. فتسند حسنات الجماعة اليه فيتفرعن في نظرك، بل تقسم مال الله وفعله على الطواغيت.

وكذا من هذا الجهل اسنادك سيئاتك التي هي – منك بالنص – الى القدَرَ فراراً من المسؤولية، وتملّكك للحسنات التي هي من فيض فضل فاطرك – بالنص– الى نفسك، لتُحمد بما لم تفعل.. فتأدب بادب القرآن ﴿ **مَا اصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾ (١) فالتزم مالك، ولا تغصب ما ليس لك.. وكذا تأدب بآداب القرآن؛ بجعل جزاء السيئة مثلها.. والحسنة عشر امثالها.. فلا تعدّى عداوتك من المسئ بصفةٍ الى اقاربه والى سائر صفاته.. وتجاوز بمحبتك من المحسن الى انسابه مع الصفح عن عيوبه(٢).

اعلم!(٣) ايها السعيد الغافل الفضولي!. انك تترك وظيفتك، وتشتغل بوظيفة ربك. فمن ظلمك وجهلك؛ تركك لوظيفة العبودية الخفيفة التي هي في وسعتك.. وحملك على ظهرك ورأسك وقلبك الضعيف، وظيفة الربوبية التى تختص بمن

---

(١) النساء: ٧٩

(٢) هذه المعاني مفصّلة في رسالة «الاخوة»

(٣) الكلمة الخامسة والدرس السابع من «المدخل الى النور».

﴿ خَلَقَكَ فَسَوّيكَ فَعَدَلَكَ ۝ في اَيّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكّبَكَ ﴾ (١) فالتزم وظيفتك، وفوّض اليه وظيفته لتسعد وتستريح.. وإلاّ صرت عاصياً شقياً وخائناً غوياً. مثلك(٢) كمثل نفر عسكر له وظيفة اصلية هي التعليم المخصوص، والحرب والجهاد، والسلطان مُعيّنه في هذه الوظيفة باحضار لوازماتها، ولسلطانه وظيفة مخصوصة هي اعطاء ارزاق ذلك النفر وتعييناته ولباسه حتى دوائه.. لكن قد يستخدم النفر في وسائل هذه الوظيفة، لكن بحساب الدولة.

ومن هذا السر اذا قلت لنفر يطبخ طعامه: ماتفعل؟ يقول: افعل سخرةً (وعنقرةً)(٣) للدولة، ولا يقول اعمل لرزقي.. لعلمه انه ليس من وظيفته، بل على الدولة حتى ان تدخل اللقمة في فمه، ان لم يقتدر بالمرض مثلا. فالنفر المشتغل بالتجارة لتدارك رزقه جاهلٌ شقيٌ يُزيَّف(٤) ويؤدّب.. والتارك للتعليم والجهاد خائن عصيٌ يُضرَب ويُعنَّف.

فيا سعيد الشقي! انت ذلك النفر، وصلاتك هي تعليماتك. وتقواك – بترك الكبائر ومجاهدتك مع النفس والشيطان – هي حربك. فهذه هي غاية فطرتك لكن الله هو الموفق المعين. واما رزقك وادامة حياتك وما يتعلق بك من الاموال والاولاد، فهي من وظيفة فاطرك، لكنه قد يستخدمك في وسائل قرع ابواب خزائن رحمته بالسؤال الفعلي او الحالى او القالى، وقد يستعملك في الذهاب في المسالك التى توصلك الى مطابخ نعمته، فتطلب بلسان الاستعداد او الاحتياج او الفعل او الحال او القال ماعيّن وَقَدّرلك. . فما اجهلك في اتهامك – في حق رزقك – من رزقك اطيب الرزق، وانت طفل صغير بلا اختيار ولا اقتدار ويرزق كل دآبة لا تحمل رزقها وَهُو السميع العليم القدير الغني الذي جعل الارض في الصيف مطبخةً لضيوفه يفيض فيوضه في ظروف الرياض، ويملأ أواني الاشجار بلذيذات الاطعمة.. فاعمل بحسابه وباسمه وباذنه فيما استعملك فيه بعد ايفاء وظيفتك الاصلية.. فاذا تعارضا فعليك بوظيفتك فتوكل عليه، وقُلْ: حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكيلُ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصير.

(١) الانفطار: ٧، ٨
(٢) هذا المثال موضح في «الكلمة الثانية»
(٣) كلمة مستعملة بالتركية اصلها يوناني ، وهي تعني العمل مجاناً من دون رغبة ولا اجرة.
(٤) بمعنى : يهان ويحقر.

بسمِ اللّٰه الرحمٰـن الرحيم

﴿ وَاِذا سَاَلَكَ عِبادي عَني فَانّي قَريبٌ اُجيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ اِذا دَعَانِ ﴾ (١)

وكذا ﴿ اُدْعُوني اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢)

وكذا ﴿ قلْ مَا يَعْبَؤا بِكُمْ رَبّي لَوْلا دُعاؤكُم ﴾ (٣)

اعلم ا(٤) يامن يدّعي انه يدعو ولا يجاب! ان الدعاء عبادة. وثمرة العبادة في الآخرة. واما المقاصد الدنيوية فاوقات تلك الادعية التي هي عبادات مخصوصة.

فكمـا ان الغروب وقـتُ صـلاة المغـرب، والخسـوف والكسوف وقـتُ صـلاة الكسوفين لا غايةٌ لهما، وانقطاعَ المطر وقتُ صلاة الاستسقاء، لا ان الصلاة وضعت لنزول المطـر، بل هي عبـادة لوجـه اللّه تدوم مـادام لم يـنزل، واذا نزل المطر انقـضى وقتها..

وكذا، تسلط الظالمين ونزول البلايا اوقاتٌ لأدعيـة مخصوصة تدوم مادامت هي، فـان رُفعت بهـا فنورٌ على نور. وان لم تُرفع لا يـقال لـم يقبـل الدعـاء، بل لم ينقض وقت الدعاء.

واما وعـد الاجـابة في ﴿ اُدْعُونـي اَسْتَجِب لَكُمْ ﴾ فالاجـابة غير قبـول الدعاء بعينها. بل الجواب دائمي، واسعاف الحاجة تابع لحكمة المجيب.

مثلا: تقول لطبيبك: ياحكيم! فيقول: لبـيك مجيبا.. فتقول: اعطني هذا الطعام او الدواء. فقد يعطيك عين ما طلبت او احسن منه، وقد يمنعك بضرورة في مرضك. ومن اسباب عـدم قبول الدعاء ظن كون الدعـاء لهذه المقاصد الدنيـوية. مثلا : يُظن صلاة الاستسقاء موضوعة للمطر فلا تكون خالصة فلا تُقبل.

اعلم ! ان بالانقلاب ينفرج وادٍ معنويّ بين الطرفين، فـلابد من جسر ممدود فيه مناسبـة بين العالمين ليـمرَّ عليـه بالتعـريّ والتلبس من هذا العالم الى ذلك العـالم. لكن

(١) البقرة: ١٨٦

(٢) غافر: ٦٠

(٣) الفرقان: ٧٧

(٤) الدرس الثامن من «المدخل الى النور» وموضح في الكلمة الثالثة والعشرين.

الجسر له اشكال متخالفة، وماهيات متباينة واسماء متنوعة باعتبار اجناس الانقلابات وبُعد مقام المنقلب اليه عن نوع المنقلب. فالنوم جسر بين عالم اليقظة والمثال. والبرزخ جسر بين الدنيا والآخرة. والمثال جسر بين العالم الجسماني والروحاني. والربيع جسر بين الشتاء والصيف. واما في الحشر فليس فيه واحد، بل تندمج فيه انقلابات كثيرة عظيمة فجسرها اعجب واعوج واغرب!.

اعلم! ان في اكثار ذكر القرآن لمآل ﴿**اليْه مَرْجعُكُمْ**﴾[1] ﴿**وَالَيْه تُرْجَعُونَ**﴾[2]، ﴿**وَالَيْهِ الْمَصيرُ**﴾[3] ﴿**واليه مآب**﴾[4] بشارة عظيمة، وتسلية جسيمة – وان تضمنت للعاصي تهديداً – اذ تقول هذه الآيات للناس: ان الموت والزوال والفناء والفراق من الدنيا ليست ابواباً للعدم والسقوط في ظلمات الفناء والانعدام، بل هي ابوابٌ للقدوم والذهاب الى حضور سلطان الازل والابد. فهذه الاشارة تُنجي القلب من دهشة ألمِ تصورٍ تمزُّقهِ مع جميع محبوباته بين ايدي عدمات هائلة غير متناهية، والتفرق بين انياب فراقات مدهشة. فانظر الى دهشة جهنّم المعنوية المندمجة في الكفر!.. اذ بسر (انا عند ظنّ عبدي بي) ظنُّ الكافرُ هكذا.. فصَوَّرَ فاطرُه ظنَّه عذاباً ابدياً عليه.. ثم انظر الى درجة تفوق لذة اليقين بلقاء الله، حتى على الجنة. ثم بعده مرتبة الرضاء، ثم بعده درجة الرؤية، حتى ان جهنم الجسمانية للمؤمن العارف العاصي كالجنة بالنسبة الى جهنم المعنوية للكافر الجاهل بخالقه. ولو لم يكن من البراهين الغير المحصورة للبقاء ووسائله، الا «تضرعات حبيب المحبوب الازلي» وقد اصطف خلفه في تلك الصلاة الكبرى صفوف الانبياء وصفوف الاولياء مؤمّنين على دعواته ومناجاته، لكَفَتْ وسيلةً وبرهاناً. أيمكن ان يوجد في هذا الحسن الابدع الاجمل، والجمال الابرع الاكمل هذا القبحُ الاعجب والنقص الاغرب؟.. اي بان لا يسمع من يسمع اخفى هواجس الحاجات لاخفى المخلوقات بدليل قضائها في اوقاتها اللائقة، وان لا يقبل ارفع الاصوات الصاعدة من الفرش الى العرش، واحلى المناجاة، واعظم الدعوات، في اشد الحاجات..؟ كلا ثم كلا هوالسميع البصير.

نعم، هذه المعاملة من اوسع مراتب شفاعته عليه الصلاة والسلام وكونه رحمة للعالمين.

---

(١) الانعام : ٦٠
(٢) البقرة : ٢٨
(٣) المائدة : ١٨
(٤) الرعد : ٣٦

اعلم! انه كثيراً ما اصادف الغافلين وهم يتحججون بمسألة القدر، ويتعمقون في مسألة الجزء الاختياري، وخلق الافعال.. مع انهم بلسان غفلتهم ينكرون القدر رأساً ويعطون الازمّة ليد التصادف، يتوهمون انفسهم فاعلين على الاطلاق، ويقسمون مال الله وصنعه على ابناء جنسه وعلى الاسباب. فالنفس الكافرة او الغافلة في وقت الغفلة تسلب الكل باطناً وان اثبتت ظاهراً. والمؤمنة العارفة تثبت الكلّ له ايماناً واذعاناً؛ فهاتان المسألتان في الكلام، غايتان لحدود التوكّل والايمان، ولمراقي التوحيد والاسلام، لاهل الصحو والحضور من العارفين، وبرزخ حاجز(١). فاين انتم ايها الغافلون المتفرعنون في انانيتكم؟ واين التحقق بهاتين المسألتين! فان ترقيت في المحوية والعبودية الى درجة نفي الجزء الاختياري، والى مقام احالة كل شئٍ على القَدر، فلا بأس عليك، اذ فيك نوعٌ من السكر؛ اذ هما حينئذٍ من المسائل الايمانية الحالية، لا العلمية التصورية..

اعلم!(٢) ان التواضع قد ينافي تحديث النعمة. وقد ينجرُّ تحديثُ النعمة الى الكِبر والغرور، فلا بد من الدقة والامعان وترك الافراط والتفريط.

وللاستقامة ميزان وهو: ان لكل نعمة وجهين:

وجهٌ الى المُنعَم عليه فيزيّنه ويميّزه ويتلذذ به، فيفتخر، فيقع في السُكر فينسى المالك، فيتملك، فيظن الكمال بملكه الذاتي، فيتكبر بما لا حقّ له فيه.

ووجهٌ ينظر الى المنعِم فيظهر كرمه، ويُعلن رحمته، وينادي على انعامه، ويشهد على اسمائه. وهكذا مما يتلو من آيات جلواته في انعامه. فالتواضع انما يكون تواضعاً اذا نظر الى الوجه الاول، والا تضمن كفرانا. وتحديث النعمة انما يكون شكراً معنوياً وممدوحاً اذا نظر الى الوجه الثاني، والا تضمن تمدحا وغروراً..

يا يوسف الكشرى(٣). اذا تلبست بلباس فاخر غال لاخيك يوسف الكيشي، فقال لك سعيد: ما احسنك! فقل: الحسن للّباس، لا لي، فتصير متواضعاً في التحديث..

---

(١) وبرزخ حاجز لأهل الغفلة

(٢) المسألة السابعة من المكتوب الثامن والعشرين توضح هذا البحث.

(٣) الحوار مع بعض طلاب الاستاذ النورسى القدامىٰ.

اعلم! ان عرق الرقابة والغبطة والحسد انما يتحرك عند اخذ الاجرة وتوزيع المكافأة وملاحظتها. واما عند الخدمة وفي وقت العمل فلا، بل الاضعفُ يحب الاقوى، والادنى يميل الى الاعلى، ويستحسن تفوقه عليه، ويحب زيادته في الخدمة عليه؛ لانه يتخفف عنه ثقلُ الخدمة وكلفةُ العمل. فاذ كانت الدنيا دار خدمة وعمل فقط للأمور الدينية والاعمال الاخروية، لابد ان لا يتداخل فيها الرقابة والحسد، واذا تداخلت فيها الرقابة يظهر عدم الاخلاص، وان العامل في تلك الاعمال يلاحظ مكافاةً دنيوية ايضا، وهو تقدير الناس واستحسانهم. ولا يعرف المسكين انه بهذه الملاحظة ابطل عمله – بدرجة – بعدم الاخلاص بتشريك الناس برب الناس في اعطاء الثواب، واضعف قوته بتنفير الناس عن معاونته.

اعلم! ان معنى الكرامة مباينٌ لمعنى الاستدراج، اذ الكرامة كالمعجزة فعلُ الله.. ويتفطن صاحبُها انها منه سبحانه، وليس من نفسه، ويطمئن بانه حام له رقيبٌ عليه يختار له الخير. فيزداد يقيناً وتوكلاً. فقد يشعر بتفاصيل الكرامات باذن الله، وقد لا يشعر وهذا أولى وأسلم. كأن انطقه الله بما في قلب احدٍ، اومثّله له يقظةً لهدايته، وهو لا يعلم ما يفعل الله به لعباده.

واما الاستدراج فينكشف له صورة الاشياء الغائبة وهو في غفلة، او يعمل افعالاً غريبة، وهو مستند بنفسه واقتداره فيزدادُ بعداً وانانية وغروراً. فيقول: ﴿**انَّمَا اوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾ [1] وانكشف لي بصفاء نفسي وضياء قلبي.

فلا التباس بين اهل الاستدراج واهل الولاية في الطبقة الوسطى.

واما مظهر الفناء الأتمَ من اهل الطبقة العليا المنكشف لهم باذن الله الاشياء الغيبية، فيرونها بحواسهم التي هي لله[2] فالفرق اظهر؛ اذ نورانية باطنهم المترشحة الى الظاهر ارفع من ان تلتبس بظلمات من يرائي ويدعو الى انانيته.

---

(١) القصص: ٧٨

(٢) كما جاء في الحديث الشريف « ... فاذا احببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها... » رواه البخاري.

﴿وإن منْ شَيْء الاَ يُسَبح بِحَمْده﴾ (١)

اعلم!(٢) ان التسبيح والعبادة على وجوه غير محدودة في كل شئ، ولا يلزم شعور كل شئ بكل وجوه تسبيحاته وعباداته دائماً. اذ لا يستلزم الحصول الحضور؛(٣) مثل ذلك كمثل اجير جاهل يعمل في سفينة لمالكها الذي استأجره ليجس باصبعه على بعض مسامير (الالكتريكية) في بعض الاوقات، ولا يعرف الاجير ما يترتب على عمله من الغايات الغالية. وانما يعرف ما يعود الى نفسه من الاجرة ولذة المكافاة. حتى قد يتوهم ان وضع هذا العمل ليس الا لهذه اللذة.. كمثل الحيوان الذي لايعرف من غايات الازدواج الا لذة قضاء الشهوة، ولا يضر جهله هذا - ولا يمنع - من حصول النسل الذي هو غاية من الغايات المطلوبة لمالكه. كمثل النمل ينظف وجه الارض من جنائز الحُوينات، مع أنه لا يعرف الا تطمين حرصه.. او كمثل العنكبوت الذي يزين وجه الفضاء، ورؤس النباتات والاحجار بخيوط حريره المتلمعة بالضياء للمسابقة مع الهوام في سير الهواء ولا يعرف الا نسج مصيدته، ومد ما يطير به ليمر عليه.. وكمثل الساعة تعرفك عدد ما انقضى من عمرك اليومي، وهي لاتعرف الاّ زوال ألم تضييق امعائها(٤). وكمثل النحل صنع ما صنع بحلاوة الوحي المندمج في لذته الخاصة.. وكمثل الوالدات النباتية والحيوانية والانسانية انما تعمل للذة الشفقة، ولا تخل جهالاتها بالغايات بحصول تلك الغايات التي زينت بيت الكائنات. بل كأن تلك الشفقة نواة ومسطر لتلك الغايات.

ويكفي المسبحين العابدين علمهم بكيفية عملهم فقط. كما قال عز وجل ﴿**كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه**﴾(٥). ولا يلزمهم علمُهم بكون عَمَلهم تسبيحا مخصوصا هكذا، وشعورهم بصفة العبادة المعينة. ويكفيهم شعور سائر اخوانهم المتفكرين بما في اعمالهم من لطائف العبادات وغرائب التسبيحات. بل يكفي علم المعبود المطلق فقط. واذ لا ابتلاء بالتكليف لا تلزمهم «النية» فلا يلزم شعورهم بوصف عملهم. على ان تلك المصنوعات في الاصل كلمات تسبيحاتٍ افادت

(١) الاسراء: ٤٤
(٢) الكلمة الرابعة والعشرون - الغصن الرابع توضيح واف لهذه المسألة.
(٣) اي لا يستلزم حصول التسبيح جمع النفس وبلوغها تمام اليقظة عند التسبيح.
(٤) المقصود حركة النابض وانفتاحه التدريجي.
(٥) النور: ٤١

معانيها ثم صارت تلك الكلمات مسبحات بالسنتها كذواتها. وفي تلك الكلمات مسبحات اخرى. وفي هذه ايضا مسبحاتٌ صغار، وفيها ايضاً مسبحات اصاغر وهكذا، الى ما شاء السبوح القدّوس جلّ جلاله ولا اله الا هو..

اعلم! ان ما ارسل اليك وزيّنك من الرأس الى القدم من اشتات النعم والمحاسن واللطائف، انما تمر «بميزان» من خلال حجب متباينة. وتتسلل «بنظام» من بين لفائف متخالفة. وتتوجه اليك «بالانتظام» من خلف طوائف متضادة.

اعلم! ان في النفس امراً لطيفاً كدرهم من ورق رقيق. اظن انه مرصاد الابد. اذ ما يمسه شئ الا ويعطيه حكم الابد ويموّهه بوهم الابدية. واذا استعمله الهوى والهوس، صار آلة تجلب احجار الآخرة واساساتها الى الدنيا، فيبنى قصرها عليها، فيأكل اثمار الآخرة بلا نضج في الدنيا الفانية.

اعلم! ان النفس شئ عجيب!.. وكنز آلات لا تعد وموازين لاتحد لدرك جلوات كنوز الاسماء الحسنى إن تزكت.. وكهف حيّات وعقارب وحشرات إن دسَّت وطغت. فالأولى - والله اعلم - بقاؤها لا فناؤها؛ فالبقاء مع التزكية - كما سلكت عليه الصحابة - اوفق بسر الحكمة من موتها الاتم كما سلك عليه معظم الاولياء.

نعم، ان في جرثوم النفس جوعاً شديداً، واحتياجاً عظيماً، وذوقاً عجيباً. واذا تحول مجرى سجاياها، انقلب حرصُها المذموم اشتياقاً لا يشبع، وصار غرورُها المشؤوم وسيلة النجاة عن جميع انواع الشرك. وتحول حبُها الشديد لنفسها وذاتها؛ حبا ذاتيا لربها وهكذا.. حتى تنقلب سيئاتُها حسناتٍ.

اعلم! انه كما ان قيمة الانسان المؤمن قيمةُ ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية ونقوش جلوات الاسماء. وقيمة الانسان الكافر او الغافل قيمة مادته الفانية الساقطة.. كذلك قيمة هذا العالم تزيد بلا نهاية - ان نظر اليه بالمعنى الحرفي وبحسابه سبحانه - كما علم القرآن. وتسقط قيمته الى درجة المادة المتغيرة الجامدة - ان نظر اليه بالمعنى الاسمي وبحساب الاسباب - كما علّمَتْه الحكمة الفلسفية.

فالعلم المستفاد من القرآن المتعلق بالكائنات أعلى واغلى بما لا يُحدّ من العلم المستفاد من فنون الفلسفة.

مثلا: يقول القرآن ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ﴾ (١) فانظر كيف يفتح بهذا الحكم لفهمك مشكاةً الى سلسلة جلوات الاسماء، اي ايها الانسان! ان هذه الشمس بعظمتها مسخَّرةٌ لكم، ونور لبيتكم، ونار لإنضاج مطعوماتكم بامر من يرزقكم، فلكم مالك رحيم، عظيم القدر بدرجة ما هذه الشموس الا مصابيح له اسرجت في منزل معدّ للمسافرين فيما بين منازله الباقية، وهكذا فقس.

واما ماتقول الحكمة من ان «الشمس نار عظيمة متحركة على نفسها تطايرت منها ارضُنا وسيارات هي منظوماتها، وارتبطت بالجاذبة جارية في مداراتها».. فلا تفيدك الاّ حيرة في دهشة، وعظمة صماء، وحكمة عمياء.

اعلم! انه لا حق لك في ان تطلب حقا من الحق سبحانه، بل حق عليك ان تشكره دائماً؛ إذ له الملك والحمد..

يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم! اجعل هذا الكتاب نائباً عني في تكرير هذه الشهادة بعد موتي الى يوم الدين:

اللهم يارب محمد المختار، يارب الجنة والنار، يارب النبيين والاخيار، يارب الصديقين والابرار، يارب الصغار والكبار، يارب الحبوب والاثمار، يارب الانوار والازهار، يارب الانهار والاشجار، يارب الاعلان والاسرار، يارب الليل والنهار! نشهدك ونشهد حملةَ عرشك، ونُشهد جميع ملائكتك، ونُشهد جميع مخلوقاتك، بشهادات جميع انبيائك وبشهادات جميع اوليائك، وبشهادات جميع آياتك التكوينية والكلامية، وبشهادات جميع مصنوعاتك، وبشهادات ذرات الكائنات ومركباتها، وبشهادات حبيبك عليه افضل صلواتك، المتضمنة شهادته لجميع تلك الشهادات، وبشهادات قرآنك، بانّا كُلُّنا نشهد بانك انت الله الواجب الوجود، الواحد الاحد، الفرد الصمد، الحق المبين، الحي القيوم، العليم الحكيم، القدير المريد، السميع البصير، المتكلم، لك الأسماء الحسنى. ونشهد ان لا اله الا انت وحدك لا شريك لك. لك الملك. ولك الحمد. ونستغفرك ونتوب اليك.. وكذا نشهد بان محمداً عبدك، ونبيك، وحبيبك، ورسولك، ارسلته رحمةً للعالمين.. فَصَلّ وسلّم عليه وعلى آله واصحابه ابد الآبدين آمين آمين آمين..

(١) نوح: ١٦

في بيان جوهرة من كنوز آية:

﴿ وماخَلَقْتُ الْجنَ والانْسَ الاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾ (١)

اعلـم!(٢) يا ايها السعيد الناسي لنفسك، ولوظيفة حياتك!. الغافل عن حكمة خلقة الانسان، الجاهل بما أوضع الصانعُ الحكيمُ في هذه المصنوعات المزيَّنة!.. ان مَثَل بناء هذا العالم وادخال العالم الانساني فيه، كمثل سلطان له خزائن فيها اصناف الجواهر، وله كنوز مخفية، وله مهارة في صنع الغرائب، وله معرفة بعجائب فنون لا تعد وبغرائب علوم لا تحد. فاراد ذلك الملك. ان يظهر على رؤس الاشهاد حشمة سلطنته وشعشعة ثروته وخوارقَ صنعته وغرائبَ معرفته، اي ان يشهد كماله وجماله وجلالَه المعنوية بالوجهين؛ بنظره، ونظرِ غيره.

فبنى قصراً جسيماً ذا منازل وسرادقات. فزينها بمرصعات جواهر كنوزه، ونقشها بمزينات لطائف صنعته، ونظمها بدقائق فنون حكمته، ووسمها بمعجزات آثار علومه، وفرش فيها سفرة لذيذات نعمه ونعمته. وهكذا مما يظهر بمثله الكمالات الخفية. فدعى رعيته للسير والتنزه، واضافهم بضيافة لا مثل لها، كأن كل لقمة منها انموذج مئات صنعة لطيفة. ثم عين استاذاً لتعريف ما في ذلك القصر من رموز تلك النقوش واشارات تلك الصّنائع، ووجوه دلالات تلك المرصعات المنظومات والجواهر الموزونات على كمالات صاحبها، ولتعليم الناس آداب الدخول والمعاملات مع صانع القصر، فيقول لهم:

ايها الناس! ان مليكي يتعرف اليكم باظهار ما في هذا، فاعرفوه.. ويتودد اليكم بهذه التزيينات فتوددوا اليه بالاستحسانات.. ويتحبب اليكم بهذه الاحسانات فاحبوه.. ويرحم اليكم فاشكروه.. ويتظاهر اليكم فاشتاقوا اليه. وهكذا مما يليق بمثله ان يقول للداخلين. فدخل الناس فافترقوا فرقتين: ففريق نظر الى ما في القصر، فقالوا: لهذا شأن عظيم، فنظروا الى المعلم الاستاذ فقالوا: السلام عليك! لابد لمثل هذا، من مثلكَ.. فَعَلّمْنا مّما علمك سيدُك.. فنطق فاستمعوا فاستفادوا فعملوا بمرضيات المَلك.. ثم دعاهم الملك لقصر خاص لا يوصف، فاكرمهم بما يليق بمثله لمثلهم في مثلِ ذلك القصر..

(١) الذاريات: ٥٦

(٢) الدرس العاشر من «المدخل الى النور» وهو خلاصة الكلمة الحادية عشرة ونواتها.

والفريق الآخر: ما التفتوا الى شئ غير الاطعمة، فتعاموا وتصاموا، فاكلوا اكلَ البهائم فتناموا، وشربوا من الاكسيرات التى لا تشرب، فسكروا فتنهقوا، فشوشوا على الناظرين، فاخذهم جنوده فطرحهم في سجن يليق بهم.

وانت تعلم ان الملك لما بنى هذا القصر لهذه المقاصد، وحصول هذه المقاصد مربوط بوجود هذا الاستاذ، وباستماع الناس له.. يحق ان يقال: لولا هذا الاستاذ لما بنى الملك القصر. واذا لم يستمع الناس لتعليمات الاستاذ المبلِّغ يخرب القصر ويبدل.

واذا تفطنت لسر التمثيل فانظر الى صورة الحقيقة.. واما القصر فهذا العالم الذي نوّر سقفه بمصابيح متبسمة، وزيّن فرشه بازاهير متزينة. واما الملك فهو سلطان الازل والابد الذي: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰاتُ السَّبْعُ والارضُ وَمَنْ فيهِنَّ وانْ من شَيْءٍ الاَّ يُسَبِّحُ بحمده**﴾[1] ﴿**الله الذي خَلَقَ السَّمٰوات والارضَ في سَتَّةِ ايّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأمْرِه**﴾ [2]. واما المنازل فالعوالم المزينة كل بما يناسبه. واما الصنائع الغريبة فهي معجزات قدرته. واما الاطعمة فهي خوارق ثمرات رحمته. واما المطبخ والتنور فالارض وسطحها. واما الكنوز المخفية وجواهرها فالاسماء القدسية وجلواتها. واما النقوش ورموزها فمنظوماته المصنوعات المرموزات ودلالاتها على اسماء نقاشها. واما الاستاذ المعلم ورفقائه وتلامذته فسيدنا محمد والانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء رضي الله عنهم. . واما حواشي الملك في القصر فالملائكة عليهم الصلاة والسلام.. واما المسافرون المدعوون للسير والضيافة؛ فالانسان مع حواشيه من الحيوانات. واما الفريقان؛ فاهل الايمان والقرآن الذي يفسّر لأهله معاني آيات كتاب الكائنات. والفريق الآخر؛ اهل الكفر والطغيان التابعون للنفس والشيطان صمّ بكم عمي هم ﴿**كَالانْعَامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ**﴾ [3] لا يفهمون الا الحياة الدنيوية..

فاما السعداء الابرار فاستمعوا للعبد الواصف لربه «بالجوشن الكبير» وللمبلغ بدلالته للقرآن الكريم. وانصتوا للقرآن، فصاروا نظارين لمحاسن سلطنة الربوبية، فكبروا

(١) الاسراء: ٤٤

(٢) الاعراف: ٥٤

(٣) الفرقان: ٤٤

مسبحين، ثم صاروا دلالين لبدايع جلوات الاسماء القدسية، فسبحوا حامدين وصاروا فاهمين بالطبع بحواسهم لمدخرات خزائن الرحمة فحمدوا شاكرين. ثم صاروا عالمين بجواهر كنوز الاسماء المتجلية بالوزن بموازين جهازاتهم فقدسوا مادحين. ثم صاروا مطالعين لمكتوبات قلم القدرة، فاستحسنوا متفكرين. ثم صاروا متنزهين برؤية لطائف الفطرة، فاحبوا الفاطر مشتاقين. ثم قابلوا تَعَرُّفَ الصانع اليهم بمعجزات صنعته بالمعرفة في الحيرة فقالوا: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك يا معروف، بمعجزات جميع مصنوعاتك.. ثم قابلوا تودده اليهم بمزينات ثمرات الرحمة بالمحبة. ثم قابلوا تعطّفه وتعهده لهم بلذائذ نعمه بالمحمدة والشكر، فقالوا: سبحانك ما شكرناك حق شكرك يامشكور، بأثنية جميع احساناتك على رؤوس الاشهاد، وباعلانات جميع نعمتك ولذائذها في سوق الكائنات، وبشهادات نشائد منظومات جميع ثمرات رحمتك ونعمتك لدى انظار المخلوقات. ثم قابلوا اظهاره لكبريائه وكماله وجماله وجلاله في مظاهر الكائنات ومرايا الموجودات السيالة بالسجود في المحبة في الحيرة في المحوية. ثم قابلوا اراءته وسعة رحمته وكثرة ثروته بالفقر والسؤال. ثم قابلوا تشهيره للطائف صنعته بالتقدير والاستحسان والمشاهدة والشهادة والاشهاد. ثم قابلوا اعلانه لسلطنة ربوبيته في اقطار الكائنات بالتوحيد، بالاطاعة والعبودية باعلان عجزهم في ضعفهم وفقرهم في فاقتهم. فادوا وظائف حياتهم في هذه الدار، حتى صاروا في احسن تقويم، اعلى من كل الخلق خليفة اميناً ذا امانة، ويمن وايمان. ثم دعاهم ربُّهم الى دار السلام للسعادة الابدية فاكرمهم بما لاعينٌ رأت، ولا اذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

واما الفريق الآخر الفجار الاشرار، فكفروا فحقَّروا بالكفر جميعَ الموجودات باسقاط قيمتها كما مر سابقاً. وردوا جميع تجليات الاسماء فجنوا جناية غير متناهية فاستحقوا عقاباً غير متناه.

ايها السعيد المسكين!. اتحسب ان وظيفة حياتك حُسنَ محافظة النفس والتربية المدنية وخدمة البطن والهوسات؟.. ام تحسب ان غاية ادراج هذه الحواس والحسيات، والجوارح والجهازات، والاعضاء والآلات، واللطائف والمعنويات في ماكنة حياتك استعمالها في هوسات النفس الدنية في هذه الحياة الفانية؟ كلا! بل ما

حكمـة ادراجهـا في فطرتك، الا احساسُك جميع انواع نعَمه تعـالى، وإذاقة معظم اقسـام تجليات اسمـائه. فمـا غـاياتهـا، الا ان تزن بتلك الموازين مدخـرات خزائن رحمته، وان تفـتح بتلك الجهازات مخفيات كنوز جلوات اسمائه جل جلاله؛ بل ما غايات حياتك الا اظهارك وتشهيرك بين اخوانك المخلوقات ما في حياتك من غرائب جلوات اسـمـائه.. ثم اعـلانك بحـالك وقـالك عـند باب ربوبيتـه عـبـوديتك.. ثم تبـرجك وتزيّنك بمرصـعـات جـواهر جلوات اسـمـائه للعرض والظهـور لنظر شـهـود الشـاهد الازلي.. ثم فـهـمك لتـحـيـة ذوي الحـيـاة بالتـسـبـيـحـات لواهب الحـيـاة، ومشـاهدتك لها، وشـهادتك بها، واشـهادك عليـها.. ثم فهـمك بمقياسـية جـزئيات صفـاتك وشؤونك لصفات خـالقك وشؤونه المطلقة المقـدسة.. ثم فهـمك الكلمات الموجودات الناطقات بتوحيده وربوبيته.. ثم تفطنك بامثال عجـزك وفقرك لدرجات تجليات قدرته وغناه.

وما ماهيـة حياتك، الا خزينة وخريطة وانموذج وفذلكة ومـقياس وميزان وفهـرستة لغرائب اثار جلوات اسماء خالق الموت والحياة.

وما صـورة حيـاتك، الا كلمة مكتـوبة مسـموعـة مفـهّمة لاسـمائه الحسنى. وما حقيقتهـا الا، مرآتيتها لتجلي الاحدية. وما كمالها فـي سعادتها، الا شعورها بما تمثل فيـها مع المحبة والشوق لما هي مـرآة له، واما سـائر ذوي الحياة فـيشاركـونك في بعض الغـايات المذكورة لكن لا يسـاوونك، اذ انت المرآة الجـامعـة كمـا روُى :«ما يسـعنى ارض ولا سماء ويسعنى قلب عبدي المؤمن»(١)

(١) الحديث «ما وسعني سمائي ولا ارضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».
ذكـره في الاحيـاء بلفظ مقـارب. قال العـراقي في تخريـجه: لم ار له أصـلا (كشف الخـفاء للعـجلوني ٢/١٩٥ باختـصار). وقال السيـوطي في الدرر المنتثرة: قلت اخـرج الامام احمد في الزهد عن وهب بن منبـه: ان الله فتح السموات لحزقيل حتى نظر الى العرش فقال حزقيل: سبحانك ما اعظمك يارب! فقال الله: ان السموات والارض ضعفن ان يسعنني ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين» اهـ.
قال ابن حـجر الهيتـمي في الفتاوى الحـديثية: وذكـر جماعة لـه من الصوفية لا يريدون حـقيقـة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلاً منهـما كفر، وصالحـو الصوفية اعرف النـاس بـالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وانما يريدون بذلك ان قلب المؤمن يسع الايمان بالله ومحبته ومعرفته. اهـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

يا الله، يارحمن، يا رحيم، يافرد، ياحي، يا قيوم، ياحكم، ياعدل، ياقدوس. بحق اسمك الاعظم. وبحق آيات فرقانك الاحكم، صلّ على سيدنا محمد رسولك الاكرم بعدد ذرات وجودنا وبعدد عاشرات دقائق عمرنا وحياتنا، وانزل علينا وعلى (ناشر هذه المجموعة من طلاب النور) وعلى طلبة رسائل النور السكينة والتمكين والاطمئنان كما انزلت على اصحاب وآل نبيّك المختار عليه الصلاة والسلام، وانزل علينا وعلى طلبة رسائل النور السكينة والايمان الخالص واليقين الكامل والنية الصادقة والمتانة الاتم في خدمة القرآن والايمان.. وآمِن فَزَعَنا بدفع البدعيات الهائلات عن شعائر الاسلام، وفرح قلوبنا باعلان الشعائر الاسلامية في العالم عن قريب الزمان. وبنشر رسائل النور بكمال الرواج بين عالم الاسلام. وسلمنا وسلم ديننا وسلم طلبة رسالة النور من تجاوز الملحدين.. وارزقنا وارزق طلبة رسائل النور السلامة، والعافية في الدين والدنيا والآخرة. واشف امراضنا واجعل القرآن شفاء لنا ولهم من كل داء واجعلنا واجعلهم من الحامدين الشاكرين دائما آمين والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. اجمعين امين..

* * *

الرسالة الحادية عشرة

شُعْلَة

مِنْ أَنْوَارِ شَمْسِ الْقُرْآنِ

طبعت هذه الرسالة لأول مرة بمطبعة «نجم استقبال» باستانبول سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م).

اعلم! ان الفاطر الحكيم انما ركّب في وجودك هذه الحواس، والحسيات، والجهازات لإحساس انواع نِعَمه. ولإذاقة اقسام تجليات أسمائه.

فما غايات حياتك، وما حقوقها؛ الا اظهارك لآثار تجليات اسمائه، وتشهير غرائبها لدى انظار المخلوقات..

وما انسانيتك؛ الا شعورك بهذه الوظيفة.

وما اسلاميتك؛ الا اذعانك بهذه المظهرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد من الله.. وبالله.. وعلى الله.. لله.. كـمـا يليق بالله.. الحمـد لله على «الحمـد لله» بدور يدور بـأنابيب في تسلسل وبتسلسل يتسلسل في دور دائرٍ بلا نهاية.

اللّهم انا نقدم اليك بين يَدي كل نعمة ورحمة، وبين يدي كلّ عناية وحكمة، وبين يدي كلّ حياة ومماتٍ، وبين يدي كلّ حيوانٍ ونباتٍ، وبين يديّ كلّ زهرة وثمرةٍ، وبين يدي كلّ صنعةٍ وصبغة، وبين يدي كلّ نظامٍ وميزان، وبين يدي كلّ سكونٍ وحركة في ذرات العالم ومركباتها شهادةً نشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحي ويميت، بيده الخير، وهو على كلّ شئ قدير.. ونشهد انّ محمداً عبده ونبيه وحبيبه ورسوله أرسله رحمةً للعالمين.

اللهمّ صلّ على محمد بحر انوارك، ومعدن اسرارك، وشمس هدايتك، وعين عنايتك، ولسان حجّتك، ومليك صنع قدرتك، ومثال محبتك، وتمثال رحمتك، واحبّ الخلق اليك، وعلى سائر الانبياء و المرسلين، وعلى آل كلٍ وصحب كلٍ اجمعين، وعلى ملائكتك المقربين، وعلى عبادك الصالحين من اهل السموات والارضين، برحمتك يا ارحم الراحمين.

سبحانك يا مَن يُسبح بحمدك هذا العالم بلسان محمد عليه افضل صلواتك واتم تسليماتك.

سبحانك يامن تسبح لك الدنيا بآثار محمد عليه أنمى بركاتك.

سبحانك يامن تسبح بحمدك الارض ساجدةً تحت عرش عظمتك بلسان محمدها عليه ازكى تحياتك.

سبحانك يامن يُسبح لك المؤمنون والمؤمنات بلسان محمدهم عليه صلواتك ابدا سرمدا.

سبحانك اسبّحك بلسان حبيبك محمد عليه اكمل صلاتك واجمل سلامك، فتقبل مني برحمتك كما تقبلته منه.

اعلم! ان عظمة وسعة عموم آية ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَن فيهِنَّ وانْ من شَيءٍ الاّ يُسَبِّحُ بحَمْدِه**﴾ [١] اقتضتْ تفسيراً، فتوجهتُ اليها فترشحتْ متقطرةً منها في قلبي كلماتٌ مفسرات لها، وسلّم مرقاةٍ للصعود اليها. فهي منها واليها. فان احببت ان ترشُف تلك القطرات المفسّرات المترشحات من عمان تلك الآية، والنازلات من سموات عظمتها، فاستمع بقلب شهيد ما سيأتي واقرأ معي هذا:

سبحانك ما عرفناك – نحن معاشر البشر – حقَّ معرفتك يا معروفُ، بمعجزات جميع مصنوعاتك وبتوصيفات جميع مخلوقاتك، وبتعريفات جميع موجوداتك..

سبحانك ما اعظمَ سلطانَك واوضحَ برهانَك!.

سبحانك ما ذكرناك حق ذكرِك يامذكورُ، بألسنة جميع مخلوقاتك، وبذوات جميع مصنوعاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك..

سبحانك ما أجلّ ذكرك!.

سبحانك ما شكرناك حقّ شكرك يا مشكورُ، بأثنية جميع احساناتك على أنظار ذوي البصائر، وباعلانات جميع نِعَمك في سوق الكائنات على رؤس الاشهاد، وبشهادات نشائد جميع ثمرات رحمتك المُفْرغة تلك الثمرات في قوالب النظام والميزان..

سبحانك ما اوسعَ رحمتَك!.

سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا معبودَ جميع ملائكتك وجميع مخلوقاتك بجميع انواع العبادات واصناف التمجيدات.

سبحانك ما سبّحناك حق تسبيحك يا مَن ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَمٰواتُ السَبْعُ والأرضُ ومَن فيهن وانْ مِنْ شَئ الاّيُسَبّحُ بحمده**﴾.. آمنا.. نعم..

سبحانك يامن تُسبّحُ لك الملائكة باجناسها المتفاوتة، بألسنتها المختلفة، بأذكارها المتنوعة.

---

(١) الاسراء: ٤٤

سبحانك يامن تُسبح لك هذه الكائناتُ بافواه عوالمها، واركان عـوالمها، واعضاء اركانها، واجزاء اعضائها، وجزئيات انواعها، وحجيرات جزئياتها، وبفويهات ذراتها واثير ذراتها؛ بألسنة نظاماتها الحكيمة، وموازينها العالية، واحوالها المنظومة، وكيفياتها الموزونة بصُنعك الحكيم.

سبحانك يامن تُسبِّح بحمدك الجنة بافواه بساتينها بنشائد هي: حورُها وقصائد قصورها، ومنظومات اشجارها، ومتشابهات ثمراتها الموزونة.. كما تسبح لك اشباهُها هنا في ضرّتها.

سبحانك يامن يقلّب الليل والنهار وسخر الشمس والقمر، تسبح لك هذه السموات، بمنظومات بروجها، بافواه شموسها بكلمات نجومها، بلسان نظامها في ميزانها، وانتظامها في زينتها، وتلألئها في حشمتها، وانقيادها في مسخريتها، وسكونتها في سكوتها، وحكمتها في حركاتها.

سبحانك يا من تُسبِّح لك طبقاتُ الجو بافواه رعودها وبروقها ورياحها وسحابها وشهابها وامطارها، بكلمات لمعاتها وقطراتها، بلسان نظامها في ميزانها في غاياتها وثمراتها.

سبحانك يا مَنْ تُسبِّح لك الارضُ ساجدة لعظمة قدرتك بمحمدها وقرآنها، بافواه بحورها وجبالها وانهارها واشجارها، وباصوات واهتزازات صوتية - هما حيواناتها ونباتاتها - وبكلمات نورانية وحروف نورية - هما أنبياؤها وأولياؤها - بلسان نظامها وميزانها وحياتها ومماتها، وفقرها ويبسها، وتبرجها وتزينها بأذنك الكريم وصُنعك الحكيم.

سبحانك يا من تسبح لك البحورُ بكلمات - هي: عجائبُ مخلوقاتها.. وبمنظومات نغماتها بلسان نظامها وميزانها وحكمتها وغاياتها.

سبحانك يامَن جعل الارض مهاداً والجبال أوتادا. تسبح لك الجبال بافواه عيونها وانهارها واشجارها، بلسان نظاماتها وموازينها وغاياتها ومخازنها.

سبحانك يامن جعل من الماء كل شئ حي. ويامن تسبح لك الحيوانات بافواه حواسها وحسياتها وجهازاتها واعضائها وصنعتها وصبغتها وعقولها وقلوبها، بألسنة

نظاماتها وموازينها، وبأسئلة استعداداتها واحتياجاتها ودعواتها وتنعماتها، في اوطارها، وتقلباتها في اطوارها وحياتها ومماتها.

سبحانك يا مَن تسبح بحمدك الهوامُ في الهواء عند دورانها بزمزمة هَزَجاتها بشكرك، والطيورُ في اوكارها مع افراخها بسجعاتها ونغماتها شكراً لك، بلسان نظامهما وميزانهما، وصنعتهما ونقوشهما وزينتهما كما تناديان على إحسانك، وتصيحان على نعمتك بأظهار شكرك في وقت تلذذاتهما بثمرات نعمتك، وتنعماتهما بآثار رحمتك.. كما تسبح بحمدك الحشرات في قرارها بدمدمتها، والوحوش في قفارها بغمغمتها بألسنة نظاماتهما وموازينهما وصورهما واشكالهما وتنعماتهما الكريمة وتقلباتهما الحكيمة..

سبحانك ما الطف صنعَك وما انفذ حكمك!

سبحانك يا مَنْ تُسبح لك الاشجارُ صريحاً بغاية الوضوح عند انفتاح اكمامها، وتزايد اوراقها، وتكامل ثمارها، ورقص بناتها على ايادي اغصانها؛ بافواه اوراقها الخضرة، وازهارها المتبسمة، واثمارها الضاحكة بلسان نظاماتها وميزانها وطعومها اللذيذة، والوانها الجميلة، وروائحها اللطيفة، ونقوشها المستحسنة، وزينتها المستملحة.. كما تمجّدك وتنادي على كمال رأفتك، وتصف تجليات صفاتك، وتُعرّف جلوات اسمائك، وتفسر تحببك، وسياستك لمصنوعاتك؛ بما يترشح من شفاه ثمارها من قطرات لمعات جلوات تحبُّبك وتعهّدك لمخلوقاتك..

سبحانك ما ألطف برهانك في احسانك، وازين لُطفك في توددك!.

سبحانك يا من تسبح لك النباتاتُ بكمال الوضوح والبيان عند تنوّر ازهارها، وتبسّم بناتها، وانكشاف اكمامها واشتداد حبوبها، بافواه ازاهيرها وسنابلها بكلمات حباتها المنظومة وبذورها الموزونة بلسان نظامها الارق وميزانها الادق.. كما تمجّدك وتعرّفك وتشفّ عن وجه تحببك، وتصف صفاتك وتذكر اسماءك وتفسر توددك وتعرفك الى عبادك؛ بما يتقطر من عيون ازاهيرها واسنان سنابلها، من رشحات جلوات توددك وتعرفك الى مخلوقاتك..

سبحانك ما الطف برهانك وما انوَرَه وما احلاه وما ازينه!.

سبحانك يا من أَنْزَل الحَديد فيه بَأس شَديد ومَنافع للناس، تسبِّح لك المعادنُ بانواعها واجناسها واشكالها وخواصها وخاصياتها وفوائدها ونقوشها وتزييناتها، بلسان نظاماتها المرصوصة وموازينها المخصوصة.

سبحانك يا من تسبح لك العناصرُ باجتماعاتها المنتظمة بامرك وقدرتك، وتركباتها الموزونة باذنك وصنعك الحكيم.

سبحانك يا من تسبح لك الذراتُ بفويهات تعيناتها ووظائفها بألسنة نظاماتها وموازينها، وعجزها المطلق في ذاتها مع حملها - بحولك - وظائف عظيمة، كما تشهد كلُّ ذرة منها على وجوب وجودك بلسان عجزها بنفسها عن تحمل ما لاتطيق هي على حملها من وظائفها العالية العجيبة في دقائق نظام الكون. حتى ان كلاً منها كمثل نحلة نحيلة حملت عليها نخلةً طويلةً، كما تشير كل ذرة منها الى وحدتك بنظر وظائفها وتوجه حركاتها الى النظام العام المحيط الدال بالقطع على وحدة الناظم. ففي كل ذرة لك شاهدان؛ على انك واجب واحد. وفي كل شأن لك آيتان؛ على انك احد صمد، بل وفي كلِ شئ لك شواهد وآيات على انك واجب واحد احد، صمد جل جلالُك، ولااله غيرُك، وحدك لاشريك لك.

* * *

اعلم! ان وجودك وحواسك وجوارحك انما تنظر اولا وبالذات الى صانعها الذي يربيها ويدبرها ووجوهها متوجهةٌ اليه سبحانه، ولا تنظر اليك الا وظيفة وبمقدار مالكيتك الموهومة.

فان اشارت – لاجل حسن تعهدك لها – الى لمعةِ شعورك بكيفية حاصلة من كسبك، فبالمشاهدة تصرّح بِعلمِ بارئها بما لايحد من كيفياتها المنتظمة واحوالها المتقنة.. وهكذا تفصح بسائر اسمائه وصفاته المتجلية عليها.

وإن خَدَمَتْكَ بجهة في دقيقة، خَدَمَتْ صانعَها بكل الوجوه في كل آن.. ومن خدمتها تشهيرها لغرائب آثار صنعة فاطرها الحكيم.. وكذا امتثال الوظائف الفطرية المؤذنة بكمال الموازنة في سر التعاون المادي على لطائف رحمته تعالى، ولفائف حكمته سبحانه. وكذا اعلاناتها بلسان فهرستيتها لغرائب الصنعة لمحاسن جلوات فاطرها الحكيم.

وإن نَظرتْ اليك بدرجة ما يصل اليها نظرُك السطحي، وبمقدار ما يحيط بها علمك الاجمالي؛ نظرتْ الى صانعها بجميع ذراتها ومركباتها وكيفياتها واحوالها، فما ميزان مالكيتك الموهومة الا درجة نظرك وتصرفك فيها، وما هو الا كقطرة من بحر، فاعرف حدك ولا تجاوز طورَك.

فوجودُك وتوابعه له وجهان:

فبالوجه الناظر الى الحق سبحانه له قيمة عالية غالية.

وبالوجه الناظر الى الخلق لا قيمة له لفنائه وزواله.

اذ **الوجه الاول** يقول لك وللناظر: انك صنعةٌ لطيفةٌ، واثرٌ نظيف نزيه لمن فطر السموات والارض. فحسبُك من الوجود وكماله ولذته وقيمته علمُك بانك صنعةٌ للصانع الذي زيّن السماء بهذه النجوم والشموس حتى صرتَ اخاً عزيزاً صغيراً لهذا العالم يخدمك اخوك الكبير..

والوجه الثاني يقول لك ناعيا باليُتم: انك مجموعُ عناصر ترافقت باتفاقية عمياء، وعن قريب تتفرق بفراق اليم ومفارقة صماء.

فلا تظلِم وجودك بالتملك ولا تَبْخَسْ حقَّه بقطعه عن الحق المؤدي لإسقاطه من القيمة. فلا يقام له الوزن حينئذ؛ اذ قيمة ملايين سنة والوف قنطار من هذا الوجود الابتر المكفهر لا تساوي قيمة ذرة وآن سيال لذلك الوجود المظهر المطهر.. ألا ترى انك ما أقتطعك بارئُك اقتطاعاً من مواد حاضرة، ولا اخذك اخذاً من صُبْرة الكون، ولا اغترفك اغترافا من بحر الوجود، كيفما اتفق؟ هل ترى في سوق عالم الكون والفساد دكانا يُشترى منه العيون او مخزنا أدخر فيه الادمغة والالسنة، او ماكينة تصنع القلوب وتنسج الجلود؟ كلا ثم كلا! بل أنشأك بارئُك، واخترعك فاطرُك بصورة بديعة جامعة، وخلقك من شئ كلاشئ، او من كل شئ، حتى لا يطمع شئ من الاشياء ولو اعظم الاشياء الممكنة في خلق شئ من الاشياء ولو اصغر الاشياء، وحتى لايتطاول الى دعوى خلق ذبابة مثلا، من لا يقتدر على خلق السماوات.

فمن لا يقتدر على خلق كل شئ، لا يقتدر على خلقِ شئ ما من الاشياء.

اعلم ! ان المادة التي يتصرف فيها الصانع الماهر فيُظهر فيها صنعةً عجيبة قد لا تساوي قيمةُ تلك المادة عشر معشارِ قيمة «الصنعة». كالزجاج الذي صُنع منه المرآة الاسكندرية مثلا. وقد تتوازن قيمةُ المادة و الصنعة كالبقلواء[1] النفيسة من يد طابخ حاذق، وقد تزيد عليها. وان لكل من المادة، وما فيها من الصنعة غايات وثمرات تغاير غايات الآخر.

واما مصنوعات الصانع الازلي فاكثرها، بل كلها من القسم الاول حتى كأن المصنوعَ صنعةٌ متجسمة، لاسيما ذوي الحياة، ولاسيما صغارها التي تضاءلت فيها المادة وتلاشت في كشافة دقائق الصنعة، وقد يصير شئ واحد غايةً لهما، لكن بجهتين كالرزق مثلا..

فمن جهة المادة والحياة ما هو الاّ تغذٍ بتلذذ جزئي زائل لحفظ الحياة وبقائها.

واما من جهة الصنعة المعلنة المثمِرة لآثار جلواتِ الصانع، فالرزق كنزٌ عجيب لطيف، وخزينةٌ غريبة نظيفة، اذ في الرزق حينئذ التحسس باحساس جميع النِعم والشعور بها، والتذوق عند اذاقة اقسام تجليات اسماء الرزاق الكريم، والتشرف بها

(١) نوع من الحلويات والمعجنات المعروفة .

والتنوّر بفَهمها. فان شئت فانظر الى لسانك الذي هو واحد من الوف آلات الارتزاق بالرزق المادي والمعنوي، كيف اشتمل هذا الجرم الصغير علي جهازات ذائقات بعدد طعوم المذوقات. فـان انتبه وشعَر ذو اللسان شكر هذا اللسانُ بهذه الالسنـة الدقيقات في جهازه، لطائفَ نِعَم مَن اذاقه برحمته هذه النعم اللذيذات..

نعم، ومن شُكرِ النعمةِ بل ألذّ من النعمة الشعورُ بالانعام، ودركُ التفات المنعِم.

اعلم! انه ما من مصنوع الا وهو منظوم، ومـا من مخلوق الا وهو موزون، قد انشأه بارئه صـحيحـا صريحا، وانشـده فاطره واضحا فـصيحـا. وان ما يرى في هذه الاشـياء الدنيـوية وما في اثاثات هذا البيت الفـاني من «التنظيم» بحسـاب معـدود وبنظام مسـرود، ومن «التوزين» بموازين حساسـة، والموازنة بمقاييس جساسـة يرمزان بل يُفـصحـان بعظمة الحسـاب في الحشـر وتحقق وجـوده فـيه، والى هيـبة الميـزان في عـرصـات القـيـامـة، ووقـوعـه ووضـعـه فـيـهـا، إذ مـا يشـاهد هنا، مـا هو الا بذور، واساسات، ومباد، ومبشرات وشواهد وعلامات لما يتسنبل في الآخرة.

وان كل مـا نشـاهد في هـذا الكون مـا هو الا مـصنوع، واثرُ الصنعـة عليـه ظاهرٌ جلي، يكاد ان ينطق. ولا يُشـاهد صانعُه، ومـا يُتوهم من جنس الممكناتِ انـه صانعُ شئ، فهـو اضعفُ واعجز بمراتب غير محدودة من ان يكون صـانعه حقيـقة. اذ لابد لتصنـيع كل شئ وانشائه لاسيـما من جنس النبـاتات والحيـوانات من آلات مخـتلفة، وتجـهـيزات مـتنوعـة، ومـوازين حـسـاسة كـالموازين المسـتعـملة في تركـيب الادوية والمعـجونات. وليـست فليس.. (١) مع ان عند كل مصنوع ومـعه وفوقه وفيـه وتحته وقـبله وآخـره شئ. ومع ذلك الشئ كلُ مـا يلزم للمـصنوع وجـوداً وبقـاء، ومـا ذلك الشئ الا من لمعات وتجليات انوار قدرةٍ من خزائنه بين الكاف والنون.

لكن! انّ من الاسماءِ ما يقبل توسط الوسـائط الظاهرية، فيتجلى ذلك الاسم في خـلال الحُجُب، وخلفَ السرادقـات: كـالمتكلم، والرّزاق، والوهاب، وامثـالهـا. وبعضهـا لا يقبل التوسيط ولو ظاهريا: كـالخالق، والموجد، والمحيي، وامثالهـا. كمثل السلطان مع النفر؛ ففي نفس ارزاقه وسلاحه ولباسه لا واسطة، وفي تحـريكه وتعليمه وتوظيـفه وتلطيـفه تتـوسط الوسـائط، لكن باذن السلطان. الا ان التـوسط هنا لعجـز سلطان البشر وضعفه. وهناك لعزة سلطان الازل وعظمته..

(١) اي انه ليست للمصنوع تلك الآلآت المذكورة . فليس له ان يصنع شيئاً قط.

اعلم! اني رأيت على رأس شجيرة نابتة في صخرة، نوعين من الثمرات، فتحيرت منه! [١] فتحرّيتها: فاذا أحد النوعين؛ ثمرتها الخاصة بها يقال لها بالكردي (كــزوان)[٢]. والنوع الثاني كالباقلة بمقدار الاصابع، او اصغر او اكبر، مقوسة مجوفة كالمنزل المعد للمسافرين. فاخذت من الثمرة الثانية واحدةً، واذ فتحتها تسارعت الى الطيران في الهواء طويرات، كالذر في الصغر، وهي التي تراها صافاتٍ كاخواتها من طويرات النمل والذباب، قبيل الغروب وهي ترقص في الضياء بجذبة الذكر – فلا تظنن انهن لاهيات لاعبات؛ بل ماهن الا مجذوبات ذاكرات للرحمن الذي يمسكهن في الهواء – وهى شبان وتجعل لهن – وهي اجنة – هذه الباقلة التي كما انها لا تناسبهن لمخالفة الجنس ولاتناسب الشجيرة لمخالفة النوع، اوكاراً كالارحام لطيفةً حصينةً من احسن الاوكار، فيها ارزاق نظيفة لذيذة.

فهذه الحالة تصرح بان هذه المعاملة انما تصدر مِن نظرٍ وتدبير فوق نظر هذا الجامد وهذه البهيمة؛ اذ لما لم يصلحا لهذا التدبير الحكيم ؛ لزمتْ حوالة [٣] هذا التدبير على خارجٍ عليمٍ، وهذا الخارج المتصرف لابد من اول الامر البتة ان يحيط بكل افراد هذين النوعين في جميع اقطار الارضِ. وكذا بما يتعلق بهما، وكذا بمهدهما بالضرورة القطعية. ولايكون هكذا الا مَن هو عليمٌ بكلِ شئ، وقدير على كل شئ.

اسألك يامن يجوِّز تصرف غير الله في ملك الله! ويامن يقبل امكان وجود التصادف في بعضِ لطائف صنع الله! كيف تسمع، ام كيف تفهم، ام كيف تعلم هذه الشجيرة لسانَ الذبابة التي باضت على رأس غصنها، مودعة بيضاتها في يد حمايتها، حتى تشرع الشجيرة في ذلك الآن تتخذ بألطف شفقة اوكاراً امينة كأرحام الامهات، او ارحاماً كالاوكار رفيعةً، ومهاداً مهتزةً في الهواء. فتأخذ الشجيرة من خزينة الرحمة رزقا كافيا، وافيا، لذيذا، عزيزا. فتدخره في تلك الاوكار في سبيل الله لمن ليس من ابناء جنسها، ولا من جنس بناتها، بل لمسافرين هم وديعة الله. فما هذا «التجاوب» بين هؤلاء المصنوعات الآية شاهدة بانّ كليهما، بل الكل، بل كلّ ما في الكون خدام سيد واحد، وتحت تدبير مربٍ واحد، وفي تربية مدبرٍ واحد، احد صمد. آمنا..

(١) اي: تحيرت مما رأيت .
(٢) وهي الحبة الخضراء .
(٣) بمعنى إحالة.

اعلم ! ان النظر الى الهوام الذاكرات لفاطرها في جو الهواء بألسنة احوالها واطوارها ونقوشها المنظومة واجسامها الموزونة المكتوبة كالكلمات المنقوشة كما تذكُر اللّٰه وتفهِّم ذكرها لك، وإن لم تفهم هي بنفسها بألسنتها المخصوصة واصواتها الملفوظة. كأن كل طويرة منها كلمةٌ ناطقة بلسانها عين ما تنطق به ذاتها.. وكذا النظر الى الحشرات المسبحات لخالقها في جوف الغبراء بألسنة نقوشها وتزييناتها المكتوبة بقلم القدرة، كما تسبّح بكلامها الملفوظ المخصوص بها، لابد ان يفيدك اموراً اربعة:

فأولا : اطمئنان النفس، بانك في مأمن حصين وحصن أمين محاط من كل وجه بمولودات واطفال وطفيلات تربيها شفقةُ عليم، وتدبرها تربيةُ حكيم، وتزينها عناية كريم، وتُحسن اليها رحمة رحيم . فانت تحت نظر هذا العليم الحكيم الكريم الرحيم دائما..

وثانيا : لابد ان يفيدك ذلك النظر قناعة النفس، بانك لستَ سدى مهملا، غاربك على عنقك تسرح كما تشاء، وان لست موكولا مفوّضاً الى نفسك العاجزة عن ادنى حاجاتك الغير المحدودة حتى تقعد ملوما محسورا، متوحشا عن عجزك المطلق وحاجاتك الغير المحصورة. لاجل انك ترى في تلك الصغار نظاما تاما خاصا في عموميته، عاما في خصوصيته. وميزاناً حساسا في وسعته، وجساسا بالاقتصاد والامساك في عين سماحته..

ايها الغافل! الا تتلو عليك هذه الحواشي الدقيقة، والكتب الرقيقة الموجودة في بعض الحروف الكبيرة انك موزون بين موازين.. فتنبَّهْ وأقمْ الوزن بالقسط.. والحال انك تلهو كمجنون بين مجانين، فتتبله وتخسر الميزان بالسقط(١).

وثالثاً : لابد ان تلقنك هذه الرؤية التوكل والاعتماد بان من ترجوه لكل شئ وتخافه دائماً، في نهاية القرب اليك في عينِ نهاية بعدك عنه. يتصرف فيك وفيما حواليك بقدرته التي يتساوى بالنسبة اليها الاصغر والاكبر، والاقل والاكثر، والاقرب والابعد؛ لاتكلُّفَ ولامعالجة، ولامباشرة اختلاطٍ في افاعيلها بالحدس الشهودي. افلا تقرأ عليك هذه الحقيقة ان: لاتخف ولاتحزن ولاتتوحش؛ اذ اينما كنتَ فهناك

(١) اي بالخطأ.

مُلكُه، واينمـا توجهـتَ فَثَمَّ وجهُه، وانت في وطنك، ولو في بطن الارض. وانت تحت نظره، ولو في جوف العدم. تأخذك بأذنه وامره الأيادي الرحيمة الكريمة الحكيمة من حال الى حال، وطور الى طور. لا تخرج من يد الا وتسابقَ لأخذك يدٌ اخرى بالانتظام، ولاتصادف في سفرك غَول التصادف اصلا. ولاتُظلَم بالعدم ولايظلمك الفناء بالاعدام. وكم من عدم ترى خلفه – ان اقتحمته – او تحته او فيه خزينةً من خزائن الرحمة مشحونة مما « هو يبقى » من جنس ما « هو يفنى » في هذا الوجود.

ورابعـا : لابد ان تفيدك رؤية صغار الهوام وضوح برهان المخلوقية التامة، والمصنوعية العامة في كل شئ للصانع الواحد. وتُكْبِرَ في نظرك هذا البرهان بدرجة صغرها(١)، وتُظهر بدرجة خفاها(٢)؛ اذ من المحَال ان يخرج المحاطُ من دائرة تصرف خالق المحيط، فخالقُهُ هو خالقُه بالضرورة القطعية. إلا ان الصنعة فيها ابتلعت المادة وغمرتها، خلافا للمصنوعات الكبيرة.

اعلم ! ايها الغافل ان اكثر وسوستك انما تنشا من امور اربعة:

فاولا : من نسيانك نفسَك الى درجة تنقلب شعرةُ الانانية حبلاً غليظاً؛ لانك لما نسيت الله بالهوى، فأنساك نفسك، تغلظتْ انانيتك فتفسّقت مِن قشرها المتشقق بكبرها.

وثانيا : من قياس كل ذي حياة على نفسك. . مثلا: اذا رأيت حيوانا فمع ان المشهود حيوان معصوم، مأمون، ممنون؛ تفرضه انساناً متفكراً محزوناً متشتت الخواطر. . فتظن رقصه في فرح ؛ اضطراباً في ترح.

وثالثاً : من قصَر نظرك على تجلّي اسم الظاهر فقط، حتى تتوهم ان ما خرج عن دائرة هذا الاسم لَا يرجع الى دائرة مسماه. كلا ان المسمى الذي له الاسماء الحسنى، كما انه هو فوق الفوق، فهو في ابطن البطون فهو الاول والآخر و الظاهر والباطن.

ورابعاً : مِن طلب تجلي الاحدية التي هي اعلى التجليات، وابعدها واخفاها، وابسطها في اوسع واكثر وارق ما انبسطت اليها الكثرة وانتشرت ؛ اذ تنظر الى

(١) اي صغر المصنوعية والمخلوقية.

(٢) اي رغم خفائها.

حيوان مثلا: فتفنى فيه بالقياس النفسي المار آنفاً، فتدخل معك فيه انواع حسياتك. مثلا: تتصوره مثلك حزينا لفراق أليفه او وطنه، ومغموما بالتفكير في عاقبته ورزقه. فتتألم لمرض الشفقة من آلامه الموهومة، مع انك لو دخلت في عالمه بالتحقيق لما رأيت شيئا مما توهمته حينما دخلت فيه بالفرض من طريق القياس النفسي.

وكما أخطأت بهذا القياس قد تخطئ اعظم خطأ بقياس آخر، وهو انك ترى النحلة مثلا، مصنوعة فتقيس بلا شعور صانعها الواجب الواحد الحكيم الذي لاكلفة ولا معالجة ولا مباشرة بالاختلاط ولاتَعَمُّلَ في افاعيله؛ قياساً على الممكن المسكين الكثير الكثيف المقيد المحدود الذي افاعيله لا تكون الا بالمباشرة والمخالطة والكلفة والمعالجة؛ فتتوهم من هذا القياس قربك وقربَ تلك المصنوعة التي يجول قلم الصانع عليها الآن بل دائما، من صانعها المتقدس المتنزه المتعالى. نعم هو جل شأنه من جانبه سبحانه قريب.. لا اقربَ منه، اقربُ من كل قريب، واقربُ من حبل الوريد.. لكن انت ، وهذا المصنوعِ، من جهتكما بعيدان ببعدٍ لا نهاية له، كمثل الزجاجة التي تمثلت فيها الشمسُ بالتجلي فتلألأت بشعاعها، وتنورت بضيائها، وتزينت بأنكسار الالوان السبعة التي في ضيائها، وانفتح من ملكوت قلب الزجاجة الى ذات الشمس منفذٌ وسبيل فيرى من ظاهر مُلكها تمثالَ الشمس مع لوازمه في بطن وجه تلك الزجاجة بالقرب من يدك. لكن ان مددت يَدَك ما وصلتَ الى شئ، ولو مُد يدك بسبعين بل بسبعمائة مثل قطر الارض. حتى ان من في عقله بلاهة وفي قلبه محبة للشمس، قد يريد ان يصل الى محبوبته الشمس في كل ما تلألأت فيه، مستنداً بهذا الوهم السطحي، والرؤية الظاهرة.

وكذا قد يَطلب من كل ما تمثل فيه الشمس تمام ما سمعَه او عرفَه من اوصاف ذات الشمس ، ولوازماتها التي لايسعها الا مجموع عالم منظومتها، فان لم يجد الاوصاف في المثال في شئ، يشرع ينكر وجود الشمس في ذلك الشئ . بل قد ينكرها مطلقا.

والقلب مرآة الاحد الصمد، لكن له شعور احتساس بما تجلّى فيه، وعلاقةٌ مفتونيةٍ بما تَمثل فيه، خلافا لسائر المرآيا. كما بيّنه الامام الربّاني رضي الله عنه. وبهذه الخاصيةً يستعد القلب لسعادات لاتعد.

فان قلت: ما السر في اقتران فعاليةٍ خارقة في مصنوع ذي حياة، مع سكونة ما حوله كأنه لاشئ هناك، ومع عدم ترشح هذه الفعالية المدهشة من ارق لفائفه الى الخارج، ولو بمقدار ذرة ؟

قيل لك، كما قيل لي في قلبي: لو كانت الفعالية للاسباب الامكانية، ومن انفس الاشياء؛ لَلَزم ان يكون في كل حيوان فاعل مستقل له علم محيط، وفي كل ثمرة صانع قدير له قدرة مطلقة تامة بحيث لايتعسر على تلك القدرة خلق الارض بما فيها، فحينئذ يكون الترشح والتفشي والانتشار والطغيان من الضروريات، ولكن هذا الامن والامان المشهودان في الكون والمكان، وهذا السكون والسكوت المرئيان في غير عالم الانسان، وهذا الانقياد والسلم والسلام في هذا العالم في كل زمان.. ما هو الا لأن هذه الصنعة الموزونة، والصبغة المنظومة صنعة وصبغة لمن ﴿ **انّمَا امْرُهُ اذَا ارَادَ شَيْئاً انْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾[1] ولمن يقول ﴿ **وانْ منْ شَيْءٍ الاّ عِنْدنا خَزَائِنُهُ ومَا نُنزّلُهُ الأبقَدَرٍ مَعْلُومٍ** ﴾[2]. فنسبة فعلك بيدك الى فعلك باسرع الخيال، كنسبة الفعل بالخيال – لو امكن – الى فعلِ قدرة الباري بل لا مناسبة..

اعلم ! ايها السعيد المسكين المغرور! انه ليس اليك منك من الوف حاجاتك الا واحد او اقل. والباقي بالتمام مفوضٌ باليقين الى فاطرك الذي خلقك اولا كالفطير[3] بقدرته، ثم فتح صورتك في الماء بلطيف صنعه، لتصير مرآة اسمائه.. وشق سمعك وبصرك برحمته، لتسمع الحق وتعتبر بالخلق فتعرف الخالق.. وعلّق في كهف وجهك بعنايته لسانا لتذكُره.. وأدرج في رأسك عقلا لتعرفَه.. واودع في صدرك جنانا لتحبَّه.. ولطف بك في ظلمات الاحشاء، وتصرف فيك بربوبيته كيف يشاء، وركّب في وجودك بحكمته هذه الحواسَ بانواعها، وهاتيك الاعضاء باقسامها؛ لاجل احساس جميع انواع ثمرات نِعَمِه، ولاذاقة اقسام تجليات اسمائه.

فيا ايها الغافل المغرور! الى كم تتهمه، وهو هذا وقد لطف بك هكذا. وتعتمد على ذرة اقتدارك الجزئي، فيفوضك حينئذ الى نفسك بسبب سوء اختيارك فتصير ظالما لنفسك لتحميلها ما لا طاقة لها به. وما بالك وما منعك ان تتوكل على من

(١) يس:٨٢

(٢) الحجر: ٢١

(٣) العجين الذي لم يتم تخميره بعد.

ناصيتُك بيده، وحاجاتُك راجعة اليه حتى تلقى بالتسليم له ما اليك، على ما اليه. وتُلقى بالتوكلِ عليه نفسك في سفينته الجارية بين طوفان الشؤون فتقول ﴿ **بِسْمِ الله مَجْرِيٰهَا وَمُرْسٰيهَا** ﴾(١) حتى تستوي على الجودي الاسلامي، وتستريح في ساحل السلامة. الا ترى ان شمس الحياة قد اقترب ان تغترب! وان قمر الوجود قد انخسف بالشَيب، واكفهرّ ببياض الهرم. وان لا فائدة فيما سواه تعالى، بل كما انه لا فائدة فيما سواه ان لم يأذن به ففيه ضررٌ عظيم. فان كان بدونه فكل شئ ضررٌ وعدو. وان كان به فهو مغنٍ عن كل شئ، فلابد من التَرْكِ على الحالين:

أما في حال، فلكونه ضرراً محضاً.

وأما في حال، فلتفويت طلب الغير غاية الغايات مع فوات نفسه.

نعم، وبدونه الالم ازيد من اللذة في كل لذة، بل اللذة بدونه المٌ مموّه... ﴿ **ففروا الى الله** ﴾ (٢) فان عنده من كل شئ - يفنى عندكم - ما هو يبقى من نوع ذلك الشئ، فما يزول هنا ولايدوم بدونه، يستمر هناك ويدوم به. مع ان الوقت ضيق.. الا ترى انك في سكراتِ الموت، اذ تمام عمرك سُكر في سَكرات.. وسَفَر في سقطات. فارفع رأسك من الدنيا، كي ترى عند بارئك نعمةً ابدية، ورحمة سرمدية، ومحبة ازلية.

اعلم! ايها المتفكر المتحير المتحري ! اذا انتهى علمك الى شئ، او رأيت في شيء جهةً من عدم التناهي، فسبّح بحمده تعالى على قربك الى الحق ؛ اذ المجهولية واللاتناهية عنوانان وعلامتان نصبتا على حدود تصرّف ربوبيته المطلقة جل جلاله..

اعلم! ايها الوهّام ! اذا تهاجمت عليك الاوهام، فانظر يمينا لترى دوائر تصرف الخلاقية تتناظر متضايقةً، من دائرة المجرّة ومدار السيارات؛ متسلسلة الى دائرة الجوهر الفرد ومدار الذرات. ومن خلق السموات مسردةً، الى خلق الثمرات. ومن انشاء الارض، الى ايجاد الارَضة الآكلة للشجرة بتناظر، وتشابه، وتساند. تدل على اتحاد القَلَم، ووحدةِ السكّة، وانت في وسط مخروط الكائنات قائمٌ، حاملٌ للامانة، مقلَّد بالخلافة.

---

(١) هود: ٤١

(٢) الذاريات: ٥٠

ثم انظر شمالا لترى النظام العام يأمر بالعدل في كل شئ.

وترى الميزان التام ينهى عن الميل في كل شئ.

ففي ذاك؛ ما هو كالبرق يطيِّر الاوهامَ. وفي هذا ؛ ما هو كالرعد يطردُ الاحلامَ..

ثم انظر اليك، لترى نفسَك وجسمك مصنوعين من الرأس الى القدم، من اصغر حجيرة، الى تمام بدنك الذي هو ايضا حجيرة كبرى..

ثم انظر في قلبك، الى فوقك، لترى بايمانك انوار نور الانوار.. الذي خلق النور.. ونوّر النور.. وصوّر النور.. ونفذ انوار تجلياته في كل شئ جل جلاله.

اعلم! ان استعمال اسم التفضيل في بعض اسماء الله وصفاته وافعاله كـ «أرحم الراحمين واحسن الخالقين، والله اكبر» وغير ذلك لاينافي محض التوحيد. اذ المراد تفضيل الموصوف بالحقيقة وبالذات، على الموصوف بالوهم وبالنظر الظاهري الاسبابي او بالامكانات العقلية. وكذا لاينافي عزة الواحد القهار؛ اذ ليس المراد منه الموازنة بين صفاته او فعله في نفس الامر، وبين صفات المخلوقين وافعالهم؛ لان مجموع ما في المصنوعات من الكمال ظل مُفاضٌ بالنسبة الى كماله سبحانه. فلا حقَّ للمجموع – من حيث المجموع – ان تكون له نسبةُ موازنة معه، حتى يصير مفضَّلا عليه.. بل المراد الموازنةُ بين اثرِه الخاص على مفعولٍ خاص، وتأثّر المفعول من تأثيره الحقيقي فيه على درجة استعداده الخاص.. وبين اثر الوسائط الظاهرية في ذلك الشئ الخاص وتأثره منها. كما يُقال لنفر لا يعظّم الاّ چاوِشَه[1] ويحصُر شكرَه وحرمته عليه: يا هذا !. السلطان اعظمُ وارحم مِن چاوشك.. وليس المراد المفاضلة بين الچاوش والسلطان في نفس الامر ؛ اذ هو هزلٌ، ما هو بالجد. بل المراد المفاضلة بالنسبة الى ذلك النفر، باعتبار درجة مربوطيته بالسلطان حقيقةً، وبالچاوش تبعاً مع إذن السلطان.

واما ارأف من كل رؤف، واكرم من كل كريم، واعز من كل عزيز وامثالها؛ فالمراد ان لو اجتمع جميع رأفات جميع الكرماء على شخص، ما ساوت ما اصاب ذلك الشخص من بحر رحمته التي لانهاية لها.

(١) رتبة عسكرية تقابل العريف.

ففيها تفضيلٌ من اربعة اوجه: اذ المفضّل حقيقي، وواحد، وفي واحد، وبواحد. والمفضَّل عليه اعتباري، وجماعة، وبجميع ما في ايديهم، لا يساوي حصة واحدة، في شخصٍ واحد مما لايتناهى من فيض الاحد الصمد.. وكما قال تعالى ﴿ انَّ الَّذين تَدْعُونَ مِنْ دون الله لَنْ يَخْلُقُوا ذبَاباً ولو اجْتَمعوا لَهُ ﴾ (١).

اعلم! ان لفظ «الله» يدل بالدلالة الالتزامية، على معاني كل الاسماء الحسنى وعلى جميع الاوصاف الكمالية. خلافا لسائر الاعلام الدالة على ذوات المسميات فقط.. بسرّ ان صفات سائر الذوات ليست بلازمة للذوات، فلا يدل اسم الذات على صفتها، لا مطابقةً، ولا تضمنا، ولا التزاما. واما الذات الاقدس؛ فلوجود اللزوم البيّن، بينه وبين صفاته واسمائه.. وكذا لاستلزام الالوهية لها، يدل اسمه العَلَمي على جميع صفاته بالدلالة الالتزامية.. وكذا لفظ الإله، في سياق النفي.(٢)

اذا علمت هذا ؛ فاعلم ان «لا اله الا الله» يتضمن من التوحيد، ومن احكام التوحيد عدد الاسماء الحسنى..

فهذا الكلام الواحد يشتمل على الوف كلام، كل كلام مثل هذا الكلام مركب من نفي واثبات. ولاجل ان النفي يتوجه الى فردٍ فرد بالاستغراق الفردي؛ يكون في الاثبات، اثبات مجموع ما نفي عن الغير، بالقاعدة المقررة في المنطق. فكأنه قيل: «لا خالق، ولارازق، ولا قيوم، ولا مالك، ولا فاطر، ولا قهار، الا الله».. وهكذا، فيمكن ان ينبسط هذا الكلام للذاكر المترقي في الاطوار والمراتب، على كل مراتبه واحواله. فيكون التكرار كالتأكيد بالتأسيس..

اعلم! انك اذا عرفتَ ان الكلَّ منه تعالى، واذعنتَ به، لابد ان ترضى بما سرّ او ضر. وان لم ترض، اضطررت الى الغفلة. ومن هذا السر، وضعت الاسباب الظاهرية، وغُطيت الاعين بالغفلة؛ اذ ما من احد الا وما يخالف هَوَسَه، وهواه، ومشتهاه، ومناه - من حادثات الكائنات - ازيد اكثر مما يوافقها.. اذ ما بنيت الكائنات على هندسة هَوَس ذي الاماني، بل تجري الرياح بما لا تشتهي السُفن. فلو لم ير المرءُ ذو الهوى هذه الاسباب، ولم يغفل عن مسببٍ الاسباب لتوجّه اعتراضه الباطل،

---

(١) الحج: ٧٣

(٢) اي في: لا اله الاّ الله

وكراهتُه، ونفرتـه، وحدته وغيظه الواهية الى الفـاطر الحكيـم والمالك الكريم. فاذا رمى الغافلُ سهم اعتراضه اصاب الفلك(١)، او الشيطان، او انعكس الى رأسه ونفسه..

اعلم! انك اذا امعنت النظر، تفطنت ان بُعدَ «الممكن» عن درجة الايجاد، بمراتبَ غير متناهية، بالنسبة الى مقدار ما يُشاهد في ذلك المصنوع المستند الى ذلك الاقتدار الغير المتناهي..

اعلم! ان الدعاء على ثلاثة اقسام:

الاول: دعاء الانسان، بهذا اللسان بالقول. وكذا الحيوانات الصائحات بالسنتها المخصوصة، في الحاجات المشعورة لهم.

والثاني: الدعاء بلسان الاحتياج، كدعاء جميع النباتات، والاشجار «لا سيما في الربيع». وكذا في كل الحيوانات في الحاجات الضرورية الغير المشعورة..

والثالث: الدعاء بلسان الاستعداد، كدعاء كل ما فيه نشوء ونماء، وتحوّل وتكمل. فكما ان: ﴿ **وانْ من شئٍ الاّ يُسبحُ بِحَمْدِه** ﴾ (٢) كذلك إن من شئٍ الا ويدعوه، ويشكره بذاته وحاله دائما، كما قد يدعو بلسانه.

اعلم! ان النواة قبل ان تتشجر.. والنطفة قبل ان تتبشر.. والبيضة قبل ان تتطير.. والحبة قبل ان تتسنبل، لابد ان تكون تحت تدبير علمٍ تام نافذ وتربيةٍ، لتساقَ من بين ما لايُحَدّ من الطرق العقيمة المعوجة، الى الصراط المستقيم المنتجة. فما هو الا علمُ علام الغيوب الذي يصورُ في الارحام كيف يشاء، عالم الغيب: «غيب الماضي، والمستقبل، والشهادة، شهادة الحال الحاضر». فكأن كلاً من النواة والنطفة والبيضة والحبة تذكرةٌ مختصرة، استنسخت من الكتاب المبين من كتب القُدرة.. او فهرستةٌ، أستخرجت من الامام المبين من كُتب العلم الازلي ومكتوباته.. او دساتيرٌ، أستنبطت من ام الكتاب من كُتب القَدَر الازلي، لا سيما من باب الميزان والنظام.. او فذلكةٌ اوامرٍ متمثلة متمركزة ممتزجة، تنزّلتْ من ربوبية القدير على كل شئ، العليم بكل شئ. جل جلاله.

(١) الدهر : المقدرات الالهية : القدر
(٢) الاسراء: ٤٤

اعلم! ان نظر المؤمن الى المصنوعات حرفيٌ؛ انما ينظر اليها لتدل على معنى في غيرها..

واما نظر الكافر اليها، فقصدي اسميٌ؛ لتدل على معنى في نفسها.

ففي كل مصنوع وجهان: وجه، ينظر الى ذاته وصفاته الذاتية. ووجه، ينظر الى صانعه، والى ما تجلى اليه من اسماء فاطره..

والوجه الثاني؛ اوسع مجالا، واكملُ مالا، اذ كما ان كل حرف من كتاب، يدل على نفسه بمقدار حرف، وبوجهٍ واحد. ويدل على كاتبه بوجوه كثيرة، ويعرّف كاتبه، ويصفه للناظر بمقدار كلماتٍ كثيرة.. كذلك ان كل مصنوع الذي هو حرفٌ من كتاب القُدرة، يدلّ على وجوده ونفسه بمقدار جِرمه، ونفسِه، وبوجهٍ واحد، وهو وجوده الصُوري. لكن يدل على نقاشه الازلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من اسمائه المتجلية على ذلك المصنوع، بمقدار قصيدة طويلة.

ثم ان من المقرر ان المعنى الحرفي، لا يُحكَم عليه بالاحكام القصدية، تصديقاً وتكذيباً. ولا يستتبع اللوازم،[1] الاّ بنظر ثانوي. فلهذا لا يتغلغل ذهنُ ناظره في دقائقه، الا اذا نظر قصداً، فحينئذ يصير الحرفُ اسماً. بخلاف المعنى الاسمي[2].

فمن هذا السر ترى كتب الفلاسفة، احكم فيما يعود الى الكائنات في انفسها، مع انها اوهن من بيت العنكبوت فيما يعود اليها، بالنسبة الى صانعها[3]. وكلام المتكلمين مثلا، لا ينظر الى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية، الاّ بالمعنى الحرفي التبعي و الاستطرادي، وللاستدلال فقط.. حتى انه يكفي لهم ان تكون الشمس سراجاً، والارض مهاداً، والليل لباساً، والنهار معاشا، والقمر نورا، والجبال اوتادا. اي بمشاطيتها للهواء، ومخزنيتها للماء والمعادن، وحمايتها للتراب عن التوحل، وتسكين غضب الارض المتزلزلة بتنفسها فيها ـ ولا يكفي للفلسفي الا ان تكون

(١) اي لا يكون محكوماً عليه بالاحكام القصدية ولا يستتبع لوازم الحكم.

(٢) اي يكون محل حكم تصديقاً وتكذيباً (ت: ٢١٦)

(٣) ان الاحكام التي تخص الكائنات بذاتها تبدو في كتب الفلاسفة قوية في الظاهر إلاّ ان حقيقتها أوهن من بيت العنكبوت (ت : ٢١٦)

الشمس مركز عالم منظومتها، وناراً عظيمة بدرجة تتطاير السيارات مع ارضنا حولها كالفراش المبثوث. وهكذا، حتى لو لم يطابق رأيُ المتكلمين الواقعَ، مع مطابقة الحس العمومي، والتعارف العام لما ضرَّهم، ولا استحقوا التكذيب[١].. فلهذا يُرى آراؤهم بادي الرأي؛ اضعف وادنى طبقةً في المسائل الفلسفية، واقوى من الحديد في اساسات المسائل الالهية..

ومن هذا السر ايضا تصير الغلبةُ في الاكثر في الاوائل في الاولى لاهل الضلال، فيما يعود الى الدنيا، والى ظاهر هذه الحياة. اذ هم بجميع لطائفهم الساقطة الى درجة نفوسهم، متوجهون قصدا وبالذات الى الدنيا قائلون بأعمالهم: ﴿ **ان هي الا حياتنا الدنيا** ﴾ [٢] ولكن العاقبة للمتقين الذين قيل لهم ولسيدهم: ﴿ **وللآخرةُ خيرٌ لكَ من الاولىٰ** ﴾ [٣] ﴿ **وما الحَيَاةُ الدنيا الا لَعبٌ ولَهْوٌ ولَلدارُ الاخرةُ خيْرٌ للَّذين يَتَّقُونَ افلا تعقلون** ﴾ [٤] ﴿ **وانَّ الدَّار الآخِرةَ لَهِيَ الحَيوانُ لوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [٥] فحسبنا الله ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير..

اعلم! ان عفوه تعالى فضل، وعذابه عدل؛ اذ كما ان من اكل سمًّا، فهو مستحق للمرض بحكم عادة الله المستمرة. فان لم يمْرض، فهو فضل وكرامة من الله بخرق العادة.

نعم، مناسبة المعصية للعذاب قويةٌ بدرجة من القوة، حتى ضلّت فيها المعتزلة فاسندوا الشرَّ الى غيره تعالى، واوجبوا الجزاء عليه. واستلزام الشر للعذاب، بسر النظام العام لا ينافي كمال الرحمة؛ اذ هذا الضرر الجزئي متصلٌ بانبوب في سلسلة نظام محيط، تدلت منه كالعناقيد خيراتٌ كثيرة. مع ان ترك هذه الخيرات الكثيرة لمنع هذا الضرر الجزئي والشر القليل، ضررٌ كلي، وشر كثير. وهو ينافي حكمةَ عدالة العدل، الحكيم، الكريم.

---

(١) لانهم لم يذكروا الرأي إلاّ للاستدلال والاستطراد.

(٢) الانعام: ٢٩

(٣) الضحى: ٤

(٤) الانعام: ٣٢

(٥) العنكبوت: ٦٤

ايها الانسان الظلوم الجهول! اتق الشر ما استطعت. والا استحققت جزاءَ تركك(١) مع جزاء تفويتك لنتيجة سائر الاسباب السابقة عليك، في سلسلة مبادي وجود النتيجة. اذ الشرُّ عدمٌ. وبعدم الجزء الآخر من العلة ينعدم المعلول. فيعود على الجزء الآخر، كل ضرر عدم المعلول. الا ان ثمرات الوجود لا تعود اليه الا بمقدار حصته، اذ وجود الجزء ليس علة لوجود الكل. فمن هنا يُرى كمال عفوه تعالى، وكمال فضله؛ اذ يجزي بالشر مثلَه، وبالخير عشرةَ امثاله. مع اقتضاء الاستحقاق الواقعي عكسه(٢). وكذا يُرى ظلم البشر بحكمهم بعكس الواقع..

اعلم ! ان الانسان مبتلىً بالنسيان، واسوأ النسيان نسيانَ نفسه. الا ان نسيان النفس ان كان في المعاملة، والخدمة، والسعي، والتفكر فهو الضلال. وان كان في النتائج والغايات فهو الكمال. فاهل الضلال، واهل الهدى متعاكسان في النسيان والتذكر. اما الضال ؛ فينسى نفسه عند النظر للعمل، و تطبيق دساتير الوظيفة، بل يمدّ نظرَه الى الآفاق لتطمين الانانية المتفرعنة، وغرورَه المنبسط الذي تضيق عنه النفس. لكن يتذكر نفسه في كل شئ من الغايات فتيلاً او نقيراً. حتى لا غاية عنده، الا ما يعود الى نفسه. وان غاية الغايات في نظره، حب ذاته.

واما من زكّاها فيتذكر نفسَه قبل كل شئ عند السعي، والسلوك في الحركة، او التفكر، فكأن نفسه واحد قياسي، ومبدأ مركزي لكل عملٍ وتفكر. لكن ينسَى نفسه في النتائج، والاعراض، والفوائد، والمقاصد. حتى كأن نفسه فانية، وداخلة في لا شئ، او مملوكة خدمت سيدها بلذة الاخلاص، في وظيفة عائدة من كل وجه الى السيد. فلا حق لها في مقاضاة شئ، فما اعطى سيدُها لها، تراه النفس من محض الفضل..

اعلم ! ان سر تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتهم في جماعاتهم سر عظيم، وامر جسيم، له شأن فخيم ؛ اذ يصير به كلُ فرد كالحجر المجصوص، في البناء

---

(١) جزاء تركك الخير.

(٢) حيث الحسنات لانها ايجابية ووجودية فلا تتعدد مادياً ولا تحصل بايجاد العبد، فالمفروض ان تكتب حسنة واحدة بعكس السيئات التي تتعدد وتتجاوز، فالمفروض ان تكتب الف سيئة. راجع ان شئت رسالة «حكمة الاستعاذة» اللمعة الثالثة عشرة، ففيها التفصيل الشافي.

المرصوص. يستفيد من اخوانه في الايمان، بالوف الف الف ما يستفيد من عملِ نفسه. (فاذا نظمهم سلكُ الايمان) يصير كلٌ لكلٍ، وللكل شفيعا، وداعيا، ومسترحما، وراجيا، ومادحا، ومزكيا. لاسيما لرئيسهم، ورأسهم(١). فيتلذذ كلُ فرد بسعادات سائر اخوانه كتنعم الام الجائعة، بلذة ولدها. والاخ الشفيق بسعادة شقيقه. حتى يصير هذا الانسان المسكين الفاني مستعداً لعبودية خلّاق الكائنات، وقبول السعادة الابدية.

فانظر الى النبي عليه الصلاة والسلام فاذا تراه، وهو يدعو بـ «يا ارحم الراحمين»!. ترى الامة كلهم يقولون: اللهم صل وسلم على عبدك وحبيبك محمد بحر انوارك، ومعدن اسرارك، وناشر ذكرك وشكرك، ودلال محاسن سلطنة ربوبيتك. فيزكونه عند ربهم. ويحببونه الى مَن ارسله رحمة لهم. ويؤيدون شفاعته. وكذا ينادون بلسان عجزهم المطلق، وفقرهم المطلق، غناءه سبحانه المطلق، في استغنائه الاكمل. وينادون جوده المطلق، في عزته الاجلّ. وينادون بلسان عبوديتهم المطلقة، ربوبيته المطلقة. وبهذا التعاون العلوي المعنوي يترقى الانسان، من اسفل سافلي الحقارة والصغر والعجز؛ الى اعلى عليي الخلافة، وحمل الامانة وقابلية المكّرمية بتسخير السموات والارض له.

اعلم ! ان من بَعُدَ عن شئ لا يرى، كما يراه القريب منه. ولو كان البعيد اشد ذكاء واحدّ بصراً. فاذا تعارضا ترجّح القريب مطلقا. فالفلاسفة الاوروبائية المتغلغلون في المادية، تباعدوا بمراتب عديدة، ومسافات طويلة عن مقام الاسلام والايمان والقرآن. فاعظم فلاسفتهم لا يساوي عامياً يفهم بالاجمال مآل القرآن فقط.

هكذا شاهدتُ وهو الواقع. فلا تقل: من كشف خواص البرق والبخار، كيف لا يفهم اسرار الحق، وانوار القرآن ؟ نعم، ليس له، اذ عقلُه في عينه(٢)، والعينُ لا ترى ما يراه القلب والروح. لا سيما مع البعد، ولاسيما عند موت القلب بانقلاب الغفلة الى الطبيعة. ﴿ **طَبَعَ الله على قُلُوبِهِم وسَمْعِهِمْ وابصارِهِمْ** ﴾(٣)

---

(١) المقصود: الرسول الاعظم ﷺ (ت: ٢١٧)
(٢) اي لا يفهم ولا يصدّق الاّ ما يرى.
(٣) النحل: ١٠٨

اعلم ! ان من اعظم كفران النعم، ومن اشد تكذيب الالآء، عدم الشكر على ما عَمَّه وغيره ؛ كالسمع والبصر. أو دام واستمر، كالنور والنار. او احاط وطم كالهواء و الماء؛ بل انما يشكر الله على مايخصه من دون الناس، او يتجدد عليه، او يندر لندر الحاجة. مع ان الاعمَ الدائم الادوم، هو النعمة الاعظم الاتم. العموم يدل على كمال اهميتها، والدوام على غلو قيمتها..

اعلم ! ان من آياتِ أنه تعالى ﴿ **واحصىٰ كُلَّ شَيءٍ عَدداً** ﴾ (١) التساوي، والتوازن، والانتظام بين اعداد المتجاورات، والمتقابلات، والمتشابهات كالاصابع في الايادي، والحبات في السنابل، والنواة في الثمرات، والاوراق في الازهار.. فسبحان من احصى كل شئ عدداً واحاط بكل شئٍ علما.

اعلم ! ان التلقيح والتولد مع التربية الشفيقة ؛ وظيفتان عامتان نافذتان ساريتان الى اصغر الاشياء. لهما مكافاة عاجلة هي اللذة المودعة فيهما. فعموم جود المحسن الكريم، مع شدة شوق كل الاشياء (المزدوجة) في ايفاء هاتين الوظيفتين بالمشاهدة؛ يدلان على ان النباتات، والاشجار، والمعادن، بل الجامدات ايضا لها حصة من هذه النعمة واللذة بوجه يليق بها. فمراعاة المكافاة، والرحمة، والعدل بهذه الدرجة، وسر ﴿ **ورحمتي وسعت كل شئ** ﴾ (٢) وكثرة الروايات المؤيدات للمكافأة، والقصاص في الحيوانات في الحشر ؛ تشير الى بقاء ارواح الحيوانات، ومكافاتها على وظائفها التي امتثلوها بكمال الاطاعة والانقياد(٣). واما المنقلب ترابا بعد الحشر؛ فهو اجسادُهم. الا انه يجوز ان يجتمع تمام نوع منه «مجتمعا، او فرداً فرداً» في جسد شخص مبارك، كالناقة المذكورة في القرآن والكبش، والكلب، والهدهد، والنملة وغيرها..

---

(١) الجن: ٢٨

(٢) الاعراف: ١٥٦

(٣) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : «لتؤدُّن الحقوق الى اهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» : رواه مسلم برقم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٥٣٥ (تحفة الاحوذي) وقال : في الباب عن ابي ذر وعبدالله بن انيس . (ومعنى الجلحاء : اي التي لا قرن لها).

اعلم ! ايها السعيد المسكين الحريص على بقاء الوجود، في هذه الدنيا الفانية، فرغماً على انفك تفني، الاّ ما ابقاه الباقي. ويزول وجودك، الا ما توجه الى جهته سبحانه. وتنطفئ حياتك، الا ما افنيته في سبيله.

فما دام هذا هكذا.. فقل: حسبي من البقاء، ان الله المالك الباقي.. وحسبي من لذة البقاء، علمي بانه معبودي الباقي.. وحسبي من غاية البقاء، معرفتي بانه ربي الباقي.. وحسبي من البقاء وكماله، ايماني بانه موجدي الباقي.. حسبي من الوجود، كوني اثر واجب الوجود.. حسبي من قيمة الوجود، اني صنعة من فطر السموات والارض.. حسبي من غاية الوجود، علمي باني صبغة من زيّن السماء بمصابيح، والارض بازاهير.. حسبي من لذة الوجود، علمي باني مصنوعه ومخلوقُه وهو ربي وموجدي.. حسبي من الحياة، مظهريتي لتجليات اسماء خالق الموت والحياة.. حسبي من الحياة وحقوقها وغاياتها، اظهاري على رؤس الاشهاد، وتشهيري بين ذوي الادراك من اخواني الكائنات، واعلاني في سوق العالم بسر جامعية وجودي لغرائب آثار تجليات اسماء خالق السموات والارض.. حسبي من غاية الحياة، كوني انموذجا وفهرستةً لآثار تجليات اسمائه الحسنى.. حسبي من الحياة وكمالها، اظهاري بلسان احوالي لتجليات اسماء من قامت السمٰوات بامره، واستقرت الارض باذنه.. حسبي من لذة الحياة، علمي باني مملوكُه ومصنوعُه ومخلوقه وعبده وفقيره، وهو خالقي والهي وربي وفاطري ومالكي ورحيمٌ بي ومنعِمٌ عليّ.. حسبي من الكمال، الايمان بالله.. وحسبي من كل شئ «الله»..

اعلم ! ان في التوحيد، واسناد الاشياء الى الواحد سهولة بلا نهاية، الى درجة الوجوب، وقيمة غالية بلا نهاية. وان في الشرك، واسناد المصنوعات الى الكثرة صعوبة بلا نهاية الى درجة الامتناع. وسقوط قيمة، وذلة نازلة بلا غاية، كما مر مراراً. الا ترى كيف يتعاظم ما في يد الجندي مما يُنسب الى السلطان ويعزّ منه ما هو في امر السلطان. ويغلو كلامه الذي هو بحساب السلطان قيمةً وأهميةً. ويتيسر بكمال السهولة «تدارك كل لوازمات الحياة» من خزائن الملك وماكيناته. وكيف يتساقط ما ذُكر، هباء منثورا ؛ ان انقطع الربط بعصيان الجندي!

اعلم ! ان الضر كالنفع منه.. وكذا الشر كالخير منه.. والموت كالحياة بقدرته وقدره؛ اذ في موت شئ، حياة آخر او مبدؤها. او هو، هي. وكذا الشر والضر.

اعلم ! ان في روح الانسان قابليةً بوجهين: لِلَذّات غير متناهية، وآلام غير محصورة من جهة جامعية ماهيته، وكثرة جهازاته بلا حد. ومن جهة تلذذه بتنعمات اولاده واخوانه من ابناء نوعه او جنسه او اخوانه من اجزاء الكائنات، وتألمه بتألماتها..

اعلم ! اني قد شاهدتُ ان النظر الى الغير مع نسيان النفس، يقلب الحقائق. كالنظر في الماء يريك الاشياء المعنوية، معكوسة منتكسة. فمع انك تجهل، تعتقد أنك تعلم..

اعلم ! ان ما اقتضى « تكرار بعض اجزاء القرآن » ما اقتضى تكرار الأذكار والأدعية. اذ القرآن كما انه كتاب حقيقة وشريعة، وكتاب معرفة وحكمة، كذلك هو كتاب ذكر ودعاء ودعوة.. والذكر يردَّد، والدعاء يُكرر، والدعوة تؤكّد..

اعلم ! ان من مزيّات علو القرآن ؛ ايرادُ مذكّرات الوحدة، خلفَ مباحث الكثرة. والاجمالُ عقيب التفصيل. وترديف بحث الجزئيات، بدساتير الربوبية المطلقة. ونواميس الصفات الكمالية العامة الشاملة، بذكر فذلكات كالنتائج. او كالتعليلات في اُخريات الآيات. لاجل ان لا يتغلغل ذهن السامع في ذلك الجزء الكوني المذكور، فينسى « عظمة مرتبة الالوهية المطلقة ». حتى يخل بلوازم آداب العبودية الفكرية، لذى العظمة والهيبة والكبرياء . وكذا ليبسط ذهنك من ذلك الجزئي، الى امثاله واشباهه.. وكذا يريك القرآن بهذا الاسلوب، ويفهّمك ان في كل جزئي ولو حقيرا وزائلا سبيلا واضحا ، وصراطا مستقيما، ومحجةً بيضاء الى معرفة سلطان الازل والابد، والى شهود جلوات اسماء الاحد الصمد.

مَثلُ القرآن في هذا الاسلوب؛ كمثل من يريك قطرة ماء فيها شُميسة، او زهرةً فيها تجلي الوان ضياء الشمس. فيريك بلا مهلة « الشمس » في رابعة النهار بحشمتها. ويرفع رأسك اليها، لئلا تتشوش عليك الحال، فتتصاغر عندك الشمس فتصير تنكر لوازم عظمتها.

مثلا في سورة يوسف: ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ (١) خلف امر جزئي(٢).. وكذا في سورة الحج: ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ (٣) وفي سورة النور: ﴿ واذا بلغ الاطفال ﴾ الى ﴿ والله عليم حكيم ﴾ (٤). وفي سورة العنكبوت: ﴿ وان اوهن البيوت ﴾ الى ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾(٥) وامثالها..

اعلم ! ان همة الاولياء ومددهم، وافاعليهم المعنوية بالافاضات نوعٌ من الدعاء، حالي او فعلي. والهادي هو الله وهو المغيث المعين. ولقد تلمّع لي شئ، لكن ما تشخص واضحاً؛ وهو ان في الانسان لطيفة وحالة، اذا دعا الانسان – ولو كان فاسقا – بلسانها استجيب له قطعا. نعم هي لطيفة اذا اقسمت على الله ابرّها .

اعلم ! يا مَن يتيقن الماضي، ويشك في الآتي!.. اذهب بنفسك الى عصرين من قبل، وافرض نفسك جدّك الذي هو في وسط شجرة نَسَبك. ثم انظر الى اجدادك الذين هم موجودات ماضوية. ثم الى اولادك المتسلسلين منك اليك، الذين هم ممكنات استقبالية، هل ترى تفاوتا بين الجناحين؟ كلا لاترى، لا في الانتظام، ولا في شئ يوهم وجود التصادف. بل كما ان الاول مصنوع بعلم واتقان يراه صانعه. كذا الثاني؛ سيصنع كذلك وهو مشهودٌ لصانعه قبل كونه. فاعادة اجدادك، ليست بأغرب من ايجاد اولادك. بل هو اهون منه. كما قال سبحانه ﴿ وهو اهون عليه ﴾(٦). فقس على هذا الجزء الجزئي، الكل الكلي. لترى كل الوقوعات الماضية معجزات، تشهد على ان صانعها قدير على كل الممكنات الاستقبالية. وعليمٌ بتفاصيلها، ومحيطٌ وبصير بها .

نعم، كما ان هذه الموجودات الجلية، والاجرام العلوية، في بستان الكائنات: معجزات تشهد وتنادي على ان خلاقها على كل شئ قدير، وبكل شئ عليم. كذلك هذه النباتات المتلونة المتزهرة المنشورة، وهذه الحيوانات المتنوعة المتزينة

---

(١) يوسف: ٧٦
(٢) المقصود : الكيد الذي دُبّر لابقاء الاخ الحقيقي لسيدنا يوسف عليه السلام.
(٣) الحج : ٧٤
(٤) النور: ٥٩
(٥) العنكبوت: ٤١
(٦) الروم: ٢٧

المنشورة في حديقة الارض، خوارقُ صنعةٍ ؛ تشهد بأعلى صوتها على ان صانعها على كل شئ قدير، وبكل شئ عليم. تتساوى بالنسبة الى قدرته الذراتُ والشموس، ونشرُ اثمار الشجر، وحشرُ ابناء البشر.. نعم ليس انشاء ازهار شجرة منشورة على اغصانها الرقيقة الدقيقة، بأهونَ من انشاء ابناء نوع الانسان على عظامهم الرميمة المتفرقة..

اعلم ! انه كم من نعمة كقطرة معصورة بنظام رقيق، وميزان دقيق من كل الكون كالثمرة من الشجرة. فان كانت معصورة محلوبة على الحقيقة مع غاية البعد، فما المنعم الاّ مَن في قبضته كل الكون يعصره كيف يشاء، كما هو الظاهر الحق المشهود. فما المُنعِم الاّ الذي خزائنه بين الكاف والنون. فما من نعمة الا مِن الذي صيّر «كن» مصدر الكون. وما المنة والشكر الاّ له سبحانه.

اعلم ! ان مما افيض على قلبي من فيض القرآن من كثرة ذكره احياء الارض، وجلبه انظار البشر الى التراب؛ ان الارضَ قلبُ العالم. والترابَ، قلبُ الارض. وان اقرب السبل الى المقصود يذهب في التراب، من باب التواضع والمحوية والفناء. بل هو اقرب من اعلى السموات الى خالق السموات؛ اذ لا يُرى في الكائنات شئ يساوي التراب في تجلي الربوبية عليها، وفعالية القدرة فيها، وظهورِ الخلاقية منها، والمظهرية لجلوات اسمي الحي القيوم.

وهكذا، فكما ان «عرش الرحمة» على الماء، كذلك ان «عرش الحياة والاحياء» على التراب، والتراب اجمع المرايا واتمها. اذ مرآة الكثيف كلما كأن الطفَ واشفّ؛ تريك صورةَ الكثيف اوضحَ واظهر واتم. لكن مرآة اللطيف النوراني كلما كان اكثفَ؛ كان التجلي بالاسماء عليها اتم. ألا ترى الهواء لا يأخذ من فيض الشمس الا ضياءً ضعيفا. والماء وان اراك الشمس بضيائها، لكن لا يفصل الوانه. مع ان التراب يريك بازاهيره مفصل كل ما اندمج في ضيائها من الالوان السبعة ومركباتها. مع ان هذه الشمس قطرةٌ متلمعة كثيفة؛ بالنسبة الى نور شمس الازل. وتزين التراب وتبرّجه في الربيع؛ بما لا يحد ولا يعد من لطيفات الازاهير، وجميلات الحيوانات المنادية على كمال ربوبيته، شاهدٌ مشهود. فان شئت فانظر الى هذه الواحدة، المسماة

بالتركي (هرجائي منكشه)[١] كيف تتصرف يدُ الصانع الحكيم في تلويناتها وتزييناتها وهي واحدة. لكن تظهر وتنظر اليك متبسمة، لا بل متعبسة في عشرين صورة.

فسبحان من يتعرف الينا بلطيف صنعه. ويعرِّف الخلائق في قدرته بعجائب تصرفه في التراب. ومما يرمز الى هذا السر حديث (اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).[٢]

فان كان هذا هكذا؛ فلا تتوحش من التراب وذهابك فيه، ولا تتدهش من القبر وسكونك فيه..

اعلم ! ان عقلي قد يرافق قلبي في سيره فيعطي القلبُ مشهودَه الذوقي ليد العقل؛ فيبرزه العقل على عادته في صورة المبرهن التمثيلي. ومن تلك الحقائق ان الفاطر الحكيم كما انه بعيد بلا نهاية، كذلك قريب بلا غاية. وكما انه في ابطن البطون، كذلك فوق الفوق. وكما انه ليس داخلا، كذلك ليس خارجاً.

فان شئت فانظر الى آثار رحمته المنثورة على سطح كرة الارض، والى معمولات قدرته المنشورة في دوائر صحائف الارض لتشاهد هذا السر متلمعاً من سطورها: اذ لابد لصانع ذرتين، او زهرتين، او ثمرتين، او نحلتين في مكانين في آن واحد، من بُعْد ازيد من البعد بينهما. واذا كانتا: في الكرة والدائرة،[٣] مع تخلل اعظم القوس بينهما، فحينئذ لابد للمقابلة التامة – على التساوي الضرورية المشهودة – من بعدٍ بلا حد. هذا في وجه الظاهر، وفي جانب المُلك. واما في وجه الباطن وفي جهة الملكوت؛ فلابد لتساوي المقابلة – بلاكيفية – المشهودة، في كمال سهولة الايجاد وسرعته، مع الجود المطلق، في الاتقان المطلق من قرب بلا نهاية. لا كقرب المركز لتفاوت نسب نقاط الدوائر المتداخلة بالنسبة الى المركز. مع انه لاتفاوت بالنسبة الى «الموجد» الذي اتقن كل شئ صنعاً. واحسن كل شئ خلقه.

نعم هذا السر من خصائص دائرة الوجوب والتجرد، ومن خواص الاطلاق، ومن خصوصيات تجلي الاحدية في الوحدة، ومن لوازم مباينة ماهية الفاعل الاصلي للمنفعل الظلي.

---

(١) نوع من الاقحوان من نباتات الظل.

(٢) تكملة الحديث: «فاكثروا الدعاء»: اخرجه مسلم برقم ٤٨٢ وابو داود برقم ٨٧٥ والنسائي ٢ / ٢٢٦ عن ابي هريرة (وانظر كشف الخفاء للعجلوني ١ / ١٦٠)

(٣) اى احداهما في الكرة الارضية والاخرى في مدارها.

مثلا: « ولله المثل الاعلى »: ان لذات الشمس قرباً بلا حد؛ من تماثيلها في المرايا والازاهير. اذ ذات الشمس قيوم التماثيل، واقرب اليها من لصيقها، بل من انفسها. وكذا لها بُعد بلا حد من تلك الظلال؛ اذ لايتيسر، بل لايمكن قطع المسافة المتخللة بين الظل المتمكن في مرآتك، وبين الاصل.

فسبحان من تقدس عن الاشباه ذاتُه، وتنزهتْ عن مشابهة الامثال صفاتُه. هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم..

اللّهم ياعدل. يا حكم. يا عليم. ياحكيم. انه ليس في الرياح مَرَّةٌ، ولا في السحاب قطرة، ولا في الرعود زجرة، ولا في البروق لمعة، ولا في الرياض زهرة، ولا في الجنان ثمرة، ولا في الهواء نحلة، ولا في النبات صبغة، ولا في الحيوان صنعة، ولا في الوجود زينة، ولا في الكون ذرة، ولا في الخلق نظام، ولا في الفطرة ميزان، ولا في العرش شئ، ولا في الكرسي شأن، ولا في السماء نجم، ولا في الارض آية: الا وهي لك ادلة شهدت، وآيات تشهد على انك واجب، واحد، احد، صمد. وبراهين نيرة شاهدات على انك انت الله، وانت علام الغيوب مخرج الحبوب، مسخر القلوب. جميع الخلق مقهورون تحت قدرتك، قلوبهم في قبضتك، نواصّيهم بيدك، مقاليدهم لديك. لا تتحرك ذرة الا باذنك.

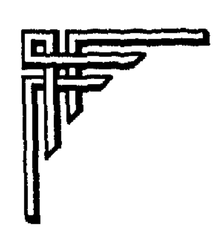
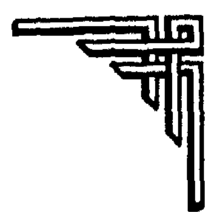
يا اله الأولين والآخرين. يارب محمّد عليه الصلاة والسلام وابراهيم وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام! اسألك باسمك العظيم، وبنور وجهك الكريم، وبدينك القويم، وبصراطك المستقيم، وبالسبع المثاني، وبالقرآن العظيم، وبالف الف « قُلْ هُوَ اللهُ احَدٌ » وبالف الف فاتحة الكتاب، وباسمائك الحسنى، وباسمك الاعظم، وبالحجر الاسود، وببيتك المكرم، وبليلة القدر، وبرمضان المعظم، وبانبيائك المكرمين، وبحبيبك الاكرم ﷺ؛ ان ترحم امة محمد، واشرح صدورهم للايمان والاسلام، وسلّمنا من شر الملاحدة وسلّم ديننا، ونوّر برهان القرآن، وعظّم شريعة الاسلام.

آمين يا ارحم الراحمين..

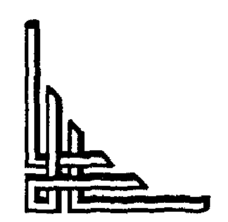
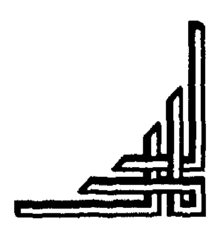
* * *

[بارك الله فيكم الف الف مرة ووفقكم الله] (١)

(١) كتب الاستاذ النورسي هذه الجملة الطيبة بالتركية في المخطوط بخط يده.

ذيل الشعلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله والصلاة على نبيه

اعلم! انه لا يتستر عن النور المحض المحيط شئ من الاشياء، وكذا لا يخرج امر من الامور عن دائرة القدرة الغير المتناهية؛ والا لزم تناهي غير المتناهي بالتحديد بالمتناهي، وهو محال بوجوه..

وكذا ان الحكمة تعطي كل شئ، الفيض بقدره كما يقال: [كلٌ بقدره].. وان بقدر الظرف يغترف من البحر، وان المقدر القدير الحكيم لا يشغله صغير عن كبير، ولا خطير عن حقير. وان المحيط الظاهر الباطن المجرد عن المادة لا يواري الاكبرُ عنه الاصغر. ولا النوعُ الفردَ. وان الصغير مادةً قد يكون كبيراً من جهة الصنعة. وان نوع الصغير، عظيم كثير كبير. وان العظمة المطلقة لا تقبل الشركة اصلا ولا تتحملها.

وان ما يشاهد من الجود المطلق في السهولة المطلقة، في السرعة المطلقة، في الاتقان المطلق، مع ارادة التعرف التام.. مع محبة ذي الجمال مشاهدةَ جماله المطلق وكماله المطلق، وتشهيرهما.. ومع الرحمة المطلقة، والغناء المطلق بشهادة الآيات التكوينية.. ومع وجود مالا يحد ولا يعد من الناظرين المتفكرين المشاهدين المعتبرين.. يقتضي – بهذه الاسباب – بلاشك وجود انواع الحوينات والطويرات ايضا، بل اَولى، اذ الصغيرُ الادق اقربُ الى الوجود.. والى القدرة النورانية..

اعلم ! يا (انا) اذا كان نفسك احب اليك، لانها اقرب اليك من كل شئ؛ فلابد ان يكون ربك احب اليك منك؛ اذ هو اقرب اليك من نفسك. الا ترى ان ما لا يصل اختيارُك وخيالك اليه من اسرار ما رُكّب فيك، هو حاضر مشاهَد لربك..

اعلم ! انه لا تصادف؛ فانظر الى الرياض واستمع كيف تقرأ على الناظر بنهاية الانتظام في غاية الاختلاط، وكمال الامتياز في كمال امتزاج اشتاتِ الاشياء.. آيات حكمة الصانع العليم المحيط..

اعلم ! انك ان لم تُوَحِّدْ بنسبة كل شئ الى الواحد، تضطر الى فرض وجود آلهة بعدد تجليات الله على جميع افراد الانواع في العالم. كما اذا اغمضت عينيك عن الشمس، وتغافلت عنها، وقطعت عنها نسبة الشُميسات المتلمعات في قطرات وجه البحر بتجليها، اضطررت الى قبول وجود شموس بالاصالة فيها بعدد تلك القطرات. مع ان القطرة لا تسع اصغر مصباح، فكيف بسراج العالم!!

اعلم ! انه يشاهد للمدقق؛ ان طوائف المخلوقات واصناف المصنوعات تتسابق بالرقابة والاشتياق الى التبرّج والتزين، للعرض والظهور، لنظر شاهد جليل يشاهدها كلها، ودائما، وبجميع دقائق محاسنها؛ اذ المصنوعات تظهر بالمشاهدة هيئة تتضمن مالا يتناهى من لطائف اتقان الصنعة الجالبة لنظر الدقة، والاستحسان والحيرة.. فما هذا التهالك بالمسابقة للظهور، متزينةً الاّ لاجل العرض لنظر لايتناهى. وما هو الا نظر الشاهد الازلي الذي خَلَقَ الخلق ليشاهد في مرايا اطوارها جلوات انوار جماله وجلاله وكماله.. ثم يستشهد عليها شهداء تعرّف اليهم، باراءة ذلك الكنز الخفي.

فاعلى غايات وجود الشئ واغلى حقوق حياة الحي ؛ هو المشهودية والظهور لنظر فاطره، بمظهريته لآثار اسمائه. والذّ لذائذ هذه الحياة، هو الشعور بهذا الشهود..

واما الظهور لانظار اخوانه من المخلوقات، فهو ايضا غاية. لكن نسبتها الى الغاية الاولى، كنسبة المتناهي الى غير المتناهي..

واما ما اشتهر بين الناس من «حق الحياة» وهو حفظ الحياة مع نوع راحة ؛ فاقل واصغر وادنى واحقر من ان يكون جزءاً من ملايين اجزاء «حق الحياة» تلك الحياة التي هي من أعلى واغلى واعجب واغرب والطف واشرف معجزات قدرة الحي القيوم الاحد الصمد. بل ماهو الا وسيلة وانما يتشرف ما بقي وسيلةً. فاذا ترقى الى المقصدية، سقط بالزوال هباءً منثوراً..

اتظن ايها الغافل! ان غاية عجيب صنعة الرمانة مثلا، هي اكلُك ومضغك في دقيقة بغفلة.. كلا، بل انما هي كلمة افادت معناها للمكوّن سبحانه، وللكون؛ فوفّت فتوفّت فدفنت مِن فيكَ فيك، ويكفي من الزمان والبقاء لهذه الغاية آن سيال، فلا عبثية.

وكذا فاعلم ان من له جمال فائق، فلذته الحقيقية في المشاهدة لجماله شهوداً بالذات، وشهوداً باراءة مصنوعاته لمخلوقاته فيشهدونها.. فيشهد ايضا في شهودهم بشهودهم..

واما لذة التفوق بملاحظة الغير فغيرذاتية، بل عرضية ضعيفة، ومشوبة مخصوصة بالامور النسبية..

واما ذو الكمال الذاتي والجمال الحقيقي المجرد السرمدي، المحبوب لذاته، لذاته الذي له المثل الاعلى، فقد اخبرنا على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام؛ «انه خلق الخلق ليُعرف»(١).. اي صوّر مرايا ليشاهد فيها تجليات جماله المحبوب لذاته بذاته..

(١) وهذا مقارب بالمعنى ماورد (كنت كنزاً لا اعرف فاحببت ان اعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم لي فعرفوني): لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف الا ان على القاري قال: ولكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الاّ ليعبدون ﴾ اي ليعرفوني كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. (كشف الخفاء ٢ / ١٣٢ باختصار)

اعلم ! ايها الفاني كفاك بقاءً، انك مشهوده في علمه ومعلومه في شهوده بعد فنائك من بعض الوجوه. (ياهو) اعط كل شئ لصاحبه الحقيقي وانسبه اليه. وخذه باسمه. ثم استرح، والا اضطررت الى قبول آلهة بعدد تجليات الله كما مر آنفاً. بل بعدد ذرات الكائنات كما مر مراراً ايضا. وكذا بعدد اجزاء التراب.. اذ اي جزء من التراب تراه يصلح لحصول ما لا يعد من المصنوعات المنتظمة المتنوعة.

فسبحان من تنزّه عن الاشباه ذاته.

وتقدست عن مشابهة الامثال صفاتُه.

ودلّت على وحدانيته مصنوعاته.

وشهِدت بربوبيته آياته.

واحاط بكل شئ علمُه وقدرته.

جل جلاله. ولا اله الاهو ..

* * *

الرسالة الثانية عشرة

الرسالة القيمة

نُقْطَةٌ

مِنْ نُورِ مَعْرِفَةِ ٱللهِ جَلَّ جَلَالُهُ

طبعت هذه الرسالة باللغة التركية لأول مرة بمطبعة «اوقاف» باستانبول سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) على ابواب ثلاثة ولم يدرج الاستاذ المؤلف هنا الآ الباب الاول منها فترجمناه كاملاً.

ايضاح

اذا ما دخلتُ بستاناً فلا اجني الا الأجود من الثمرات، حتى اذا ما تعبت في قطفها أجد المتعة واللذة. ولو وقع نظري على الفاسدة منها، أصرفه عنها، آخذاً بالقاعدة: «خذ ما صفا دع ما كدر»... هكذا أنا، فارجو أن يكون قرائي ايضاً مثلي.

يقال: ان كلامك لايُفهم بوضوح.

- نعم ! ماحيلتي.. هكذا ترد السانحات الى القلب.. فبينما اجدني كأنني اتكلم فوق منارة عالية، اذا بي - في احيان أخرى - أنادي من قعر بئر عميق.

فيا قارئي العزيز! ارجو ان تلاحظ في هذه الرسالة:

ان المتكلم: هو قلبي العاجز.

أما المخاطب: فهو نفسي العاصية.

بينما المستمع: هو ذلك الانسان الذي يتحرى الحقيقة.

وسنشير في هذه الرسالة الى ما نقصده بالذات - وهو التوحيد - في اربعة براهين عظيمة من بين براهينه التي لا تحصر...

سعيد النورسي

آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى والبعث بعد الموت حق، اشهد ان لا اله الاّ الله واشهد ان محمداً رسول الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه اجمعين .

ان مقصودنا ومطلوبنا هو: ﴿ الله لا اله الاّ هو الحي القيوم ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فمن بين براهينه التي لاتعد نورد هنا اربعة منها:

البرهان الاول: هو محمد ﷺ. (وقد بسطنا هذا البرهان في رسالة «شعاعات»)[1].

البرهان الثاني: هذا الكون وهذا الانسان الاكبر، ذلك الكتاب الكبير المنظور.

البرهان الثالث: هو القرآن الكريم.. ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه وهو الكلام المقدس.

البرهان الرابع: الوجدان الحي، أو الفطرة الشاعرة، الذي يمثل البرزخ ونقطة اتصال عالمي الغيب والشهادة. فالفطرة الشاعرة او الوجدان نافذة الى العقل ينشر منها شعاع التوحيد.

• البرهان الاول: وهو حقيقة محمد ﷺ

تلك المجهزة بالرسالة والاسلام، فمن حيث الرسالة تتضمن شهادة أعظم اجماع واوسع تواتر لجميع الانبياء عليهم السلام. ومن حيث الاسلام تحمل روح الاديان السماوية كلها وتصديقها المستند الى الوحي.

فالرسول الكريم ﷺ يبين للبشرية جمعاء وجود الله ووحدانيته في جميع اقواله الصادقة المصدّقة بمعجزاته الباهرة، وبشهادة الانبياء عليهم السلام وتصديق الاديان

(١) شعاعات من معرفة النبي ﷺ رسالة صغيرة من مؤلفات سعيد القديم.

كلها. فهو ﷺ يظهر ذلك النور باسم المصطفين الاخيار من البشرية الذين اتحدوا في هذه الدعوة.

تُرى هل يمكن ان يتسلل الباطل الى مثل هذه الحقيقة الباهرة التي تنال هذا القدر من التصديق، وتبصرها العيون النافذة في الحقائق، فتراها واضحة جلية خالصة لا شائبة فيها؟.. كلا.. ثم كلا.

• البرهان الثاني: وهو كتاب الكون

نعم! ان حروف هذا الكتاب ونقاطه فرداً فرداً او مجموعة، يتلو كلٌّ بلسانه الخاص: ﴿**وان من شئ الاّ يسبّح بحمده**﴾ (الاسراء: ٤٤). ويبين وجود الخالق العظيم ووحدانيته.. فكل ذرة في الكون تشهد شهادة صادقة على وجوب وجود الخالق الحكيم جل جلاله. فبينما تراها تتردّد بين امكانات واحتمالات غير متناهية، في صفاتها وذاتها وأحوالها ووجودها، اذا بها تنتعش وتسلك طريقاً معيناً، وتتصف بصفة معينة، وتتكيف بحالة منتظمة، وتسير وفق قانون مسدّد، وتتوجه الى قصد معين.. فتنتج حِكماً ومصالح تبهر الالباب.. فتزيد سطوع الايمان بالله في اللطيفة الربانية الممثلة لنموذج عوالم الغيب في الانسان. أفلا تنادي الذرة بلسانها الخاص وتصرّح بقصد صانعها الجليل، وبحكمته البالغة؟. فكل ذرة من الذرات كما انها تدل على الخالق الحكيم، بوجودها المنفرد، وبصفاتها الخاصة، وبكيفياتها المعينة، فان هذه الدلالة تتزايد، باعتبار كون الذرة جزءاً من مركبات متداخلة متصاعدة، ومن حيث الامكانات والاحتمالات التي تسلكها، اذ لها في كل مركب مقام، وفي كل مقام نسبة معينة وارتباط معين، وفي كل نسبة لها وظيفة خاصة، وفي كل موقع تحافظ على التوازن العام، وفي كل وظيفة تثمر مصالح شتى وحكماً عديدة. في كل مرتبة اذاً تتلو الذرة بلسانها الخاص دلائل وجوب وجود صانعها الجليل وتظهر قصد خالقها الحكيم، وكأنها ترتل الآيات الكريمة الدالة على الوحدانية. مثلها في هذا كمثل الجندي الذي له وظيفة معينة وارتباط خاص مع كلٍ من فصيله وفرقته والجيش كله.. ألا تكون اذاً البراهين الدالة على الله سبحانه وتعالى أكثر بكثير من عدد ذرات

الكون، فما يقال من أن: «الطرق الى الله بعدد انفاس الخلائق» انما هي حقيقة صادقة لا مبالغة فيها قط، بل قد تكون قاصرة.

■ **سؤال**: لماذا لايرى الجميع بعقولهم الخالق العظيم ؟

الجواب: لكمال ظهوره جل وعلا، ولعدم الضد.

تأمل سطور الكائنات فانها   من الملأ الأعلى اليك رسائل

فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلى فيه النظام بوضوح تام بحيث يُظهر النّظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزة القدرة في كل كلمة أو حرف فيه. فتأليف هذا الكتاب البديع فيه من الاعجاز الباهر بحيث لو فرضنا - فرضاً محالاً - ان كل سبب من الاسباب الطبيعية فاعلاً مختاراً، لسجدت تلك الاسباب جميعاً - بكمال العجز - أمام ذلك الاعجاز، قائلة: سبحانك... لاقدرة لنا... انك انت العزيز الحكيم. اذ انك ترى أن في هذا الكتاب من النظم الدقيق المتشابك المتساند بحيث يلزم لايجاد نقطة في مكانها الصحيح قدرة مطلقة تستطيع ايجاد الكون كله، وذلك لأن كل حرف من حروفه - ولاسيما ما كان ذا حياة - له وجه ناظر الى كل جملة من جمل الكتاب، وله عين شاخصة اليها، بل ان كل كلمة فيه لها ارتباط وثيق مع كلمات الكتاب كلها.. فالذي خلق عين البعوضة اذاً هو خالق الشمس ايضاً، والذي نظّم معدة البرغوث هو الذي ينظم المنظومة الشمسية. فان شئت راجع كتاب «السانحات» لترى حقيقة الآية الكريمة: ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم الاّ كنفسٍ واحدة**﴾ (لقمان: ٢٨). ولتشهد كيف يقطر شهدُ الشهادة الصادقة من لسان معجزة القدرة، النحل، الذي يمثل كلمة صغيرة من هذا الكتاب. او ان شئت فتأمل في نقطة من هذا الكتاب، في حيوان مجهري لا يُرى بالعين المجردة، لتشهد كيف انه يمثل نموذجاً مصغراً للكائنات. فالذي كتبه على هذه الصورة المعجزة كتب الكائنات. فلو امعنت النظر فيه لرأيته يضم من المكائن الدقيقة والاجهزة البديعة ما يثبت لك يقيناً انه لا يمكن ان يفوّض أمره الى الاسباب الجامدة البسيطة الطبيعية التى لا تميز بين الامكانات. الاّ اذا توهمت ان في كل ذرة شعورالحكماء وحكمة الاطباء ودهاء الساسة والحكام، وانها تتحاور فيما بينها دون وساطة !!. وما هذا الاّ

خرافة يخجل منها الخرافيون. فلا يمكن ان تكون تلك الماكنة الحية الصغيرة اذاً الاّ معجزة قدرة إلهية. ألا ترى ان العقول تنبهر امامها؟ فهي اذاً ليست من صنع الاسباب الطبيعية، بل من ابداع من يقدر على ايجاد الكائنات كلها وينظم شؤونها، اذ هو محال ان يجتمع اس اساس تلك الأسباب المادية وهو: القوة الجاذبة والقوة الدافعة معاً في جزء لايتجزأ للقيام بتلك الصنعة الحكيمة.

نعم! ان ما يظنونه اساساً لكل شئ من جذب ودفع وحركة وقوة وامثالها، انما هو ناموس الهي يمثل قوانين عادات الله، واسم لها. فهذه القوانين مقبولة بشرط الاّ تنتقل من كونها قاعدة الى طبيعة فاعلة، ومن شئٍ ذهني الى حقيقة خارجية، ومن امرٍ اعتباري الى حقيقة مشهودة، ومن آلة قياس الى مؤثر حقيقي.

■ **سؤال**: مع ان هذه الشهادة قاطعة، فكيف اذاً يعتقد البعض بأزلية المادة، وتشكّل الانواع من حركات الذرات (اي بالمصادفة) وامثالها من الامور؟

الجواب: لمجرد اقناع النفس بشئ آخر (غير الايمان بالله)، ولأنهم لايدركون فساد الفكرة بالنظر السطحي التقليدي، ينشأ لديهم هذا الاحتمال. ولكن اذا قصد الانسان وتوجّه بالذات الى اقناع نفسه، فلابد انه سيقف على محالية الفكرة وبُعدها عن المنطق والعقل. ولو اعتقد بها فلا يعتقد الاّ بسبب التغافل عن الخالق سبحانه. فما اعجب الضلال!... ان من يضيق عقله عن ازلية الله سبحانه وايجاده الاشياء كلها - وهي صفة لازمة ضرورية للذات الجليلة - كيف يعطي تلك الازلية والايجاد الى ذرات غير متناهية والى اشياء عاجزة ؟!. فلقد اشتهرت حادثة: انه بينما كان الناس يراقبون هلال العيد، ولم يره احد، اذا بشيخ هرم يحلف انه قد رأى الهلال، ثم تبين ان مارآه لم يكن هلالاً بل شعرة بيضاء مقوسة قد تدلت من حاجبه! فاين تلك الشعرة من الهلال ؟ واين حركات الذرات من تشكيل الانواع؟.

ان الانسان لكونه مكرّماً فطرةً يبحث عن الحق دوماً، واثناء بحثه يعثر على الباطل احياناً فيخفيه في صدره ويحفظه. وقد يقع الضلالُ - بلا اختيار منه - على رأسه اثناء تنقيبه عن الحقيقة، فيظنه حقاً، فيلبسه كالقلنسوة على رأسه.!!

■ **سؤال**: ما هذه «الطبيعة» و«القوانين» و «القوى» التي يسلّون بها انفسهم؟

الجواب: ان الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاماً دقيقاً بين افعال وعناصر واعضاء جسد الخليقة المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ«سنة الله» و «الطبيعة» وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون.

أما ما يسمونه بـ «القوى» فكل منها هو حكمٌ من احكام هذه الشريعة.

و«القوانين» كل منها عبارة عن مسألة من مسائلها.

ولكن لاستمرار احكام هذه الشريعة واطراد مسائلها توهّم الخيال فجسّمها في «الطبيعة» واعتبرها موجوداً خارجياً مؤثراً وحقيقة واقعية فاعلة، بينما هي امر اعتباري ذهني. فترى النفوس التي ترى الخيال حقيقة والامر الاعتباري الذهني امراً خارجياً ألبست هذه الطبيعة طور المؤثر الحقيقي. والحال لا يقنع القلبُ بأي مبرر، ولا يعجب الفكر بأي مسوغ، بل لاتأنس الحقيقة: بكون هذه الطبيعة الجاهلة مصدراً للاشياء. فما ساقهم الى هذه الفكرة غير المعقولة الاّ توهمهم انكار الخالق الجليل، وذلك لعجزهم عن ادراك آثار قدرته المعجزة المحيرة للعقول.

فالطبيعة مطبعة مثالية وليست طابعة، نقش لانقاشة، قابلة للانفعال لا فاعلة، مسطر لا مصدر، نظام لا نظّام، قانون لا قدرة، شريعة ارادية لا حقيقة خارجية.

فلو قدم شخص في ريعان الشباب الى هذا العالم البديع مباشرة، ودخل قصراً فخماً مزيناً بأروع الآثار وافترض لنفسه ان ليس هناك من أحد خارج البناء قد قام بتشييده وتزيينه، وبدأ يتحرى السبب الفاعل في ارجاء القصر، ووقع بصره على كتاب جامع لأنظمة القصر وخارطته، فانه يتصور – من جهله – ان هذا الكتاب هو الفاعل، لما ينعكس في شعوره من البحث عن علّة حقيقية، فيضطر الى هذه العلة بسبب افتراضه الموهوم مقدماً!. وهكذا البعض يسلّي نفسه بالطبيعة بسبب تغافله عن الخالق الجليل، فيضطر الى خداع نفسه بنفسه ويتيه في مثل هذه الامور الخارجة عن منطق العقل.

والشريعة الالهية اثنتان:

احداهما: الشريعة الآتية من صفة الكلام التي تنظم افعال العباد الاختيارية.

والثانية: الشريعة الآتية من صفة الارادة التي تسمى بالاوامر التكوينية والشريعة الفطرية وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون.

فكما ان الشريعة الاولى عبارة عن قوانين معقولة، فان الشريعة الثانية ايضاً عبارة عن مجموع القوانين الاعتبارية، والتي تسمى – خطأ – بالطبيعة فهذه القوانين لاتملك التأثير الحقيقي ولا الايجاد، اللذين هما من خواص القدرة الالهية.

ولقد شرحنا – أثناء بياننا التوحيد – ان كل شئ مرتبط بالاشياء جميعاً، فلا شئ يحدث من دون الاشياء جميعاً. فالذي يخلق شيئاً قد خلق جميع الاشياء، لذا فليس الخالق لشئ الاّ الواحد الأحد الصمد. بينما الاسباب الطبيعية التي يسوقها أهل الضلالة هي متعددة، فضلا عن انها جاهلة لا يعرف بعضها بعضاً. علاوة على انهّا عمياء، وليس بين يديها الاّ المصادفة العمياء.. ف ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾ (الانعام: ٩١)

الخلاصة: ان الاعجاز الباهر الظاهر في النظام والتناسق والاطراد المشاهد في كتاب الكون الكبير – وهو برهاننا الثاني على التوحيد – يظهر بوضوح تام كالشمس الساطعة ان الكون وما فيه ليس الاّ آثار قدرة مطلقة وعلم لا يتناهى وارادة ازلية.

■ **سؤال**: بم يثبت النظام والانتظام والتناسق ؟.

الجواب: ان العُلوم الكونية التي توصل اليها الانسان، هي كالحواس لنوع الانسان وكالجواسيس تكشف له عن مجاهيل لا يصلها بنفسه. فبالاستقراء التام يمكنه ان يتوصل الى كشف ذلك النظام بتلك الحواس والجواسيس. فكل نوع من انواع الكائنات قد خصّ بعلم أو في طريقه الى ذلك، لذا يُظهر كل علمٍ ما في نوعه من انتظام ونظام بكلية قواعده، لأن كل علم في الحقيقة عبارة عن دساتير وقواعد كلية. وكلية القواعد تدل على حسن النظام؛ اذ ما لا نظام له لا تجري فيه الكلية. فالانسان مع انه قد لا يحط بنفسه بالنظام كلّه الا انه يدركه بجواسيس العلوم، فيرى أن الانسان الاكبر – وهو العالم – منظمٌ كالانسان الأصغر سواءً بسواء. فما من شئ الاّ ومبني على اسس حكيمة، فلا عبث، ولا شئ سدىً.

فبرهاننا هذا ليس قاصراً -كما ترى - على اركان الكائنات واعضائها، بل يشمل الخلايا وجميع الكائنات الحية، بل يشمل الذرات جميعاً،فكلها لسان ذاكر يلهج بالتوحيد، والجميع يذكرون معاً: «لا اله الاّ الله» .

● **البرهان الثالث: هو القرآن الحكيم:**

اذا ما الصقت أذنك الى صدر هذا البرهان الناطق ستسمع حتماً انه يردد: «لا اله الاّ هو». فبرهاننا هذا يمثل شجرة عظيمة متشعبة الاغصان والفروع، تتدلى منها ثمرات الحق والحقيقة من كل جانب بغزارة ووفرة وحيوية، بحيث لا تدع لأحد أن يداخله ريب من أن بذرتها الاصيلة - وهي التوحيد - قوية، حقة، حية؛ اذ لا يخفى ان البذرة الفاسدة لا تؤتي شجرتها الثمار الغضة كل حين.

أما غصن هذه الشجرة الوارفة الممتد الى عالم الشهادة. فهو يحمل اثمار الاحكام الصائبة الحقة، مثلما أن الغصن العظيم الممتد الى عالم الغيب غني بالثمرات اليانعة الحقة للتوحيد والايمان بالغيب.

فاذا ما شوهد هذا البرهان العظيم من جميع جوانبه لعُلم يقيناً ان الذي يعلنه واثق كل الثقة، من نتيجته - وهي التوحيد - ومطمئن اطمئناناً لا يشوبه تردد قط، اذ يبني جميع الامور على هذه النتيجة الرصينة، بل يجعلها حجر الزاوية لكل شئ في الوجود.. فمثل هذا الاساس الراسخ لا يمكن ان يكون تكلفاً وتصنعاً البتة، بل يجعل الاعجاز الباهر على هذا البرهان مستغنياً عن تصديق الآخرين له، فانباؤه كلها صدق، ثابتة وحق وحقيقة بنفسها.

نعم! ان الجهات الست لهذا البرهان المنير شفافة رائقة، فعليه الاعجاز الظاهر، وتحته: المنطق والدليل، وفي يمينه: استنطاق العقل، وفي يساره: استشهاد الوجدان، أمامه وهدفه: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، نقطة استناده: الوحي المحض.. أفيجرأ وهمٌ ان يقتحم هذا الحصن الحصين ؟

وهناك اصول اربعة للعروج الى عرش الكمالات وهو «معرفة الله» جلّ جلاله:

اولها : منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقي.

ثانيها : منهج علماء الكلام المبني على «الحدوث والامكان» في اثبات واجب الوجود.

ومع ان هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، ألاّ أن البشر قد افرغهما في صور شتى، لذا اصبحا منهجين طويلين، وذوي مشاكل فلم يبقيا مصانين من الاوهام والشكوك.

ثالثها : مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والاوهام.

رابعها واولاها : طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو اقصر طريق الى الله، واقربه الى الله، واشمله لبني الانسان.

ولبلوغ عرش هذا الاصل هناك اربع وسائل: الالهام، التعليم، التزكية، التدبر.

هذا وان للقرآن الكريم في معرفة الله سبحانه، واثبات وحدانيته طريقين:

الاول: دليل العناية والغاية.

ان جميع الآيات الكريمة التي تعدّ منافع الاشياء، وتذكر حِكَمها، هي نسّاجة لهذا الدليل، ومظاهر لتجلي هذا البرهان.

وزبدة هذا الدليل هي: اتقان الصنع في النظام الاكمل في الكائنات، وما فيها من رعاية المصالح والحكم، اذ النظام المندمج في الكائنات، وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفياً قاطعاً وهم المصادفة والاتفاق الاعمى. لأن الاتقان لا يكون دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهد صدق على النظام، ويشير الى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في اغصان الموجودات، ويلوح في الوقت نفسه الى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الاحوال وتغيّر الاطوار.

فان شئت فانظر الى علم الحيوان والنبات. فقد ثبت فيهما ان الانواع التي يزيد عددها على مئتي الف نوع، كل له اصل معين، وجدّ اكبر – مثلما الانسان له اصل

وهو آدم عليه السلام – وكل فرد من هذه الانواع الوفيرة كأنه ماكنة بديعة عجيبة تبهر الافهام. فلا يمكن ان تكون القوانين الموهومة الاعتبارية والاسباب الطبيعية العمياء الجاهلة، موجدة لهذه السلاسلِ العجيبة من الافراد والانواع. اي ان كل فرد، وكل نوع، يعلن بذاته أنه صادر مباشرةً من يد القدرة الالهية الحكيمة.

ويذكّرنا القرآن الكريم بهذا الدليل، في قوله تعالى:

﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ (الملك: ٣) بل يبينه على افضل واكمل وجه، اذ كما أنه يأمرنا بالتفكر في المخلوقات فانه يقرّر في الاذهان هذا الدليل – دليل العناية – بتعداده الفوائد والنعم، ومن بعد ذلك الاحالة الى العقل في خواتيم الآيات وفواصلها. فينبه العقل ويحرك الوجدان في امثال هذه الآيات:

﴿ **.. أو لا يعلمون** ﴾ ﴿ **.. أفلا تتذكرون** ﴾ ﴿ **.. فاعتبروا..** ﴾.

الدليل القرآني الثاني: هو دليل الاختراع. وخلاصته:

ان الله تعالى اعطى لكل فرد، ولكل نوع، وجوداً خاصاً، هو منشأ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة، اذ لانوع يتسلسل من الازل. لأنه من الممكنات ولبطلان التسلسل. وان الحقائق لا تنقلب بل ثابتة، والانواع المتوسطة لا تدوم سلاسلها، أما تحول الاصناف فهو غير انقلاب الحقائق، اذ ما يسمّونه من تغير صور المادة ما هو الاّ حادث، لأن حدوث بعضها مشهود، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة العقلية. فالقوى والصور من حيث انها عرضية لاتشكل التباين الجوهري الموجود في الانواع. فلا يكون العرض جوهراً. ففصائل الانواع اذاً وميزات عموم الاعراض وخواصها قد ابدع واخترع من العدم البحت، اما التناسل في السلسلة فهو من الشرائط الاعتبارية الاعتيادية. فيا عجباً كيف تستوعب اذهان الضلالة أزلية المادة – وهي تنافي الازلية قطعاً – بينما تعجز تلك الاذهان عن ادراك ازلية الخالق الجليل التي هي من ألزم صفاته الضرورية؟

ثم كيف وجدت الذرات المتناهية في الصغر قوةً وثباتاً بحيث تقاوم اوامر القدرة الالهية، وتبقى ازلية، بينما الكون بعظمته منقاد الى تلك الاوامر انقياد طاعة وخضوع؟ وكيف يسند الابداع والايجاد – وهما من خواص القدرة الالهية – الى أعجز شئ وأهونه وهو الاسباب؟.

فالقرآن الكريم يرسخ هذا الدليل في آياته التي تبحث عن الخلق والايجاد، ويقرر: ان لا مؤثر الاّ الله وحده. فالاسباب لا تأثير لها تأثيراً حقيقيا، وانما هي ستائر امام عزة القدرة وعظمتها، لئلا يرى العقل مباشرة يد القدرة بالامور الخسيسة بنظره الظاهر، اذ ان لكل شئ جهتين:

احداهما: جهة الملك: وهي كالوجه الملون المطلي للمرآة، ترده الاضداد، وتصبح حقيرة، عظيمة، قبيحة، شريرة.. الخ. فالاسباب في هذا الوجه موجودة لأجل اظهار العظمة والعزة.

والجهة الثانية: جهة الملكوت: وهي كالوجه الشفاف للمرآة. هذه الجهة جميلة في كل شئ، اذ لا تأثير للاسباب فيها، فالوحدانية تقتضي هذا. وحيث ان كلاً من الحياة والروح والنور والوجود قد خرج من يد القدرة الالهية دون وساطة فالوجهان شفافان جميلان، اي: جميل ملكاً وملكوتاً.

• البرهان الرابع: هو وجدان الانسان المسمى بالفطرة الشاعرة.

اولاها: ان الفطرة لا تكذب، ففي البذرة ميلان للنمو، اذا قال: سأنبت، سأثمر، فهو صادق. وفي البيضة ميلان للحياة، اذا قال: سأكون فرخاً، فيكون باذن الله، وهو صادق. واذا قال ميلان التجمد في غَرفة من ماء: سأحتل مكاناً أوسع، فلا يستطيع الحديد - رغم صلابته - ان يكذّبه، بل صدقُ قوله يفتت الحديد. فهذه الميول انما هي تجليات الاوامر التكوينية الصادرة من الارادة الالهية.

النكتة الثانية: لا تقتصر حواس الانسان الظاهرة والباطنة على الحواس الخمسة المعروفة؛ حاسة السمع والذوق والبصر.. الخ، وانما له نوافذ كثيرة مطلة الى عالم الغيب، فله حواس كثيرة غير معلومة. فحاسة السَوق وحاسة الشوق لديه حواس لا تكذب ولا تزل.

النكتة الثالثة: لا يمكن ان يكون شئ موهوم مبدءاً لحقيقة خارجية. فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث أن الانسان مكرم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردى الانسان الى اسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال في الكائنات يردّ هذا الاحتمال.

النكتة الرابعة: ان الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطّل العقلُ نفسه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه اليه. والحدس – الذي هو سرعة انتقال في الفهم – يحرّكه دائما. وكذا الالهام – الذي هو الحدس المضاعف – ينوّره دوماً. والعشق الالهي يسوقه ويدفعه دوماً الى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان المغروز في الفطرة. فالانجذاب والجذبة المغروز في الفطرة ليس الاّ من جاذب حقيقي.

وبعد ما تبين لك هذه النكات، أمعن في الوجدان لترى كيف انه برهان مودع في نفس كل انسان يثبت التوحيد، ولتشاهد ايضاً ان قلب الانسان مثلما ينشر الحياة الى ارجاء الجسد فالعقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله تنشر الحياة الى آمال الانسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة، كل بما يلائمه، فتقطر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة واهمية، بل تبسطها وتصقلها.. فهذه هي نقطة الاستمداد.

والمعرفة الالهية نفسها هي نقطة استناد للانسان امام تقلبات الحياة ودوّاماتها وامام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه، اذ الانسان ان لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كل امره نظام وحكمة، واسند الامور والحوادث الى المصادفات العمياء، وركن الى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً من المصائب، فانه سينهار حتماً من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات اليمة تذكّره بعذاب جهنم. وهذا ما لايتفق وكمال روح الانسان المكرم، اذ يستلزم سقوطه الى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كله، اي ان هاتين النقطتين: نقطة الاستمداد والاستناد ضروريتان لروح الانسان. فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثها في وجدان كل انسان من هاتين النافذتين – نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد – فمهما اطبق العقل جفنه ومهما اغمض عينه.. فعيون الوجدان مفتحة دائماً.

وهكذا فشهادة هذه البراهين الاربعة العظيمة القاطعة تدلنا على: ان الخالق الجليل كما انه واجب الوجود، ازلي، واحد، أحد، فرد، صمد، عليم، قدير، مريد، سميع، بصير، متكلم، حي، قيوم، فهو متصف كذلك بجميع الاوصاف الجلالية والجمالية، لأن ما في المخلوقات من فيض الكمال انما هو مقتبس من ظل تجلي كمال

خالقه الجليل، فبالضرورة يوجد في الخالق سبحانه من الحسن والجمال والكمال ما هو أعلى بدرجات غير متناهية وبمراتب مطلقة من عموم ما في الكائنات من الحسن والكمال والجمال. ثم ان الخالق سبحانه منزّه عن كل النقائص، لأن النقائص انما تنشأ عن افتقار استعداد ماهيات الماديات وقابلياتها، وهو سبحانه وتعالى منزّه عن الماديات مقدس متعال عن لوازم واوصاف نشأت عن امكان ماهيات الكائنات.

﴿ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١)

فسبحان من اختفى لشدة ظهوره.

سبحان من استتر لعدم ضده.

سبحان من احتجب بالاسباب لعزته.

■ **سؤال:** ما ترى في « وحدة الوجود »؟

الجـــواب: انه استغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر؛ اذ ان شدة الإستغراق في التوحيد – بعد توحيد الربوبيةوتوحيد الألوهية – يُفضي الى وحدة القدرة، اي: لا مؤثرفي الكون الاّ الله. ثم يؤدي هذا الى وحدة الادارة، وهذا يسوق الى « وحدة الشهود » ثم الى « وحدة الوجود ». ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم الى رؤية موجود واحد... فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلاً على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحه من تأثير الاسباب ولم تتجرد من دائرتها اذا ما تكلم عن وحدة الوجود يتجاوز حدّه. والذين يتكلمون به انما حصروا نظرهم في « واجب الوجود » حصراً بحيث تجرّدوا عن الممكنات فاصبحوا لا يرون الاّ وجوداً واحداً بل موجوداً واحداً.. نعم، ان رؤية النتيجة ضمن الدليل، أي رؤية الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شئ ذوقي ولا يمكن بلوغها الاّ باستغراق ذوقي. فادراك حقيقة جريان التجليات الألهية في جداول الاكوان، وسريان الفيوضات الألهية في ملكوتية الاشياء، ورؤية تجلي الاسماء والصفات في مرايا الموجودات.. اقول: ان ادراك هذه الحقائق أمرٌ ذوقي. الاّ ان أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الالفاظ عبّروا عن هذه الحقيقة بالألوهية

السارية والحياة السارية في الموجودات، وحينما حصر أهل الفكر والعقل هذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والافكار الباطلة.

ثم ان ما لدى الفلاسفة الماديين ومن وهنت عقيدتهم من المفكرين من مذهب «وحدة الوجود» وما لدى الأولياء منه بون شاسع وفروق كثيرة بل انهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الاول: ان علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في «واجب الوجود» واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجود الكائنات ولم يعودوا يرون في الوجود الاّ هو. اما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الايمان) فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن أدراك الألوهية بل أولَوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود الاّ المادة بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الالوهية في المادة بل استغنوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني: ان ما لدى الصوفية من وحدة الوجود تتضمن وحدة الشهود في حين مالدى الآخرين يتضمن وحدة الموجود.

الفرق الثالث: ان مسلك الاولياء مسلك ذوقي بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع: يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظراً تبعياً ثانوياً الى المخلوقات بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولاً وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: ان الاولياء عبّاد الله ومحبوه بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فاين الثرى من الثريا.. واين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.

تنوير:

لو افترض – مثلاً – ان الكرة الأرضية قد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جداً ومختلفة الالوان، فلا شك ان كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها.

فهذا الفيض الخيالي ليس الشمس بذاتها ولا ضياؤها بعينه.

فلو نطقت ألوان الازهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضياء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها:

ان الشمس مثلي. او ان الشمس تخصّني انا.

آن خيالاتى كه دام اولياست عكس مهروبان بستان خداست(١)

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب اهل وحدة الوجود هو: الفناء والسكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.

(تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فانكم لن تقدروا) (٢)

حقيقة المرء ليس المرء يدركُهــا فكيف كيفية الجبار ذي القدم

هو الذي ابدع الاشياءَ وأنشأها فكيف يُدركهُ مستحدثُ النَّسَمِ (٣)

* * *

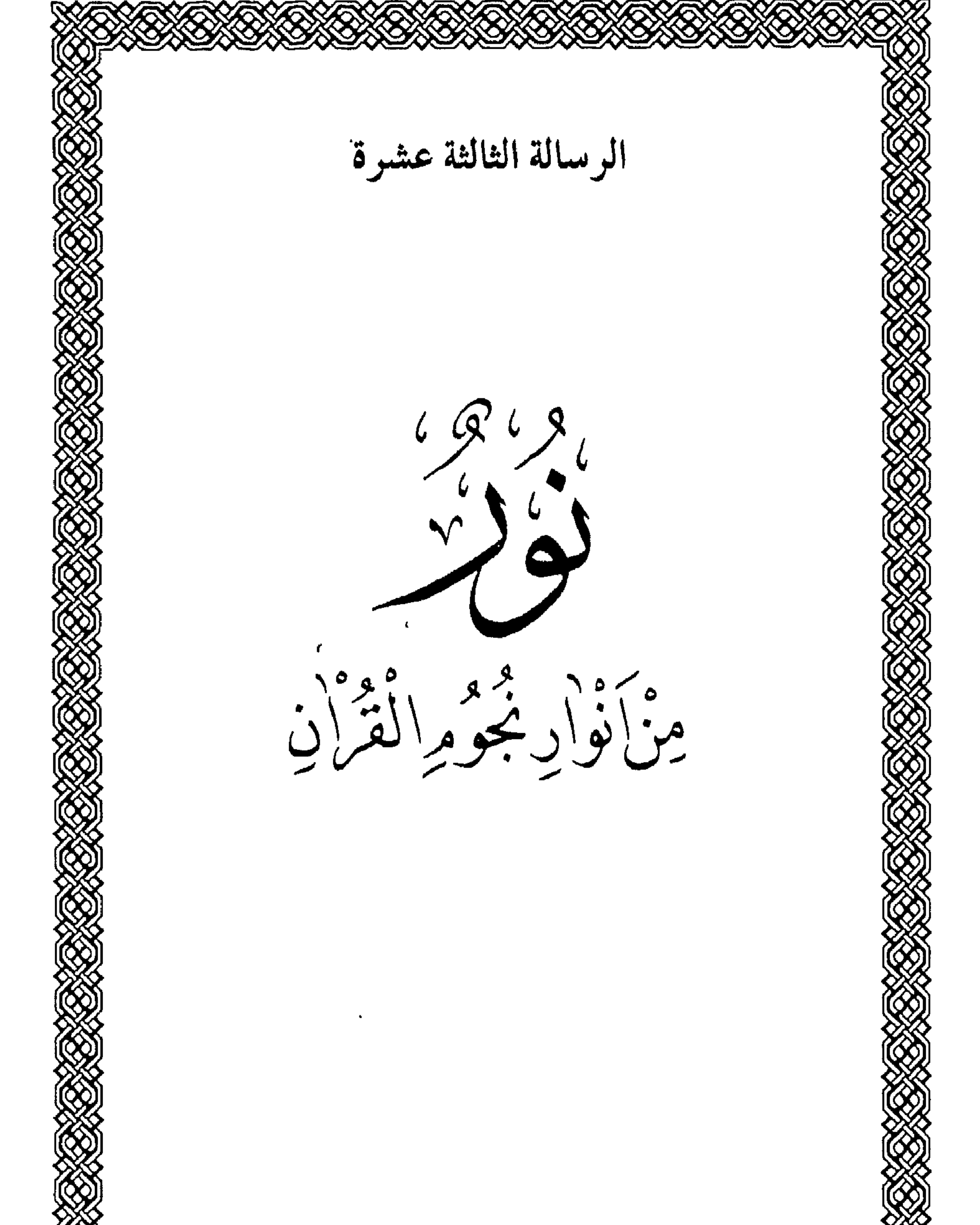
هذا ولم يدرج هنا القسم الثاني – الذي يخص بقاء الروح – من رسالة «نقطة» حيث أوفته حق الايفاء الكلمة التاسعة والعشرون والكلمة العاشرة «الحشر». فنحيل القارئ الكريم اليهما. اما القسم الثالث الذي هو عبارة عن اربعة عشر درساً فقد نشر مستقلاً تحت عنوان «المدخل الى النور».

سعيد النورسي

(١) اى: «ان الخيالات التي هي شباكُ الاولياء انما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في حديقة الله» والبيت لجلال الدين الرومي في مثنويه ج١ / ٣.

(٢) حديث حسن: اخرجه الطبراني في الاوسط ٦٤٥٦ واللالكائي في السنة ١ / ١١٩ /١-٢ والبيهقي في الشعب ١ / ٧٥ (الاحاديث الصحيحة ١٧٨٨ وله شواهد اخرى حسنة). وانظر المجمع ١ / ٨١ وحلية الاولياء ٦ / ٦٦ – ٦٧ وصحيح الجامع الصغير ٢٩٧٢و ٢٩٧٣

(٣) ينسب الى الامام علي كرّم الله وجهه – ديوان الامام علي ص ١٨٥ – بيروت.



الرسالة الثالثة عشرة

نُورٌ

مِنْ أَنْوَارِ نُجُومِ الْقُرْآنِ

باسمه سبحانه

لقد كشف هذه الرسالة الباحث الدؤوب اخونا الكريم نجم الدين شاهين أر وذلك اثناء تحريه وتنقيبه عن آثار الاستاذ النورسى ، فوجدها ضمن مجموعة هائلة من الاوراق المتفرقة المدفونة تحت منصة الوعظ في الجامع الملاصق لمنزل الاستاذ النورسى في منفاه « بارلا » . ولما كانت الرسالة مؤلفة باللغة العربية فسلمها لي مشكوراً وقد قمت بترجمتها الى اللغة التركية وضممتها مع ترجمتي للمثنوى العربي .

والمخطوط هو بخط جيد للحافظ توفيق الشامي وقد اجرى عليه الاستاذ تصحيحاتٍ دقيقة . والرسالة بحد ذاتها اصول موجزة واسس ملخصة لاجزاء من رسائل النور، ومن هنا فلها اهمية خاصة .

واذ اقدم هذا المخطوط لأخي الكريم احسان قاسم الصالحي ابارك له عمله في التحقيق والنشر راجياً له التوفيق.

عبدالقادر بادللى

اورفة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[١].

والصلاة والسلام على حجّة الحق على الخلق سلطان الانبياء وبرهان الأصفياء حبيب ربِّ العالمين وعلى آله وصحبه أبد الآبدين.

اعلم[٢]! إنه ما منْ سهل ولا جبلٍ ولا وادٍ ولا بادٍ ولا بحرٍ ولا برٍّ ولا قطعة ولا بقعة في اقطار الأرض الاّ وقد تزاحمتْ عليها انواعُ سكّات الأحد الصمد، حتى كأن هذا الجبلَ - مثلاً - يُعلَمُ أنَّهُ مملوكُه سبحانه بعدد ما فيه من مماليكه المتوطنة فيه من اقسام الحيوانات واصناف الاشجار.. وكذا يُعرَف أنّه مصنوعُهُ تعالى بعدد شهادات ما ضُربَ عليه من سكّاته المتلألئة عليه من اجناس النباتات وأنواع الطيور.. ويُفهَم أنَّهُ مكتوبُهُ جلّ جَلاله بعدد ما ضُرب على جوانبه من خواتمه سبحانَهُ من مُزيّنات الأزهار وجميلات الأثمار. فاذا عرَفْتَ ان النَّحلَ والنَّخلَ - مثلاً - مالُهُ وصُنعُهُ سبحانه تعرفُ ان كلَّ ما يُوجَدُ فيه نحلةٌ او نخلةٌ هو ايضاً مُلكُه. وهكذا الكلُّ شاهدُ الكلّ. وكلٌّ دليلُ كلٍّ.

والدليل على انّ السكّاتِ والخواتمَ في جميع الأقطار لمَلك واحدٍ ومالكٍ صمدٍ؛ وحدةُ زمانِ ضَربها ووضعِها. ففي آن واحدٍ يُوجَدُ ما لاَيُحدُّ في أقطار الأرض من المتماثلات من أجناس الأشياء.

---

(١) الاعراف: ٤٣

(٢) تفصيل هذا البحث في الكلمة الثانية والعشرين، لاسيما اللمعة السادسة والثامنة منها.

فما هذا التوافق في الوجود والايجاد والصورة والإنشاء والزمان إلاّ لأن صانعَها واحدٌ أحدٌ لايمنعه فعلٌ عن فعل ولايُشغلُهُ شأنٌ عن شأن ولا يلهيه قولٌ عن قول ولا يختلطُ عليه سؤالٌ – قولاً أو حاجةً او استعداداً – بسؤالٍ كذلك، جلّ جلاله ولا اله الاّ هو.

اعلم[1]! انك إن شئتَ أنْ ترشُف إعجازيةً أُفيضتْ على قلبي من عمان القرآن.. فاستمعْ بقلبٍ شهيد ما اخاطب نفسي.

أيها السعيد الغافل حتى عن نفسه وعن غفلته!.

ان الغفلةَ والكفرانَ والكفرَ تأسسّتْ على محالاتْ متضاعفة متسلسلة غير محصورة؛ اذْ اذا نظرتَ الى ايّ شيء كان لاسيما من ذوي الحياة ثم غفلتَ بسبب عدمِ الاسنادِ اليه تعالى – اي الى الاله الواحد – لزِمتك هذه المحالات العجيبةُ بقبولِ آلهات بعددِ أجزاء التراب والهواء والماء.. بل بعدد الذرات ومركباتها.. بل بعدد تجلياتٍ الله.. ولو أمكن عدمُ الاسناد لما لَزِم من فرضٍ وقوعِه محالٌ – اذ اذا لَزِمَ المحالُ فهو ممتنعٌ، لاممكنٌ، مع انه لايلزمُ محالٌ واحد – بل محالاتٌ غير محصورة.

امّا لزومُ آلهات بعددِ أجزاءِ التراب: فلأنّك تعلم ان أيّ جزء من التراب ترى، يَصلُح لحصول أيٍّ نباتٍ وشجرٍ وأيّةِ زهرة وثمرة.. فانْ شئتَ عين اليقين فاملأ قصعتك هذه من التراب.. ثم ادفن فيها نواةَ التين حتى تتشجّر تينةً مثمرةً.. ثم اقلعها وأدفنْ بَدلَها نواةَ الرّمانة. ثم بعدُ نواة التّفاح.. ثم.. وثم.. وثم.. حتى تستوعب جميعَ الاشجارِ المثمرة، وقد ترى كم ما بينها من التفاوتِ في الجهازاتِ المنظمةِ والتشكلاتِ الموزونة.

مثلاً: لو كانت (الماكينة القَدَرية) المندمجة في نواة التينة (كالفابريقة) التي تصنع السكرَ من النباتاتِ لكانت (الميكانيكية القُدرتية) المندرجة في نواةِ الرّمانة كالماكينة التي تنسج الحرير وهكذا فقس. ثم ادفن بدل نواة الأثمار كلٍّ واحدٍ من بذور الأزهار، بذراً فبذراً، واحداً بعد واحد الى ان لاتبقي بذرةٌ في الدنيا الاّ وقد دخلتْ في قصعتك ذرّةً ميتةً جامدةً ثم خرجتْ حيةً متسنبلةً متزهرّة.

---

[1] توضيح هذا البحث في الكلمة الثانية والعشرين وبخاصة اللمعة الرابعة والثامنة، وكذا رسالة «الطبيعة».

فياصاحبَ القصعة إنّ حصلتْ غفلتُك من مذهب الماديين؛ لزمك البتة وبالقطع واليقين الأوليّ - لادامة غفلتك - ان تقبل وجود (فابريقات) معنوية بعدد الاشجار (وماكينات) بعدد الأزهار في قصعتك هذه. فلو كان المرجع «الطبيعة» لَزِمَ ان يكون للطبيعة في كلِّ جزءٍ من التراب بل في ذرةٍ مطبعات غير محصورة.. وما النواتاتُ والبذورُ الاّ أمورٌ متماثلة في المادة ومشابهة في التشكيل ومتقاربة في الشكل.. وما هي الاّ كمثل مثقالٍ واحد من قطن مع انه يُنسج منه قناطير مقنطرة من أثواب الحرير والجوخ والصوف وغيرها. وآية ﴿ **خَلَقكم من نفس واحدة** ﴾[1] وآية ﴿ **خَلق كلَّ دابةٍ من ماء** ﴾[2] وغيرهما، تشير الى ان المادة التي تُخلَقون منها لمّا كانت واحدة لامركبة كمثل أحدكم، بل أصغر، لايمكن ان تكون مصدراً تنشقون منه أو منشأً تُصنَعون منه، للزوم كونِ المصنوع منه أكبر أو مساوياً للمصنوع، على ان ايجاد البذور والنواتات - التي كل منها مع بساطتها كأنّها مسطر قُدِّرت خيوطُه بهندسة القَدَر، ومع صغرها كأنّها أصلٌ متضمن لمجموع دساتير وجود ماهو كأصلها - مع ابداعها في رقائق نهايات دقائق حدود أغصان الشجر واعضاء النبات.. من أصدق شاهدٍ على أن خَلقَها هكذا لا يُتصور الاّ ممن خَلق السموات والأرض، الذي تتساوى بالنسبة الى قدرته الذرات والشموس.

وإن نشأتْ غفلتُك من مذهب الطبيعيين، لَزِمك لحفظ غفلتك - ان كنت ذا شعور - ان تقبل في قصعتك وجود قدرةٍ بصيرةٍ خارقةٍ، بحيث تقتدر على تصوير جميع الأثمار والأزهار وانشائها وابداعها.. وكذا وجود علمٍ محيطٍ بتفاصيل خواصها وخاصيّاتها.. وكذا وجود ارادة علميةٍ بتفاريق موازينها ولوازماتها.. وهكذا من سائر الأسماء المطلقة المحيطة التي لايمكن ان يكون مسمىً لها:

الاّ مَن يطوي ﴿ **السّماء كطيّ السّجل للكتب** ﴾[3] ومَنْ؛ كما ان الأرضَ قبضتُه يتصرف فيها كيفما يريد، كذلك القلبُ بين أصبعيه يقلّبه كيفما يشاء، لا يُشغله كبيرٌ عن صغير، ولا يُلهيه خطيرٌ عن حقير..

---

(١) النساء: ١

(٢) النور: ٤٥

(٣) الانبياء: ١٠٤

والاّ مَن يتجلّى بنور قدرته على العرش والشمس والذّر، باليسر والتساوي؛ كانعكاس الشمس على البحر والمرآة والقطرات بكمال السهولة والمساواة في ماهية الفيض وان تفاوتت الكيفية التابعة للقابلية.

كما يشهد لهذا السرّ ما يشاهَد في الربيع من الجود المطلق نوعاً.. في الاتقان الأكمل - شخصاً - في السهولة المطلقة، في السرعة المطلقة في ايجاد ما لايحدّ من أفرادِ ما لايعدّ من أنواع الأزهار والأثمار المنثورة والمنشورة في غالب وجه الأرض في زمانٍ واحد..

ثم أفرغ قصعَتك في هذا التراب واملأها من صُبرة الأرض واعمل في هذا أيضاً كل المعاملة الجارية في أخيه الأول، ثم جدّد الكيل والمعاملة الى ان تكيل كل التراب.

كما يشهد لمساواة المعاملة في كلّ كيلٍ جريانُ المعاملة بالفعل في الجملة في غالب وجه التراب بظهور اشتات أفراد كثيرٍ من الأنواع في ما صادفته من صفحات التراب في سيرك في الأرض.

ثم توجّه الى الهواء والماء والضياء فَزِن وكِلْ بقسطاس قصعتك تخرج لك النتيجة سواءٍ بسواء.

هذا بالنظر الى جميع أفراد جميع الأنواع، والحال ان كل فرد واحد من كلّ زهرة وثمرة وحيوان وحُوَينة كقطرة مَحلوبة معصورة من كل الكون ومأخوذة من أجزاء العالم بموازين دقيقة حسّاسة وبنظامات رقيقة جسّاسة لايقتدر على خلقها هكذا الاّ مَن في قبضته تصرف كل الكون، فيعصر تلك القطرة من تلك الكائنات بموازين ومقادير قَدَره ان شاء النشوّ (١)، او يُبدع مثالاً مصغراً يكتب في نسخته مآل ما في الكائنات، إن أراد الإبداع وايجاد الأيس من الليس (٢)، كما هو الحق أو الأكثر المطلق.

واما لزوم ذي الكفر والكفران آلهةً بعدد ذرّات العالم فقد مرّ في «حَباب» و«قطرة» وغيرهما.. [٤] واما بعدد تجليّات الله، فقد مرّ في ذيل «شعلة» زبدته؛

(١) النشوء: النماء.
(٢) الأيس: الوجود. والليس: العدم الصرف.

كما أن تماثيل الشمس المتجلية على الشفافات والقطرات اذا لم تسند الى الشمس الواحدة بالتجلّي السهل، لزم قبول شموس بالاصالة في كلّ شفاف وقطرة وذرة متشمسة.

فان تفهمتَ ما تلوتُ على نفسي تفطنتَ للمعةٍ من انوار أعجاز بيان القرآن من جهةِ المعنى، إذ هذه المسألة رشحة من رشحات بحر اعجازه الزاخر المعنوي.

اعلم[1]! ان الايمان إكسير يقلبُ فحمَ المادة الفانية ألماساً مصنّعاً مرصّعاً باقياً بمعناه بنسبته الى الصّانع الباقي.. والانسان بالكفر يعكس فينتكس، اذ كما انه يوجد في مصنوعات البشر ما تكون قيمةُ مادته خمسة دراهم، وقيمةُ صنعته الوف الدنانير، وتتزايد القيمة بكون صانعه شخصاً مشهوراً خارقاً عتيقاً.

كذلك في مصنوعات الصانع القديم ﴿**الّذي خَلقَ السّمٰوات والأرض في ستّة أيّام**﴾[2] وزيّن السماء بمصابيح، والأرض بأزاهير. بل من أغرب مصنوعاته «الانسانُ» الذي مادتُه «صلصال كالفخار» ينكسر ويتمزّق بسرعة، ماقيمته الاّ شئ قليل.. واما ما فيه من الصنعة فأمرٌ عظيمٌ تزيد قيمتُها على قيمة المادة بدرجات لاتعد ولاتحصى.. اذ الانسان بنقشِ الصنعة قصيدةٌ منظومةٌ من لطائف آثار جلوات الأسماء الحسنى.. ومرآة مجلوةٌ لتجليات اشعّات شؤون شمس الأزل والأبد.

فالايمان نسبةٌ يُنسِبُ الانسانَ الى مالكه، وجهةُ النسبة انما تنظر الى الصّنعة، فيكون مدار النظر حينئذٍ الى المصنوعية والصنعة. فبالايمان تزيد قيمةُ الانسان الى ان تصير الجنة ثمنَه، وتكونَ الخلافة رتبتَه، ويطيق على حمل الأمانة.. واما الكفر فهو قاطع النسبةِ، وقاطع الوصلة.. فاذا انقطعت النسبة استتر الصنعُ، وانتكست الصنعةُ واختفى التجلي، وظهرت المادةُ، وانقلبت المرآة وسقطت القيمة الى دركة يتمنّى الكافرُ العدمَ، أو ينقلب تراباً.

الحاصل: ان الانسان كماكينة مشتملة على ملايين آلاتِ الوزنِ وميزاناتِ الفهم، توزن بها مدخرات خزينة الرحمة.. وجواهر ثروة الكنز الخفي. حتى أُودعَ فيِ اللسان فقط جهازاتٍ للوزن بعدد المطعومات، ليحسّ ذوو اللّسان بانواع دقائق نِعم الحق.

---

(١) الكلمة الثالثة والعشرون توضح هذا المبحث.

(٢) الاعراف: ٥٤

فاذا استعمل تلك الماكينة امينُ يمين يُمن الايمان أثمرت ثمرات واورثت آثاراً عند مَن لايضلّ ولاينسى.

واما اذا ما وقعت في يد الكفر صارت كمثل ماكينة غالية القيمة بلا مثيل، اخذها وحشيّ لايعرف ما هي، فاستعملها في خدمة النّار - كآلة عادية - حتى أحرقها.

فيامَن بيده ملكوتُ كل شئ، وبيده مقاليدُ كل شئ، ويامَن هو آخذ بناصيةِ كل شئ، ويامَن عنده خزائن كل شئ، لاتكِلنا الى أنفسنا، وارحمنا، ونوّر قلوبنا بنور الايمان والقرآن.

﴿إن وَعدَ الله حقٌ فلا تَغرنّكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يَغرنّكُم بالله الغرور﴾[1]

اعلم[2]! أيها السكران السفيه الغافل الضّال! تورطتَ في مزبلة الدنيا فتريد اضلال الناس بتصوير تلك المزبلة معدن السّعادة ليتخَفّف عنك. فان امكن لك قلب أربعِ حقائق فاصنع ما شئت.

احدها: الموت. مع انّك لاتقلِب، بل تبدّل الموت الذي هو تبديل لمكان في نظر المؤمن اعداماً أبدياً.

والثاني: العجز في مقابلة الحاجات والأعداء الغير المحصورين، مع انك تحوّل العجز المنجر للاستناد الى القدير المطلق - كأن العجز داعٍ يدعوك اليه - الى عجز مطلقٍ مع اليتم وعدم نقطة الاستناد..

والثالث: الفقر في الأكثر المطلق، مع انك تصرّف الفقر - الذي هو وسيلة التوجه الى خزينة الغني المطلق كأن الفقر تذكرة دعوة - الى فقرٍ مظلمٍ مؤلم متزايد بتزايد رذائل المدنية.

والرابع: الزوال؛ اذ زوال اللذة ألمٌ دائم. فلا خيرَ في لذةٍ لاتدوم. مع انك تحول الزوال - الذي هو وسيلة الوصول الى اللذة الباقية ان قارن نيةً صالحة - زوالاً أليماً، لا الى بديلٍ، مورثاً آلاماً وآثاماً.

---

(١) لقمان: ٣٣

(٢) الكلمة الثامنة توضح هذا المبحث بتمثيل لطيف.

فمَن ينتظر الموت دائماً.. ويحيط به العجز.. ويستولي عليه الفقر.. وهو على جناح السفر.. انما ينخدع بسفسطياتك حالةُ السُكر فقط، والسُكر لا يدوم. [٥] فالتي تسميها سعادة الحياة هي عين شقاوةِ الحياة من كل الوجوه، وانما تكون سعادة ظاهرية بشرط دفع الموت أو نسيانه على الاطلاق.. ورفع العجز أو الغرور المطلق.. ودفع الفقر. أو الجنة المطلقة ودوام الخلود أو تسكين چرخ الفلك.

نبّهني الله واياكم عن نوم الغفلة الذي تظنون فيه اليقظة الكاذبة – التي هي انغماسٌ في غمرات النوم – انتباهاً، وأفاقني الله واياكم عن الجنون المطلق الذي تتوهمونه عقلاً منوراً.

اعلم! وانظر كيف أدرج الصانعُ القدير ملايين عوالمٍ من أنواع الحيوانات والنباتات في سطح الأرض، كل عالمٍ كبحرٍ صارت قطرات للتوظيف، كتوظيف النمل لتنظيف وجه الأرض من جنائز الحُوَينات. وقد أطبقت تلك القطرات على وجه الأرض.. أو ككلٍّ ذي أُجزاء صار ككليّ ذي جزئيات.

كما ان الماء والهواء والضياء والتراب لاسيما الثلج كقطرات صارت بحراً لتماثل الوظيفة، ووحدة الأمر، وتلقي الأمر الوحداني. فاجزاء الأربعة ككليات تلك، مشعورةٌ معلومة موظفةٌ. فتداخلت تلك العوالم الغير المحصورة واختلط الكلّ بالكلّ واشتبك، مع ان الصانع الحكيم ميّز كلّ واحدٍ عن كلّ واحدٍ بتشخصّاته المخصوصة ولوازماته المشخّصة، فاظهر نهاية الامتياز في غاية الاختلاط، بحيث يَضعُ عالمَ النمل أو الذباب – مثلاً – فيما بين أجزاء عوالم ذوي الحياة بايجاد يخصه ثم يرفعه بإماتة تخصّه، كأن سطح الأرض وطنُه فقط، فلا تتشوش حياةُ الخاصة ولامماتُها المعين. فنسبةُ عالمٍ الى سائر العوالم المجاوِرة له، كنسبة حُسن انتظام تربيةِ فردٍ – مغمور في الأفراد – الى تدبير النوع. لايُشغل الصانع هذا عن ذاك، ولا ذاكَ عن هذا.

فيا مَن غشي بصرَه بالطبيعة! وختم قلبَه بالطبعِ! ان تصورتَ الطبيعة الموهومة – التي لو تحققت لكانت كالمطبعة – طابعةً صانعةً لَزمك ان ترى للطبيعة في كلّ جزءٍ من التراب مطبعات مكمّلات تزيد على جميع مطابع المدنيين.

اعلم! ايها الحيوان! لا تفتخر هكذا على النبات؛ اذ تفنّن الصنعة في اختك اتمُّ منها فيك. ألا ترى ان أجناس الحيوانات متقاربة أو متماثلة في لحومهم مع ان لحوم أجناسِ الثمرات حتى أنواعها بل حتى أصنافها متفاوتة متخالفة؟ فهذا امارةٌ على ان قلمَ القُدرةَ تأنّقَ فيها. وكذا انَّ بركةَ النسلِ في الحيوانِ والبشرِ اذا كانت سبعاً ففي النباتِ والشجر سبعون، وسبع مائة، وسبعة آلاف. الاّ السمك فانه لأجل ضعف الحسيات الحيوانية فيه ملحَقٌ بالنباتات. تشير هذه الحالة الى انه للإطعام كالحَبِّ.. فهذا علامةُ الخيرية والأهمية فيه.

وكذا ان اختك النبات والشجرَ مخدومةٌ متوكلةٌ، يجئ اليها رزقُها ورزق أولادها الكثيرة. حتى كأنَّ جرثومةَ كلِّ شجرٍ متصلةٌ بخزينة الرحمة، لها منها منفذٌ اليها. فتقسمُ الرحمةُ عليها ما يوافقُ حاجاتِها المتخالفةَ فتعطي الوالدتين لبناً خالصاً – ولبنات الرّمان شراباً طهوراً – ولابناء الزيتون دهناً مباركاً.. وللجوز زيتاً منوّراً.. وهكذا فهذا آية (الحرمة) (١).

فيا أيها الحيوان المتكبر ان سبب ترجيح مرجوحِك بمراتبٍ عليك بثلاث مراتبَ هو أنانيتُك ومرضُك واختيارُك فأسْلِم تسْلَمْ.

﴿ وخُلِقَ الانسانُ ضعيفاً ﴾(٢)

اعلم(٣)! أيها الأنسان! لا تتكبر على الحيوان، ان سببَ رفعتِك على سائر الحيوانات انما هو ضعفُك وعجزك، كما انَّ الصبيَّ يحكم على والديه واخوانه بقدرة عجزه وقوة ضعفه.. هل ترى في الحيوانات أعجزَ منك في تحصيل لوازمات الحياة، بل ما يحصل لك بالتجارب والتدرّس في عشرين سنةً – مما يلزم لحفظ حياتك – يحصل للحيوان في عشرين يوماً، وبعضاً في عشرين ساعة، وبعضاً في عشرين دقيقة، بل فردُه برأسه يساوي في حفظ الحياة الحيوانية جماعةً متعاونةً منكم. كما ان فرداً منكم يساوي أنواعاً منهم، من جهة كمال الانسانية المنحصرة في الاسلامية والعبودية.

(١) اي الاحترام والتقدير.

(٢) النساء: ٢٨

(٣) الكلمة الثالثة والعشرون توضح هذا المبحث بتفصيل.

ياهذا ويا أنا! إما تصير أدنى من أدنى الحيوانات وأذلّ واعجَز. واما تصير أعزَّ وأكملَ من أنواعها. فاختر ما شئت.. فاذ هذا هكذا فاعرف عجزَك وضعفك. واعلم بان قدرتَك وقوتَك في الدعاء والبكاء لدى مالكك.

وأما ما تفتخر به من المصنوعات الانسانية فمن أثرِ إلهامه، وخَلْقه، وإكرامه، ليجمع بك أشتاتَ الأنواع المتخالفة، لاظهار حُسن غريب، وايجاد كتابةٍ عجيبة، وتشهير مصنوعاته المختلفة مجتمعةً، واذاقة مراتب نِعَمه الحاصلة من تمزيج بسائطَ النعم بهندسة هوَسات الانسان.

اعلم![1] يامَن يتوسوس من اختلافات الروايات في أمثال مسألة المهدي، وقرب الساعة والملاحم الاستقبالية! أتريد ايماناً ضرورياً في كل مسألة؟ حتى في المسائل الفرعية التي ليست من ضروريات الاعتقاد؟! بل يكفي فيها القبول التسليمي، وعدم الرد، لا الإذعان اليقيني القصدي حتى تحتاج الى طلب البرهان القطعي.

ألا تعلم ان متشابهات القرآن كما تحتاج الى التأويل كذلك مشكلات الأخبار تحتاج الى التعبير والتفسير؟ فاذا صادفك روايةٌ مخالفةٌ للواقع – في نظرك الظاهري – فمع احتمال: ان تكون من الاسرائيليات.. وان تكون من أقوال الرّواة.. وان تكون من مستنبطات الناقلين.. وان تكون من كشفيات الأولياء المُحدَّثين المحتاجة للتعبير.. وان تكون من المسموعات المتعارفة بين الناس، يذكرها النبي عليه الصلاة والسلام لا للتبليغ السماوي بل للمصاحبة العُرفية للتنبيه.. يلزم الناظر ان لايَقْصر النظر على الظاهر.. بل يؤّل بتأويل تمثيلي كنائي مسوّقٌ لمقصد ارشادي.. أو يفسّرُ بتعبير كتعبير النائم في نومه ما رآه اليقظانُ في يقظته.. فكما تُعَبِّرُ أيّها اليقظان مارآه النائم، كذلك فعبّر أيُّها النائم – ان استعطت – في غفلة هذه الحياة ما رآه اليقظانُ الذي لاينام قلبُه الذي هو مظهر ﴿ **مازاغ البصر وما طغىٰ** ﴾.[2]

ثم ان الحكمة في ابهام أجَل الشخص وموته.. «لينتظره دائماً فيستعدّ لآخرته» هي الحكمة في إبهام الساعة، التي هي موتُ الدنيا لينتظرها أبناء الدنيا..

(١) راجع ان شئت توضيحاً لهذا المبحث الكلمة الرابعة والعشرين –الغصن الثالث.
(٢) النجم: ١٧

ومن هذا السر انتظَرها أهلُ كلِّ عصرٍ من عصرِ السعادة الى الآن، كما هي الحكمة الدافعة للغفلة العامة، وهذا الانتظار، من هذه الحكمة، لا من ارشادِ النبوة، في التعيين والحكم بالانتظار للوقوع، بل بالانتظار الذي يقتضيه الإبهام لدفع الغفلة. ولقد سهى مَن لم يميّز الحكمة من العلّة.

واما المهدي فلتقوية القوة المعنوية وردّ اليأس عند استيلاء الضلالة، ولتشجيع ذوي الهمم المجدّدين في الانسلاك في سلك نوراني إمامُه ورأسُه المهدي رضي الله تعالى عنه. فهذه الحكمة تقتضي الابهام ليُمكّن الانتظار في كلّ زمان.

اعلم(١)! أيها المسلم في الظاهر والاسم! مَثَلُك في تقليد الكفار في السفاهة ومعارضة الأحكام الاسلامية كمثل فردٍ من عشيرة يرى رجلاً عدواً من عشيرة أخرى يذم عشيرة الأول ويزيّف رئيسَها ويحقّر عاداتها، مستنداً الى عشيرته متمدحاً بمفاخرها. فيظنّ ذلك المسكين اَنْ لَو ذمّ هو أيضاً عشيرة نفسه وحقّر عاداتها صار كذلك الرجل العدو! ولا يعرف ذلك أنّهُ بهذا الردِ والارتداد، اِما مجنونٌ جرئ أو رذيل دنئ يكسر ظهرَهُ فيصير يتيماً طريداً.

ألا ترى ان الشخص الأوروپائي ينكر محمّداً عليه الصلاة والسلام ولكن يتسلى (بالخرستيانية)(٢) المموّهة وبمدنيتهم المخصوصة الممزوجة بعاداتهم الملّية، فيمكن ان يبقى في روحه بعضُ الاخلاق الحسنة الدنيوية، وبعض الهمم العالية لأجل هذه الحياة الدنيوية. فلا يرى بسبب هذا التسلي ظلمات روحه ولايُتمَ قلبه.

واما أنت ايّها المرتد! ان انكرت محمداً عليه الصلاة والسلام وآثاره لايمكن لك قبول واحدٍ من الأنبياء. بل ولاقبول ربّك، بل ولاقبول شئ من الكمالات الحقيقية. فانظرْ الى دهشة التخريبات في روحك، وابصرْ شدة الظلمات في وجدانك، ووحشة اليتم واليأس في قلبك، وعن قريب يترشح قبحُ باطنك الى ظاهرك فيصير حُسنُكم وجميلتكم المرتدّة أقبحَ من أقبح كافر. فالمرتدُ محرومٌ من الحياتين دون الكافر، اذ الكافرُ لهُ حقُ حياةٍ ان لم يُحاربْ.

---

(١) المسألة الثالثة من رسالة الثمرة – الشعاع الحادى عشر – توضح هذا المبحث.

(٢) كلمة يونانية يقصد بها: النصرانية.

اعلم[١]! يامن يضيق صدرُه ولا يسع فكرُه عظمةَ بعضِ المسائل من الحقائق القرآنية كأمثال: ﴿**خَلقَ السمٰوات والأرضَ في ستة أيام**﴾[٢] و ﴿**وما أمرُ السّاعة الاّ كَلَمْح البَصرَ**﴾[٣] و ﴿**ما خَلْقكُم ولا بَعثكم الاّ كَنفسٍ واحدة**﴾[٤] و ﴿**ثم نُفخ فيه اُخرى فاذا هم قيامٌ ينظرون**﴾[٥] و ﴿**يومَ نطوي السّماءَ كطيّ السجل للكُتُب**﴾[٦] وامثالها..

ان كتابَ الكونِ المشهود بآياته الشؤونية تفسّر تلك الآيات القرآنية، وتقرِّبُها الى فهمك بإراءة كثيرٍ من نظائرها المشهودة لعينك، في تلافيف اختلاف الليل والنهار، وفي معاطفِ تحولِ الفصول والاعصار.

فان شئت الشهودَ فافتح كنز آية ﴿**فَانْظُر الى آثار رَحمتِ الله كيفَ يُحيي الأرضَ بَعد مَوتها انّ ذَلك لَمحيي الموتى**﴾[٧] لترى بعينك ما لايعد من المسائل العظيمة نظائرَ ما استبعدتَ!

مثلاً: تشاهد في الحشر الربيعي إحياءَ آلافِ عوالمَ من انواع النباتات والحيوانات التي ماتت في القيامة الخريفية. وايجاد كلٍّ منها بنظامات مخصوصة، وموازين معينة في أيام معدودة. مع ان لكلٍّ واحدٍ من أكثر تلك العوالم وسعةً، بحيث يُزيّن أكثر وجه الأرض كبرقعٍ منمنم.. وهكذا مما لايحد ولا يحصى من الشّواهد المشهودة الصادقة.

فمما لا يحد من تلك العوالم انظر الى عالم الشجر.. ومما لا يعد من أنواعها الى نوع شجر التفاح.. ومما لا يحصى من أفرادها الى هذه الشجرة! لترى ثلاث حشرٍ ونشرٍ متعاقبة متداخلة.. بنشر أوراقها المهتزة المنتظمة.. وحشر أزهارها المزينة المنظومة.. واحياء اثمارها اللذيذة الموزونة.. فمن يفعلْ هذه الأفاعيل في سطح الأرض ويكتب بتقليب صحيفة الشتاء الوف صحائف كصفحة الأرض في الوسعة، هو الذي يخبر عن نفسه بانّه ﴿**خلَق السموات والارضَ في ستة أيام**﴾ الى آخر ما مرّ.

---

(١) ان شئت التفصيل راجع الكلمة الرابعة عشرة.

(٢) يونس: ٣

(٣) النحل: ٧٧

(٤) لقمان: ٢٨

(٥) الزمر: ٦٨

(٦) الانبياء: ١٠٤

(٧) الروم: ٥٠

اعلم(١)! ان لكل أحدٍ علاقات بالمحبة والشفقة مع أقاربه، ثم مع أفراد عشيرته، ثم مع أفراد ملّته، ثم مع أفراد نوعه، ثم مع أبناء جنسه، ثم مع أجزاء الكائنات. بحيث يمكن ان يتألم بمصائبهم ويتلذذ بسعاداتهم وإن لم يشعر. لا سيما مع من أحبّه لكماله من جماهير الأنبياء والأولياء والأتقياء. وكم من أحدٍ لا سيما اذا كانت «أُمّاً» تفدي نفسَها وتزيل راحتها لعلاقةٍ واحدة، ولمحبوب واحدٍ مما لايحد من أودّائها.. فالغافل الحاكمُ على نفسه وعلى أودّائه حالة الغفلةِ باليُتم وعدم التعهد مُبتلىً بحمل آلامٍ لا تعد منهم، مع آلام نفسه وإن لم تشعر نفسُه السكرانة بعذابِ قلبه وروحه!. فلو ظفر هذا الغافل بجنةٍ – مثلاً – صار مثل: الذُبيبةُ المتلمعة في الليل لها لمعةُ نورٍ لكن استولت الظلماتُ الموحشة على جميع مناظرها ومحبوباتها ومأنوساتها، مع ان نورها الذاتي قد يضرّها باراءتها لرقيبها. واما اذا طرد الغفلة وردّ المُلك الى مالكه الحقيقي ينفتح لقلبه منفذٌ الى اشعّات شمسٍ سرمد، خطٌّ استوائها الأزل والأبد، ورأى ان كل هذه المحبات المنتشرة على هذه المحبوبات الكثيرة كانت لهذا الواحد الذي يكفي عن الكل ويُنسيك الكل، ولا يكفي عنه الكل، بل ولا عن تجلٍّ من تجليات حبّه. فلو دخل هذا المؤمن الموقن جهنّماً – مثلاً – أمكن له باذن الله الظفر بجنّة روحانية بالتلذذ بالعلم بأن كل أودّائه مصونون من الفراق الأبدي، ومنعمون بالسعادة السرمدية.

فيا أيها السعيد الغافل؛ اترك نفسَك ووهمَ مالكيتك تظفر بسلامة جميع محبوباتك وسعاداتهم بتسليمهم لمالكهم الكريم الرحيم.

اعلم!(٢) ان كل شئ بخلقه سبحانه، الا أن الشرور والقبائح والقصور والمساوي انّما تترتّب على لوازمات ماهيات الممكِنات وقابلياتها، فيُجيب الخالقُ الجواد المطلق بالايجاد، كلَّ ما تسألُه الممكناتُ بألسنة استعداداتها.. فالحُسن راجعٌ اليه بالوجهين: أي بالخلق والاقتضاء. واما القبحُ والقصور، فبالخلق راجعٌ اليه، دون المقاضاة والسؤال. فله الحمدُ دائماً؛ اذ السؤال في الحسن والخير كالجواب منه ومن

---

(١) المسألة الثامنة من رسالة الثمرة فيها بيان قيّم لهذا المبحث.
(٢) رسالة القدر (الكلمة السادسة والعشرون) فيها شرح وافٍ.

اسمائه. وله التسبيح دائماً؛ اذ سؤال الشر والقبح من الممكنات، والجواب المتضمن لمحاسن كثيرة مترتبة على وجود القبح منه سبحانه. ﴿ **ما أصابكَ من حَسَنة فمنَ الله وما أصابكَ من سَيئة فمن نفسك** ﴾(١)

اعلم! ان انواع المصنوعات في العالم لاسيّما انواع النباتات والحيوانات في سطح الارض كاللفائف المبسوطة المفروشة على وجه الأرض بعضٌ على بعضٍ، وكالأقمصة المنمنمة المتراكبة المتداخلة، لبستْها الأرضُ او العالمُ. لكن بعضَها أرقّ، وبعضها أقصر، وبعضها منفصل الانساج، وبعضها يتمزّق خريفاً ويتجدّد ربيعاً، وفيها كلها نسجٌ موزون بانسجام منظوم. فتعانقُ الأنواع وتعاونها بشوقٍ، وترافق الأفراد وتجاورها بحسنِ معاشرةٍ تشهد:

بان الكلَّ نسجُ نسّاج واحدٍ وخُدّام سيّد واحد. ونسجُ كل واحدٍ منها بنسجٍ مخصوصٍ بلا مزجٍ، وبأسداءٍ ممتازٍ بلا درجٍ، والحامٍ معيّن بلا التحام، في تلافيف تلك اللّفائف المشتبكة المختلطة بلا تشوش ولاخلطٍ ولاغلطٍ يشهد كعين اليقين: بأنها صنعةُ مَن لا نهاية لقدرته وحكمته.

وان ما يشاهَد من ترتّب أمثال التزيين القصدي على جميع المتخالفات يشهد:

بأن مَن زيّن قصرَ العالم بمزيّنات ألوان الأنواع هو الذي خلق لوازماته واساساته وأجزاءه. لعمرك ان التزيين في الصنعة من أهمّ المقاصد المهمّة المعرِّفة للصانع، ومن أشفّ مرايا التودد والتعرّف، ومن ألطف عنوانات التحبّب.

فان شئت فانظر مما لا يتناهى من الأمثلة الى هذه الواحدة وهي: الزّهرةُ الصّفراءُ الشمسية المتبرقعةُ ليلاً والمتبرّجة نهاراً، الشابةُ من أول الربيع الى آخر الخريف. صيّرها صانعُها مسكناً لطيفاً نظيفاً لبعض الحوينات اللطيفة تجول مسبّحاتٍ — جماعةٌ منها في واحدةٍ منها — كأنّها حديقةٌ لها أو قصر أو قرية.

فسبحان مَن ظهر في كل شئ لُطفُه.. ويعرِّف الخلائقَ قدرتَه، ويتعرّف متودّداً الى عباده بتزيينات مصنوعاته، جلّ جلالُه ولا اله الاّ هو. [٩] ﴿ **قوله الحقُ وله الملكُ** ﴾(٢).. ﴿ **لا يُسئل عمّا يفعل** ﴾.(٣)

(١) النساء: ٧٩ (٢) الانعام: ٧٣ (٣) الانبياء: ٢٣

اعلم[1] انه لايُسأل عما يفعلْ. فلا حقّ لشئ ولا لعلمٍ ولحكمةٍ اَن يَسأل عنه؛ اذ يتصرف في مُلكه كيف يشاء وهو عليم حكيم. يعلم ما لا نعلم. فعدم علمنا بحكمةِ شئ لا يدلّ على عدمها. اذ شهود الحكمة في الأكثر المطلق شاهدٌ على وجود حَكمة مستورة عنا هنا أيضاً.

مثلاً: نتألّم من موت ذوي الحياة.. ولا نرى حسناً في قِصَرِ عُمر بعض الحيوانات اللطيفة.. ولانفهم وجه الرحمة في انقراض بعض المصنوعات الحيويّة الطالبة للحياة في أمثال الشتاء.. والحال ان هذا التألم والاعتراض المعنوي انّما ينشأ من جهلنا بحقيقة الحال، اذ ما من ذي حياة الاّ وهو كَنَفَرٍ موظفٍ وعبدٍ مأمورٍ بإيفاء وظائف تكاليف الحياة، الكاتبة تلك الوظائف تسبيحات وتحميداتٍ بحساب خالق الموت والحياة وبإسمه. وحقوق الحياة وغاياتها عائدة اليه سبحانه، يَكفي لشهوده آنٌ، بل تكفي النيّةُ الحالية بالقوة، كما في نيّة النواتات والبذور. فما الموت الاّ ترخيص وتحرير وإذنٌ وترويجٌ ودعوةُ حضور، كما قال ﴿ثم الى ربهم يُحشرون﴾[2] على ان من كمال رحمته ان لايُبقي ذوي الحياة في أرذل العمر، وأن لا يديمهم في شدائد العمر في الشرائط المزعجة، كترخيص عشاق الأزاهير وسفرائها والمتلذذين بالخضراوات وامرائها من الوظيفة التي صارت كُلفة بعد ما كانت لذة، فاستعملهم صانعُهم واستخدمهم سيّدُهم في مدة شوقهم مع موافقة شرائط الحياة وسهولة حمل تكاليف الحياة. فاذ تعبّس في وجوههم شرائط الحياة بامثال الشيب والشتاء واستيلاء سلطنتها بتحولات الشؤون وانطفاء شوقهم، أمدّهُم رحمةُ الرحمن بالإذن والترخيص. الى ان يُرسل امثالهم فينسجون على منوالهم فيسبّحون مولاهم.. يبتدؤن في أعمالهم من حيث انتهت أعمال أسلافهم..

فيا أيّها الغافل المتفرعن الزاعم انّك مالكٌ نفسك وحياتك والمتوهم ان سعادتك في بقاء حياتك بالراحة! أخطأتَ وخَلَطتَ وغلطتَ وعصيتَ وقسْتَ الحيوان الممنون المأمور والمتمثل المسرور على نفسك الناسية لمالكها، فتراءت لكَ وَلْوَلَةُ جلوات الرحمة العامة في الشؤون «واويلاه» نعيات المأتم العمومي، فلا تتألم لهم حتى يكون

---

(١) الكلمة السابعة عشرة توضح مسألة وجه الرحمة في الموت والانقراض الذي يعترى الموجودات.

(٢) الانعام: ٣٨

« التـألم » شفـقة ممدوحـة، بل « تألم » لنفسك المفروضـة في موقعـهم، الفانيـة بطريق القياس فيهم.

واما تسليط (١) بعض الحيوانات على بعضٍ فلحمل الضّعفاء على الحزم والتيقظ والجوالية والخفّة واستعمال جهازاتها اللطيفة واخراج استعداداتها من القوة الى الفعل وغير ذلك.

فوازن بين الأهلية والوحشية كَيْ ترى هذه الحكمة ظاهرةً باهرةً.

اعـلـم!(٢) ان سرّ تخالف أحكام الأولياء في مشهوداتهم مع الاتفاق في الأصول.. وان سرّ اجمال الأنبياء السالفين وأبهام الأولياء العارفين في غير التوحيد من سائر أركان الايمان؛ اذ قد أجمل قسمٌ من اولئك في الجملة في تفاصيل الحشر وغيره وأبهم بعضٌ من هؤلاء في ما سوى معرفة الله، مع ان القرآن والمنزَل عليه القرآن فصّلا كلاً من المقاصد الايمانية بما لا مزيد عليه تفصيلاً قصدياً واضحاً، وان حكمتها.. هو: توسّط البرازخ.. وتفاوت القابليّات.. وتنوّع ألوان جلوات الاسماء في المظاهر الكلية والجزئية والظلية والأصلية.

[١٠] مثلاً « ولله المثل الاعلى » ان الشمس لها تجلٍّ كلي بإذن خالقها على الأزاهير، ثم تجلٍّ أخص على نوعٍ نوعٍ منها، ثم تجلٍّ جزئيّ على زهرةٍ زهرةٍ، على قول من يقول ان ألوانها من استحالات ضياء الشمس.

وكذا لها تنويرٌ وافاضة كلّية باذن مُبدعها على السيّارات والقمر، مع ان القمر يفيض ذلك النور الظلّي المُستفاد منها على البحار وحَباباتها وقطراتها، وعلى التراب وشفافاته. وعلى الهواء وذراته.

وكذا لها انعكاسٌ صافٍ كلّي بأمر فاطرها في مرايا جوّ الهواء ووجوه البحار. ثم لها انعكاسات جزئية وتماثيلٍ صغيرة في الظاهر على حبابات وجه البحر، وقطرات الماء، ورشحات الهواء، وزُجيجات الثلج.

فللشمس الى كلّ زهرة، وقطرة، ورشحة في الوجوه الثلاثة طريقان:

---

(١) النقطة الثانية من الكلمة الثامنة عشرة تشرح الحكمة في هذا.

(٢) راجع ان شئت بالتفصيل الكلمة الرابعة والعشرين – الغصن الثاني.

احدهما: بالاصالة وبلا برزخ، بلا حجاب.. الممثّل لمنهاج فيض النبوة.

والثانية: تتوسّط فيها البرازخ.. وتصبغ الجلوات بقابليات المرايا والمظاهر وهذه ممثل لمسلك الولاية.

فللزهرة، والقطرة، والرشحة ان تقول في الأول: أنَا مرآة شمس العالم، وفي الثاني: انما تقول أنَا مرآة شمسي أو شمس نوعي. مع ان شمس نفسها أو نوعها أو جنسها لاتسع «وهي في مضيقات البرازخ» كل لوازمات الشمس المطلقة من ربط السيارات بها وتسخين الأرض وتنويرها وتحريك حياة النباتات وغيرها، بل انما تسندها الى المقيد المشهود لها، من جهة ان المقيد عين المطلق، لكن هذا الحكم له، عقلي لا شهودي. بل قد يصادم شهودَه.

يارفيقي فلنفرض انفسنا إياها. فَصِرْ أنت ياذا النفس الكثيفة الترابية «زهرة» تضمن لونُها ضياءً محلّلاً متضمناً للتمثال الممترج للشمس. وليكن هذا الفيلسوف المنغمس في الاسباب «قطرة» تأخذ من القمر ظل ضوء الشمس. أنا قائلاً: «لا مؤثر في الكون الا الله»، شَبْنمة (١) فقيرة خالية من كل لَون، صيرتْ مثالَ عين الشمس انسان عينيها.

ثم ان جاذبة محبة مَن باحسانه تَنوَرنا وتَزيّنا، حرّكَتْنا لطلب قُربه وقصد شُهوده. فسلكت «أيتها الزهرة» الى ان وصلت الى المرتبة الكلية لجنس الزهرة — المرآة الكثيفة التي تحلل فيها ألوان ضياء تمثال الشمس — فلا تخلص من التفرق والتشتت بين خصوصيات ألوان المقيدات، ولا تسلم من الفراق بتستر عين الشمس بحجب البرازخ والصور. الاّ ان ترفع رأسَك من الولوغ في محبة ذاتك، وتُصعد نظرَك من الافتتان والتلذذ والتفاخر بمحاسن نفسك الى عين الشمس في وجه السماء. وتوّجه بباطن وجهك المتوجّه الى التراب بجلب الرزق المرسَل المسرِع اليك — وان لم تتوجه اليه ولم تعلم به — الى هذه الشمس.. اذ أنت مرآتها كما انها قطرةٌ متلمعة من بحر السماء صارت مرآة للمعةٍ من انور قدرة «النور الحق» سبحانه.. ومع ذلك لاتراها كما هي في نفسها بل متلونة بلون صفاتك ومرصادك ومقيدة بقيود قابلياتك.

---

(١) ندى.

وذهبت ايها «القطرة» الى ان ترقيت الى القمر بسلّم فلسفتك فرأيت القمَر كثيفاً مظلماً لا ضياء في جرمه، بل ولا حياة. فصار سعيُك وعملُك هباءً منثوراً. فلا تخلص من ظلمات اليأس ووحشة اليتم ودهشة الاضطراب بين ازعاجات الغيلان المتشاكسين الاّ بترك ليل الطبيعة والتوجه الى شمس الحقيقة واليقين بان الأنوار الليلية ظلالٌ للاضواء الشمسية ومع ذلك لا يصفو لك شهود الشمس وصفائها. وانما تتجلى لك خلف مألوفاتك ومعلوماتك بصبغٍ من لون قابلياتك.

فاذهبي انت ايتها «الرشحة» [١١] الفقيرة الضعيفة بالتبخر راكبة على البخار الى الهواء ثم انقلبي ناراً ثم تحولي نوراً ثم اركبي على شعاع من أشعات جلوات الضياء.. فأين ما كنت من تلك المراتب لك منفذ صافٍ الى العين[١]، تراها بالعين اليقين – وان لم يكن بالعين [٢] – وترى لزوم لوازماتها لها، ولا يأخذ على يدك في اثبات آثار سلطنتها الذاتية ضيقُ البرازخ، ولا قيدُ القابليات، ولا صُغر المرايا.

اذ تفطنت ان ما يشاهد في المظاهر جلواتُها لا هي هي أي ذاتها في ذاتها. فالواصلون من هذه الطرق الثلاثة متفاوتون في تفاصيل المزايا والشهود وان اتفقوا على الحق والتصديق.

اعلم[٣] ايها الانسان انك واحد قياسيّ بخمسة وجوه:

اذ أنت فهرستةٌ جامعة لغرائب آثار جلوات الاسماء الحسنى.

ومقياسٌ بجزئيات صفاتك وربوبيتك الموهومة لمعرفة صفاته المحيطة وفهمها بتصور حدود موهومة.

وميزان لدرجات نفي الشركة في الآفاق، بحيث اذا أذعنتَ بانك كُلّكَ مُلكه آمنتَ بان لا شريك له في العالم واذا أعطيتَ ثلثك له وثلثك للاسباب وثلثك لنفسك حصل هذا التقسم في جميع الكائنات. واذا ملّكتَ أنانيتك درهماً من مُلكه لزمك ان تصدّق مالكية كل فردٍ وكل سببٍ لدرهمٍ فتُقسم مالَ الله على ما سواه.

---

(١) المقصود: الشمس.

(٢) اي بالبصر.

(٣) توضيح هذا المبحث في اللمعة الثلاثين (اسم الله القيوم) والنافذة الحادية والثلاثين من الكلمة الثالثة والثلاثين.

وكذا خريطة للعلوم الكونية والمعارف الآفاقية فاذا إنفتحتْ (أنت)[١] لـك انكشف لك الكون، واذا أُنسيتَ نفسَك انغلق عليكَ المعارف الآفاقية، وانقلبت الى جهالات مركبات وسفسطيات ما لا يعنيات..

وكذا خزينة مفاتيح لمطلسمات الكنوز المخفية في الأسماء الالهية، فاذا رأيت فيك عجزاً بلا نهاية شاهدتَ لخالقك قدرةً بلا غاية، واذا شاهدتَ فيك فقراً بلا غاية، رأيت لرازقك غناءً بلا نهاية.. وهكذا كان جلوات اسمائه حروفٌ نورية مكتوبة في ظلمات حالاتك، فبدرجة ظهور شدة الظلمة تظهر نورانيةُ الكتابة.

فانت في الوجه الأول حاملٌ، وقابلٌ، ومظهرٌ، ليس لك منك شئ، بل انت قصيدةٌ منظومة للسان كن فيكون.

واما في الوجه الخامس فانت عامل، وفاعل، ومعكس – برابطة الضدية – وسائل بألسنة الاستعدادات والاحتياجات والافعال والاقوال، لك منك كل السيئات والقصورات والظلمات والفاقات، ولفاطرك منك كل الحسنات والكمالات والنورانيات والفيوضات. وكذا ان الأول يُظهر الأصل، والخامس يظهر مراتب الاسم المتجلّي. كما ان الحسن بلا ملاحظة القبح واحد، وبه تتفاضل مراتب الحسن ودرجاته.

﴿ان الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بانّ لَهم الجنة﴾[٢]

اعلم![٣] أيها الانسان **﴿ماغرّك بربك الكريم﴾**[٤] الذي:

يشتري منك ملكَه الذي عندك امانةً ليحفظه لك من الضياع.. ولتترقى قيمتُه من درجةٍ الى ألوف.. ويعطيك بَدَله ثمناً عظيماً.. ويبقيه [١٢] في يدك لاستفادتك.. ويتكفل عنك كلفة تعهّده.. ربحاً في ربح في ربح في ربح..

وانت أيها الغافل لا تبيعه.. فتخون في أمانته.. وتُسقط قيمته من الثريا الى الثّرى.. ثم يضيع بلا فائدة.. فيفوتك ذلك الثمن العظيم. وتبقى في ذمتك تكاليف

(١) أي انانيتك انت.

(٢) التوبة: ١١١

(٣) الكلمة السادسة شرح هذا المبحث بمثال جميل.

(٤) الانفطار: ٦

تعهّده وآثامه ويثقل ظهرك كلفة محافظته وآلامه.. خسارة في خسارة في خسارة في خسارة في خسارة.

مَثَلُكَ في هذه المعاملة كَمثَلِ رجل مسكين في رأس جبلٍ، أصابت ذلك الجبلَ زلزلةٌ جعلت يتساقط منه في أعماق الأودية جميعُ أمثال ذلك الرجل فيتمزقُ ما في أيديهم، ويرى هذه الحالة وهو أيضاً «على شفا جرف هار» أوشك ان ينهار به في البوار. مع ان في يده امانةٌ وهي ماكينةٌ مرصّعة عجيبة، فيها موازين لا تعد وآلات لاتحد وفوائد لا تحصى وثمرات لا تُستقْصى. فقال له مالك الماكينة كرماً ورحمةً: أريد ان أشتري منك مالي الذي في يدك كأنه مالُك - لئلا تنكسرَ ضايعاً بسقوطك - فأحافظها وأُسلّمها لك حين خروجك من الوادي بصورة باقية لاتنكسر أبداً. ولأجل ان تتصرف في آلاتها وتستعمل موازينها في بساتيني الواسعة وخزائني المشحونة فتتزايد قيمتها وتأخذَ أنواع أجوراتها وثمراتها، والاّ صارت كآلة عادية ساقطة القيمة مستعملة في مضيقات بطنك وغاريك. اذ أين بطنُك وشهوتَكَ وأين البساتينُ والخزائنُ الالهية وكيف يَسعُ غاراك استعمالَ ماكينة تضيق عنها الدنيا. وها أنا أعطيك بدلها ثمناً عظيماً. ولا أخرجها من يدك في مدة بقائك في هذا الجبل، بل آخذ حلقتها العليا ليتخففَ عنك ثقلُها ولا تتعجز بكلفتها. فان قبلتَ البيع فتصرّف فيها باسمي وحسابي كنفرٍ يعمل في ما في يده باسم السلطان وحسابه بلا خوف مما يأتي ولا حزن على مامضى، وان لم تقبل هذا البيعَ الذي فيه ربحٌ بخمسة وجوهٍ خسرت بخمسةٍ وجوهٍ وصرتَ خائناً في الأمانة مسؤولاً عن ضياعها.

«خداء پر كرم خود ملك خود رامى خردازتو: بهاء بى كران داده نكه دار دبراء تو»

ودرسُ القرآن للبشر وتعليمه له: «البيع». يقول له: بِعْ تربَحْ.. ﴿ **انّ الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾[1] واما درسُ فلسفة مدنية الكفار يقول: تملّك ﴿ **إنْ هي الا حياتنا الدنيا** ﴾[2] فانظر التفاوتَ بين الهدى المنوّرِ والدّهاء المزوّر.

اعلم[3]....

---

(١) العنكبوت: ٦٤

(٢) الانعام: ٢٩

(٣) المباحث الموجودة هنا ابتداء من ص [١٢] الى ص [١٦] ومن ص [١٧] الى ص [٢٤] من المخطوط منشورة في رسائل متفرقة من في المثنوي العربي النوري.

[٢٤] اعلم![١] انه سبحانه قريبٌ، وانت بعيدٌ، اذ كما انه معك، هو مع جميع أفراد نوعك، وكما انه مع نوعك، هو مع جميع أفراد جنسك، وكما انّه هو مع جنسك، هو مع جميع جزئيات ذوي الحياة، وكما انه مع جميع ذوي الحياة هو مع سائر طبقات الموجودات ودوائرها، طبقةً الى طبقة جميع الموجودات والى طبقة الذرّات والأثير والروحانيّات والمعنويات والى مالا يحيط به الوهم.

فأذا أردتَ القربَ من جهتك لابدّ ان تمرّ منك متبسطاً مترفّعاً من الجزئية الى مقام كلية النوع، ثم تذهب مترقّياً في الكلية باطلاق الرّوح في التجرّد الى مقام الجنس، وهكذا الى قطعِ قريبٍ من سبعين ألفِ حجاب؛ اذ انّه كما أنّه عندك فهو عند كلّ شئ. فانما تكون عنده – من عندك – اِن كنتَ عند كَل شئ، ثم بعده يصادفك مالا يحد من مسافة ما بين الإمكان والوجوب.

كيف الوصول الى بعيدٍ في قربه ودونَهُ ألوف سرادقات؟ ودونهنّ حتوفٌ، فاذ كان هذا هكذا فأفْنِ منْكَ وبُعدكَ لتبقى به وتَقرُب بقربه.

اعلم[٢] ....

[٣١]....

اعلم! ان الله أقرب الينا منّا، ونحن بعيدون بلا نهاية ومن شواهد قربه تصرّفه، واذا طلبناه عندما يتصرّفَ فيه لانجده الاّ عند كلّ شئ، واذا وصلنا بالترقّي الى عند كلّ شئ بالاحاطة بدائرة الامكان، لا نجده أيضاً الاّ خلفَ الحُجُب النورانية في دائرة الوجوب من سرادقات الاسماء والصفات والشؤونات في العزّة والعظمة والكبرياء، واما اذا طلبناه من جهة قربه بترك نفسنا، فالأمر سهلٌ ان شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله.

اعلم[٣]....

[٣٦] اعلم![٤] يا مَن يحب ان يعرفَ الفرقَ بين حكمةِ القرآن وحكمةِ الفلسفة! ان مثلهما كمثل قرآن كتبت في حروفاته بتذهيبات متنوعة ونقوش مزينة

(١) هذه المسألة الدقيقة تتناولها الكلمة الرابعة عشرة بتفصيل وتوضيح.

(٢) هذا المبحث من هذه الصفحة [٢٤] منشور في المثنوي العربي النوري.

(٣) المباحث الموجودة ضمن صفحات المخطوط [٣١ – ٣٥] منشورة في المثنوي العربي النوري.

(٤) راجع ان شئت الكلمة الثانية عشرة (الاساس الأول والثاني والثالث).

بعضها بالذهب والفضة وبعضها بالألماس والزمرّد وبعضها بالجواهر والعقيق.. وهكذا. وقرأه شخصان فاستحسناه فقالا: فلنكتبْ على محاسن هذا الشئ المزيّن كتاباً فكتب كل منهما كتاباً.

امّا أحدهما: فهو أجنبيّ لا يعرف من العربية حرفاً واحداً حتى لا يعرف انّ مشهوده كتاب، لكن له مهارة في الهندسة والتصوير ومعرفة الجواهر وخاصياتها فكتب كتاباً عظيماً يبحث عن نقوش الحروف ومناسباتها وجواهرها وخاصياتها ووضعياتها وتعريفاتها.

واما الآخر: فحينما رآه عرف انه كتاب مبين وقرآن حكيم فلم يشتغل بنقوش حروفه المزيّنة بل اشتغل بما هو أعلى وأغلى وألطف وأشرف وأزين وأحسن بملايين المراتب مما اشتغل به رفيقُه، وهو بيان جواهر معانيه وانوار أسراره فكتب تفسيراً يبحث عن حقائق الآيات.

يامَن له عقل! فبالله عليك لأيّ هذين الكتابين يقال انّه كتاب حكمة هذا القرآن؟ فاذ فهمتَ التمثيلَ فأنظرْ الى وجه الحقيقة: أما القرآن فهو هذا العالمُ واما الشخصان فكُتب الفلسفة والحكماء، والقرآن وتلامذته.

﴿ ومَن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه ﴾(١)

اعلم!(٢) يا أيها السعيدُ! انّ السعادةَ في التوكل، فتوكّلْ على الله لتستريحَ في الدنيا وتستفيد في الأخرى.

مَثَلُ المتوكل وغيرُ المتوكل الذي يرجع الى التوكل، كَمَثَلَ رجلين حاملين على ظهورهما ورؤسهما أحمالاً ثقيلةً، فدخلا سفينةً، فأما أحدُهما فوضع حِملَه في السفينة وقَعَدَ على متاعه مستريحاً.

واما الآخر فَلِبلاهَتِه في غروره لم يضع حمله، فقيل له:

اطرحْ حِملك الثقيلَ على السفينة!

(١) الطلاق: ٣

(٢) الكلمة الثالثة والعشرون فيها توضيح وافٍ.

فقـال: انا قويٌّ. فـقيل له: ان السـفينةَ التي حـملتْكَ أقوى واحفـظُ. مع ان ظهرَك ورأسَك – المتزايدَ ضعفهما – لا يُطيقـانِ حملَ هذهِ الأحمالِ المتزايدِ ثقلها. فقيل له: بل سلامتُك أيضاً مربوطةٌ بوضعِ حملكَ. اذا رآك صاحبُ السفينة في هـذه الوضعيةِ فإما يقولَ: هو مـجنونٌ فليُطردْ أو خائن يتّهَمُ سفينتنا ويستهـزئُ بنا، فليحبس. بل لا تخلص من السخرية واستهـزاء الخلق، اذ لمّا لم تكفِ قوتُك لدوامِ الحمل اضطررتَ الى التصنّع المشير الى الرياء، والى التكبر المشير الى الضعف، والى الغرور المشير الى العجز، فتصيرُ اضحوكـةً يضحكُ من حالك الناسُ. فتـفطَنَ الى خطئه. فـرجع من عناده فوضع حمْلَهُ فقعد عليه. فتنفّس فاستراح فقال: جزاك الله خيراً ارشدتني الى ما فيه راحتي وسلامتي وحيثيتي.

[٥٠] **النكتة الخامسة**

اعلم! ان في ختم الآيات في الأغلب بفـذلكات متضمنة للاسماء الحسنى، أو بعينها، أو متـضمنة للأمر بالتفكر والحوالة على العقل، أو متضمنة لأمر كلي من المقاصد القرآنية، شرارات من نور حكمته العلوية ورشاشات من ماء هدايته الالهية؛ اذ القرآن الحكيم ببيانه الاعجازي، يبسط الآثار وافعال الصانع للنظر، ثم يستخرج منها الاسماء، أو ثبوت الحشر، أو التوحيد، كأمثال:

﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسويهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾(١)،

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً ۞ والجبال أوتاداً ۞ وخلقناكم أزواجاً ۞ وجعلنا نومكم سباتاً. وجعلنا الليل لباساً ۞ وجعلنا النهار معاشاً ۞ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ۞ وجعلنا سراجاً وهاجاً ۞ وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ۞ لنخرج به حباً ونباتاً ۞ وجنات ألفافاً ۞ ان يوم الفصل كان ميقاتاً﴾(٢)

وكذا ينشر للبشر منسوجات صنعه ثم يطويها في الاسماء، أو الحوالة على العقل كأمثال:

---

(١) البقرة: ٢٩

(٢) النبأ: ٦ – ١٧

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ۞ فذلكم الله ربكم﴾(١)

و**﴿ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**(٢)

وكذا يفصل أفاعله ثم يُجملها باسمائه أو بصفته، كأمثال:

﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمّها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم﴾(٣)

﴿قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير﴾(٤)

وكذا يرتب المخلوقات ويشفـفها باراءة نظامها وميزانها وثمراتها ثم يريك الاسماء المتجلية عليها كأن تلك المخلوقات ألفاظ وهذه الاسماء معانيها أو ماؤها أو نواتها أو خلاصتها، كأمثال:

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ۞ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ۞ ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾(٥)

---

(١) يونس: ٣١ – ٣٢
(٢) البقرة: ١٦٤
(٣) يوسف: ٦
(٤) آل عمران: ٢٦
(٥) المؤمنون: ١٢–١٤

﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[١]

وكذا قد يذكر الجزئيات المادية المتكيفة المتغيرة ثم يجملها بالاسماء الكلية النورانية الثابتة وبفذلكة مشوقة على التفكّر والعبرة، كأمثال:

﴿وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ۞ قالوا سبحانك لا علم لنا الاّ ما علمتنا اِنك انت العليم الحكيم﴾[٢]

﴿وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ۞ ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسناً ان في ذلك لآية لقوم يعقلون ۞ وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بِيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ۞ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبُلَ ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاءٌ للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[٣]

وكذا يفرش الكثرة المتوسعة ثم يضع عليها مظاهر الوحدة كجبهة الوحدة ويلفّها بالقاعدة الكلية، كأمثال:

﴿وسع كُرْسِيّه السّمـٰوات والأرض ولا يؤُدهُ حِفظُهُمَا وهو العليُّ العظيم﴾[٤].

﴿الله الذي خلق السّمـٰوات والأرض وأَنزلَ من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلكَ لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهَار ۞ وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين وسخّر لكم الليل والنهَار ۞ واتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمتَ الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾[٥].

(١) الاعراف: ٥٤
(٢) البقرة: ٣١-٣٢
(٣) النحل: ٦٦-٦٩
(٤) البقرة: ٢٥٥
(٥) ابراهيم: ٣٢-٣٤

وكذا قد يظهر بعد السبب الظاهري عن قابلية ايجاد المسبب وثمراته، اذ أين السبب الجامد من تلك المسافة من قصد غايات عالية حكيمة، وللدلالة على ان الاسباب، وان قارنت واتصلت في النظر بالمسببات، لكن بينهما مسافة طويلة من تلك المسافة، تظهر مطالع الاسماء، اذ لا طاقة لأعظم الاسباب على حمل أخف المسببات، كما ترى تماس دائرة الافق من الجبال بالسماء، مع ما بينهما من المسافة العظيمة التي تطلع فيها النجوم، كأمثال:

﴿فلينظر الانسان الى طعامه ❁ أنا صَّببنا الماء صباً ❁ ثم شققنا الأرض شقاً ❁ فانبتنا فيها حباً ❁ وعنباً وقضباً ❁ وزيتوناً ونخلاً ❁ وحدائق غُلباً ❁ وفاكهة وأباً ❁ متاعاً لكم ولأنعامكم﴾(١).

نعم! أشار بلفظ «متاعاً» وبذكر الثمرات العجيبة الصنعة والحكمة الى عزل الاسباب الظاهرية الجامدة عن التأثير الحقيقي.

وكذا:

﴿ألم تر ان الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بردٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ❁ يقلّب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ❁ والله خلق كل دابةٍ من ماءٍ فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير﴾(٢).

وكذا قد يعدّ عجائب أفعاله تعالى ليعدّ الذهن ويحضره لقبول خوارق أفعاله الأخروية أو يذكر أفعاله الاستقبالية الأخروية بصورة تشير الى نظائرها المشهودة لنا كأمثال:

﴿أوَ لم يَر الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ❁ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ❁ قل يحييها الذي أنشأها أول

---

(١) عبس: ٢٤–٣٢

(٢) النور: ٤٣–٤٥

مرّة وهو بكُلّ خَلقٍ عَليم ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُم منَ الشَّجَرِ الأخْضَر نَاراً فَاذَا أنتُم منهُ تُوقِدُون ﴿ أوَ لَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰـوات والأرضَ بِقَادرٍ عَلى اَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بلىٰ وهو الخلاّق العَليم ﴾(١).

﴿ اِذَا الشَّمْسُ كوّرت . . . ﴾(٢)

﴿ اذَا السَّمٰـاءُ انفطَرَت . . . ﴾(٣)

﴿ اِذَا السَّمٰـاءُ انْشَقَّت . . . ﴾(٤)

[٥١] فانا نرى في الحشر الربيعي كثيراً من نظائر الحشر الأخروي مثلاً: ﴿ **واذا الصحف نشرت** ﴾(٥) ترى نظيرها، بل نظائرها في نشر البذورات والنواتات صحائف أعمال أمهاتها وأصولها وتأريخ حياتها في الحشر الربيعي.

وكذا قد يذكر مقاصد جزئية ثم يقررها ويحققهـا باسماء هي كالقـواعد الكلية كأمثال:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِي تُجَادلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي اِلـى الله وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما انَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(٦)

﴿ سُبحَانَ الَّذي اَسرىٰ بِعَبْدِه لَيلاً منَ المسْجد الحَرام الى المسْجدِ الأقْصىٰ الَّذي بَارَكْنَا حَولَهُ لنُرِيَهُ مِن آياتِنَا انَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾(٧).

﴿ اَلحَمـدُلله فَاطِرِ السَّمٰـوات وَالأرضِ جَاعِلِ الملئكة رُسُلاً أُولي أجْنِـحَة مَثْنىٰ وثُلاث ورُبَاع يَزِيدُ فِي الخَلقِ مَا يَشَاءُ اِنّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ ﴾(٨)

وكذا قد يذكر أفعال الخلق فيهدّد ثم يسلّي بأسماء تشير الى الرحمة كأمثال:

﴿ قُلْ لَو كَانَ مَعهُ آلهةٌ كَمَا يَقُولُون اذاً لاَبتغُوا الى ذي العَرشِ سَبيلاً ﴿ سُبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰـواتُ السَّبع والأرض ومَن فيهن

(١) يس: ٧٧-٨١
(٢) التكوير : ١
(٣) الانفطار : ١
(٤) الانشقاق : ١
(٥) التكوير : ١٠
(٦) المجادلة: ١
(٧) الاسراء: ١
(٨) فاطر: ١

وان من شَئٍ الاّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لا تفقَهُونَ تَسبِيحَهُم انهُ كَانَ حَلِيماً غفوراً ﴾(١).

اعلم(٢)

[٥٢] مبحث عظيم (٣)

فان قلتَ ما وجهُ تفوق قيمة القرآن على الكل مع ان القرآن يقول: ﴿ **قُل لَو كَانَ البَحرُ مِداداً لِكَلمَاتِ رَبّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ اَن تَنفدَ كَلمَاتِ رَبّي** ﴾(٤).

قيل لك: ان القرآن كلامُ الله باعتبار انه ربُ العالمين.. وبعنوان اله العالمين.. وباسم ربٍّ السموات والارضين.. ومن جهة الربوبية المطلقة.. ومن جهة السلطنة العامة.. ومن جانب الرحمة الواسعة.. ومن حيثية حشمة عظمة الالوهية.. ومن محيط اسمه الأعظم الى مُحاط عرشه الأعظم.

واما سائرُ الكلمات الالهية:

فمنها ما هو باعتبار خاص، وبعنوان خاص، باسم جزئي، في تجلي جزئي، ومن جهة ربوبية خاصة وسلطنة مخصوصة، ورحمة خصوصية، كأكثر الالهامات. ومن هذا السرّ يقول الوليّ: «حدثني قلبي عن ربي» ولا يقول: «عن رب العالمين».

نعم. أين فيضك بمقدار قابليتك من تجلي ربك في مرآة قلبك أيّها الولي، ثم اين فيض النبيّ من تجلي رب العالمين بالاسم الاعظم في مرآة العرش الأعظم الأم لجميع العروش باعتبار الاسماء بجلواتها؟.. كما، اين فيضك من شمسك في مرآتك الصغيرة المكدّرة، ثم اين الفيض من شمس العالم في سقف السماء؟ و..كما أين خطابُ مَلكٍ لأحد رعيته بأمر جزئي لحاجة بتلفونه الخاص، ثم اين فرمان ذلك الملك

---

(١) الاسراء: ٤٢–٤٤

(٢) هذه المباحث الموجودة في ص[٣٦–٥٠] وكذا [٥١ وقسم من ٥٢] من المخطوط منشورة في المثنوي العربي النوري.

(٣) الاساس الرابع من الكلمة الثانية عشرة وكذلك الكلمة الخامسة والعشرون (المعجزات القرآنية) تفصّلان هذا المبحث، وانظر ان شئت أيضاً رسالة (المعراج النبوي).

(٤) الكهف: ١٠٩

بعنوان السلطنة العظمى وباسم الخلافة الكبرى ومن حيثية حشمة مالكيته العليا وبقصد تشهير أوامره في أطراف مملكته بواسطة سفرائه وأمنائه؟.

فمن هذا السرّ العظيم يفهم سرُّ كون أكثر الوحي بواسطة المَلَك، والإلهام الالهي بدونه.. وسرُّ عدم بلوغ أعلى وليّ درجةَ أحد نبيٍّ من الأنبياء.. وسرُّ عظمة القرآن وعزة قدسيته وعلو اعجازه في غلو ايجازه.. وسرُّ لزوم المعراج الى السماء الى سدرة المنتهى الى قاب قوسين، لمناجاة مَنْ هو أقرب اليه من حبل الوريد.. ثم الرجوع في طرفة عين. وغير ذلك من الأسرار..

ثم ان الكلام النفسي كالعلم والارادة صفةٌ أزلية بسيطة معلوم الوجود والثبوت، مجهول الكُنهِ والكيفية. وان الكلمات لا نهايةَ لها.

﴿سبحانك لا علم لنا الاّ ما علمتنا انك انت العليم الحكيم﴾(١)

أيها الناظر! هذا المبحث العظيم من تتمات القطرة الرابعة من الرشحة الرابعة عشرة.

(١) البقرة: ٣٢

[٥٣] بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

بسم الله. اعلم(١) ان كل شئ يقول: بسم الله. اما بلسان قاله أو حاله أو ستعداده؛ اذ ترى: انه ما من شئ من الأشياء، من الذرات الى الشموس الاّ وهو مع عجزه في ذاته قد تحمّل وظيفة عجيبة لا تكفي قوته لعُشر معشار عشير تلك الوظيفة. فبالبداهة يُعلم انه: انما تحمّلها بحول قويّ عزيز، وانما يباشرها باسم قدير حكيم.

وكذا هو مع جهله قد حمل على ظهره ورأسه غايات موزونة وثمرات منظومة، فيها نفع العموم، مع انه لا يعود منها الى نفسه عُشر معشار عشيرها، فبالبداهة يُعلم ان ذلك الشئ انما حمّل تلك الغايات الحكيمة باسم عظيم حكيم، ويوصلها الى ذوي الحياة باسم رحمن رحيم وبحساب عليم كريم.

فان شئت فانظر الى النواتات والبذور وما تحمّلت من الاشجار والسنابل، والى الأشجار وثمراتها، والى الحيوانات والحوينات ووظائفها العجيبة. فمَن له أدنى شعور؛ كما يفهم ان نفراً منفرداً اذا ساق جميع اهل بلد الى محل بعيد بغير رضاهم ثم قسّمهم الى وظائف وخدمات مختلفة، انه ما يفعل الاّ بقوة سلطانه، وما يعمل الاّ باسمه، ومايستخدمهم الاّ بحسابه، كذلك لابد اَن يفهم ان هذه الموجودات العاجزات الجاهلات، ماتحمّل هذه الوظيفات العظيمات المنتظمات، الاّ باسم قدير عليم، وبحساب عزيز حكيم وانما تهدي الينا هذه الثمرات باسم رحمن رحيم، وليس من وظائفها وغاياتها الاّ ما أعطته الرحمة العامة لكل فرد من اللذة الخصوصية في خدمة الخاصة، كلذّة الترحم في شفقة الوالدات، وكحلاوة الفعالية في استعداد النحل بامتثال الوحي، وكذوق التلقيح في الفحول، وكالتلذذ في التغذي،

(١) الكلمة الاولى توضح هذه المسألة.

وكالاستراحة والتنفس في الخروج من القوة الى الفعل – في نمو الاشياء – فان ما بالقوة كالمحبوس المقيد، وما خرج الى الفعل كالمتنفس المطلق وهكذا فقس.

فجعل الفاطر الحكيم والمالك الكريم هذه اللذات الجزئية معاشات لخدماتها.. وفهرستة لكيفيات وظائفها.. وزنبركاً لحركاتها.

فيا ايها الانسان الحامل للأمانة الكبرى!

كيف لا تطيع قانوناً أحاط بكل شئ من العرش الى الفرش! وكيف تتجاسر على العصيان في مقابلة دستور مسخّر الشمس والقمر، ومستخدم النجم والذرّ.

اعلم! ان الفرق بين طريق التوحيد وطريق الالحاد، كالفرق بين الجنة والجحيم، والواجب والمحال. فأن شئت فانظر الى الموازنة بين الطريقين:

أما التوحيد، فيسند الكثير الغير المحدود الى الواحد فيتخفف الكلفة والمصرف بدرجة تتساوى الشموس والذرات والقليل والكثير الغير المتناهي بالنسبة الى قدرته.

وكذا يظهر التوحيد في كل شئ غاياتٍ كثيرة مهمة من جهة نظره الى صانعه، ومن تلك الغايات اظهار الشئ لأسماء خالقه، كأن الشئ كلمة واحدة جامعة لرموز الأسماء، فتدل عليها.

وأما الغاية المشهورة بين أهل الغفلة التي هي جهة استفادتنا منه، من الأكل وغيره، فأقل واحصر، واذلّ واصغر من اَن تكون غاية تامة لخلقة الشئ، بل هي وسيلة احدى غاياته.

وأما الالحاد، فيسند الواحد الى الكثير الغير المحدود، أي يسند كل شئ الى العناصر والطبائع العاجزة الجامدة ، والى القوى والنواميس الصمّ العمي. فتتضاعف الكلفة بدرجة تساوي كلفة الفرد كلفة عام النوع، بل تساوي كلفة شئ واحد كلفة كل الأشياء.

وكذا لايرى الالحاد من غايات الشئ الاّ ما يعود الى الانسان في حظ نفسه الحيوانية أو الى نفس الشئ في حفظ حياته الدنيوية.

فمثل الموحد والملحد، كمثل رجلين رأيا نواة تمر، وأرادا تعريفها:

أما أحدهما، فقال: هي فهرستة واحدة مما لايحد من الفهرستات المسماة بالنواتات ومن بعض غايات هذه النواة، انها تعرفة معنوية لشجرة.. وتعريف لتاريخ حياتها.. وخريطة كينونتها بقابلياتها، لأن تكون ماكينة تنسج نخلة كأصلها.

واما الآخر، فقال: لا، بل هذه الشجرة بجميع أجزائها وأوراقها اجتمعت عند هذه النواة، فأوجدتها، وجمعت جهازات نخلة باسقة فجهّزتها، لكن بلا فائدة، فلا غاية لهذه الشجرة الاّ هذه النواة، ولا غاية لهذه النواة الاّ أكل الابل بعد السحق والدق.

فيا مَن له أدنى شعور – ولو كشعرة – هل يمكن مشاهدة هذه السهولة المطلقة في الجود المطلق في رخيصية مطلقة ومع شهود هذه الحكمة العامة في الانتظام المطلق، ان يستند خلق الشئ كهذه الرمانة مثلاً الى أسباب جامدة، لكن تجلب جهازات أكثر الأشياء لتصنيع ذلك الشئ الواحد الذي هو مثال مصغر لكل تلك الأشياء.. وان لا تكون لهذه الرمانة غاية الاّ أكلها في دقيقة للذة حيوانية.

نعم! كيف تساعد هذه الحكمة التي وظّفت رأس الانسان في حواسه، بوظائف عديدة، لو خصصت لكل وظيفة منها في رأس الانسان مقدار خردلة لصار رأس الانسان كجبل الطور.

انظر الى لسانك ووظائفه، ومن بعض وظائفه، وزنه لجميع مدخّرات خزائن الرحمة..

بل وكيف توافق تلك الحكمة لأن لا تكون لمثل هذه الرمانة الخارقة الصنعة غاية الاّ أكلك في آن في غفلة. فمحال ظاهر أن يثمر رأسك جبلاً من الاثمار، وان لا يثمر مثل الجبل الاّ ثمرة كرأسك. اذ يلزم حينئذٍ جمع نهاية الحكمة مع نهاية العبثية، وهو من أمحل المحال وأبطل الباطل، بل تلك الرمانة، كأمثالها تضمنت قصيدة في بيان الأسماء الحسنى، فأفادت معانيها، فوفّت فتوفّت فدفنت من فيك فيك.

سبحان من تحيّرت العقول في صنعته.

[١٠] هذه نَورةُ من شجرة آية:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ والأرضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإنْ مِنْ شَئٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾(١) رأيتها وقت انكشاف الأزهار من الأشجار في زمن الربيع فهيّجت جذبتي فتفكرت في تسبيحاتها فتكلمت أنا لي لا لغيري بهذه التسبيحات الفكرية فظهرت هكذا في بعضها رقص الجذبة بنوع وزن يشبه الشعر وليس بشعر بل قافية ذكر في جذبة فكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يسبّح له كلُّ شئٍ بكلماته المخصوصة المبصَّرة كالمسموعة، مثلاً:

الأنوارُ والانهارُ والأعصار كلماتُ الضياء والماء والهواء. فقس.

سبحان مَن يحمده:

الضياءُ بالأنوار.. والماء والهواء بالانهار والاعصار..

والترب والنبات بالاحجار والأزهار..

والجوّ والاشجار بالاطيار والاثمار..

والسحب والسماء بالامطار والأقمار..

تلألؤُ الضياءِ من تنويره، تشهيره..

تموُّج الهواءِ من تصريفه، توظيفه..

تفجُّرُ المياهِ من تسخيره، تدخيره.. مدحٌ بليغٌ بينٌ للقادر.

تزيُّن الاحجارِ من تدبيره، تصويره..

تبسم الأزهارِ من تزيينه، تحسينه..

تبّرج الأثمار من انعامه، اكرامه.. حمدٌ جميلٌ ظاهرٌ للفاطر.

تسجُّعِ الأطيارِ من إنطاقه، إرفاقه..

تهزُّجِ الامطارِ من تنزيله، تفضيله..

تحرّك الاقمارِ من تقديره، تدويره.. تسبيحةٌ فصيحةٌ للقادر، بل آية نيّرة للقاهر.

(١) الاسراء: ٤٤

سبحان من تحمده:

السماءُ بالبروجِ والأنوارِ

والأفلاكُ بالشموس والنجوم والأقمار

والجو بالرعود والبروق والأمطار

والارضُ بالحيوان والنبات والاشجار

وتحمد الأشجارُ بالأوراق والأزهار.. منظومةً موزونة الثمار.

اذ تسكتُ الأزهار من انشادها، فتنطق الأثمار بالبدار.. حمداً بليغاً ناشرَ الأنوار.

وتنشد النواةُ في قلبها، ذكراً خفياً جامعَ الأسرار.

مكتوبةٌ مطويةٌ في سرّها صحائفُ الاعمال للاشجار

فيُظهر لسانُها حبّات مدحِ الفالق والفاطر.

كل نباتٍ حامدٌ وعابدٌ مسبّحٌ وساجدٌ للقادر.

تبسُّم النبات في تنوير الأزهار.. تحمدةٌ ظاهرةٌ للناظر..

أفواهُها السنبلُ والاكمام، ألفاظُها البذور والحبوب في الأشفار.. منظومةً موزونة الاشعار..

لسانها نظامُها، ميزانُها في نقشها النوّار..

صنعتُها صبغتُها تزيينها البهّار..

بطعمها، بلونها، بريحها، واصفة حامدةٌ للفاطر..

اذ تصف أوصافَه، تُعرِّفُ أسماءه، تفسّر تودّداً تعرّفاً للقادر.

اذ تَرشَحُ الاسنانُ السنابلُ، وتقطر العيونُ الأزهارُ.. قطرات رشحاتِ جلواتِ الفاطر..

تودّداً لعَبده.. تعرّفاً لخلقه.. من غيبه في الظاهر

[١١] حتى كأن الشجرَ المزهرّة..
قصيدة منظومة محرّرة..
أو فتحت بكثرة عيونها المبصّرة..
أو زَينت لعيدها أعضاءها المخضّرة..
ليشهد سلطانُها آثارَها المنوّرة..
وتُشهِرَ في المحضر مُرصّعات الجوهر..
لتُعرضَ للنظر.. كالعسكر المظفّر.
وتُعلن للبشر: حكمةَ خلق الشجر..
بكنزها المدَّخر من جود رب الثمر.

سبحانه ما أحسن احسانه! ما أزين برهانَه! ما أبيَنَ تبيانَه!
من بارئٍ مصوّرٍ.. من خالقٍ مقتدرٍ.. من فاطرٍ منوّرٍ.

فانظر الى رحمته.. في موسم ربيعه.. لتشهير صنعته:
يظهر لك فصلُ الربيع: يَوم عيد لعبده..
يَوم زينةٍ لخلقه.. من شجرٍ من نبته.
فنطهر كلُّ نبات مقدار رتبته:
سلطنة سلطانه.. هدية مالكه.. منتظرٌ لأمره.. ويخدم باسمه.. مزهرٌ مثمرٌ بإذنه.. كسفرة نظيفة لضيفه.
فالنور والهواء والتراب مع الماء:
سُفراء أمره، حَمَلةُ عرشه..
في نشر صَنعته.. في تبليغ حِكَمه.

فالعلمُ والحكمة عرشُهما في: النور

فالفضلُ والرحمة عرشُهما على: الماء

فالحفظ والاحياء عرشُهما: التراب

فالأمر والارادة عرشهما في: الهواء

فاعلم بان كلها – في فعلها – مَظاهرٌ بإسمه، مَساطرٌ لا مصدرٌ، قوابلٌ لا فاعل، حواملٌ بحوله، تحمل ماتحمله بإذنه، بإسمه.. تفعل ما تفعله بطَوله، بحَوله.

لو لم يكن هذا حقُ الاشياء؛ يلزم للتراب والهواء، والنور مع الماء: ان تُدّخِر في كل جزء ذرةٍ، وقطرةٍ من كلها.. معرفة وقدرةً وصنعةً بلا انتهاء.

اذ مثلاً هذا الهواء؛ يمرّ في جوّ الفضاء.. يزور بذرّاته كل نبات ذي نماء.

فيظهر مروره خوارق بلا انتهاء.. في معجزات صنعة لمن له خلق السماء.

ان أمكن لذرة بسيطة واحدة جامدة جاهلة؛ ان تنشئ هاتا الاشجار.. وتضع تاك الاثمار.. تصوّر هذه الأزهار، بل جملة هذي الأشياء.

وتقدر ان تحمل هذي الأرض، هذي الدنيا، حقّ لك ان تشك في وحدة لاشريك.

فاذ هذا ليس ذاك، فلا شك أن لا ملكَ الاّ لمن كلّ الخلق في قبضة قدرته.. في قبضة حكمته.

لأن كلّ حبّةٍ، وقطرة، وذرة تصلح لكل خضرة، ثمرة، وزهرة. فيلزم في ذرة واحدة وحبّة وقطرة، اِن لم تكن مأمورة بأمر رب السموات، من صنعةٍ وحكمة وقدرةٍ، تكفي لكل المصنوعات، لحمل هذي الموجودات.

سبحان من تحمده الاشجار؛ بالأوراق والأزهار والاثمار..

تَكَشُّفُ الأزهار في تزايد الأوراق، في تكامل الثمار..

في رقص بناتها على أيادي غصنها الخِضار.

تهزّها مراوح نسائم الاشجار..

نُطق فصيح واضح للناظر، في مدح من يُنشئها، يُنشِدُها للواحد القهّار.

أفواهُها، حروفها، ألفاظها.. الأوراق والازهار والثمار.

اذ تَرقُصُ الأوراق من فرحها في ذكرها للفاطر..
وتَبسُمُ الأزهارُ من زينتها تشكراً للقادر..
وتضحك الاثمار بالرحمة في النثار.. لسانها ذو نغمات عشرة في الناظر..
نظامُها المتّزن، ميزانُها المنظّم في لونها المنَّور..
صنعتُها المنقشة، نقوشُها المصنّعة، في شكلها المصوّر.
صبغتها المزينة، زينتها المصبّغة، في طعمها المسرّ.
عجائبُ صنعتها، تكثّر انواعِها، تنوّع لحومـها – بكلها – حامدةٌ للفاطر.. واصفة للقادر..
اذ تصف أوصافَه، تُعرّف اسماءه تفسّر تحبباً، تحنناً للصانع، للناظر.
اَذ ترشح الثمارُ من شفاهها قطراتٍ رشحاتٍ جلواتِ الفاطر..
تَحبباً تعرّفاً لعبده.. تعهّدا ترحّماً لخَلقه المفتقر.
سبحانه ما أنور حجتَه! ما أبهر قـدرتَه! ما أَظهر رحمتَه! من منشئٍ مصوّرٍ ومُنشدٍ مدبّر.. ومنشر مبشّر.
سبحانه ما أجمل جلاله!
ما أجل جماله!
ما أكبر سلطانه!

(فانظر الى أرضك فقل: الله أكبر. وانظر الى الكائنات فقل: الله أكبر، هو الخّلاق الفـعّال، هو الفـتّاح العـلاّم، هو الـوهّاب الفـيّاض، هو العـزيز الحكيم، هـو الكريم الرحيم).

[١٢] ان شئت ان تعرف معنى «الله أكبـر» فانظر الى الكائنات فانها كلها ظلال أنواره.. آثار أفعاله.. خطوط قلم قضائه وقدره.. نقوش أسمائه.. مرايا أوصافه.

فاعلم فـقل: الله أكبر.. انظر الى العـوالـم.. فانها كلهـا مأخوذة بالتـمام في قبـضة علمه، في قبضة قـدرته، في قبضة عدله، في قبضة حكمـته.. منظومةٌ وزنُه، موزونةٌ نظمُه.

فالتنظيم بالنظام، والتوزين بالميزان: قبضتان للرحمن، عنوانان للبابين.. من الامام المبين، من الكتاب المبين.. فذلك الكتاب مع ذاك الامام.. عنوانان بيّنان.. العلم والقدرة للقادر العليم، للعادل الحكيم.. فلا شئ يخرج من نظم هذا النظام، من وزن هذا الميزان.. يشهده من له في رأسه الاذعان، في وجهه العينان.. فبالحدس الشهودي بل بالشهود الحسّي.. لاشئ من الاشياء في الكون والزمان، يخرج من قبضة تصرّف الرحمن.

فابصر فقل: الله أكبر.. هو العَدل الحاكم، هو الحكَمُ الفرد، هو العادل الحكيم.. اذ هو الذي اسّس بنيان الكائنات، بمسطر المشيئة، بالحكمة النظّامة.. أصول حكمته رابطة الموجودات.. ففصّل الموجودات بدستور القضاء، بقانون القدر.. قوانين القدرة، خيّاطة الصور، لقامة المصنوعات.. فنظّم الكائنات بناموس السُنّة، بقانون العادات.. نواميس السنّة، قوانين العادة.. نظّامة المخلوقات.. «اذ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد» في الأرض والسموات.. بتلطيف الرحمة، بتكريم العناية.. قد زين الكائنات.. نواميس الرحمة.. دساتير العناية.. حسّانة المصنوعات وزينة الموجودات.. فنوّر الكائنات.. بجلوة الاسماء تجلّي الصفات.. تظاهرات الاسماء.. في جِلوات الصفات.. نوّراة الموجودات.. في الارض والسموات.

فافهم وقل: الله أكبر. هو الفاطر العليم، هو الصانع الحكيم.. ذاك العالم الكبير، هذا العالم الصغير.. مصنوعا قدرته مكتوبا قدره.. ابداعه لذاك، صيّره مسجداً.. ايجاده لهذا صيّره عابداً، انشاؤه لذاك، صيّر ذاك مُلكاً.. بناؤه لهذا صيّره مملوكاً.. صنعته لذاك تظاهرت كتاباً، صبغتُه لهذا، تظاهرت خطاباً.. قدرته في ذاك، تظهر عزّته.. ورحمته في هذا تنظم نعمته.. سكّته في ذاك.. في الكل والاجزاء.. خاتمه في هذا في الجسم والاعضاء..

فانظر وقل: الله أكبر.. هو القادر المقيم.. هو البارئ العليم.. هو اللطيف الكريم.. هو الودود الرحيم.. هو الجميل العظيم.. هو نقاش العالم.. ان شئت ان تعرف هذا العالم ما هو كله اجزاؤه، الكائنات ماهي نوعاً وجزئياتٍ، فانما هو هي خطوط قضائه.. رسوم قدره.. في تنظيم الذرات.. في تعيين الغايات.. في تقدير الهيئات.

فبعد هذ الترسيم.. لتعيين الحدود.. لمقدار القدود.. تجئ قدرته لتشخيص الصور.. ببركار القدر.. في حكمة الأثر.. مراعاة المصالح بالقطع قد شهدت: ان النقوش فاضت، من قلم عليم، من تدبير حكيم.

فبعد هذا التشخيص تجئ العناية، لتزيين الصور، بيد بيضائه، بلطف انشائه.. تزيّن الصور بابدع مايمكن.. يشهد باليقين لصاحب العينين.. ان الزينة والحسن، من اثر لطفه.. آية كرمه.

فبعد هذا التزيين.. يجئ كرمه.. بالتلطيف والتحسين.. لابراز التودد.. في تزيين الحسان.. واظهار التعرف للجن والانسان.. فما تلك المحاسن وما هاتى اللطائف الاّ منها التودد.. الاّ منها التعرف.. تحبّب الفاطر.. يقطر للناظر.. من تحسين الأثر.. تعرّف القادر.. من تزيين الأثر.. يظهر للنظر.. بعد هذا التودد.

بعد هذا التودد تجئ رحمته، لإبراز الانعام.. في نشر سفرته لتلذيذ الأنام.. ترحّم الخالق.. يرشح من الأثر.. تحنن الرزاق.. يقطر من الثمر..

الحاصل:

هذا العالم.. خطوط قدره.. نقوش قلمه.. زينات كرمه.. أزاهير لطفه.. بالحدس والعيان.

اثمار رحمته.. لمعات جماله.. جلوات جلاله.. مرايا كماله.. بالحق والايمان.

مايُشْهَدُ من جمال.. مايُشهر من كمال.. مظاهر سيالة. مرايا جوالة [١٣] ظلال انواره.. ايات كماله. ويشهد لهذا: كمال آثاره..

فالأثر المكمّل.. يشهد لذي العقل. . على الفعل المكمل. . ثم الفعل المكمل يدل لذي الفهم على الاسم المكمل، والفاعل المكمل. والاسم المكمل يدل بالبداهة على الوصف المكمل، والوصف المكمل يدل بالضرورة على الشأن المكمل.. ثم الشأن المكمل، يدل باليقين على كمال الذات، مما يليق بالذات، وهو الحق المبين.. رفيع الدرجات.. خلاق العالم. يشهد لذي العين: ان الجمال الظاهر ليس ملك المظاهر.

نعم تفاني المرايا، زوال الموجودات.. مع التجلي الدائم.. مع الفيض الملازم.. من أوضح برهان.. من أفصح تبيان.. للجمال المجرد.. للاحسان المجدد، للواجب الوجود.. للباقي الودود.

فاعرف.. وقل: الله اكبر.. هو الخلاق الكبير، هو الفعال القدير.. فالاجسام السفلية، والزينات الأرضية، والاجرام العلوية والكواكب الدرّية.. في بستان الكائنات:

معجزات القدرة.. شواهد الحكمة.. براهين للواحد الأحد، والقادر الصمد.

سبحان من جعل حديقة أرضه: مشهر صنعته.. مزهّر النباتات.. مثمّر الشجرات.. مزيّن الحيوانات.. محسّن الطيورات.. خوارق صنعه.. شواهد علمه..دلائل لطفه.

تبسّم الأزهار.. من زينة الاثمار.. في هذه الجنان: تودّد الرحمن.. ترحّم الحنان.. تعرّف المنّان.. للجن والإنسان، والروح والحيوان.

فالزهر والثمر.. والحب والبذر.. معجزات الحكمة.. هدايا الرحمة.. براهين الوحدة.. بشائر لطفه.. في دار الآخرة.. شواهد صادقة.. بان صانعها بكل شئ عليم.. لكل شئ قدير.. قد وسع كل شئ .. بالرحمة والعلم.. باللطف والتدبير.

فالشمس كالذرة.. والنجم كالزهرة.. والأرض كالبيضة.. لاتثقل عليه في الخلق والتدوير.. والحفظ والتصوير.. والصنع والتنوير.

فافهم .. وقل: الله أكبر.. هو سلطان الأزل.. هو حاكم الأبد.. هو الملك السرمد.

انظر الى وجه السماء.. كيف ترى سكوتاً في سكونةٍ.. حركة في حكمةٍ.. تلألؤاً في حشمة.. تبسّماً في زينة.. مع انتظام الخلقة.

تلألؤ نجومها.. تعلن لأهل النهى.. سلطنة بلا انتهاء.

فهذه النيّرات.. وهذه السيارات.. براهين منيرة.. شواهد مضيئة.. معلنة لعزة

كبرياء الالوهية.. مظهرة لشوكة سلطنة الربوبية.. مبينة لحشمة عظمة قدرته.. مشيرة لوسعة احاطة حكمته.

آمن وقل: الله أكبر.. وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم..

سبحانك يامَن في كل شئ لك شاهدان على أنك واجب واحد.

سبحانك يامَن في كل حيّ لك آيتان على انك أحد صمد.

سبحانك يامَن سكته مضروبة على جباه الخلق.. بالصدق شاهدة بالحق ناطقة.

فانظر الى آثاره كيف ترى كالفلق.. سخاوة مطلقة في انتظام مطلق.. وقد ترى النظام في سهولة في اتزان مطلق.. في سرعة مطلقة في حسن صنع مطلق.. في وسعة مطلقة في اتقان مطلق.. في رخيصة مطلقة مع غلوّ مطلق.. في خلطة مطلقة في امتياز مطلق.. في بعدةٍ مطلقة في اتفاق مطلق.. في كثرة مطلقة مع كمال مطلق.

فهذه الكيفية المشهودة شاهدة للعاقل المحقق.. مجبرة للأحمق المنافق.. على قبول الوحدة والصنعة للحق.. ذي القدرة المطلقة.. وهو العليم المطلق.

فتأمل وقل:

لا خالق الاّ هو ..

لا فاطر الاّ الحق

« تمت الجذبة الفكرية بهجزاتها »

[١٤] بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿الَمْ تَرَ ان الله يَسْجُد له مَن في السَّمٰوات ومَن في الأرض والشَّمْسِ وَالقَمر والنُّجُوم والجبَالِ والشَّجَرِ والدَّواب وكَثيرٌ من النَّاسِ وكَثيرٌ حَقَّ عَلَيه العَذَابُ ومَن يَهِنِ الله فَما لَه مِن مُكْرِمٍ انّ الله يَفعَلُ ما يَشاءُ﴾(١)

اعلم!(٢) ان القرآن الحكيم يصرّح: بان كل شئ من العرش الى الفرش، ومن النجوم الى الهوام، ومن الأملاك الى الأسماك، ومن السيّارات الى الذرّات يعبد الله ويسجد له ويحمده ويسبّح له الاّ ان عباداتها متنوعةٌ. فنشير الى وجهٍ من وجوه التنوع، بنوعِ تمثيل.

مثلاً: «ولله المثل الاعلى» ان ملكاً عظيماً اذا بنى مدينة جسيمةً وبنى قصراً محتشماً، فذلك الملك يستعمل فيهما أربعة أنواعٍ من العَمَلة:

الأول: مماليكُه: فليس لهم معاش ولا أجرة. بل لهم ذوقٌ وشوقٌ في كل ما يعملون بأمره، ويقولون في مدحه، ويكتفون بشرف انتسابهم له، ولذة نظرهم بحسابه.

والثاني: خَدَمة عاميون يستعملهم الملك بعلمه بأجرةٍ جزئية تليق بهم. ولا يعرفون ما يترتّب على عملهم من الغايات العالية الكلية. حتى قد يتوهم البعضُ أنْ ليس لعمله غايةٌ الاّ ما يعود الى نفسه من الأجرة والمعاش.

والثالث: حيواناتٌ له يستخدمها، فليس لها الاّ العَلَف، والتلذّذ بالعمل فيما تستعدّ له، اذ في خروج الاستعداد من «القوّة» الى «الفعل» لذة عامة.

والرابع: عَمَلة عالمون بما ولِمَا يعملون وتعمل سائر العَمَلة، وعارفون بمقاصد الملك. فلهم رياسةٌ ونظارةٌ على سائر الخَدَمة، ولهم معاشٌ متفاوتٌ على درجات رُتَبهم.

---

(١) الحج: ١٨

(٢) هذا المبحث القيم خلاصة جيدة للغصن الرابع من الكلمة الرابعة والعشرين.

كذلك ان مالك السموات والأرض وبانيها، استخدم واستعبَد الملائكة، ثم الحيوانات، ثم الجمادات والنباتات، ثم الأناسي، لا للحاجة؛ اذ هو خالقُهم ومايعملون، بل للعزّة والعظمة وشؤونات الربوبية وغير ذلك.

فاما الملائكة فليس لهم ترقيات بالمجاهدة. بل لكلٍ منهم «مقام معلوم» لكن له ذوقٌ مخصوص في نفس عملهم وفيوضاتٍ بنسبة درجاتهم في نفس عباداتهم. فمكافآت خدَماتهم مندرجةٌ في عين خدماتهم. فكما يتغذى الانسانُ بالماء والهواء والضياء والغذاء ويتلذذ بها، كذلك االملائكة يتغذّونَ ويتنعّمون ويتلذذون بأنوار الذكر والتسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة، لأنهم من النور فيكفي لغذائهم النور والنورانيّ، كالروائح الطيّبة، ولهم سعادة عظيمة في فعلهم بأمر معبودهم، وفي عملهم بحسابه، وخدمتهم باسمه، ونظارتهم بنظره، وتشرّفهم بانتسابه، وتنزهّهم بمطالعة مُلكه وملكوته، وتنعّمهم بمشاهدة تجليات جماله وجلاله.

واما الحيوانات فلوجود النفس المشتهية فيها مع اختيارٍ جزئي ليست أعمالها خالصةً بحسابه وحَسْبةً محضةً لوجهه، فلهذا يعطيها مالِكُها الكريم معاشاً في ضمن عملها لأجله.

مثلاً: ان العندليب المشهور بالعشق للورد يستخدمه فاطرُه الحكيم لإعلان المناسبة الشديدة بين طوائف النبات وقبائل الحيوان. فالعندليب خطيبٌ رباني من طرف الحيوانات – التي هي ضيوف الرحمن – وموظّفٌ لإعلان السرور بهدايا رازقها. ولاظهاره حُسن الاستقبال للنباتات المرسلة لإمداد أبناء جنسه، ولبيان احتياج نوعه البالغ ذلك الاحتياج الى درجة العشق، على رؤوس جميلات النباتات، ولتقديم ألطف شكرٍ في ألطف شوقٍ في ألطف وجهٍ لجنابِ مالكِ الملك ذي الجلال والجمال والاكرام.. فهذه غايةُ عمله بحسابه سبحانه، فهو يتكلم بلسانه فنفهم هذه المعاني منه، وان لم يَعرف هو معنى نغماته بتمامها. وعدمُ معرفة البلبل بهذه الغايات بتفصيلها لا يستلزم عدمَها، لا أقل يكون كالساعة تُعلّمكَ الأوقات وهي لاتعلم ماتعمل. وأما معاشُه الجزئي فذوقه بمشاهدة الأزهار المتبسّمة وتلذّذه محاورتها. فليست نغماته الحزينة تألّمات شكايات حيوانية، كلاّ بل هي «تشكرات عطايا رحمانية» وقس عليه النحل والفحل والعنكبوت والنمل وبلابل الهوام وغيرها. فلكلٍ

منها معاشٌ جزئي في ذوق خصوصيّ في ضمن خدمتها لغايات كلية ولصنعة ربّانية كالنفر المستخدم في سفينة سلطانية.

فالحيوانات بامتثالها للأوامر التكوينية بكمال الاطاعة واظهارها لغايات فطرتها بأحسن وجه بإسمه، وتظاهرات حياتها بوظائف [١٥] بابدع طرز بحوله، وهكذا من سائر تسبيحاتها تقدم هدايا عباداتها ومزايا تحياتها لجناب فاطرها.

فالتحيات تظاهرات الحياة بلطائف آثارها المطلوبة لواهب الحياة.

واما النباتات والجمادات فلأجل ان لا إختيار لها، لا معاشَ لها، فأعمالُها خالصةٌ لوجه الله، وحاصلةٌ بمحض إرادة الله وباسمه وبحسابه وبحوله. الاّ انه يتظاهر من حال النباتات أن لها تلذّذات بوظائفها ولا تألماتَ لها، خلافاً للحيوان المختار. فله الألم كاللذّة. ولأجل عدم تداخل الاختيار في أعمال الجماد والنبات تكون آثارها أكمل من اعمال ذوي الاختيار، ثم عمل ذي الاختيار المنوّر بالوحي والالهام كالنحل وامثاله أجملَ من غيره المعتمد على اختياره.

واما الانسان فهو كالمَلَك في كلية العبادة وشمول النظارة واحاطة المعرفة ودلاّلية الربوبية، بل أجمع منه. الاّ ان له نفساً شريرة مشتهية، فله ترقيات وتدنيات.

وكالحيوان في ادخاله في عمله حظاً لنفسه وحصةً لذاته، فله معاشان معجّل جزئي حيواني، والآخر مؤجل كلي مَلَكي. فتأمل تَنَلْ.

ولقد ذكرنا في دروس رسالة النور كثيراً من اسرار عبودية الانسان ووظيفته وقسماً من عبادة النبات والجماد وتسبيحاتهما فلا حاجة الى التطويل هنا فان شئت فراجع تلك الدّروس لترى سرّ سورة « والتين والزيتون » وسورة « والعصر ».

« تتمة لمبحث العندليب »

ولاتحسبن ان هذه الوظيفة الربّانية في الاعلان والدلاّلية والتغني لذوي الأسماع بهزجات التسبيحات مخصوصةٌ بالعندليب. بل كل نوعٍ له عندليبٌ يُمَثّل ألطفَ حسيّات ذلك النوع بألطف تسبيح في ألطف تسجيعٍ. لاسيما في انواع الهوام والحشرات.

فمنها ما له عندليب وبلابل كثيرة، تنشد على رؤوس كثير من انواع الهوام والحشرات الصغيرة المختلفة سجعات تسبيحات يلتذّ باستماعها جميعُ مَن له سمع.

فمنها ليلية ذات سرود[١] في مسامرة لصغار الحُوَينات من نوعها وغير جنسها في سكوت الليل وسكونه حتى كأنها قُطبُ حلقةِ ذكرٍ خفي. لأن الغناء كاللسان المشترك العمومي يفهمه كل من له سمع وحسّ.

ومنها نهارية ذات تسبيحات بتسجيعات وهزجات لطيفة رفيعة تنشدها في فصل الصيف على منابر الاشجار على رؤوس جميع ذوي الحياة وهي تفوق البلبل المشهور بمراتب حتى كأنها رئيس حلقةِ ذكرٍ جهري تهيّج جذبات المستمعين وتُنطقهم كلٌّ بلسانه.

وأفضل جميع الأنواع واشرف عندليبها وأنورها وأبهرها واعظمها واكرمها واعلاها صوتاً واجلاها نعتاً واتمّها ذكراً وأعمّها شكراً، عندليبُ نوعِ البشر في بُستان الكائنات، حتى صار بلطيفات سجعاته بلبلَ جميع الموجودات في الأرض والسمٰوات.

عليه وعلى آله وأمثاله أفضل الصلوات واجمل التسليمات. آمين.

اعلم![٢] انه يُفهم من كمال ذكاوة الحيوان وقتَ خروجه الى الدنيا ومهارته في العلم العملي المتعلق بحياته، ان ارساله الى الدنيا للتعمّل لا للتكمل بالتعلّم.

ويُفهم من كمال جهالة الانسان وعجزه وقت اخراجه الى الدنيا واحتياجه الى التعلّم في كل مطالبه وفي جميع عمره اَن ارساله الى الدنيا للتكمّل بالتعلّم والتعبّد لا للتعمّل. وما عمله المطلوب؛ الاّ تنظيمُ أعمال ما سخّره الله له من النباتات والحيوانات والاستفادة من نواميس الرحمة.. والاّ الدعاءُ والالتجاء والسؤال والتضرع والتعبّد لمن سخّر له مع نهاية ضعفه وعجزه وغاية فقره واحتياجه هذه الموجودات. وما علمُه المقبول الاّ معرفةُ مَن كرّمه وسخّر له وجهّزه للعبادة والسعادة بتعلّم حكمة الكائنات بوجهٍ يُنتج معرفةَ خالقها باسمائه، وصفاته وجلاله وجماله وكماله. وغيرُ هذا الوجه اما مالا يعنينات أو ضلالات.

(١) سرد سرداً الحديث أو القراءة: أجاد في سياقها.

(٢) الكلمة الثالثة والعشرون توضح هذه المسألة.

اللهم اجعلنا لك عبيداً في كل مقام قائمين بعبوديتك متضرّعين لألوهيتك مشغولين بمعرفتك.

اعلم! ان الخالق الحكيم، لإمتناع العجز عليه، ولكمال جُوده، يخلق الذرة كما يخلق الشمس، ويعطي لها الوجود مثلها.

فكما يخلق الذرة مع الشمس كذلك يخلق أصغر النبات كأكبر الشجر. وكما يخلق المَلَك المسخّر على الشمس مع المَلَك المسخّر على القطرة، كذلك يخلق أصغر الحوينات كأكبر الحيوان، فيستعبده مثلَه، ويوجد الفردَ الواحد بأحسن وجه، كما يوجد مجموع الأفراد الغير المحدودة.

ولكل من الموجودات صغيراً وكبيراً قليلاً وكثيراً وظيفة لائقة.. وحكمة مناسبة وغاية حسنة.. من خزينة رحمة مَن: **﴿انّمَا أَمْرُهُ اذا أرادَ شَيْئاً اَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ۞ فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِ شَيْءٍ وَاليه تُرجَعُون﴾**.(١)

[١٦] **اعلم!**(٢) أيها المسلم ان لك في تطبيق عملك العرفي ومعاملتك العادية على الأصول الشرعية.. خزينةً أخروية واكسيراً كبيراً. يصير به كلُّ عمرك عملاً، وكلُّ عاداتك المباحة عبادةً، وغفلتُك بمشاغلك حضوراً.

مثلاً: اذا بعتَ أو اشتريت شيئاً وعملت بما يقوله الشرع في تلك المعاملة فتخطرتَ حُكمه في الايجاب والقبول، صار لك نوع حضورٍ وعبادةً واطاعة وعملاً أخروياً، فقِس واغتنم.

طوبى لمن نوّر حركاته بالآداب الشرعية. فيا سعادة مَن وفّقه الله لإتباع السنّة في أعماله ومعاملاته حتى أورث عمره الفاني أثماراً باقية.. ويا خسارة من خذَلَه الله باتباعِ الهوى فاتخذ الهه هواه حتى صار عمره هواءً وعمله هباءً.

اللهم وفّقنا لمرضاتك والعمل بكتابك وسنة نبيّك. آمين.

---

(١) يس: (٨٢ – ٨٣)

(٢) النكتة الاولى من اللمعة الحادية عشرة تفصّل هذه المسألة.

اعلم(١) انه كما ان من الانسان مَن هم رُعاة، ولهم نظارةٌ على تنظيم حركات قسمٍ من الحيوانات، ونوع محافظةٍ له.

وكذا منهم زرّاع لهم نظارة على تنظيم زرعِ قسمٍ من الحبوبات، ونوع ترتيب له.

كذلك ان من الملائكة مَن هو راعٍ بنوع من الحيوان في مرعى وجه الأرض. لكن ليس كالأنسان بل نظارتُه ورَعْيُه بمحض حساب الله وباسمه وبحوله وبأمره، بل نظارتُه هي:

مشاهدتُه لتجليات الربوبية في ذلك النوع.. ومطالعته لجلوات القدرة والرحمة فيه.. وإلهام الأوامر الالهية لها لأفعال ذلك النوع الاختيارية.

ومنهم من له نظارة على نشر نوع من النباتات في مزرعة الأرض باذن الله وبأمره وبإسمه وبحوله. بل نظارتُه لها:

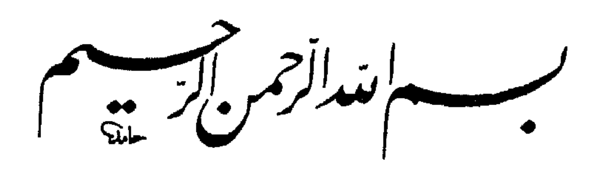
تمثيلُ تسبيحاتها وتحيّاتِها لفاطرها، واعلانها، مع نوع تنظيم وحماية بحسنِ استعمال الجهازات الموهوبة لها.

فهذه الخدمة، بنوع كسب، بدون تصرّف حقيقي (اذ في كل شئ سكّةٌ خاصّةٌ بخالق كل الاشياء ليس لغيره فيها مجال) عبوديةٌ وعباداتٌ لهم، لا عادات كالانسان. فحضرةُ ميكائيل عليه السلام الذي هو من حَمَلة عرش الرزاقية له عبوديةٌ بنظارةٍ على جنس النباتات في مزرعة الأرض، وتحتَه نظّار على نوعٍ نوعٍ بقوة الله وبحَوله وبأمره وبإسمه، وهكذا نُظّار الحيوانات.

فان شئتَ درك هذا المعنى فانظر الى الأرض كيف صيّرها الفاطر الحكيم مزرعةً واسعة ومرعىً عظيماً للنباتات والحيوانات.. ثم انظر الى انواع النباتات المنشورة بانتظام عجيب في توزيع بذوراتها في الأطراف بتقسيم غريب بحكمة فاطرها القدير العليم.. والى انواع الحيوانات المنشورة بطرز غريب بتقسيم عجيب وهي تسرح في مرعى الأرض في حسن انتظامٍ بعناية خالقها الحكيم الكريم جل جلاله وعمّ نواله ولا اله الا هو.

* * *

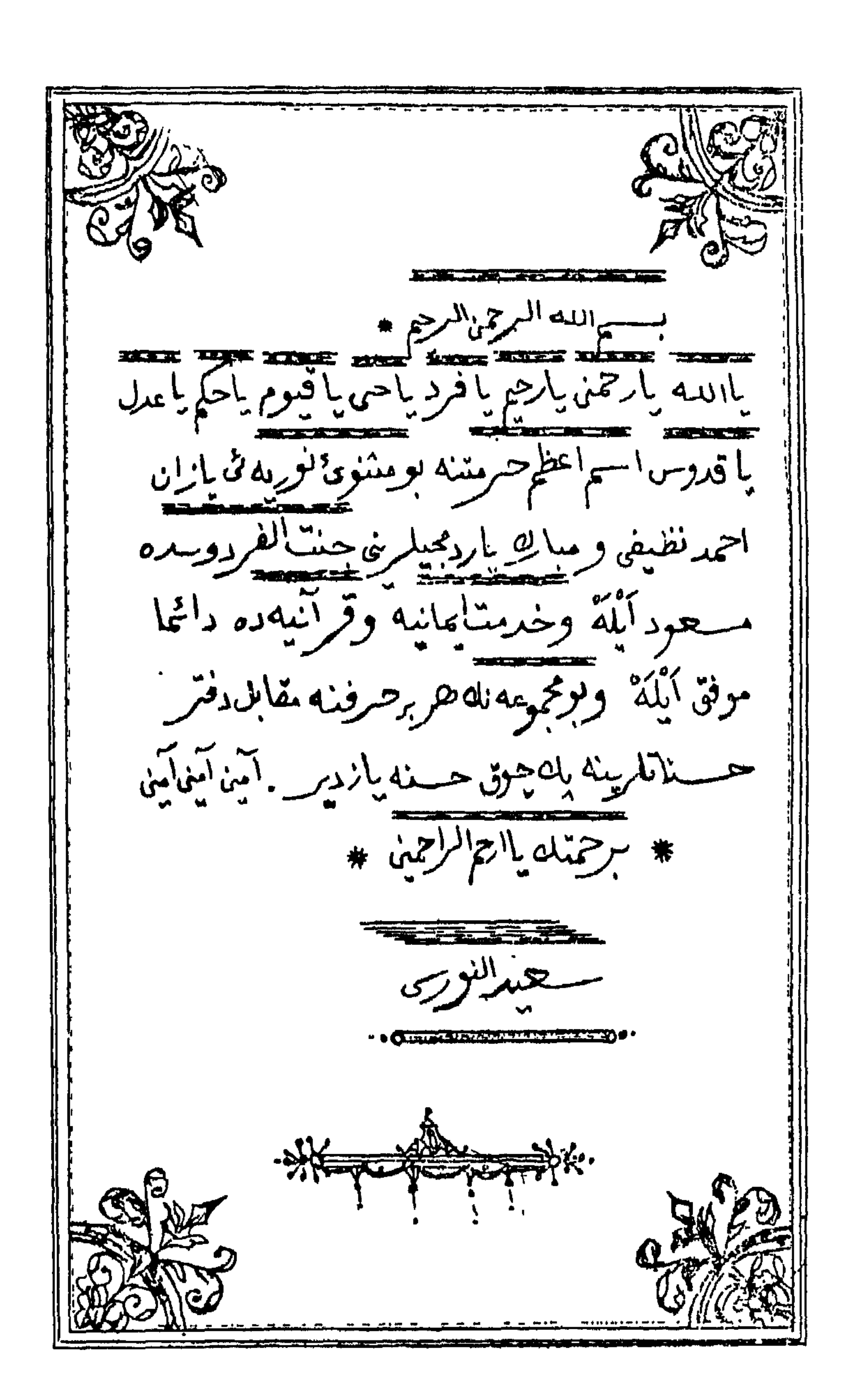
(١) تراجع الكلمة الرابعة والعشرين – الغصن الرابع.



يا الله يا رحمٰن يا رحيم يا فرد يا حيّ يا قيوم يا حكم يا عدل يا قدوس بحرمة الاسم الاعظم اسكن طلبة النور الذين قاموا بطبع هذا المثنوي النوري في فردوس جنتك وأسعدهم فيها ووفقهم دائماً في خدمة الايمان والقرآن، واكتب اللهم في سجل حسنات كلٍ منهم حسناتٍ كثيرة مقابل كل حرف من حروف هذه المجموعة.

آمين. آمين. آمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

سعيد النورسي



بسم الله الرحمن الرحيم

يا الله يا رحمن يا رحيم يا فرد يا حي يا قيوم يا حكم يا عدل
يا قدوس اسم اعظم حرمتنه بو مثنوي نوريه ني يازان
احمد نظيفي و مبارك يارديمجيلريني جنت الفردوسده
مسعود ايله وخدمت ايمانيه وقرآنيه ده دائما
موفق ايله وبو مجموعه نك هر بر حرفنه مقابل دفتر
حسناتلرينه بيك چوق حسنه يازدير. آمين آمين آمين
برحمتك يا ارحم الراحمين

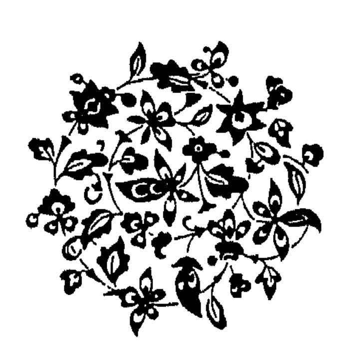
سعيد النورسي

الصفحة الاخيرة من المخطوط وفيها دعاء الاستاذ النورسي بخط يده

الفهارس



فهرس الموضوعات



فهرس الآيات الكريمة

فهرس الأحاديث النبوية والآثار



فهرس تحليلي للموضوعات

ب

ت

خ

د

ذ

ع





ك

ل

م


ي

فهرس الاعلام

فهرس الجماعات والقبائل والامم

فهرس الاشعار والحكم والامثال والقواعد

فهرس الاشعار

فهرس الحكم والامثال والقواعد

فهرس الاماكن والمواقع

فهرس النباتات والحيوانات

فهرس اسماء النباتات

فهرس اسماء الحيوانات

فهرس العناصر والاجرام السماوية

فهرس العناصر

فهرس الاجرام السماوية

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٩٢٧٨٥١

